موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

تفسير القران الكريم

من سورة الحجرات حتى سورة الواقعة

التفسير المطول - سورة الحجرات 049 - الدرس (1-6): تفسيرالآيات 1-5، الأدب مع الله و رسوله
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-04-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الأول من سورة الحجرات.

الآداب التي ينبغي أن يتحلّى بها المؤمن:

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

كلكم يعلم أيها الأخوة أن في الإسلام عقائدَ، وأن فيه عباداتٍ، وأن فيه معاملاتٍ، وأن فيه آداباً، فهذه السورة الكريمة فيها جانبٌ من الآداب التي ينبغي أن يتحلّى بها المؤمن تجاه خالقه، وتجاه رسوله، وإخوانه المؤمنين، لكن الآية الأولى لها أهميّةٌ كُبرى لأنها متعلِقةٌ بالعقيدة، أنت حينما تتعرّف إلى الله عزّ وجل من خلال الكون، تطلع على جانبٍ من عظمة الله عزّ وجل، وتعرف علمه وحكمته، ورحمته وعدله، وتعرف الله عزّ وجل وتعرف أن هذا كلامه لا يمكن أن يخطر في بالك أن تتناول هذا الكلام بالمناقشة، أو بالموازنة، فهذا كلام الله عزّ وجل، يمكن أن تعمل عقلك فيه لتكشف جوانب عظمته، أما أن تمتحنه، وتقدِّم البديل، وتناقشه، وتوازن بين ميزاته وبين مضاعفات تطبيقه فهذا دليل عدم الإيمان.

لا يعرف الله من اعتقد أن هناك حلاً لمشكلة ما خلاف حلّ القرآن الكريم:

لذلك بدأت هذه السورة بالأدب مع الله عزّ وجل، حينما تفكِّر أن لديك حلاً لمشكلةٍ خلاف حلِّ القرآن الكريم فأنت لا تعرف الله، وحينما تفكِّر أن تقول: هذه القضية التي طرحها الدين هل تصلح لنا أو لا تصلح ؟ فأنت لا تعرف الله عزّ وجل، وحينما ترى أن حلاً أرضياً نجح في حلّ مشكلةٍ لم ينجح الإسلام في حلّها إذاً أنت لا تعرف الله عزّ وجل، فعليك ألاّ تقدِّم اقتراحاً، ولا بديلاً، ولا شيئاً، ولا نظاماً، ولا منهجاً يخالف منهج الله عزّ وجل، فتصوّر إنسانًا أُمّياً عنده مرض قلب ثم جاء طبيب القلب، فقال له: إيّاك أن تتحرّك، بل إياك أن تتكلّم، فقال له هذا الضيف: لا، امش فالمشي مفيد، فهذا الذي قدّم اقتراحاً وهو جاهلٌ في حضرة طبيب قلبٍ وهو لامعٌ هو إنسان فضلاً عن أنه ارتكب خطأً فقد ارتكب وقاحة حينما أدلى برأيٍ مخالف لرأي الطبيب المختص، المشي مفيد ولكن لغير هذا المريض، فهذا المريض لو تكلّم كلماتٍ فيهن جهدٌ لتوقّف قلبه، ولذلك لابدّ له من عنايةٍ مشدّدة.

من خالف منهج القرآن الكريم فقد قدّم بين يدي الله و رسوله:

تصور إنسانًا يدخل على طبيب مثلاً فيقول له: سآخذ الدواء الفلاني والفلاني، وسأعمل، يقول له الطبيب: لماذا أنت عندي ؟ ما دمت تقدِّم اقتراحاتٍ وأدويةً لمرضك فلماذا أنت عندي ؟ أي لمجرّد أن تعتقد أن هناك حلاً أرضياً وضعياً لمشكلةٍ خلاف حلّ الإسلام لها فقد قدّمت بين يدي الله ورسوله، وإذا فكّرت في طريقةٍ مخالفةٍ لمنهج القرآن الكريم فقد قدّمت بين يدي الله ورسوله وإذا رأيت أن نظاماً يجب أن نستورده ليحلّ مشكلاتنا وعندنا كتاب الله يُتلى بيننا وهو منهج الله لنا، وحينما تستقدم هذا النظام كي يَحُلّ مشكلاتنا، فأنت ماذا فعلت ؟ إنك قدّمت بين يدي الله ورسوله، أي أنك قدّمت البديل، فمن أنت إذا قيست خبراتك وعلمك بعلم الله عزّ وجل ؟ فالنبي عليه الصلاة والسلام يتلقّى عن ربّه، فإذا قدّمت أمام النبي اقتراحاً فأنت حكماً تقدِّمه أمام الله عزّ وجل، وإذا أمسكت بحكمٍ شرعي وقلّبته فهل يصلح أو لا يصلح؟ وهل هو معقول أم غير معقول ؟ أنت حينما تفعل هذا قدّمت بين يدي الله ورسوله.

كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

الآية الأولى في هذه السورة وإن كانت منتمية إلى الآداب التي يجب أن تتأدّب بها تجاه الله أولا ً، وتجاه رسول الله صلى الله عليه وسلّم ثانياً إلا أن هذه الآية متعلِّقةٌ بالعقيدة، وفرقٌ كبير لو أنك وقفت أمام مئة ألف كتابٍ كلها في كفّة وكلام الله في كفّة، فكلام الله وحيٌ من عند الله، وكلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو حقّ صرف ليس فيه باطل، ولا فيه اختلاف، ولا ضعف، فالمشكلة أن الإنسان يلاحظ نفسه، أنا يمكن أن آتي بآية قرآنية ؟ بحكم شرعي ؟ وأرى أنه لا يصلح للتطبيق الآن.

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

قد تفكر في استثمار المال بربح ثابتٍ على شكل الربا ؟ يا أخي هذا الشيء عملي وأريح، أنا أشعر أنّ أناساً كثيرون يرون في المناهج الوضعية البعيدة عن الدين مناهج صالحة للحياة، فمن هنا كانت هذه الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

هذه الآية تدعمها آيةٌ أخرى وهي:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: آية " 36 ")

العاقل من لا يكون له رأي مع القرآن الكريم:

مرّة سألوا طبيبة: ما رأيكِ في تعدُّدِ الزوجات ؟ أجابت إجابةً قالت: هل يُعقَلُ أن يكون لي رأيٌ في هذا الموضوع وقد أباحه الله عزّ وجل ؟ والله إجابة رائعة، وهل يعقل أن يكون لي رأي مع القرآن الكريم ؟ هذا هو الإيمان، الله عزّ وجل حكم في هذا الموضوع، قال:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

فإذا أردت أن تقول: هذا الشيء غير واقعي، فالحياة تطوّرت، ولابدّ من استثمار الأموال بفائدةٍ ثابتة، ولابدّ من تحريك الأعمال يا أخي، فإذا انطلقت هذا المنطلق فقد قدّمت بين يدي الله ورسوله وأنت لا تشعر، فإذا منع الإسلام الاختلاط وأنت رأيت في الاختلاط حلاً لمشكلاتٍ كثيرة، فيمكن أن نوفِّر في شراء المساكن، إذا كانت كل خمس أو ست أسر في بيت واحد، كل شاب وزوجته في غرفة، مع أن الله سبحانه وتعالى جعل زوجة الأخ أجنبية لا يجوز النظر إليها، فإذا أنت اقترحت اقتراحاً يخالف منهج الله عزّ وجل إذاً أنت نظرت من زاويةٍ واحدة.

الإنسان عندما يشرّع فإنه يشرّع من زاوية واحدة:

نحضر لكم أمثلة كثيرة: في بعض البلاد طبّقوا مبدأ أن الزوج إذا طلّق زوجته تأخذ نصف أملاكه قطعاً، قال لي أحدهم: بارت سوق الزواج في هذا البلد، فصار الأب الحريص على تزويج ابنته يعرض سند أمانةٍ بمبلغٍ فلكي يقدِّمه للخاطب، فيما لو طالبناك بنصف أموالك عند الطلاق طالبنا بهذا الثمن. في بلاد الصين صدر قانون قبل سنواتٍ عدّة يلزم الأبوين بإنجاب ولدٍ واحد، فكان بعض أهل الصين إن جاءتهم بنتٌ يخنقونها، وإن جاءهم غلامٌ سجّلوه في السجلاّت الرسمية، وكان بعضهم أكثر رأفةً فكان يفحص امرأته بالأجهزة الحديثة عن طريق السائل الأمينوسي فإذا كان الحمل أنثى أجهضها وإذا كان ذكراً أبقاه (أنا أتابع هذا الموضوع على صفحات الجرائد)، وآخر خبر في عام ألفين هناك خمسون مليون عازب لا يقابل هؤلاء الفتيات، وقبل هذا الخبر خبر نشرته صحيفة دمشقية يومية يقول: إن هناك عصاباتٍ في الصين تخطف الفتيات في سنّ الزواج، لأنه حينما أصرّت الأسرة على أن يكون الولد الوحيد ذكراً، فكل واحد حلّ مشكلته الخاصّة أما في المجموع ظهرت مجتمعاتٌ ليس فيها نساء.

التشريع الأرضي يخدم مصالح المشرّع لكن التشريع السماوي يضمن سعادة الدنيا والآخرة:

حينما قلنا: الإنسان حر ينبغي له أن يفعل ما يشاء ! فإلى أين وصلنا ؟ إلى الإباحية، وإلى تبادل الزوجات، وإلى زنا المحارم، وإلى الشذوذ، وإلى مرض الإيدز، فالإنسان عندما يشرّع فإنه يشرّع من زاوية واحدة، ولكن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليسعده في الآخرة، وهو بنظره القاصر ينظر إلى الدنيا فقط، ولكن الشرع يضمن له سعادة الدنيا والآخرة، والإنسان إذا شرّع فعلمه محدود، قد يلبي حاجة على حساب حاجاتٍ، فلذلك ما من تشريع أرضي إلا ويظهر بعد حين خلله الخطير، يُعدّل، ثم يعدّل، ثم يعدّل، ثم يُلْغَى، وهكذا نحن في دوّامة، تعديلٌ، وتعديلٌ، وتعديلٌ ثم تجميدٌ ثم إلغاء، لأنه لا يمكن للإنسان أن يكون مشرّعاً، فإن ملك العلم فلا يملك تحيّيد الهوى، وفي الأعمّ الأغلب أن الإنسان إذا شرّع وجّه النصوص لصالحه، فدائماً التشريع الأرضي يخدم مصالح المشرّع، فإذا ملك العلم ملكته نفسه، وملكته غرائزه، وإذا كان موضوعياً كان علمه قاصراً، وإذا كان علمه واسعاً نظر إلى الدنيا ولم ينظر إلى الآخرة، وهذا الخلل يعانيه العالم اليوم.

أي تشريع لا ينطلق من منهج الله عزّ وجل هو تشريع باطل:

مثلاً: نحن نراعي قوانين العرض والطلب في الاقتصاد، وهذا شيء جميل، ولذلك تمّ إعدام عشرين مليون رأس غنم في استراليا، بإطلاق الرصاص عليها ودُفِنت حفاظاً على سعرها المرتفع، هذا هو التشريع الأرضي، ومن أجل أن نحافظ على أسعار الحمضيات يُتلف محصول عامٍ بأكمله في أمريكا، فإذا تسلّل الزنوج الفقراء لأكل بعض حبّات البرتقال، سمّموه في العام القادم، والحديث عن إتلاف المواد الغذائية يطول، إنهم وحوش، فالإنسان إذا شرّع فعلمه قاصر، ونظرته وزاويته محدودتان، وفوق هذا كله شهوته تتحكّم فيه، فالإنسان لا ينبغي له أن يفكر في حلٍّ لقضية خلافَ حلّ القرآن الكريم. و أحياناً يذهب إنسان إلى بلد ليعمل، إن لم يكن دخله برقم عالٍ جداً لا يسمح له بإحضار زوجته، فإنسان يعيش سنتين أو ثلاثة أو خمسة بلا زوجة، وزوجة بلا زوج ؟ وهذا خِلاف النظام الإلهي، قد يحصل فساد من قِبَلِها ومن قِبَلِه، فأي تشريع لا ينطلق من منهج الله عزّ وجل هو تقديمٌ بين يدي الله ورسوله، فلا تقدِّم بديلاً، ولا اقتراحاً، ولا منهجاً، ولا تتناول منهج الله عزّ وجل بالمناقشة، أي بالتقليب، بالمدارسة على أنه يصلح أو لا يصلح ؟ واقعي أو غير واقعي ؟ فمعنى ذلك أنك لا تعرف الله عزّ وجل.

أفضل نظامٍ للبشرية النظام الذي يعتمد على كتاب الله:

الصحابة الكرام كانوا في أعلى درجات الأدب، فالحُباب بن المنذر رضي الله عنه لمّا رأى موقع المسلمين في بدر ليس موقعاً جيداً توجّه إلى النبي عليه الصلاة والسلام (دقِقوا فيما سيقول) قال: **" يا رسول الله أهذا الموقع وحيٌ أوحاه الله إليك ؟** أي لو أنه وحيٌ أوحاه الله إليه لا يمكن أن ينطق بكلمة، ولا يمكن أن ينبس ببنت شفة.. **أم هو الرأي والمكيدة ؟ "** فلّما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((بل هو الرأي والمكيدة"))

قال: **يا نبي الله ليس بموقع. "** متى قدّم اقتراحاً ؟ حينما تأكّد أن هذا الموقع ليس وحياً من الله عزّ وجل.

فالمؤمن حينما يشعر أن هذا الكلام وحي الله عزّ وجل، فهذا هو الحل ولا حلّ سواه، وهذا هو المنقذ للبشرية مما هي فيه من آلام.. فإنسان يؤلِف كتاباً اسمه**" الإنسان ذلك المجهول "**، إنسان غير مسلم عاش في بلاد الغرب، ويكتشف بالملاحظة الدقيقة، وبالتأمّل والدرس والبحث أن أفضل نظامٍ للبشرية أن يقصر الرجل طرفه على زوجةٍ واحدة، هذا هو الإسلام، غض البصر، ما دام هناك إطلاق بصر تولّدت الشهوات، وما دام الاختلاط موجودا فهناك من يشتهي امرأة غيره، وأكثر الاختلاط والحفلات المختلطة من أجل أن يمتِع الإنسان نظره بغير زوجته، فماذا يحدث بعد انتهاء الاحتفال ؟ تتفاقم الهوّة بين الزوجين، فتنشأ البغضاء بينهما، وإنْ بقي هذا الزواج قائماً فإنه فقد السعادة الزوجية، فنحن نؤمن أن هذا القرآن كلام الله، وإعجازه دليل أنه كلام الله، فإذا ثبت لديك أن هذا التوجيه من عند الله، وأن هذا الحكم حكم الله، انتهى الأمر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

ليس للإنسان أن يبحث إلا عن وجوه إعجاز و حكمة القرآن الكريم:

قد يقول أحدهم: نحن نعطِل عقولنا ؟ لا، تناول الآية الكريمة بالبحث والدرس لمعرفة وجه إعجازها، ولمعرفة الفوائد التي لا تُحصى من تطبيقها، فيمكنك أن تتناول القرآن والسنة لا بنية أن تكشف الخطأ والصواب، وأنها واقعية أو غير واقعية، لا، بل بنية أن تعرف ما تنطوي عليه هذه الآية من إعجازٍ في نظمها وفي تشريعها وفي الأمر والنهي، فأنت ليس لك في كتاب الله إلا أن تبحث وجوه إعجازه، وأن تبحث عن حكمته، موقنًا أنها حكمة ما بعدها حكمة، وفيه علمٌ ما بعده علم، وكذلك ما فيه من رحمةٍ، ومصلحةٌ لهذا الإنسان، هذا هو إيمانك، فإذا أردت أن تقرأ القرآن وأن تُعمِلَ عقلك فيه، وأن تتدبّره، وأن تفهمه فمن أجل مزيدٍ من كشف الحكمة والعلم والإعجاز في القرآن الكريم.

فحينما تقدِّم بديلاً، أو اقتراحاً، أو شيئاً مخالفاً للكتاب والسنة، أو حلاً لمشكلةٍ لم يحلّها القرآن بهذه الطريقة، حينما تفكِّر أن تفعل هذا فقد وقعت في خطأين كبيرين: الخطأ العقدي الموضوعي، والاجتراء على الله عزّ وجل.

الأحمق من يجرؤ على تقديم اقتراح أو بديل أمام الله أو رسوله:

الإنسان أحياناً يخجل أمام دكتور في الآداب أن يتكلّم باللغة، فهذا شيء مقبول، وواقع، أحياناً تكون جلسة فيها إنسان في أعلى مستوى في الأدب، أو في اللغة، وأعلى مستوى في أصول الفقه، وفي علم العقيدة، وفي الحديث، وعالم أحاديث، فالحاضرون يتهيّبون لعلمهم الغزير من الحديث في موضوع اختصاصهم، لو فرضنا إنسانًا على أعلى مستوى من العلم باختصاص معين، وإنساناً يحمل ابتدائية وبدأ يتكلّم في الاختصاص نفسه، طبعاً سيتكلّم غلطًا ولكن فضلاً عن أنه سيتكلّم خطأً فهو بهذا الكلام اجترأ على مقام هذا العالم، فهذا مع إنسان لا تجرؤ أن تقول كلمة في موضوعٍ في حضرة من كان متفوقاً فيه، أليس كذلك ؟ في حياتنا الاجتماعية العلمية، في الجامعة، وفي أعمالنا إذا وجد إنسان يحمل أعلى شهادة في اختصاصه وأنت تحمل شهادة ابتدائية أو كفاءة هل لك أن تدلي برأيك في موضوع اختصاصه، وأنت تتحدّث بطلاقة ؟ هذا مستحيل، أنت مع إنسان لا تجرؤ أن تقول كلاماً في اختصاصه وهو في أعلى درجة من العلم، فكيف تجرؤ على أن تدلي ببديلٍ أو اقتراحٍ أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وحينما تقدِّم اقتراحاً أمام النبي عليه الصلاة والسلام فأنت في الحقيقة تقدِّم اقتراحاً أمام الله عزّ وجل، فمن أنت؟

القرآن الكريم معجزة مستمرة إلى يوم القيامة:

ويا إخوتنا الكرام: ما من تقدّمٍ علمي على مستوى البشر في بقاع الأرض كلها إلا ويكشف جانباً من عظمة هذا الكتاب، إنه معجزةٌ مستمرّةٌ إلى يوم القيامة، وكلّما تقدّم العلم كشف جانباً من هذه المعجزة، ولعلّ في أسباب نزول هذه الآية تحديداً لها وتضييقاً لمفهومها، فالعبرة لا في خصوص السبب بل في عموم المعنى.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

فمنهج الله هو الأكمل، والأصوب، والأصح، والمنقِذ لما نحن فيه من مشكلات، فلذلك في كل قضية اسأل: ما حكم الشرع فيها ؟ وإيّاك أن تحيد عن حكم الشرع لأنك لابدّ من أن تدفع الثمن باهظاً، ولابدّ من أن تحيد عن حكم الشرع. ففي أول عامٍ خطبت في هذا المسجد وهو عام ألفٍ وتسعمئة وأربعة

وسبعين قبل التوسعة، انتحى بي رجلٌ بعد الخطبة ناحيةً وأسرّ لي: أن امرأته تخونه وبدأ يبكي، فسألته: مع من ؟ قال: مع الجار، قلت له: وكيف تعرّف هذا الجار على امرأتك ؟ قال: والله مرّةً زارنا في بيتنا، وأنا قلت لزوجتي: يا أم فلان تعالي إلينا هو كأخيكِ، من هنا بدأت المشكلة.. فالله عزّ وجل أمرنا بغضّ البصر، ونهانا عن الاختلاط، فجهله قاده إلى ما آل إليه، وعنده خمسة أولادٍ منها.

ما من مشكلةٍ على وجه الأرض إلا وراءها مخالفة لمنهج الله:

ما من مشكلةٍ على وجه الأرض إلا وراءها مخالفة لمنهج الله، هذا كلام قطعي، وكلام أكيد وصحيح، ما من مشكلةٍ إلا وراءها مخالفة لمنهج الله، حتى لو انتقلت إلى المجتمعات الغربية تجد أن كل المشكلات الطاحنة التي تسحق المجتمع وراءها مخالفة لمنهج الله عزّ وجل، وما من مخالفةٍ لمنهج الله عزّ وجل إلا بسبب الجهل، فالعلم هو الأول، فإذا أردت النجاة فعليك بالعلم، وإذا أردت سعادة الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت سعادة الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردت الدنيا والآخرة فعليك بالعلم، لأن الله عزّ وجل له قوانين وله سنن إذا عرفتها سلكت السبيل الصحيح.

على الإنسان أن يتحرك في حياته وفق منهج الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

البديل.

(وَاتَّقُوا اللَّهَ)

أنت ما عليك إذا عرفت أن هذا حكم الله إلا أن تبادر إلى تطبيقه فقط، وما عليك إذا ثبت لديك أن هذا هو حكم الله، هذه القضية حرام دعها فوراً، وهذه حلال افعلها إذا شئت، واجب بادر إلى فعلها، أمر، فرض عليك أن تفعلها، القضية عند المؤمن، في كل قضيةٍ في حياته ؛ وزواجه، وطعامه وشرابه وعمله، وأفراحه وأتراحه، وفي نزهاته يتحرّك وفق منهج الله عزّ وجل، ووفق الأمر والنهي، فهذا الذي أراده الله من هذه الآية، وهذا بعض ما يُفْهَم منها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ)

عليك بطاعة الله.

إن تكلم الإنسان أو سكت فالله يعلم ما هو عليه:

(إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

ما الفرق بين سميعٍ وبين عليم، قال: إن تكلّمت، وقدّمت اقتراحاً، وطرحت بديلاً، فكّرت في طريق آخر، فإن تكلّمت فالله سميع، وإن سكت وقلت: هذا الأمر لا يصلح لهذا الزمان، فالله يعلم ما أنت عليه، إذن يعلم الله ما تقوله وما أنت عليه، إذن لا تقدِّم، وبادر إلى الطاعة، واعلم أنك مراقب في تكلُّمك وفي صمتك، فلا تقدِّم مقترحات بدائل، ولا تفكِّر في اتجاه خلاف اتجاه القرآن الكريم، بل أحص الذين إذا أرادوا أن ينظِّموا، أو يشرّعوا، أو يضعوا حلولاً لمشكلات البشر، فكِّر مثلاً: هناك انفجار سكّاني في العالم كما يقولون، شيء جميل، فما الحل ؟ الحل في نظر أهل الدنيا. عُقِد مؤتمر للسكان في القاهرة. فالحل: أن نؤخِّر سنّ الزواج إلى الخامسة والثلاثين، ماذا يفعل الشاب حتى هذا السن ؟ يجب أن يمارس هذه الحاجة التي أودعها الله فيه خارج الزواج، بالزنا، أو الشذوذ بين ذكرين أو أنثيين، هذا الحل عندهم، وإذا حملت المرأة خطأً فمصيره الإجهاض، الحل أن نقيم كيانًا ليس بين زوج وزوجة بل بين شابّين، أو فتاتين، أو بين رجل وامرأة، دول تجتمع من أجل أن تقرِّر أن الحل هو الزنا، واللواط، والسِحاق، وتأخير الزواج، والحل هو الإجهاض، فأين منهج الله عزّ وجل ؟ والمؤتمر عُقِد في بلد إسلامي، هذا هو التقديم.

من وضع حلاً يخالف قواعد الشرع قضى على المجتمع بأكمله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

فهل نضع حلاً يخالف قواعد الشرع ؟ هذا حل وليس حلاً لهذه المشكلة، بل هو حل للمجتمع، المجتمع يُحلُّ بهذا الحل وينتهي الأمر، فيروون قصّة رمزية تعبّر عن المجتمع الغربي: إن شاباً أراد الزواج من فتاة فسأل أباه ؟ فقال له: لا يا بني إنها أختك وأمك لا تدري، الفتاة الثانية أيضاً قال له مثل قوله الأول، والثالثة قال له كذلك، فلمّا ضجر من أبيه ذهب إلى أمِّه وقال لها: ما القصّة ؟ قالت: خذ أيّاً شئت فأنت لست ابنه وهو لا يدري.

إذا أردنا أن نبتعد عن منهج الله فهذه هي النتائج، ومهما تكلّمت عن فساد العالم الغربي، وعن الانحلال.. مرّة أُجريت ندوة في التلفزيون الأمريكي حول الزنا، أو العلاقة غير المشروعة، فجاءت هواتف من عدد كبير يُثْبت أن ثلث حالات الزنا في أمريكا زنا محارم، بين الأخ وأخته، والأب وابنته، والأم وابنها، الثلث، هذا المجتمع الغربي، هذا مجتمع من غير منهج. فالخطر أن نتحرّك بهذا الاتجاه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

من أحلّ الحرام أو حرّم الحلال وقع في الشِركِ وهو لا يدري:

كلّما قلّدنا الغربيين في علاقاتهم، ونظمهم، وقيمهم، واستوردنا منهم الحلول، وكلّما قلّدناهم في علاقاتهم، وفي أفراحهم وفي أتراحهم انتقلت أمراضهم إلينا، توجد عندنا سلسلة رياضية حسابية، وسلسلة هندسية وهل توجد سلسة ثالثة ؟ نعم هناك ثالثة وهي سلسلة انفجارية، فأحياناً تنتقل الأمراض بشكلٍ مخيف ؛ فأمراضنا الاجتماعية، وتفكّك الأسرة، وحلول السِفاح محل النِكاح، والخيانة الزوجية تنتشر، إله يُشَرّع أيُعقَلُ لهذا الإنسان أن يشرّع مع الله ؟

وبالمناسبة: من أحلّ الحرام أو حرّم الحلال وقع في الشِركِ وهو لا يدري، أيُّ شركٍ هذا ؟ أشرك نفسه مع الله في التشريع، فيكفي أن تقول: هذا الشيء أنا لا أعتقد أنه محرّم، افعله ولا شيء عليك، هذا الكلام شرك، إنه يكفي أن تحلِّل ما حرّمه الله، أو أن تحرّم ما أحلّه الله كي تقع في الشرك وأنت لا تدري.

فنحن أيها الأخوة: يجب أن نحصّن أنفسنا، ونضع التقاليد الغربية تحت أقدامنا، فالعادات، وروح العصر والحداثة هذا كلّه ينتهي بنا إلى أن ينحلّ مجتمعنا كما حُلّت المجتمعات الغربية.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ)

الإسلام أدب و احترام كله:

أنت لك أصدقاء، لك إخوان مؤمنون طيّبون، فالعلاقات كلها مع المؤمنين من طبيعة، والعلاقة مع رسول الله من طبيعةٍ أخرى، هذا ليس ندّاً لك، وليس زميلاً لك، وليس أخاً لك إنه رسول الله.

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ)

(سورة الأحزاب: آية " 40 ")

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ)

أحد الصحابة الكرام وهو زيد الخير أسلم ودعاه النبي إلى بيته، فلمّا دفع إليه وسادةً ليتّكئَ عليها (ما مضى على إسلامه إلا وقت قليل) قال: والله يا رسول الله لا أتَّكِئُ في حضرتك.

إخواننا الكرام: الإسلام كلّه أدب، والذي يعلِّم مأمورٌ أن يتواضع لمن يُعلِّم، والمتعلِّم مأمور أن يكون أديباً مع من يتعلّم منه.

أمر الله عز وجل إلى الصحابة بألا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي الكريم:

(لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ)

ما معنى هذه الكلمة ؟ لا تقل له: يا محمد، قل له: يا رسول الله، قل له: يا نبيّ الله، أما باسمه هكذا: يا محمد.

(كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ)

التواضع و الأدب من صفات المؤمن:

النبي الكريم يقول:

((تواضع لمن تعلِّم وتواضع لمن تتعلّم منه))

والنبي عليه الصلاة والسلام أمره الله فقال له:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215))

(سورة الشعراء)

فالنبي الكريم أُمِرَ أن يخفض جناحه للمؤمنين، والمؤمنون أُمِروا:

(لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ)

هو أُمِرَ أن يتواضع لهم، وهم أُمِروا أن يتأدّبوا معه، وهكذا الحياة الكاملة، الطرف الأول متواضع إلى أقصى درجة، فماذا قال النبي لسيدنا عمر ؟ قال له:

((لا تَنْسَنَا يا أُخَيّ من دُعائك))

[إسناد ضعيف عن عمر بن الخطاب]

في العُمْرَة. فالنبي الكريم يطلب الدعاء من سيدنا عمر.

((لا تَنْسَنَا يا أُخَيّ من دُعائك))

أمرَ الله النبي أن يتواضع مع أصحابه و أمر أصحابه بالأدب معه:

كان عليه الصلاة والسلام مع أصحابه في سفر، فأرادوا أن يعالجوا شاةً فقال أحدهم: عليّ ذبحها، وقال الثاني: عليّ سلخها، وقال الثالث: عليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام:

((وعليّ جمع الحطب))

إنه رسول الله، قمّة المجتمع، فقالوا: نكفيك ذلك يا رسول الله، قال:

((أعلم أنكم تكفونني ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

هو أُمِرَ أن يتواضع لأصحابه.

في (معركة بدر) كانت الرواحل قليلة، والصحابة ثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً.. والنبي وهو قائد الجيش ونبيٌّ هذه الأمّة ورئيس الدولة، أعطى أمراً أن كل ثلاثةٍ على راحلة، وأتبع الأمر وقال:

((وأنا وعليّ وأبو لبابة على راحلة))

أمعقول هذا !! فلمّا ركب النبي عليه الصلاة والسلام وانتهت نوبته في الرُكوب توسّل صاحباه (علي وأبو لبابة) أن يبقى راكباً، فقال عليه الصلاة والسلام:

((ما أنتم بأقوى مني على السير، ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر))

أُمِرَ النبي أن يتواضع وأن يخفض جناحه، والله عزّ وجل أمر أصحابه فقال:

(لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ)

لا تقل له: يا محمد، قل له: يا رسول الله، يا نبي الله.

من عرف قدر النبي الكريم و أخذ كلامه عليه أن يتأدب معه:

(أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ)

السبب، أنك إذا عرفت قدر النبي تأخذ عنه، فكلامه ليس ككلام البشر، بل كلامه وحي.

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم)

أما إن رأيت نفسك ندّاً له، تأخذ منه وتردُّ عليه، فأنت لم تعد طالب علم، فعندئذٍ تأخذ بعض كلامه وتفعل في حياتك اليومية شيئاً آخر ليس منه، وعندئذٍ حَبِط العمل، إن فعلتم ذلك فربّما حبطت أعمالكم.

(أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

من حُجب عن الله تصبح صلاته لا معنى لها:

أحياناً يحضر الإنسان مجلس علم لكنه لا يأخذ كل شيء، بل يأخذ ما يعجبه، وما يرتاح له، وما يمكن تطبيقه، فتجد أن هناك كثيراً من المخالفات في البيت، يقول لك: هذه زوّدها الأستاذ، إذاً لست بطالب علم، بل تنتقي انتقاء، فتختار ما يعجبك وتدع ما لا يعجبك، القصّة أن تأخذ عن الله عزّ وجل، فهذا شرع الله عزّ وجل، وهذا كتاب الله، فإذا رأى الإنسان نفسه يأخذ ويعطي، ولا يوجد تلقٍ كامل بل بعض التلقي عندئذٍ يحبط العمل، فلو فرضنا شخصاً مقيماً على معصية، فإن هذه المعصية حجاب بينه وبين الله، فما دام محجوب فالصلاة ليس لها معنى.

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى)

(سورة النساء: آية " 142 ")

و صار الإنفاق ليس له معنى:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

(سورة التوبة: آية " 53 ")

على الإنسان أن يطبق المنهج الإسلامي بشكل كامل لا جزئي:

فالمنهج لا يؤخذ بعضه، إما أن تأخذه كلّه وإما أن تدَعه كلّه، ولا يصح غير هذا، ولا توجد حالة ثانية، فيجب أن تأخذه كلّه، إذاً:

(لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

و أنت لا تشعر انتقلت درجة درجة إلى أن تقول: هذا الدين لا يصلح لهذه الأيام، فتكون تحرّكت وفق هوى نفسك، فما التزمت، وما كنت حريصاً على طاعة الله عزّ وجل، ولا على معرفة حُكْم الله عزّ وجل.

الأدب دليل العلم:

لذلك الإنسان ينحرف شيئاً فشيئاً إلى أن يبتعد عن أصول الدين، ولكن هؤلاء الذين غَضّوا أصواتهم عند رسول الله.

(إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى)

إخواننا الكرام: هذا الأدب دليل العلم، فلو فرضنا أن زائراً حضر إلى القطر وهو أكبر جرّاح للقلب في العالم، فقد نرى في بهو المطار ألف شخص تقريباً، فمن يقدِّم له أعلى درجات الاحترام ؟ طبيب قلب جاء ليستقبله، إنه يعرف قدره، وقيمته، أما بقية الموجودين في هذه الصالة فلا يعبؤون به إطلاقاً، مرّة دخلت إلى مسجد رأيت رجلاً متقدِّماً في السن، منحني الظهر، قصير القامة، يصلي بثوب عربي، والمرء يظنّه إنسانًا من عامّة الناس، كنت مع صديقٍ لي وأنا في المسجد، فبادرت إلى السلام عليه بأعلى درجات الأدب، فصديقي قال لي: من هذا ؟ قلت: هذا كان عميدنا في الكليّة، فأنا أعرف قدره، ومؤلّفاته، ودروسه، والآن تقاعد، فمن يعرف قدر العالِم ؟ العالِم، فإذا كان طبيب القلب الجرّاح فهل يحترمه إنسان تاجر ؟ لا، إنه لا يعرفه، يقول: من هذا ؟ لا ينظر إليه، أما لو جاء تاجر كبير جداً واستقبله تاجر ثانٍ في المطار إنه كذلك يحترمه احتراماً كبيراً، فالقضية قضية معرفة.

لا تصاحب إلا مؤمناً لأن المؤمن يعرف قيمتك و استقامتك:

(إنّ الّذِينَ يَغُضّونَ أصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ أولَئِكَ الّذِينَ امْتَحَنَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتّقْوَى)

ولذلك فالإنسان ليس له حق أن يخالط أناساً ليسوا على شاكلته، لأنه يقع في حالة إحباط، فأنت مؤمن وعندك قيم ومبادئ، وتقرأ القرآن، وتفهمه، وتدعو إلى الله وتجلس مع غني ليس عنده دين، يقول لك: ما معاشك ؟ لا يعرف ميْزة فيك إلا دخلك، هذا لا يكفيك فكيف تقبله ؟ قد أخذك إلى موضوع ثانٍ، أنت غني بالله، وغني بمعرفة الله، فأخذك من زاوية دخلك فقط، فإذا دخل إلى بيتك يقول لك: هذا البيت كيف يسعك إنه صغير، فكيف تعيش فيه ؟ الأمر يختلف، ولذلك قال: **" من دخل على الأغنياء (طبعاً غير المؤمنين) خرج من عندهم وهو على الله ساخط "** لأنهم يصغّرونه.

((يا عائشة إذا أردت اللحوق بي فليكفكِ من الدنيا كزاد الراكب، ولا تستخلقي ثوباً حتى تسترقعيه، وإياكِ والدخول على الأغنياء))

لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثلما ترى له، فصاحب مؤمنًا:

((لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي))

[أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن حبان، والحاكم، عن أبي سعيد]

تصاحب مؤمناً لأن المؤمن يعرف قيمتك، و يعرف استقامتك، وعلمك، وأخلاقك، وباعك الطويل في طلب العلم وفي تعليم العلم، أما لو صاحبت شخصاً من أهل الدنيا فإن حجمك عنده صغير.

كبار الصحابة لشدّة هيبة النبي الكريم كانوا لا يستطيعون أن ينظروا إليه:

فهنا:

(إنّ الّذِينَ يَغُضّونَ أصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ)

هؤلاء المتأدّبون مع رسول الله، وهؤلاء الذين كأن على رؤوسهم الطير أمام رسول الله، ولا يستطيعون أن يملِكوا نظرهم به، ما وصفه كبار الصحابة، بل الذين وصفوه ليسوا من كبار الصحابة، لأن كبار الصحابة لشدّة هيبته كانوا لا يستطيعون أن ينظروا إليه.

(إنّ الّذِينَ يَغُضّونَ أصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ أولَئِكَ الّذِينَ امْتَحَنَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتّقْوَى)

أربعة أخماس الدين أدب ؛ أدب مع الله و رسوله و المؤمنين:

إخواننا الكرام:أربعة أخماس الدين أدب ؛ أدب مع الله، وأدبٌ مع رسوله، ومع إخوانك المؤمنين، ومع من تُعَلِّم، ومن تتعلّم منهم، فالإسلام كلّه آداب، أدبٌ وأنت تأكل، وأدبٌ وأنت تمشي في الطريق، وفي لهوك، وفرحك، ومع أهلك، الدين كلّه آداب، أدبٌ في مجالس العلم، وفي طلبه، وتعليمه.

(إنّ الّذِينَ يَغُضّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ أولَئِكَ الّذِينَ امْتَحَنَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

أما هؤلاء الذين جاءوا من وراء الحجرات وقالوا: يا محمد اخرج إلينا كي تعلِمنا، ومرّة أحد الخلفاء طلب من الحاشية أن ائتونا بعالمٍ نستفد منه وهو في مكّة المكرّمة، فذهبوا إلى الإمام مالك وقالوا له: تعالَ معنا إلى الخليفة، فقال هذا الإمام العظيم: **قولوا له: العلم يؤتى ولا يأتي.**

من عرف الله تأدب معه و مع من يحبهم:

(إنّ الّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

فهل من الممكن أن تلخّص معرفتك بالله ورسوله من خلال أدبك ؟ نعم، يمكن أن يكون الأدب معياراً لإيمانك بالله، وكلّما عرفت الله أكثر تأدّبت معه أكثر، وتأدّبت مع من يحبُّهم، ومع إخوانك المؤمنين، فالإنسان بجهله قد يقيّم الناس تقييماً مادياً، أما المؤمن والله الذي لا إله إلا هو لو رأى حاجباً، أو إنسانًا من الطبقة الدنيا في المجتمع وهو مؤمن فإنه يحترمه ويبجّله ويراه أخاً له، ولا يميّزُ نفسه عنه بشيء، هذا هو المؤمن، فهذا أخ في الله، أما بعيداً عن الدين وعن الإيمان فيصير التقييم مادياً إذا، تقيّم الإنسان بماله ومرتبته الاجتماعية فقط.

من فكّر بأن الشرع لا يتناسب مع هذا العصر يكون قد ارتكب سوء أدب مع الله و رسوله:

(إنّ الّذِينَ يُنَادُونَكَ)

يا محمّد.

(مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ)

يا محمد، يا محمد اخرج إلينا.

(أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنّهُمْ صَبَرُوا حَتّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(5))

هذه الآيات آيات الأدب مع الله ورسوله، ولكن أدقُّ ما فيها أنه لمجرّد أن تقترح على الله، أو أن تقدّم البديل لشرع الله، أو أن تفكّر أن هذا الشرع لا يتناسب مع هذا العصر، أو أن هذا التكليف فوق طاقة البشر، فأنت بهذا فضلاً عن بُعدِك عن الحقيقة ارتكبت سوء أدبٍ مع الله ورسوله.

كلما ازداد إيمان الإنسان ازداد تعظيمه لشرع الخالق سبحانه:

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

كلّما ازداد إيمانك يزداد تعظيمك لشرع الله.

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

(سورة الحج)

صحابي رأى النبيُّ في يده خاتماً من الذهب، فأمسكه ورماه النبي، فقيل له: خذه وبعه، قال: والله لا آخذ شيئاً رماه النبي، هذا الأدب العالي، لا آخذ شيئاً رماه النبي بيده، فإذا أردت أن تعرف ما لك عند الله فانظر ما لله عندك.

من هان أمر الله عليه هان على الله:

الحقيقة عندما يرى الإنسان الناس وقد هان عليهم أمر الله فإذا رآهم هانوا على الله فعليه ألاّ يعتب على الله، هان أمر الله عليهم فهانوا على الله، صلى أو لم يصل سواء، يقول: نصليها كلها في الليل، لكي لا يغير إتقان الحسن لا يصلي العصر، لقد هان أمر الله عليه فهان هو على الله، لكي لا يعمل وجبتين في الطعام يقول لك: يا أخي نحن أهلية محليّة، فهل هذه آية أم حديث ؟ ليست بآية ولا حديث، إنّ أمر الله هان عليه، فحصل الاختلاط بالأجنبيات، نضعها مائدة واحدة لأنه أريح، وكلّما هان أمر الله على الناس هانوا هم على الله، وكلّما عظّموا أمر الله عزّ وجل تولاهم الله عزّ وجل، وأكرمهم، ورزقهم.

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: آية " 55 ")

على الإنسان ألا يتناول أية آية بالبحث إلا ليكشف حكمتها لا البديل عنها:

إخواننا الكرام: في نهاية المطاف يمكن أن تتناول آيةً بالبحث والدرس لعلّةٍ واحدة، ولهدفٍ واحد، أن تكشف حكمتها، وأن تكشف الخيرات التي نجنيها من تطبيقها، لا أن تقلِبها على وجوهها، أتصلح أم لا تصلح ؟ فما البديل ؟ وأيهما أفضل ؟ هذا هو الذي يمكن أن يُستفاد من هذه الآيات التي تتعلّق بالآداب مع الله ورسوله.

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله ننتقل إلى أدب المؤمنين مع بعضهم بعضاً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجرات 049 - الدرس (2-6): تفسير الآيتان 6-7 ،العلاقة بين المؤمنين
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-04-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الثاني من سورة الحجرات.

التشريع في القرآن الكريم شفاء للناس:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى في الآية السادسة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

أيها الأخوة الكرام: لهذه الآية أسباب نزول، ومناسبةٌ طيبة أن نقف عند حكمةٍ بالغة جعلها الله شبه قانونٍ في أن آيات التشريع تأتي عَقِبَ حوادث، وقبل أن نبدأ في شرح هذه الآية، لو أن واحداً ألقيت على مسامعه آلاف المواعظ في موضوعٍ ما، وحينما يدخل في تجربةٍ مُرّة، ويعاني من مشكلةٍ حقيقيةٍ، إذا قرأ القاعدة المتعلِّقة بمشكلته، وبتجربته، تنقش في نفسه كما ينقش الحجر، الحقائق إذا جاءت عقب مشكلات تثبت، ولعلماء التربية رأيٌ في هذا الموضوع أن الإنسان لا يتعلم إلا بتجاربه الحقيقية، فلحكمةٍ أرداها الله عزّ وجل جعل حياة النبي مُفْعَمَةً بالحوادث الجيّدة والحوادث المؤلمة، ففي كل حادثٍ وقف النبي منه الموقف الكامل وجاء التشريع ليكون شفاءً للناس.

الأحكام في القرآن الكريم على الإنسان أن يتشبث بها:

إنسان مثلاً سمع آلاف المرات أنه لابدّ من كتابة إيصال للدين، كلام، أما حينما يُقْرِضُ قرضاً وينسى أن يكتب إيصالاً ويضيع عليه هذا المبلغ ثم تلقى عليه القاعدة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَاكْتُبُوهُ)

(سورة البقرة: آية " 282 ")

هذه الآية يتفاعل معها أشد التفاعل، لأن هناك تجربة مُرَةً وهي ضياع مبلغ كبير بسبب عدم كتابة إيصال لهذا المبلغ، فالإنسان حينما يمر بتجربة ثم تلقى عليه القاعدة يتشبّثُ بها، هذا هو التعليم الحقيقي، بل إن هناك نظريات في التعليم، أن نضع الطالب في مجموعة تجارب مرة أو مشكلات، ويكون حلها تلك القواعد التي تُلْقَى عليه.

أسباب نزول هذه الآية:

وسأروي لكم من كتب التفسير أسباب نزول هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

قال ابن كثير: ذكر كثيرٌ من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عُقْبَة، حين بعثه النبي صلى الله عليه وسلم على صدقات بني المطلق، وقد روي ذلك من طرقٍ عدة ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده.

رواية الإمام أحمد للآية التي نزلت في الوليد بن عقبة:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن سابق حدثنا عيسى بن دينار حدثني أبي أنه سمع الحارث بن ضرارٍ الخُزاعي رضي الله عنه يقول: **قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها**، وقلت: **" يا رسول الله أأرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ؟ فمن استجاب جمعت زكاته وترسل أنت إلي يا رسول الله من يأخذ هذه الزكاة "**. فلما جمع الحارث الزكاة من قومه بعد أن أسلموا لم يبعث النبي له من يأخذ الزكاة، وظن الحارث أن هناك شيئاً حدث فيه سخطةٌ من الله تعالى ورسوله، من شدة محبته وورعه وحبه للنبي تأخر رسول النبي فأوقعه في شكٍ من نفسه، ولعل هناك شيئاً لا أعلمه، فدعا بوجهاء قومه فقال لهم: **" إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد وَقَتَ لي وقتاً ليرسل إلي رسولاً ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله الخُلْفُ (أي مستحيل أن يخلف وعده) ولا أرى حَبَسَ النبي إلا من سخطةٍ فانطلقوا فنأتي النبي صلى الله عليه وسلم "**.

على الإنسان أن يتبين الأمر قبل أن يصغي إلى فاسق بنبأ عن مؤمن:

النبي عليه الصلاة والسلام كان قد بعث الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده في الوقت المناسب فبعد أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق. خاف، خاف أن يقتلوه، وأن تكون غدرةٌ منهم. فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: **" يا رسول الله إن الحارث منعني من الزكاة وأراد قتلي "**. عندئذٍ النبي عليه الصلاة والسلام تريّث، وفي روايات أرسل سيدنا خالد بن الوليد ليتحقق، وسيدنا خالد بَثّ عيونه في القوم فرآهم يؤَذِّنون ويصلون ورآهم بأحسن حال، فرجع إلى النبي صلى الله

عليه وسلم فأخبره، فلما ذهب هؤلاء الذين بعثهم النبي لقوا الحارث في طريقه إلى النبي، فقالوا: **" هذا الحارث "** فلما غشيهم قال لهم: **" إلى من بعثتم ؟ قالوا: إليك، قال: ولِمَ ؟ قالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنّك منعته الزكاة وأردت قتله، قال: لا والذي بعث محمداً بالحق، ما رأيته بَتَّةً ولا أتاني "**، فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **" منعت الزكاة وأردت قتل رسولي ؟ "** قال: **" لا والذي بعثك بالحق ما رأيته بتة ولا أتاني، وما أقبلتُ إلا حين احتبس علي رسولك، خشيت أن تكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله علي"**. فنزلت هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

[رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات عن الحارث بن ضرار الخزاعي]

الخصومات و الشك و الحسد أحد أكبر أسباب تفكك المجتمع:

أحياناً تأتي الآية بعد المشكلة وكأنها البَلْسَم، وكأنها الشفاء، وكأنها القاعدة، فأنت لاحظ نفسك إذا كنت تمر بمشكلة، أو بتجربة مُرّة، أو بقضية متعبة، ثم جاءتك القاعدة، فهذه القاعدة تتبناها وتصل إلى أعمق أعماق نفسك، وتصبح هذه القاعدة جزءاً من بُنْيانك، ولذلك فالحقائق إذا تُلِيَتْ بعد التجارب فهذه الحقائق لا تنسى ولا تمحى، وهذه قاعدة في التربية، فإذا أردت أن تربّي ابنك وقد مر في تجربةٍ مؤلمةٍ بعد هذه التجربة ألق عليه القاعدة، أولاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

ويبدو أن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نتحابب، وأن يكون المجتمع المؤمن مجتمعاً متماسكاً، متراصاً، متعاوناً، متآزراً، متحاباً، فما الذي يفتته ؟ وما الذي يُضْعِفُهُ ويمزقه ؟ ويضعف شأنه ؟ ويضعه في الوحل ؟ إنها الخصومات، والمهاترات، والطعن، والشك، والحسد فأحد أسباب تفكيك المجتمع أن تصغي إلى فاسقٍ بنبأٍ عن مؤمن.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ)

المؤمن يتصف بالضبط و العدالة و الفاسق بالكذب و الفجور:

لماذا قال الله عزّ وجل:

(إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ)

لأن المؤمن لا يمكن أن يكذب، ورد في الحديث الشريف أن:

((المؤمن يطبع على الخلال كلها إلا الكذب والخيانة))

[أخرجه أحمد عن أبي أمامة الباهلي]

فحينما يكذب أو يخون نُزع من الإيمان، فعندئذٍ لا يكون مؤمناً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ)

فالفاسق يكذب، والفاسق يفتري، ويقول ما لم يقع، ولمجرد أن يكذب الإنسان في الخبر فهو فاسق، بل إن بعض علماء الحديث لمجرد أن أحد الرواة كذب على فرسه، جاء من المدينة إلى البصرة ليتلقّى عنه حديثاً شريفاً فلما رآه قد كذب على فرسه، رفع رداءه لها وأوهمها بالشعير في الرداء فأقبلت عليه، فتقدم منه فلم ير في الرداء شيئاً، عاد إلى المدينة من توه ولم يسأله عن شيء، فقال: **" الذي يكذب على فرسه ليس أهلاً أن يؤخذ منه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ".**

المؤمن أيها الأخوة يتصف بالضبط والعدالة، والضبط دقة الرواية، والعدالة الصدق، والضبط صفة عقلية والعدالة صفة نفسية.

الفاسق من خرج عن أمر الله و على الإنسان أن يحاسبه على كذبه:

(إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ)

هذا الفاسق أولاً: معنى فَسَقَ خرج عن أمر الله.

(كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ)

(سورة الكهف: آية " 50 ")

الفسق الخروج عن أمر الله عزّ وجل، فالفاسق يجب أن يحاسب على كذبه.

العجلة من الشيطان و التريث من الرحمن:

(فَتَبَيَّنُوا)

أي تحققوا، لما سيدنا سليمان جاءه الهدهد وحدّثه عن قومٍ يعبدون الشمس من دون الله، ماذا قال له سليمان الحكيم عليه أتم الصلاة والتسليم ؟

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

(سورة النمل)

أيها الأخوة الكرام:ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن:

((العَجَلَة من الشيطان والتثبُّت من الرحمن))

والتريث من الرحمن، وقد وقعت قصة في بلد عربي: فتاةٌ بريئةٌ طاهرةٌ صويْحباتها كادوا لها فرموها بتهمة الزنا، بلغت هذه التهمة أباها، فأراد الموقف الحاسم، أخذ ليحلل جزءاً منها كما هي العادة، والموظف الذي يعمل عند المحلل وقعت منه العينة خطأً في المجلة، فخاف من سيده فكتب الحمل إيجابي، فلما جاء الأب مساءً ليأخذ النتيجة قال له الطبيب: مبارك ابنتك حامل. فقتلها الأب، والله يعلم أنها بريئة، وثبت بعد ذلك أنها لم تكن حاملاً، والخطأ خطأ الموظّف.

كل إنسان يتولى أمر الناس عليه أن يضع هذه الآية أمام عينيه:

حدثني أخ كريم توفي رحمه الله من إخواننا الكرام، قال لي: بعث لي معمل مئة قطعة، فعددتها فإذا هي تسعة وتسعون قطعة، فاقتربت من معطف أحد العمّال في المعمل فرأيت قطعةً في جيبه، هل هناك دليل أقوى من هذا الدليل ؟ قال لي: لا أدري ما الذي ألجمني ومنعني أن أقيم عليه الدنيا لخيانته، وفي اليوم التالي ذهبت إلى صاحب المعمل لأحاسبه قال لي: بعثنا لك بمئة قطعةٍ أخذ أحدها صانعك ودفع ثمنها، فأعطنا ثمن الباقي، فعلى الإنسان ألا يتسرع.

هذه الآية منهج للمؤمنين، تلقى الأخبار كاذبة، افتراءات على الناس، وإفك، وكلام غير صحيح، فكلما ارتفع مستواك تتريث، وتتأنى، وتنظر، وتحقق، وتسأل، هناك علاقات كثيرة فُصِمَت لخبرٍ كاذب، وهناك أسر شردت وشركات فصمت بين الشركاء لخبرٍ كاذب، ولذلك فكل إنسان يتولّى أمر الناس ويحقق في قضاياهم يجب أن يضع هذه الآية أمامه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

البشر صنفان فريق يقبل كل شيء و فريق يرفض كل شيء:

والحقيقة الندم شيءٌ لا يحتمل أن تتهم بريئًا، وتوقع به أشد الأذى، فالإنسان قد لا يحتمل، الإنسان الذي يملك قلباً طاهراً وإحساساً أخلاقياً سليماً إذا أوقع الأذى بإنسان بريء لا يحتمل ذلك، فربنا عزّ وجل يبين لنا القاعدة الأولى في التعامل فيما بيننا.

الآيات الأولى كانت في الأدب مع الله ورسوله، أما الآيات التالية فهي في العلاقة بين المؤمنين، وأقول لكم العلاقة بين المؤمنين، الآن نحن عندنا صنفان من البشر، صنفٌ يقبل كل شيء بلا تحقق، ولا تروٍّ، ولا تثبت، ولا دليل، ولا هدوء، وفريقٌ يرفض كل شيء، فكلاهما مُغَالٍ في عمله، فهذا غلو وهذا غلو، وللعوام قصة غير معقولة مبالغ بها إلى أرقام خيالية يقبلها.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ)

لا تكذبوه ولا تصدقوه وتحققوا مما قال، فقد يكون خبر هذا الفاسق صحيحاً، وقد يكون كذباً فأنتم إيَّاكم أن ترفضوا بلا دليل، وإياكم أن تقبلوا بلا دليل، وعليكم بالتحقق، لذلك اجعلوا الآية الكريمة:

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

الإنسان حينما يفسق يكون قد تفلت من منهج الله عز وجل فكلامه كذب:

إذا احتاج الآية مؤمنٌ مرة فيحتاجها من ولاّهم الله أمر الناس ألف مرة، وكم من تقريرٍ كاذب، ومن فِرْيَةٍ كاذبة، ومن روايةٍ غير صحيحة، فيجب أن يضع الإنسان أمامه هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ)

والآن عندنا مشكلة، الإنسان حينما يفسق، ويخترق منهج الله عزّ وجل، ولا يطبّق شريعة الله، فهذا الإنسان تفلّت من منهج الله، فكلامه في الأعم الأغلب كذب، لأن الإنسان إذا كان مستقيماً على أمر الله فيغلب على الظن أن كلامه صدق، وإذا كان متفلتاً من منهج الله، وما دام يعصي الذي خلقه ولم يصدق كلامه أيصدق مع الناس ؟ فما الذي دعا الصحابة الكرام إلى الإيمان برسول الله ؟ قال: لأنه ما سمعنا منه كذباً قط، أيُعْقَلُ أن يكذب على الله عزّ وجل، فدققوا في هذه العلاقة.

(إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ)

الفاسق لا يصدق، والمستقيم لا يكذب، ولكن ضماناً للموضوعية هذا الذي جاءكم بهذا الخبر لا ترفضوه بلا دليل ولا تقبلوه بلا دليل، بل موقفٌ معتدلٌ وسطي، بين القبول الساذج وبين الرفض المكابر، وبينهما التحقق والتثبُّت.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

من أحسنَ الظن بأخيه فكأنما أحسن الظن بربه:

وبعد ذلك:

((اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب))

[أخرجه البخاري عن ابن عباس]

((اتقوا دعوة المظلوم ولو كان كافراً))

فقبل أن تقول: أخي هكذا فعل !! قبل أن تستمع إلى خبر فاسق، أو حاسد، أو مُبْغِض دقِق في الخبر، من أحسنَ الظن بأخيه فكأنما أحسن الظن بربه، فهذا أخوك مؤمن، كما أنك تخشى الله هو يخشى الله، وكما أنك تخاف الله هو يخاف الله، وإذا كنت تخاف أن تأكل درهماً حراماً فهو يخاف مثلك أن يأكل درهماً حراماً، لماذا تُحْسِنُ الظن بنفسك وتسيء الظن به ؟ هذا من الخطأ الكبير.

للإنسان خمسة أعداء عليه أن يحذر منهم:

فلذلك أيها الأخوة: يجب أن نعد للألف وللمليون قبل أن نصدق خبراً عن مؤمن. وقد ورد في الأثر:

((أن المؤمن لابدّ له من كافرٍ يقاتله، ومنافقٍ يبغضه، ومؤمنٍ يحسده، وشيطانٍ يغويه، ونفسٍ ترديه))

لك خمسة أعداء، واحد يريد أن يقتلك وهو الكافر، وواحد يبغضك وهو المنافق، وثالث يحسدك وهو المؤمن، ورابع يغويك وهو الشيطان، والخامس النفس ترديك.

التثبت من الشيء له ثلاث حالات:

1 – من لم يؤثر فيه الخبر بل رآه من إنسان فاسق فلا حاجة له من التحقق:

إذاً لما ينقل لك خبر عن مؤمن (هنا نقطة دقيقة) إذا كنت واثقاً من إيمانه ومن استقامته، وهذا الخبر لم يحرك فيك شعرةً، بل رأيته من كاذبٍ فاسقٍ فاجر ورميت هذا الخبر كما يلقى الشيء التافه، فلا حاجة لأن تحقق.

2 ـ من ترك الخبر في نفسه ثلمة فعليه أن يتحقق:

أما إذا ترك هذا الخبر في نفسك شكاً وثُلمَةً، وظناً سيئاً بأخيك فواجبٌ عليك أن تحقق، فإن كان هذا الخبر صحيحاً نصحته، وإن كان مكذوباً ارتاحت نفسك، فهذه الحالة الثانية، أما الحالة الأولى فالخبر لم يؤثر فيك، والحالة الأولى مقام أخيك عندك كبيرٌ جداً، وثقتك فيه لا نهاية لها، وترى طهره وعفافه رأي العين، فخبرٌ كاذب ينقل إليك عنه لا يهز شعرةً فيك، فهذه حالة.

3 ـ من له ثقة بأخيه و اهتز عند سماعه الخبر فعليه أن يتحقق:

إذا كنت في هذا المستوى ولك ثقة بأخيك بهذا المستوى فلا مانع ألا تحقق، أما إذا ترك الخبر في نفسك ثُلْمَةً وقلت: هكذا يفعل فلان ؟ أله الحق أن يفعل هذا ؟ فمعناها اهتزت مكانته عندك، و ثُلِمَتْ، وخدشت عدالته عندك، فالآن واجبٌ عليك أن تحقق، فإما أن تَثْبُتَ براءته فترتاح نفسك، وإما أن يكون قد ابتلي بما بلغك عنه، فعندئذٍ تتجه إلى نصيحته، وليس هناك حالة رابعة.

المؤمن مظنة صدق و صلاح و أمانة:

(إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)

التبين هو التحقق، اطلب الدليل قالوا: لولا الدليل لقال من شاء ما شاء، وكل إنسان يتهم أي إنسان، ففي المحاكم إذا اتهم إنسان إنسانًا شريفًا عليه أن يدفع كفالة، فإنسان له مكانة، تقيم عليه دعوى وتتهمه في أمانته، فالإنسان له شرف وله مكانة، والقاضي يطالبه بكفالةٍ باهظة الثمن، فإذا ثبت كذبه أُخِذَ بها، ودائماً المؤمن مَظَنَّةُ صلاحٍ، وصدقٍ، وأمانة، وإنصافٍ، ورحمةٍ، فلا تتهم المؤمن بصفات لا تليق به، أستاذ معه دكتوراه في الرياضيّات قال لك شخص: هذا لا يعرف أن اثنين وثلاثة تساوي خمسة قال: أربعة، فهذه تهمة غير معقول أن تصدّق عنه، وإنسان عرف الله عزّ وجل من هذا المُنْطَلَق، فأحياناً يتهم بعض المؤلفين السابقين بتهم، والذي عرف الله هذه المعرفة أيعقل أن يقول هذا الكلام ؟ يرجّح أنه ما قاله، ويرجح أنه دُسّ عليه، وهذا الموقف يتناسب مع مكانته، لذلك فالآية الكريمة يجب أن نأخذ بها جميعاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ)

على الإنسان ألا يضع نفسه موضع التهم ثم يلوم الناس إذا اتهموه:

والله في حياتي آلاف القصص عن إنسان برئ طاهر نقي روّجت عنه قصة لا أصل لها، طبعاً أحياناً تروّج القصة بخطأٍ منه، سيدنا علي يقول: **" لا تضع نفسك موضع التهم ثم تلوم الناس إذا اتهموك "**، والنبي الكريم كان يمشي في الليل مع زوجته السيدة صفية، مر صحابيان جليلان، فقال عليه الصلاة والسلام:

((على رِسْلِكُمَا هذه زوجتي))

[أخرجه البخاري عن الزهري]

فلو أنت سافرت وكلّفت شقيق زوجتك أن يتفقّد أخته بغيابك، ولك جيران لا يعرفون أن هذا شقيق زوجتك، رأوا رجلاً يدخل إلى البيت في غيبة جارهم، فالخطأ منك، ينبغي أن تبلغهم أنني سأسافر وأن شقيق زوجتي سيأتي إليها، هذه زوجتي، هذه يطبق عليها ألف موضوع وموضوع، دائماً لا تضع نفسك موضع التهمة ثم تلوم الناس إذا اتهموك.

المؤمن العاقل لا يتصرف تصرفاً له تفسيران:

فالمؤمن العاقل لا يتصرف تصرفاً له تفسيران، واحد لصالحه، وواحد ضده، هذا التفسير غير صحيح، وهذا السلوك غير صحيح، فإن كنت جالساً وراء مكتب صديقك بمحله التجاري، ولزمك أن تصرف خمسمئة ليرة، إيّاك أن تفتح الدرج من دون إذنه وأن تصرفها، وأنت بريء وأنت ملك طاهر، ولكن خطأ في حسابات الصندوق خمسمئة ليرة ورآك فتحت الدرج، يتهمك وأنت بريء، فلا تضع نفسك موضع التهمة ثم تلوم الناس إذا اتهموك، ولا تدخل بيتاً ليس فيه رجل، ولا تخلُ بامرأة، لا تسمح لأحدٍ أن يدخل بيتك في غيبتك، وأنت لا تفعل هذا، دائماً المؤمن كما قال سيدنا معاوية إذ سأل سيدنا عمرو بن العاص قال له: **يا عمرو ما بلغ من دهائك ؟ قال له: والله ما دخلت مدخلاً إلا أحسنت الخروج منه، قال له: لست بداهية، أما أنا فو الله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه،** عدم الدخول أصل، إنسان يدخل ويخرج، أما الأذكى والأعقل لا يدخل أصلاً، فكلما كبر عقل الإنسان، وطبق منهج الله عزّ وجل، واتبع السنة فحياته هادئة، والله عزّ وجل قال:

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)

(سورة محمد)

الله عز وجل رفع صلاح البال إلى مستوى الهدى:

ربنا عزّ وجل رفع صلاح البال إلى مستوى الهدى من خلال واو العطف، يقتضي التعاطف المشاركة بين المتعاطفين.

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)

وصلاح البال سببه الوضوح، فكل شيء واضح، اتفقت فاعمل عقداً وسجله في محكمة البداية، وانتهى الأمر، قطعت على الطرف الآخر أن يفكر في نقضه، وأقرضت فاطلب سنداً، وأشهد عليه اثنين، وانتهى الأمر، قطعت على المدين أن يتلاعب بقضاء الدين، واتفقت سَجّل هذا الاتفاق، وتصرفاتك وضحها، والبيان يطرد الشيطان، فوَضّح، لك مع إنسان مال وفي النهاية تقول له: لقد تخالصنا، هذا

ليس وضوحاً، قدم له الحساب التفصيلي وبين له التساوي في المدفوعات والمصاريف، وإدراج الحسابات، وتوضيح التصرُّفات، وإيضاح الغايات، هذه زوجتي، بين له.

البيان يطرد الشيطان:

مرة كنت في محل تجاري وفيه رجل من أهل الصلاح، وفي المحل تاجر من مدينة في الشمال يبدو عليه الصلاح والورع، جاءت امرأةٌ لصاحب المحل فاستقبلها استقبالاً يفوق استقبال من تشتري منه بضاعةً، رأيت وجه هذا الزائر قد (انعبط) قلت له: لعلها أخته، فلما انصرفت علمنا أنها أخته، وكان يجب أن يقول: جاءت أختي، حتى رَحَّبَ بها ترحيباً زيادة على الحد، وهذا الترحيب مُغَطّى، أما إذا كانت امرأة غريبة فهذا لا يليق بمؤمن أن يستقبلها وأن يسألها عن صحتها، لماذا هذا الغياب الطويل ؟ هذا يقال للأخت، ولا يقال لامرأةٌ غريبة، فدائماً البيان يطرد الشيطان، وضح أغراضك دائماً. لزمك أن تدخل إلى المحل التجاري الساعة الثانية عشرة ليلاً لتحضر سنداً منه، وعندك سفر باكراً، فلا مانع من ذلك، هناك حارس، قل لهذا الحارس: أنا جئت لآخذ هذا السند، إن لم تقل له شيئاً يقول: ماذا يفعل بالليل في هذا المحل ؟ وله شريك، فهذه الزيارة من وراء شريكه، فدائماً وأبداً وضِّح الأمر، وضح أسباب حركتك، وأسباب زيارتك، وعدم زيارتك، وسفرك، وعدم سفرك، لماذا أقمت هذا الحفل ؟ ولماذا لم تقم هذا الحفل ؟ ولماذا حضرت ؟ ولماذا لم تحضر ؟ وضح البيان يطرد الشيطان، أما الفاسق فقنّاص، لو رأى تصرفاً غير معقول قنصه قنصاً ونقله بين الناس وسوّأ سمعتك.

إن تفيد احتمال الوقوع أما إذا تفيد تحقق الوقوع:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ)

إن تفيد احتمال الوقوع، أما إذا تفيد تحقق الوقوع، دققوا في دقة اللغة العربية:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

نصر الله عز وجل لابد من أن يأتي.

وهنا لو أن الله قال: إذا جاءكم فاسقٌ بنبأٍ، هذا ليس قرآناً لأن الفاسق قد يأتي وقد لا يأتي، ولكن نصر الله عزّ وجل للمؤمنين لابدّ من أن يأتي، فإذا تفيد تحقق الوقوع، بينما إن تفيد احتمال الوقوع.

على الإنسان أن يتحقق و يطلب الدليل قبل أن يتهم غيره:

(إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ)

تحققوا، اطلب الدليل، هل رأيته بعينك ؟ يقول: لا والله لقد سمعت أن فلانًا رآه بعينه، يا فلان هل رأيته بعينك ؟ يقول لك: لا والله، القصة مختلقة، فأحياناً يكون الكذب في أصل الموضوع، وأحياناً يكون كذب بالحجم، تُكَبَّر وتكبر، وأحياناً بالتعليل، أو بالتفسير، شخص وجد خمسمئة ليرة في الأرض، انحنى ليأخذها، هل تعلم نيته ؟ لعله أخذها ليبحث عن صاحبها، فلم يفعل شيئاً، وهذا ليس دليلاً على أنه أخذها، شخص انحنى إلى الأرض ليأخذ مبلغاً من المال، فعندنا كذب بالتفسير، و كذب بالحجم والمبالغة، وبالافتراء، وكذب أن القصة ليس لها أصلٌ كلياً، وهناك قصة لها أصل ولكن حجمها صغير، كَبَّرَها الفاسق، وهناك قصة لها أصل ولكن لها تفسير يليق بصاحبها، لكن هذا الفاسق وجَّه توجيهاً آخر.

الغيبة و النميمة من أسباب تفتت المجتمع:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

أولاً حينما تتهم بريئاً وتبلغه هذه التهمة يحقد عليك، ويبغضك وتنقلب المودة عداوةً، والصحبة فُرْقةً، والمحبة بغضاً، لأن المجتمع تفتت بالغيبة والنميمة، كما قال الله عزّ وجل:

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

(سورة الحشر)

وهناك أسر متفتتة، ومجتمعات متفتتة، فما الذي فتتها ؟

(إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

من يريد معرفة الحقيقة عليه أن يجتمع بالطرفين معاً:

إخواننا الكرام: هناك طريقة ناجحة جداً، لو جاءك رجلٌ بنبأٍ كاذب عن شخص، فلو أنك قلت له: ائتِ أنت معه، اسمع منه، يحكي لك ثلاث ساعات، ولو جلس مع الطرف الآخر يتكلم خمس دقائق فقط، أين ذهب الباقي كله ؟ كله مبالغات وزخرفة في الكلام وتعليلات خبيثة شيطانية، أما حينما يجتمعان معاً فلا يستطيع أن يقول إلا شيئاً ثابتاً يقره الطرف الآخر، فإذا استطعت ألاّ تصغي لإنسانٍ وحده فافعل، قل له: لا أستمع إليك إلا مع الطرف الآخر، تجد الأمور قد ظهرت على حقيقتها، وأحياناً تأتي البنت إلى أبيها، تتحدث عن زوجها حديثاً تجعله مجرماً، والأب غير العاقل وضعيف التفكير وضيّق الأفق يأخذ كلامها على أنه حقيقةٌ ثابتة فيحقد، ويتألم، ويبالغ، ولو أن هذا الأب استدعى صهره وقال له بلطفٍ: قل ما المشكلة ؟ اسمعها منه ترى بوناً شاسعاً بين الروايتين، فإياك أن تستمع من ابنتك وحدها، قد تكون فاسقة

وتقول لك ما يروق لها، وتخفي عنك ما تفعله مع زوجها، استدع الزوج وقل له: ما القصة ؟ وتأكّد من رواياتها، وتحقق، وأنت حينما تتحقق، يخاف الناس بعد ذلك أن يلقوا أمامك الكلام على عواهنه، تحقق.

الافتراء مكشوف عندما كان الرسول بين الناس والوحي موصول بالسماء:

إذاً المؤمن لا يرفض ولا يقبل بل يتحقق، فالرفض غلو في الدين، والقبول الساذج غلو في الدين، والقبول سذاجة والرفض تعنُّت، ولكن الوسطية في الإسلام أنه إذا جاءك خبرٌ كاذب قل: سنبحث في الأمر، فتحقق، واطلب الدليل، ولا تقبل بلا دليل، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، وبعدئذٍ يقع الندم والندم أشد المشاعر إيلاماً للنفس، إنه إنسان بريء تتهمه ؟ قال:

(وَاعْلَمُوا أَنّ فِيكُمْ رَسُولَ اللّهِ)

ما معنى هذه الآية ؟ أي أن الرسول بين أظهركم والوحي موصول بالسماء، والله عزّ وجل يخبره بحقيقة كل شيء، فالافتراء مكشوف.

بعد قبض الرسول الكريم الله عز وجل يتولى كشف الكاذب:

(وَاعْلَمُوا أَنّ فِيكُمْ رَسُولَ اللّهِ)

ولكن بعد قبض النبي عليه الصلاة والسلام لا يوجد وحي، والله هو الحق، فإذا حصل افتراء وكذب فاللّه عزّ وجل يسخِّر أناساً يتكلمون الحق، فما من كاذبٍ إلا ويكشف كذبه، وبإمكانك أن تكذب على إنسانٍ أمداً طويلاً، وبإمكانك أن تكذب على قومٍ أمداً قصيراً، أما أن تكذب على الناس جميعاً إلى أمدٍ طويل فهذا مستحيل، فكأن الله عزّ وجل يتولى أن يكشف الكاذب، مهما كان الكاذب ذكياً، والآن في علم النفس روائز للكذب، يعطون مئتين أو ثلاثمئة أو خمسمئة سؤال في موضوع واحد وعليه عشرة أسئلة متباعدة، فإذا كان الإنسان كذّاباً يكذب في أول سؤال، وفي الثاني، فيغيب عنه الثالث، والأسئلة الخمسة أو العشرة في موضوع واحد لكن بصياغات مختلفة مبعثرة بين خمسمئة سؤال، فالكاذب ينكشف، ويكاد يقول: أنا كاذب، من زلاّت لسانه، وقد قالوا: إن كنت كذوباً فكن ذكوراً، فأحياناً الإنسان يكذب وينسى ماذا تكلم، ويعيد الرواية بشكل آخر يبدو كذبه للناس واضحاً.

(وَاعْلَمُوا أَنّ فِيكُمْ رَسُولَ اللّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنّ اللّهَ حَبّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرّاشِدُونَ)

وَلَكِنّ اللّهَ حَبّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ: آية لها عدة معان:

1 ـ إذا علم الله منك رغبةً في معرفة الحقيقة فقلبك يميل إلى الحق:

الآن هذه الآية تنقلنا إلى موضوع جديد:

(وَلَكِنّ اللّهَ حَبّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ)

أولاً الله عزّ وجل كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن))

[أخرجه أحمد عن عائشة]

فالله إذا علم منك رغبةً في معرفة الحقيقة فقلبك يميل إلى الحق، وإذا علم منك صدقاً في طلب الحقيقة فقلبك يرتاح للحق، والحق محبب له، أما إذا كان هناك كذب ودجل ونفاق، فعندئذٍ تكره الحق وأهله وتحب الباطل وأهله، أما إذا كان قلبك بيد الله عزّ وجل، فالله عزّ وجل يقلبه كيف يشاء، وبعد أن يعلم مشيئتك أنت، وعندما يترك الإنسان شيئاً لله، فما كان الله ليعذب قلباً بشهوةٍ تركها صاحبها في سبيل الله، فقلبك بيد الله، والله عزّ وجل يلقي فيه الطمأنينة، ويلقي فيه الخوف والعزوف عن هذا الشيء، وعن هذه الفتاة أحياناً، ويجعل فيه محبة هذا المجلس ومحبة أهل الحق، فقلبك بيد الله، فأنت إذا طلبت الحق من الله عزّ وجل تولّى قلبك فمال إلى الخير وإلى صلاح حياتك، وهذا هو المعنى الأول.

2 ـ الإنسان عندما يؤمن ويستقيم ويخلص لله عزّ وجل ترتاح نفسه:

والمعنى الثاني النفس البشرية مفطورة على معرفة الله، وعلى طاعته ولا ترتاح إلا بطاعته والالتجاء إليه، فالإنسان عندما يؤمن ويستقيم ويخلص لله عزّ وجل ترتاح نفسه، والله حبب هذه الفطرة إليه، ألم يقل الله عزّ وجل:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللّهِ الّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم: آية " 30 ")

أي أن تقيم وجهك للدين حنيفاً، والتوجه إلى الله بطاعته والإقبال عليه والاتصال به، فهذا نفسه فطرة الله، وأحيانا ترتاح بها، كما تمشي السيارة على طريق وعر، وحينما تمشي على طريقٍ مُعَبّد فتقول: هذا الطريق لهذه السيارة، حيث يوجد تناسب.

راحة الإنسان تتعلق بمعرفة الله عز وجل و الاستقامة على أمره:

الإنسان حينما يشرد عن طريق الحق يقع في عذاب، وقلق، و خوف، و قسوة بالغة، فردود فعله قاسية جداً من الخوف الذي في أعماقه، إنه خوف مرضيٌّ، وبطش مرضي، وموقف ملائم، وانحياز مرغوب، أما حينما يتعرّف الإنسان إلى الله عزّ وجل ويستقيم على منهجه فترتاح نفسه.

(وَلَكِنّ اللّهَ حَبّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرّاشِدُونَ)

من فضل الله على كل مؤمن أنه يحب الحق وأهله:

((قال لي: كيف أصبحتَ يا زيد ؟ قلتُ: أصبحتُ أحبُّ الخيرَ وأهله، إن قدرتُ عليه بَادَرْتُ إليه، وإن فاتَني حَزِنْتُ عليه، وَحَنَنْتُ إليه، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: فتلك علامة الله فيمن يريد. ولو أرادكَ لغيرها لَهَيّأكَ لها))

[أخرجهٍ رزين عن زيد الخير]

إذاً صلاح القلب إما أن الفطرة التي فطر الإنسان عليها، وإما أن القلب بيد الله يقَلِّبُهُ لصالح عبده المؤمن حينما يصدق معه، فأنت وَطِّن نفسك على أنك إذا اتجهت إلى الله عزّ وجل فالقلب ينشرح والصدر يطمئن.

من أراد الله أن يكرمه ألقى في قلوب الناس محبته:

أيها الأخوة: بقي معنا متعلق بالآية الكريمة:

(وَلَكِنّ اللّهَ حَبّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ)

وعندما يقلب الله عزّ وجل قلوب العباد كيف يشاء صار قلبك وقلب الآخرين بيد الله، فالذين أمامك وهم أقوى منك قلبهم بيد الله، فإذا رضي الله عنك ليّن قلوبهم تجاهك، وإذا رضي الله عنك ألقى في قلوبهم محبّتك، وإذا غضب الله عليك لا سمح الله ألقى في قلوبهم بغضك، فإذا أكرمك الناس ويسروا أمورك وأحبوك فهذه محبة الله تمثّلت في محبة العباد لك، فكما أن قلبك بيد الله أيضاً فقلوب العباد بيد الله، فأنت إذا أراد الله أن يكرمك ليّن القلوب، ورد في الحديث:

((ما أخلص عبدٌ لله إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودة والرحمة))

و لذلك محبة الخلق لك هي محبة الله أُلقِيَت في قلوبهم فأحبوك.

ألا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُ الْقُلُوبُ: آية له عدة معان:

1 ـ كل إنسان تعرّف إلى الله وسار على منهجه ترتاح نفسه ويطمئن قلبه:

المُلخّص أن هذا القلب بيد الله، أولاً مفطورٌ فطرةً تتوافق مع الدين، فكل إنسان تعرّف إلى الله وسار على منهجه ترتاح نفسه ويطمئن قلبه، والآية الكريمة:

(أَلَا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد)

فهذا المعنى الأول.

2 ـ قلب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء:

والمعنى الثاني قلب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فإذا أنت أحببت الحق فالله يقلب قلبك نحو الحق، وإذا أحببت الله عزّ وجل قلّب قلوب العباد نحوك، فإذا أخلصت لله واتجهت إليه جعل قلوب المؤمنين تهفو إليك، فالإنسان حينما يحب الإيمان ويكره الكفر والفسوق والعصيان فهذا هو الرشاد بعينه، قال تعالى:

(أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)

فعلامة عقلك الراجح أن تحب الحق وأهله، وأنت على هذا مفطور، لكن هذه الفطرة قد تنطمس، فإذا جليت وعاد إليها صفاؤها أصبح قلبك محباً للحق.

3 ـ من ترك شيئاً لله فلن يعذبه الله بمحبته:

وآخر معنى لو أردت أن تدع شيئاً لله فقلبك بيد الله، ولن يبقي في قلبك محبة هذا الشيء الذي تركته في سبيل الله، ولذلك: ما كان الله ليعذب قلباً بشهوةٍ تركها صاحبها في سبيل الله، فإذا ترك الإنسان شيئًا لله لن يعذِّبه بمحبّته، والله أكرم وأجل أن يعذب قلباً آثر طاعته بمحبة شيءٍ سواه، والله عزّ وجل ينزع من قلبك هذه المحبة.

من امتلأ قلبه بمحبة الله سعد في الدنيا و الآخرة:

أخ كريم البارحة قال لي: والله كنت أحب شيئاً وأظن أنني أموت ولا أتركه، فلما تعرّفت إلى الله عزّ وجل تركته ببساطة، قال: كنت أظن أن هذا الشيء الذي أحبه لن أدعه حتى الموت، فإذا بي بعد أن عرفت الله عزّ وجل تركته ببساطة من دون جهد، والآن أكرهه وأكره من يفعله، والقلب بيد الله، والآية دقيقة جداً، فقلبك بيد الله، إذا علم الله منك صدقاً قلّب القلب بصالح إيمانك، وقلوب العباد بيد الله، إذا أحبك الله عزّ وجل ألقى حبك في قلوب العباد، وقلبك مفطورٌ على محبة الله فإذا أحببته اطمأن قلبك قال تعالى:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد)

وسيدنا عمر قال: **" تعاهد قلبك "**، القلب بالإنسان إذا امتلأ بمحبة الله عزّ وجل سعد في الدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجرات 049 - الدرس (3-6): تفسيرالآيات 8-10، حرص المؤمن دائماً على وحدة المؤمنين و سمعتهم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-04-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الثالث من سورة الحجرات.

لا يمكن أن تحلّ مشاكل الإنسان المؤمن على يد عدوه:

مع الآية التاسعة وهي قوله تعالى:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

يمكن أن تكون هذه الآية تحت باب العلاقات الدولية.

أيها الأخوة الأكارم... الأصل أن يكون للمسلمين إمامٌ واحد والآن هناك أئمّةٌ أو جماعاتٌ، هكذا اقتضت الضرورة، وهكذا كان الواقع، فلو أن طائفتين منهم أو أكثر اقتتلوا، قال تعالى:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا)

فكيف تُحلُّ مشكلةٌ بين المؤمنين ؟ أو مشكلة بين جماعتين ؟ أو بين فئتين؟ أو بين طائفتين ؟ أو بين دولتين ؟ أو بين شعبين مسلمين، قولاً واحداً: لا يمكن أن تُحلّ هذه المشكلة على يدِ طرفٍ ثالث غير مؤمن، وكل إنسانٍ يعلم الخسائر الفادحة التي خسرها المسلمون حينما حُلّت مشكلاتهم على يدِ أعدائهم، فالخسائر التي لا تُقدّر بثمن، والأرقام الفلكيّة التي ذهبت من أموالهم إلى أيدي أعدائهم بسبب أنهم بدل أن يطبّقوا هذه الآية في الخلافات فيما بينهم احتكموا إلى جهةٍ ثالثةٍ ليست مؤمنةٍ فهي التي حكمت بينهم فأخذت ما في أيديهم، وهذا الذي حصل.

الاقتتال بمعانيه الواسعة التخاصم وبمعانيه الضيّقة القتل:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا)

أولاً: الاقتتال هنا قد يعني القتال، وقد يعني الخصومة، لأنه ما كل اقتتالٍ قتلٌ، وقد تفضي الخصومة إلى القتال، فالمعنى الواسع للاقتتال التخاصم، فأية خصومةٍ بين المؤمنين ينبغي أن تُحلّ بالطريقة التالية.

لنوسِّع معنى الاقتتال، الاقتتال بمعانيه الواسعة التخاصم، ومعانيه الضيّقة أن يقتل كلٌ من الطرفين الطرف الآخر، القتل أي سفك دمه، لكن المعنى الواسع للاقتتال هو الخصومة لأنه يمكن في اللغة أن نوسّع المعنى الحقيقي إلى معنى مجازي، وهذا واردٌ في اللغة بأدلّةٍ كثيرة.

إذاً ما كل قتالٍ بين مؤمنين ينضوي تحت هذه الآية، بل كل خصومةٍ بين جماعتين تنضوي تحت هذه الآية.

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا)

القرآن الكريم هو الفيصل في تحديد الباغي أو المَبْغِيّ عليه:

ماذا على الطرف الثالث، الطرف المؤمن الثالث ؟ طرفان اقتتلوا وهناك طرفٌ ثالث ليس طرفاً في القتال ماذا عليه أن يفعل ؟ قال:

(فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا)

كيف الإصلاح بين المؤمنين إن تخاصموا أو اقتتلوا ؟ إنّ الإصلاح أن يُدعى الطرفان إلى كتاب الله، وإلى حكم الله، وإلى حكم رسول الله، لأن هذا القرآن الكريم هو الحكم بين المؤمنين، وهو الفيصل في تحديد الباغي أو المَبْغِيّ عليه، قال تعالى:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا)

أي ادعوا الطرفين المتقاتلين، أو كلا الطرفين المتخاصمين، أو المتباغضين، أو المتعاديين، أو المتشاتمين إلى كتاب الله، وكتاب الله فيه كل شيء، وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم مبيّنة لكل شيء، ففي الكتاب غُنْيَةٌ لكلّ خصومة، وفي السنة أيضاً تفصيلٌ لكل خلافٍ بين المؤمنين، ادعوا كلا الطرفين إلى العدل، إلى عدل كتاب الله وسنّته.

على المؤمنين جميعاً أن يقاتلوا الفئة الباغية إن لم تنصاع لأمر الله:

والحقيقة لو أن طائفةً من الطائفتين انصاعت وقالت: أنا أرضى بحكم الله، وأنا أرضى بحكم رسول الله، فإن هذه الفئة التي انصاعت نجت، أما الثانية إن لم تكن كالأولى.

(فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي)

أي أن مجموع المؤمنين يجب أن يقاتلوا الفئة الباغية، ولو أن هذه الآية مطبّقة في العالم الإسلامي فإنّ المسلم قبل أن يعتدي على أخيه المسلم يتريّث كثيراً، لأنه إن فعل ذلك سيخسر كافّة المؤمنين، وسيوجه المؤمنين كافّة إلى مستوى القِتال.

(فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)

لو أن الفئة الثانية الباغية استجابت لانتهى الأمر.

القتال نوازعه أرضية لذلك علينا تغليب مصلحة المسلمين و وحدة صفهم:

الآن.

(فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا)

إن لم تستجب نقاتلها حتى تخضع، وأما إذا لم يستجب الطرفان المتقاتلان ويبغيان فإننا نقاتل الطرفين معاً، لكن الإنسان متى يلجأ إلى القتال ؟ فالقتال نوازعه أرضية، فتغليب مصلحة المسلمين، وتغليب وحدة صفِّهم، وسمعتهم، والألفة بينهم، وإيثار مصلحة كافّة المؤمنين على مصلحة فئةٍ منهم هذا مما يوجبه الإيمان، وهذه من صفات المؤمن المخلِص، فعندما يقاتل الإنسان في الأعم الأغلب يقاتل من أجل الدنيا، ومن أجل مكاسب رخيصة، فلذلك هذا هو الباغي، الباغي يجب أن نقاتله جميعاً.

(حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)

إذا فاء الباغي إلى أمر الله لا تؤخذ غنائمه و لا تسبى نساءه:

لكن:

(فَإِنْ فَاءَتْ)

هذا الذي يبغي لا يجوز أن تؤخذ أمواله غنائم، فإن فاء، هذا ليس كافراً، فالله سبحانه وتعالى أثبت له الإيمان فقال:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا)

أثبت اللهُ للطائفتين الإيمان، ولذلك فالباغي إذا فاء إلى أمر الله وعاد إليه ورجع لا تؤخذ أمواله غنائم، ولا يُقتَل أسيره، ولا يُجْهَزُ على جريحه، ولا تسبى نساءه ولا ذراريه، ويُعامَل كمؤمن إذا فاء.

على المؤمن أن يصلح بين المتقاتلين بالعدل:

(فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا)

طبعاً الإصلاح هنا إقامة شرع الله، وإيقاف كل طرفٍ عند حدّه فلا يعتدي، فهذا لك وهذا ليس لك:

((بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم على السمع والطاعة في المنشط والمكره وأن لا ننازع الأمرَ أهلَهُ))

[متفقٌ عليه عن عبادة بن الصامت]

أي إذا اجتمع المسلمون على مكره يجب ألا ننازع الأمر أهله، هذا من الدين.

على المؤمن أن يتقصى دقائق العدل بين الطرفين المتخاصمين:

ثم إن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ)

بالعدل جاءت في المرحلة الثانية، وفي الأولى نَشِبَ القتال، أو نشبت الخصومة، ولكن في الثانية ربَّما تكوَّنت الأحقاد، وربما عدّ كل طرفٍ الطرف الآخر متسبباً في هذا القتال، فالآن يجب أن نتقصّى دقائق العدل، وتفاصيل العدل بينهما.

(فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا)

قَسَطَ بمعنى ظَلَمَ لقوله تعالى:

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً)

(سورة الجن)

أما أقسَطَ أي أزال الظلم، أقسط.. بالهمز.. أي إزالة الظلم.

(وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ: هذه الآية توجب أشياء كثيرة منها:

ينبغي على الإنسان أن يعاون المَبْغي عليه:

أيها الأخوة... هذه الآية توجب أشياء كثيرة، وأول شيءٍ توجبه: أنه ينبغي أن تُعاون المَبْغِي عليه، فلا تقل: أنا ليس لي علاقة، شخصان اختصما في الحي، أو أخوان اختصما في البيت، فلا يجب أن يقف المؤمن متفرّجاً، هذان مؤمنان فإذا اختصما ضعفا معاً، قال تعالى:

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 46 ")

تفشلوا أي تضعفوا، وتذهب ريحكم أي تذهب قوتكم، فلذلك الحكم الشرعي أنه إذا نشبت خصومةٌ بين مؤمنين، وبين طرفين أو بين أطرافٍ عدّة لا ينبغي لك أن تقف أنت موقف المتفرّج وتقول: أنا ليس لي علاقة، فهذا الموقف سلبي وتُحَاسَب عليه، والدليل:

(فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)

المنازعات و السكوت عليها سبب أساسي في تفتت عضد المسلمين:

لا شيء يعين الظالم على ظلمه كسكوت الآخرين على هذا الظلم، فلو أن كل مسلمٍ رأى انحرافاً، أو رأى ظلماً بين مؤمنين ووقف إلى جانب المظلوم، لصار الظالم يفكِّر ألف مرّة قبل أن يقدم على ظلم أخيه، إذاً السلبية المقيتة التي تَفَشّت بين المؤمنين، تجد أخوين متحاربين اثنتي عشرة سنة وبقية الأخوة متفرّجون، وأسرتين متعاديتين سنوات طويلة وبقية أطراف الأسرة متفرِّجون، هذا الموقف الانهزامي أو السلبي ليس موقفاً إيمانياً يليق بالمؤمن لقوله تعالى:

(فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي)

هذه الآية أيها الأخوة... يجب أن نوسِّعها، ليست محصورةً في القتال، فالآية تشمل كل أنواع الخصومات، ولو أن الطرف الثالث وقف موقفاً مُنْصِفَاً من نزاعٍ بين مؤمنين، أو بين أطرافٍ عدّة من المؤمنين لحُسِمَ هذا الخصام ولعادت المياه إلى مجاريها، والتف المؤمنون وصاروا قوّةً لا يُستهَان بها، فما الذي ضعضع قوة المسلمين وفتّ في عضدهم، وفرّقهم وشتّت شملهم ؟ إنها هذه المنازعات فيما بينهم، وهذه الآية هي حلٌ لهذه المشكلة.

على الإنسان مقاطعة الباغي و زجره ليتقلص الظلم و ينمو العدل:

أنا لو وسّعت الآية إلى مستوى الخصومات بين الأسر ؛ فهناك خصومات، وتدابر، وبغضاء، وطعن، وغيبة، والأطراف الباقية متفرّجة تستمتع بهذه الخصومات، ولكن الموقف الإيماني يقتضي أن تنصح الطرفين بأن يلزما العدل، ويلزما ما أمر الله به.

(فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا)

يجب أن تقاطع الباغي، وأن تزجره، وأن توقفَه عند حدِّه، فبهذه الطريقة يتقلّص الظلم وتضيق دوائره، وينمو العدل وتتسع دوائره، ولذلك:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود)

ولو أن الله سبحانه وتعالى قال: صالحون لاختلف الأمر، لأن المعنى يختلف اختلافاً كبيراً، والله عزّ وجل لا يُهلِك قرية وأهلها مصلحون، أما إذا كان أهلها صالحين، متفرّجين، يتأمّلون ما يجري،

ويستمتعون بما يجري، دون أن يتحرّكوا، ودون أن يقفوا مع المظلوم ومع المبغي عليه ضدّ الباغي، إن فعل هؤلاء كذلك استحقّوا الهلاك، إذاً:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود)

على المؤمن إذا نشبت فتنة بين المؤمنين أن يساهم في حلّها:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

(سورة الأنفال: آية " 25 ")

إن الفتنة يجب أن يكون لك يدٌ في حلِها، مساهمةً، أو تمنّياً، أو حركة، أو كلمة، أو زيارة، أو كتابة كتاب، أو تحرُكًا، أما أن تنشب فتنةٌ بين المؤمنين وأن تبقى متفرّجاً، وتقول: ليس لي علاقة، فالله عزّ وجل قال:

(فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي)

طبعاً مرّة ثالثة ورابعة الآية واسعة الشمول، ولا تعني الاقتتال الحقيقي أي سفك الدماء بين المؤمنين بل تعني أوسع من ذلك، تعني كل خصومةٍ بين المؤمنين لأن الخصومة إنما تُضعِف المؤمنين جميعاً.

لا يفشو الباطل وتتسع دائرة الظلم إلا إذا لقي الباغي احتراماً من الجميع:

أيها الأخوة... أقرأ لكم سطرين، قال علماء اللغة: **" المادّة قد تُحمَل على حقيقتها أو على مجازها فتتسع لهما "**، التعبير الشائع الآن يقول لك: قاتلت من أجله، أي دافعت، أي تكلّمت، يعني رددت، قاتلت من أجله، يقتتلون بمعنى يختصمون، فالمادة تُحْمَل على حقيقتها وعلى مجازها فتتسع لهما، لكي لا تقول: أنا ليس لي علاقة بهذه الآية، هذه إذا وجدنا الدماء سالت بين المؤمنين أفكِّر في هذه الآية، لا، إن هذه الآية تتسع لكل خصومةٍ بين المؤمنين، فينبغي للمؤمن أن يكون له يد، فأحياناً بكلمة، وأحياناً بكتاب، وأحياناً بموقف صُلْب ضد الباغي، فالباغي يعود، أما يبغي ولا أحد يردعه، أما أن يبغي والكل يسلِّمون عليه، ثم يبغي ويلقى احتراماً من الجميع، ويرى من يؤيده على بغيه، أو هناك من يطيّب له بغيه، فعندئذٍ يفشو الباطل وتتسع دائرة الظلم ويضمحلّ العدل، فهذه الآية يجب أن توضع موضع التنفيذ على أي مستوى من الخصومات.

الإصلاح أن يدعو المؤمن المتخاصمين إلى حكم الله وحكم القرآن وحكم النبي:

وعلى أكبر مستوى لو أن المسلمين كجماعاتٍ كبرى طبّقوا هذه الآية لما نُقِلت الأموال من بين أيديهم إلى أعدائهم، لكنهم لم يطبّقوا هذه الآية فاحتكموا إلى جهاتٍ أخرى، فكانت لهذه الجهات الأخرى فرصة ثمينة أن أخذت كل ما في أيدي المتخاصمين ولقّته إليها وبدأت تبتز أموال الأطراف جميعاً.

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا)

الإصلاح أن تدعوه إلى حكم الله، وحكم القرآن، وحكم النبي عليه الصلاة والسلام، فهذا هو الإصلاح.

قتال الكفار يبيح أموالهم و ذريتهم أما قتال المؤمن لا يبيح ذلك:

(فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي)

(فَإِنْ فَاءَتْ)

هذا ليس كافراً بل هذا مؤمن، والدليل:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا)

إذاً ماذا نفهم من هذا الحكمِ شرعي ؟ هذا الذي بغى ثم فاء إلى أمر الله فأمواله ليست غنائم، وأسيره لا يُقتَل، وجريحه لا يُجْهَز عليه، وذراريه لا تؤسَر، ولا يضمن ما فعل، فهذا هو البغي وليس هو كقتال الكفّار، فقتال الكفّار يبيح أموالهم، وذراريهم، ولكن قتال المؤمنين لا يبيح كل ذلك، حتى إنّ هذا الذي يُقتَل في معركةٍ من هذه المعارك يُغَسّل ويُصلّى عليه ويُدفَن في مدافن المسلمين، بل إن الذي فاء إلى أمر الله إذا قُتِل يُعَدُّ شهيداً، فهو الذي رجع وكان مبغياً عليه فهذا لا يُغسّل بل يُدفَن بثيابه لأنه شهيد، ففرقٌ كبير بين أن تنشب خصومةٍ تنتهي إلى قتالٍ بين مؤمنين وبين أن يقاتل المؤمنون الكفّار، إنه فرقٌ كبيرٌ في الأحكام الشرعية، فهذا لا يُقال له كافر بل يُقال له باغ، والباغي يوقف في وجهه، ويُردُّ إلى حكم الله ورسوله فإن أبى فيُقَاتَل.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ: آية لها عدة معان:

1 ـ جاء التعبير عن إخوة المؤمنين بالتعبير الاسمي لأنه يدل على الثبات و الاستمرار:

أيها الأخوة الكرام... ويقول الله سبحانه وتعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

والعلاقة بين الآيتين واضحة جداً، والمؤمنون إخوة، وأول ملاحظة: هذا التركيب الاسمي، ومعنى التركيب الاسمي أي مؤلّف من مبتدأ وخبر، والتركيب الفعلي مؤلّف من فعل وفاعل، والتركيب الاسمي يدل على الثبات والاستمرار، بينما التركيب الفعلي يدل على الحدوث والانقطاع، دخل فلانٌ إلى غرفته، أي انتهى الدخول، لكن إذا قلنا: فلانٌ طويلٌ فهذا تركيبٌ اسمي، والتركيب الاسمي يدل على الاستمرار والاستقرار، والتركيب الفعلي يدل على الحدوث والانقطاع، ولذلك جاء التعبير عن إخوة المؤمنين بالتعبير الاسمي.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

2 ـ تشبيه العلاقة بين المؤمنين بأرفع علاقة بين الناس و هي علاقة النسب:

ويوجد معنى آخر:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

هذا تشبيه بليغ، شبّه العلاقة بين المؤمنين بأرفع علاقة بين الناس وهي علاقة النَسَب، فكيف أن هذا الأخ أخٌ لك على التأبيد، وهل يستطيع أحدٌ أن يقول: هذا ليس أخي ؟ هو أخوك شئت أم أبيت، أخوك من أمّك وأبيك شئت أم أبيت، وكيف أن التوالد بين الناس يسبب دوام النَسَب، كذلك الإيمان يسبب دوام الأخوة، فما دام الإيمان هو الأصل فالأخوة مستمرّة إلى ما شاء الله، وما دام التوالد هو الأصل فهذه أخوة النسب مستمرة، فكما أن أخوّة النسب مستمرّة فأخوة الإيمان مستمرّة، ولذلك شُبّهَتْ العلاقة بين المؤمنين بالعلاقة بين الأخوين الشقيقين اللذين من أمٍ واحدةٍ وأبٍ واحد، وهذا المعنى الثاني.

3 ـ التأكيد على أن المؤمنين إخوة:

والمعنى الثالث: فكلمة " إن " هذه تفيد التوكيد، فلو أن الله سبحانه وتعالى قال: المؤمنون إخوة فهذا شيء، وقوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

4 ـ ما لم تشعر بانتمائك إلى أخيك في الإيمان فلست مؤمناً:

(إنما)

هذه كافّة ومكفوفة تفيد معنىً رابعاً وهو أدق معاني هذه الآية وهو: أنه ما لم تشعر بانتمائك إلى أخيك في الإيمان فلست مؤمناً، وعلامة إيمانك أن تشعر بقربك الشديد من أخٍ مؤمنٍ ولو كان بعيداً عنك، أو من بلادٍ أخرى، ولو كان من أقوام أخر، لذلك:

((المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصَحَةٌ متوادّون ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعضٍ غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم))

الله عز وجل هو وحده القادر على خلق المودة بين المؤمنين:

أي أن أحد أسباب شعورك أن هذا الذي أمامك مؤمن فهذا هو الود، والحب بين المؤمنين، ولذلك قال تعالى:

(لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنّ اللّهَ أَلّفَ بَيْنَهُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 63 ")

والإنسان لا يُشْتَرَى بالمال، وأي صفقة مهما كان الثمن باهظاً لشراء إنسان، ومودّته، وصلته، وحبّه، فهذه الصفقة خاسرة، لكن الله سبحانه وتعالى هو الذي يخلق المودّة بين المؤمنين، لذلك:

(إِنّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

أول معنى: التركيب اسمي.

وثاني معنى: إنّ تفيد التوكيد.

وثالث معنى: إنما تفيد القصر والحصر، أي ما لم تشعر بهذه المودّة، وهذا الحب، وذاك الانتماء فأنت لست مؤمناً، فإيمانك يقتضي أن تُحِسّ بالأخوة بين المؤمنين، وأن تحسّ بالمحبّة والشوق والمودّة والنُصح للمؤمنين.

كلما ازدادت استقامة المؤمنين ضاقت الدائرة التي تجمعهم:

(إِنّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

بالمناسبة: أوسع دائرة دائرة المؤمنين، وكل إنسان آمن بالله عزّ وجل، آمن به موجوداً وواحداً وكاملاً فهو مؤمن، أما الأنبياء فيقعون في مركز هذه الدائرة، وأوسع دائرة كل من أقرّ بأن الله موجودٌ وواحدٌ وكامل فهو مؤمن، آمن بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين، فهذا هو المؤمن، والآن فكلّما ازدادت استقامة المؤمنين ضاقت الدائرة التي تجمعهم، فمؤمن ملتزم، ومؤمن غير ملتزم، والدليل الآية الكريمة:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ)

(سورة الأنعام)

فمعنى هذا أن هناك إنسانًا يؤمن ولكنه غير مستقيم، أو مؤمن غير ملتزم، فهذا يدخل في أوسع دائرة، أما إذا كان ملتزمًا فيدخل في الدائرة الصغرى، وكلّما اشتدّ التزام المؤمن تضيق الدائرة، ولذلك نحن نبحث عن مؤمن ملتزم، وهذه الدائرة إذا جمعت المؤمنين الملتزمين فهي دائرةٌ مباركة، فنحن نبحث عن مؤمنٍ ملتزم، فإذا كنت مع الملتزمين فهذه أمتن علاقةٍ بين المؤمنين.

5 ـ يجب أن يكون انتماء الإنسان إلى مجموع المؤمنين لا إلى جماعة قليلة منهم:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)

ومعنى الآية أيضاً: ينبغي أن يكون انتماؤك لمجموع المؤمنين لا إلى جماعةٍ قليلةٍ تعمّق انتماءك إليها على حساب انتمائك للمجموع العام، وهذا مما يفتت المؤمنين.

الإصلاح واجب إذا ظهر الفساد بين المؤمنين:

(فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)

لماذا جاء هنا بالمُثنّى ؟ طبعاً إذا ظهر فساد بين مؤمنين فالإصلاح بينهما واجب، أما إذا ظهر فساد بين مجموعة مؤمنين فإن الإصلاح بينهم من باب أولى، فالحد الأدنى لو أن مؤمنين اختلفا فينبغي أن تُصلِحَ بينهما، ولذلك فالمؤمن الصادق إذا رأى خصومة، أو مشكلة، أو قضية، أو مشاحنة، أو تدابراً، أو تباعداً، أو هجراً بين المؤمنين، ينبغي ألا يبقى متفرّجاً، بل يتحرّك، وهذا من أعظم الأعمال الصالحة، يتحرّك للإصلاح بينهما، ألم يقل الله عزّ وجل:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

(سورة الأنفال: آية "1 ")

أي أصلحوا ما بينكم من علاقاتٍ لا تُرْضي الله عزّ وجل.

طاعة الله عز وجل تزيل أسباب الخصومة بين المتخاصمين:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

فعندما يتقي الإنسان الله يلتقي مع أخيه، ولو أن الأخوين اتقيا ربّهما لالتقيا، ولو أن كل مؤمنٍ أقام الإسلام في بيته، وأقامه في عمله، والتزم كل حدود الله عزّ وجل لوجد نفسه مع أخيه المؤمن قلباً

وقالباً، فالطاعة لله تجمع، والمعصية تفرّق، ولو أن كل مؤمنٍ أخذ ما له وترك ما ليس له لالتقى المؤمنون، ولو أن كل أبٍ عرف ما عليه وما له لعمّ الوئام بين هذه الأسرة، ولو أن كل أخٍ أخذ ما له وترك ما ليس له لتوافق الأخوة، أنظر إلى الآية:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

فما الذي يسبب الخصومة بين الأشِقّاء ؟ إنه عدم العدل بينهم، فلو أن الأب التزم العدل بين أولاده لما أوقع بينهم العداوة والبغضاء، ولائتلف الأولاد ولأحبّ بعضهم بعضاً، فالذي يزيل أصل الخصومة طاعة الله عزّ وجل، أن تأخذ ما لك وتدع ما ليس لك، ولذلك قال تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

عدم وقوع العداوة بين الإنسان و أخيه إلا بذنبٍ اقترفه أحدهما:

لذلك لو تصوّرنا أخوين بينهما خصومة فإن المتسبب بالخصومة هو البعيد عن طاعة الله عزّ وجل، وأقربهما إلى الله أشدُّهما حُبّاً لصاحبه، فالإنسان لا تقع بينه وبين أخيه المؤمن عداوةٌ إلا بذنبٍ اقترفه أحدهما، أبداً، فما من خصومةٍ بين مؤمنين إلا بسبب ذنب، وهذا الذنب يسبب أخْذَ ما ليس له، أو أن يستطيل بلسانه على أخيه إرضاءً لغروره، أو لهوىً في نفسه، أو لنزوةٍ طارئةٍ في سلوكه، فلذلك فإن الإنسان إذا تواضع لله عزّ وجل وعرف حدّه نشأت علاقة طيّبةٌ بينه وبين المؤمنين، وأيّة خصومةٍ أساسها المعصية، وحبُّ الدنيا، والأهواء، والمصالح المتنازَع عليها.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

ونحن بطاعة الله عزّ وجل نفوز جميعاً.

كلما زاد حظ الدنيا مال الإنسان إلى التفرد و التنافس:

أيها الأخوة الكرام... كلمة أقولها لكم: الإنسان بدافع طبعه يحبُّ التفرُّد، ويحب السيطرة، ودافع تغليب مصلحة المسلمين على مصلحته الشخصية فيجب أن ينضوي مع المؤمنين، وعندما ينضوي الإنسان مع الجماعة طبعاً تَقِلُّ حظوظه من الدنيا، وتزيد حظوظه من الآخرة، فكلّما زاد حظُّ الدنيا مال الإنسانُ إلى التفرُّد، واستقصاء التفرُّد، والاستبداد، فعندنا تعاون وعندنا تنافس، وإنصاف وجحود، والجحود من الدنيا والتنافس منها، والإنصاف من الآخرة والتعاون منها، ولذلك الآية الكريمة:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة: آية " 2 ")

موضوعات السخرية لا قيمة لها عند الله و ليست هي المرجحة بين عباد الله:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ)

وموضوعات السخرية على أشكال، فأحياناً الفقر، وأحياناً ضَعْف المعلومات، فالعالِم في اختصاص معيَّن يسخر من الجاهل، والغني يسخر من الفقير، والقوي من الضعيف، والوسيم من الدميم، والصحيح من المريض، وهذه الموضوعات التي هي موضوعات السخرية هذه موضوعاتٌ لا قيمة لها عند الله، وليست هي المرجِّحة بين عباد الله، ولذلك قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً)

قد يتوهّم الغني أنه أفضل عند الله من الفقير، والحقيقة أنّ الفقير الذي لا يملك شيئاً من حطام الدنيا قد يكون له مقامٌ عند الله يفوق بآلاف المرات هذا الغني، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((أهلاً بمن خبّرني جبريل بقدومه (وكان صحابيّاً فقيراً) قال: أو مثلي؟ قال: نعم يا أخي خاملٌ في الأرض علمٌ في السماء))

العبرة بخواتيم الحياة لا ببداياتها:

خطأ كبير أن يظن الإنسان نفسه أنه غني والفقير ليس له قيمة عند الله عزّ وجل، فهذا الذي تراه فقيراً، وبيته صغير، ودخله قليل، وأثاثه خشن، وطعامه رخيص، ولباسه خشن، وقد لا يكفيه دخله لثمن طعامه، هذا ربّما كان أقرب إلى الله من الغني، وربّما كان أكرم على الله من الغني، والعبرة بخواتيم الحياة لا ببداياتها.

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

وقد يوجد إنسان قوي أي يتحرّك حركة فيهُز الآخرين بحركته، ومع ذلك قد يكون المستضعف أكرم على الله منه، وأقرب إلى الله منه، فلا القوّة ولا الوسامة ولا الذكاء يرفعك عند الله، ولا الشهادات العُليا ترفعك عند الله، وأحياناً يكون العلم المادي العصري الذي هو من حظوظ الدنيا، ففلان معه دكتوراه دولة ودائماً يحب أن يُنادَى به، فإذا لم يُنادَ به فقد يتألّم أشدّ الألم، إلا أنك قد تجد إنسانًا لا يحمل هذه الشهادة ولكنه مستقيمٌ على أمر الله، وهذا الذي يحمل هذه الشهادة ليس ملتزماً، لكن من هو العالِم عند الله ؟

((كفى بالمرء علماً أن يخشى الله وكفى به جهلاً أن يعصيه))

[أخرجه الدارمي عن مسروق]

فالعاصي مدموغ بالجهل، والطائع مدموغ بالعلم، العالم طاعته شهادته، والعاصي معصيته دليل جهله، فلذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنّ خَيْراً مِنْهُنّ)

من رأى عاصياً عليه أن يحمد الله أن هداه للإيمان و يدعو له بالتوبة:

الآن يوجد موضوع جديد، حتى لو كنت مقيماً على طاعة الله ورأيت إنسانًا مبتلى بمعصية، فأنت الآن طائع وهو الآن يعصي، ولو زهوت بطاعتك واحتقرت هذا الإنسان وهذه المعصية، ونسيت أن الله سبحانه وتعالى أكرمك بالهُدَى وأعانك على طاعته، وأن هذا المبتلى قد يتوب وقد يسبقك بآلاف الخطوات، حتى المؤمن إذا رأى عاصياً لا يحتقره بل يقول: أرجو الله أن يهديه، ولو لم يتفضّل الله عليّ لكنت مثله، ولذلك فالنبي الكريم علّمك إذا رأيت مبتلىً أن تقول:

((الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به كثيراً من خلقه))

ولكن دون أن تسمعه هذا الكلام، ففي إسماعه لهذا الكلام كسرٌ لقلبه، وعلى كلٍّ فالنبي الكريم يقول:

((الذنب شؤمٌ على غير صاحِبِه إن تكلّم به فقد اغتابه، وإن أقرّه فقد شاركه في الإثم، وإن عيّرَهُ ابتلي به))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه ضعف]

وحتى لو رأيت عاصياً يجب أن تحمد الله عزّ وجل أن هداك للإيمان وأن أعانك على طاعته، وأن تدعو له بالتوبة والطاعة لله عزّ وجل، هذا هو المؤمن.

موضوع السخرية موضوع فيه شرك بالله و تجبّر على عباده:

وبصراحة أقول لكم: جنس السخرية عند المؤمن غير موجود، حتى إنه لا يسخر ممن يعصي الله، فموضوع السخرية في الأساس موضوع فيه تَجَبُّر، وفيه شرك بالله عزّ وجل، واعتزاز بالنفس، وعنصر السخرية أصلاً لا يدخل في حياة المؤمن، لا يسخر من فقير إذا كان غنيّاً، ولا من ضعيف إذا كان قويّاً، ولا من دميم إذا كان وسيماً، ولا من مريض إذا كان صحيحاً، ولا ممن لا يحمل شهاداته إذا كان متعلِّماً، ولا ممن يقع في ذنبٍ أمامه إذا كان هو مستقيماً، لكنه يرى فضل الله عليه دائماً. وأقول لكم هذه الكلمة: السخرية جملةً وتفصيلاً في كل مستوياتها، وفي كل مناحيها، وفي كل

موضوعاتها لا يمكن أن تدخل في حياة المؤمن، ولا يسخر أبداً لأنه يعلم أن فضل الله يؤتيه من يشاء، وأن هذا الذي سَخِرَ منه ربما رفاقه.

ومرّة كان رجلٌ يملك من المال ما لا سبيل إلى حصره، تقدّم مهندس وسيم الطلعة وأخلاقه عالية لخطبة ابنته، فقال ساخراً: كم دخلك ؟ فاستقلّ دخله ورفض أن يزوِّجه ابنته.. والقصّة رواها لي والله أخٌ صادق وقد وقعت في هذه البلدة ولا سبيل إلى تفاصيلها.. ولم يمض أربعة أو خمسة أعوام حتى اضطر هذا الغني أن يعمل عند هذا المهندس موظّفاً، ثم توسّط له من شَجّعه على خطبة ابنته، والله عزّ وجل بترتيب معين كانت له مشاريع ومعامل، فبقرار واحد أُلغيت وعليه نفقات كبيرة جداً والتزامات كبيرة، فالالتزامات فوق كل أملاكه فوقع في عجز كبير وأعلن إفلاسه، ثم بحث عن هذا الخاطب قبل أربع سنوات لعلّه يخطب ابنته، فخطبها وتزوّجها وعمل هذا العمُ عند صهره موظّفاً.

(لَا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قوْمٍ)

الله كبير.

الإنسان العاقل لا يسخر من أحد حتى ممن يعصي الله فلعل الله يتوب عليه :

أيها الأخوة... مرّةً ثانية: السخرية مرفوضة في حياة المؤمن، حتى في موضوعات الدين لا تسخر ممن يعصي الله فلعلّ الله يتوب عليه، ولعلّه يسبق الساخر، وطبعاً هي معصية وأنت في طاعة، ولكن بدل من أن تسخر اشكر الله عزّ وجل على أن هداك إليه وأعانك على طاعته، وبدل من أن تسخر ادعُ له بالتوبة، وتوجّه لنصحه، وجنس السخرية لا يمكن أن يدخل في قاموس المؤمن في كل موضوعاتها، وفي كل مستوياتها، والسخرية تَجَبُّر وشِرْكٌ، فما معنى كونها شركًا ؟ أي أنت بذكائك حصّلت ما حصّلت إليه ؟ لا، بل بفضل الله عزّ وجل، ماذا قال قارون ؟ قال:

(إنّمَا أوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: آية " 78 ")

هذا هو الشرك، فمن الذي يسخر ؟ من غاب فضل الله عنه، يرى جهده، وذكاءه، وعمله الدؤوب، وماضيه الطويل، وخبراته المتراكمة، هذا الذي يسخر، أما الذي يرى فضل الله عليه فلا يسخر بل بالعكس إنه يشكر، والشكر مكان السخرية، والنُصْح مكان السخرية، اشكر الله على ما أنت فيه، وانصح وادعُ لهذا الذي تراه أقلّ منك، وهذا نهي في القرآن الكريم، آية صريحة.

(يَا أيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قوْمٍ عَسَى أنْ يَكُونُوا خَيْراً)

المؤمن الحقيقي هو المؤمن الذي يبعد عنه السخرية و تعليقاتها:

تروي كتب الأدب أن رجلاً غنياً جلس مع زوجته يأكلان دجاجاً، طُرقَ الباب، ففتحت الزوجة الباب فرأت متسوّلاً، همّت أن تعطيه من هذا الطعام شيئاً فنهرها زوجها ووبّخها وقال: اطرديه، وبعد حين ساءت العلاقات بين الزوجين فطلّقها، وتزوجت بآخر فكان غنياً، ومرّةً كانت مع زوجها الثاني يأكلان الدجاج فطرق طارقٌ، فذهبت لتفتح الباب فوجَمَت، قال: ما لكِ ؟ قالت: لا شيء، قال: قولي، قالت: أتدري من الطارق ؟ إنه زوجي الأول، قال: وهل تدرين من أنا ؟ إنني السائل الأول، فالله عزّ وجل قادر أن يجعل الفقير غنياً، فإذا أعطى أدهش، وإذا سلب أدهش، وأحياناً يُدهِش بالعطاء ويُدهِش في السلب، أحياناً شخص لا تعبأ به وقد يصبح في منصب كبير جداً، وأنت عنده تعمل، فالمؤمن لا يسخر.

لا يسخر قويٌّ من ضعيف، ولا غنيٌّ من فقير، ولا صحيحٌ من مريض، ولا وسيمٌ من دميم، هذه الوسامة بحادث بسيط يصير الإنسان مشوّهاً، فأين جماله ؟ ولا صحيحٌ من سقيم، ولا غنيٌّ من فقير، ولا عالِمٌ من جاهل، فالجاهل علِمه، ولكن إياك أن تسخر منه، هناك جبابرة العلماء إذا سألهم واحد سؤالاً فيمطرونه سخرية، فما هذا السؤال ؟ أنت اشكر الله على أن علّمك وزكِّ عن هذه النعمة بتعليم هذا الإنسان، فالسخرية وتعلّقاتها لا يمكن أن تكون داخلةً في حياة المؤمن، أيسخر ؟ فمعنى هذا أنه مشرك، أيسخر فهو متجبّر، وهل يسخر ؟ فيتجاهل أن الله بيده كل شيء، وأنه يجعل الفقير غنياً والغني فقيراً، والمريض صحيحاً والصحيح مريضاً.

كل إنسان يعتز بشيء ويحتقر ما عند الآخرين يقصمه الله عزّ وجل:

وقصة ليست في بلادنا بل في بلاد الغرب..إنه رجل يؤمن أن الجري هو كل شيء، مات وهو يجري، والجري عنده الصحة كلُّها، فالجري مفيد جداً، أما أن تعبده من دون الله فلا، فكان حتفه في الجري، فكل إنسان يعتز بشيء ويحتقر ما عند الآخرين يقصمه الله عزّ وجل.

((الكبرياء إزاري والعظمة ردائي فمن نازعني فيهما شيئًا قصمته ولا أبالي))

[أخرجه أبو داود و ابن ماجه و أحمد عن أبي هريرة]

سيدنا عمر بن الخطاب بلغه أن أحد الأشخاص الذين كانوا معه ذهب إلى بلاد الشام وشَربَ الخمر وتنصّر... الخ، فما سخِرَ منه بل أرسل له كتاباً رقيقاً وقال له: **"أما بعد ذكّره بربه.**

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ)

(سورة غافر: آية " 3 ")

أحمد الله إليك.. "، فهذا الذي يشرب الخمر وشرد عن أمر الله عزّ وجل يقرأ ويبكي إلى أن تاب الله عليه، فالمؤمن عنده رحمة وتواضع، وعنده شعور أن فضل الله عليه كبير، ألا تقرؤون قول الله تعالى:

(وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

(سورة النساء)

الله علّمك وعلّمه، ورفع شأنك فخذ بيده إليك.

من أراد محبة الناس عليه ألا يسخر منهم:

حاطب بن بلتعة ارتكب خيانة عُظمى، فقال سيدنا عمر: **يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق،** فقال له:

((لا يا عمر إنه شَهِدَ بدراً))

فجاء بحاطب وقال:

((يا حاطب ما حملك على ما فعلت))

قال له: والله يا رسول الله ما كفرت ولا ارتددت، ولكن أردت أن يكون لي صنيعة عند قريش أحمي بها مالي وأهلي، والله (أعادها ثانية) ما كفرت ولا ارتددت، فالنبي قال:

((إني صدقته فصدِّقوه ولا تقولوا فيه إلا خيراً))

أنهضه من عثرته، وأقاله من كبوته، ثم حسن إسلامه وأرسله مندوباً شخصياً له إلى بعض الملوك، أنت بالسخرية يصبح الطرف الآخر عدوّاً لك، ولكن بالنصح يحبّك، ولا يوجد شيء يبعد النفوس كالسخرية، والنصح يقرّب النفوس، فإذا أردت أن يحبك الناس فإياك أن تسخر منهم، ولا تسخر أبداً لعلّه أفضل منك عند الله.

السخرية علامة جهل وشرك وتجبُّر :

مرّة كنّا في عرفات قبل أعوام، قال أحد الخطباء في عرفات: لعلّ واحداً منكم ممن لا يؤوبه له غفر الله له وبمغفرته غفر لنا، هناك أشخاص ربما كانوا عند الله في مقام عالٍ وأنت لا تعرفهم، فإياك أن تسخر من أحداً، السخرية علامة جهل وشرك وتجبُّر، وتوجد آية صريحة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنّ خَيْراً مِنْهُنّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ)

الإنسان المؤمن يسعى دائماً للحرص على وحدة المؤمنين و سمعتهم:

وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى نتابع هذه الآيات، ولكن الذي أرجوه من الله تعالى أن تُتَرْجَمَ هذه المعاني إلى علاقات، وإلى سلوك يومي، أي إذا بلغ واحد منا خصومةٌ بين أخوين فلا يقل: (ما دخلني يصطفلوا، فخار يكسِّر بعضه)، بل هذا ليس كلام مؤمنين، بل هذا كلام كفّار، وليس كلام رحماء، بل ليس كلام إنسان الإيمان غالٍ عليه، وليس كلام إنسان يحرص على سمعة المؤمنين، وعلى وحدة صَفِّهم، وعلى قوّتهم، فلذلك الموقف السلبي محرَّم في نص هذه الآية:

(فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي)

وأنا متشدِّد في فهم الآية بالمعنى الواسع، فالقضية ليست قضية اقتتال وسيل دماء، بل الخصومات، و الذي يفرّق المؤمنين الآن خصوماتُهم، فلا تُحدِث خصومة، انفتح وكن عدلاً ورحيماً ومتواضعاً.. فما أخلص عبدٌ لله إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودّة والرحمة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجرات 049 - الدرس (4-6): تفسير الآية 11،الغيبة و النميمة و التنابز بالألقاب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-05-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام...مع الدرس الرابع من سورة الحجرات.

الغيبة و النميمة أساس تمزق المجتمع:

مع الآية الحادية عشر وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنّ خَيْراً مِنْهُنّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ)

أيها الأخوة الكرام... كما تعلمون من قبل أنّ الله سبحانه وتعالى يخاطب الناس بأصول الدين، ويخاطب المؤمنين بفروعه، فهناك دعوةٌ إلى الإيمان بالله، والإيمان بوجوده، وبوحدانيته، وبكماله، وهناك دعوةٌ إلى تطبيق منهجه، فهذه السورة من فروع الدين، فبعد أن آمن هذا الإنسان بربه فالآن تأتيه التوجيهات التفصيلية ؛ افعل ولا تفعل، فمن هذه التوجيهات التفصيلية أن نظام العلاقات الاجتماعية إذا شاعت فيه الغيبة والنميمة تمزّق المجتمع، والله سبحانه وتعالى أراد أن نجتمع، وكيف أراد أن نجتمع ؟ سمح لكل واحدٍ منا أو مَكّنَهُ أن يتقن عملاً وجعله في أمس الحاجة إلى ملايين الحاجات، وهذا التصميم الإلهي أراده الله لنا ومن محصلته ونتائجه الاجتماع.

مناط التكريم عند الله عز وجل ما استقر في القلب من معرفة الله:

نحن مقهورون للاجتماع، أنت محتاجٌ إلى أن تأكل وتشرب وترتدي ثياباً، وتسكن في بيت، وتعلِم أولادك، وتعالج نفسك عند طبيب، وتقاضي عند قاضٍ عن طريق محام، فأنت تتقن عملاً واحداً أو عملين، لكنك في أمس الحاجة إلى ملايين الأعمال، فلذلك نحن نجتمع، وبنظام الاجتماع من أجل أن نبقى متماسكين، متعاونين، متحابّين، متناصرين، متفاهمين، ولتغدو الحياة جميلة، فاضلة، مسعدةً، مريحة، ناعمة البال، هادئة، جاء التشريع الإلهي المتعلّق بالعلاقات الاجتماعية.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ)

كأن الله سبحانه وتعالى يبيّن لنا أن المظاهر التي تروْنَها، وأن الصور التي تشاهدونها، والمتاع الذي تحوزونه لا قيمة له إطلاقاً في ميزان الرقي عند الله عزّ وجل ؛ فلا مكان البيت، ولا حجمه، ولا تزيينه، ولا أثاثه، ولا طول القامة، ولا اللون المتألِق، ولا اتساع العينين، ولا نوع المركبة، فهذه الصور التي تؤخذون بها، وهذا المتاع الذي تحوزونه هذا كله ليس مناط التكريم عند الله عزّ وجل، فمناط التكريم ما استقر في قلوبكم من معرفةٍ لله عزّ وجل، ومن مشاعر نبيلة تجاه الناس، وإخلاصٍ لله عزّ وجل.

الجاهل من يسخر من الإنسان الفقير المستضعف:

لذلك الذي يسخر من إنسان فقير هو جاهل، قد يكون هذا الفقير أرقى عند الله منك، والذي يسخر من إنسان ضعيف مستضعف أيضاً جاهل، والله عزّ وجل لحكمةٍ بالغة قوّاك وضَعّفَهُ، وليست القوة دليل قربك من الله، فالله عزّ وجل أعطى الملك مَن لا يحب، فقد أعطاه فرعون، وأعطى المال مَن لا يحب، فقد أعطاه قارون، فهذه الصور التي يتيه الناس بها، وهذا المتاع الذي يتفاخر الناس باقتنائه، وهذه المركبات التي يزهو الناس بركوبها، وهذه البيوت التي يبالغ الناس في الاعتناء بها، أي هذه الصور التي تلتقطها أعينكم لا قيمة لها عند الله عزَ وجل، وليست هي مناط التكريم.

فالتكريم ما استقر في قلوبكم من معرفةٍ بالله، ومن تعظيمٍ له، وإخلاصٍ له، وإخلاصٍ للخَلق، ورغبةٍ في خدمة الخلق، ورحمة:

((إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))

[أخرجه مسلم وابن ماجة عن أبي هريرة]

وهذا مقياس دقيق.

المؤمن كلما اقترب من الله اقتربت موازينه من موازين الشرع:

لذلك فالله عزَ وجل قال: إياكم يا عبادي، إياكم ثم إياكم أن تسخروا ممن هو دونكم في مظاهر الدنيا، فلا ينبغي للغني أن يسخر من الفقير، ولا للقوي أن يسخر من الضعيف، ولا للصحيح أن يسخر من المريض، ولا للوسيم أن يسخر من الدميم، ولا المستقيم الطاهر مسموحٌ له أن يسخر من العاصي، هو عاصٍ ولكن بعد حين قد يكون أقرب إلى الله منك، فحتى العاصي لا ينبغي لك أن تسخر منه، بل عليك أن ترثي حاله وأن تدعو له بالهدى وأن توجِّهَهُ إذا أمكنك التوجيه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ)

والنقطة الدقيقة: متى الإنسان يظلم نفسه ؟ إذا احتقر مخلوقاً فهو عند الله عظيم، فظلمٌ كبير أن تتهم إنساناً بشيءٍ من حطام الدنيا وهو عند الله عظيم، فأنت ما أعطيته حقه، ومقياسك غير صحيح، ولذلك فالمؤمن كلما اقترب من الله اقتربت موازينه من موازين الشرع ؛ وكلما ابتعد عن الله تصبح له موازين ليست في الكتاب ولا في السنة، فهذا القرآن كله بين أيدينا.

العلم والعمل أقرهما الله عز وجل لوزن الخلق فقط:

أيّ ميزانٍ أقره الله عزّ وجل لوزن الخلق ؟ فميزان الجمال مثلاً لا قيمة له قال:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة: آية "221")

أميزان المال ؟ كذلك لا قيمة له.

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

(سورة التوبة)

أميزان الذكاء ؟

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22))

(سورة المدثر)

فكل هذه المقاييس التي تواضع الناس على أنها مُرَجِّحات بين الخلق، فالقرآن الكريم لم يعترف بها ولم يقم لها وزناً إلا مقياسين حصراً ؛ العلم والعمل، قال تعالى:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: آية "9")

وقال تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام: آية " 132 ")

قيمة الإنسان عند ربه بإيمانه و عمله الصالح:

أنت كلما اقتربت من الله تقترب في الموازين التي تستخدمها من موازين القرآن، وكلما ابتعدت عن الله عزّ وجل تستعمل موازين ما أنزل الله بها من سلطان، تقيم الإنسان بحجمه المالي، أو بقوته، أو بمدى

تمكنه من السيطرة على الآخرين، أو بوسامته، أو بذكائه الشيطاني، أو بنسبه وكلها عنعنات ما أنزل الله بها من سلطان، فلذلك كأن الله سبحانه وتعالى يبيّن أن هذه الصور التي تقع على أعينكم ؛ بيت فخم، ومركبة ثمينة، وقامة منتصبة، ولون متألِّق، وذكاء عالي المستوى لكن ليس في سبيل الله، هذه الصور التي تقع على أعينكم والتي يتفاضل الناس فيها لا قيمة لها عند الله، فالقيمة لإيمانك وعملك الصالح، ولِما استقر في القلب من رحمةٍ ومعرفةٍ وإخلاصٍ وإنابةٍ إلى الله عزّ وجل، وهذا يؤكده النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح:

((إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))

[أخرجه مسلم وابن ماجة عن أبي هريرة]

حتى أن بعض العارفين بالله سمّى القلب: منظر الرب، ورد في الأثر القدسي أن:

((يا عبدي طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظري ساعة ؟))

تناقض الكبر مع العبودية لله عز وجل:

تعتني بأثاث بيتك، وبمدخل البيت، تنظف مركبتك، تلبس ثيابًا أنيقة، فهذا منظر الخلق.

((أفلا طهرت منظري ساعة ؟))

وقد ورد في الحكم **" لا تجعل الله أهون الناظرين إليك "**، ولا تجعل الله الخالق العظيم أهون الناظرين إليك، فالإنسان أحياناً يستحي من ضيف تكون ثيابه غير أنيقة، بل متبذِّلة، فلا تجعل خالق الكون الذي يراك حين تقوم أهون الناظرين إليك، يقول الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنّ خَيْراً مِنْهُنّ)

فقد تجد امرأة أقل جمال من أختها لكنها أكثر معرفة بربّها، وأكثر رعاية لزوجها، وعطفاً على أولادها، وطاعةً لله، فهذا الجمال يذوي، وهذا التيه والزهو لا شأن له عند الله عزّ وجل، فأنت متواضع بقدر إيمانك، متكبّر بقدر بعدك عن الله عزّ وجل، فلا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبر لماذا ؟ لأن الكبر يتناقض مع العبودية لله عزّ وجل.

الجاهل من يستعلي على الناس و يتيه عليهم:

يمكن للحليب أن يضاف له من دون غش ضمن البيت، تضيف له لبنًا أوضح، فأن نضيف إلى اللبن ثلاثة أمثاله ماء وتعمله شراباً، فهو يتحمل أن تضيف له ثلاثة أمثال، ولكن لا يتحمل قطرة نفط واحدة،

وعندئذٍ يفسد وتلقيه في قارعة الطريق، فكذلك العبودية لله عزّ وجل لا تحتمل كبراً أبداً، ويجوز للإنسان أن يغلط آلاف الأغلاط عن غير قصد وعن غير تصميم ويتوب منها سريعاً، أما أن يأخذه العُجْب، و يستعلي على الناس، ويتيه على الناس بشكله، أو بماله، أو بقوته، أو بوسامته، أو بذكائه، فهذا الكبر يتناقض مع العبودية لله عزّ وجل، ولذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ)

المؤمن الغني هو المؤمن المتواضع أمام الفقراء، السخي في إنفاق المال:

أذكر أنني في الدرس الماضي قلت هذه الكلمة: السخرية جملة وتفصيلاً في أي موضوع وفي أي مستوى وفي أي درجة ليست داخلة في حياة المؤمن إطلاقاً، فلا يسخر إطلاقاً، وإن أردت التفصيل لا يمكن أن يضاف إلى كلمة مؤمن ولا كلمة أخرى، تقول: مؤمن فقط، أو مؤمن فقير، والفقر وسام شرف، فالنبي كان فقيراً، والفقير المؤمن متجمل، عفيفٌ عن المطامع وعن المحارم، وراضٍ بنصيبه من الله عزّ وجل، وعزيز النفس، ولا يبذل ماء وجهه لإنسانٍ ولا يثق بمودته، تقول: مؤمن غني، فالغني مقيد بالشرع، وسخيٌ في إنفاق المال، ومتواضعٌ أمام الفقراء، إذاً لم يعد اسمه غنياً، غني بحجمه المالي، أما بأخلاقه فمؤمن، والفقير لم يعد فقيراً، عنده نقص في المال، ولكن لا يوجد عنده نقص بالأخلاق، فأخلاقه عالية، مؤمن ريفي، الإيمان رفع شأنه إلى أعلى مستوى، فالعنعنات لا توجد في الإسلام.

الناس رجلان بر تقي أو غافل شقي:

والناس كما تعلمون أيها الأخوة رجلان في النهاية، الناس على اختلاف مللهم، ونحلهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وانتماءاتهم، واتجاهاتهم، وحضاراتهم، ورقيهم، ودخلهم الخ... الناس رجلان رجل عرف الله فاتصل به، وانضبط بشرعه، وأحسن إلى خلقه فسعد بقربه في الدنيا والآخرة، ورجل لم يعرف الله عزّ وجل، فمن لوازم عدم المعرفة أنه مقطوعٌ عن الله عزّ وجل، متفلتٌ من منهجه، مسيءٌ إلى خلقه، شقيٌ في الدنيا والآخرة، وهذا القرآن أمامكم، ليس في هذا الكتاب كله إلا هذان الصنفان، مؤمن وكافر، ومحسن ومسيء، وموصول ومقطوع، ومستقيم ومنحرف، ورحيم وقاسٍ، و مقبل ومعرض، أبداً هذا هو التقسيم الحقيقي، وأيّ تقسيمٍ آخر فتقسيمٌ جاهلي لا قيمة له، النبي سمع كلمة قالها رجل بحق إنسانٍ أسود البشرة، قال له: يا بن السوداء فقال له النبي عليه الصلاة و السلام:

((إنك امرؤٌ فيك جاهلية))

وانتهى الأمر.

الجاهلية من زان الناس بميزان غير ميزان الكتاب والسنة:

فالجاهلية أن تستخدم مقاييس غير مقاييس هذا الكتاب، وأن تزن الناس بميزان غير ميزان الكتاب والسنة، هذه هي الجاهلية، وأن تعظِّم إنساناً بماله، وتعظمه لقوته، وأن تحابيه لقربه منك فكل ذلك مقياس جاهلي:

((من ولي أمر عشرة وولى عليهم رجلاً فيهم من هو خيرٌ منه فقد خان الله ورسوله))

فالمحاباة غير موجودة في الإسلام:

((والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))

[أخرجه البخاري عن عائشة]

أبداً:

((إنما أهلك الله بني إسرائيل أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد))

[متفق عليه عن عائشة]

هذا هو الدين. فالمجتمع ما لم تحكمه قيمٌ واحدة تسري على كل أفراده فهذا المجتمع لا يتقدم أبداً، إنه مجتمع الإيمان ومجتمع المقاييس الواحدة، والمعايير الواحدة، فالمؤمنون جميعاً يُقَيِّمون بمقياسٍ واحد وبمعيار واحد، والإنسان كلما اقترب من الإيمان اقترب من مقاييس القرآن، فلا يُعَظِّمُ إلا المؤمن، ولذلك:

((لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي))

[أخرجه أبو داود، والترمذي عن أبي سعيد الخدري]

اللمز هو إشاعة العيوب و التعيير و كشف العورات:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنّ خَيْراً مِنْهُنّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

اللمز هو الطعن، والتشهير، وأن تعيب على الناس متاعَهُم الخشن، وحياتهم المتواضعة، وأن تعيب على الفقير فقره، وعلى الضعيف ضعفه، وعلى المريض مرضه، وعلى صاحب المتاع الخشن متاعه، فالنقد، والتعيير، وإشاعة العيوب، وكشف العَوْرات، هذا هو اللمز قال:

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

دعوة الله عز وجل المؤمنين إلى أن يكونوا كالجسد الواحد:

أما:

(أنفسكم)

كأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسم بالسهر والحمى، فكيف قال الله عزّ وجل:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة: آية "188 ")

أي إن أكلت مال أخيك فكأنما أكلت مالك لأنه أخوك إن قويَ فقوته لك، وإن أضعفته تضعف أنت معه، فإذا أكلت ماله فكأنما أكلت مالك.

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

يقاس عليها:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة النساء: آية "29 ")

أنت أخرجت عنصراً مؤمناً من المجتمع، فضعف المجتمع.

وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ: آية لها عدة معان:

1 ـ على الإنسان ألا يكون طعاناً أو لعاناً أو منتقداً:

حيثما وردت هذه الآية ومثيلاتها..

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة النساء: آية "29 ")

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة: آية "188 ")

فالله سبحانه وتعالى عَدّ المجتمع الإسلامي مجتمعاً واحداً، فإذا أضعفت أحد أفراده أضعفت المجتمع كله، وهذا معنى.

2 ـ على الإنسان ألا يفعل عملاً يلام عليه:

والمعنى الثاني لا تفعل شيئاً تستحق أن تعيّر به.

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

إياك أن تفعل شيئاً تدعو الناس به إلى ذمّك، فلا تضع نفسك موضع التهمة ثم تلوم الناس إذا اتهموك، وإياك وما يُعتَذر منه، وأيُّ عملٍ يصغرك تضطر أن تعتذر وأن تقول: لم أكن أعرف فسامحونا، ولا تؤاخذونا، فهذه الأعمال التي تحملك على أن تعتذر منها لا تليق بك.

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

العاقل من يبحث عن الفضائل و يوسعها:

صار لهذه الآية معنيان: الأول: لا تعمل عملاً تُلام عليه، فالنبي عليه الصلاة والسلام من أسمائه محمود، محمودٌ عند الله وعند الناس وعند نفسه، فبعلاقاتك، وبيعك، وشرائك، ومواعيدك، وأفراحك، لا تفعل شيئاً تُلام عليه، ولا ترتكب عملاً تضطر أن تصغر أمام الناس، وأن تعتذر، فهذا الموقف الكامل، وإيّاك أن تدخل موقفاً لا تحسنه، وأن تقوم بعمل لا تستطيعه، وأن توهِم الناس بحجمٍ أنت أقل منه.

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

لا تفعلوا عملاً تلامون عليه فهذا معنى، والمعنى الثاني، لا تكن طعّاناً، ولا عَيّاباً، ولا منتقداً، ولا تكن معول هدمٍ في المجتمع، بل كن بَنّاءً، ولا تكن سلبياً ولكن كن إيجابياً، ولا تبحث عن العيوب بل ابحث عن الفضائل ووسّعها ونَمّها.

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

من يستقم على أمر الله يحترم نفسه:

وحينما يحترم الإنسان نفسه يستقيم على أمر الله، وهذا شعور المستقيم.

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ)

(سورة يونس: آية "26")

هذه الآية الكريمة أيها الأخوة الكرام هي قانون الذل والعز.

الجنة و النظر إلى وجه الله الكريم عاقبة المتقين:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى)

الجنة.

(وَزِيَادَةٌ)

النظر إلى وجه الله الكريم.

(وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ)

الإنسان حينما يطمح فيما عند الله يحبه الله:

الإنسان متى يذل ؟ إذا أساء، ومتى يُلام ؟ إذا قصّر، ومتى يصغر ؟ إذا أخطأ، فإذا الإنسان جهد ألا يخطئ وألا يقصر، وألا يتوانى عن شيءٍ مكلفٍ به يرفع رأسه، عندئذٍ لا يستطيع أحدٌ أن ينال منه، قالوا: "استغن عن الرجل تكن نظيره، واحتج إليه تكن أسيره، وأحسن إليه تكن أميره " فالإنسان حينما يستغني عما في أيدي الناس يحبه الناس، وحينما يطمح فيما عند الله يحبه الله، والناس بالعكس، يزهدون فيما عند الله فيبغضهم الله عزّ وجل، ويطمعون فيما عند الناس فيبغضهم الناس، وهم عند الله مبغَضون، وعند الناس مبغضون، ازهد بما في أيدي الناس يحبك الناس، ولا تزهد بما عند الله عزّ وجل يحبك الله، الآية الكريمة:

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

والنبي الكريم أشار إلى هذا المعنى بقوله الكريم:

((إياك وما يعتذر منه))

وكل موقف وتصرُّف سوف تضطر بعده أن تقول: لا مؤاخذة، عفواً، فهذا الشيء الذي تضطر أن تعتذر منه لا تفعله، وارفع رأسك، ارفع رأسك يا أخي، قال سيدنا عمر لرجل: **" وسيدنا عمر رضي الله عنه رأى رجلاً مُتَماوِتاً، فقال: لا تُمِتْ علينا ديننا، أماتكَ الله ".**

المسلم عندما يطبق منهج الله عز وجل يشعر بعزة كبيرة:

هناك صحفي غربي يحلل هذا الحقد الشديد على المسلم الآن فقال: إن الشخصية الغربية الآن صغيرة أمام شخصية المسلم الأخلاقية، فصار للمسلم في شعور بالتفوق على الغربي لأنه غارق في الجنس والمخدرات، والانحلال الخلقي، بينما المسلم حياته نظيفة، ومشكلاته قليلة ودخله أعلى، وانضباطه

شديد، وأسرته ناجحة، وهذا منهج الله عزّ وجل، لذلك فالإنسان عندما يطبق منهج الله عزّ وجل يشعر بعزة ما بعدها عزة، ويُروى أن أحد الصحابة (ربما سيدنا الحسن) مشى مشية تيهٍ فقالوا: **" أتيةٌ يا سبط رسول الله ؟! قال: لا، هذا عز الطاعة "**، فالإنسان أحياناً يشعر بعز الطاعة لأنه نظيف، ولا يوجد عنده ازدواجية في حياته، فبيته نظيف، وعلاقاته نظيفة، وحساباته نظيفة، وليس عنده غموض، ولا شيء معلن وشيء لا يعلن، وما في قلبه ظاهر على لسانه، وما في لسانه مكشوف عنه في قلبه، فهذا التوحُّد والمظهر الواحد هذا من قوة شخصية المؤمن.

أحد أسباب استقامة المؤمن أنه يحترم نفسه:

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

احترامه لنفسه يدعوه للاستقامة على أمر ربه، لأن أي تقصير أو أي خلل يصغّرك، فأحياناً الناس يقولون: ما أحببت أن أصغر، فلو طلب منك إنسان طلباً وأنت نسيت أن تنفذه، فعندك كلمتان ؛ كلمة نسيت صعبة كأنك لا تنسى أبداً، أما كلمة: اتصلت به فلم أجده، فهذه أهون لك، أما لو قدّمت له عذراً غير صحيح فتصغر أمام نفسك، وكفاك أن تشعر بالمهانة أمام إنسان، وقد كفتك المهانة أمام نفسك، فلذلك أحد أسباب استقامة المؤمن أنه يحترم نفسه، ولا يريدها أن تكون صغيرةً، ولا يحبها متناقضة.

المؤمن الحقيقي من كان أداة بناء في المجتمع لا معول هدم:

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

المعنى الذي يفهم لا تعمل عملاً يُعَيّرُكَ الناس به، ويلومونك عليه، ويصغرونك فيما بينهم، والمعنى الثاني لا تكن طعاناً ولا فحاشاً، هناك إنسان نمطه متكبّر، لا يحتمل أن يكون معه أحد، ويحطم الكل من أجل أن يبقى وحده، فهذا نمط شيطاني.

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

لا تكن طعّانًا ولا لعانًا ولا فاحشًا ولا بذيئًا ولا عيّاباً، ولا تنظر إلى نصف الكأس الفارغ بل انظر إلى نصفه المليء، ولا تكن سلبياً بل كن إيجابياً، ولا تكن متشائماً بل كن متفائلاً، وإذا جلست مع إنسان فابحث عن نقاطه الإيجابية ولا تلتفت إلى عيوبه، وأثن عليها تنمُ، أما إذا تغافلت عن إيجابيته ونقّبت في عيوبه فهذا موقف سلبي هدّام، فلا تكن معول هدمٍ في المجتمع ولكن كُنْ أداة بناء.

على الإنسان ألا يحتقر الآخرين أو ينتقص منهم:

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ)

بالمناسبة السخرية أن تحتقر إنساناً أو أن تنتقص منه، أو أن تعيّرَهُ وهو في حضرتك، أما الغيبة فأن تقول عنه كلاماً يؤذيه وهو غائب، فالسخرية لا تقتصر على اللسان، فأحياناً بحركة تحاكي بها حركة إنسان فهي سخرية، وأحياناً بإشارة، وغمز، وحركة عينين، وتحريك عضلات الوجه فيها سخرية، وابتسامة، قال بعض علماء التفسير في قوله تعالى:

(يا ويلنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةٍ ولا كبيرةً إلا أحصاها)

الصغير الابتسام، والكبير القهقهة، فلو ابتسمت لموقف من مؤمن أخطأ فيه، أو كنت متمكنًا في علمٍ من العلوم وسألك إنسان سؤالاً دلّ على جهله بهذا العلم فلا تسخر منه، بل عَلِّمْهُ، فهناك من تأخذه العزة باختصاصه، فيسخر ويتهكم، لا، لا، الله عزّ وجل علمك وحجب عنه العلم والله قادر على أن يعكس الآية.

المؤمن الحقيقي من ابتعد عن موضوع السخرية جملة و تفصيلاً:

مرة أخٌ يرعى عملاً اجتماعياً خيرياً، ورجل قدم بيتاً بمبلغ كبير، فأقيمت له حفلة لتكرمه على هذا التبرع الثمين، فكل الخطباء أثنوا على سخائه وإحسانه وجوده و... إلا أخًا كريماً لفت نظر هذا المحسن إلى حقيقة قال له: كان من الممكن لو أراد الله أن تكون أحد المنتفعين بجمعيتنا، أن نعطيك معاشاً شهرياً، ولكن الله شاءت حكمته أن يغنيك، فهذا من فضل الله عليك أنه أغناك وسمح لك أن تعطي، ولو شاء لكنت الطرف الآخر الذي يأخذ.

فالإنسان لا يسخر، كما قلت قبل قليل: فموضوع السخرية جملة وتفصيلاً، بقضه وقضيضه لا يدخل في حياة المؤمن أبداً، ولا يسخر حتى ممن يعصي الله عزّ وجل، بل يدعو له بالهدى والتوفيق، ويقال: **" من عيّر أخاه بذنبٍ تاب منه لم يمت حتى يعمله"**، ونحن عندنا مشكلة لو أنّ إنسانًا غلط ثم تاب، فكلما رأيته تذكر تلك المشكلة، وهذا من لؤم الإنسان، امرأةٌ زلّت قدمها في عهد سيدنا عمر وأقيم عليها الحد، وبعد حين جاء من يخطبها، فجاء أخوها لسيدنا عمر يستفتيه: **" أأذكر للخاطب ما كان منها ؟ فما كان من عمر رضي الله عنه إلا أن قال له: والله لو ذكرت له لقتلتك "**، فالإنسان تاب وانتهى الأمر.

الكمال يقتضي إذا وقع أخ في ذنب وتاب منه فعليك أن تتجاهله تجاهلاً كاملاً:

إخوة يوسف عليه السلام ماذا فعلوا بأخيهم ؟ ألقوه في الجب لماذا ؟ ليموت، أي أرادوا قتله، فلما دخلوا عليه قال:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)

(سورة يوسف: آية "100 ")

ولماذا لم يذكر الجب ؟ الجب أخطر، والإنسان تكون حياته مضمونة في السجن، وغذاؤه موجود لكن تؤسر حريته، أما في الجب فموته محقق، لماذا يا أيها النبي الكريم لم تذكر موضوع الجب بل ذكرت موضوع السجن ؟

(يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)

(سورة يوسف: آية "100 ")

وماذا عن الجب ؟ إنه ما ذكر الجب لئلا يذكِّر إخوته بعملهم السابق، فإذا كان لك أخ تاب من موضوع فهل تظل تذكره بالموضوع ليس لك حق، لقد غلط في حياته، وهناك إنسان يضيّق ولا ينسى الماضي، والكمال يقتضي إذا وقع أخ في ذنب وتاب منه فعليك أن تتجاهله تجاهلاً كاملاً، قال: **" من عيّر أخاه بذنبٍ تاب منه لم يمت حتى يعمله "** عقاباً له، لأنه تجبر.

الذنب شؤمٌ على غير صاحبه:

والنقطة ذكرتها في الدرس الماضي ولكن يحسن أن نعيدها مرة ثانية الذنب شؤمٌ على غير صاحبه، إن ذكره فقد اغتابه، وإن عيّره ابتلي به، وإن رضي به شاركه في الإثم، احذر إن اقترف أخوك ذنباً أن تشيع هذا الذنب بين الناس فقد اغتبته، ثم احذر أن تُعَيّرَهُ به عندئذٍ فتبتلى به، ثم احذر أن تقره عليه فتشاركه في الإثم، لا هذه، ولا هذه ولا هذه، اشكر الله عزّ وجل على أن نجّاك من هذا الذنب وادعُ لأخيك بالتوبة منه وانتهى الأمر.

لا ينبغي للإنسان أن ينادي الناس إلا بأحب الأسماء إليهم:

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ)

المؤمن ينادي أخاه المؤمن بأحب الأسماء إليه، فهذا هو المؤمن، من الرجل ؟ قال له: زيد الخيل، فقال عليه الصلاة والسلام: **"زيد الخير".. " ما اسمكِ يا فلانة ؟ " لفتاة صغيرة، قالت: عاصية قال: " بل أنتِ جميلة "**، اللهم صلّ عليه غيّر الأسماء الجاهلية كلها.

(وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ)

فبعض الأشخاص يحلو لهم المُزاح في هذا الموضوع، وتأكدوا أيها الأخوة أن الإنسان إذا ناديته باسمٍ قبيح لو ابتسم لك لذكائه فيجاملك، ولكنه يتألّم، وطبعاً من أنواع الذكاء أن يجاملك ويضحك معك، أما لو ضحك من هذه التسمية القبيحة لكنّ قلبه يُكْلَمُ، ويقطر دماً وألماً منك، فلذلك لا ينبغي لك أن تنادي الناس إلا بأحب الأسماء إليهم.

إحدى قواعد التعامل مع المؤمنين أنه إذا ترك الإنسان ذنباً فلا تذكّره به:

(وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ)

العوام الجهلة البعيدون عن مجالس العلم لو استمعت إلى أقوالهم وإلى خطاباتهم لأخذك العجب العجاب ؛ وقاحة، وبذاءة، وتهكّماً، وعورات، فهذا مستوى الإنسان غير المتعلم ؟ لا، أقول: المتعلم الذي يكون معه شهادات ؟ لا، كل إنسان حضر مجلس علم أصبح متعلماً، وكل إنسان طبق الشرع فهو عالم:

((كفى بالمرء علماً أن يخشى الله وكفى به جهلاً أن يعصيه))

[أخرجه الدارمي عن مسروق]

(وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ)

وهناك نقطة أنه كان هناك يهودياً فأسلم (إذ عندنا يهود أسلموا)، فكان بعض المنافقين يقول له: يا يهودي بعد أن أسلم، ووُجد منافقاً، فاستقام وصلح أمره، وحتى الألقاب التي كانت لهم قبل الإسلام بعد أن أسلموا وتابوا لا ينبغي أن تطلق عليهم أبداً، فهذه إحدى قواعد التعامل مع المؤمنين، إذا ترك الإنسان ذنباً.. انتهى الأمر.. فلا تذكِّره به لا من قريب، ولا من بعيد، ولا إشارة، ولا عبارة، ولا تنويهاً، ولا تعليقاً، تاب فتاب الله عليه:

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هَنِّئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

((إذا تاب العبد توبة نصوحاً أنسى الله حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه))

[ورد في الأثر]

الله عز وجل ستار يحب كل من يستر على أخيه:

إذا كان الإله تاب عليه أفلا تتوب ؟ والإله ستره وأنت تفضحه ؟ فليس هذا من أخلاق المؤمنين، والله عزّ وجل ستّار يحب كل من يستر على أخيه، وقد ذكرت قصة سابقاً ؛ بنت زلّت قدمها فتزوجت، فلا

تقل: هذه كانت هكذا، إذا سمع زوجها بهذا الشيء يطلقها، بلا رحمة، يريد أن يتسلى، معه معلومات فيتكلم بها، إنه شيطان يتكلم، فإذا إنسان كان له ماضٍ وتاب واستقام، وله ترتيب سابق ورجع عنه قال:

(وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ)

لا التي بعد الإسلام ولا التي قبل الإسلام.

(وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ)

من تاب إلى الله توبة نصوحة عليه أن يستر نفسه مادام الله ستره:

بالمناسبة نحن لا يوجد عندنا بالدين اعتراف أبداً، فإذا كان للإنسان أخطاء، وتقصيرات، وزلاّت قدَم، وتاب الله عليه لا ينبغي له أن يقول هذا لأحدٍ كائناً من كان، والإنسان لا ينسى، كلما رآه يتذكر الماضي، فإذا كان لك غلطة فلا تقلها لأحد، ما دام الله سترك وتاب عليك فأنت استر، ولا حاجة إلى الفضيحة، فالذي يفضح نفسه يجترئ على الله، لأنه سترك وأنت تتكلم !! فإذا تكلم الإنسان وعرف الناس أخطاءه السابقة عيّروه بها دائماً.

(وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ)

فلو فرضنا إنسانًا أكل في مطعم ولم يدفع الثمن، في زمن الجاهلية، ثم أراد أن يتوب إلى الله بإمكانه أن يدفع المبلغ دون أن يعلم صاحب المطعم أنه عن طعامٍ أكله دون أن يدفع ثمنه، ضع المبلغ داخل رسالة وألقه له وانتهى الأمر، والله لم يكلِفك أن تفضح نفسك، لكن لابدّ من أن تؤدي الحقوق.

من تاب إلى الله عليه أن يعمل جرداً لأعماله السابقة دون أن يفضح نفسه:

(وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ)

قال لي صاحب محل يبيع حلويات: دخل شاب وألقى لي ظرفًا وقد كتب لي فيه: أنا مرة أكلت دون أن أدفع الثمن وقد تبت إلى الله وهذا هو المبلغ فخذه، فإذا أراد الإنسان أن يتوب توبة نصوحاً فعليه أن يؤدي ما عليه من حقوق، وقال لي أخ ثان صاحب معمل: حصل في معملي سرقات مستمرة ما تركت طريقة لكشفها، ولكن لم أكتشف السارق، وبعد عشر سنوات دخل شاب فقال لي: لقد كنت عندك وكان لي أخطاء وجئت لأعطيك ما علي، ونظير توبته قلت له: أنت مسامح وإذا أردت العمل ثانيةً فلك مكان في المعمل، فعد إلى المعمل واشتغل فيه، فلا تجد أحلى من التوبة إلى الله عزّ وجل، فإذا تاب الإنسان عمل جرداً لأخطائه السابقة دون أن يفضح نفسه.

(وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ)

المؤمن مقدم، والمؤمن غالٍ على الله، فلا يليق به أن يضاف لاسمه الشريف الطاهر اسم سيّئ أو عمل قبيح، وكلمة اسم هنا أي الذكر، فإذا ذكرت إنسانًا بماضيه بعد أن تاب فهذا الاسم لا يتناسب مع الإيمان.

المؤمن العاقل من يطلب الدليل قبل أن يظن بغيره:

(بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنّ بَعْضَ الظَّنِّ)

الظن أن تعتقد شيئاً من دون دليل.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنّ بَعْضَ الظَّنِّ)

ولو دققت في علاقات الناس فتسعة أعشار أحكامهم مبنية على الظن، ومع ذلك فالمؤمن يطلب الدليل.

الحكم على الآخرين يحتاج إلى دليل قطعي لا يرد:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

فالمؤمن يطلب الدليل، لما قال الناس: كذا، أحياناً يقولون لك: لا نعرف، هذه أقبح أنواع الغيبة، لا يعرف، إنك بهذه الإشارة بيدك قلت عنه كل شيء، بهذه الحركة لم يبق شيء لم تقله، وأحياناً كلمات تؤدي إلى طلاق، وإلى انفصام شركات، وإلى خراب بيوت.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنّ بَعْضَ الظَّنِّ)

احكم على مثل الشمس، وعلى مثل الشمس فاشهد، الحكم يحتاج إلى دليل قطعي لا يمكن أن يرد هذا، هو الحكم.

على الإنسان ألا يسيء الظن بالآخرين حتى يتأكد بالدليل القاطع:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

والآن عندنا قاعدة، قالوا: لولا الدليل لقال من شاء ما شاء، الكلام عندئذٍ يُلقى على عواهنه، أما لو ألزمت نفسك ألا تقبل شيئاً إلا بالدليل فتسعة أعشار الكلام يسقط عندك، ولا أبالغ في قولي: تسعة أعشار الكلام يُلْقَى في الأرض، ولكن من أخطائنا الكبيرة نسمع قصة من دون دليل، نسيء الظن بإنسان من دون دليل، ونتهم إنسانًا من دون دليل، وإنسان عُرِض عليه عمل بفندق والفندق يقدم مشروباً فرفض أشد الرفض، وانتهى الأمر، يشاع عنه أنه قَبِل وفَعل العمل، وهذا الكلام غير صحيح، أنا أعلَمُ

الناس به، لقد رفضه أشد الرفض، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، وطِّن نفسك على ألاّ تقبل قصة من دون دليل، ولا تقبل إشاعة، ولا خبراً من كاذب، ولا من فاسق، و لا كلاماً ضبابياً، لا تقبل إلا كلاماً واضحاً مع الدليل، ومع رؤية العين، مع الدليل الخَطِّي، وكثير من علماء أجلاء لا يتكلمون كلمة في إنسان آخر إلا في كتاب أو في صوت، أما لا كتاب ولا صوت، وهكذا قال الناس ؟ عندئذٍ ليس عالماً، وجزء من علمك أساسه منهج التلقي، فكيف تقبل الأفكار والوقائع ؟ هل عندك منهج لقبولها ورفضها ؟

المؤمن الذي غلب عليه الصلاح والتستُّر علينا ألا نظن به السوء:

هنا الآية تحتاج إلى تفاصيل إن شاء الله نعيدها في الدرس القادم لكن:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

من هو الذي يجب عليك ألاّ تظن به السوء ؟ إنه المؤمن الذي غلب عليه الصلاح والتستُّر، وما رأيته إلا يصلي، إنه يصلي في رمضان وهو صائم، وعياله محجبات، ولا يوجد في بيته أخطاء، غلب عليه الصلاح، ولو أخطأ لاستحيا من خطئه واستتر، وكل إنسان غلب عليه الصلاح والتستر أنا لا أقول: إنه كامل، ولا يوجد إنسان كامل بعد النبي، الكمال لله، والعصمة لرسول الله، وما دام غلب عليه الصلاح والتستر فهذا الإنسان لا يمكن أن تغتابه.

((من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت إخوته، وحرمت غيبته))

فقبل أن تقول: فلان فعل، وفلان أكل مالاً ليس له، فهل أنت متأكد ؟

من حُكِّم بين الناس عليه أن يجمع الطرفين معاً:

صدقوني لو أنك استمعت إلى إنسان عن إنسان وكان الطرف الثاني حاضراً فتسعة أعشار الكلام يُلْغَى، فكل إنسان يتكلم على حسب هواه، يبالغ، وينمِّق الكلام، ويدعم أفكاره بوقائع من خياله حتى يشكِّل لك كلاماً مرفوضاً عن الإنسان، فلذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)

ومن أجمل ما قيل في آفات اللسان في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، باب آفات اللسان، فمن كان الكتاب موجود عنده، أو أحب أن يقرأه في مكتبة، فهذا الموضوع مفصل تفصيلاً بالغًا، فقد وضّح كل

شيء، فالغيبة والنميمة والسخرية والبهتان والإفك الخ... وفي درسٍ قادم إن شاء الله تعالى نعيد شرح هذه الآية مع تفصيلاتها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الخامس من سورة الحجرات.

الغيبة، النميمة، و سوء الظن، من الأسس الكبرى التي تفتت المجتمع:

مع الآية الثانية عشرة وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)

أيها الأخوة... ربنا سبحانه وتعالى في هذه السورة يعلِّمنا الآداب الاجتماعية، فالشيء الذي يفكِّك المجتمع، ويمزّقه، ويضعفه هي الغيبة، والنميمة، وسوء الظّن، وهي من الأسس الكبرى التي تفُتُّ في عضد المجتمع.

المؤمن الصادق لا يبني مواقفه وتصرُّفاته إلا على حقيقة يقينية:

أولاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ)

أي أن تتخذ قراراً على ظنٍّ غير ثابت، فالإنسان يعطي ويمنع، ويصل ويقطع، ويغضب ويرضى، فهذه المواقف إذا بُنِيَت على ظنٍ أو على وهْمٍ والطرفُ الآخرُ كان بريئًا تفتَّت المجتمع، فالمؤمن الصادق لا يبني مواقفه وتصرُّفاته، وصلته ومنعه، وعطاءه، ورضاه وغضبه إلا على حقيقةٍ يقينية، وهذه الآية تؤكِّد الآية السابقة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

ما أروع الإنسان حينما يتحرّك وفق منهج علمي، المقولات التي يستمع إليها لا تعدُّ ولا تُحصى، فإشاعات، وتخرُّصات، وخرافات، وافتراءات، وأقاويل، فالإنسان يُشحَن بآلاف المعلومات غير الصحيحة، فالمؤمن الكامل لا يبني على هذه الأفكار غير الصحيحة، وعلى هذه الظنون الكاذبة، وعلى هذه الإشاعات الواهمة، لا يبني قراراً، لا يبني موقفًا.

من أكبر أسباب تفتت المجتمع و ضعفه الظن الآثم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ)

أي حينما تظنُّ بأخيك سوءاً وهو ليس كذلك وقعت في الإثم، فما العلم ؟ العلم هو الوصف المُطابق للواقع مع الدليل، هذا هو العلم، فإذا كان وصفك لأخيك غير مطابق للواقع ولا يوجد معك دليل فهذا ظنٌّ آثم، وهذا الظن الآثم يفتت المجتمع، ويضعفه، ويوهّنه، فلو أن الإنسان عاهد الله عزّ وجل على أن لا يقبل عن أخيه شيئاً إلا بدليلٍ قاطع، وأن لا يرفض شيئاً إلا بدليلٍ قاطع لكنّا في حالٍ غير هذا الحال، فآلاف الدعاوى في قصر العدل، وآلاف الأسر الممزّقة أساسها كلمة لم تُقَل، نُقِلَتْ ولم تُقَلْ، إشاعة، وظن سيّئ، وتصوّر خاطئ، وتأمّل كاذب.

المؤمن لا يتعامل بالظنون إنما بالبينة الصادقة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ)

كما قلت لكم من قبل: قذف محصنةٍ يهدم عمل مئة سنة، فامرأةٌ محصنةٌ في إشاعة كاذبة، والله سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغةٍ بالغة كان حديث الإفك الذي أصاب السيدة عائشة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلّم **(أمّ المؤمنين)**، لماذا سمح الله لهذا الحديث أن يكون ؟ وهي أطهر من ماء السماء ؟ وهي أنقى من الثلج ؟ وهي زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ؟ فالله سبحانه وتعالى سمح لهذا الحديث الكاذب أن ينتشر ثم جاءت تبرئة الله لها لتكون السيدة عائشة قدوةً وأسوةً لكل امرأةٍ جاءت من بعدها اتُهِمَتْ زوراً وبهتاناً، فلذلك:

(اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ)

فما الفرق الجوهري بين الإنسان العالم والإنسان الجاهل ؟ العالِم لا يقبل إلا بالدليل، بينما الجاهل فأيّة إشاعةٍ، وأيّة فكرةٍ موهومةٍ، وأيّ تصورٍ كاذبٍ يفشو بين الناس، هذا الخط العريض الخط غير المنضبط، الغوغاء والدهماء هم سوقة الناس، فهؤلاء يتعاملون بالظنون، وبالإشاعات، وبالأخبار الكاذبة، وبالتخرُصات، أما المؤمن فلا يقبل إلا بالبيّنة الصادقة.

المؤمن كلّما ارتقى في سُلّم الإيمان تصبح تصرُفاته موضوعية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

المؤمن كلّما ارتقى في سُلّم الإيمان تصير تصرُّفاته موضوعية وعلمية، ولو جاءته ابنته ضَجِرَةً من زوجها لا يسمع منها إلا بحضور زوجها، فلعلّها هي الظالمة، وهذا هو الموقف العلمي، كم من إنسانٍ سمع من طرف واحد فحمل عليه بنفسه حملةً شعواء، فلمّا استمع من الطرف الآخر شعر بالندم الشديد، وهذه آية قرآنية أصل في القرآن الكريم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

وكذلك في قصّة السيدة بلقيس، ماذا قال سيدنا سليمان عندما جاءه الهُدْهُد ؟ قال:

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

(سورة النمل)

فلو أن المؤمنين تعاملوا بهذه الطريقة، لا يقبلون شيئاً إلا بالدليل، ولا يرفضون شيئاً إلا بالدليل، تجربة متواضعة: لو أنك استمعت من طرفٍ واحد على حِدة لأمضى معك الساعات الطِوال يتحدّث عن زيدٍ أو عبيد، اجمعه مع زيد فهذا الحديث يُختَصَر إلى العُشر، فالظن أن تبني موقفًا، وأن تعطي وتمنع، أن تصل و أن تقطع، أن تغضب وأن ترضى لا وفق حقيقة بل وفق وهم، والوهم فتّت الأسَر، والظن الكاذب مزّق الأسر أيضاً وشرّد الأولاد.

من أساء الظن بأخيه كأنما أساء الظن بربه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ)

ولو فرضنا أن امرأة وقعت في جريمة الزنا فهل تُرجَم إلا بأربعة شهود رأوها عياناً ؟ هكذا الدين، أما هذا الذي يطلق التهم جزافاً، وينقل الرواياتِ الكاذبة، والإشاعات المغرضة، والأقاويل السيئة دون تحقُّق، ودون تبصُّر، ودون دليل، ودون علم، فهذا يقع في إثمٍ كبير، ومن أساء الظن بأخيه فكأنّما أساء الظن بربّه، وكأن الله سبحانه وتعالى يريد مجتمع المؤمنين مجتمعاً متماسكاً، مجتمعاً يحب بعضه بعضاً، مجتمعاً قوياً كالجسد الواحد، هذا لا يكون بسوء الظن، ولا يكون بالتهم الكاذبة، والأوهام، والأضاليل، والتسرّع في إطلاق الحكم، وبأن تبني على وهمٍ سمعته موقفاً عنيفاً أو قاسياً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ)

تناقض السذاجة و الغفلة مع الإيمان:

لماذا قال الله عزّ وجل:

(اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنّ)

لأن بعض الظن ليس بإثم، فبعضه إثم وبعضه ليس بإثم، ورد في الأحاديث:

((احترس من الناس بسوء الظن))

((وسوء الظن عصمة))

((والحزم سوء الظن))

فشخص لا تعرفه إطلاقاً قد يطلب منك شيئاً لا تقوى على تحمُّله، تحقّق من دون أن تُشعِرَه.. **" لست بالخِب ولا الخبُّ يخدعُني "**.. أي لست من الخبث بحيث أخدع، ولا من السذاجة بحيث أُخدع، فشخص لا تعرفه، وهل يدخل إنسان بيتًا لا يعرفه ؟ يجب أن تتأكّد من صاحب هذا البيت ؟ لماذا دعاك ؟ دعاك عن طريق ابنه الصغير، قد يكون هناك خداع في هذه الزيارة، فالله عزّ وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

(سورة النساء: آية " 71 ")

ولذلك فالسذاجة أحياناً والغفلة تتناقض مع الإيمان، وكما ورد في الأحاديث:

((المؤمن كيّسٌ فطنٌ حذِر))

المؤمن ليس ساذجاً و لا بسيطاً:

أحياناً إنسان له دعوة أراد أعداؤه الكيد به، فدعوه إلى بيت ولا يوجد فيه إلا طفلٌ صغير، طبعاً دخل البيت هو وغلامٌ وحدهما، والأب هيّأ الترتيبات لاتّهامه بفعل شنيع، فبعض أنواع الظن عصمة، وحزم، واحتراس، فالمؤمن ليس ساذجاً، وليس بسيطاً، ولا يُقاد لكل إنسان بلا تبصُّر، ولا توهُّم، ولا تحقُّق، ولا دليل، وبعض الظن إثم، أي بعضه من الحزم، وبعضه من العصمة، ومن الاحتراس، ومن الإثم، فكيف نفرّق بينهما ؟

إذا كان هناك دليل على سوء النيّة، فإذًا يوجد دليل يُشعِر أن هناك مشكلة، وهذا صار سوء ظن، ولكن ليس إثماً، أما أن تتهم الناس بلا دليل فهذا سوء الظن الذي يُعَدُّ إثماً، أي لا يوجد أي دليل، وهناك وسوسة، وشك، وهذا يحدث بين الأزواج أحياناً، فمتى يحقُّ للزوج أن يسيء الظن بزوجته ؟ إذا بدر منها أشياء تُشْعِر بذلك، وأنها ليست مستقيمة، فهذا الظن في محلِّه، ولابدّ من التحقيق، والتدقيق، والمتابعة، أما إذا لم يبدُ أي شيء إطلاقاً، بل وسوسة فقط، أو نوع من أنواع الترف في سوء الظن فهذا

لا يجوز، ومتى يكون سوء الظن عصمة ؟ إذا كان هناك ما يُشْعِر بهذا السوء، أما إذا وُجد دليل فسوء الظن عصمة، وإذا لم يوجد دليل فإن هذا لا يجوز أن يكون.

الظالم من أنزل العقاب الأليم بالناس دون بينة أو دليل:

يروى أن سيدنا عمر رضي الله عنه جاءته رسالة من أحد الولاة، فقال: **" يا أمير المؤمنين إن أناساً اغتصبوا مالاً ليس لهم، ولست أقدر على استخراجه منهم إلا أن أمسّهم بالعذاب، فإن أذنت لي فعلت"**، قال: **" يا سبحان الله أتستأذنني في تعذيب بشر ؟ وهل أنا حصنٌ لك من عذاب الله ؟ وهل رضائي عنك ينجيك من سخط الله ؟ أقم عليهم البيّنة، فإن قامت فخذهم بالبيّنة، فإن لم تقم فادعهم للاعتراف، فإن اعترفوا كان بها وإلا فادعهم لحلف اليمين، فإن حلفوا فأطلق سراحهم "**. إذًا إما أن تملك بيّنة، وإما أن يعترف، وإما أن تدعوه لحلف اليمين، أما أن تسيء الظنّ به، وتُنزل به العقاب الأليم من دون بيّنةٍ، ولا دليلٍ، ولا اعتراف فهذا ظلمٌ شديد.

إذاً التفرقة بين سوء الظن الذي يعدُّ عصمة، وحزماً، واحتراساً، وبين سوء الظن الذي يعدُّ إثماً، فالتفرقة بينهما إذا كان هناك دليل يُشْعِر بخطأٍ جسيم فعندئذٍ لك أن تسئ الظن، وإن لم يكن هناك أي دليل فعليك أن تُحْسِنَ الظن، ومن أساء الظن بأخيه فكأنّما أساء الظن بربه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ)

الفرق بين علم اليقين و حق اليقين و عين اليقين:

لكن كلمة الظن وردت في القرآن الكريم في أماكن أخرى بمعنى اليقين الفكري.

(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة: آية " 46 ")

فالظن هنا بمعنى اليقين الفكري، فعندنا يقين، وعندنا علم اليقين، وحق اليقين، وعين اليقين، فعلم اليقين الاستدلال المنطقي على حقيقةٍ غائبةٍ عنك بدليلٍ مادي بين يديك، هذا اسمه علم اليقين، سمّاه القرآن ظنًّا، أما حقُّ اليقين فحينما تشاهد هذا الشيء الغائب عنك، تعاينه معاينةً حسّيّة فهذا حقُّ اليقين، أما حينما تمسّ هذا الشيء مسّاً مباشراً بحواسّك الخمس فهذا عين اليقين.

الفرق بين التحسس و التجسس:

قال الله عزّ وجل:

(إنّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا)

والتجسُّس تتبع الأخبار السيّئة، والتحسُّس تتبع الأخبار الطيّبة.

(يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ)

(سورة يوسف: آية " 87 ")

التحسُّس تتبع الأخبار الطيّبة، والتجسُّس تتبع الأخبار السيئة، وهناك أناسٌ مغرمون بتتبّع الأخبار، هواية لهم، يستمتعون أشدّ الاستمتاع بتتبع قصص الناس، فلانة طَلِّقت لماذا ؟ وفلان لم يُنجب أولاداً، أمنه أم من زوجته ؟ وماذا سيفعل بزوجته إن لم تُنْجِب أيطلقها يا ترى ؟ وما شأنك أنت بهذا ؟

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس))

[رواه البزار عن أنس بن مالك]

((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

الله عز وجل يحب معالي الأمور و يكره دنيها:

الإنسان المؤمن لشدّة تعلُّقه بربه، وشدّة قيامه بالأعمال الصالحة ليس عنده وقتٌ لهذه السخافات، وتلك المجالات لأن الله عزّ وجل، أو لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ودنيّها))

[الجامع الصغير]

فأكثر بني الإنسان إذا التقى بإنسان يسأله: أين تعمل ؟ في المكان الفلاني، وكم يعطونك في الشهر ؟ فما لك ولهذا السؤال ؟ أيكفيك هذا المبلغ ؟ أراض أنت به ؟ يجب أن تعترض، فهذا الذي يخبّب امرأةً على زوجها، أو يخبّب عبداً على مولاه، أو الذي يخبّب موظّفاً على سيده هذا ليس من عمل المؤمنين، دع الناس يرزق بعضهم بعضاً، دع الناس في غفلاتهم، لا ينبغي لك أن تثير الفتن، ولا أن تلقي في القلب الشك، ولا أن تفرّق بين إنسانٍ وإنسان لأن هذا ليس من شأن المسلم، **" وليس منّا من فرّق "** كما قال عليه الصلاة والسلام، أحياناً تدخل على أختك المتزوجة وتسألها: كيف زوجك ؟ وكم يعطيكِ في الشهر ؟ وماذا قدّم لكِ هديّة عند الولادة ؟ فما هذه الأسئلة ؟ هي راضيةٌ عن زوجها وبينهما وئام واتفاقٌ وخلود، فلماذا تثير هذه الموضوعات ؟ هذا الإنسان يسلك سلوكاً خاطئاً بعيداً عن سلوك الإيمان:

((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

العاقل من ينشغل بنفسه عن الآخرين لا من يتتبع أخبارهم:

مرّةً سيدنا عمر سألته زوجته عن قضيّةٍ حَكَمَ بها: **" ما ذنب فلان ؟ فقال لها: وأنتِ يا أمة السوء ما شأنكِ بهذا "**. فأخطر شيء أن تسمح لجانبٍ لا شأن له بهذا الموضوع بأن يتدخّل، وأن يدلي برأي، وأن يدفعك إلى فعلٍ أو تركٍ لأن هذا يفسد العلاقات العامّة، إذاً:

(اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا)

والأصح ألاّ يتتبّع الإنسان لا الأخبار الطيّبة ولا الأخبار السيّئة، بل عليه أن ينشغل بنفسه عن الآخرين.

غيبة القلب غيبة يحاسب عليها الإنسان:

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

طبعاً الإمام الغزالي كما قلت لكم في الإحياء عقد باباً من أدق أبواب الكتاب حول آفات اللسان، وخصّ باب الغيبة باهتمامٍ بالغ، فذكر من الغيبة غيبة القلب، تُرْوَى في التاريخ قصّة لا أدري مبلغها من الصحّة لكن تعني شيئاً كثيراً، وهي: أن امرأةً كانت تُغَسِّل ميتة فالتصقت يدها بجسم الميتة، ومضى وقتٌ طويل، ويدها وجسم الميتة أصبحتا قطعة واحدة، فاحتار أهل الميّتة أيقطعون يد المغسِّلة أم يقطعون من لحم الميتة ؟ مضى وقتٌ طويل.. وفي عهد الإمام مالك والمقولة الشهيرة: **لا يُفتى ومالكٌ في المدينة**.. فالإمام مالك عندما بلغه الخبر قال: **اجلدوها ثمانين جلدة**، وفي الجلدة الثمانين فُكّت يدها، لأنها اتهمتها بقلبها بالزنا.

و أحياناً أنت لا تقول شيئاً لكن تتهم أخاك البريء بقلبك، فهذه التهمة تُحَاسَب عليها، لأنه لا يوجد معك دليل، فمن غير دليل تقول: فلان حرامي، إنها كلمة كبيرة جداً هذه، فالمؤمن الصادق لا يأكل دِرهَماً حراماً، والمقولة الشهيرة: **" ترك دانقٍ من حرام خير من ثمانين حجّةٍ بعد الإسلام "**، فإشاعة أو تهمة، أو إنسان فاسق فاجر قال كلمةً: من أين حصل على كل هذه النقود ؟ قد يكون له دخل أنت لا تعرفه، قد تكون له تجارة، وعلى كلٍ أنت لست وصيّا عليه، أما أن تلقي هذه التهمة جزافاً فهذا إثم كبير.

الغيبة و البهتان:

فلذلك الغيبة أن تقول في أخيك كلاماً يتألّم منه إذا بلغه ولو كان صحيحاً:

((يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال: ذِكْرك أخاك بما يكره فقال رجل: أرأيتَ إن كان في أخي ما أقول ؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهتّه))

[أخرجه أبو داود عن أبي هريرة]

البهتان أي الافتراء، تهمة ليس لها أساس من الصحة، فهذا بهتان وإفك، أما الغيبة فأن تذكره بشيءٍ فيه ولكن هذا الذكر يؤلمه إذا وصل إليه، طبعاً:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

(سورة النساء: آية " 148 ")

العلماء أجازوا الغيبة في ستّة مواطن منها:

1 ـ في شأن الزواج:

والعلماء أجازوا الغيبة في ستّة مواطن: في شأن الزواج ؛ فإنسان يشرب، وإنسان زانٍ، وإنسان دخله حرام، وإنسان زير نساء، وتعلم أنت عنه العلم اليقين، سُئلت في شأن الزواج فأثنيت عليه، هنا الغيبة واجبة، وهذه قضية مصير فتاة، ومصير أسرة، ففتاةٌ طاهرةٌ مؤمنةٌ صادقةٌ تزجُّها مع زوجٍ فاسقٍ فاجر، يقترف الحرام ولا يبالي !! ففي شأن الزواج لابدّ من أن تذكر الحقيقة وإن كان ذكرها يؤلمه.

2 ـ في شأن الشراكة:

وفي شأن الشراكة، الشراكة أموال سوف توضع بين أيدي الطرف الثاني، والطرف الثاني لص لا يتورّع عن أخذ المال الحرام، وتبقى أنت ساكتًا ؟ يا أخي هذا ورع، وهذا الورع ليس في محلّه.

3 ـ في شأن القضاء:

وفي شأن القضاء، لو أن القاضي سأل المُدّعي ماذا فعل بك فلان ؟ أنا لا أقدر أن أغتابه يا سيدي، أنت الآن تشتكي عليه فلابدّ من ذكر ما فعل بك، فعند القضاء، وعند الاستشارة.

4 ـ من يقترف المعاصي دون أن يأبه:

وهناك مواقف عدّة أُجيزَت فيها الغيبة، أما الذي يقترف المعاصي دون أن يأبه، ويرتكبها أمام الناس.

5 ـ من يفطر في رمضان على مرأى الناس:

الذي يفطر في رمضان في الطريق على مرأى الناس، هذا لا غيبة له، فهذا فاجر، فمن هو الفاجر ؟ هو الذي يقترف المعصية جهاراً، أو هو الذي يقترفها سرّاً ويذكر أنه فعلها مُتباهياً:

((اذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس))

6 ـ من يقترف المعاصي جهاراً أو سراً ويذكرها متباهياً:

والذي يقترف المعاصي جهاراً، أو يذكر معاصيه جهاراً ولا يبالي فهذا لا غيبة له.

الغيبة تكون بالقلب و بالحركات و الإشارات:

والغيبة أيضاً كما أنها تكون بالقلب تكون بالحركات، والمحاكاة، وتكون بالإشارة كما ذكرت.. حركة القميص، إن ذُكِرَت فلانة، يقول لك: الله أعلم، هذه غيبة يا سيدي.. أشدُّ أنواع الغيبة، وهذه إشارة إلى أنها ليست طاهرة، ففي الحركات، و التقليد، والمحاكاة، وغيبة القلب، وأحياناً يقول لك: أنا لم أذكر اسمه، لا، أنت ذكرت خمسين علامة تدلّ عليه، فذكرت مسكنه، ونوع عمله، وحادثة مشهورة عنه، وهذه كلها قرائن تشير إليه، طبعاً لك أن تروي قصّة من أجل أن تعظ الناس بها بشرط ألا يعلم الناس أبداً من صاحب هذه القصّة، أما إذا ذكرت علامات وقرائن تشير إليه والناس عرفوه معرفة يقينية، فأنت تقول: أنا لم أذكر اسمه، لكنك ذكرت كل شيءٍ عنه، ولم يبقَ إلا أن تذكر اسمه، واسمه صار معروفًا، وهذه غيبة أيضاً.

النار مصير كل إنسان يغتاب الناس:

والذي يغتاب الناس فالأحاديث الصحيحة تؤكِّد أنه يوم القيامة تؤخذ من حسناته، فإذا فَنِيَت حسناته طُرِحَت عليه سيّئاتهم. ولهذا فالنبي الكريم سأل أصحابه:

((أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا لَهُ دِرْهَمَ وَلَا دِينَارَ وَلَا مَتَاعَ قَالَ الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَأْتِي بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمّ طُرِحَ فِي النَّار))

[أخرجه مسلم و الترمذي عن أبي هريرة]

فالإنسان الذي يغتاب الناس يكون مصيره إلى النار، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((الغيبة أشدُّ من الزنا))

[أخرجه الطبراني عن جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري)

أضرار الغيبة:

الغيبة تمزّق المجتمع، وتفتِّت الأسر، وتجعل المجتمع الإسلامي ممزّقاً، وضعيفاً، تنتشر فيه العداوات والخصومات، والمناحرات والمنافسات بسبب الغيبة، والذي يغتاب الناس عليه أن يطلب السماح منهم قبل أن يموت، فإن لم يسامحوه فلابدّ من أن يلقى العِقاب الأليم، ولذلك فالإنسان عليه أن يضبط لسانه، والشيء الدقيق جداً في هذا الموضوع أنك إن اغتبته في ملأٍ عليك أن تبرّئَهُ في الملأ نفسه، أما أن تغتابه في أوسع دائرة وتعتذر منه بينك وبينه فهذا ليس معقولاً، فهناك مجلس فيه خمسون شخصاً، ولقد اغتبته أمام خمسين، ثم زرته وقلت له: سامحني فقد اغتبتك، فهذه المسامحة غير مقبولة، يجب عليك أن تجمع الخمسين مرّةً ثانية وتبين لهم الحقيقة وإلا فأنت آثم، أي أن المسامحة لا تكون إلا بالإصلاح.

(تَابُوا وَأَصْلَحُوا)

(سورة البقرة: آية " 160 ")

الله عز وجل جعل الغيبة بمثابة أن تأكل من لحم أخيك ميتاً:

(أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً)

أي لا يوجد شيء تنفر منه النفس كأن تأكل لحم ميْتةٍ، أما أن يأكل الإنسان لحم بشر وهو ميت، وأما أن يأكل لحم أخيه ميْتاً، فربنا عزّ وجل يُكَرّهنا في الغيبة والنميمة، وهذا أسلوب تربوي حكيم:

((الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالْعَائِدِ فِي قَيْئِهِ))

[رواه مسلم عن ابن عباس]

أي أن الإنسان لو قاء هل يوجد إمكان أن يستعيد هذا القيء ويأكله إنه شيء تتمزّق منه أمعاؤه، فالذي يعود من هبته كمن أكل قيئه، وهذه من الأساليب التربويّة، والله سبحانه وتعالى جعل الغيبة بمثابة أن تأكل من لحم أخيك ميتاً، أليس هذا مستكرهاً ؟ ثم أليس هذا مستقبحاً ؟ وكذلك الغيبة، والبديل أن تذهب إليه وأن تقول له: لقد بلغني عنك كذا وكذا وأنت أخي في الإسلام فما حقيقة ذلك ؟ فإن كان وقع الذي وقع، فانصحه، وإن لم يقع الذي تصوّرته وقع فقد عافاك الله من سوء الظن به، وهكذا.

المبتدع و المظلوم و المستشير هذه حالات ليست من الغيبة:

فهذا الدرس نحب أن يترجم عملياً، حاول ألا تقبل شيئاً إلا بالدليل، وحاول ألا تغتاب أحداً إلا حينما يسمح لك الشرع في الحدود الضيقة جداً، فإنسان مبتدع جاء بعقيدة غير صحيحة، وسألك إنسان فهذا ليس من الغيبة، وهناك عقائد فاسدة وزائغة، وانحرافات فكرية، وانحرافات في السلوك، وهذا الإنسان السائل يريد أن يلتزم مع إنسان ذي عقيدة سيّئة، فهذا ليس من الغيبة، فالمبتدع، والمظلوم، والمستشير، هناك حالاتٌ نصّت عليها كتب الفقه أما فيما سوى ذلك فلا ينبغي لك أن تقول في الناس شيئاً.

كل المسلم على المسلم حرام ماله و دمه و عرضه:

أيها الأخوة الكرام. قال عليه الصلاة والسلام:

((كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ))

[مسلم، الترمذي، أبو داود، ابن ماجه عن أبي هريرة]

طبعاً المال واضح، الحكم فيه واضح.

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة: آية " 188 ")

أما القتل فالحكم فيه واضح، وأما العِرْضُ فهو موضع المدح والذمّ من الإنسان، فأن تتهم إنساناً بالكفر دون أن تتأكّد.

من كفّر مسلماً فقد كفر:

أغلى شيء يملكه الإنسان إيمانه، وأنت ببساطة وسهولة تطعن في إيمانه، وتتهمه بالكفر والانقطاع عن الله عزّ وجل، وبمصيره إلى النار، بهذه البساطة ؟ ومن أنت ؟ هل أنت وصيٌّ عليه ؟ أليس هذا تألّياً على الله عزّ وجل ؟ فهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ)

من كفّر مسلماً فقد كفر:

((إِذَا كَفَّرَ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا))

[رواه مسلم عن ابن عمر]

((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

" اخزن لسانك ". قل: لا أعلم.

الله عز وجل يدعو الناس إلى عدم الكِبر فيما بينهم لأنه خلقهم بطريقة واحدة:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13))

الآن توجّه الخطاب إلى عامّة الناس، والله سبحانه وتعالى يبيّن للناس أن الله خلق الناس من ذكرٍ وأنثى خلقاً موحّداً، وما من إنسانٍ على وجه الأرض إلا خرج من عورة، ودخل في عورة، ثم خرج من عورة، وخُلِقَ من ماءٍ مهين، ولو أن هذا الماء كان على ثياب أحدنا لاستحيا منه، فالناس جميعاً أغنياؤهم وفقراؤهم، وأقوياؤهم وضعفاؤهم، وأشرافهم وصعاليكهم جميعاً خُلِقوا بطريقةٍ واحدة، وبأسلوبٍ واحد، وهذا يدعو إلى عدم الكبر فيما بينهم.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى)

العمل الصالح ثمن الجنة:

لكن أريد أن أقف قليلاً عند حكمة هذه الآية في قوله تعالى:

(وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)

أي أن الله عزّ وجل خلقنا للجنّة، دققوا فالمعادلة دقيقة، خلقنا للجنّة، لجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، وهذه الجنّة لابدّ لها من ثمن تدفعه في الدنيا، والثمن هو العمل الصالح، والعمل الصالح لا يكون إلا وأنت في مجتمع، وهل هناك حلمٌ بلا مجتمع ؟ وهل هناك أمانةٌ وأنت وحدك في صومعة ؟ وكل الفضائل تحتاج إلى مجتمع، فمن أجل أن تكون مع المجتمع قهرك الله عزّ وجل بطريقةٍ رائعة، وسمح لك أن تتقن حاجة، وجعلك في أمسّ الحاجة إلى ملايين الحاجات، فلن تستقيم حياتك إلا أن تكون في مجتمع، وأنت تحتاج إلى رغيف خبز، وهناك عشرات الألوف من الأشخاص يسهمون جميعاً في صنع هذا الرغيف، وتحتاج إلى ثياب، هناك من يزرع القطن، وهناك من يجنيه، وهناك من يحلّجه، ويغزله، ومن يصبغ الخيوط، وينسجها، ويخيطها، ويبيعها لك في محل تجاري، وآلاف الأشخاص ساهموا في صنع هذا الرداء، وصنع رغيف الخبز، فأنت مدرّس، أو مهندس، أو طبيب، أو تاجر، أو موظّف، أو صانع ممتهن تتقن حاجة وأنت بحاجة إلى ملايين الحاجات.

الفضائل لا تكون إلا في المجتمع لذلك قهرنا الله بأسلوب لطيف أن نعيش في مجتمع:

الله سبحانه وتعالى قهرنا بأسلوبٍ لطيفٍ جداً أن نعيش في مجتمع، لأن الفضائل لا تكون إلا في المجتمع، والجنّة ثمنها العمل الصالح، وهذا على مستوى الأفراد، أما على مستوى الشعوب فالله عزّ وجل لحكمةٍ أرادها جعل لكل شعبٍ لغة، وطِباعاً، وعادات، وإمكانات، فشعب قوي، وشعب دؤوب على الصناعة، وشعب يحب التجارة، ففي بنيته العامة أنه تاجر، وشعب بلاده جميلة جداً، وآخر فيه ثروات نفطيّة، وآخر بلاده حارّة، و شعب بلاده معتدلة، فتنوُّع الأقاليم، وتنوع الثروات، والطِباع، والخصائص، فهذا بحاجة إلى طاقة لأنه لا توجد طاقة عنده، وآخر عنده تكنولوجيا عالية جداً، وشعب عنده طاقة وهو مرتاح من النواحي الإبداعية يبيع نفطه ويستقدم بهذا الثمن كل ما يحتاج، فالله عزّ وجل وزّع الثروات في مكان، والطاقات الفكرية في مكان، وبلاد جميلة، وبلاد حارّة، وبلاد معتدلة، وبلاد جبلية باردة في الصيف، وبلاد صحراوية، فالأقاليم والبيئات متنوّعة، والثروات ؛ وهنا نفط، وهنا حديد، وهنا زنك، ويورانيوم، فكل بلد فيها معدن معيّن، وهذا البلد يزرع الشاي، وهذا يزرع الموز، والموز ينتقل من بلد إلى بلد، والله عزّ وجل جعل بعض الأقاليم يتناسب معها إنتاج زراعي معيّن، فنحن في حاجة إلى بعضنا البعض.

ليس لأي إنسان حق أن يفتخر بشيء منحه الله إياه من دون جهدٍ:

والفقرة السابقة نحن في حاجة إلى بعضنا البعض على مستوى الأفراد، أما هذه الآية فعلى مستوى شعوب.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ)

أنْ تفتخر بلغتك إنه شيءٌ لا يقدِّم ولا يؤخِّر، وتفتخر ببلادك الجميلة شيءٌ لا يقدِّم ولا يؤخِّر، تفتخر بالثروات الباطنية التي عندك والتي ليست من جهدك شيءٌ لا يقدِّم ولا يؤخِّر، فالله جلّ جلاله وزّع القدرات، والطاقات، والثروات، والأقاليم، والمناخ، والإمكانات، وجعل لكل شعب شخصية خاصّة، ولكل شعب قدرات خاصّة، وإمكانات خاصة، فشعب عنده جَلَدٌ على الصناعة، وآخر على الزراعة، وهذا التنوع في الشعوب تنوع غنى لا تنوع تضاد، فكل شعب بحاجة إلى شعب آخر.

الله جلّ جلاله وزّع القدرات والطاقات والثروات ليتكامل المجتمع و يتعارف:

فلذلك:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)

تتعرّف على ما عند الآخرين، من أجل أن تعرف ما عندهم، وأن تعرّفهم بما عندك من أجل التكامل، وأحياناً تجد صوراً مجزّأة مربّعات مربّعات، والطالب مكلّف أن يجمع هذه المربّعات كي تكتمل الصورة، لعبة من لعب الصغار، مربّعات تشكل في مجموعها صورة جميلة، إنها مبعثرة الآن، فهذا الطفل الصغير يضع هذا المكعّب هنا وهذا المكعب هناك، فإذا وصل إلى الصورة الكاملة شعر بنشوة.. فربنا عزّ وجل نوّع ووزّع القدرات، والطاقات، والأقاليم، والثروات، واللغات والشعوب، والتقاليد والعادات وكلها بشكل متكامل.

لا يحقٌ لفردٍ ولا لشعبٍ أن يتيه على الشعوب الأخرى:

قال:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)

ومعنى ذلك أنه ليس لإنسان حق أن يفتخر بشيء منحه الله إياه من دون جهدٍ، ومن دون ذكاء وطلبٍ وسعي، فإنسان خلقه الله طويلاً، وهذا قصيراً، وهذا أبيض اللون وهذا أسمر اللون، هذه أشياء من خلق الله عزّ وجل لا تُتَّخذ عند الله مقياساً للرفعة إطلاقاً.

((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بالأبواب لو أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ'))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

فلذلك لا يحقٌ لفردٍ ولا لشعبٍ أن يتيه على الشعوب الأخرى، و الآن توجد بعض الشعوب صنّفت نفسها في الدرجة الأولى وصنّفوا الآخرين في الدرجة السُفلى، وهذا تعصُّب:

((لَيسَ مِنَّا مَنْ دَعا إلى عَصَبيّة، وليس منا من قاتل عصبيّة، وليس منا من مات على عصبيّة))

[أخرجه أبو داود عن جبير بن مطعم]

هذا ليس منّا إطلاقاً.

ليس بين الله وبين عباده قرابة إلا الطاعة:

والآن تأتي الآية:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

وعند الله مقياس واحد هي طاعته، ليس بين الله وبين عباده قرابة إلا الطاعة.

(إنّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أتْقَاكُمْ)

والمؤمن الصادق ينطلق من هذا المقياس وحده، ولا يأبه لا بالغنى ولا بالفقر، ولا بالقوة ولا بالضعف، ولا بالوسامة ولا بالدمامة، ولا بالصحة ولا بالمرض، هذه مقاييس ما أقرّها الشرع إطلاقاً في تقيّيم الأشخاص، ولكن الشرع والقرآن يتخذ مقياس الطاعة وحدها مقياساً للترجيح بين الناس.

الإيمان و الطاعة مقاييس للترجيح بين الناس:

(إنّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أتْقَاكُمْ)

فالمعنى واضح والآية موجزة لكن شتّان بين أن نستمع إليها وبين أن نطبّقها، تجد أن هناك سلوكًا جاهلياً، وهناك من يأبى أن يسكن في هذا الحي، ومن يأبى أن يتزوّج هذه المرأة، وهناك امرأة تأبى أن يكون زوجها إلا من صنف التجّار، وامرأةٌ تأبى أن يكون زوجها من هذا الصنف، عنعنات جاهلية، وعصبيّات إقليميّة، أو عصبيات ليست مقبولة عند الله عزّ وجل.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أتْقَاكُمْ)

فبعض العلماء استنبط من هذه الآية أن كل شابٍ مؤمنٍ كفء لأية شابّةٍ مؤمنةٍ، لأنّ الإيمان وحده هو المرجّح على كلّ قيمة، وهذه الآية لا تؤخذ في فهمها ولكن في تطبيقها، فالإنسان أحد شخصين إما أن يكون مؤمناً يطبّق هذه الآية في تقييمه للناس، وإما أن يكون عنصرياً يعتمد على مقياس ما أراده الله عزّ وجل ؛ كالمقياس الإقليمي، أو العشائري، أو القَبَلي، أو القومي، أي نحن من صنف متميّز، وكلُّ إنسانٍ خلقه الله عزّ وجل، والله مع كل الناس ولجميع الناس، ويعلم أحوال الناس، ويقبل عمل الناس، ويقرّب الطائعين، ويبعد العُصاة المذنبين، ويتجلّى على المؤمنين، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((الناس رجلان برّ تقي كريمٌ على الله وفاجرٌ شقي هينٌ على الله))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر]

الناس رجلان بر تقي أو فاجر شقي:

وأقول لكم هذه الحقيقة: الناس على اختلاف مشاربهم، واختلاف أعراقهم، واختلاف أنسابهم، واختلاف مللهم، واختلاف نِحلهم، واختلاف مستوياتهم الاقتصادية، والثقافية، والفكرية، والاجتماعية، والعرقية، الناس في النهاية رجلان مؤمن والثاني كافر، ومستقيم ومنحرف، ومحسن ومسيء، ومنضبط ومتفلِت، وموصول ومقطوع، ورحيم وقاس، ومنصف وظالم، الناس رجلان، فالمستقيم، المحسن، المقبل،

المنضبط، الرحيم هذا عند الله له شأنٌ كبير بصرف النظر عن عرقه، وعن جنسه، وعن أسرته، وعن عشيرته، وعن قبيلته، وعن إقليمه، هذه عنعناتٌ جاهلية.. والذي قال لسيدنا بلال: **" يا ابن السوداء "**، قال له النبي عليه الصلاة والسلام:

((يا فلان إنك امرؤٌ فيك جاهلية))

[أخرجه البخاري عن المعرور بن سويد]

العنصري هو الإنسان الذي يقيم مقاييس غير مقاييس القرآن الكريم:

الآن إذا كان عندك شعور أن ابنك من أسرة راقية يجب أن يكون مكتفياً، متنعِّماً، وهذا الموظّف الذي يعمل عندك في المحل هذا أبوه ميت وهو يتيم وفقير، ويجب أن يعمل عملاً شاقاً دون أن ينال نصيبه منك، فأنت إنسان عنصري، وهذا العنصري الذي يقيم مقاييس غير مقاييس القرآن الكريم، مقاييس الأنساب والأعراق، والغنى والفقر، ومقاييس أسرية عشائرية قبلية إقليمية، فهذه كلها مقاييس ما أنزل الله بها من سلطان، وسيدنا الصديق رضي الله عنه عندما رأى صفوان يعذِّب بلالاً اشتراه منه، قال له: **" خذه فو الله لو دفعت به درهماً لبعتكه "**، وسيدنا الصديق رأى في هذا الكلام إهانة لسيدنا بلال فقال له: **"والله لو طلبت به مئة ألفٍ لأعطيتكها "**، فلمّا اشتراه من سيّده وضع يده تحت إبطه وقال: **" هذا أخي حقّاً "**، فكان أصحاب النبي إذا ذكروا الصديق يقولون: **" هو سيدنا وأعتق سيدَنا "**. أي بلالاً.
وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يخرج إلى ظاهر المدينة لاستقبال بلال الحبشي، ومرّة وقف أبو سفيان في باب عمر ساعاتٍ طويلة لم يؤذَن له، فلمّا دخل عليه عاتبه وقال: **" سيد قريش يقف ببابك ساعاتٍ طويلة وصهيبٌ وبلال يدخلان بلا استئذان "** فقال عمر: **أنت مثلهما في الإسلام ؟**

أكرم الناس عند الله عز وجل أتقاهم له:

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

إن لم نتعامل مع بعضنا بهذا المقياس فلسنا مسلمين، الغنى تحت قدمك، والفقر تحت قدمك، فالغنى والفقر، الوسامة والدمامة، والذكاء وقلّة الذكاء، هذه المقاييس اختصّ الله عزّ وجل بها خلقه لحكمةٍ أرادها، لكنها لا ترفع ولا تخفض، والذي يرفع ويخفض الطاعة، مرّة ثانية:

((رُبّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بالأبواب لو أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرّهُ'))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

الله عزّ وجل شاءت حكمته أن يكون الأنبياء فقراء في معظمهم، فماذا كان يعمل الأنبياء الفقراء ؟ رعاة غنم، وهل هناك حرفة أهون على الناس من أن يرعى الغنم ؟ تجد شخصاً في الجبال مع مئة

غنمة، وأنبياء عِظام رعوا الغنم لتحطيم هذه المقاييس التي ابتدعها الناس، أنا لا أدخل في التفاصيل، وهناك أوهام، ومظاهر فارغة، ومقاييس مضحكة يقيس بها الناس، ما أنزل الله بها من سلطان.

الدين و الخلق مقاييس مهمة في الزواج و ليس الناحية المادية:

على كلٍ:

(إنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

هذا هو المقياس، وإذا كانت الآية واضحة عندك وأنت مؤمن إيماناً صحيحاً فيجب عليك أن تمارسها يومياً، يأتيك خاطب مثقّف يحمل شهادة عُليا، ديّن وأخلاقه عالية، إذْ يقيس بعض الآباء خاطبي بناتهم بالمقياس المادي وحده، يرفض أو يقبل لعلّة المال فقط، يرفض أو يقبل لعلّة الحرفة وحدها، يرفض أو يقبل لعلّةٍ أخرى فقط، أما هذه الآية فيجب أن نمارسها عملياً ؛ في علاقاتنا، ومهننا، وحرفنا، وأسواقنا، وزواج فتياتنا، وتزويج شبابنا.

(إنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

((إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد))

[أخرجه الترمذي عن أبي حاتم المزني]

على الإنسان أن يتقي الله و يحسن إلى خلقه إخلاصاً و ليس نفاقاً لأن الله عليم بحاله:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(إنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

فما أحسن الذي يتقي، ألم يقل الله عز وجل قبل قليل:

(إنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

إنسان مستقيم على أمر الله هل يفعل هذا نِفاقاً أم إخلاصاً ؟ أم رياءً أم طاعة ؟ وهو ينضمُّ إلى المؤمنين لمكاسب مادية أم لإخلاصٍ شديد ؟ قال:

(إنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

المؤمن لن يُقبل عمله عند الله إلا إذا قاس بمقياس واحد:

أي إن قوله تعالى:

(إنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

يحتاج إلى تفصيلات كثيرة، وأحياناً الإنسان يُنفِق على ابنه مئات الألوف لينال درجة علمية عالية، أما إذا كان عنده موظّف صغير في المحل يتيم وطلب منه أن يغيب ساعة ليلتحق بدورة تعليمية فلا يسمح له، أليس هذا عنصرياً ؟ ابنك تريده في أعلى مرتبة علمية أما هذا اليتيم الذي ليس له أب ومن شدّة حاجته للمال التحق بالعمل عندك، وطلب ساعة قبل انتهاء الدوام يغادر المحل فيها ليلتحق بمدرسة ليلية لا تسمح له، أليس هذا التصرُّف خلاف هذه الآية ؟.

وشيءٌ آخر: حينما يعامل الإنسان زوجة ابنه معاملةً تختلف عما يتمنّى أن تُعَامَل ابنته بها، فهذا إنسان غير منطقي، وغير منصف، فحينما تنحاز إلى ابنتك، أو إلى أخيك، أو إلى ابنك انحيازاً أعمى على حساب الإنصاف والحق فهذه جاهلية في الإنسان، ولن تكون مؤمناً صادقاً مقبولاً عند الله عزّ وجل إلا إذا قست الناس بمقياسٍ واحد.

الإنصاف من أكبر الوسائل التي تعين على الاتصال بالله تعالى:

الحقيقة هناك حديث وهو:

((عامل الناس كما تحب أن يُعاملوك))

هذا الحديث على بساطته أدق مقياس، دائماً اعكس الآية فهل تحب أن تُعَامَلَ هذه المعاملة التي تعامل بها الآخرين ؟ وهل تحب أن يُعامل ابنك هذه المعاملة التي تعامل بها أبناء الآخرين ؟ وهل تحب أن تعامل ابنتك في بيت زوجها معاملة كما تعمل أنت مع ابنتك أو مع زوجة ابنك ؟ فالإنسان يقيس نفسه بهذا المقياس، إنه مقياس دقيق وفعّال، ودائماً اعكس الآية، هل ترضى أن تُعامل أمام موظّف كما تعامل هذا المواطن المراجع ؟ وأنت طبيب فهل ترضى لو كنت مريضاً أن تُعامَل هذه المعاملة من طبيب ؟ أنت لو كنت محامياً فهل ترضى أن تعامَل كما تعامل هذا الموكِّل ؟ لا.. فهذا المقياس دقيق جداً، وهذا المقياس ينهضنا جميعاً، فلذلك:

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

والإنصاف أحد أكبر الوسائل التي تعينك على الاتصال بالله عزّ وجل، وإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجرات 049 - الدرس (6-6): تفسيرالآيات 14-18، الإيمان و الإسلام
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-05-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس السادس والأخير من سورة الحجرات.

المسلم من طبق منهج الله عز وجل في حياته:

مع الآية الرابعة عشرة وهي قوله تعالى:

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أيها الأخوة... هناك إسلامٌ، وهناك إيمانٌ، وهناك إحسان، وقد وردت هذه المراتب في الحديث الصحيح الذي رواه النبي صلى الله عليه وسلم، فالإسلام هو الانصياع الظاهري لله عزّ وجل، وتطبيق الأحكام الشرعية، فالذي يكسب ماله وفق منهج الله، وينفق ماله وفق منهج الله، والذي يتزوج وفق شريعة الله، والذي يعمل وفق ما أمر الله، الذي ينصاع في شؤون حياته كلها ؛ صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، في بيته ومع نفسه، وفي عمله ومهنته وحرفته، وزواجه وطلاقه، ولهوه، وجِدّه ومرحه، وإقامته وسفره، فهذا الذي يطبق منهج الله في كل شيء هو مسلم.

مرتبة الإسلام لا يبلغها إلا من طبق الإسلام في بيته:

أما الذي ينتمي إلى أبٍ وأمٍ مسلمين من دون أن يطبق من الإسلام شيئاً فهذا لم يبلغ بعدُ مرتبة الإسلام، يقول لك: كثير من المسلمين، النبي صلّى الله عليه وسلّم قال:

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل: وما حقها ؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

[الجامع الصغير]

ألا تعجب من مليار ومئتي مليون مسلم في العالم يشغلون أكثر من خمس أهل الأرض وكلمتهم ليست هي العليا !! ألا تعجب من قول النبي صلى الله عليه وسلم:

((لن تغلب أمتي من اثني عشر ألفاً من قلة))

[الجامع الصغير]

إن روّاد بيت الله الحرام يزيدون عن أربعة ملايين، مع أن اثني عشر ألفًا من قلة لن يغلبوا.

الإسلام بناء أخلاقي و منهج و التزام:

أيها الأخوة الكرام... الإسلام انصياعٌ تام لأمر الله الواحد الديّان، فلو دخلنا إلى بيوت المسلمين فإننا لا نرى الإسلام فيها فهناك اختلاط، وأجهزة لهو كثيرة، وغيبة، ونميمة، ولو دخلنا إلى أسواق المسلمين نجد الكسب الحرام، والكذب، والخداع، والتدليس، والغش، ولو دخلنا إلى بيوتهم وإلى أسواقهم فنحن لا نرى للإسلام أثراً، ولعل الإسلام عندهم أن تؤدي الصلاة في المسجد، وأن تصوم رمضان وأن تحج البيت، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و الحج و صوم رمضان))

[متفق عليه عن ابن عمر]

ألا ترون معي أن الإسلام شيء وأن هذه الخمس شيءٌ آخر، بني الإسلام على خمس، الإسلام بناء أخلاقي، ومنهج، والتزام، وصدق.

العبادات الشعائرية هي مناسبات لقبض ثمن العبادات التعاملية:

ألا ترون أيها الأخوة أن سيدنا جعفراً وهو من كبار الصحابة حينما أراد أن يعرّف النجاشي بالإسلام قال: " وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء... "، فالصلاة والصوم والحج والزكاة عباداتٌ شعائرية وهي مناسباتٌ لقبض ثمن طاعتك في العبادات التعاملية، عباداتٌ شعائرية تقبض فيها ثمن العبادات التعاملية، ولذلك سئل النبيُّ عليه الصلاة و السلام: " أيكذب المؤمن ؟ قال: لا.

(إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة النحل: آية " 105 ")

((يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الكذب والخيانة))

[أخرجه أحمد عن أبي أمامة]

فإذا كان عنده كذب أين بقي الدين ؟

فيا أيها الأخوة... لو طبقنا منهج الله بحذافيره، جملة وتفصيلاً، في جلائل الأمور وفي صغائرها، وإذا طبقنا منهج الله كنا مسلمين، وقد لا نصل إلى مرتبة الإيمان، فكيف بالذي تفلّت من منهج الله، ويقول لك: أنا مسلم، فشعوبٌ كثيرة تعيش في كل المعاصي وهي مصنّفةٌ عند علماء السُكّان أنهم مسلمون.

الإسلام هو الانصياع التام إلى شرع الله:

حدثني أخ ذهب إلى بلد في أوروبا الشرقية يغلب عليه الدين الإسلامي، فلما علم أحدهم أنني مسلم طار فرحاً وشوقاً وعانقني وقبّلني ورَحّب بي وقدم لي زجاجة خمر هدية، فهؤلاء المسلمون، اختلاط ورقص وشرب، وهم مصنفون عند علماء السكان أنهم مسلمون، فتعريف الإسلام الدقيق: الانصياع التام إلى شرع الله، فإذا كان الإسلام في بيتك مطبقاً على زوجتك، وبناتك، وكسب مالك، وإنفاقه، فأنت الآن مسلم، أما أن تنتمي انتماءً شكلياً وتقول: لمَ لمْ ينصر الله المسلمين.. فالله قال:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: آية " 55 ")

قال:

(يَعْبُدُونَنِي)

ادفع الثمن، ادفع ثمن الاستخلاف وثمن التمكين والتطمين، فالثمن أن تعبده وأن لا تشرك به شيئاً.

على المؤمن ألا يغتر بكثرة عدد المسلمين العبرة بالتزامهم و تطبيقهم منهج الله تعالى:

إخواننا الكرام... قد آن الأوان ألا نجامل أنفسنا، وآن الأوان أن نعيش بالحقائق وليس بالأوهام، فلا يغرنّك كثرة المسلمين، فالعبرة بالتزامهم واستقامتهم، وتطبيقهم منهج الله عزّ وجل، وفي آخر الزمان قال عليه الصلاة والسلام (ولا أعتقد أن أحداً إلا ويرى أن هذا الحديث محقق):

((يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.. ألم تأتِ الأمم كلها لتحاربنا، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.. قالوا: أمن قلةٍ ؟ يومئذٍ نحن يا رسول الله ؟ قال: لا أنتم كثير (مليار ومئتا مليون) ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل))

[أخرجه أبو داود عن ثوبان]

أي الألف منهم كأف.. فهل تصدقون أن سيدنا عمر لما طلب منه سيدنا سعد دعماً لجيشه في القادسية، فخليفة المسلمين يُرسل لجيشٍ يحارب أكبر دولةٍ في العالم، يرسل له دعماً رجلاً واحداً اسمه القعقاع (والله شيء لا يصدق) بحجم جيش الواحد كألف، وقد تجد في آخر الزمان الألف كأف:

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)

[سورة الكهف]

الله عز وجل لا ينظر إلى صورة الإنسان و لكن ينظر إلى قلبه و عمله:

العبرة أيها الأخوة أن نكسب الوقت، وأن نكسب حياتنا الدنيا، وأن نتعامل مع الله تعاملاً صادقاً، وأن نكون أقوياء في ديننا، وأن نطبق لا أن نتكلم، ولا أن نتفلسف، ولا أن نحلل، ألف كلمةٍ ليس وراءها تطبيق لا تنفع ولا تغني ولا تسمن، قلت مرة في خطبة العيد، من قال: الله أكبر، أي من أطاع مخلوقاً وعصى خالقاً، ما قال الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، لأنه رأى أن هذا المخلوق طاعته أكبر عنده من طاعة الله، من لم يُقِم الإسلام في بيته، رأى أن إرضاء أهله وسلامة رأسه أغلى عنده من طاعة الله، فهذا ما قال الله أكبر ولا مرة، ولو رددها بلسانه ألف مرة، ومن لم يدع الدخل الحرام فماذا رأى ؟ رأى أن هذا الدخل الحرام أغلى عنده من طاعة الله، فلو قال في العيد: الله أكبر، والله ما قالها ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، أي آن الأوان أن نتعامل مع الحقائق، آن الأوان أن نعرف حدودنا، ورحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده، وعلينا أن نصدق مع الله، فالله عزّ وجل لا ينظر إلى صورنا، وإن كان للإنسان مظهر رائق، جميل، بياض، وعطر و مسواك، فالله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، والعبرة لا بالزي ولا باللباس ولا باللوحات الإسلامية في البيت والآيات قرآنية في مدخل المحل:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

(سورة الفتح)

وبالباب الثاني:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

(سورة هود: آية " 112 ")

وهناك غش في البيع والشراء، ونضع على السيارة مصحفًا ولا نتقي الله في هذه السيارة، ونطلق بصرنا في الحرام ونعلق تعليقات، فهذه المظاهر الشكلية من دون تطبيق هي علّتنا، وهذا هو الداء الذي يَفُتُّ عضد المسلمين.

الإسلام انصياع الجوارح لطاعة الله و الإيمان تصديق وإقبال:

الإسلام انصياع الجوارح لطاعة الله و الإيمان تصديق وإقبال:

فيا أيها الأخوة...

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)

لو طبقتم منهج الله بحذافيره، وكلياته وجزئياته فأنتم مسلمون، ولم تبلغوا مرتبة الإيمان، ولكن بعض العلماء يقول: إن الإيمان والإسلام له حكمٌ خاص، فهاتان الكلمتان إذا اجتمعتا تفرّقتا، وإن تفرقتا اجتمعتا، فإذا قلت: هو مسلم فأعني به أنه مؤمن، وإذا قلت: هو مؤمن فأعني به أنه مسلم، أما إذا قلت: الإسلام والإيمان، الإسلام شيء والإيمان شيء، إن اجتمعتا تفرقتا، كالفقراء والمساكين، وإن تفرقتا اجتمعتا.

أيها الأخوة... الإسلام انصياع الجوارح والأعضاء لطاعة الله، فالعين تغضُ البصر، والأذن تكف عن سماع الغناء، واللسان لا يكذب، ولا يغتاب، ولا ينم، واليد تعطي ولا تبطش، والرجل تمشي إلى مساجد الله، فهذا هو الإسلام، أما الإيمان فعليك أن تصدِّق ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام وأن تقبل على الله بقلبك، فالإيمان تصديق وإقبال، والكفر تكذيب وإعراض.

الإيمان محله القلب و الإسلام محله الجوارح:

الكفر والإيمان محلُّهما القلب، والإسلام محله الجوارح، فأنت بجوارحك وأعضائك وبيعك وشرائك مسلم، وأنت بقلبك مؤمن، فإذا أيقنت بهذه الحقائق التي جاء بها الدين وتمثلتها وأقبلت على الله فأنت مؤمن، أما حينما تطبق أمر الله عزّ وجل فأنت مسلم، فالإسلام شيء والإيمان شيء، لكن أحياناً الله عزّ وجل يقول:

(إِنّ الدّينَ عِنْدَ اللّهِ الْإِسْلَامُ)

(سورة آل عمران: آية " 19 ")

تفرقتا، إذاً الإسلام يجمع الإيمان والإسلام

(إنما المؤمنون إخوة)

أي المسلمون أيضاً، فحينما تأتي كلمة إيمان وإسلام مجتمعتين تفرقتا في المعنى، أما إذا أتت الكلمتان منفردتين فقد اجتمعتا في المعنى.

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)

الإيمان المطلوب هو الإيمان الذي يحمل الإنسان على طاعة الله:

الحقيقة أيها الأخوة... الإيمان إذا كان اعتقاداً يقينياً بحقائق الإيمان فمرتبةٌ واحدة، ويجب أن تؤمن بالله موجوداً وواحداً وكاملاً، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى، هذا هو الإيمان، أما إذا كان الإيمان اتصالاً بالله عزّ وجل فهنا يتفاوت الناس في إيمانهم، يزيد إيمانهم

وينقص بقدر إقبالهم على الله، فلذلك هناك يقينٌ يحملك على طاعة الله، واليقين الذي لا يحملك على طاعة الله لا يكفي، فإذا آمنت بالله ولم تستقم على أمره ففي الإيمان ضعف، وهذا الضعف تجسد في التفلت من منهج الله، أما إذا آمنت بالله إيماناً حملك على طاعته فهذا الإيمان المطلوب، ولذلك فالقضية مرنة، فيمكن أن تكون مع أكبر دائرة، ولكن أكبر دائرة لا تكفي، فأنت من جملة المؤمنين، تعتقد بوجود الله ووحدانيته وكماله، وجنته وناره والقدر خيره وشره والملائكة والكتاب، ولكنك لست مستقيماً، إذاً إيمانك غير كافٍ، ولذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا)

(سورة النساء: آية " 136 ")

كلما ارتفع مستوى الإيمان عند الإنسان ارتفع مستوى سلوكه:

اطلب كمال الإيمان، اطلب الإيمان الذي يحملك على طاعة الله، فهنا قضية دقيقة: هناك علاقة ترابطية دائمة بين تصوراتك وبين السلوك، فكلما ارتفع مستوى الإيمان يرتفع مستوى السلوك، فأنت منصاعٌ إلى أمر الله بقدر معرفتك به، ومتفلتٌ من منهج الله بقدر نقص معرفتك به، إذاً العلمُ هو المرحلة الأولى، فعلينا بالعلم.

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)

أما أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأما أن تكون حياتك وصلاتك ومحياك ومماتك لله رب العالمين، فهذه مرتبة الإحسان، وهناك مرتبة السابقين، ومرتبة المقتصدين، ومرتبة الظالمين، وهناك أصحاب اليمين وأصحاب الشمال والسابقون السابقون.

المؤمن الحقيقي هو المؤمن الذي يبيع نفسه لله فقط:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

(سورة التوبة: آية " 111 ")

فالإنسان السابق باع كل شيءٍ لله، فمن هو الشاري ؟ الله رب العالمين، وما هو الثمن ؟ الجنة..

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

(سورة التوبة: آية " 111 ")

فالشاري هو الله، والثمن هو الجنة، ولذلك المؤمن يأبى أن يبيع نفسه لغير الله ويكون مغبوناً أشد الغبن، فإنسان يبيع سجّادة بعشرة آلاف، والذي اشتراها باعها بمليونين، فهي حلقة مفقودة أثرية، فإنسان استدرجه وأعطاه عشرة آلاف، وثمنها مليونا ليرة، فبماذا يشعر هذا الإنسان ؟ بالغبن الشديد، فلما يبيع

الإنسان نفسه، أي يبيع وقته، وطاقاته، وذكائه، وعلمه، وشهادته، وماله، ويبيع مكانته لغير الله يكون قد غبن أشد الغبن، وباع النفيس بالخسيس، وخاتم ماس ثمنه مئتا ألف تبيعه بألفي ليرة !! ثم تكتشف الحقيقة أنك كنت مغبونًا، وأن الذي اشتراه منك غشّك وغبنك، إنه شعور لا يوصف، شعور بالغبن.

من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً:

ربنا عزّ وجل قال:

(إِنّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنّ لَهُمُ الْجَنّةَ)

(سورة التوبة: آية " 111 ")

فالشاري هو الله والثمن هو الجنة، فلا يليق بك كإنسان أن تكون لغير الله، ولا أن تحوّل لغير الله، ولا أن تصرف وقتك وجهدك وطاقتك ومالك لغير الله، قال: يا سيدي كم الزكاة عندكم ؟ قال: ماذا عندكم وماذا عندنا ؟ قال: عندنا العبد وماله لسيده، ولكن لما ربنا عزّ وجل رأى من المؤمن هذه البيعة، باع نفسه وماله في سبيل الله رد نفسه له أوفر ما كانت، ورد ماله له أوفر ما كان، وكان هذا البائع هو الرابح الأكبر، ولذلك: **" من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً "**، أي أن الله عزّ وجل خلقنا لنربح، وعليه:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11)َ)

(سورة الصف)

كل عمل عند الله محفوظ و سيحاسب الإنسان عليه:

دقق في آخر فقرة:

(خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

إذا رأيت الدنيا خيراً من الآخرة فأنت لا تعلم ولو معك أعلى شهادة، و أن ترى أن الآخرة خيرٌ من الدنيا.

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

(سورة الضحى)

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً)

واللهِ الذي لا إله إلا هو أريد أن أقدِّم لكم مثلاً لأصغر عمل يخطر ببالكم، لو أن أحدنا رأى في المسجد قشة صغيرة طولها سنتيمتر، فحفاظاً على قدسية المسجد أمسكها ووضعها في جيبه، إنها قشة، فهذا العمل عند الله محفوظ، فما قولك فيما فوق هذا العمل ؟.

الله عز وجل أجلّ و أعظم من أن يضيع مؤمناً أو يبخسه حقه:

(وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً)

شاب في مقتبل الحياة يقرأ قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: آية " 30 ")

فيغض بصره عن النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات، وهو في أشد نزعة الشباب، أفهذا العمل يضيع عند الله ؟ هذا المحروم ؟ لا والله، هذا السعيد، فإذا كافأه الله عزّ وجل في الدنيا بزوجة مؤمنة تسره إن نظر إليها، وتحفظه إن غاب عنها، وتطيعه إن أمرها فإن الله عزّ وجل لم يضيّعه، وهذا الذي يعف عن المال الحرام هل يبقى فقيراً ؟ حاشا لله:

((وما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

فلا تصدق أن إنسانًا يطيع الله ويخسر، أو يكون وراء الناس، لا يكون إلا في المقدمة، ولا تصدق أن إنسانًا يركل الدنيا بقدمه لأن فيها شبهة يبقى فقيراً، أبداً، الله أجل وأعظم وأكرم من أن يضيّع مؤمناً، ومن أن يُنقص له من عمله، وأن يبخسه حقه، ويظلمه، فلا يخاف ظلماً ولا هضما، هذا هو الدين.

امتحان الله الإنسان ليرى كيف يعمل ؟

أحياناً تأتيك إغراءات كثيرة، فالله عزّ وجل قال (دققوا في هذه الآية) قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

(سورة الطلاق)

لم يكن هناك مخرج، فالأبواب كلها مغلقة، فهذا المسجد فيه أربعة أبواب، فإذا أراد إنسان أن يخرج فلا يقل: أين المخرج ؟ فمتى يقول: أين المخرج ؟ إذا كانت كل هذه الأبواب مغلّقة، فلا تسأل عن المخرج إلا إذا غُلِّقت الأبواب، فالآية دقيقة جداً، وكذلك الإنسان أحياناً أبواب الرزق مسدودة كلها، يفتح لك أبواباً غير مشروعة، أما المشروعة فكلها مسدودة، لينظر ماذا تعمل ؟ فإذا قلت: أنا مضطر فماذا أفعل؟

رسبت في الامتحان، أما إذا قلت: الله الغني، يا رب لن أعصيك وليكن ما يكون، فعندئذٍ يفتح لك المخرج.

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

ولا تجد قصّة يعانيها الأخوة المؤمنون إلا وتؤكد هذه الحقيقة.

من ابتغى أمراً فعليه التوكل على الله:

إخواننا الكرام... هذا الحديث يجب أن يكون في ذهن كل واحدٍ منا.

((وما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

والله لزوال الكون أهون على الله من أن تدع شيئاً من أجله ولا يعوّضه عليك، كن واثقًا من الله عزّ وجل ولا تخف، والحرام اركله بقدمك، والعلاقة المشبوهة اركلها بقدمك، ولا تقل: أنا مضطر، فإن الله عزّ وجل لا ينال ما عنده بمعصيته: من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا وأقرب ممن اتقى.

(وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ)

أي لا يضيع عليكم..

(لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

العمل الحلال ولو كان فيه تعب وسهر وحسابات أفضل ألف مرة من الحرام:

العمل الحلال ولو كان فيه تعب وسهر وحسابات أفضل ألف مرة من الحرام:

لذلك فالمؤمن يطيع الله وكفى، ولا يعبأ بالنتائج، لأن النتائج حتماً لصالحه، فالله يمتحنه، وقد يريه أحياناً أن كل الخير بهذه التجارة ولكن فيها شبهة، ولا يوجد غيرها، ويقول لك: كل شيء واقف، وهذا هو الشغل، لأن الامتحان هكذا، ولولا أن الله يظهر للناس أن الخير في المعصية، والطاعة فيها ضيق، فالنبي قال:

((من بات كالاً في طلب الحلال بات مغفوراً له))

و الحلال صعب، ولحكمةٍ بالغةٍ بالغة جعل الله الحرام سهلاً، فالنبي قال:

((من بات كالاً في طلب الحلال بات مغفوراً له))

وحبذا العمل الحلال ولو كان فيه تعب وسهر وحسابات، ذلك أفضل من أن تمدّ يدك للحرام.

(وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

المؤمن من ضمّ الدنيا إلى الآخرة ليفوز بكليهما معاً:

اسمع قوله تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

فدائماً أيها الأخوة هناك نقطة مهمة جداً ؛ لا تنظر إلى قضية من زاوية الدنيا فقط، أحياناً تجد رجلين، الأول لا يوجد عنده دين على الإطلاق، فالأموال بين يديه كالتراب، وصحته قوية، ومكانته الاجتماعية عليّة، وهو قوي ومسيطر، وتجد الثاني مستقيماً متّبعاً لمنهج الله يعاني من ألف مشكلة، فإذا نظرت إلى الدنيا فقط وقعت في إشكال، فيجب أن تضم الآخرة إلى الدنيا، في الأول وفي الثاني، والله عزّ وجل قال:

(لَا يَغُرّنّكَ تَقَلُّبُ الّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

(سورة آل عمران)

و قال لك:

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمّ مَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

كل مؤمن له معاملة خاصة و موقف خاص بحسب إيمانه:

وقال لك: وبشر عبادي، فالله عزّ وجل بشر المؤمن وحذر الكافر، لكن قد تجد في الدنيا الكافر قوياً وغنيًا والمؤمن ضعيفًا وفقيراً، وإذا نظرت إلى الدنيا فقط فإنك تقع في إشكال، ودائماً ضُمّ الآخرة إلى الدنيا، فإذا ضممت الآخرة إلى الدنيا انتهى الإشكال، والحياة قصيرة، وأطول عمر مئة سنة، أو مئة وخمس وعشرون سنة، وهذا أمام الأبد ليس بشيء، بل هو كالصفر، واحد بالأرض و أصفار إلى القمر، كم هذا العدد ؟ إلى القمر المسافة ثلاثمئة وستون ألف كيلو متر، وبين كل صفرين مليمتر واحد، والواحد بالأرض والأصفار إلى القمر، هذا الرقم لو وضعته صورةً لكسرٍ عشري والمخرج لا نهاية فالقيمة صفر، وأكبر رقم في الأرض إذا نسب إلى اللانهاية فهو صفر، والآخرة لا نهاية، والدنيا رقم مهما طال عمر الإنسان فعاش مئة وثلاثين سنة !! أو مئتي سنة، فصفر، لأن الدنيا لا قيمة لها، والعبرة بالأبد، وذلك بأن تكسب جنة ربك إلى الأبد، العبرة أن يكون لك مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، وأن

تطمئن يوم يفزع الناس جميعاً، وأن ترتاح يوم يخاف الناس جميعاً، وأحد الصحابة قال: ينبغي أن يبكي حينما يضحك الناس، وأن يتقي حينما يتفلت الناس، فالمؤمن له معاملة خاصة، وله موقف خاص بحسب إيمانه.

المؤمن الحقيقي من آمن بالله و رسوله دون أي شك أو ارتياب:

إذاً:

(وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(إنما)

هذه أداة قصر، المؤمنون حقاً، الأعراب ماذا قالوا:

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)

إذاً ما الإيمان ؟

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

المؤمن لا يتعامل مع الظنيات إنما يتعامل مع اليقينيات:

المؤمن لا يتعامل مع الظنيات إنما يتعامل مع اليقينيات:

أيها الأخوة... الارتياب من الكفر، إنه شك وتردد..

زعم المنجم والطبيب كلاهما   لا تبعث الأجساد قلت: إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسرٍ   أو صح قولي فالخسار عليكما

***

هذا ليس إيماناً.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

لا ينبغي لك كمؤمن أن تتعامل مع الظنيات، فلا بدّ من التعامل مع اليقينيات، يقين..

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6))

(سورة التكاثر)

لا تقبل بالدين ظنّاً..

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً)

(سورة يونس: آية " 36 ")

الدين يقين و كل ما في الكون يدل على الله:

مع الظن تردد، يقول لك: لا نعرف.

جئت من أين ولكني أتيت أبصرتُ قدّامي طريقاً فمشيت

فلماذا جئت ؟ لست أدري ولماذا لست أدري ؟ لست أدري

* * *

لا تكن متردداً، في الدين لا يوجد ظن، فالدين يقين، وكل هذا الكون يدل على الله، وينطق بكماله، وبوحدانيّته، وبوجوده، وكل ما في هذا الكتاب ينطق أنه كلام الله، بإعجازه، وما جاء به النبي ينطق بنبوّته، وهناك دلائل النبوة، قال النبي أشياء لا يمكن أن يصل إليها إنسان ذكي وحده، والآن كشف العلم صوابها، فهذه من دلائل نبوة النبي، فلذلك لا تقبل بالظنيات، مرة قلت لإخواننا: أحياناً يقرأ الإنسان في الجريدة خمس كلمات: " سيسمح باستيراد السيارات " فرضاً، ينزل سعر كل سيارة خمسمئة ألف ليرة، وإنسان كتب تصريحاً فانخفضت أسعار السيارات في كل مكان، وخالق الكون وهذا الكتاب بين أيدينا، كله وعد ووعيد، ولا أحد يتأثر ؟ وهكذا قال الإمام الغزالي قال: " يا نفس لو أن طبيباً حذّرك من أكلةٍ تحبينها فلا شك أنكِ تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟ إذاً ما أكفركِ، أيكون وعيد الطبيب أشد عندكِ من وعيد الله ؟ إذاً فما أجهلكِ "، فالله عزّ وجل يقول: الإيمان هكذا:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

المؤمن الحق هو المؤمن بالله و بالجنة و النار الإيمان اليقيني:

يقول لك أحدهم: لا نعرف، إن شاء الله نكون على حق، فهذا ليس إيمانًا..

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

(سورة النمل)

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

(سورة النساء)

هذا الإيمان..

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة التوبة)

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

لا يوجد ريب، فإيمانه بالله يقين، وبالجنة يقين، وبالنار يقين، وبالجنة والنار إيمان إخباري، وإيمانه بالله والقرآن والأنبياء إيمان عقلاني، وبالأشياء الموجودة إيمان إحساسي.

الله نصب الكون كله أدلة على وجوده و كماله و وحدانيته:

إذًا هناك يقين حسِّي، وعقلي، وإخباري، ولا يوجد عندنا شيء اسمه: لا نعرف، إن شاء الله، إن شاء الله نجد أنفسنا بعد الموت في الجنة مثلاً، فهذا ليس إيماناً، والصحابة الكرام قال سيدنا علي: " والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً "، يقينه قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء، فهذا هو اليقين، يقول أحد الصحابة: " والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي " أي أنه ينطلق إلى الله بأقصى سرعة.

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكما

***

إن صح قولكما (أي إذا كان لا يوجد جنة ولا نار فلست بخاسرٍ أو صحّ قولي فالخسار عليكما) فهذا ارتياب، والارتياب من الكفر، والله نصب الكون كله أدلة على وجوده، وعلى كماله، وعلى وحدانيته، وجعل كلامه معجزاً، فيه إعجاز علمي، وبلاغي، وتشريعي، وإخباري، وتاريخي، وجعل نبيه كلامه في دلائل نبوته، وانتهى الأمر، فالعقل يحكم يقيناً بما جاء به القرآن.

(ثُمّ لَمْ يَرْتَابُوا)

إيمان الإنسان يعبر عن وجوده بالحركة نحو خدمة الخلق:

الآن:

(وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ)

إخواننا الكرام... في اللحظة التي يستقر فيها الإيمان بالقلب يعبر هذا الإيمان عن ذاته بالحركة نحو خدمة الخلق، فلا يوجد مؤمن منقطع عن إخوانه المؤمنين، وما دام استقر الإيمان في قلبه فعليه أن يتحرّك نحو إرضاء الله بخدمة خلقه، بالدعوة، وبالإحسان، وبإطعام اليتامى، ورعاية الأرامل، وبنشر العلم، بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإنفاق المال، ففي اللحظة التي يستقر فيها الإيمان في القلب يعبّر هذا الإيمانُ عن ذاته بالحركة نحو إرضاء الله من خلال خدمة الخلق.

الإيمان يقين و عمل لا تردد فيه و لا انقطاع:

لذلك:

(إنّمَا الْمُؤْمِنُونَ الّذِينَ آمَنُوا باللّهِ ورَسُولِهِ ثُمّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بأمْوَالِهِمْ وَأنْفُسِهِمْ فِي سَبيلِ اللّهِ أولَئِكَ هُمُ الصّادِقُونَ)

فالإيمان يقين وعمل، لا تردد فيه، ولا انقطاع عن العمل، والإيمان يعبّر عن وجوده بالعمل، فهذه الآية أساسية في الدرس:

(إنّمَا الْمُؤْمِنُونَ الّذِينَ آمَنُوا باللّهِ ورَسُولِهِ ثُمّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بأمْوَالِهِمْ وَأنْفُسِهِمْ فِي سَبيلِ اللّهِ أولَئِكَ هُمُ الصّادِقُونَ (15) قُلْ أتُعَلّمُونَ اللّهَ بدِينِكُمْ)

الإنسان قادر في كل زمان و مكان على تطبيق القرآن بكافة جوانبه:

أي هل أنت وكيل على الأمة ؟ يقول لك: هذه لا تنفع، وهذه فوق طاقتنا في هذا العصر، وأنت متيقن أن هذا الأمر لا يطبق الآن ؟ فماذا تفعل بقوله تعالى:

(لَا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إلّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: آية " 286 ")

من الصادق أنت أم الله ؟ يقول لك: اليقين، والمنهج صعب تطبيقه، وهذا كلام مستحيل أن يطبق في هذا الزمان، فهل الدين لغير هذا الزمان ؟ أي أن الله عليه أن يستثني هذا الزمان، فيقول: يعمل بهذا الكتاب إلى تاريخ كذا، فإذا كان الآن يصعب تطبيقه، أو انتهى تطبيقه، أما الله فيقول:

(لَا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إلّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: آية " 286 ")

فأنت قادر في كل مكان وفي كل زمان على تطبيق هذا القرآن من كل جوانبه ؛ في كسب المال، وإنفاقه، والزواج من مؤمنة، وإن شاء بيت مسلم، وإيّاك أن تقول: لا أستطيع، لأن الله عزّ وجل لم يكلّفنا إلا ما نستطيع، وحينما يعلم الله، وحيث علم الله أن هناك حالات صعبة جاءت الرخص، فقال لك: صلّ في السفر ركعتين الظهر فقط، وقال لك: في السفر إفطار، فعندما توجد المشقة فالله عزّ وجل يشرّع الرخص لأنه يعلم.

الإنسان إذا عرف علم الله تهيّب أن يدلي برأي أمام آية قرآنية:

(قُلْ أتُعَلّمُونَ اللّهَ بدِينِكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأرْضِ وَاللّهُ بكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

الإنسان إذا عرف علم الله عزّ وجل تهيّب أن يدلي برأي أمام آية قرآنية، ولذلك فالله عزّ وجل قال:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: آية " 36 ")

إذًا يوجد حكم، وامرأةٌ عاقلةٌ سئلت: ما رأيكِ في تعدد الزوجات ؟ قالت: ليس لي رأي وقد أباحه الله عزّ وجل، فأنت تختار هذا البيت أم هذا البيت ؟ وأن تتوظف أو أن تتاجر ؟ وأن تسافر أو أن تقيم ؟ فهذا اختيارك، أما الله عزّ وجل فقد حرم الربا تقول: والله أنا رأيي لابدّ منه الآن..

يقولون: هذا عندنا غير جائزٍ فمن أنتم حتى يكون لكم عند

***

الأحمق من يدلي برأي مخالف لآيات القرآن الكريم:

ما قيمتك ؟ وهل أنت مشرّع ؟ فلا أحد في الأرض يشرع إلا الله عزّ وجل ومن خلال السنة، فلما يدلي الإنسان برأي، وفي آية حاسمة يكون أحمقاً، لأنه يدلي برأي مخالف للآية.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: آية " 36 ")

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

انتهى الأمر..

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: آية " 30 ")

يقول لك: يا أخي لا نقدر الآن، فهذا كلام غير صحيح، وعندي ضعف إيماني، والأمر الإلهي غير مقيد بمكان ولا زمان.

النظام الغربي قائم على الردع الخارجي أما النظام الإسلامي فقائم على الوازع الداخلي:

(قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ)

الله عزّ وجل هو الخالق.

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

(سورة الملك)

هو الذي خلق، وأخْبَر إنسان بالآلة هو الذي صنعها، فالله هو الصانع، وهو الخالق، أَمَر، ونَهَى، ولقد كنت البارحة في جلسة فقلت لهم: انقطعت الكهرباء في بلدة في أمريكا، ارتكبت في ليلة واحدة مئتا ألف

سرقة، قلت: النظام الغربي قائم على الردع الخارجي، أما النظام الإسلامي فقائم على الوازع الداخلي، وشتّان بين الوازع الداخلي والرادع الخارجي، شتان أن تستقيم حباً لله ولا أحد يحاسبك، وشتان بين أن تنصاع لأمرٍ خارجي، أما إذا حُذِفَ هذا الأمر وهذه المراقبة فقد تفلّت الإنسان من هذا المنهج.

(قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

تعلّق علمه بكل شيء.

الدين الإسلامي سبب سعادة الإنسان:

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا)

والإنسان أحياناً إذا قطف ثمار الإيمان يمن عليه، يقول مثلاً: جئنا إلى الدرس، وصلينا، و ماذا يريد الله غير الصلاة ؟ لا تزيدوا علينا الأمور، فاعلم أنّ وجودك كله منحة من الله، ووجودك نعمة، نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى، وكلما عرفت أن فضل الله أكبر تذوب، فلا تمن على الله، نحن في غير الصلاة يقف شيء علينا، كأن الدين عبء أثقال، والدين ليس كذلك، إن الدين سبب السعادة، فإذا رأى إنسان لوحةً في أرض كُتِب عليها: حقل ألغام، يشعر أن من وضع هذه اللوحة قيّد حريته، لكن ضمن له سلامته ؟ يقول له: لم أدخل إلى الداخل من أجلك، لا ليس من أجله، بل لئلا ينفجر فيك تحته، فدائماً الإنسان إذا لم يقطف ثمار الشيء يمن على الآخرين، أما إذا استفاد لا يمن..

من أدى الحقوق الواجبة عليه نجا من عذاب الله:

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ)

يقول لك: أنا أؤدي الحقوق، هذه ليس لك فيها فضل، لأنك إذا أدّيت الحقوق نجوت من عذاب الله، فليس لك فضل، إخواننا ؛ بالمناسبة لا أحد يفتخر أنه أدى الحقوق، فهذه ليس له فضل فيها، فإذا كان عليك دين فوفّيته، فهذا واجب عليك أن توفيه، افتخر بعمل طوعي، وليس بعمل قسري، وافتخر بعطاء، وتضحية، وإيثار، وببذل شيء مما آتاك الله، أما تنفيذك للشرع فليس لك فضل فيه، لأن هذا هو المنهج الأقوم وإلا فإنك تدفع الثمن باهظًا، قال له: " يا رسول الله عظني ولا تطل (أعرابي من بدا فقد جفا) قال:

((قل آمنت بالله ثم استقم))

فوجدها صعبة، قال له: " أريد أخف من ذلك "، قال:

((إذاً فاستعد للبلاء))

فمثلما تحب أن تستقيم تربح.

والآن قل: أريد أن أعمِّر بيتًا، نحتاج ثمانية طن، يقول لك: يكفي أربعة طن فقط، ضع أربعة يقع البناء، فهذه قوانين، وهذا علم، أربعة يقع البناء، ثمانية لا يقع، أخي عملت مثلما تريد وضعنا ثمانية طن، لا، لا تمن عليه، أنت حفظت بناءك، أريد أن تصل إلى نقطة، عندما تنفذ شرع الله فالمكسب معك، لا تمن على أحد.

استقامة الإنسان و غض بصره و إنفاق ماله كل هذا لمصلحته:

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ)

إذا ركب أحدُنا سيارة شاحنة تحمل ثمانية طن، فواجه جسراً كُتِب عليه: الحمولة القصوى خمسة أطنان، ثم رأى شرطة، لا ليس هذا الموضوع، لو مشيت لوقعت في النهر، أخي لم نمش من أجلكم، لا ليس هذا الكلام، لو مشيت لخرب بيتك، والمعنى واضح.

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ)

أخي لقد غضضنا بصرنا، فهذا لمصلحتك، ولقد أكلنا مالاً حلالاً، لمصلحتك، كل شيء تفعله لمصلحتك، والحديث القدسي:

((كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعمِائَة ضِعْفٍ قالَ اللَّهُ عَزّ وَجَلّ إِلّا الصّوْمَ فَإِنّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة]

أما استقامتك، وغض بصرك، وإنفاقك المال، وأداء الزكاة، هذه كلها لك.

من طبق أحكام الدين و قطف ثماره يذوب شكراً لله و من لم يطبقها يمن على الله:

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ)

إذا كلفت إنسانًا بعمل وما نال منك جائزة فهل يمن عليك ؟ أما إذا نال جائزة كبيرة جداً فإنه يشكرك، ويختلف الوضع، فلو طبّق إنسان أحكام الدين تماماً وقطف ثماره يذوب شكراً لله عزّ وجل، أما إذا لم يطبّق وصار الدين عبئًا عليه، يمن على الله عزّ وجل، فالذي يمن على الله عزّ وجل دليل على أنه لم يقطف الثمار، وما نال الخيرات حتى إنه مَنّ على الله، أما الذي طبّق وقطف الثمار فيشعر بامتنان لا حدود له من الله عزّ وجل، أساساً الله عزّ وجل قال:

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

(سورة النساء)

من يرى فضل الله عليه كبيراً يستحي من الله عز وجل:

المؤمن دائماً يرى هذا الفضل، أن الله خلقه ولم يكن شيئاً مذكوراً، منّ عليه بنعمة الإمداد، وبنعمة الهدى، وعرفه ذاته، ورزقه زوجة، أعطاه بيتاً، وأعطاه عملاً، ورفع له ذكره، فدائماً يستحيي من الله عزّ وجل.

(إِنّ اللّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

فهو يعرف إذا كنت مسلماً أم مؤمناً أم محسناً، يعرف مستوى إيمانك وإسلامك وإحسانك.

(إِنّ اللّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

لا أحد يعلم الغيب إلا الله:

كلمة:

(إِنّ اللّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

فيها قصر، ليس

(الله يعلم غيب السماوات)

أو يعلم غيب السماوات الله، يختلف الوضع.

(إِنّ اللّهَ يَعْلَمُ)

أي وحده يعلم، ولذلك لا أحد يعلم الغيب إلا الله، وأي إنسان يدّعي ذلك يجب أن تسكته، و إن شاء الله في درسٍ قادم ننتقل إلى سورة (ق).

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة ق 050 - الدرس (1-3): تفسيرالآيات 1-10 ، الإيمان بالله و اليوم الآخر كلٌّ لا يتجزأ

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-06-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة ق.

مذاهب العلماء في تفسير الحروف المقطعة:

(ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ)

للعلماء في هذه الحروف التي تتصدّر بعض السور مذاهب كثيرة في تفسيرها:

من هذه المذاهب: الله أعلم بمراده، ومن هذه المذاهب أنها أوائل أسماء الله الحسنى.

ومن هذه المذاهب أنها أوائل أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

ومن هذه التفسيرات أن القرآن الكريم إنما صيغ من جنس هذه الأحرف، فإعجاز القرآن الكريم أن موادّه الأولية بين أيديكم، فأحد أسباب الإيمان بأنه كلام الله تعالى، وهو سرّ إعجازه، والحروف التي نُظِمَ منها هي حروف اللغة العربية، ولكن الله تحدّى الناس جميعاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن فلن يأتوا، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً.

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ:



هذا قسَم، فربنا سبحانه وتعالى يُقسِمُ بالقرآن المجيد، المجيد العالي، المجيد الشريف، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، كم هي المسافة بين الخالق والمخلوق ؟ بين القديم والحادث ؟ بين الكمال كمالاً مطلقاً والإنسان الضعيف ؟ كم هي المسافة بين الله وعباده ؟ هي المسافة نفسها بين كلام الله وكلام عباده، هذا ينبغي أن يدفعنا إلى قراءة القرآن، وإلى فهم

القرآن، وإلى تدبُّر القرآن، وإلى تطبيق القرآن، لأنه كتابنا المقرّر، وفي القرآن الكريم أحاديث كثيرة لا شكّ أنكم تعرفونها، وأن النبي صلى الله عليه وسلم يشير إلى أن هذا القرآن غنىً لا فقر بعده، على كلٍّ:

(بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ)

انحراف الكفار و تقصيرهم بسبب إغفالهم اليوم الآخر:

(بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3))

هل العجب أن يرسِلَ الله سبحانه وتعالى رسولاً يبيّن للناس طريق سعادتهم ؟ العجب هو ألا يُرسِل، وهناك معنى دقيق جداً هو: أن كمال الخلق من لوازمه كمال التصرُّف، فكما أنّ في الخلق إعجازاً، كذلك في الخلق علمٌ وحكمةٌ، وغنىً وقدرةٌ، ولطفٌ، وكل أسماء الله تعالى ترونها في خلقه، وما الكون إلا مظهرٌ لأسماء الله الحُسنى، فكما أنّ الكون يدلُّ على الله، ومن لوازم كمال الخلق كمال التصرُّف، إذاً ليس عجيباً أن الله سبحانه وتعالى يُنزل على سيدنا النبي صلى الله عليه وسلّم كتاباً، بل العجب ألاّ يُنزل، العجب ألاّ يبيّن، العجب ألاّ يأتي رسولٌ معه كتابٌ فيه تبيانٌ لكل شيء.

الآيات بعد القسم وجوابه وصلت إلى الدار الآخرة.

ويا أيها الأخوة الكرام، إن أخطر موضوع في العقيدة بعد الإيمان بالله الإيمان باليوم الآخر، لأنك إن آمنت باليوم الآخر غيّرت كل الخطّة التي تسير عليها، إذا آمنت باليوم الآخر، وأدخلت هذا اليوم في الحسابات اليومية صِرْتَ إنساناً آخر، لأن كل عملك سوف تُحَاسَب عليه، وكل دخلِك سوف تُحَاسَب عليه، وكل إنفاقك سوف تحاسَب عليه، في اليوم الآخر تسوّى الحسابات، وتؤدّى الحقوق، وتؤدّى المظالم لأصحابها.

فكل إنسانٍ يا أيها الأخوة أغفل أن يدخل في عقيدته اليوم الآخر، أو آمن باليوم الآخر ولم يُدخِل هذه العقيدة في العلاقات اليومية فإنه عندئذٍ ينحرف، ويقصِّر، وينقطع، ويشقى.

محاسبة الإنسان يوم القيامة حساباً عسيراً سبب في استقامته:

بادئ ذي بدء: قبل أن تعطي ماذا سأجيب الله عزّ وجل يوم القيامة إنْ سألني: لمَ أعطيت هذا، وأنت تعلم أنه فاسق ؟

قبل أن أمنع، قبل أن أُطلِق بصري، قبل أن أغضّ بصري، قبل أن أرفض، قبل أن أوافِق، قبل أن أغضب، قبل أن أُطلِّق، قبل أن تتحرّك يجب أن توقن أن هناك يوماً تُسأل فيه عن كل شيء، وتُحَاسَب فيه على كل شيء.

((لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ ؟))

[الترمذي عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ]

يا أيها الأخوة الكرام، دقِّقوا إذا كنتم مع بشرٍ مثلكم، مع إنسانٍ قد لا تحبّونه، وقد لا تقدِّرونه، لكن هذا الإنسان قوي إذا ضبط أحد الناس بمخالفةٍ سوف يحاسبه، فحينما يوقِن الإنسان أن الذي أصدر قانوناً و مرسوماً يطوله علمه، وتطوله قدرته إذاً لابدّ من أن يستقيم على أمره.

أكاد أقول: إن قانون الاستقامة أن توقن أن الذي أصدر هذه التعليمات يطولك علمه إذا خالفتها، وتطولك قدرته إذا عصيت أمره، لمجرّد أن تؤمن أن علم الله يطولك إذا عصيته، وأنت في قبضته، وسوف يُحَاسِبُك، إذاً لابدّ من أن تستقيم على أمره، ومن هنا يمكن أن نقول: إنّ أيّ خللٍ في الاستقامة يتبعه خللٌ في العقيدة، إن أيّ انحرافٍ عن منهج الله أصله ضعفٌ في الإيمان بالله، لذلك أكثر ركنين من أركان الإيمان وروداً معاً هما: الإيمان بالله واليوم الآخر.

(أئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)

الإيمان بالله و اليوم الآخر كلّ لا يتجزأ:

إن الإيمان كلٌ لا يتجزّأ، محاولة الفصل بين أركان الإيمان محاولةٌ مستحيلة، أنت إذا آمنت بالله خالقاً ومربيّاً ومسيّراً، وآمنت به أنه يعلم، وسيُحاسِب فلابدّ من أن تستقيم على أمره، لا يمكن أن تفكِّر في معصيته، لأن الله سيحاسبك، وأقول مرّة ثانية: أنت تسلك هذا السلوك لا مع الله عزّ وجل، ولكن مع إنسانٍ قد لا تحبّه، وقد لا تقدِّره، ولكنه قوي، إذا كان قادراً على أن يعلم مخالفتك له، وإذا كان قادراً على أن يُنزِل بالإنسان أشدّ العقوبات فلا يمكن أن تعصي أمره، فكيف بخالق الكون ؟

ليس معقولاً بعد أن صرنا تراباً أن نُخْلَقَ من جديد، وأن نحاسَب على كل أعمالنا وهذه عقيدة الكافرين، وهذا تفكيرهم ومقالهم.

الأدلة التي وردت في القرآن الكريم عن اليوم الآخر:

1 ـ الدليل النقلي:

بل يا أيها الأخوة الكرام، إن الإيمان باليوم الآخر هو إيمان من نوع اليقين الإخباري، لأن الله أخبرنا في قرآنه الكريم أن هناك يوماً يُحاسَب فيه الناس جميعاً، تسوّى فيه كل العلاقات، ترمّمُ فيه كل المظالم، تؤدّى فيه كل الحقوق، يُحاسَب الإنسان على أدقّ الأعمال.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

إذا أيقنّا أن هذا اليوم يقوم فيه الناس لرب العالمين، ويأخذون جزاءهم العادل ؛ فالمنطق والعقل والحكمة، وحبك لذاتك وفطرتك كل هذا يقتضي أن تستقيم على أمر الله، هذا هو الدليل النقلي الذي ورد في القرآن الكريم عن اليوم الآخر.

2 ـ الدليل العقلي:

لكن العلماء يرون أن هناك دليلاً عقلياً: في الحياة تفاوت كبير، في الصحّة، في المال، في الوسامة، في الذكاء، في القدرات، في القوى، هناك ظالمٌ ومظلوم، قويٌّ وضعيف، غنيٌّ وفقير، فإذا انتهت الحياة الدنيا هكذا من دون يومٍ آخر فإن هذا الوضع غير السوي لا يتناسب مع كمال الله عزّ وجل، فكمال الله يقتضي أن تسوّى فيه الحسابات، هناك يومٍ تسوّى فيه الحسابات، تؤدّى فيه الظُلامات.

إذاً أنت مع دليلين: دليلٍ نقلي في الكتاب والسنّة، ودليلٍ عقلي، أن العقل السليم لا يقبل أبداً أن خالق الكون العظيم يَدَع خلقه هملاً بلا حسابٍ، ولا مسؤوليةٍ، ولا جزاءٍ، ولا ثوابٍ ولا عقابٍ، ولا جنّةٍ ولا نار، ومن ظنّ أن الحياة الدنيا تنتهي هكذا فما عرف الله أبداً.

الأحمق من يوهم نفسه أنه أدخل اليوم الآخر في حساباته اليومية:

الحقيقة أيها الأخوة والخطورة هي أن الإنسان أحياناً لا يكذِّب باليوم الآخر تكذيباً قولياً، ولا يكذب باليوم الآخر تكذيباً لفظياً، يقول لك: لا، أنا مؤمن بهذا اليوم، ولكن إذا دققت في سلوكه، وفي عمله، وفي

كسبه للمال، وفي علاقاته الاجتماعية، وفي زواجه، وفي طلاقه، وفي عطائه ومنعه لا ترى أبداً أن هذا اليوم العظيم داخلٌ في حساباته اليومية.

إخواننا الكرام، الذي يكسب مالاً حراماً، الذي يجمع مالاً عن طريق الكذب أو الاحتيال، والذي يغشُّ الناس، والذي يبتزّ أموال الناس، هذا لو أنه صلّى فهو في الحقيقة لم يُدخِل اليوم الآخر في حساباته اليومية، أين قوله تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

أين قول النبي صلى الله عليه وسلّم:

((لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ))

[الترمذي عن أبي برزة]

امتحان الإنسان لإيمانه بعمله لا بإقراره:

أيها الأخوة، أحد أكبر أركان الإيمان بعد الإيمان بالله أن يؤمن باليوم الآخر، لذلك تجد انضباط المؤمن عجيباً، وسر انضباطه أن لحظة الوقوف بين يدي الله عزّ وجل لا تغادر ذهنه أبداً، قبل أن يفعل شيئاً، قبل أن يغش، قبل أن يكذب، قبل أن يأخذ ما ليس له، قبل أن يفتري على الناس يقول: كيف أقول لله عزّ وجل ؟ ماذا أقول له ؟ فالإنسان يمتحن إيمانه لا بإقراره، بل بعمله، فإذا كان عمله يؤكِّد إيمانه فليحمد الله عزّ وجل، أما إذا كان عمله لا يؤكد إيمانه فليشمِّر، وليجدِّد إيمانه، ولمجرّد أن تأكل مالاً حراماً، وأنت تعلم يجب أن تعلم علم اليقين أن هذا اليوم العظيم ما أدخلته في حساباتك، لمجرّد أن تظلم امرأةً لا سند لها يجب أن تعلم أن هذا اليوم العظيم ما أدخلته في حساباتك، لمجرّد أن تدلِّس، أو أن توهم لتكسب مالاً حراماً يجب أن تعلم علم اليقين أن هذا اليوم العظيم ما أدخلته في حساباتك.

الفرق بين المؤمن و غير المؤمن في رؤية الحياة:

(أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)

هذه مقولة أهل الكفر، إنهم آمنوا بالدنيا فقط بأنها كل شيء، والمال فيها كل شيء، والملذّات فيها كل شيء، والقوّة فيها كل شيء، والجمال فيها كل شيء، والتنعُّم فيها كل شيء، مالُها ونساؤها، وطعامها وشرابها، ومتعها ومباهجها هي كل شيء، لذلك الفرق الجوهري بين المؤمن وغير المؤمن، أن غير

المؤمن يقبِلُ على الدنيا، ولا يسأل، ولا يلتفت إلى صواب عمله أو خطئه، لكن المؤمن لا يأخذ من الدنيا إلا بالقدر الذي سمح الله له به.

(بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ)

(سورة هود: الآية 86)

أي ما بقي له، ما بقي مسموحاً له أن يفعله هو الخير، أما الذي حرّمه الله عليه فلا يقترب منه ولو أدّى ذلك إلى هلاكه.

فكيف قلتم هذا: رجعٌ بعيد ؟ الله جلّ جلاله الذي بدأ الخلق يعيده، الذي خلق الإنسان من تراب، من نطفةٍ، من ماءٍ مهين، وجعله إنساناً سويّاً، في دماغه مئة وأربعون مليارَ خليّةٍ عصبية لم تُعْرَف وظيفتها بعد، في شبكية عينه مئة وثلاثون مليونَ مخروطٍ وعُصيّة، فيه ثلاثمئة ألف شعرة، ولكل شعرة وريد وشريان وعصب وعضلة، وغدّة دهنية وغدّة صبغية، الذي أودع فيه قلباً يضخ كل يوم ثمانية أمتار مكعَّبة، وشبكة شرايين وأوردة طولها مئة وخمسون ألف كيلو متر.

أكرر للبيان والاعتبار: في الإنسان شبكة أوردة وشرايين وشعريّات طولها مئة وخمسون ألف كيلو متر، كذلك في الكليتين طريق يقطعه الدم طوله مئة كيلو متر كل يوم، الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم سيحاسبه، وسيعيد خلقه مرّةً ثانية.

إنكار الكافر يوم القيامة و الحساب فيها:

لذلك المقولات تتشابه، لأن ملّة الكفر واحدة.

(أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)

فمن هو الكافر ؟ هو الذي آمن بالدنيا فقط، الدنيا في نظره كلّ شيء، القوّة فيها كل شيء، المال فيها كل شيء، المتعة الرخيصة فيها كل شيء، ثم يأتي الموت على كل شيءٍ حصّله في الدنيا، ويخسره في ثانيةٍ واحدة، لمجرّد أن يقف قلبه كل أملاكه ليست له، كل ثيابه تبقى في الخزانة، يُلفُّ في قماشٍ أبيض رخيص، ويودع في التراب، وانتهى الأمر، لذلك فإن المؤمن يحسب حساباً دقيقاً لهذه الساعة، ساعة مغادرة الدنيا، وغير المؤمن لا يُدْخِلُ هذه الساعة في حساباته أبداً، وكأن الموت على غيرنا قد كُتِب.

أحد أسباب انضباط المؤمن في الحياة الدنيا إيمانُه باليوم الآخر:

إخواننا الكرام، إذا آمنتم باليوم الآخر الإيمان الصحيح، وأدخلتم هذا اليوم في الحسابات اليومية، بل في الحسابات الساعية، بل في حساب الثواني، ونظر أحدكم وقال: ماذا سأجيب الله عنها يوم القيامة ؟ كلمة شاردة، أو ابتسامة في غير موضعها، مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ، فكل محاسب عليه، قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ)

(سورة الزلزلة)

إذا أدخلتم اليوم الآخر في حساباتكم، في بيوتكم، في تجارتكم، في صناعتكم، في كل نشاطات حياتكم فقد أصبتم، ورضي الله عنّا وعنكم، لكن كثيراً من الناس في وادٍ آخر.

موضوع اليوم الآخر موضوع خطير جداً، وهو أخطر موضوع في العقيدة بعد الإيمان بالله هو اليوم الآخر، وأحد أسباب انضباط المؤمن إيمانُه باليوم الآخر.

ذات مرّةٍ ضربت مثلاً توضيحياً بإنسان ركب مركبة، والإشارة حمراء، والشرطي واقف، وسيارة الضابطة واقفة، وضابط كبير من شرطة السير واقف، وإذا تجاوز شخص الإشارة يلحقونه، ويحجزون مركبته، وهؤلاء كلهم بشر عاديون، فهل يُعقل أن يتجاوز هذه الإشارة ؟

من المستحيل، ولا بالمليار واحد أن يتجاوز إنسان الإشارة الحمراء، وهو يعلم علم اليقين أنه سيضبط، وسيُحاسَب أشدّ الحساب، فكيف مع خالق الأرض والسماوات ؟ كيف ؟!!

العاصي من يغامر بسعادته في الدنيا و الآخرة:

والله أيها الأخوة، لا أعجب من الذي يطيع الله عزّ وجل، هذا شيء طبيعي، لكن العجب العُجاب مِن الذي يعصي الله، فماذا تملك من الدنيا ؟ الإنسان كل كيانه منوط بشريان الدم في دماغه، لو تجمّدت خثرة في الدماغ لغيّرت حياته، فإن استقرت في مكان يصاب بالعمى، وفي مكان يفقد ذاكرته، وفي مكان يُصاب بالشلل، أين قوّة الإنسان ؟ هل تملك لهذا الدم الذي يجري في الدماغ في أدقّ الأوعية، هل تملك أن يبقى سائلاً ؟ إذا تجمّد أصبحت حياة الإنسان جحيماً، هذا القلب الذي ينبض من يملك حركته الدائمة ؟ من يملك مرونة شرايينه ؟ من يملك هذا الشريان التاجي الذي يغذِّي عضلة القلب ؟ من يملك هذا الشريان ؟ إذا ضاق هذا الشريان أصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يُطاق، فعلى أي شيءٍ يستند العاصي ؟ العاصي مغامر، والعاصي مقامر، يقامر بسعادته في الدنيا والآخرة، فالعجب العجاب ممن يرى نفسه في قبضة الله و يعصيه، ممن يرى أن أمره كله بيد الله ويخرج عن منهجه، هذا هو العجب العجاب لا كما قال هؤلاء الكفّار.

(أئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ)

فناء الإنسان في قبره:

قال تعالى:

(قَدْ عَلِمْنَا)

أي حينما يوضعون في قبورهم، وحينما تبدأ الكائنات الحية عملها في أكل لحومهم.

(قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ)

الله جلّ جلاله هو الذي يعلم كيف أن هذا الإنسان يفنى في قبره، ولا يبقى منه إلا ذرّةٌ هي التي تعيد بناءَه من جديد يوم القيامة.. ألا وهي عَجبُ الذنَب.

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ: آية لها عدة معان:

1 ـ إما أنهم إذا ماتوا ابتلعتهم الأرض فأنقصت عددهم:

(قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ)

إما أنهم إذا ماتوا ابتلعتهم الأرض، فكأن الأرضَ أنقصت عددهم.

2 ـ أو أن التراب حينما يأكل لحمهم يتناقص الجسد شيئاً فشيئاً:

أو أن التراب حينما يأكل لحمهم في القبر فيتناقص الجسد شيئاً فشيئاً، وقد ورد في الأثر أن الإنسان في أول يومٍ يوضع في قبره يقول الله له:

((عبدي، رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحيٌ الذي لا يموت))

التفكُّر في الموت جزء من الدين:

أيها الأخوة، إن الإنسان مدعوٌ وهو في الدنيا، وهو حيٌّ يُرزَق أن يدخل إلى غرفةٍ مظلمة، بلا مصباح أبداً، وليقبع فيها ساعاتٍ طويلة، ألا يشعر بالضجر ؟ ألا يشعر بالوحشة ؟ غرفة كبيرة فيها سرير وثير، وفيها نوافذ، أطفئ المصباح، واجلس وحدك عدة ساعات بماذا ستشعر ؟ القبر على طول الزمن لا نافذة

له ولا سرير، ولا شيء من هذا، إنك تحت التراب، وفي اليوم الواحد تشيّع عشرون جنازة أو أكثر، في هذا الحي في اليوم الكثير من النعي، فهذا الذي أعلمونا أنه توفي أين يبيت هذه الليلة ؟ تحت الأرض، تحت التراب، أين كان ينام قبل وفاته ؟ على سرير، حوله زوجة وأولاد، هناك طعامٌ وشراب، هناك ثياب، هناك بيتٌ نظيف، يُوضَع في القبر ويهال عليه التراب، وقد قال سيدنا عمر: **" كفى بالموت واعظاً يا عمر ".**

إخواننا الكرام، التفكّر في الموت جزء من الدين، التفكّر مع التساؤل: يا ترى كيف تنتهي حياتي ؟ بأية طريقة ؟ أين أموت ؟ في البيت أم خارج البيت ؟ أين أُغسّل ؟ أفي البيت ؟ أين أُدفن ؟ هذه الخواطر ضرورية جداً لأنها كوابح.

ابتعاد الإنسان عن المعصية عند تفكيره بالموت و الحساب:



أيها الأخوة الأكارم، لو أنك كنت على طريقٍ معبّد تركب مركبة، الخطران الكبيران أن تنحرف يمنةً أو يسرةً، وعلى اليمين وادٍ سحيق، وعلى اليسار وادٍ سحيق، والخطر الثاني هو أن تتعطل المركبة، والتفكّر في الموت يجعلك على الطريق، ويدفعك نحو الأمام، والذي يقيك الانزلاق والوقوف هو التفكّر بالموت، وسبحان الله ! إن الموت ما ذُكِرَ مع كثيرٍ إلا قلّله، وما ذُكِرَ مع قليلٍ إلا كثّره، فالإنسان القوي الغني المتمكّن يحلّ بالمال كل قضية، ولكنّ الموت يقلِّل هذا المال، بل يذهبه، ماذا ينفعه المال حينما يموت ؟ والفقير المعذّب المريض يأتي الموت فينهي كل مشكلاته.

(قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ)

فيا أيها الأخوة الكرام، التفكّر في الموت جزءٌ من الدين، والتفكّر في الموت كابح يكبح جماح النفس، التفكر في الموت يكبح جماح النفس عن أن تزل قدمُها في معصية، أو أن تقف وهي في طريق الإيمان.

الانغماس في الدنيا والانشغال بها يجب ألا تبعد الإنسان عن التأمل:

(بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ)

لا مانع من أن يزور الإنسان من حينٍ إلى آخر مقبرة، وإذا رأى جنازة فليتبع هذه الجنازة، ولينظرْ بنفسه كيف أن النعش يُفتَح، ويُرفع الميت، وقد بدا جسمه ملفوفاً بهذا القماش، ثم يُنزّل في القبر، وكيف يُوضع اللوح الحجري، وكيف يُهال التراب عليه، ويذهب أهله إلى البيت، وقد غادر البيت ولن يعود، خرج من البيت أفقياً، ليتذكر الإنسان أنه إذا خرج من بيته آلاف المرّات قائماً فلابدّ من أن يخرج في إحدى هذه المرّات أفقياً، تذكّر أنك إذا دخلت إلى بيتٍ من بيوت الله لتصلي فلابدّ من أن تدخل مرّةً ليُصلّى عليك.

قرأت كلمة وهي: **" صلّ قبل أن يُصلّى عليك "**، فلابدّ من أن يصلّى عليك، فهذا الانغماس في الدنيا والانشغال بها، وكسب الدرهم والدينار، والانخراط في متاعبها ومشاغلها، وحُطامها ومكاسبها، هذا ينبغي أن يُعدّل، ينبغي أن تكون هناك ساعة تتأمّل فيها سرّ وجودك، وغاية وجودك، وعظمة ربك، ومنهج ربك.

تكذيب الكفار بالقرآن الكريم الذي أنزل على النبي الكريم:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ)

فقد قال بعضهم عن النبي عليه الصلاة والسلام: ساحر، لأن الحق الذي جاءهم هو النبي عليه الصلاة والسلام، والحق الذي جاءهم هو القرآن الكريم فقالوا:

(إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

قال بعض المفسِّرين: الحق هو القرآن الكريم الذي أُنزِل على النبي صلى الله عليه وسلم، كذّبوا به، وقالوا:

(إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

(سورة الصافات)

(بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ)

قالوا عن النبي عليه الصلاة والسلام: إنه شاعر، إنه كاهن، إنه ساحر.

رفض الكفار للقرآن الكريم قبل فهم و تدبر آياته:

(بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ)

وفي الآية إشارة لطيفة.

(بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ)

أي أنهم لم يدرسوا القرآن، وما قرؤوا القرآن، وما تدّبروا آياته، وما وقفوا عند معانية آياته، كما لو أن شخصاً جاءته رسالة فسلّمها إليه ساعي البريد، وقبل أن يفتحها مزّقها، فهذا إنسان أحمق، اقرأها أولاً، لكنه مزّقها قبل أن يفتحها، وقبل أن يقرأ مضمونها، وهذا الذي يكذِّب بهذا الكتاب قبل أن يقرأه، وقبل أن يفهمه، وقبل أن يتدبّر آياته، وقبل أن يعمل على تطبيقه هو إنسان غبي، غبي جداً، رفض الشيء قبل معرفته، إنه غباءٌ من هذا الإنسان ما بعده غباء.

شقاء الإنسان في الدنيا و الآخرة عند تركه القرآن العظيم:

(بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ)

لمجرّد أنه جاءهم كذّبوا به دون تدبُّر، دون وعي، دون فهم، هل هناك بربّكم من عمل أيها الأخوة أعظم من أن تمضي وقتاً في فهم كلام الله ؟ فهم هذا المنهج، هذا الوحي الذي جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، خطاب السماء إلى الأرض، هل في المكتبات كلها كتابٌ يرقى إلى هذا الكتاب ؟ اُدخلوا إلى بعض المكتبات تجدوا آلاف الكتب، عشرات ألوف الكتب، مئات ألوف الكتب ؛ في التاريخ والجغرافيا، والقصّة والأدب، والعلوم والفنون بربّكم، وما شاكل ذلك، أما هذا الكتاب فهو منهج، هذا منهج حياتك، تسعد بتطبيقه في الدنيا والآخرة، و تشقى بتركه في الدنيا والآخرة.

تفسير كلمة مريج:

1 ـ المريج هو الكاهن:

(فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ)

بعضهم قال: كاهن.

2 ـ المريج هو الشاعر:

بعضهم قال: شاعر.

3 ـ المريج هو الساحر:

بعضهم قال: ساحر، وأهل الكفر إذا أرادوا أن يصفوا الحق يختلفون، ساعة يقولون: ضعف بشري أمام قوى الطبيعة القاهرة، وساعة أخرى يقولون: المتديّن إنسان يعوّض نقصاً ألمّ به، فيتهمون أهل الدين اتهامات ما أنزل الله بها من سلطان.

عدم اتفاق الكفار على وصف أهل الحق بوصف واحد:

(أمْرٍ مَرِيجٍ)

أمرٍ مضطرب، هم فيما بينهم مختلفون، لم يتفقوا على وصفٍ موحّدٍ لأهل الحق، لكن الشيء الدقيق أن الحديث بينهم عن اليوم الآخر:

(أئِذَا مِتْنَا وَكُنّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (4) بَلْ كَذّبُوا بِالْحَقّ لَمّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5))

عدم اقتناع الكفار بأنهم سيبعثون بعد الموت و يحاسبون:

ولكن ما علاقة هذا الكلام بالآيات التالية ؟

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيّنّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8) وَنَزّلْنَا مِنَ السّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنّاتٍ وَحَبّ الْحَصِيدِ (9) وَالنّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (10) رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11))

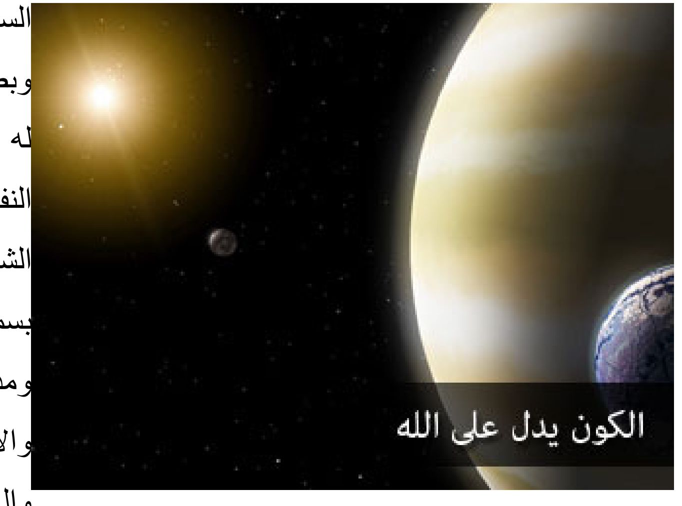
الحقيقة أن هؤلاء الكفّار الذين كذّبوا، كذّبوا بالحق و كذّبوا هذا القرآن، وأنكروا اليوم الآخر، وقالوا:

(إِنْ هِيَ إِلّا حَيَاتُنَا الدّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

(سورة المؤمنون)

فكيف السبيل إلى إقناعهم بوجود خالقٍ عظيم ؟ وربٍ رحيم ؟ ومسيرٍ حكيم ؟ كيف السبيل إلى إقناعهم بأن هناك يوماً آخر توزن فيه الأعمال، وتؤدى فيه الحقوق، وتسوى فيه الظّلامات ؟

منهج القرآن في إثبات اليوم الآخر:



السبيل: هذا الكون الذي تحت سمعنا وبصرنا، الشيء الثابت الوحيد الذي يخضع له كل إنسان هذا الكون العظيم، فكلّما تاهت النفوس، واضطربت الأفكار، وظهرت الشكوك، ومرجت النظريات، فالكون بسماواته وأرضه، بمجرّاته، بكواكبه ومذنّباته، بنجومه، بشمسه وقمره، والأرض: بالبحار والجبال، والصحارى والغابات، والأسماك والأطيار، والنباتات وخلق الإنسان، هذا الكون هو الذي يدلُّ على الله، هو الذي ينطق بكمال الله، هو الذي ينطق بوحدانية الله، هو الذي ينطق بحكمة الله، برحمة الله، بعلم الله، وبقدرة الله، هو الشيء الثابت، وإذا اضطربت عقيدة الإنسان، وتزلزلت أفكاره فليَدَعْ كل شيء، وليتجه إلى الكون ليتأمّل فيه.

(أئِذَا مِتْنَا وَكُنّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (4) بَلْ كَذّبُوا بِالْحَقّ لَمّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5))

فما هو الحل ؟ كيف نؤمن بخالق الكون ؟ بأسمائه الحسنى وصفاته الفَضلى ؟ كيف نؤمن بهذه الرسالة السماوية ؟ بهذا الكتاب المقدّس ؟ كيف نؤمن ؟ قال تعالى:

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيّنّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)

عظمة الله تتجلى في الكون:

إنه لن تقع عينك على خلل، وبعض الأرقام تشير إلى أن العلماء قدّروا أن في الكون قريباً من مليون مَليون مجرّة، هذه المعلومات راجحة إلى الآن، وأن في كل مجرّة قريباً من مليون مَليون نجم، وأن المجموعة الشمسية نقطة في درب التبانة، والمجموعة الشمسية قطرها ثلاث عشرة ساعة، أما نحن أي: الأرض والقمر القطر ثانية ضوئية، نحن والشمس القطر ثماني دقائق فقط، هذه المجموعة الشمسية، وقد أرسلوا مركبة فضائية إلى المشتري، بقيت المركبة ست سنوات في الفضاء تسير ولم تصل.

بالمناسبة بيننا وبين أقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية، والضوء يقطع في الثانية ثلاثمئة ألف كيلو متر، في الدقيقة ضرب ستين، ثم اضرب في الساعة، باليوم، بالسنة، وهذه المسافة بين الأرض وأقرب نجم ملتهب لو أردت أن تقطعها بمركبةٍ أرضية تحتاج إلـى خمسين مليون عام، هذا رقمٌ دقيق.


عظمة الله في الكون

أكرر: لو أردت أن تقطع المسافة بين الأرض وأقرب نجمٍ ملتهب تحتاج إلى خمسين مليون عام، وأقرب نجم ملتهب يبعد عنّا أربع سنوات ضوئية فقط، بينما نجم القُطب يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية، في حين أن بعض المجرّات تبعد عنّا مليون سنة ضوئية، وبعض المجرات المُكتشفة حديثاً تبعد عنا أربعة وعشرين ألف مليون سنة ضوئية، أي أنها كانت في هذا الموقع الذي رأيناه بالمراصد العملاقة قبل أربعة وعشرين ألف مليون سنة، الآن لا يعلم إلا الله أين هي.

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا)

صنعة الله المطلقة في كل شيء:


قلب العقرب

نجم صغير جداً أحمر اللون في برج العقرب اسمه قلب العقرب، يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، بين الأرض والشمس مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، والشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرّة، أي مليون وثلاثمئة ألف كرة أرضية، يمكن أن توضع في جوف الشمس، وبينهما مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، وقلب العقرب يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما.

وهذا الكون العملاق لولا حركة النجوم حول نجوم أخرى لأصبح كتلة واحدة، لأن قوى التجاذب تجمعه في كتلة واحدة، أما الحركة الدائرية فينشأ عنها قوى نابذة تكافئ القِوى الجاذبة، هذه الحركة المستمرة تجعله مستقراً بهذا الترتيب، أما لو أن الحركة توقفت لأصبح الكون كتلة واحدة.

(أفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيّنّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)

(سورة ق: الآية 3)

يعني أنك لا ترى أي خلل، والفروج هنا تعني الخلل.

(صُنْعَ اللّهِ الّذِي أَتْقَنَ كُلّ شَيْءٍ)

(سورة النمل: الآية 88)

كلٌ صنعتِهِ متقنة، كل عمله محكم.

(أفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا)

التفكر في ملكوت الله يؤدي إلى عدم التكذيب بالحق:

إذا اضطربت الأفكار، و اضطربت الأدلّة، وكلٌ يدّعي وصلاً بليلى، والحياة كلها مذاهب، واضطرابات، وأفكار، ونظريات هدّامة، ونظريات صحيحة، ونظريات مغلوطة، كان الشيء الثابت هو الكون، فالكون يدلُ على الله، ودعك من كل الخلافات، دعك من كل التمزُقات، دعك من كل الاضطرابات الأرضية، الكون هو الشيء الثابت الوحيد الذي يدل على الله، طبعاً يدل على مليون حقيقة، ولكن كل هذه الحقائق في ثلاث كلمات: الله موجود، وواحد، وكامل.
الخلاصة اليقينية وجود، وحدانية، وكمال مطلق، فإذا دلّك الكون على خالقٍ عظيم واحد كامل، يقتضي كمال هذا الخالق العظيم أن يبين لخلقه لماذا خلقهم ؟ ولماذا أوجدهم ؟ وماذا ينتظرهم ؟ وماذا عليهم أن يعملوا ؟ فكان هذا القرآن الكريم، لماذا كذّبوا بالحق ؟ لأنهم لم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها، لو نظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها لما كذّبوا بالحق، هذه الآية دقيقة جداً:

(بَلْ كَذّبُوا بِالْحَقّ لَمّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ)

فما العمل ؟ لقد كذّبوا بالحق، كذبوا بهذا القرآن، كذبوا هذا النبي العدنان، لم يعبؤوا بهذا الدين وقالوا: الحياة هي كل شيء، بعد الموت لا وجود لشيء أبداً، فكيف السبيل للإيمان ؟ إنه قال:

(أفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيّنّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)

الدنيا ما هي إلا إعداد و تمهيد للآخرة:

لو نظرت في خلق السماوات والأرض لعرفت أن هذا الخالق العظيم كماله مطلق، ويقتضي كماله أن يبين لعباده لماذا خلقهم ؟ ولماذا أوجدهم ؟ وماذا ينتظر منهم ؟ وماذا عليهم أن يعملوا ؟ ولماذا جعل حياتهم محدودة ؟ ولماذا خلقهم لحياةٍ أبدية ؟ ولماذا كانت هذه الحياة الدنيا إعداداً وتمهيداً للحياة الآخرة ؟ هكذا، فلذلك ينقصنا أن نتأمّل في خلق السماوات والأرض، الكون يدلّنا على كل شيء، يدلّنا على أن لهذا الكون خالقاً واحداً كاملاً موجوداً، ومن لوازم كماله أن يبين لخلقه، وهذا القرآن بين أيدينا.

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)

قدرة الله عز وجل في جعل الأرض لا تنحرف عن مسارها:



إخوتنا الكرام، الأرض تدور حول الشمس بمسار إهليلجي، وهذا المسار له قطران: قطرٌ أصغر وقطر أكبر، إذا وصلتْ إلى القطر الأصغر تزيد سرعتها، وينشأ عن هذه الزيادة قوة نابذة جديدة تكافئ القوة الجاذبة الجديدة من قِصَر المسافة، لأن الجذب متعلِق بالمسافة، والكتلة في قانون الجاذبية، فحينما تصل الأرض إلى القطر الأصغر تزيد سرعتها، وحينما تصل إلى القطر الأكبر تقلّ سرعتها لكي لا ينشأ قوّة تفلّت من جاذبية الشمس، لكن فرضاً لو أن الأرض تفلّتت من جاذبية الشمس، وأردنا أن نعيدها إلى الشمس، ماذا علينا أن نفعل ؟ هذا كلام فرضي، وغير واقعي إطلاقاً، الجواب: نحتاج إلى مليون مَليون حبل فولاذي، وقطر كل حبل خمسة أمتار، طول كل حبل مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، تُزرَع هذه الحبال الفولاذية على وجه الأرض المقابل للشمس، وإذا زُرعت فنحن أمام غابة من الحبال الفولاذية، بين كل حبلين مسافة حبل واحد، تستحيل الزراعة والصناعة، والبناء والعمران، وانتهى كل شيء، وتُحجَب أشعّة الشمس، فكل هذه الحبال المليون مليون حبل، قطر الحبل خمسة أمتار، هذا الحبل يقاوم قوى شد تقدر بمليوني طن، كلها تمسك بالأرض، وتثبتها في موقعها من الشمس.

الملخّص أن الأرض مرتبطة بالشمس بقوّة تساوي مليون مَليون ضرب مليوني طن، كل هذه القوة من أجل أن تحرف الأرض عن مسارها المستقيم ثلاثة مليمترات في الثانية، فلو أنها سارت بشكل مستقيم لخرجت من مدارها حول الشمس، فتنحرف كل ثانية ثلاثة مليمترات، وهذه الثلاثة مليمترات تشكِّل مداراً مغلقاً حول الشمس.

رفع السماء بغير عمد آية من آيات الله الدالة على عظمته:

(اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: الآية 2)

هل يقدر الإنسان أن يبني بناء من ثلاثين طابقاً مساحته ألف متر بلا أعمدة ؟ ويجعل ارتفاعه عن الأرض عشرة أمتار ؟ تمشي من تحته بالهواء من دون أعمدة ؟ هذا الشيء فوق طاقة الإنسان، أن ينشئ بناء من ثلاثين طابقاً من دون أعمدة إطلاقاً، وأول طابق يرتفع عن الأرض عشرة أمتار، وأنت تتحرّك من تحته، وأنت تمشي بالهواء، والهواء فيه قِوى جذب، وأنت لا تشعر.

ما المد والجزر ؟

إن البحر أحياناً يرتفع إلى عشرين متراً، هذا مِن جذبِ القمر للبحر، هناك أبحاث تؤكِّد أن القمر يجذب القشرة الأرضية اليابسة، ولذلك يضطرب دمُ الإنسان في أيام مدّ القمر وهو بدر، والنبي صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نصوم هذه الأيام الثلاثة، وهناك بحوث الآن أُخِذت من ملفّات القضاء، وعيادات الأطباء، ومن مخافر الشرطة أن معظم الجرائم تُرتكب في هذه الأيام الثلاثة، حينما يفور الدم، هذا أيضاً متعلِّق بالجاذبية.

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

جعلها كرة، معنى مددناها أي جعلنا الصفوف التي عليها تستمر إلى أبد الآبدين، الشكل الوحيد الذي تمشي عليه الخطوط بلا توقف هو الكرة، أما المكعّب فإن الخط يقف عند الحرف.

(يُولِجُ اللّيْلَ فِي النّهَارِ)

(سورة فاطر: الآية 13)

هذه إشارة إلى أنها كرة.

وهناك إشارة ثانية، وهي:

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ)

تداخل الظلام مع النور بالأشكال الهندسية لا يكون إلا في الكرة.

الجبال آية عظيمة من آيات الله:

(وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً)



جبال همالايا ارتفاعها اثنا عشر ألف متر، لو أتينا بكرة قطرها متر فإن أعلى جبل في العالم يُمَثِّل على هذه الكرة بسنتيمتر واحد، أعلى جبل ارتفاعه اثنا عشر كيلو متراً يقابله سنتيمتر، وأعلى جبل في العالم ثلثاه تحت الأرض، معنى هذا أن اثني عشر كيلو متراً تحت الأرض، وأربعة وعشرين تحت الأرض، فربنا عزّ وجل وصف الجبال مرة بأنها رواسي، ومرّة وصفها بأنها أوتاد، فالطبقات الأرضية يأتي الجبل فيربط بعضها ببعض، والعلماء يقولون: لو جئت ببيضة غير مسلوقة وأدرتها فإنها تقع، لأن فيها طبقات غير متجانسة، أما إذا سلقتها فإنها تدور معك، فالأرض حينما تدور ففيها طبقات غير متجانسة، فيأتي الجبل كالوتد فيربط بعضها ببعض.

(وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ)

الله جعل الجبال رواسي، كيف أن الدولاب إذا دار بسرعة كبيرة يضطرب فيوضع له قطع من الرصاص في بعض الأماكن كي يدور بسرعة من دون اضطراب، الله جعل الجبال رواسي، وجعلها مستودعات للمياه، وضاعف بها مساحة الأرض، وجعل الجو في الجبال جوّاً مريحاً، بارداً في الصيف.

الورود الجميلة لم يخلقها الله إلا تكريماً للإنسان:

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

هل عندكم فكرة عن عدد الأبصال التي خلقها الله عزّ وجل من أجل أن تُمْتِعَ العين بها ؟ عددها أكثر من مئة ألف، فالورود التي من أصل بصلة أنواع كثيرة، وأنواع نباتات الزينة التي توضع في البيوت بمئات الألوف، وكل نبات له طباع، له خصائص، هذه ليست للأكل والشرب، هذه ليمتع الإنسان بها عينه، أفلا تشكرون ؟

الورود

هذه الورود الجميلة مثل الزنبق، ألوان جميلة جداً، روائح فوّاحة، لمن خُلِقت هذه ؟ خُلِقت تكريماً لهذا الإنسان.

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

الحكمة من نضج الفاكهة تباعاً:

الله عزّ وجل جميل يحب الجمال، الفاكهة التي تأكلها فيها متعةٌ للعين قبل أن تمتع فمك بها، التفاحة لها منظر جميل جداً، كل أنواع الفواكهِ النظرُ إليها مُتعة قبل أن تأكلها، ألوان، أشكال، حجوم، توشيح أحياناً، ألوان متألِّقة، اللون الأصفر في التفاح جميل جداً، يوجد عليه خد أحمر أحياناً، وكذلك العنب، فهذه الفواكه من خلقها ؟ من صمّمها ؟ لماذا خُلقت ؟ خُلِقت للإنسان.

الفواكه

(تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ)

هذه النباتات بعضها محاصيل تنضج في يوم واحد، وبعضها خضراوات تنضج تباعاً، وبعضها فواكه، والفواكه مبرمجة، لو أن الله عزّ وجل جعل جميع الفواكه تنضج في يومٍ واحد فماذا نفعل ؟ لكن انظر:

تنضج العوجة أولاً، وبعدها الكرز، ثم المشمش، وبعده التفاح، وبعده الأجاص، وثم الدُرّاق، هناك برنامج، والفاكهة الواحدة تقطفها خلال شهر، لو كانت تقطف في يومٍ واحد فماذا نفعل بها ؟ حقل البطيخ يُجنى منه البطيخ خلال تسعين يوماً، ثلاثة أشهر بأكملها تجني بطيخاً من هذا الحقل ذو تصميم، وله ترجيح، هناك مرجّح، وهو حكيم.

الهدى قرار داخلي يتخذه الإنسان قبل كل شيء:

(تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ)

هذه الآية دقيقة جداً، هذا الكون هو تبصرة، أي: به تبصر عظمة الله عزّ وجل، فإذا كان الإنسان غافلاً يذكِّرَه هذا الكون.

(لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ)

إذا كان غير منيب لا يستفيد، معنى هذا أن منطلق الهدى يبدأ منك حينما تتخذ قراراً بطلب المعرفة، فإن كل شيءٍ يدلك على الله، وحينما يتجه الإنسان إلى شهواته، ويعرض عن ربه فلو رأى الآيات الصارخة فلن يهتدي إلى الله بها، معنى هذا أن الهدى يبدأ باختيار ذاتي، وهذه الآية واضحة جداً، الكون.

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8))

إذا أناب العبد إلى ربه يصبح الكون له تبصرة، إذاً الهدى قرارٌ داخلي تتخذه أنت قبل كل شيء، تريد أن تعرف الحقيقة عندئذٍ كل شيءٍ في الكون يدلُ على الله.

قدرة الله عز وجل على إعادة خلق الإنسان كما أنشأ الجنّات و خلقها:

(تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ(9))

جنات أي بساتين.

وحبّ الحصيد أي: المحاصيل ؛ القمح والشعير، وما إلى ذلك.

(وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ)

هذا الرُطب الذي تحمله هذه الأشجار.

(رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ)

كما أنشأ الله هذه الجنَّات، وخلقها، وأصبحت ذات بهجةٍ للناظرين فالله سبحانه وتعالى يعيد خلق الإنسان مرّةً ثانية يوم القيامة.

إذاً: الجواب على تساؤل الكفّار، وإنكارهم البعث، وإنكارهم الحق، وتكذيبهم بهذا القرآن هو النظر في ملكوت السماوات والأرض.

الماء أساس كل شيء حي:



(وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ)

الله عزّ وجل قال:

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)

(سورة الأنبياء: الآية 30)

وحيث رَأيت الماء رأيت الخضار، والبساتين، والجبال الخضراء والمحاصيل.

فوائد النخل:

(وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ)

والحديث عن النخل يطول، إنها من أكرم الأشجار، وهذا الذي تحمله من ثمار عبارة عن صيدلية، يوجد ست وأربعون مادّة غذائية في التمر، ولا يقبل التلوُّث، وهو مهدئ ومنشِّط، وملّين للأمعاء، ومضيّق للشرايين

فوائد النخيل

من أجل النزيف، وربنا عزّ وجل تكلّم عن التمر في معرض المخاض فقال:

(وَهُزّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرّي عَيْناً)

(سورة مريم)

وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى نتابع تفسير هذه الآيات الكريمة بتوفيق الله وعونِهِ.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة ق 050 - الدرس (2-3): تفسيرالآيات 12- 29 ، إحصاء أعمال الإنسان عليه و محاسبة الله له

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-06-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني من سورة (ق)، ومع الآية الثانية عشرة.

توعد الله من حاد عن منهجه بالعذاب الأليم:

قال تعالى:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14))

ليس القصد في هذه الآية ذكر التفاصيل، إنما القصد أن هذا المنهج الذي جاء به الأنبياء من حاد عنه لقي العذاب الأليم.

الشيء الذي يلفت النظر هو أن تأويل القرآن أحياناً هو وقوع الوعد والوعيد، فهناك مبادئ نظرية، وهناك تصديقاتٌ عملية، المبدأ النظري أن هذا حلال وهذا حرام، وأن هذا حقٌ وهذا باطل، وأن الذي يفعل ما أُمِرَ به يلقى أحسن الجزاء، وأن الذي يقترف ما نهى الله عنه ينال أسوأ الجزاء.

إنزال العذاب الأليم بالأقوام السابقة:

لذلك:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ)

البئر.

(وَثَمُودُ (12) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ)

أصحاب الأيكة قوم شعيب، والأيكة: الأشجار الملتفة.

(وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ)

الوعيد الذي أوعدهم الله به وقع.

قدرة الله عز وجل في إعادة خلق الإنسان من جديد كما خلقه أول مرة:

(أفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)

في الخلق الأول، خلق الله جلّ جلاله الإنسان في أحسن تقويم، والذي خلقه أولَ مرة قادرٌ على أن يعيده في المرة الثانية.

(بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ)

هل تعبنا ؟

(بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)

استفهام إنكاري.

لو أن خلق الإنسان في الأصل أشار إلى تعبٍ أو إلى جهدٍ أو إلى خلل لكان من المحتمل أن يكون الخلق الثاني غير قائم.

الله سبحانه و تعالى يعلم السر و أخفى:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ)

الوسوسة حديث النفس، ويمكن أن تُسمي ذلك الخواطر، الخواطر التي تَرِدُ على ذهنك، يمكن أن تسمي ذلك حديث النفس فيما بينك وبين نفسك، فالإنسان له حالتان، حالةٌ يتكلم بها مع الآخرين، وحالةٌ يصمت بها، وهو صامت هناك نشاطٌ ذاتي، هناك حديثٌ، وعرضٌ، وأخذٌ وردٌ، وسؤالٌ وجوابٌ، واقتراحٌ ورفضٌ، وتطلعٌ وأملٌ، ورغبةٌ ورهبةٌ وخوفٌ، حديث النفس لا ينقطع.

اركب مركبةً عامةً إلى بلدةٍ بعيدة، طوال الطريق وأنت تحدِّث نفسك، سَمِّها إن شئت الخواطر، سمِّها إن شئت حديث النفس، على كلٍ كل شيءٍ تبطنه يعلمه الله عزّ وجل، بل إن الله سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى، يعلم ما أسررته في نفسك، وأخفيته عن الخلق، ويعلم ما خفي عنك، هذا معنى قول الإمام علي كرم الله وجهه: **" علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ".**

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

(سورة الملك)

من لوازم الخلق العلم، الخالق هو الذي يعلم.

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ)

تبدأ استقامة الإنسان عندما يعلم أن الله يعلم كل شيء:

أيها الأخوة، النقطة الدقيقة جداً أنك إذا أيقنت أنك مكشوف، وأن كل خواطرك مكشوفةٌ عند الله، وأن كل تطلعاتك ظاهرة معلومة عند الله، وأن كل حواراتك الداخلية مكشوفةٌ عند الله، وأن حديث النفس يعلمه الله، وأن النوايا يعلمها الله، فما خبّأت عن الناس فهذا كله يعلمه الله عندئذ ستستقيم.

المشكلة أنك إذا أيقنت أن الله يعلم فلا شك أنك تستقيم، لأنك إذا أيقنت أن زيداً مـن الناس يعلم، وزيدٌ مقتدرٌ عليك، ويعلم جميع حالاتك فلا يمكن أن تحيد عن أمره، وهذا شأن الناس مع الأقوياء، إذا أيقنت أن زيداً أو عبيداً يعلم سرّك وجهرك، يعلم ما تفعل، لا أقول: يعلم سرك، يعلم ما تفعل، وهو مقتدرٌ عليك فلا يمكن أن تعصي أمره، إذاً متى تبدأ بالاستقامة على أمر الله، ما هو المنطلق كي تستقيم ؟ المنطلق أن تعلم أن الله يعلم، إذا علمت أن الله لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى، يعلم حديثك الذاتي، علمت عندئذٍ أنك مكشوف عند الله تماماً، طبعاً قد تقول: الذي تقوله يعلمه الناس، لكن الله سبحانه وتعالى أشار إلى حديثٍ ذاتي نفسي، لا يمكن لأحدٍ أن يعلمه، هذا الذي تُخْفيه عن الناس يعلمه الله، فلأن يعلم جهرك من باب أولى، إذًا الله سبحانه يعلم سرك، وحديثك الذاتي الذي لا يمكن أن يطلع عليه أحدٌ من البشر أبداً، اجلس بين قوم واسكت، هل يستطيع أحدٌ مهما أوتي من الذكاء والخبرة والفراسة والعلم وقوة الشخصية أن يعلم ماذا يدور في خلدك ؟ أبداً، قد تبتسم، وفي الداخل تبكي، قد تمدحه بلسانك، وفي الداخل تلعنه، أيستطيع إنسان كائن من كان أن يعلم ما يدور في خلدك ؟ لكن الله يعلم.

العلم والقدرة صفتان من صفات الرحمن:

أيها الأخوة، دققوا في هذه الآية:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً)

(سورة الطلاق)

ربنا جلّ جلاله اختار من بين الصفات كلها صفتين ؛ العلم والقدرة، إذا أيقنت أيها الإنسان أن الله يعلم، وأنت في قبضته وسيحاسبك، وأنا أعني ما أقول، وفي حدود ما أقول، يستحيل أن تعصيه، لأنك لن تعصي مخلوقاً ولو كنت لا تحبه إذا كان علمه يطولك، وقدرته تطولك، أبداً لن تعصي مخلوقاً لا تحبه بشرط أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك، فكيف بخالق الأكوان ؟

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً)

(سورة الطلاق)

لذلك: إذا أردت أن تستقيم على أمر الله في سرك وجهرك، في خلوتك وجلوتك فتيقّن أن الله يعلم ما تفعل، وما تقول، وما تحدِّث به نفسك.

علم الله و محاسبته للإنسان تحمل العبادَ على طاعته:

لو أن شريكين اتفقا على شراكةٍ أبدية، لكن في ذهن الأول أنه لمجرد أن يتقن الخبرة من الثاني يلقيه خارج الشركة، فالله يعلم ذلك، لو تزوّجت امرأةً وفق الشروط الشرعية ؛ بمهرٍ وشهودٍ، وإيجابٍ وقبولٍ، وفي نيتك أن تطلقها بعد نهاية الدراسة، فالله يعلم، فكلمة: (يعلم) تحمل العبادَ على طاعة الله، يعلم وسيحاسب، يعلم كل أحوالك، وأنت في قبضته وسيحاسبك.

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ)

أرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الآية واضحة لديكم:

يعلم كل شيء، وأنت في قبضته وسيحاسبك، لذلك فإن ذرة عقل تمنعك أن تعصيه، ولا يمكن ذلك، لأنك تعامل المخلوق هكذا، تعامل مخلوقاً من جنسك وهو بشر، وقد لا تحبه، قد تحتقره، لأنه يعلم مخالفتك لهذا القانون، ولأنك في قبضته، وسيحاسبك، لذلك تستقيم على أمره، فإذا كان هذا شأنك مع بني البشر، فكيف ينبغي أن يكون شأنك مع خالق البشر ؟ الخواطر كلها يعلمها، النيّات كلها يعلمها، التطلعات يعلمها، التصميمات يعلمها، الخطط التي ترسمها يعلمها، الذي تقوله ولا تعتقد به يعلمه، الذي تفعله، وتنوي عكسه يعلمه.

إطلاع الله عز وجل على سريرة الإنسان:

لذلك ألا يستحي الإنسان من الله ؟ **"عبدي طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهّرت منظري ساعة "**. لا تجعل الله أهون الناظرين إليك، هو ينظر إلى قلبك.

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلّا مَنْ أَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

إذا نظر الله إلى قلبك فإن كان في قلبك السلامة والتواضع، والعبودية ومحبة الخلق، ورغبتك في خدمتهم وهدايتهم، والأخذ بيدهم فهنيئاً لك، أما إذا نظر الله إلى قلبك فإذا كان فيه الحقد والحسد،

والضغينة والعداوة، والبغضاء والنيّات الخبيثة، والرغبة في أن تزول النعم عن الخلق، وأن تأتي إليك، فالويل لهذا الإنسان، ومن أسرّ سريرةً ألبسه الله إيّاها.

و الله عزّ وجل يقول:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ)

رب النيات.

أقرب شيء إلى الإنسان هو حبل الوريد:

قال تعالى:

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

حبل الوريد: الوريد هو هذا الذي في العنق، و الذي يغذي الدماغ، والذي يأتي من القلب مباشرةً، ولمجرد أن ينقطع هذا الوريد يموت الإنسان، هو جزءٌ من الإنسان، وأقرب شيءٍ إلى الكل بعض أجزائه، أقرب شيءٍ إلى الكل.. (الإنسان)أجزاؤه الداخلية، إن أجزاءه الداخلية أقرب شيءٍ إليه من أي شيءٍ خارجي عنه، فأقرب شيء إليك حبل الوريد.

معنى القرب في: وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

قال بعض العلماء: القرب هنا ليس قرب الذات، بل قرب العلم والقدرة، أي أقرب إليك بعلمه، وأقرب إليك بقدرته من حبل الوريد، كيف أن حبل الوريد أقرب شيءٍ إليك، وأخطر شريانٍ فيك، فالموت موت الدماغ، فإذا انقطع الدم عن الدماغ يموت الإنسان على الفور، فهذا الحبل الذي يغذّي الدماغ، والذي بقطعه يموت الإنسان، فكما أن هذا الحبل تتوقف عليه حياتك، وهو جزءٌ منك، وهو أقرب شيءٍ إليك، الله جلّ جلاله أقرب إليك بعلمه، وأقرب إليك بقدرته من حبل الوريد.

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

كل المشكلة تحل إذا علمت أن الله يعلم، كل مشكلتك مع الله تحل إذا انطويت على قلبٍ سليم، على نفسٍ طاهرة، على عملٍ وفق منهج الله.

وظيفة التفكر في الموت:

أيها الأخوة، ذكرت مرةً أن التفكّر في الموت له وظيفة إيجابية جداً، وظيفته الإيجابية أن التفكر في الموت يبقيك على الصراط المستقيم، ويمنعك من الانزلاق يمنة أو يسرة، وأن التفكر في الموت يدفعك إلى الله.

هناك خطران ينتظران من يركب مركبة، ويمشي بها في طريق:

الخطر الأول: أن ينزلق يمنة أو يسرة.

والخطر الثاني: أن يقف.

إن التفكر في الموت يدفعك إلى الله، ويمنعك من السقوط، وأحد أسباب الاستقامة أن تعلم أن الله يعلم، إذا كان يعلم سرّك فلأن يعلم جهرك من باب أولى، إذا كان يعلم خواطرك وحديث نفسك ونيّاتك المستقبلية فلأن يعلم أعمالك من باب أولى، وحينما يعلم فهو قدير.

الله عزّ وجل أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد علماً وقدرةً:

دقة التفسير أن الله عزّ وجل حينما قال:

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

أي أقرب إليه بعلمنا، وأقرب إليه بقدرتنا، أحياناً تعرف إنساناً قادراً، لكن تتصل به، ولا تجده، فهو بعيدٌ عنك، هو قادر، لكنه بعيدٌ عنك، أنت في الطريق، وهو في البلدة، تتصل به فلا تجده، لأنه مسافر، وأنت في أمسّ الحاجة إليه، ولو تدخّل فربما أنقذك مما أنت فيه، لكن قدرته ليست قريبة منك، بل هي بعيدةٌ عنك، الله عزّ وجل أقرب إليك من حبل الوريد علماً وقدرةً.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

(سورة البقرة)

قدرة الله عز وجل في نجاة الإنسان إذا كان ذا نية حسنة:

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

(سورة الشعراء)

والحقيقة أن الهلاك كان محققاً، لأن أصحاب موسى شرذمةٌ قليلون، كما قال فرعون، وما أدراكم ما فرعون بجبروته، وجيشه، وأتباعه، وقوته، وحقده، وتكبره، وهم يتبعون أصحاب موسى، والبحر أمامهم، قال تعالى:

(فَلَمّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلّا إِنّ مَعِيَ رَبّي سَيَهْدِينِ(62))

(سورة الشعراء)

سيدنا إبراهيم قبل أن يلقى في النار جاءه جبريل عليه السلام قال: **يا إبراهيم، ألك حاجة ؟ قال: منك ؟ قال: لا، من الله، قال: علمه بحالي يغني عن سؤالي.**

إذا كنت في كل حالٍ معي فعن حمل زادي أنا في غنى

* * *

حفظ الله المؤمن و تأييده و توفيقه في كل أموره:

فالله عزّ وجل علمه معك، وقدرته معك، أيضاً هناك آية يحسن أن نذكرها الآن، فالله عزّ وجل يقول: والله معكم أينما كنتم، قالوا: هذه معية العلم، لكن حينما قال:

(وَأَنّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

(وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ)

(سورة البقرة)

قالوا: هذه معية خاصة، هذه معية الحفظ والتأييد، والنصر والتوفيق، فالله معنا.

كن مع الله ترَ الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك؟

* * *

المؤمن الصادق خلوته كجلوته:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

لذلك من لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله، فالمؤمن الصادق مراقبته لله في خَلوته كجلوته، وفي سره كعلانيته، المؤمن الصادق ليس في حياته ازدواج أبداً، بل هو في انسجام كامل، ما في قلبه يكون على لسانه، ما يفعله في خلوته يفعله في جلوته، وما يفعله في جلوته مع الناس يفعله في خلوته.

إحصاء أعمال الإنسان عليه من قبل الملائكة الذين وكلهما الله بهذا:

(إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ)

المتلقيان الملكان، أنت حينما تصلي تقول: السلام عليكم ورحمة الله يمنة، السلام عليكم ورحمة الله يسرةً، إنك تسلِّم على الملكين الذين أوكلهما الله بكتابة الحسنات والسيئات، المتلقيان سُمّيا كذلك لأنهما يتلقيان أعمال الإنسان الخَيّرة والشريرة، لكن الله عزّ وجل يقول:

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

علماً وقدرةً.

(إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ)

إذ ظرف.

أعماله الصالحة وأعماله السيئة، والله أعلم بأعماله من الملكين الموكلين بكتابة أعماله.

علم الله عز وجل بأعمال الإنسان:

(إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)دٌ)

أيها الأخوة، لو أن إنساناً راقب إنساناً لحمله على الاستقامة، لو أن إنساناً روقب في كلامه وفي حركاته، وفي غدواته وروحاته، وفي تحركاته لوجدت منه العجب العجاب في الانضباط، يقول لك: أنا مراقب، فكيف إذا كان الذي يراقبك قيّوم السماوات والأرض ؟

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

قالت: يا رسول الله إنها قصيرة، تصف ضرّتها صفية قال:

((يا عائشة لقد قلتِ كلمة لو مزجت بمياه البحر لأفسدته))

ماذا قالت ؟ قصيرة فقط، فكل كلمةٍ تقولها.

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ)

معنى يلفظ:

معنى يلفظ: يتكلم، ومنها لَفَظَ الطعام أي أخرجه، أي كلمةٍ تخرج من فمك، حتى إن بعض المفسرين قال: إن أنين المريض يُسَجّل عليه.

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

معنى رقيب عتيد:

رقيبٌ يَرْقبُ أعماله، **وعتيدٌ** يملك ناصيته، **عتيدٌ** جاهز متملِّك، **رقيبٌ** مراقب، يعلم ومتمكن.

(إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(18))

تجد معظم الناس، بل تجد معظم المسلمين لا يدخلون هذا في حساباتهم اليومية، وهو يتكلم، وهو يمزح، وهو يقسم بالله أن هذه السلعة لا يبيعها إلا بأقل من رأسمالها، والحقيقة ليست كذلك، هذا الذي يقوله الإنسان قد لا يدخل في حساباته أنه مسجلٌ عليه.

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

العاقل من يفكر بكل كلمة قبل أن يقولها و يحاسب عليها:

قبل أن تقول قولاً فاعلم أن القول مسجل، سهرتَ في مكان، ورأيت آلة تسجيل مفتوحة تسجل عليك، فكيف تتكلم عندئذٍ ؟ وهم أصدقاؤك، وليس هناك أحد غريب، ولو أنهم أصدقاء فأنت تتحرج، فكيف إذا علمت أن كل كلمةٍ تقولها مسجلة.

(لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا)

(سورة آل عمران: آية 181)

هذا الإنسان حينما يأتي يوم القيامة تعرض عليه أعماله كما هي كشريط ؟ أحياناً حتى يوفروا على أنفسهم الأخذ والرد، فعلت أم لم تفعل ؟ يعرضون عليه شريطاً فيه أعماله، فيسكت، أنت خالفت، كنت في هذا الطريق في الساعة الفلانية، السرعة زائدة عن المقرر، يقول: لم أكن في هذا الطريق، فتبرز له صورة سيّارته وسرعتها والوقت والزمان وكل شيء، يسكت، أحياناً عرضُ الصورة يُسكت، فما قول هذا الإنسان يوم القيامة إذا عُرضت عليه أعماله كأنه يراها حية كما وقعت ؟

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

(سورة الإسراء)

عرض أعمال الإنسان يوم القيامة عملاً عملاً:

اكتشفوا مؤخراً أنّ الإنسان إذا مشى مع الضوء توقف الزمن، فإذا سبق الضوء تراجع الزمن، نحن في هذا المجلس أجسام عاكسة للضوء، هذا منبع ضوئي، ونحن أجسام عاكسة، إذاً يخرج منا موجات، هذه الموجات تسير بسرعة ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية، هذه سرعة الضوء، لو تصورنا أن إنساناً سار معها لتوقف الزمن، هذا المجلس يبقى إلى أبد الآبدين، ما دامت هذه الموجات تنتقل عبر الفضاء

الخارجي، ومادام هذا الذي يسير معها يراها إذاً: هذا المنظر يبقى إلى أبد الآبدين، مع أننا قد نكون جميعاً تحت أطباق الثرى، فإذا سار الإنسان مع الضوء توقّف الزمن، وإذا سبق الضوء تراجع الزمن.
ومن باب الخيال العلمي يمكن لو أننا سبقنا الضوء أن نرى معركة اليرموك، يمكن أن نرى معركة القادسية كما هي حقيقةً، لأن هذه المعركة صدر عنها موجات ضوئية إلى الفضاء الخارجي، وإذا سجّل الإنسان الصوت والصورة، ونقلهما عبر الأقمار، فهو عن طريق الحاسوب يقرأ أربعمئة وخمسين مليون حرف في الثانية الواحدة، هذا حال الإنسان، فهل يعظم هذا على الواحد الديّان ؟

ازدياد حرص الإنسان على طاعة الله إذا عرف أن الله يعلم كل شيء:

تأكدوا أيها الأخوة، أن أعمالنا جميعاً مسجّلة علينا صورة وصوتاً، ملونة، ويوم القيامة تعرض عليك، ويقال لك: لماذا فعلت كذا ؟

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

فكلما كبر عقلك ازداد انضباطك، وكلما عرفت أن الواحد الديان مُطّلعٌ عليك ازداد حرصك على طاعته.

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ(19))

كتابة الحسنة فوراً والسيئة لا تكتب إلا بعد الإصرار عليها:

كلاهما قعيد، وقعيد على وزن فعيل.
فهُما رقيب يراقب، وعتيد متملِك.
لكن ورد في الحديث الشريف أن:

((مَلَكُ اليمين أميرٌ على ملك الشمال))

بمعنى أن الإنسان إذا فعل حسنة سارع ملك اليمين فيكتبها له عشر حسنات، أما إذا اقترف سيئة فملك اليمين يأمر ملك الشمال أن يتريّث سبع ساعات، فلعله يستغفر، فلعله يتوب، فلعله يندم، لا تكتب إلا بعد أن يصر، وهذا معنى قوله تعالى:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: آية " 286 ")

والزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى، أي أن الإنسان حينما يفعل سوءاً تدرس نيّته، ويدرس قصده، ويعطى مهلة للتوبة وللندم، فإذا كان قاصداً هذه المعصية، ولم يندم عليها، وأصر عليها عندئذٍ

تكتب، إذاً: ملك اليمين أميرٌ على ملك الشمال، الحسنة تكتب مباشرةً بعشر أمثالها، والسيئة لا تكتب إلا بعد الإصرار عليها.

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقّ: من معاني هذه الآية:

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقّ)

النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق وحبيب الحق، سيد ولد آدم، حبيب الله، خليل الله، ومع ذلك حينما جاءته سكرة الموت قال:

((لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ))

[متفق عليه عن عائشة]

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقّ)

1 ـ أن سكرة الموت جاءت بالحق الذي سمعه الإنسان في الدنيا:

من بعض المعاني التي تستنبط من هذه الآية:

أن سكرة الموت جاءت بالحق الذي سمعته في الدنيا، رأيت الحق رأي العين، سمعت أنت أن الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء، سمعت أن الدنيا ملعونة، ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله، وما والاه، كل شيءٍ سمعته في الدنيا من كلامٍ، أو فكرةٍ سمعتها، فعند الموت تراها رأي العين.

مثلاً: قيل لك: وراء الجدار نار، هذا كلام، لكن نظرت فرأيت دخاناً وراء الجدار، فقلت بعقلك: لا دخان بلا نار، أول شيء كان كلاماً يحتمل الخطأ والصواب، فهذا خبر يحتمل الكذب والصدق، لكنك حينما رأيت دخاناً وراء الجدار دلك عقلك على أنه لا دخان بلا نار، فتحرّكت وراء الجدار، فرأيت لهيب النار، كنت أولاً بالخبر، ثم صرت بعلم اليقين، ثم لما رأيت لهب النار صرت بحق اليقين، فاقتربت من النار، فشعرت بوهجها، فصرت في عين اليقين، أولاً خبر، ثم علم يقين، ثم حق يقين، ثم عين يقين.

حينما يستمع الإنسان في حياته الدنيا إلى خطب في المساجد، إلى دروس تفسير، مواعظ، يقرأ كتباً، يستمع إلى أشرطة، كلها معلومات، هذه آيات، وأحاديث، وأدلة، وأقوال علماء، وفكرة عن الجنة والنار... إلخ، أما حينما يموت فكل هذا الذي سمعه يراه رأي العين.

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقّ)

طلب العبد من الله أن يؤخر أجله:

لذلك يقول الإنسان عند الموت:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

هناك طلبٌ من العبد أن يُؤخره الله:

(لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(11))

(سورة المنافقون)

ندم الإنسان بعد رؤية الموت رأي العين:

عند الموت:

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

عند الموت:

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً)

(سورة الفرقان)

عند الموت:

(يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً)

(سورة الفرقان)

عند الموت:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ)

(سورة الفرقان: آية " 27 ")

هذا كله عند الموت لأنه رأى الحقيقة، رآها رأي العين، كانت خبراً، وعلم يقيناً، ثم أصبحت عين اليقين، وحق اليقين.

2 - الموت جاء بالحق:

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ)

من معاني هذه الآية: الموت جاء بالحق، وحَقّ الشيءُ: استقر، الشيء اليقيني، فلو فرضنا أن شخصاً قيل له: دكانك احترقت، هذا خبر، والخبر يحتمل الصدق والكذب، مشى باتجاه دكانه فرأى شخصاً قال له: احترقت دكانك، هذا خبر، لكن تَقوّى الخبر الأول، ثم شخص ثالث، ورابع، أصبح هناك تواتر، أما حينما وصل إلى الدكان، ورآها قد احترقت هذا وصل إلى الحقيقة، رأى الأخبار كلها أصبحت حقائق أمامه.

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط:

فلذلك إخواننا، سأقول لكم كلمة: نحن مخيّرون، لكن خيارنا مع أشياء كثيرة خيار قبول أو رفض، أتسافر ؟ يقول لك: لا، أتسكن هذا البيت ؟ يقول: لم يعجبني، أتشتري هذه المركبة ؟ لا أحبها، أتتاجر ؟ يقول لك: نعم أتاجر، هناك أشياء كثيرة تعرض عليك، وأنت تقبل بعضها، وترفض بعضها الآخر، نقول: أنت مخيّر، وخيارك خيار قبولٍ أو رفض، إلا أن خيارك مع الإيمان هو خيار وقت فقط، دقق في هذه الكلمة: خيار وقت، أي أنّ أكفرَ كُفّار الأرض يقول: آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل، هذا الذي قال: أنا ربكم الأعلى، هذا الذي قال: ما أرى لكم من إلهٍ غيري، هذا الذي ادعى الألوهية، حينما مات، وغرق قال: آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل، دققوا، خيارنا مع الإيمان خيار وقت، إما أن نؤمن الآن قبل فوات الأوان، ونحن أصحاء.

((اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وحياتك قبل موتك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك))

[الحاكم عن ابن عباس بسند صحيح]

ما مضى فات والمؤمل غيب   ولك الساعة التي أنت فيها

* * *

الموت ينقل الإنسان من علم اليقين إلى حق اليقين:

لا تملك إلا الساعة التي أنت فيها، فالماضي لا يعود، والمستقبل لا تملكه، من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت فإذا قلت: غداً سأدفع ما عليّ من رسوم الهاتف، سأسدد إيصال الهاتف غداً، أنت لا تعرف حقيقة الموت، الموت أسرع من ذلك، يخطف الناس خطفاً خلال ثانية، يكون شخص ملء السمع والبصر فإذا هو كلماتٌ على الجدران، المرحوم فلان، عميد أسرتهم، الشاب، الشابة، إثر حادث أليم،

إثر نوبة قلبية، ألا ترون هذا كل يوم ؟ واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا.

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ)

فيا أيها الأخوة الكرام، الموت ينقلك من علم اليقين إلى حق اليقين، ينقلك من أفكارٍ منطقية سمعتها إلى مشاهداتٍ حقيقية تراها، خيارنا مع الإيمان هل هو خيار قبولٍ أو رفض ؟ لا والله، إنما هو خيار وقت، إما أن نؤمن قبل فوات الأوان، أو لابد من أن نؤمن بعد فوات الأوان، إما أن نؤمن، ونستفيد من إيماننا، أو أن نؤمن من دون أن نستفيد من الإيمان شيئاً، فتزداد الحسرة والندم.

على الإنسان أن يكثر من ذكر الموت لأنه يذكر بالآخرة:

إن أكثر الناس لا يستطيع أن يتصور أنه سيموت، يدخل في حساباته كل شيء، يقول لك: بعد عشرين سنة إذا كانت أنابيب التدفئة المركزية فسدت أدعها في مكانها، وأجعل التمديد خارجياً، كل شيء أدخله في حسابه إلى ما بعدِ عشرين أو ثلاثين سنة، أما أنه سيموت ؟ فلم يحسب حسابه !

هناك أناسٌ لا يحبون سماع القرآن، لأنه يذكِّرهم بالآخرة، أو لأنه يتلى في المناسبات الحزينة، هناك أناسٌ لا يحبون أن يروا قبراً، بل إن هناك بلاداً تقيم فيها خمسين عاماً لا ترى فيها جنازة، ولا نعياً، ولا إعلاناً عن موت، كل شيءٍ ينبئ بالحياة لا بالموت، مع أن ذكر الموت مفيد جداً، النبي الكريم قال:

((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ))

يَعْنِي الْمَوْتَ

[الترمذي، النسائي، ابن ماجه، أحمد]

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارق، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌ به))

[الجامع الصغير عن جابر بسند حسن]

(ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)

إكرام الله عز وجل للمؤمن بأن يأتيه الموت بأحلى صورة:

هناك رجل أمضى حياته في المعاصي، فلما مرض مرضاً عضالاً أخفى عنه أهله ذلك، أما حينما أخبروه صارت تأتيه نوبات هستيرية كل ربع ساعة، يقول: لا أريد أن أموت، ثم حينما جاءه ملك الموت صاح صيحة يقول لي شريكه: ما بقي في البناء المؤلف من أربعة طوابق إنسان إلا وسمع صيحته، من الذعر الذي أصابه.

والله عزّ وجل أعطانا مقياساً.

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة الجمعة)

(ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)

تمنّي الموت مِحَكٌ خطير، الإنسان المستقيم، التائب، الذي عمله طيب وفق منهج الله لا يخيفه الموت، يقول: مرحباً بلقاء الله، بل إن الله سبحانه وتعالى يُكَرّم عبده المؤمن بأن يأتيه ملك الموت بصورة أحب الناس إليه على الإطلاق، أناسٌ كثيرون، وهو على فراش الموت يقول: هذا عمكم قد جاء، أي أخوه، يَعجب أولاده أن عمهم قد مات منذ سنواتٍ عدة ! والمؤمن حينما يرى مقامه في الجنة، ويرى رضوان الله قد أسبغ عليه، يقول: لم أر شراً قط، كل شيءٍ ساقه الله له في الدنيا من متاعب هذه يراها وكأنها إكرام إلهي، لذلك اعمل عملاً يسرّك.

من أدخل الموت في حساباته اليومية أصبح حسابه يوم القيامة يسيراً:

إن الإنسان حينما يولد كل من حوله يضحك فرحاً به، لكنه يبكي وحده، أما حينما يموت كل من حوله يبكي، فإذا كان بطلاً فهو وحده الذي يضحك، فإن قررت عند الموت أن تضحك وحدك فأنت بطل، لأن ساعة الموت إذا أدخلتها في حساباتك اليومية ؛ في قبض المال، وإنفاقه، بإطلاق البصر، وبغضه، بزواجك، بتزويج بناتك، بكل نشاطاتك، إن أدخلت حساب الموت في حياتك فقد وصلت إليه، وقد حاسبت نفسك حساباً عسيراً، فجعل الله لك حسابك يسيراً.

((لا أجمع على عبدي أمنين وخوفين، إن أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإن خافني في الدنيا أمّنته يوم القيامة))

[الجامع الصغير عن شداد بن أوس بسند حسن]

فنحن كلنا سوف نموت، صدر قرار مع وقف التنفيذ بأن نموت، القرار صادر منتهٍ، لكن مع وقف التنفيذ.

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

(سورة الزمر)

الإنسان لن يفلح بشيء إلا إذا جعل الموت نصب عينه:

مرة سألوا طالباً نال المرتبة الأولى على القطر في الشهادة الثانوية: قالوا له: اذكر لنا أحد الأسباب التي حملتك على التفوّق ؟ فأجاب إجابة رائعة، قال: إن لحظة الامتحان لم تغادر مخيلتي طوال العام، طوال السنة، والطلاب المتفوقون تكون ساعة الامتحان ماثلة أمامهم طوال العام الدراسي، فكلما نازعته

نفسه ليتفلت من منهجه الدراسي عاد إلى غرفة درسه ليدرس، ويذاكر، لذلك نحن نفلح إذا جعلنا الموت نصب أعيننا، ولا يقولنّ أحدكم: الموت يدعو إلى التشاؤم، لا.. على الإنسان أنْ يدرس، ويتزوج، ويتاجر، ويؤسس عملاً، لأن النيات طيبة، هذا جزء من رسالتك في الحياة، فالأعمال المباحة بالنيات الطيبة تنقلب إلى عبادات، لم يعد لديك ازدواجية في حياتك، لأن زواجك من العبادة، وعملك من العبادة، وكل نشاطاتك من العبادة، فما معنى أن يفكر الإنسان في الموت، ويحسب له حساباً دقيقاً، ويرتب كل أموره وفق هذه الساعة التي يلقى الله بها ؟ ليس معنى ذلك أنه سيقيد، لا، بالعكس سيتحرك، كان عبداً لشهوته فأصبح حراً، كان عبداً لبطنه، أو لفرجه، أو لخميصته، أو للدرهم والدينار، فأصبح حراً، أساساً ربنا عزّ وجل قال:

(أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة: آية " 5 ")

الإيمان قيود و حدود و الفسق تفلت و انحراف:

الإيمان كله قيود، كله حدود، افعل، لا تفعل، حرام، حلال، ومع ذلك الهدى يرفعك إلى أعلى عليين. وأما الفسق والفجور فكله تفلّت، ومع ذلك:

(أولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة الزمر)

فهو إما أنه يعاني مرضَ كآبةٍ، و إما أنه مودَعٌ في السجن، لأنه تفلت من منهج الله عزّ وجل.

احتضار الإنسان و عرض جميع أعماله أمامه:

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)

هذا الاحتضار، والمؤمن يرى مقامه في الجنة فيقول: لم أر شراً قط، والكافر يرى مكانه في النار فيقول: لم أر خيراً قط، يكون في دنياه قد سافر، وتنقل كيفما يشاء، وأكل أطيب الطعام، ومتّع عينيه بأجمل النساء، وما ترك مكاناً إلا وذهب إليه، وفعل كل ما يشتهي، وانغمس في كل الملذات إلى قمة رأسه، وعاش في مجتمعٍ كما يقولون مجتمع التفلت، وفعل كل ما يشتهي، وعندما يرى مكانه في النار يقول: لم أر خيراً قط.

و كمثال على هذا: إذا دعي شخص إلى خمسين وليمة، وكل وليمة أفخر من الثانية، وأصابه ألمٌ شديد في أسنانه في الليل، لو تذكر الولائم الخمسين هل تنسيه هذا الألم ؟ يتذكر أنواع الأطعمة التي أكلها ؛

أنواع الفواكه والحلويات واللحوم، هل تذكّر ألوان الطعام ينسيه ألم أسنانه ؟ لا، لأن واقعه الراهن أنه في عذاب.

وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ: فالسائق و الشهيد هما:

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21))

يوم القيامة.

1 ـ الملكان الموكلان بحفظ أعمال الإنسان:

أرجح التأويلات أنهما الملكان الموكلان بحفظ أعماله، ملكٌ يسوق النفس إلى الله، وملكٌ يشهد عليها.

2 ـ أو أعمال الإنسان:

بعضهم قال: أعماله هي الشهيد.

3 ـ أو جوارح الإنسان:

وبعضهم قال: جوارحه هي الشهيد.

على كلٍ، أرجح الأقوال أن الملكين الموكّلين بكتابة أعماله واحدٌ يسوقه والثاني سيشهد عليه.

(وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا)

مرض الغفلة عن الله أخطر مرض على الإنسان بالنسبة لآخرته:

أحياناً تكون هناك عصابة تسرق وتنهب، وتقتل وتأخذ الأموال، وتشرب الخمور، وتتعاطى المخدرات، ويأكلون أطايب الطعام، ويسرقون السيارات، ثم يقعون جميعاً في قبضة العدالة، ويساقون إلى السجن، يقال لهم: كنتم في غفلةٍ عن هذا المصير، هذا المصير ما حسبتم حسابه إطلاقاً.

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا)

لذلك إخواننا الكرام، أخطر مرض على الإطلاق عند الناس في دنياهم ورم خبيث، لكن أخطر مرض على الإطلاق بالنسبة لآخرتهم مرض الغفلة عن الله غافل، لهم قلوبٌ لا يعقلون بها، لهم أعينٌ لا يبصرون بها.

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

(سورة الأعراف)

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

(سورة الحج)

الأحمق من ترك كل ما هو مشروع إلى ما هو غير مشروع:

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا)

الغفلة غطاء، ضمن قوقعة، إنسان جالس في بيت تحت الأرض، ولكن خارج البيت شمس، و مروج خضراء، و بساتين غنّاء، و جبال خضراء، و رياحين، وأطيار، وجداول رقراقة، وهو في هذا القبو في رطوبة وظلام، هذه هي الغفلة، يعيش في شهوات، تفكيره محدود، قيمه مهزوزة، مبادئه أرضية، مطالبه مادّية.

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا)

أنت المخلوق المكرم، أودع الله فيك العقل لتعرفه، أودع فيك الشهوات لترقى إليه، ومع ذلك شهواته يمارسها بالطريق غير المشروع، ما من شهوةٍ أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناةً نظيفة، لكن المنحرف سلك مسلكاً في القنوات القذرة، ترك الزواج إلى الزنا، ترك المشروبات الطيبة إلى الخمر، ترك الطعام الطيب إلى لحم الخنزير، ترك ما هو مشروع إلى ما هو غير مشروع.

العاقل من يتيقن من الحقائق قبل فوات الأوان:

(وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

لكن متى ؟ بعد فوات الأوان، إذا كان الطالب مقصراً، ولم يعرف أن يكتب شيئاً في الامتحان، ثم ذهب إلى البيت، وفتح الكتاب عرف الجواب الصحيح، ولكن متى ؟ بعد الامتحان، فليس لمعرفته الآن قيمة على الإطلاق، وما من طالب أساساً إن أخطأ في الامتحان إلا ويعود إلى البيت، ويفتح الكتاب ليرى ماذا ينبغي أن يكتب، يعلم ماذا ينبغي أن يكتب، ولكن بعد فوات الأوان، بعدما سلم الورقة بيضاء.

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

لذلك قال سيدنا علي: **" والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً ".**

هل تستطيع أن تتيقن من الحقائق قبل كشف الغطاء كما هي بعد كشف الغطاء ؟ أحياناً يتنبأ طبيب لمدخّن بمرض قلبي، قال لي مرة طبيب قلب: تنبأت لإنسان مدمن على التدخين بمرض، قال له: أنت سوف تصاب بجلطة بعد ستة أشهر، قال لي: والله كما قلت وقع، فإذا تنبأ الإنسان بالحقيقة قبل أن تقع يكون بطلاً، سيدنا علي قال: **" والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً "**، لأن يقينه قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء، لذلك النبي الكريم سأل أحد أصحابه قال له:

((كيف أصبحت))

قال له: **" أصبحت وكأني بعرش ربي بارزاً، وكأني بأهل الجنة يتنعمون وبأهل النار يتصايحون "**، قال:

((عبدٌ نور الله قلبه عرفت فالزم))

النار عاقبة كل إنسان عنيد مُصرّ على كفره:

أنت مثلاً مدرس عريق، ورأيت طالباً مهملاً في الدراسة، من ملعب إلى ملعب، من صديق إلى صديق، كونك بالتدريس وعندك خبرة طويلة تقول: هذا الطالب بعد عشرين سنة سوف ينكمش، وينزوي حين يرى أصدقاءه بمراتب عليا، وهو متخلِّف عنهم، سيتألم، هذا ليس علم الغيب، هذا علم قوانين.

(وَقَالَ قَرِينُهُ)

إما أنه الملك الذي قارنه طوال حياته، أو الشيطان الذي كان معه.

(أَلْقِيَا)

صفات أهل النار:

1 ـ الكفر و العناد:

هذا الإنسان، أعماله، سجلاته كلها جاهزة، فقال الله عزّ وجل مخاطباً الملكين:

(أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ)

كَفّار صيغة مبالغة، شديد الكفر، عنيد مُصِر على كفره.

2 ـ منع الخير:

(مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ)

الخير المطلق هو الدين، يصد الناس عن الدين، أو الخير المقيّد، فعل الخير.

3 ـ الشك و العدوان:

(مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ)

كل حياته شك ليس عنده يقين، بل صفاته عدوان، على ارتياب، على منع للخير، على كفر، على عناد.

4 ـ الإشراك بالله:

(الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (26) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27))

الشيطان لا سلطان له على الإنسان بنص القرآن الكريم: قال تعالى:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة إبراهيم: آية " 22 ")

إخواننا الكرام، الشيطان ليس له علينا سلطان بنص القرآن الكريم، وكل كلام خلاف ذلك خطأ ووهم وضلال.

القرين هو:

1 ـ إما الشيطان:

(قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

إما أن الشيطان الذي كان قرينه.

2 ـ أو الملك لشدة هول العذاب:

أو أنه الملك لشدة هول العذاب قال له: يا رب، أنا كتبت أعماله فقط، لم أفعل شيئاً، ما زدت على أن كتبت، فإمّا أنه الملك، وإما أنه القرين، والقرين هو الشيطان.

دعوة الله الناس إلى عدم الاختصام لأن الوقت وقت حساب:

(قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيّ وَقَدْ قَدّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ)

ليس هذا الوقت وقت اختصام، أو أن الاختصام لا يجدي، كل شيء قد انتهى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة ق 050 - الدرس (3-3): تفسيرالآيات 30- 45 ، التفكر طريق الإنسان لمعرفة الحق و الصواب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-06-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الثالث من سورة (ق)، ومع الآية الكريمة الثلاثين.

تذكير بالسابق و ربط باللاحق:

قال تعالى:

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ)

بعد أن وصف الله جلّ جلاله حال أهل النار، وكيف أن كل نفسٍ تُساق معها سائقٌ وشهيد، والحوار الذي يجري بين الإنسان وقرينه، وكيف أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيّ)

(سورة ق: آية " 28 ")

لأن اختصامكم لدي لا يجديكم.

صورة أهل النار يوم القيامة:

يقول الله عزّ وجل:

(أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلّ كَفّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (25) الّذِي جَعَلَ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشّدِيدِ (26) قَالَ قَرِينُهُ رَبّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيّ وَقَدْ قَدّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28) مَا يُبَدّلُ الْقَوْلُ لَدَيّ وَمَا أَنَا بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ (29) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30))

هذه صورةٌ مرعبة لحال أهل النار، لكن الله سبحانه وتعالى يعلِّمنا كيف نُبَشِّر كما ينبغي أن نُحَذِّر، وكيف ينبغي أن نقدِّم الصورة المشرقة كما ينبغي أن نقدِّم الصورة المرعبة، وكيف ينبغي أن يجمع الإنسان بين الخوف والرجاء، وبين الطمع بمغفرة الله عزّ وجل والفَرَق من الذنب، لابدّ من التوازن.

جنة الدنيا و جنة الآخرة:

ربنا جلّ جلاله يقدِّم لنا صورةً أخرى ؛ صورةً للمؤمنين، صورةً لحال أهل الإيمان يوم القيامة.

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ)

هي بذاتها اقتربت منهم، كيف ؟ لا نعلم، لكنه تكريم لهم تقترب الجنة من المتقين، وقال بعض المفسرين: **" إن كل إنسانٍ يعمل صالحاً في الدنيا كأن الجنّة تقترب منه "**، هذه السعادة المُطْلَقَة التي وعد الله بها عباده المؤمنين، هذه السعادة تقترب منه كلّما استقام على أمر الله، أتريد أن تكون في جنّة وأنت في الدنيا ؟ استقم على أمر الله، أتريد أن تكون في جنّة الله يوم القيامة ؟ استقم على أمر الله.

الاستقامة طريق الإنسان إلى جنة الدنيا و جنة الآخرة:

إن الحقيقة أن الإنسان أحياناً يقترب من الشيء قرباً سببيّاً، فلو أن الطالب مثلاً درس الكتاب جيداً اقترب من النجاح، ولو درس الكتاب الثاني اقترب أكثر، لو أتقن كل المواد صار بينه وبين النجاح قاب قوسين، هذا اقتراب سببي، فكلّما عملت الصالحات، وطبّقت منهج الله عزّ وجل فأنت قريبٌ من الجنّة التي وعد الله بها عباده المتقين، وحينما يطبّق الإنسان منهج الله في الدنيا فهو قريبٌ من جنّة الدنيا ومن جنّة الآخرة، ماذا بينه وبين جنّة الآخرة ؟ ليس بينه وبين جنّة الآخرة إلا أن يموت فقط.

أحد أصحاب رسول الله أمسك تمراتٍ ليأكلها وهو في المعركة، فقال: ليس بيني وبين الجنة إلا هذه التمرات، ألقاها، وقاتل حتى قُتِل.. فالإنسان المستقيم ليس بينه وبين جنّة الدنيا إلا أن يستقيم، فإذا استقام أقبل على الله عزّ وجل، هو في جنّة لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

جنة الدنيا هي القرب من الله عز وجل:

قال المفسِّرون: **" جنّةٌ في الدنيا، وهي القُرب من الله "**، ليس معنى ذلك أن ترى المؤمن في بحبوحةٍ ماديّةٍ كبيرة، في غناءٍ فاحش، لا، ليس هذا هو المعنى، جنّة الدنيا أن تنعُم برضوان الله، أن تشعر أن الله الذي خلق السماوات والأرض يحبك، وهو راضٍ عنك، وهذا الرضا وذاك الحب لا يعرفه إلا من ذاقه، جنّة الدنيا أن تطمئن، جنة الدنيا أن ترضى بنصيبك من الله، جنة الدنيا أن تشعر أن الله معك ولا يتخلّى عنك، جنة الدنيا أن تشعر أن الله يدافع عنك، جنة الدنيا أن تشعر أن الله لن يكتب لك إلا الخير، ولن تفاجأ في المستقبل إلا بمزيدٍ من الخير.

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

لا خوفٌ عليهم من المستقبل، ولا هم يحزنون على الماضي، هذه جنّة الدنيا، جنة الدنيا مبذولة لكل مخلوق، الثمن موحّد، أسعار موحّدة، الثمن واضح، والثمن تملكه، وهو طاعة الله عزّ وجل.

الجنة مصير كل إنسان اتقى الله و رسوله:

(إنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: آية " 13 ")

الآية تحتمل المعنيين، تحتمل أنك إذا اتقيت الله عزّ وجل اقتربت منك جنّة الدنيا، وتحتمل أنك إذا اتقيت الله في الدنيا اقتربت منك جنة الآخرة سبباً، أي اقتربت منها من حيث الأسباب، كما لو أن الإنسان أتقن قراءة كتابٍ مقرّر في الامتحان فإذا أتقنه، وأتقن الكتاب الثاني والثالث والرابع يقول لك: كأنني نجحت، كأن النجاح لاح له بين عينيه.

على كلٍ، إذا وجّهنا الآية إلى الآخرة فاقتراب الجنة من المؤمنين تكريمٌ وأيّ تكريم، وكلّما علا مقامُ الإنسان تأتيه الأشياء، وتُقرّب إليه، وكلّما نزل مقامه درجة يسعى إليها بنفسه، فبين أن تسعى أنت إليها وأن تسعى هي إليك فرق كبير.

تكريم الله للإنسان في الدنيا و الآخرة بسبب طاعته لربه و استقامته على أوامره:

أحياناً يُدْعَى الإنسان إلى وليمة على نمط جديد، تحمل الطبق، وتذهب إلى الطعام، وتأخذ حاجتك منه، لكن بعض الضيوف الكِبار يأتيهم الطعام إليهم، فإما أن تسعى إلى الشيء، وإما أن يسعى الشيء إليك، لعلوّ مقامك عند الله عزّ وجل، وتكريماً لك على طاعته واستقامتك أزلِفت الجنة إليك، فكيف تأتي ؟ لا نعلم، هذا مما استأثر الله بعلمه.

أما في الدنيا فكلّما ازددت طاعةً لله اقتربت منك جنة الدنيا، جنة القُرب، جنة الطمأنينة، جنة الرضا، جنة الشعور أن الله لا يتخلّى عنك، أن الله يدافع عنك، هذه الجنة التي قال النبي عليه الصلاة والسلام فيها:

((أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعِيدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ))

[الترمذي عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ]

فلعلّ النبي عليه الصلاة والسلام قصد أنهم في جنّة الدنيا، ولعلّه قصد أنهم في جنّة الآخرة.

الجنة عاقبة كل مؤمن صالح:

على كلٍ:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

ومن أجمل الأدعية: **" اللهمّ اجعل نِعَمَ الآخرة متصلة بنعم الدنيا "**، أي إن المؤمن خطّه البياني صاعد، والموت نقطة على هذا الخط، كأن يخلع ثوباً ليرتدي ثوباً، هو في سعادة،**يأتيه ملك الموت فيخلع عنه ثوب الجسد ليلبس ثوباً آخر لا يعلمه إلا الله"**.

قالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[البخاري ومسلم عن أبي هريرة]

وعد الله للإنسان في الدنيا من خلال القرآن الكريم:

(يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة التحريم)

(هَذَا مَا تُوعَدُونَ)

الله وعدنا، يعدُنا في الدنيا من خلال القرآن الكريم، والنبي عليه الصلاة والسلام يعدنا من خلال سنّته المطهّرة.

مثلاً:

((الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

هذا وعد النبي عليه الصلاة والسلام.

الله عز وجل لا يعجزه شيء في الدنيا و لا في الآخرة:

فلذلك:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً)

(سورة النساء)

من الذي يعدك ؟ خالق الكون.

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(سورة التوبة)

شتّان بين أن يعدك إنسان محدود القدرات، قد يتمنى أن ينفِّذ وعده، ولكن لا يستطيع، قد يموت قبل أن ينفِّذ وعده، قد يكون طلبك أكبر من طاقته، لكن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء.

(كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس)

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلاّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمّ أُوَفِّيكُمْ إِيّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنّ إِلاّ نَفْسَهُ))

[صحيح مسلم عن أبي ذر]

ذلك لأنّ عطاءه كلام (كن فيكون)، وأخذه كلام، فمن وجد خيراً فليحمد الله.

الجنة ثمن من عرف أمر ربه و طبق منهجه:

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هَذَا مَا تُوعَدُونَ)

لمن هذا الوعد ؟ قال الله تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ)

(سورة القصص: آية " 61 ")

من هو المؤمن ؟ هو مخلوق عرف ربّه، وطبّق أمره، فوعده الله وعداً حسناً، فهو موعود بالجنة، قال عز وجل:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص: آية " 61 ")

هل يوازَى إنسانٌ موعودٌ بجنّة الله بإنسانٌ آخر سوف يُحضَرُ مكبّلاً ليلقى نتائج عمله السيئة ؟

وعد الله لِكُلِّ أوّابٍ حَفِيظٍ بالجنة:

لمن هذا الوعد ؟ قال تعالى:

(لِكُلِّ أوّابٍ حَفِيظٍ)

الأوّاب: الذي رجع من المعاصي إلى الله:

اللغة العربية تعيننا على فهم هاتين الكلمتين، الأوّاب: صيغة مبالغة، أوّاب فعّال، صيغتها الأصلية آيب، آب يَؤوبُ آيبٌ، آب بمعنى رجع، رجع من أين ؟ وإلى أين ؟ أجمع المفسرون على أن الآيب الذي صيغة مبالغته أوّاب هو الذي رجع عن المعاصي، كان في معصيةٍ فرجع من هذا الطريق، رجع من المعاصي إلى الله، هذا هو الأوّاب، رجع من المعصية إلى الله عزّ وجل، هو آيب وصيغة مبالغته أوّاب، هذا الوعد العظيم.

(هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أوّابٍ)

لذلك:

((كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

[الترمذي عن أنس]

التوّابون: أي: كثيرو التوبة، ولم يقل عليه الصلاة والسلام: تائب، بل قال: توّاب، وهو كثير التوبة.

الحفيظ: من حفظ أمر الله و اجتنب نواهيه:

(لِكُلِّ أوّابٍ)

معنى هذا أن الإنسان ما دام فيه بقية من حياة فعليه أن يؤوب إلى الله عزّ وجل، وكلّما شعر أنه في موقع غير صحيح وفي سلوكٍ غير صحيح، كلّما شعر أنه متلبّسٌ بمعصيةٍ أو بمخالفة، أو بشبهة أو بتقصير فعليه أن يؤوب إلى الله عزّ وجل، وأن يرجع عن معصيته إلى الله جلّ جلاله.

(لِكُلِّ أوّابٍ حَفِيظٍ)

الكلمة الثانية أكثر إيجابية من الأولى.

أيضاً حفيظ صيغة مبالغة، حافظ اسم فاعل، أما حفيظ أي كثير الحفظ، يحفظ ماذا؟

معاني حفظ الإنسان:

1 ـ يحفظ أمر الله:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

(سورة المؤمنون)

2 ـ يحفظ الأمانة التي بين يديه:

المريض عند الطبيب أمانة، والموكِل عند المحامي أمانة لا ينبغي أن يغشّه، ولا أن يحدِّثه بحديثٍ الموكِل هو له به مصدِّق، والموكَّل هو له به كاذب، خان الأمانة، المريض عند الطبيب لا ينبغي أن يحدِّثه بحديث هو له مصدِّق، والمتكلِّم ليس له بصادق، المريض أمانة، والموكِل أمانة، والذي يشتري بضاعةً من بائع هو أمانة، هو كلّه أمانة عندك، يسألك بدينك أن تنصحه، وأن تعطيه بضاعةً جيدة، وأن يكون سعرها معتدلاً، أمانة، وابنك أمانة أودعه الله عندك، كيف ربّيته ؟ هل علّمته ؟ هل وجّهته ؟ هل ضبطت سلوكه ؟ هل درّبته على طاعة الله عزّ وجل ؟ هل لقّنته الحقّ ؟ هل أعنته على نفسه ؟ هل أعنته على برِّك بالعدل بين الأولاد ؟ ابنك أمانة، زوجتك أمانة أوكل الله إليك مصيرها، أنت رُبَّان السفينة، وأنت القيّم على هذا البيت، وأنت صاحب القرار.

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

(سورة النساء: آية " 34 ")

فالزوجة أمانة، والولد أمانة، وبحرفتك كل من تتعامل معهم أمانةٌ في عنقك.

الجنّة أعِدّت لكل أوّاب شديد العودة إلى الله:

لذلك:

(لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ)

شديد الحفظ أولاً لعباداته، لصلواته، شديد الحفظ لأوامر الله عزّ وجل، شديد الحفظ لما استودعه الله.
هذه الجنّة التي عرضها السماوات والأرض أُعِدّت للمتقين، أعدّت لكل أوابٍ حفيظ، شديد العودة إلى الله.

بالمناسبة، صيغة المبالغة تعني الكَمّ والنَوع.

(أوّاب)

مهما كانت المعصية كبيرةً فهو يعود منها إلى الله، أو مهما تكن المعاصي كثيرةً يعُد منها جميعِها إلى الله، هذا هو:

(الأوّاب)

و (الحفيظ) يحفظ أوامر الله ويطبّقها، يحفظ الأمانات التي استودعت إليه، يقوم بعمله خير قيام، يقوم برعاية من استرعاهم الله به، هذا هو الحفيظ.

عدم ارتقاء المؤمن عند ربه إلا إذا شكّل حياته وفق ما يرضي الله:

(لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ)

لو أتينا بخمسة مليارات إنسان، وهم سكّان الأرض، وأطلعناهم على خطرٍ رأوه بأعينهم لاتّقوا الخطر، ولا فضل لك إذا رأيت بعينيك الخطر، وابتعدت عنه، ليست هذه هي العبادة، العبادة أن تُدرك الخطر بعقلك، الخطر ليس أمامك، لا تراه رأي العين، بل هو غائبٌ عنك، فهذا الذي يؤمن بالله يتقي الله بالغيب، أي أن عقله دلّه على أن لهذا الكون خالقاً، وأن كل البشر عباده، وأنك إذا أحسنت إليهم رضي عنك، وإن أسأت إليهم عاقبك عقاباً شديداً في الدنيا والآخرة، فهذا الذي يرى الخطر بعينه فيتقيه لا يسمّى عابداً لله لأنّ أيّ مخلوقٍ على الإطلاق إن رأى الخطر حادَ عنه، لكن المؤمن قال تعالى:

(الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

(سورة البقرة)

(مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ)

أي أنه آمن بالله، ولم يره بعينه، آمن بوحدانيته، وآمن بكماله، وآمن بوجوده، وآمن بكتابه، وآمن برسله، فشكّل كل حياته وفق ما يرضي الله، هذا الذي يرقى عند الله، آمن بالغيب، احترم عقله، ذلك العقل، تلك الأداة الثمينة التي أكرمك الله بها كي تعرفه بها انتفعت به، لذلك هذا الأوّاب الحفيظ.

العاقل من آمن بالغيب و احترم عقله:

أما الذي يرى الزلزال بعينه، أو يرى المرض بعينه، الآن كل إنسان لا سمح الله ولا قدّر إذا أصابه مرض عُضال بسبب الدخان يُقلِع عنه، ولكن ليس له فضل، لأنه متى أقلع عنه ؟ بعد أن أُبلِغ أن هناك مرضاً عضالاً قد حلّ به، لكن العاقل هو الذي يدع الدخان قبل أن يحلّ به المرضُ العضال، هذا العاقل، هذا خشي عواقبه بالغيب، بالفكر أدرك أن هذه العادة تسبب مشكلات كثيرة في صحّته فتركها. وأريد من هذه الفكرة أنك إذا رأيت الخطر بأُمّ عينك، واتقيته فلا فضل لك في ذلك، ولا أجر لك في

ذلك، ولا ترقى عند الله بهذا الترك، لأن هذا جزءٌ من طبيعتك البهيمية، فالدابّة مثلاً إن رأت خطراً ابتعدت عنه، أما كجزء من طبيعتك الإنسانية فقد أودع الله فيك العقل، فإذا أدركت به الخطر المتوقّع، وابتعدت عن هذا الخطر الآن ترقى، الآن أنت إنسان، لذلك العقل أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه.

أحياناً يريد إنسان أن يسافر، فيذهب ليقطع التذكرة، يفكِّر، السفر صباحي إلى حلب، الشمس من على اليمين، الشمس من جهة الشرق، إذاً يطلب في الصيف المقعد في جهة اليسار، وفي الشتاء يطلبه في جهة اليمين، فكِّر، كل إنسان يفكِّر يكون أكّد فيه الناحية الإنسانية الراقية، وكل إنسان يعطِّل فكره يكون هبط إلى مستوى البهيمة، البهيم يتفاعل مع الأحداث حين وقوعها، أما الإنسان فينبغي أن يتفاعل معها قبل أن تقع يُدركها، لذلك يقولون: من صفات الأمم الراقية أنها تعيش المستقبل، والأقل رقيّاً تعيش الحاضر، والأمم المتخلِّفة تعيش الماضي فقط.

ألهى بني تغلبٍ عن كل مكرمةٍ قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثومُ

* * *

بقلْبٍ مُنِيبٍ: آية لها عدة معان:

لذلك:

(وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ)

1 ـ قلب مخلص لله:

اختلف المفسّرون في معنى:

(منيب)

فبعضهم قال: **" جاء بقلبٍ مخلص لله عزّ وجل.**

يا معاذ:

((أخلِص دينك يكفك القليل من العمل))

[الجامع الصغير عن معاذ بسند ضعيف]

إن درهماً أُنفِق في إخلاص خيرٌ من مئة ألف درهمٍ أُنفقَ في رياء.. فالإخلاص الإخلاص، لأن الإخلاص ينفع معه قليل العمل و كثيره، والرياء والنفاق لا ينفع معهما لا قليل العمل ولا كثيره.

قال بعض المفسرين:

(وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ)

أي مخلص.

2 ـ قلب سليم:

وجاء بقلبٍ منيب أي سليم.

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

والقلب السليم هو وحده الذي ينفعك يوم القيامة، لأن الأمر كلّه بيدِ الله، وفي الأثر:

((عبدي طهّرت منظر الخلق سنين، أفلا طهّرت منظري ساعة))

القلب بيت الرب، أفلا طهّرت منظري ساعة ؟

هنيئاً لمن اطلع الله على قلبه فرآه سليماً، ليس فيه غلّ لأحد، ولا حقدٌ على أحد، ولا احتيالٌ على أحد.

(إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

[البخاري عن عمر بن الخطاب]

هذا الحديث متواتر، ويُعَدُّ أصلاً في أن الأعمال كلها تقيّم عند الله حصراً بالنيّات الطيّبة.

روعة الجنة و الحالة النفسية التي ينعم بها أهلها:

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ)

اللطيف في هذه الآية أن الجنّة يدخلها المؤمنون في سلام، أحياناً في الدنيا تدخل بيتاً رائعاً، لكنّه قطعة من الجحيم، فيه أمراض، فيه مشكلات، فيه خصومات، فهنا أشار الله عزّ وجل إلى روعة الجنّة، وروعة الحالة النفسية التي يَنْعُمُ بها أهل الجنّة.

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ)

الجنة جمال و رضوان:

ائتِ بإنسان مريض، وأدخله إلى حديقةٍ غنّاء، إنه لا يسعد بها، لأن همُّه يحجبه عن جمال المكان، ائتِ بإنسان على وشك الإفلاس، وخذه إلى مكانٍ جميل، لا يسعد به، هذه الآية فيها إشارة إلى أن الجنّة جنّتان، جمال المكان.

(جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة الصف: آية " 12 ")

فيها:

(فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)

(سورة محمد: آية " 15 ")

(وَحُورٌ عِينٌ)

(سورة الواقعة)

و:

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ)

(سورة الواقعة)

وفوق كل هذا:

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ)

(سورة آل عمران: من الآية 15)

أولاً: لا يوجد فيها قلق.

وثانيا: إذا أُدخِلت الجنّة لا تخرج منها.

الجنة مستقر دائم للإنسان و ابتعاد عن القلق و التشاؤم:

إن الإنسان إذا نزل إلى مكان بالأجر يقول لك: كل ليلة بخمسة آلاف، أو عشرة آلاف، شيء جميل، لكن ارتفاع الأجر يُذهِب سعادته بالمكان، يقول لك: صاروا خمسة عشر ألفًا، أو عشرين ألفًا، أحياناً يأكل أكلاً غالياً، والفاتورة تُنسيه لذّة الطعام كله، فهناك حالة نفسية ترافق الحالة المادّية، أما في الجنة.

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ)

لا يوجد قلق، ولا إخراج من الجنّة، ولا يوجد منافسون، لا وشاة، ولا من يسعى لإخراجك منها، ولا تقدُّم في السن، ولا مرض، لا يوجد شيء.

الدنيا دار كَدْح و عمل و الآخرة دار تكريم و تشريف:

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ)

لكنّ في الدنيا أحياناً يدخل الإنسان بيتاً فخماً، وهو ليس مرتاحاً، يقطن في حديقةٍ غنّاء، وليس مرتاحاً. وقبل أن نذكر نظام الجنّة نذكر أن نظام الدنيا أساسه الكدح والسعي.

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

(سورة الانشقاق)

لكن نظام الجنّة قائمٌ على أن أي خاطرٌ يخطر في بالك تراه أمامك، أي شيءٍ تريده، الدنيا دار كَدْحٍ، ودار سعيٍ، ودار عملٍ، ودار ابتلاءٍ، ودار مشقّةٍ، والآخرة دار تكريمٍ، ودار تشريفٍ، ودار جزاءٍ، ودار راحةٍ.

أكبر تشريف للإنسان في الآخرة رؤية وجه الله الكريم:

أما الشيء اللطيف جداً.

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

أحياناً يطلب الإنسان أشياء ثمينة جداً من الطعام، لكن يفاجأ أن في هذا المطعم ألوانًا من الطعام لا يعرفها، ولو عرفها لاختارها، فمهما تصوّرت نعيم الجنّة فعند الله مفاجآت لا تعلمها.

قال بعض العلماء: المزيد هو **" رؤية وجه الله الكريم "**، إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون البدر في كبد السماء، فعن جَرِيرٌ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ:

((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا، لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ))

[صحيح البخاري عن جرير]

كما ترون القمر ليلة البدر، طبعاً رؤية الله في الدنيا مستحيلة.

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً)

(سورة الأعراف: آية " 143 ")

الأحمق من يضيع الجنة من أجل سنواتٍ معدودة في الدنيا:

أجسامنا لا تحتمل أن نرى الله عزّ وجل، الجبل دُكّ دكاً حينما تجلى الله عليه، لكنه في الجنة كما أنبأنا النبي صلى الله عليه وسلم، وكما ورد في القرآن الكريم:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23))

(سورة القيامة)

هذا، ولدينا مزيد.

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

أهذه الجنة التي هي إلى أبد الآبدين أتُضَيِّعُ من أجل سنواتٍ معدودة في الدنيا ؟ لنكن صريحين، متى يستقر وضعُ الإنسان ؟ بعد الأربعين، حتى يكون له بيت، وزوجة من الدرجة الخامسة، بعد الأربعين، ومعترك المنايا بين الستين والسبعين، وهذه السنوات العشرون كلها متاعب، وخصومات، وأمراض، وضيق مادي أحياناً، وقلق أحياناً، وخوف أحياناً، هذه السنوات العشرون التي استقرت بها حياة الإنسان مشحونة بالمتاعب، من أجل سنواتٍ عشرين السعادة فيها ليست مضمونة تُضَيِّعُ جنة عرضها السماوات والأرض ؟! أين عقل الإنسان ؟

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ(35))

أصبحت هذه الصورة المشرقة.

(كم) أنواعها ومعانيها:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ)

(كم) هذه للتكثير، وفي اللغة العربية (كم) نوعان، (كم) الاستفهامية، و(كم) التكثيرية، يضربون على هذا مثلاً: تسأله: كم كتاباً عندك ؟ فيقول: عندي ثلاثون كتاباً، أما إذا قلت: كم كتابٍ عندي ؟ أنت لا تسأل، ولكنك تفتخر، ولكنك تستكثر، كم كتاباً عندك ؟ هذه استفهامية، الجواب: ثلاثون كتاباً، أما إذا قلت: كم كتابٍ عندي ؟ فالجواب ما شاء الله، فـ (كم) هنا تكثيرية.

الهلاك عاقبة الأمم الطاغية السابقة:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ)

ما أكثر الأقوام التي كفرت، وجحدت، وانحرفت، وطغت، وبغت، واستعلت فأهلكها الله عزّ وجل، وهذه الآثار بين أيديكم، اذهب إلى مدينة تدمرَ وكانت فيها دولة من أقوى الدول، هي دولة زنوبيا، أين هم ؟ أين عادٌ وثمود ؟ والأنباط في الأردن ؟ والفراعنة في مصر؟

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ)

لا تزال الأهرامات أحدَ أعاجيب الدنيا حتى الآن، فمصر أرضٌ منبسطة ليس فيها صخور، فمن أين جاءوا بالصخور ؟ من أسوان، كل صخرة مساحتها عشرة أمتار في خمسة أمتار، كيف حملت ؟ كيف نقلت من نهر النيل إلى موقع الأهرام ؟ كيف بنيت ؟ كيف نقلت إلى أعلى ؟ بأية طريقة ؟

هناك بعض الأهرامات فيها نافذة مدروسة بشكل أن الشمس لا تدخل منها إلا في يومٍ واحد في العام كله، هو يوم موت الملك الذي بنيت الأهرام له، أو يوم ميلاده، هل يمكن أن تجهز نافذة بزاوية معينة، عميقة، لا تدخلها الشمس إلا في يوم واحد ؟ لو زرت الأهرامات في مصر لرأيت كل شيءٍ تحت الأرض، حتى الطعام، قطع اللحم المُقدّدة إلى الآن موجودة، عمرها ستة آلاف عام، القمح، الحلي الذهبية، كل حاجات الفراعنة وضعت في القبور، لتوهمهم أنهم سيحيون حياةً مادية بعد موتهم.

القبر نهاية كل إنسان:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ)

من أروع التفسيرات لهذه الآية أنّ:

(فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ)

أي سافروا، إما للتجارة أو للسياحة، يقول لك: أنت رأيت شلالات نياجارا ؟ لا، لم أرها، يقول لك: لم تر شيئًا !! ذهب إلى كندا، وذهب إلى أمريكا، ولليابان، ذهب إلى دول شرقي آسيا، زار المعابد، زار الأماكن الأثرية، ذهب إلى المشاتي، إلى بعض الجُزُر.

(هَلْ مِنْ مَحِيصٍ)

هل من محيص أي: هل من خلاص، لابدّ من أن ينتهي إلى القبر، لو رأيت جواز سفر إنسان كثير السياحة، مرة بأمريكا، مرة باليابان، مرة بالهند، مرة بباكستان، مرة بالشمال، مرة بالجنوب، آخر شيء بمقبرة باب الصغير.

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ)

الأموال الكثيرة و الخيرات لا تنقذ الإنسان من الموت المحقق:

هل هناك مجال ؟

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة البقرة)

في القرآن الكريم صورة رائعة لرجل خائف، يعدو وخلفه من يلحقه ليقبض عليه، مذعور، قلبه يكاد ينخلع من صدره من شدة الخوف، وهو يعدو وآخر يلحقه، متى يُصْعَق ؟ إذا رأى الذي يلحقه من ورائه أمامه.

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

(سورة الجمعة: آية " 8 ")

يكون الواحد معه مشكلة في جسمه، وهو يخاف أن يموت من هذا المرض، يقوم باحتياطات غير معقولة، ثم يفاجأ أن الموت جاء من طريق آخر.

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

لذلك: أحد أكبر أثرياء العالم مات في يخت مع امرأةٍ عاهرة في عرض البحر، أين الغنى ؟ الإنسان برحمة الله، الله عزّ وجل يظهر آياته بطريقةٍ عجيبة، أحياناً الذين يملكون ألوف الملايين لا تنقذهم أموالهم من موتٍ محقق.

الإنسان العاقل من يعدّ للساعة عدتها بالاستقامة و الطاعة:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ)

كثير من الأشخاص حتى من أهل الفن، وهم في أوج نجاحهم جاءهم ملك الموت، فالإنسان العاقل هو الذي يعدّ لهذه الساعة عدتها، يعد لها طاعة، يعد لها معرفة بالله، يعدّ لها استقامة على أمر الله، يعدّ لها عملاً صالحاً، يعدّ لها إنفاقاً.

النظر في أفعال الله تلهم الإنسان إلى معرفة طريق الحق:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

هذا الكلام، وهذه الصور المشرقة والصور المرعبة في هذه السورة صورتان، صورةٌ مرعبة عن أهل النار، وصورةٌ مشرقة عن أهل الجنة.

(إنّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

الإنسان أحياناً حينما يتحرّى الحقيقة فيجدها عن طريق التفكر في خلق السماوات والأرض، وعن طريق تدبر آيات القرآن الكريم، وعن طريق النظر في أفعال الله.

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذّبِينَ)

(سورة الأنعام)

التفكر في خلق السماوات و الأرض يوصل الإنسان إلى الحقيقة:

يمكن أن تعرف الحقيقة الكاملة من النظر في أفعال الله، تابع المرابي كيف أن الله يدمِّرُهُ، وتابع المتصدق كيف أن الله ينمي أمواله.

(يَمْحَقُ اللّهُ الرّبَا وَيُرْبِي الصّدَقَاتِ)

(سورة البقرة)

تابع الشاب المستقيم كيف أن الله يوفِّقُهُ، وتابع الشاب المنحرف كيف أن الله يدمره، تابع الذي ينصح الناس كيف أن الله يحفظه، وتابع الذي يغش الناس كيف أن الله يسحقه، تابع الذي يتقي الله في معاملة زوجته كيف أن الله يسعده بها، وتابع الذي لا يتقي الله في معاملة زوجته كيف أن الله يشقيه بها، يمكن أن تعرف الحقيقة الكاملة من النظر في الحوادث، تابع البار بوالديه كيف أن الله يوفقه، وتابع العاق كيف أن الله يدمره، تابع الذي يغض بصره عن محارم الله كيف أن الله يسعده في بيته، وأن الذي يطلق بصره في الحرام كيف أن الله يشقيه في بيته، تابع هذا الطريق.

الطريق الآخر أن تنظر في خلق السماوات والأرض، ترى العلم والحكمة، واللطف، والرحمة، والقدرة، والغنى، ترى أسماء الله الحسنى كلها من خلال خلقه، تدبر كلام الله عزّ وجل ترَ أنه كتاب الله، كلام رب العالمين، وأقسمُ بالله العظيم أن الإنسان إذا تدبر كلام الله كل خليةٍ في جسده، وكل قطرةٍ في دمه تشعر أنه كلام الله، كلام الله، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه.

القلب و العقل طريق الإنسان إلى معرفة الله:

فالآية:

(إنّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ)

الإنسان عنده القلب والعقل، عنده عقل سلطه على الكون فعرف الله، تدبر به القرآن، فعرف كلام الله، توجّه به إلى الأحداث فعرف الله، هؤلاء المتفوقون بتدبرهم، وتأملهم، وتفكرهم، ونظرهم، يعرفون الحقيقة، وهناك طريق آخر أن تستمع إلى الحقيقة جاهزة.

يمكن أن تدخل غرفة وتتأمل، تتفكر، تنظر، تتدبر، تقرأ كلام الله عزّ وجل، يمكن أن تحضر مجلس علم فتستمع إلى الحقيقة خالصة:

(إِنّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

على الإنسان أن يجمع بين العقل وإلقاء السمع وهو شهيد:

لكن مع إلقاء السمع شرط:

(وَهُوَ شَهِيدٌ)

يمكن لإنسان أن يجلس في مجلس علم وأفكاره خارج المجلس، يقول في نفسه: ماذا أعدوا لنا من العشاء اليوم ؟ في أثناء التفسير كان فكره في العشاء، في أثناء التفسير قبض المبلغ، ويسأل: هل دفع له؟ إذا كان في أثناء حضور مجلس علم خواطر تجارية، أو صناعية، أو زراعية، أو خواطر قبض أموال، أو حل مشكلات، أو فرق صندوق، يا ترى أين راح المبلغ ؟ فهذه مشكلة، ما أصبح شهيدًا في ذلك المجلس:

(إِنّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

فعندك طريقان: إما أن تعد الطعام أنت بنفسك، وإما أن تأكله من يد أمهر الطبّاخين، وكلاهما حسن، فإذا سمع الإنسان كلام النبي عليه الصلاة والسلام فالنبي عليه الصلاة والسلام كل أحاديثه الشريفة في الحقيقة بيانٌ لكلام الله، فيمكن أن تقرأ السنة النبوية المطهرة فتعرف من خلالها كلام الله عزّ وجل، ثلاثمئة حديثٍ حول البيوع، والله عزّ وجل قال:

(إِلّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

(سورة النساء: آية " 29 ")

كلام الله موجز، والنبي عليه الصلاة والسلام فصّل، والأصح من هذا وذاك أن تجمع بينهم، أن تتفكر في خلق السماوات والأرض، وأن تنظر في أفعال الله، وأن تتدبر القرآن، وأن تستمع إلى الحقائق جاهزةً، أن تجمع بينهما، أن تجمع بين العقل وإلقاء السمع وأنت شهيد.

خلق الله عز وجل السماوات و الأرض في ستة أيام دون تعب و نصب:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتّةِ أَيّامٍ وَمَا مَسّنَا مِنْ لُغُوبٍ)

(لُغُوبٍ)

هو التعب والنَصَب، وهذه الآية ردٌ على اليهود الذين زعموا أن الله خلق الدنيا في ستة أيام، ثم تعب فاستراح يوم السبت، هذه أضحوكة، وفرية من افتراءات اليهود، قال تعالى:

(وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ)

طبعاً قال بعضهم: ستة أيام ستة الأطوار، نظام الكون ليلٌ ونهار، وصيفٌ وشتاء، وربيعٌ وخريف، ستة أدوار.

الإنسان حينما يتصل بالله يستطيع أن يواجه أعداء الحق:

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ)

دائماً وفي أغلب الأحيان يأتي الصبر مع التسبيح، ما الذي يعينك على كلام هؤلاء الجهلة:

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ)

لما يكون الإنسان في ضيق مادي، أو ضيق معنوي، أو حوله أناس أعداء منكرون، مفنِّدون، إن كان له صلة بالله فهذه الصلة تغنيه عن صداقتهم، وتغنيه عن الاستماع إليهم، والحقيقة أن الإنسان حينما يتصل بالله يستطيع عندئذٍ أن يواجه أعداء الحق، لأن معه ذخيرة، ومعه سلاح، والاتصال بالله مُسْعِد، لذلك الإنسان الفارغ لا يحتمل المعارضة، ولا يحتمل النقد، ولا يحتمل التخويف، هو ضعيف في الأساس، أما حينما يقوى بالله عزّ وجل يصبح أقوى من كل قوةٍ تريد أن تنال منه.

الصبر مع التسبيح يغنيان الإنسان عن اعتراض المعترضين:

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ)

حينما تصلي تستعين بالصلاة على اعتراض المعترضين، وعلى كيد الكائدين، وعلى تشويش المشوّشين، وعلى انتقاد المنتقدين، وعلى تفنيد المفندين، لأنك تتصل بالله، لذلك قالوا: الناجحون في الحياة ليس عندهم وقتٌ يلتفتون فيه إلى منتقديهم، القافلة تمضي والكلاب تعوي، أما الفارغون من الاتصال بالله عزّ وجل فكل شيءٍ يزعجهم، ورد في الأثر أن موسى في أثناء المناجاة قال: **" يا رب، لا تبق لي عدواً "**، فقال الله عزّ وجل: **" يا موسى، هذه ليست لي "**، قال الله عزّ وجل:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ)

(سورة الأنعام: آية " 112 ")

شيء طبيعي جداً أن يكون لك خصوم في العقيدة، خصوم في المنهج، فالمؤمن لا يبالي.

الخصم حينما ترد عليه ترفعه وحينما تهمله تسقطه:

(قُلِ اللّهُ ثُمّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

(سورة الأنعام)

(بَلِ اللّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

لا تعبأ، من عرف نفسه ما ضرّته مقالة الناس به.

أحياناً يتمنى الخصم أن تلتفت إليه، وأن تردّ عليه، دعه مهملاً، دعه في حيّز النسيان، لا تعبأ به، لا تجعل له قيمة، بعض الكُتّاب الذين كتبوا كلاماً يطعنون به في القرآن الكريم، وفي النبي عليه الصلاة والسلام عرضوا كتابهم على مئات دور النشر فلم تقبل دار أن تنشر لهم هذا الكتاب، فلما حدث هجوم على شخص المؤلِف تهافتت دور النشر على نشر هذا الكتاب، فأحياناً الخصم حينما ترد عليه ترفعه، وحينما تهمله تسقطه.

النبي عليه الصلاة والسلام أوتي الفطانة كأي نبي.

على الإنسان أن يسبح ربه:

1 ـ قبل طلوع الشمس:

(وَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشّمْسِ)

هذه صلاة الفجر.

2 ـ قبل غروب الشمس:

(وَقَبْلَ الْغُرُوبِ)

صلاة الظهر والعصر.

3 ـ عند صلاة الليل:

(وَمِنَ اللّيْلِ فَسَبّحْهُ)

صلاة المغرب والعشاء وصلاة الليل.

على الإنسان أن يصلي السنن الراتبة التي صلاّها النبي بعد الصلوات المفروضة:

(وَأَدْبَارَ السُّجُودِ)

أدبار السجود أي السنن الراتبة التي صلاّها النبي بعد الصلوات المفروضة.

كل الخلائق يسمعون الصيحة يوم القيامة:

(وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ)

هذه صيحة يوم القيامة، لكن تقريباً للأذهان إذا صلى الإنسان في الحرم المكي في أي مكان، في أي مكان على الإطلاق، خارج الحرم، أو داخل الحرم، أو حول الكعبة، أو تحت الأروقة، في الطابق الثاني، في الطابق الثالث، على السطح، في أي مكان تشعر أن صوت الإمام في أذنك، طبعاً من خلال أجهزة صوت راقية جداً، هذا تقريب للأذهان.

كل الخلائق يسمعون هذه الصيحة.

خروج الناس من قبورهم يوم القيامة للحساب:

طبعاً حينما تأتي يوم القيامة، تأتي الصيحة فينسل الناس من قبورهم.

(يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ)

كنت مرة أمشي في جنازة فكان القارئ يقرأ:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

على الإنسان أن يعبد الله الذي يحيي و يميت:

لابدّ من العودة إلى الله.

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ)

نحيي الميّت بعد موته، ونميت الحي بعد حياته، إذاً من ينبغي أن تعبد ؟ من يحيي ويميت، من يرزق، من يسيّر، من الأمر كله بيده.

أعمال الإنسان مسجلة عليه للحساب الدقيق يوم القيامة:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ(44))

قال تعالى:

(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ(8))

(سورة الزلزلة)

يجب أن تعلم علم اليقين أن أعمالك كلها صغيرها وكبيرها مسجلة عليك.

كل إنسان مخيّر ومهمّة النبي أن يبلغ فقط:

لذلك:

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ)

من أوجه التفسيرات: ما أنت مجبرهم على الهدى، أي أنت لك أن تبلِّغ فقط، لن تستطيع إجبارهم لأنهم مخيّرون.

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ)

جبّار هنا بمعنى مُجْبِر.

قال تعالى:

(لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

(سورة الغاشية)

وقال سبحانه:

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

(سورة الأنعام)

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ)

أي أن نظام الخلق أن كل إنسان مخيّر، ومهمّة النبي أن يبلغ فقط.

على الإنسان أن يتخذ قراراً بطلب الهدى ليستفيد من القرآن الكريم:

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ)

هذا القرآن لا نستفيد منه إلا إذا آمنا بالله، قال الله عزّ وجل:

(قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنّ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجّداً)

(سورة الإسراء)

لذلك:

(فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ)

لابدّ من أن تتخذ قراراً بطلب الهدى، وطلب الحقيقة من أجل أن تستفيد من هذا الكتاب الكريم.

(فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الذاريات 051 - الدرس (1-7): تفسير الآيات 1-20 ، كل شيء في الكون يدل على الخالق سبحانه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-06-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأوّل من سورة الذاريات.

خلق الله الإنسان من أجل طاعته و عبادته:

قال تعالى:

(وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً (3) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً (4) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (11) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19) وَفِي الْأَرْضِ آَيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20))

[سورة الذاريات]

هذه الآيات ومثيلاتها في القرآن الكريم، ومثل هذه الآيات تحتلّ مساحة كبيرة في القرآن الكريم، الآيات الكونيّة الدالة على عظمة الله جلّ جلاله، هذه الآيات، لو أنّ واحدًا منا سأل نفسه، لماذا أورَدَها الله في كتابه الكريم ؟ الحقيقة أنّك خُلِقتَ مِن أجل أن تعبُدَهُ، أن تعبُدَهُ أي أن تُطيعَهُ، لن تستطيع أن تُطيعَهُ إلا إذا عرفْتَهُ فمعرفتهُ سبب عبادته.

عبادة التفكر من أرقى العبادات:

الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن تراهُ بِحَواسِّك الخمس، قال تعالى:

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

[سورة الأنعام]

لكنّك بإمكانك أن تعرفَهُ إذا دقّقت في خلقه، فلذلك هذه عِبادة تُعدُّ مِن أرْقى العبادات على الإطلاق، عِبادة التّفكّر، فأنت إذا فكّرْتَ في خَلْقِهِ تتعرّف إليه، إن عرفته، عرفت الآمِر، هان عليك تطبيق الأمر،

فالآمر قبل الأمر والأصول قبل الفروع، والإحسان قبل البيان، والقدوَة قبل الدّعوة، هذه وسائل لِمَعرفة الله عز وجل.

الهواء مِن أكبر الآيات الدالة على عظمة الله:

مثلاً هذا الهواء لا يحول بيني وبينكم، لكنّ طائرةً يزيدُ وزنها عن ثلاثمئة وخمسين طنًّا يحملها ! فما هو هذا الهواء اللطيف ؟ أما إذا تحرّك وزادَت سُرْعتُهُ عن مئتي كيلو متر، ووصَلَتْ إلى الثمانمئة كيلو متراً أصْبَحَ إعْصاراً ودمّر كلّ شيء، فبينما هو نسيم عليل إذا هو إعْصار مُدمِّر، فما هذا الهواء ؟ هذا الهواء سبب تنافر الضوء، فلو ذَهَب الإنسان إلى القمر، وهو في رابعة النهار يرى الفضاء أسْوداً، وفي وسطِهِ قرْص الشمس، بينما في الأرض ترى الدنيا مضيئة وسببها هذا الهواء الذي ينثر الضّوء، ففي غرفتك ضَوء من دون أشِعّة الشمس، فالهواء وحدهُ مِن أكبر الآيات الدالة على عظمته، لطيف ويتحرّك، كيف يتحرّك ؟ مِن خصائصه أنّه إذا سُخّن تمدّد، فالهواء الذي فوق الصّحراء حرارته خمسون درجة يتمدد، والهواء الذي فوق المناطق الباردة ينكَمِش، فهنا ضَغط منخفض، وهنا ضَغط مرتفع، والهواء يتحرّك من الضّغط المرتفع إلى الضّغط المنخفض، فلولا أنّ هناك مناطق صَحراوِيّة في الأرض هواؤُها حار، ومناطق باردة هواؤُها بارد منكمِش لما تحرّك الهواء، وهذا تفسير بسيط جدًّا لِحَركة الهواء !

هناك تفسيرات أخرى مُعقّدة جدًّا، فالهواء يتحرّك من القطبين إلى خطّ الاستِواء، ومن المناطق الباردة إلى المناطق الحارة، ومن الغرب إلى الشّرق، فلولا حركة الهواء لَكُنّا في حالة لا تُحْتمل.

ذَرْوًا: كلمة لها عدة معان:

ربُّنا عز وجل أشار في مطلع هذه السورة إلى هذه الظاهرة التي يُمكن أن تكون أحدَ أكبر الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل، قال تعالى:

(وَالذّارِيَاتِ ذَرْواً)

[سورة الذاريات]

ذَرْواً مفعول مطلق، وسُمِّيَ مفعولاً مطلقًا لأنّه يحْتَمِلُ معانٍ كثيرة، ذَرْواً حكيماً، وذَرْوًا رفيقًا، وذرْوًا لطيقًا، ذرواً هادفاً، والذاريات، فهذه الرّياح التي تذْرو السُّحب تنقلها من مكان إلى مكان، ولو سَكَنت الرّياح ما قيمة السحب ؟

إذا كانت السُّحب فوق البحار وسَكَنت الرّياح فمن ينقلها إلى اليابسة قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي يُرْسِلُ الرّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

[سورة الروم]

فهذه الرياح تسوق السحب.

ظاهرة التبخر والتقطير و التكاثف:

ثمّ يقول تعالى:

(فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً)

[سورة الذاريات]

الإنسان لو ركب طائرة وحلّق فوق الغيم لرأى جبالاً من السُّحب، فمنظر السُّحب من سَطح الأرض كالسّقف لكنّ منظرها من فوق السُّحب جبال كالجبال، ورؤوس مؤنّفة وتلال، ووديان، وهذه السُّحب تحمل ألوف ملايين الأطنان من الماء، وهذه تنتقل من البحار إلى اليابسة، ومن صمّم مبدأ التّقطير ؟ أنّ الماء إذا تبخّر ترك الأجسام المُذابة فيه في البحر ولولا هذه الظاهرة، التبخر لا يحمل معه الأجسام المذابة، لذلك ينتقل البخار من البحر المالح فيصبح ماء عذباً فراتاً من قِبل الله عز وجل، مع أن تحلية اللتر من الماء في المصانع التي صنعها الإنسان، تزيد عن عشر ريالات، تحلية لتر واحد من الماء، هذه الأمطار الغزيرة التي تتحلى عن طريق التبخر والتقطير، من قنن هذا القانون ؟ أن الأشعة (أشعة الشمس) إذا سلطت على مساحات واسعة من الماء تبخر الماء، القانون ؟ ومن قال: إنّ الهواء يحمل بخار الماء ؟ ولكل درجة من درجات الهواء كميّة من بخار الماء يحملها، فإذا برّدنا الهواء ظَهَرت ظاهرة أخرى، وهي التّكثف تجد أنّ قطرات من الماء عالقة على زجاج النافذة، يوجد بالغرفة الهواء مشبع ببخار الماء، لامس سطحاً بارداً فتكاثفت القطرات.

إنبات النبات سببه الرياح التي خلقها الله عز وجل:

هذه الذاريات التي تذرو السُّحب، وتسوقها إلى بلد، أو تذرو حبوب الطّلع الملقِحة للنباتات فلولا الرياح لما أنبت النبات، وكلّكم يعلم (وفي ذلك آية كريمة) أنّ النبات مخلوق من ذكر وأنثى، النبات كله مخلوق من ذكر وأنثى، وهذا الذّكر والأنثى لا بدّ من أن يتلاقحا عن طريق الرياح، لذلك سمى الله الرياح في آية أخرى لواقحاً، قال تعالى:

(وَأَرْسَلْنَا الرّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

[سورة الحجر]

عبادة الإنسان لخالقه واجب عليه:

هذا الهواء الذي يتحرّك يُجدِّد الجو، لو أغلقت النوافذ في غرفة لضاقت نفسك، نسمة لطيفة تنعش الإنسان، وتحرّكه له قوانين دقيقة جدّاً ويسوق السُّحب ويسوق حبوب الطّلع الملقِّحة للنباتات، فهذا الذي صمّم وهذا الذي قنّن وهذا الذي وضَع هذه السُّنن هو ربّ العالمين، ألا يستحقّ أن تعبده ؟ قال تعالى:

(وَالذّارِيَاتِ ذَرْواً (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً (2))

[سورة الذاريات]

فالهواء مُحمّل ببُخار الماء.

ثمّ يقول الله تعالى:

(فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً)

[سورة الذاريات]

مُحرِّك ماء صغير في بستان يُقْلق الحاضرين، ويُصدِرُ صوتًا مزعجاً، يحطم الأعصاب، فهذه الكُتل الهائلة وملايين الأطنان المحمولة في الهواء وتسير بلا صوت، قال تعالى:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرّ السّحَابِ صُنْعَ اللّهِ الّذِي أَتْقَنَ كُلّ شَيْءٍ إِنّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

[سورة النمل]

هذا تشبيه بليغ مصدري ! في هدوئها ولطفها.

قسم الله لفتٌ لنظر الإنسان إلى عظمة هذه الآية:

قال تعالى:

(وَالذّارِيَاتِ ذَرْواً (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً (3) فَالْمُقَسّمَاتِ أَمْراً (4))

[سورة الذاريات]

يقول لك هنا ألف ميليمتر وهنا سبعمئة وخمسون، وهنا مئتين واثنا عشر كذا وكذا، والأمطار في طرطوس كذا، ومعدلّ الماء في منطقة كذا هي كذا، فَمن يُقسّم هذه الأمطار بهذه النِّسب ؟ فالمقسمات أمراً، سيّدنا علي يُنقل عنه أنّه قال: الذاريات ذروًا هي الرياح، والحاملات وقرًا هي السحب، والجاريات يسرًا هي السفن، والمقسمات أمرًا هي الملائكة وهناك تفسير يجعل كلّ هذه الفقرات الأربع هي الرياح، فالرياح تسوق، وتحمل وتسير وتوزّع، فهذا قسَمٌ، والله سبحانه وتعالى حينما يُقْسِم يلْفتُ النّظر ! نظر الإنسان إلى هذه النِّعم العظمى، فما معنى أنّ الله سبحانه وتعالى إذا أقْسم بِخَلقه فالقصدُ من

ذلك لفتُ نظر الإنسان إلى عظمة هذه الآية، فالله عز وجل أعظمُ من كلّ عظيم، فإذا قال لك: لا أُقسِم فبالنسبة إليه، وإذا أقسم فبِالنِّسبة إلينا.

الماء موضوع من موضوعات التفكر في عظمة الخالق:

طبعاً ظاهرة الهواء، حركة الهواء، قوانين الهواء، الهواء يُضْغط ولكنّ الماء لا يُضْغط، لو وضَعنا متراً مكعَّباً من الماء تحت مِكبس ثمانمئة طن لا يمكن أن يُضغط الماء ولا ميليمتر ! أما إذا أراد أن يتمدّد بِفِعل التَّجَمّد لا شيء في الأرض يقف أمامه ! بل إنّ أحدث طريقة لِتَفكيك الرُّخام أن تثقبَهُ وأن تضع فيه ماءً ثمّ تبرِّدَهُ !! عندها ينفجر، أو يتصدع الرخام، وهو من أقسى الأحجار، مُحرِّك مَصنوع من خلائط نادرة لو أنّ الماء تجمّد فيه لشَطَرهُ شَطرين، ما هذا الماء ؟ لا لوْن له، ولا طعم له، ولا رائحة له، ولا ينضَغط وإذا تمدّد لا شيء يقف أمامه، فالماء موضوع من موضوعات التّفكّر، والهواء موضوع من موضوعات التّفكّر، ولماذا ذكر الله ذلك في القرآن الكريم ؟ إنّما ذكر ذلك كي نتعرّف إلى الله مِن خِلال خلقه، قال تعالى:

(إنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ (191))

[سورة آل عمران]

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط:

قال تعالى:

(وَالذّارِيَاتِ ذَرْواً (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً (3) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً (4))

[سورة الذاريات]

هذا قسَم، وجواب القسَم قوله تعالى بعدها:

(إِنّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ)

[سورة الذاريات]

أيها الأخوة الكرام، فِكرةٌ دقيقة جدّا ذكرتها مِراراً أنت مخيّر، لك أن تختار هذا البيت أو هذا البيت، حينما تُقْدِم على الزّواج لك أن تختار هذه الفتاة أو هذه الفتاة، وحينما تُجْمع أن تعمل لك أن تختار هذا العمل أو ذاك، أما خِيارُك مع الإيمان ليس خِيار قبول أو رفض، إنّما هو خِيار وقت فقط، فالأشياء التي جاء بها الأنبياء، لا بدّ من أن تؤمن بها عند الموت، ألم يقل فرعون كما في قوله تعالى:

(آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة يونس]

وعد الله للإنسان لا ينتفع به إلا إذا آمن بربه:

قضيتك مع الإيمان قضية وقت، فإمّا أن تؤمن وأنت صحيح شَحيح، وإما أن تؤمن وأنت غنيّ شابّ قويّ فارغٌ، وإما أن تؤمن بعد فوات الأوان، قال تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

[سورة الشعراء]

تصوّر طالباً خرج من الامتحان، ولم يكتب شيئًا، توجّه إلى البيت وفتح الكتاب وقرأ الجواب الصحيح ! ولكن متى عرف الجواب ؟ بعد فوات الأوان، فالله عز وجل قال:

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ)

[سورة الذاريات]

نحن الآن أحياء، ولكن حينما يأتي ملك الموت هذا الوعد نراه رأيَ العَين وعندئذٍ لا نَنْتفِع بهذا الوعد، ننتفع به الآن إذا آمنا بالله عز وجل.

عدم وجود الحساب يتناقض مع كمال الله عز وجل:

ثمّ يقول تعالى:

(وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ)

[سورة الذاريات]

يقول تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

[سورة الحجر]

خَلْقٌ عظيم، وخالق كبير، لا يُعْقل أن يخلق الإنسان سُدى، قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة]

قويّ وَضعيف، وحاكم ومحكوم، وظالم ومظلوم، ومُسْتغِلّ ومُسْتَغَلّ، ومُحْتال ومُحتال عليه ويموتون جميعًا، ثمّ ينتهي الأمر من دون شيء !! ومن دون حِساب !! هذا يتناقض مع كمال الله عز وجل:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

[سورة الحجر]

محاسبة الله للإنسان محاسبة شديدة:

قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

[سورة الزلزلة]

وقال تعالى:

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء]

أيها الأخوة الكرام، حينما تؤمن أنّ الله تعالى معك، ويعلم ما تفعل وسيُحاسِبُكَ، هناك يوم لا ينفَعُكَ إلا عملُكَ الصالح، وعندئذ تستقيم.

الإيمان بالله و اليوم الآخر من لوازم الإيمان:

من لوازم الإيمان أن تؤمن بالله واليوم الآخر، وأن تؤمن أنّ الله تعالى يعلم وسَيُحاسِب، وأن تؤمن أنّ كلّ شيءٍ تفعلُهُ ينبغي أن تُجيب الله عنه، فالإنسان الموفّق قبل أن يتكلم كلمة، وقبل أن ينطق ببنت شفة، وقبل أن يعدو، قبل أن يبْتَسِم، و قبل أ ن يُعطي، قبل أن يمْنع، وقبل أن يتزوّج، قبل أن يُطلّق، قبل أن يضرب، قبل أن يُسامح، قبل أن يأخذ وقبل أن يُعطي يقول: ماذا سَأُجيب الله عز وجل عن هذا الموقف ؟ لِقول الله عز وجل:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

[سورة الحجر]

إخواننا الكرام: فالمؤمن الموفّق لا تغيب عن ذِهنهِ ولو لحظة ساعة الحِساب وساعة نزول القبر، فمهما اعْتَنَيْنا بِبُيوتنا، مهما زيّنّاها، ومهما زخرفْناها، مهما أغْنَيْناها بالفرش، لا بدّ مِن مُغادرة المنزل، فالإنسان داخل وخارج البيت عمودياً، إلا أنّ مرّةً سيخرج أفقياً ولن يعود، فمهما كان قويّاً سيموت، وكلّ مخلوق سيَموت ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت،

والليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلابد من نزول القبر

***

يقول الشاعر:

و كل ابن أنثى و إن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبــور جنازة فاعلم بأنك بعدهــا محمول

***

الموت و الحساب نهاية كل حي:

قال تعالى: أيها الأخوة الكرام:

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ)

[سورة الذاريات]

(وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً (3) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً (4) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5))

[سورة الذاريات]

هذا هو جواب القسم:

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ)

فخالق الكون الذي خلق المجرّات، والمجرة التي اكْتُشِفَت حديثًا تبعُد عنّا أربعة وعشرين ألف مليون سنة ضَوئيّة، فالذي خلق هذه المجرّات هذا هو كلامه، وسوف نُساق إليه.

تصوير الله ليوم القيامة لنستعد لها قبل فوات الأوان:

قال تعالى:

(وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

[سورة ق]

قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31))

[سورة الحاقة]

هذا كلام ربّنا، وكلام خالق الكون، صُوَرُ يوم القيامة إنما ذكرها الله عز وجل كي نسْتعدّ لها قبل فوات الأوان، قال له: كيف أصبَحْت يا زيد ؟ قال أصبحت وكأنّي بأهل الجنّة يتنعّمون، وبأهل الله النار يتصايَحون ! فقال: يا زيد عرَفْتَ فالْزَم ! عبْد نوّر الله قلبهُ.

طلب العِلم أهم عمل يفعله الإنسان في الدنيا:

العاقل يعيش المستقبل، أما الجاهل فيعيش الحاضر، و الأجهل يعيش ماضيه، فما مضى فات والمؤمّل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، فيا أيُها الأخوة الكرام، لا بدّ من الصُلْح مع الله تعالى، ولا بدّ من التوبة النّصوح، ولا بدّ من معرفة منهج الله تعالى، والله الذي لا إلا هو طلب العِلم أخطر عملٍ تفعلهُ في دُنياك، وهو أهمّ مِن أيّ نشاطٍ آخر، لأنّه منْجاة، فيجب أن تعلم من أنت ؟ ولماذا أنت في الدُنيا ؟! وما هو سِرٌ وجودك، وما هي غاية وُجودك ؟ وما المنهج الذي ينبغي أن تسير عليه ؟ وكيف تتزوّج ؟ وكيف تكْسِبُ المال ؟ وكيف تنفق المال ؟ وكيف تُمضي وقت الفراغ ؟ هل تعلم أيُها الأخ الكريم أنّ أثمن شيءٍ تمْلِكُهُ على الإطلاق هو الوقت ؟ فالإنسان قد يملك مئة مليون أو خمسمئة مليون، الوقت أثمن منها، والدليل أنّه لو مضى الوقت وجاء الأجل لا تنفعُكَ هذه الأموال الطائلة، ينفعُكَ أن تعرف الله في هذا الوقت هذا الوقت غِلاف الزّمن، غِلاف العمل.

كل إنسان مدان في الآخرة بأفعاله:

قال تعالى:

(إِنّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5) وَإِنّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6))

[سورة الذاريات]

الدين يعني الدينونة، الإنسان مدان بأفعاله.

قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

[سورة المدثر]

فالذي فعل، وترك، وقبض، ودفع، وأعطى، ومنع، وقطع، ووصل، وغضب، ورضي، هذه الحركة سوف نُحاسب عليها جميعًا، قال تعالى:

(إِنّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5) وَإِنّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6))

[سورة الذاريات]

فالملخّص أنّ خيار الإنسان خيار وقت لا خيار قبول أو رفض، خيار وقت.

على الإنسان أن يغتنم صحته و غناه و شبابه قبل موته:

لهذا:

((اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك))

[أخرجه ابن أبي دنيا عن ابن عباس]

أي أحدنا معافى، والحمد لله، أما لو توجد علة خطيرة، دخل في عالم آخر، ينسى كل شيء، فالإنسان مُعافى صحيح الجسم، مرتاح من قضية أولى، وثانية، وثالثة، ورابعة، له مأوى، وله دخْل يكفيه، له زوجة وأولاد، هذه حالة مناسبة جدًا للهدى لذلك قال الله عز وجل:

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ(8))

[سورة التكاثر]

أي شخص راكب مَركبة، وهو منطلق بأقصى سرعة في منحدَرٍ شديد، وفي آخرها منعطف حاد مسرور، سرعة يرتاح لها الإنسان، الهواء يلطف الجو، ثم اكتشف فجأة أن ليس معه مكبح:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6))

لذا الإنسان لو يعلم ماذا ينتظرُهُ من نُزول القبر، ومن عذاب القبر، ومن البرزخ، ومن يوم القيامة، ومن الوُقوف بين يديّ الله عز وجل، لذلك: إن هذا اليوم عصيب.

على الإنسان أن يستغل أيامه المتبقية بالأعمال الصالحة:

مرّةً ذكر النبي عليه الصلاة والسلام: كيف أن عَبدين وقفا بين يدي الله عز وجل أحدهما مظلوم والآخر ظالم، فقال المظلوم: يا رب خُذْ لي ظلامتي من فلان فأعطاه كلّ حسناته فلم تف، وطُرِحت عليه سيّئات المظلوم فلم تف فأُلقيَ في النار، وحينها بكى النبي عليه الصلاة والسلام.

فنحن الآن في بحبوحة، نحن أحياء، نحن وعلى وجه الأرض، نحن سُمِح لنا أن نعيش يوماً، فكلّ إنسان يستَيقظ يجب أن يعلَمَ عِلم يقين أنّ الله سمَح له أن يعيش يوماً جديدًا، سمَح له أن يعيش يوماً جديداً، وما من يوم ينشقّ فجره إلا ويُنادي، يا بن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فتزوّد مِنِّي فإنّي لا أعود إلى يوم القيامة ، فأنت بين يوم مفقود لا جدوى من الحديث فيه، وبين يوم مَشهود تعيشه ولا تملِكُ غيره، وبين يوم موْعود، وبين يوم مورود، وبين يوم ممْدود، فالموعود الموت والمورود يوم

القيامة والممدود في الجنّة أو النار، والمفقود الماضي، والمشهود الحاضر، فأنت لا تملك إلا هذا اليوم المشهود بِهِ تثُوب، وبه تستقيم، به تؤدّي ما عليك، وبه تسْتَسْمِح من الآخرين، به تنفق، به تُصلِّي.

أكبر مصيبة تصيب الإنسان أن لا يعلم لماذا هو في الدنيا:

مرّ عليه الصلاة والسلام على قبر فقال:

((إنّ صاحب القبر لو أنّه يؤدِّي ركعتين متمثلتين، هي خير له من كلّ دُنياكم))

النبي اطّلَعَ على حالة صاحب القبر، يتمنى أن تكون الدنيا كلها بيده، ويسمح له بركعتين، هي خير له من كل الدنيا، فنحن في بَحبوحة، لا تدع مجلس العلم، به يذكرك بربك، به يشحنك شحنة روحية، به يبقيك على الصراط المستقيم، وعليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإنّ الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبْعَد، وإنّما يأكل الذئب من الغنم القاصيَة.

فالإنسان يحتاج إلى شحنة علمِيّة وروحِيّة كل أسبوع، الحد الأدنى، حتَّي يبقى متوازناً، كحال المصباح يشحن بالكهرباء، إن شحنته يتألق، وإن نسيته من دون شحن، يخفت ضوءه، وكذلك الإنسان بلا شحن يقترب من حطام الدنيا، يدخل في دوامة كسب المال، وإنفاق المال، والعلاقات التجارية، والمالية، وزيد، وعبيد، وفلان و علان، وهذا أعطاني، وهذا لم يعطني، دوامة لا تنتهي، لا بد من أن تكون لك مكابح، لابد أن تخلو مع الله مِن حينٍ لآخر، ولا بدّ من أن تفكِّر لماذا أنا في الأرض ؟ فلا يُعقل أن يُسافر الإنسان إلى بلد وهو لا يدري لماذا أنا هنا ؟ فرْق كبير بين أن تكون سائحاً وبين أن تكون تاجِراً وبين أن تكون طالب عِلم، فرق كبير جداً، السائح له برنامج، المكان الفلاني، المتحف الفلاني، إلخ...، والتاجر له برنامج، وطالب العلم له برنامج، فإذا إنسان سافر إلى بلد أجنبي، ولا يعلم لماذا هو هناك هذه أكبر مصيبة.

تسيير الله لكل شيء في الكون:

ثمّ يقول تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ)

[سورة الذاريات]

آيةٌ أخرى، هذه آية التَّجاذب الحركي:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ)

فالكواكب مَشدودة إلى بعضِها بعضًا، كيف ؟ أبْسَط شيء أن تأتي بِقِطْعَتي مغناطيس، وبِحَجمٍ واحد، وبِقُوَّة جذْبٍ واحدة، ضَعهما على طاولة ملساء وائتِ بكرة حديديَّة، هل بإمكانك أن تضعها في نقطة تتعادَل فيها قِوى التَّجاذب بحيث تقف، لا تنجذب لا إلى هنا، ولا إلى هناك، فلو أنَّها أزيحت مِعشار الميليمتر لَجُذبت إلى الجهة اليُمنى، لذا أن تضَعها في مكان متوسِّط هذا يحتاج إلى قياسات دقيقة جدّاً، لو أن هاتين الكرتين متفاوتَتَيْن في الحجم، وبالتالي في قوة الجذب، لاحتاجت إلى دراسة أعمق، أن تدرس الحجم، قوة الجذب، أن تضعها في مسافة تتناسب مع بعدها عن هذه الكتلة الكبرى، ومع تلك الكتلة الصغرى، هذه عملية أعقد، ولو كان ثلاث كتل، وينبغي أن تضع هذه الكرة بينهما، بحجوم متفاوتة، أصعب، ولو كانت أربع كتل، ليست على سطح واحد بل معلقة في الهواء، ولابد من أن تضع كرة.

الكون أكبر دليل على عظمة الله و وحدانيته:

الآن: دراسة الجاذبية، وقوى الجذب، والاحتكاك، وما إلى ذلك أمام مليون مليون مجرة، وكل مجرة فيها مليون مليون كوكب، والكواكب متفاوِتَةٌ في الأحجام والمسافات، أدقّ ساعة في العالم تُضْبَط على نجم، فالنَّجم لا يتأخَّر ولا يتقدّم ولا مِعشار ثانية، ساعة تضبط عليها ساعات العالم، هي تضبط على نجم يتحرك، فحركة النُّجوم تسير بِدِقّة متناهِية، وبدقة أُسطوريَّة، فمن يُسيِّرُها ؟

مثل بسيط، هذه الأرض تدور حول الشمس، والمسار ليس دائرياً، المسار إهليلجي، معنى ذلك أنّ هناك قطرين ؛ قطر أكبر وقطر أصغر، لو أنَّها في القطر الأصغر في مسارها حول الشمس، في الجهة ذات القطر الأصغر يزداد جذب الشمس لها، إذًا هناك احتِمال ارتطامها بالشمس، فما حكمة الله في ذلك؟ تزداد سرعتها لِيَنشأ عن هذه الزّيادة قوّة نابذة تُكافئ القوّة الجابذة، أما إن ابتَعَدت للقطر الأوسَع تَقِلّ سرعتها لِتَقِلّ قوّة النَّبذ حتى تتوازن مع ضَعَف الجاذِبِيّة، من يرفع سرعتها رفعًا تَدريجيًّا ؟ ومن يخفض سرعتها خفضًا تدريجيّاً ؟ الله خالق الكون، ولو أنّ هذه السرعة ارتفَعَتْ فجأةً لانْهَدَم كلّ ما على الأرض ! فهذه المدن الكبرى، وناطحات السحاب هذه ! كلُّها تنهدِم، لو أنّ التسارع سريع، التسارع بطيء والتباطؤ بطيء، هذا مِن حِكمة الله عز وجل، فلذلك الكون أكبر دليل على عظمة الله تعالى، ووُجوده ووَحْدانِيَّتِهِ، وكماله.

قدرة الله عز وجل في رفع السماء بلا عمد:

قال تعالى:

(وَالسّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ)

[سورة الذاريات]

هذا الترابط عجيب، فلو أنّ الأرض تفلّتَتْ من الجاذِبيّة مثلاً، وأردنا أن نُعيدها إلى هذه الجاذِبيّة لاحْتَجنا إلى مليون مليون كبل فولاذي، وهذا الحبل قطرهُ خمسة أمتار، ولو زرعنا هذه الحِبال على سطح الأرض المواجه للشمس وربطناها، وربطناها بالشمس، وطول الحبل مئة وستة وخمسون مليون، قال: كلّ حَبل قوّة تحمّله مليوني طن، يعني الأرض مربوطة بالشمس بقوة تساوي مليون مليون ضرب مليونين طن، وكلّ هذه القوى الجبارة من أجل أن تحرف الأرض ثلاثة ميلي كلّ ثانيَة، وينشأ مدار مُغلق حول الشمس، تدور !! ذلكم الله رب العالمين، قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخّرَ الشّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبّرُ الْأَمْرَ يُفَصّلُ الْآيَاتِ لَعَلّكُمْ بِلِقَاءِ رَبّكُمْ تُوقِنُونَ)

[سورة الرعد]

هل يمكن أن تقيم بناءً مئة طابق، والطابق الأوّل كله هواء، ليس فيه عضاضة واحدة ؟ هل بالإمكان بناء مئة طابق وزنه رقم فلكي من الإسمنت المسلح، وليس له أي عمود على الأرض، وارتفاعه مئة متر، وتمشي تحته ؟ تصور! مستحيل، بناء مئة طابق، من إسمنت مسلح، وتحته كله فارغ، لا يستند إلى شيء، بل إلى قوة لا ترى بالعين، الكون هكذا ! الجاذِبيّة قوّة تمشي وسطها أنت، وهناك جذب، ولكنّه جذب لطيف لا تشعر به.

التوازن الحركي في الكون:

قال تعالى:

(وَالسّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ)

[سورة الذاريات]

الكون مترابط، والحقيقة لولا هذه الحركة لكانت قِوى الجذب كافيَة أن تجعل الكون كلّه كتلة واحدة، الكون كله، المليون مليون مجرة، وفي كل مجوة، تقريباً مليون مليون نجم، كل هذا الكون يصبح كتلة واحدة، لأنّ الجرْمُ الأكبر يجذب الأصغر، أما بهذه الحركة المستمرّة فكلّ شيء يدور حول كوكب آخر، وهذه الحركة دائما تُشكِّل قوّة نابذة تكافئ القوّة الجاذِبَة، إذًا هناك توازن حركي، التوازن السكوني سهل جدّاً، أما التوازن الحركي صَعب جدّاً، أثناء الحركة هناك توازن.

تعدد الباطل و الحق واحد:

ثمّ يقول تعالى:

(إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ)

[سورة الذاريات]

أهل الحق كلامهم واحد، فمُؤمن من بلاد الشام، ومؤمن من باكستان، ومؤمن من الهند، من كندا، من أستراليا، من إفريقيا، كلّهم فِكر واحد ومبادئ واحِدَة، وقِيَم واحدة، أهداف واحدة، هناك توحّد، لكنّ مِلّة الكفر ألف اتّجاه واتّجاه، وألف سبيل وسبيل، قال:

(إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ)

لذلك قال تعالى:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة الأنعام]

الحق يجمع الناس و الباطل يفرقهم:

الحق لا يتعدد، والباطل يتعدّد ولا نِهاية له، أما الحق فواحِد لذا وردَ في الآية طريق الاستِقامة مفرد:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة الأنعام]

وطريق الضلال بالجمع، وقال تعالى في آية أخرى:

(لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ)

جمع، إلى النُّور مفرد.

[سورة الحديد]

ما قال من الظلمات إلى الأنوار، وما قال من الظلمة إلى النور، قال من الظلمات إلى النور، النور واحد، الحق واحد، الحق مثل الخط المستقيم، بين نقطتين لا يمرّ إلا مستقيم واحد، ضع النقطتين على ورق، و ائت بمسطرة، وارسم أول خط، الثاني فوقه، الثالث فوقه، لو رسَمْت ألف خطّ كلها فوق بعضها بعضاً، الحق واحد، الباطل متعدد، لذلك ما الذي يَجمعنا ؟ الحق، ما الذي يُفرّقنا ؟ الباطل ! تحسبهم جميعاً، وقلوبهم شتى، التفرقة علامة الباطل، الباطل متعدد، المصالح متناقضة، الشّهوات متنوّعة متعدِّدة، ومراكز قِوى، أما الحق فواحِد لذا قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ)

[سورة الذاريات]

جواب القسم قوله تعالى:

(إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ)

[سورة الذاريات]

الله عز وجل شَرَّف الإنسان بعبادته و معرفته:

مذاهب، واتِّجاهات، وآراء، ومنطلقات، وتفسيرات، ونظريّات ما أنزل الله بها من سلطان، وفي الهند يعبدون البقر، وفي بلاد اليابان، وقد لا تُصدِّقون يعبدون عَورة الرجل، وفي أمريكا يعبدون الجرذان، وفي بعض البلاد يعبدون مَوْج البحر، ويضعون أطيب الطعام، والشراب، والفواكه أمام الموج ويقذفونه في الموج ثمّ يُصلُّون، وفي بلاد يعبدون الجرذان، يضعون في طبق الحليب، تأتي الجرذان، ويعبدونها من دون الله، وفي الهند يعبدون البقر، وفي بعض البلاد المتقدمة صناعياً جداً يعبدون عورة الرجل، يعني شيء لا يصدق، ولكن الله سبحانه وتعالى شرّفنا بِعبادته شرفنا وبِمَعرفَتِه، شرفنا بِمَنهج سليم صحيح.

أخٌ كريم كان في بعض مدن الهند، وهو في غرفته بالفندق رأى أمام الفندق ساحة عامّة والناس مجتمعون، وقد وُضِعَت أكداس مكدّسة من الحطب فلما سأل قيل له: مات رجل وسوف يُحْرق ! فقال: ومن هذه التي بجانبه ؟ قال: زوجته، قال: أراها تتحرق، ويجب أن تُحْرق وهي حيّة، فإن لم تحرق سَقطت اجتماعيّاً هذا دين هذا ؟ امرأة متعها الله بالحياة، ينبغي أن تحرق مع زوجها ! قال تعالى:

(إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ)

[سورة الذاريات]

الحقيقة، نحن لا نشعر بقيمة هذا الدِّين العظيم ؛ دينُ مبادئ وأحكام فقهيّة، وعلاقات اجتماعيّة، كانوا في الجاهليّة المرأة تتزوّج عشرة رجال ثمّ تحْمِل هي تختار أحدهم لِتَنسِبَه، هذا سفاح الجاهلية، فالله عز وجل شرّفنا بِمَنهج قويم، شرفنا بِعَقيدة صحيحة، وما علينا إلا أن نُقبل إلى الله، ما علينا إلا أن نعرف سِرَّ وُجودنا.

انهيار الدعوات الباطلة مهما كانت قوية:

ثمّ يقول تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9))

[سورة الذاريات]

هِرَقل سأل سيّدنا معاوية قبل أن يُسْلم فقال: **أصحاب نبيّكم يزيدون أم ينقصون ؟ فقال: يزيدون، قال هرقل: إذًا هو نبي**، لأنّ الباطل قد تنخدِعُ به إلى حين ثمّ ينكشف فتنْسحب، فإذا كان هناك دخول وخروج، أو خروج من دون دخول معنى ذلك هناك باطل، أما إذا كان هناك ثبات، ونماء وازْدِياد، معناها حق، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9))

[سورة الذاريات]

أي يُصْرفُ عنه مَن صُرِف، فلذلك الدّعوات الباطلة تنهار والله عز وجل قال:

(إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء]

الحق نعمة لا تقدر بثمن:

مهما ظَنَنْتَهُ قويًا، مهما ظننته مُتماسِكاً، مهما فلسَفْتَه، مهما دَعَمْتَهُ بالأدلّة الواهِيَة، ومهما جمَعْتَ الناس حوله، مهما رفعت شعاراته، فالباطل يبقى باطلاً:

(إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء]

ثمّ ينهار كَبَيْت العنكبوت ثم يُصبح في الوُحول هذا الباطل.

لذلك أنتم أيها الأخوة تتمتّعون بنِعمة لا يعرفها إلا مَن فقَدَها ما هذه النِّعمة ؟ إذا كنتَ مع الحق فليس في حياتك مُفاجأةٌ أبداً، المفاجآت تكون لِمَن كان مع الباطل، يفاجأ لأنّ مبدأه باطل، مبدأهُ غير صحيح، ومبدأهُ فيه دَجل، أما المؤمن لن تزيدَهُ أيّامهُ إلا اعْتِقاداً بِمَبدئِهِ، وكلّ أحداث الأرض تؤكِّد هذا المبدأ وتدْعَمُهُ، ولأنّه دينُ الله عز وجل، لذلك إذا الإنسان مع الحق فهذه نِعمة لا تعْدِلها نِعمة.

الإسلام مبدأ الله العظيم و منهجه القويم:

صَديقٌ ذَهَب إلى بلدٍ في شرق آسيا، وكان هناك لِقاء مع مُدير شركة، وإذْ به يُفاجأ أنّ أمّه قد تُوُفِّيَتْ، فهو توقّع أنّ تلغى المواعيد كلها، فقال المدير: لا، كل شيء على حاله، قال له والوفاة ؟ قال له: ضَعوها في البراد إلى أن يأتي دورها في الحرق، فقال هذا الأخ: ولمَا تحرقونها ؟ قال: لأنّ القبر مُكَلف، أما الحرق أيسر، أرخص، نضعها في قارورة، الرماد، ونأخذها إلى المعبد، تتقدس هناك، في الأعياد نأتي بها، القارورة طبعاً، هي أمه، يرجعها، سبحان الله، شيء مضحك، لهذا ضحكتم أنتم:

(يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ)

والذي زار مِصر، زار الأهرامات يرى العجب العُجاب، حينما يموت الفرعون توضَع معه اللُّحوم المُقدّدة أنواع الحليّ، ومركبة، مركبة في قبر، مركبة كبيرة، لحوم، خبز، وطعام ؛ كلّ شيء في القبر، لأنّهم يعتقدون انّه سيحيى بعد حين، وسيَحتاج إلى كل هذه الأشياء، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9))

[سورة الذاريات]

فهذا الإله العظيم الذي خلق السماوات والأرض لا يُمكن إلا أن يكون مبدؤه عظيماً، ومنهجُهُ قويماً.

انغماس المنافقين في شهواتهم و مباهجهم في الدنيا:

الحق ما أقرّ به العقل، وما ارْتاحَت له الفِطرة، وما أيّدَهُ الواقع، وما أيده النّقل، فكلمة الحق ؛ الحق والنقل والعقل والواقع والفطرة كلها متطابقة، فالفِطرة ترتاح، قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الروم]

قال تعالى:

(قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ)

الكذابون:

(قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (11))

[سورة الذاريات]

في غَمرة الشّهوات، وغمرة جمْع الأموال، وغمرة اقتِناص الملذّات، وغَمرة القيل والقال، وغمرة البحث عن الأمجاد الزائفة في الدنيا، وغمرة التمتع بمباهجها:

(الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ)

غفلة الإنسان الكافر عن يوم الحساب:

غافلون عن هذا اليوم، يوم الحِساب، قال تعالى:

(يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ)

[سورة الذاريات]

اسْتِهزاءً، قال تعالى:

(يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14))

[سورة الذاريات]

(قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ)

الكذابون، يعني أخطر شيء في حياتنا الكذب، وأحيانًا تعتَقِدُ عقيدةً أنت لسْتَ قانِعاً بها.

الصدق يهدي إلى البر و الكذب يهدي إلى الفجور و النفاق:

أحياناً تجلسُ جلسة كلّ ما قيل فيها كَذِب في كذب، كله نفاق، فالذي يُدَمِّر حياتنا هو الكذب، لذلك المؤمن صادِق، إن الصِّدق يهدي إلى البرّ وإنّ البرّ يهدي إلى الجنّة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصِّدق حتّى يُكتَب عند الله صدّيقًا، النَّبيّ صلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قالَ

((إنّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلَى الْبِرّ وَإنّ الْبِرّ يَهْدِي إلَى الْجَنّةِ وَإنّ الرّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتّى يَكُونَ صِدّيقًا وَإنّ الْكَذِبَ يَهْدِي إلَى الْفُجُورِ وَإنّ الْفُجُورَ يَهْدِي إلَى النّارِ وَإنّ الرّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللّهِ كَذّابًا))

[رواه البخاري]

المؤمن لا يكذب، ويجب أن تعتقِد ما هو واقِعيّ، فلا تعتقِد بالأوهام، ولا الترّهات ولا بالأباطيل، لا تقبل شيئًا من دون دليل، وأنت كريم على الله عز وجل والنبي عليه الصلاة والسلام أرْسَل سريّة وأمّر عليها أنصاريًا ذا دُعابة:

((بَعَثَ جَيْشًا وَأَمّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا فَأَوْقَدَ نَارًا فقالَ ادْخُلُوهَا فَأَرَادَ نَاسٌ أَنْ يَدْخُلُوهَا وَقَالَ آخَرُونَ إنّمَا فَرَرْنَا مِنْهَا فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ فقالَ لِلّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا لَوْ دَخَلْتُمُوهَا لَمْ تَزَالُوا فِيهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَقَالَ لِلْآخَرِينَ قوْلًا حَسَنًا وَقَالَ لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللّهِ إنّمَا الطّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

[رواه مسلم عن علي]

إكرام الله للإنسان بنعمة العقل:

العقل لا يُعطّل أبداً، والله تعالى وهَبَك عقلاً، وأعطاك منهجاً، وأعطاكَ قرآنًا بِلِسان عربيّ مبين، أخي هذا القرآن إذا الإنسان فكرفيه يغرق، لا، ما أنزله على النبي عليه الصلاة والسلام إلا لكي تفهمه، قال تعالى:

(أَفَلَا يَتَدَبّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)

[سورة محمد]

ما أمرك أن تتدبّرَهُ إلا لأنّه في مستواك، يمكن أن تفهمه، أنزله على نبيه بلسان عربي مبين، لا تدخل بدوامة، ما ننتهي من القرآن، إذا هو لمن ؟ يعني ممكن جهة ترسل رسالة، لا يفهمها المرسل إليه ؟ هذا شيء غير معقول.

الدنيا عرض حاضر و الآخرة وعد صادق:

إذاً:

(قُتِلَ الْخَرّاصُونَ (10) الّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (11))

قال تعالى:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الّذِي يُوعَدُونَ)

[سورة الزخرف]

قال تعالى:

(لَا يَغُرّنّكَ تَقَلّبُ الّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمّ مَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197))

[سورة آل عمران]

قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتّعُهُ قَلِيلاً ثُمّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[سورة البقرة]

إنّ هذه الدنيا عرضٌ حاضِر، يأكل منه البرّ والفاجر، والآخرة وَعْدٌ صادِق، يحْكُمُ فيه ملِكٌ عادِل.

عرض الكفار على النار:

قال تعالى:

(الّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (11) يَسْأَلُونَ أَيّانَ يَوْمُ الدّينِ (12) يَوْمَ هُمْ عَلَى النّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14) إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

[سورة الذاريات]

يفتنون أي يعرضون على النار.

آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ: آية لها عدة معان:

1 ـ أخذوا أمر الله بالطاعة:

بعضهم قال: أخذوا أمرهُ بالقَبول والطاعة:

(آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

أمرهم بالصِّدق فصَدقوا، وأمرهم بِكَسب المال الحلال فكَسِبوا، أمرهم بالصلاة فصلوا.

2 ـ هم في ضيافة الرحمن:

والمعنى الآخر أنّهم الآن في ضِيافة ربّهم:

(آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

إذا الإنسان في مجال التّكريم تُقدّم له الهدايا، تقدم له الأطعمة النفيسة، تقدم له كل وسائل الراحة.

ثَمَنُ الجنّة أن تكون مُحْسِناً:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

طيب ما سبب هذا الإكرام، قال تعالى:

(إِنّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

[سورة الذاريات]

هذا هو الثّمن، يا إخوان، ثَمَنُ الجنّة أن تكون مُحْسِنًا، على إطلاق هذه الكلمة مُحْسِن في عملك، محسن في حرفتك، محسن في وظيفَتِك، ومُحْسِن في طبابتك، محسن في أيّ مهنة تمْتهنها مُحْسِن مع زوجتك مع أولادك مع جيرانك مع إخوانك، ومع المخلوقات جميعها، ومع الحيوان الذي تذبحه، لا تعذبه، قال عليه الصلاة والسلام: **فليُحِدّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته** مُحسِن يعني، والمؤمن لا يصدر عنه إلا كل خير، المسلم لا يُقلق أحداً، أما الكافر: اللهم إني أعوذ بك من جار سوء إن رأى خيراً كتَمَهُ، وإن رأى شرّاً أذاعه، اللهم إني أعوذ بك من إمام سوء، إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأت لم يغفر، فالمؤمن محسِن يأمن جاره بوائقهُ، يأمن كل من حوله.

المؤمن مصدر أمْن و سعادة و الكافر مصدر خوف و تعاسة:

هذا الذي يُتَّقيه الناس مخافة شره، هو شرّ الناس، الذي يُتَّقيه الناس مخافة شره هذا ليس مؤمنًا، المؤمن مصدر أمْن مصدر سعادة، مصدر طمأنينة، مصدر عطاء، وهو يبني حياته على العطاء، أما الكافر فيبني حياته على الأخذ، وإذا أردت أن تعرف ما إذا كنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة، فانظر ما الذي يسعدك ؟ أن تأخذ أم أن تعطي ؟ المؤمن يسعده العطاء، أهل الدنيا يمْلِكون الرّقاب بقُوَتهم، والأنبياء يمْلِكون القلوب بكمالهم، أنت مع من ؟ فهل تُحبّ أن تملِكَ قلوب الناس بكَمالك، بلُطفك، بتواضعك، بحِلمِكَ، برحمتك، بإنصافك، بخدمتك للخلق ؟ إما أن تملك قلوبهم بكمالك، وإما أن تملك رقابهم بقوّتك، فالطُغاة يملكون الرّقاب بالقوّة، و الأنبياء فيملكون القلوب بكَمالهم، لذلك قال تعالى:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16))

[سورة الذاريات]

المؤمن محسن ينصف الناس من حوله:

وفيّ لِزَوْجته، ويربّي أولاده تربيَةً عالية جداً، كريم لجيرانه، ومُحسن لطلابه، ومُحسِن لِزَبائِنِه، ومُحسِنٌ لِمَرضاه، ولا يكذب، ولا يغشّ، ولا يسْتحكِم، ولا يسْتغلّ، لا يبتز أموال الناس بالباطل، ولا يتكبّر، لا يستعلي، ولا يتغطْرسَ، ولا يقول: أنا وأنا، متواضع:

(إنّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

وعمله مُتْقن، كلامه واضح، مواعيده صحيحة، ويأخذ ما له، ويَدعُ ما ليس له، وينصِف الناس من نفسه، لا يحتاج أحد معه إلى أن يرفع عليه قضية أبداً، لما القضية؟ كنتُ في عَقد قِران فجلس بِجانبي أخٌ كريم فقال لي: أنا دُهِشْتُ أنّ أحد إخوانكم جاء إلى مكتبي لِيَرْفَعَ الأجرة التي عليه اتِّجاه مُوَكِّلي ؛ طواعِيَةً ومن دون دَعوى، فقلتُ هذا هو الأصل، وهو أن تُنْصف الناس من نفسك أن تعطيهم ما لهم، أن تأخذ ما لك، وقال لي أحد إخواننا القضاة: أربعة أخماس الدعاوى في قصر العَدل دعاوى كَيْدِيَّة، والدعوة المحقة قليلة جداً، لذلك المؤمن ينصف الناس من نفسه، لا يأخذ ما ليس له، قانع بالذي له، لا يطمح بما ليس له، ويعرف ما له وما عليه، ورَحِمَ الله عبداً عرف حدّه فوَقَفَ عنده، فهذه امرأة تزوّج عليها زوجها من دون أن يُعلمها، فلما علِمَت سَكَتَتْ، ولما مات هذا الزوج، بعثت لضَرّتِها بالتركة، ففوجئت أن هذه الضرة قد طلقت قبل أسبوعين، الزوجة الأولى التي تزوج عليها زوجها، حينما مات زوجها بعثت لضرتها، بنصيبها من الإرث، ولم تعلم رسمياً بهذا الزواج، وهذه التي أرسل لها المبلغ، قالت لا: لقد طلّقني قبل أسبوعين، ليس لي عنده شيء، هذا هو المؤمن.

قال تعالى:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

[سورة الذاريات]

الإحسان سببه الاتصال بالله عز وجل:

فالمؤمن إذا عامل مؤمناً يقول لك: هنأه الله، بارك له الله، صنعته متقنة، سعره معتدل، مواعيده صحيحة، متواضع، هذا الذي نملكه، هذه ثروة الحياة الدنيا أن يرضى الله عنك:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

من أين جاءهم هذا الإحسان ؟ لماذا هم أحسنوا وغيرهم لم يحسن ؟ قال تعالى:

(كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)

[سورة الذاريات]

كانت لهم صِلَة بالله، إن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى فإذا أحبَّ الله عبدًا منَحَهُ خُلقًا حسنًا، وهذا الإحسان إذًا سببه الاتِّصال بالله.

الناس رجلان برّ تقي و فاجر شقي:

الناس على اختلاف مِلَلِهم، نِحلهم، واتجاهاتهم، وأجناسهم، وأعرافهم، ومذاهبهم، ومعتقداتهم، وأصلهم، وفصلهم، ومهما قسّمتَ البشر، ففي النِّهاية هم رجلان موصول بالله، ومقطوع عن الله، فالموصول مُحْسِن، والمقطوع مسيء والموصول مُنْصِف، والمقطوع مُجحف، والموصول عادِل، والمقطوع ظالم، الموصول متواضع، المقطوع متكبر، أبداً، محسن، منضبط، مسيء، متفلت، وهذا التَّقسيم الحقيقيّ، مؤمن وكافر، موصول ومقطوع، محسن ومسيء، مستقيم ومنحرف، مخلص وخائن، يرحم ويقسو، يعطي ويمنع، يعلو ويتواضع، أبدا هذا التقسيم الحقيقي، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((َالنَّاسُ رَجُلَانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ وَالنَّاسُ))

[رواه الترمذي]

لا قيمة له عند الله.

قال تعالى:

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)

[سورة الكهف]

لهم صغار عند الله.

من صفات المؤمن الاتصال بالله و صلاة الفجر في جماعة:

قال تعالى:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ)

(كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)

[سورة الذاريات]

متصلون بالله:

(وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

يصلون الفجر في جماعة، ومن صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله.

على الإنسان أن يبحث عن العفيف الذي لا يطلب:

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة الذاريات]

من ألطف تفاسير هذه الآية أنّ السائل الذي يسأل ويأخذ، لكن الذي يتعفّف ولا يسأل يُحْرَم، لا يعطيه أحد، فالجريء يسأل ويأخذ، الحييّ لا يسأل فيُحْرم، لذلك واجبنا أن نتحرّى هؤلاء الذين لا يسألون، بل يتعفّفون، والذين يحْسبهم الجاهل أغنياء من التّعفّف، وهذا هو واجبنا اتّجاه هؤلاء أما الذي يسأل، يسأل ويأخذ، وهو يجرؤ على أن يسأل، فللسائل والمحروم.

الإنسان إذا طلب الحقيقة كلّ شيءٍ حوله يدله على الله:

قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

كلّ ما في الأرض آيات دالة على عظمة الله تعالى، العِبرة أن تملك آلة التصوير مع الفيلم، فإذا لم يكن هناك فيلم، فكلّ هذه الآيات لا تنطبع، إذا الإنسان طلب الحقيقة، كلّ شيءٍ حوله يدلّ على الله، وإذا أعرض عن الحقيقة لا شيء ينفعُهُ، قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

يعني هذا الماء لما نجمده يتمدد، هل تُصدِّقون أنّ لولا هذه الآية لما كُنّا على وجه الأرض، ولما كانت حياة على وجه الأرض، الأجسام كلّها تتمدّد بالحرارة وتنْكمش بالبرودة إلا الماء، يتمدد بالحرارة،

وينكمش بالبرودة إلى درجة زائد أربعة عند هذه الدرجة تنعكس الآية فيتمدّد بالتبريد، فلولا هذه الظاهرة لما كُنّا في هذا المكان.

الماء حينما يتجمد، يزداد حجمه، فتقل كثافته، فيطفو، وتبقى البحار دافئة، أما إذا برد فقل حجمه، كثافته زادت، فغاص في أعماق البحر، بعد حقبة من الزمن، تصبح البحار كلها متجمدة، ينعدم التبخر، ينعدم إنبات النبات، يموت الحيوان، يموت الإنسان، هذا الماء الذي يتمدد.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الذاريات 051 - الدرس (2-7): تفسير الآيات 15-19، قيمة الإنسان عند ربه تتعلق بعلمه و عمله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-06-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الذاريات، ومع قوله تعالى في الآية الخامسة عشرة:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ)

[سورة الذاريات]

التوازن في القرآن الكريم:

قلتُ لكم في درس سابق هذا الكتاب هو كتاب الله عز وجل، كِتاب هِدايةٍ ورشاد، لذلك فيه توازن، ليس القصْد أن يُقسّم تقسيماً موضوعياً لكنّ القصْد أن يكون هناك توجيه لهذه النفس إلى الله عز وجل، فحينما تأتي مشاهد مِن عذاب أهل الكُفْر تأتي مشاهد من نعيم أهل الإيمان، فبعد أن ورَدَ في هذه السورة عن هؤلاء الذين ينحرفون (الخراصون) الذين هم في غمرة ساهون قال تعالى:

(قُتِلَ الْخَرّاصُونَ (10) الّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (11) يَسْأَلُونَ أَيّانَ يَوْمُ الدّينِ (12) يَوْمَ هُمْ عَلَى النّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14) إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ(15))

[سورة الذاريات]

من هم المُتّقون ؟ الذين أطاعوا الله عز وجل، يعني إنسان فيه شَهوات، وله منهج، وله طَبع، وهناك تكليف، وفي الأعمّ الأغلب التكليف يُخالف الطّبع، الطّبع أن تنام والتّكليف أن تصلي، والطّبع أن تأخذ، و التكليف أن تُعطي، والطبع أن تنظر، والتكليف أن تغضّ البصر، فهذا الذي قرأ القرآن وعرف منهج الله عز وجل، وضَبَط شَهواته، وضَبَط جوارحه، ضبط كسبه للمال، ضبط إنفاقه للمال وفق منهج الله، وطلب العلم، وعرف الحُكم الشّرعي، وصاحبَ أهل الإيمان، وابْتَعَد عن أهل الفُسق والفُجور، وجعل دَخْلَهُ حلالاً، جعل إنفاقه وفق منهج الله، هذا الذي صاحب المؤمنين، دعا إلى الله، وعمل صالحًا، أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، هذا الذي اتّقى الله عز وجل، اتّقى أن يُغْضِبَهُ، اتّقى أن يُسْخِطَهُ، واتّقى أن يعصيه، اتّقى عذابه في الدنيا، واتّقى عذابه في الآخرة، هؤلاء المتّقون في جنّات وعيون.

خطأ الإنسان الكبير أن ينظر إلى أهل الدنيا فقط:

من الخطأ الفادِح أن تنظر إلى الدنيا على حِدَة، فإن نَظَرتَ إليها على حِدة، تجد الكافر أحياناً غنياً جداً، وقوياً ولا يعْبأ بكُلّ هذه القِيَم التي تدّعيها، ولا بهذه القيود التي قيّدْت نفْسَكَ بها، فإذا نظَرْت للدنيا فقط تقع في حَيْرة، ولكن إذا ضَمَمْت الآخرة إلى الدنيا لا تقع في حَيرة، يعني مثلاً إنسان يُهَرِّب مادّة مُخَدِّرة، تقول: يا أخي على الكيلو بخَمسمئة ألف ! لكن أنْظر لمّا يقع بيَد العدالة، ويُحْكم بالسِّجن المؤبد، فإذا جمعت هذا بذاك وجَدْت أنَّه غبيّ، أما إذا نظرت فقط للخمسمئة ألف يصير أذكى منك، كل تعبك لا يلحق به، شغل سنة لا يلاحق شغل ساعة عنده، فَمِن الخطأ الفادِح أن تنظر إلى أهل الدنيا في الدنيا فقط، فهذا خطأ كبير، فالله عز وجل قال:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

[سورة آل عمران]

العاقل من يجمع الآخرة مع الدنيا:

قد تُعْجِبُكَ أجسامهم، قد تُعْجِبُكَ أموالهم، وقد تُعْجِبك بيوتهم، ومركباتهم، وأماكن اصْطِيافهم:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ)

[سورة آل عمران]

في أيّ دِراسَةٍ، وفي أيّ موازنة، وفي أيّ بحث، وفي أيّ تَمْحيص، اِجْمَع الآخرة مع الدنيا، ترى الكافر كُتلة غباء لأنَّه ضيَّع الآخرة الأبديَّة بسَنواتٍ معدودة، وترى المؤمن المُقيَّد والخائف والمُستقيم، هذه حرام، هذه لا ترضي الله، هذه فيها شبهة، دائماً خائف، دائماً قلق، دائماً يتقصد طاعة الله عز وجل، ترى هذا المؤمن الذي يبدو لك أنه محروم، ليس محروماً أبداً، هو يبْحث عن رحمة الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

[سورة الزخرف]

خالق الكون، أعددت لعبادي الصالحين ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أذُن سَمِعَت، ولا خطر على قلب بشر، فيا أيُّها الأخوة الكرام، إذا أردْتَ أن تنظر إلى أهل الدنيا ينبغي أن تُضيف الآخرة إلى الدنيا، إذا أضفت الآخرة قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[سورة الذاريات]

العبرة بالخواتيم:

لكنّ الله تعالى قال:

(إِنّ الّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)

[سورة البروج]

وقال تعالى:

(إِنّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنّ الْفُجّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14))

[سورة الانفطار]

فلو أن شَخصاً ركب أفْخر مركبة، ولكن يؤخذ لِيُشْنَق وآخر يمشي على قدَمين، ويتّجه نحو تملّك قصْر كبير، فإذا التقيا في الطريق فهنيًا لِمَن ؟ العِبرة بالخواتم، العبرة بالعاقبة، بالمصير، لذا قال تعالى:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ)

[سورة الذاريات]

المؤمن يسعى دائماً لمرضاة ربه:

هذا الذي قال لك: إنّ هذا حرام لا أفْعَلُه وهذا لا أفعلهُ لِشُبهة فيه، وهذا لا يرضي الله عز وجل، وهذا الذي يضَعُ المال تحت قَدَمِهِ، إذا كان فيه شبهة، وهذا الذي يسعى لمرضاة الله تعالى ولو تجشّم المتاعب، قال تعالى:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ)

[سورة الذاريات]

هذا كلام رب العالمين، ولذلك قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدّنْيَا ثُمّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص]

الإنسان المستقيم مصيره يختلف تماماً عن الإنسان المتفلت:

أيُعْقَل أن يكون هذا المُطيع المستقيم الخائف الذي يتقصّى أمر الله عز وجل، ويسْعى إلى تطبيقه أن يكون مصير هذا الإنسان كَمَصير المتفلِت ؟! إذا لا معنى للدين إطلاقاً عندئذ، قال تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الّذِينَ اجْتَرَحُوا السّيّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية]

قال تعالى:

(أفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة]

قال تعالى:

(أفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

[سورة القلم]

الأحمق من انصرف عن الآخرة إلى الدنيا:

قال تعالى:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ)

[سورة الذاريات]

فالله تعالى حينما يُعِدُّ لهذا الإنسان حياةً أبَدِيّة لا تنتهي، مُفْعمة بالسّعادة، أليس من الغباء الشّدِيد أن ينصرفَ الإنسان إلى الدنيا ويستغني عن هذه الحياة التي وعد الله بها المؤمنين والحياة الدنيا ساعات ؟

قال تعالى:

(قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادّينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلّا قَلِيلاً لَوْ أَنّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114) أَفَحَسِبْتُمْ أَنّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ(115))

[سورة المؤمنون]

ترك الإنسان سدى يتناقض مع كمال الله عز وجل:

قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة]

أن تأخذ المال الذي تُريد، وأن تلتقي مع من تريد، وأن تستعلي، وأن تسْتكبر، وأن تَقْهر الناس وتنتهي الحياة هكذا ببَساطة ؟ ولا شيء بعد الموت ! هذا شيءٌ يتناقض مع كمال الله عز وجل، ويتناقض مع فلسفة الوُجود، قال تعالى:

(وَهُوَ الّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة الروم]

استقامة الإنسان تتعلق بأن كل شيء يفعله سوف يحاسب عليه:

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

[سورة طه]

هذه الآية أيها الأخوة، كحديث ذاك الأعرابي الذي قال للنبي عليه الصلاة والسلام عِظْني ولا تُطِلْ، فتلا عليه قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8)

[سورة الزلزلة]

فقال كُفيت، اكتفى هذا الأعرابي بآية واحدة، اكتفى، مثقال ذرة، ولو ابْتَسَمْت ابْتِسامة في غَير موضِعِها، فيها سخرية، مسجلة، وسوف تحاسب عليها:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

فإذا الإنسان أيْقَنَ من هذه الآية، أيها الأخوة، إذا أيقن أن كل شيء يفعله سوف يحاسب عليه، مهما بدا لك صغيراً، مهما بدا لك تافهاً، عندئذٍ يستقيم الإنسان.

النّظر إلى وجه الله الكريم من أعظم الإكرام يوم القيامة:

ثمّ يقول تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

[سورة الذاريات]

هم في طَوْر الإكرام، مضَى طَوْرُ العمل، ومضَتْ حياة التكليف، والآن حياة التَّشريف، ومضَتْ حياة الكَدح والجُهْد، والسعي، ومكابدة المشاق وحمْل النّفس على غير ما تريد ابتِغاء مرْضاة الله، هذه الحياة انتهت، بقيت حياة التّكريم، فالإنسان قد يقول لك درسْتُ ثلاثة وثلاثين سنة، انتهتْ الدِّراسة نال الدكتوراه، وعُيِّن في منْصِب رفيع، وهو الآن طَوْر التّكريم، المكتب الفخْم والأوامر، والموظفين، والسيارات، والبيوت الفخمة، مثلاً كل هذا التّعب، الآن جاء دور الإكرام، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

[سورة الذاريات]

من إكرام، لهم ما يشاءون فيها، نِظام الجنّة أساسه أنّ كلّ شيء يَخْطُر في بالِكَ تَجِدُهُ أمامك من طعامٍ وشرابٍ، وفواكه، وفوق كلّ هذه المُتَع السامِية رضوان الله عز وجل وفوق كلّ هذا النّظر إلى وجه الله الكريم، في حياةٍ مُتَجَدِّدة ومُتنامِيَة ومُتصاعِدة إلى ما شاء الله، وهذه الحياة الآخرة هي التي يسْعى إليها المؤمن.

الخلق عند الله سواسِيَة يوم القيامة:

قال تعالى:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

[سورة الذاريات]

الإنسان أحياناً إن وجَدَ شيئًا عظيماً يسأل ما ثَمَنُهُ ؟ إن وجَدَ سيارة فارهة يقول: كم قيمتها ؟ وإن وجد بيتًا فخمًا يقول: بكَم اشْتراه صاحِبُهُ ؟ فهذا السؤال الفِطري، قال تعالى:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16))

[سورة الذاريات]

بالمناسبة، لا يوجد شيء وعد الله به المؤمن إلا وفي يَدَيْه ثمنُهُ، إلهٌ عادِل والخلق عند الله سواسِيَةَ كأسنان المِشْط، ولا فضْل لِعَربيّ على أعْجميّ إلا بالتّقوى وسَلمان مِنّا آل البيت، ونِعْم العبد صُهَيب.

(تَبّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبّ)

[سورة المسد]

عدم وجود أي فضل لشخص على آخر إلا بالطاعة:

هذا الدِّين، الدِّين كما قال تعالى:

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

[سورة الحجرات]

والدِّين لا امْتِياز لِشَخص على إنسان إلا بالطاعة، وكلّ التَّقْييمات التي أحْدثها الإنسان عند الله باطلة، لا الغنيّ يرْفَعُهُ عند الله غِناه، ولا الفقير يخْفضه فقْرُهُ، ولا الصحيح ترفعُهُ صِحّتُهُ، ولا السّقيم يخفضهُ مرضُهُ، صحيح سقيم غني فقير وسيم دميم كبير صغير ؛ من أسرة ذات نسب، من أسرة غير منسوبة، هذه القِيَم التي أحدثها الإنسان في تقييم بني البشر، لا أساس لها عند الله أبداً، قال تعالى:

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

[سورة الحجرات]

أعظم قيمة للإنسان عند ربه تكون بالعلم و العمل:

أحدهم في غفلة سريعة، وفي سَبْق لِسانٍ، وزلّة لِسان قال لِسَيِّدنا بلال: **يا بن السّوْداء"** فقال عليه الصلاة والسلام:

((إنك امرؤ فيك جاهلية))

عظمة هذا الدِّين أنّ الخلق كلهم سواسِيَة كأسنان المشط، إن أكرمكم عند الله أتقاكم:

((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

يُمكن أن يكون الحاجب عند المدير العام يكون الحاجب أقرب إلى الله من المدير العام، ممكن، ممكن أن يكون أقرب إلى الجنة، باستقامته وخوفه من الله عز وجل، فهذا المبدأ يُعطي الإنسان دَفْعًا قويًّا، كُنْ ابن من شِئْت، ومن أيّ منطقة ولدت، ومن أيّ أب، من أي أمّ، ومن أيّ أسرة، ومن أي قبيلة، من أي عشيرة، ومن أيّ بلد أو إقليم، ومن أيّ عصر، من أي مصْر، بأي شكل، يروي كُتّاب التاريخ أنّ أحَدَ التابعين كان قصِير القامَة، أسْمر اللّوْن، أحْنفَ الرِّجل، مائِلَ الذّقن، ناتئَ الوَجْنتَيْن، غائِرَ العَيْنَيْن، وليس شيءٌ من قُبْح المَنظر إلا وهو آخِذٌ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيّد قومِهِ، إن غَضِبَ غضِبَ لِغَضْبَتِهِ مئة ألف سيْف لا يسألونه فيما غضِب، وكان إذا عَلِمَ أنّ الماء يُفْسِدُ مروءَتَهُ ما شَرِبَهُ، بأيّ شَكل، وسيم جداً، أقل وسامة، أقل وسامة بكثير، دميم، بأي شكل، الصحابة الكرام، أنواع منوعة، في أجسامهم، أحد الصحابة كان يقف فالرياح كشفت عن ساقه، ساقه دقيقة جداً، فضَحك بعض الصحابة من دقة ساقه، فقال عليه الصلاة والسلام:

((أتعجبون من دقة ساق فلان، هي والله عند الله كجبل أحد))

فكلها عنعنات جاهلية، أنا في قدر فلان، أبو لهب عم النبي، لا أسرة، ولا أم، ولا أب، بلا جهة الفلانية، بالعصر الفلاني، فأيّ قيمة وضَعها الناس، عند الله تعالى باطلة إلا قيمتي العِلم والعمل لقوله تعالى:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)

[سورة الزمر]

على الإنسان ألا يفتخر بشيء لم يرد في القرآن الكريم:

القيمة الثانية، قوله تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأحقاف]

فهذه نصيحةٌ عميقة ؛ إذا أردْتَ أن ترقى عند الله جميعُ القِيَم الأرضية ضَعها تحت قَدَمِك، وابْحَثْ عن قيمتي العِلم والعمل، وانتهى الأمر، قال:

كُن ابن مَن شئْت واكتَسِب أدباً يُغنيك محمودُهُ عن النّسَب

* * *

لا تفتَخِر بشَيء لم يرد في القرآن الكريم، إذا قلتَ: أنا أقرأ القرآن فهذا جيّد، وأحفظُهُ هذا أجوَد، وأفهمهُ وأطبّقُهُ وأعلِّمُهُ جيد، خيركم من تعلم القرآن وعلمه، أما إن قلتَ أنا أملِكُ من المال كذا وكذا، قال تعالى:

(إنّ قارُونَ كَانَ مِنْ قوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوز مَا إنّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أولِي الْقُوّةِ إذْ قالَ لَهُ قوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرحِينَ)

[سورة القصص]

الافتخار ليس من خلق المؤمن:

أعطاهُ المال الوفير الذي تَعْجزُ عن حَمْل مفاتحِهِ سبعة رجال أشِدّاء أقوياء، ومع ذلك هو لا يحبه، أنا أحتل العمل الفلاني، عمل حساس، من خلاله معي قدرة على التحكم بمصير الآخرين، فالله أعطى الملك لِفرعون وهو لا يحبّه وأعطاه لِسُليمان وهو يحبّه، ليس له علاقة، أعطاه لِمَن يحبّ ولِمَن لا يحب، إذاً ليس مقياساً، لا تفتخر بمقياس غير صحيح، افتخر بالعلم والعمل الصالح، إن أردت أن تفتخر، والافتخار ليس من خلق المؤمن، لذلك قال تعالى:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبّهُمْ إنّهُمْ كَانُوا قبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ (16))

[سورة الذاريات]

يعني مِن أرْوَع ما في كتاب الله الصِّفات المطلقة ؛ مُحْسِن إذاً مُحْسِنٌ بماذا ؟ مُحْسِنٌ بعمله ؟ بعمله، وبحِرفِتِه ؟ بحرفته، وبزَواجِهِ ؟ بزواجه، وبأبوّتِهِ ؟ بأبوته، وبِبُنُوّتِه ؟ ببنوتهِ، ومحسِنٌ مع جيرانه ؟ مع جيرانه، مع أقربائه، مع أصدقائه، مع زبائنه، ومع مَن هم أدنى منه، و مع من هم أعلى منه، ومُحْسِن حتّى في علاقته بِجِسْمِهِ، حتى في علاقتِهِ بأهْلِهِ، وحتّى في صَنْعَتِهِ.

إتقان عمل الإنسان جزء من دينه:

النبي عليه الصلاة والسلام أثناء دفن أحد الصحابة ترك فرْجة فقال عليه الصلاة والسلام:

((هذه لا تؤذي الميّت ولكنها تؤذي الحيّ إن الله يحب من العبد إذا عَمِل عملاً أن يُتْقِنَهُ))

إتْقانُ العمل جزءٌ أساسي من الدّين، إتقان العمل يورثُكَ العِزّة، قال تعالى:

(لِلّذِينَ أحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قتَرٌ وَلَا ذِلّةٌ أولئِكَ أصْحَابُ الْجَنّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

[سورة يونس]

تستمِدُّ عِزّتَكَ ومكانَتَك مِن إتْقان عَمَلِك، وكلّ واحد من إخواننا الكرام، بأيّ حِرْفة إذا أتقنها له شأن، تَجِدُهُ مُحْتَرَم ومُبجّل وعزيز، أما إذا أهْمَل وأساء يأتيه اللّوْم مِن كُلّ جانب، ثمّ يُسْحَبُ اللّوْم إلى دينه، ثمّ إلى مُقدّساته، فإذا أردْتَ أن يعْتزّ الإسلام بِكَ أتقنْ عملك.

فالناس يعجبون دائماً بالعمل المتقن، فالطبيب المسلم ينبغي أن يكون أعلى طبيب، والمُحامي المسلم أعلى مُحامي، محامي ذو مبدأ لا يأخذ القضايا الباطلة، والمهندس كذلك، والتاجر والصانِع، فكلّ إنسان له حِرْفة ينبغي أن يكون في قِمّتها ليتناسب مع دينه، لأنّ إتقان العمل جزء من الدّين.

على الإنسان أن يكون محسناً في كل شيء:

إذاً:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16))

[سورة الذاريات]

يجب أن نفْهم الإحسان بِأوْسَع معانيه، الإحسان في كل شيء، يذبح الحيوان، وإنّ الله كتب الإحسان على كلّ شيء:

((إنّ اللّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذّبْحَةَ وَلْيُحِدّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

[رواه النسائي عن شداد بن أوس]

في شأنك كُلِه ينبغي أن تكون مُحسِناً، أحياناً الإنسان في حرفته يخطئ مع السرعة يُسيء، يأتيه اللّوْم من كلّ جانب، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين، ثمّ الإحسان تعرفُهُ بالفِطرة، إذا كنت تاجراً، وقد ورد بالأثر:

((إنّ أطْيَبَ الكَسْب كَسْبُ التُّجار، الذين إذا حدّثوا لم يَكذِبوا، وإذا وَعَدوا لم يُخلِفُوا، وإذا ائْتمنوا لم يخونوا، وإذا اشْتَروا لم يُذمّوا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان لهم لم يُعَسِّروا، وإذا كان عليهم لم يُمْطِلوا))

أحسن في التجارة، أحسن في الصناعة، ضع المواد الجيدة.

المحسن يتلقى من ربه سكينة و طمأنينة على إحسانه:

أخٌ كريم لا أنسى كلمته، يعمل في صِناعة غِذائِيّة قال لي: هؤلاء أطفال المسلمين، أشتري لهم المواد الأوليّة مِن أعلى مُستوى، يدفع ثمن هذه القطعة من الحلوى مبلغاً أخذه من أبيه، وقد تعب هذا الأب حتى جنى هذا المبلغ من المال، أعطى لابنه هذا المبلغ الصغير، ليشتري به حلوى، ينبغي أن نضع له

في الحلوى أعلى المواد المغذية النافعة، غير المسرطنة، غير الكيميائية، إذا الإنسان أحسن فيما بينه وبين الله، الله عز وجل يدافع عنه فيما بينه وبين الناس.

ميزة المؤمن أنه لا يتعامل مع الخلق، يتعامل مع الحق، فإذا رَضِيَ الله عنه حُلّتْ كلّ مُشْكِلاته، ولمّا الإنسان يقْصِد أن يُرْضي مَخلوقاً ويَعْصي خالقه يسْخَطُ الله عنه، ويُسْخِطُ عنه الناس، أما إذا أردْت أن ترضي الله عز وجل، رضِيَ الله عنك، وأرْضى الناس عنك، وكلمة مُحْسِن (أرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الكلمة في قلوبنا) لأنّ رحمة الله قريب من المحسنين ؛ المحسن يتلقى رحمات الله، سكينة وطمأنينة وثقة بالنفس، التفاؤل، معنويات عالية، وتوفيق بالعمل، وتوفيق ببَيْتِهِ وزواجِه وبأولاده، محسن، فلذلك الإنسان عليه أن يُحْسِن وعلى الله الباقي.

العمل الصالح ثمن الجنة:

أُخاطِب الآن أصحاب الحِرَف جميعاً، وأصحاب الوظائف جميعاً، وأصحاب الأعمال جميعاً ضَعْ إتْقان العمل أمامك، والمادّة وراء ظهْرك، تأتيك المادّة وزيادة، أما إذا وَضَعتَ المادّة أمامك، والإتقان خلفك، تفقد سمعتك، وتفقد المال معاً، في أي حرفة، ضع الإتقان أولاً، خِدمة المسلمين أوّلاً، وقد كان السّلف الصالح إذا فتَحَ الواحِد منهم باب محله التجاري يقول: نَوَيْتُ خِدمة المسلمين، وكلّ واحِدٍ مِنّا يُمكن أن ينقلب عملُهُ ببساطة إلى عِبادة وأنت في مَتْجَرِكَ، و أنت في معْمَلِكَ، وأنت في مكتبك، و أنت في حِرْفَتِك، فيكفي أنّك عرفْت الله وعرفْت أنّك في الدنيا من أجل العمل الصالح، وعرفت أن العمل الصالح ثمن الجنة، وعرفت أنّ كلّ هؤلاء الناس عباد الله وعِياله، فإذا أحْسنت إليهم تقرّبت إلى الله عز وجل، وحينها يختلف الوضع اختلافاً كلياً، تنطلق الآن لا من كسب مادي، ولا من جميع للثروة، ولا من تيه وفجر على من حولك، لا، تنطلق من إرْضاء الله عز وجل.

أي عمل يبتغي به الإنسان وجه ربه ينقلب إلى عبادة:

قال العلماء: أيّ عمل إذا كان في الأصل مَشْروعاً، وسلكت به الطرق المشروعة، وابْتَغَيْتَ به كِفاية نفْسك، وأهلك، وخِدمة المسلمين، ولم يشْغَلْك عن فرْضٍ، و لا عن واجِبٍ، ولا عن طلب عِلمٍ، انْقلبَ هذا العمل إلى عِبادة، وأنت في متجرك تعبد الله، وأنت في قاعة التدريس تعبد الله، وأنت في مكتبك تعبد الله، وأنت في معملك تعبد الله، فالدّين يتَغَلْغَل في كلّ كيان الإنسان، وفي كلّ مناحي الحياة، وفي كل الأوقات، وفي كل المناحي مكاناً، وفي كل الأوقات زماناً، وفي كل كيان الإنسان عمقاً، في الزمان والمكان والعمق، يعني إذا كنت في نُزْهة فأنت في عبادة الهدف أن تدخل على أهلك السُّرور، وإذا

اشْتَرَيْت ثِياباً لِتَرتديها فأنت في عِبادة، إنك تهدف أن تظهر أمام الناس وأنت محسوب على المسلمين، بمظهر لائق، فالله تعالى قال:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبّهُمْ إِنّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16))

[سورة الذاريات]

من صفات إتقان العمل الصدق و الأمانة و إنجاز الوعد:

أصحاب الحِرف أحياناً يسيؤون إساءة بالغة، الحياديون لا مع المؤمنين ولا مع غير المؤمنين، هؤلاء إذا جاء إنسان له مظهر ديني، وعمل عندهم في البيت عملاً، وأساء، هؤلاء الحياديون يبتعدون عن الدين مسافات بعيدة جداً، فالقضيّة خطيرة جدّاً، أنت حينما تسيء ومعروف عند الناس أنك مؤمن وصاحب دين وتصلي ولك مظهر ديني، فإذا أسأت جررت إلى دينك النفور، سحبت إلى الدين كل الإساءة، وأنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يُؤْتيَنّ مِن قِبَلِك، أعْطِ وعْداً دقيقاً، واذْكُر المواصفات الصحيحة، وضِّح السِّعر والشّروط، ولا تدع الأمر في جهالة لأنّ الجهالة تُفضي إلى المنازعة.

إنّ هذا الدِّين قد ارْتَضَيْتُهُ لِنَفسي ولا يُصلِحُهُ إلا السّخاءُ وحُسْن الخلق، فأكرموه بهما ما صَحِبْتُموه، فأقلّ مظْهر من مظاهر الدِّين أن تُصلِّي في المسْجِد، وأكبر مظْهر أن تُتْقِنَ عملك وتكون صادِقاً، وأن تكون أميناً، وأن تكون وفِيّاً بالوعد، أن تُنْجِز العهد، وأن تكون متواضعاً، المظهر الصالح للدِّين هذا، لأنّ سيّدنا جعفر لما أجاب النّجاشي عن حقيقة الدِّين ما قال له كنا نصلي ونصوم، قال: كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ونقطع الرحم، ونسفك الدماء، حتى بعث الله فينا رجلاً، ما قال يصلي، قال: نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه، ونسبه، فدعانا إلى الله لنعبده، ونوحده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، هذا الدين، فالدِّين مجموعة قِيَم أخلاقيّة.

المؤمن لا يُسَخِّر القِيَم ولا يسْخَر منها:

لذلك لما تقلّص الدِّين وانْكمَشَ، حتى أصبَحَ رُكَيْعاتٍ تؤدّى جوفاء، وطقوساً تمارس من دون معنى انتهى الدين، و الآن لا بدّ لهذا الدِّين أن يُجدّد:

((بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

كيف يُجَدّد ؟ بالعمل، حدّثني أخٌ مِن إخواننا الكِرام أنّه وقف موقفًا أخلاقيّاً وفيه مؤاثرة، الذي يرأْسُهُ في العمل علِمَ هذه المؤاثرة، وهذا الموقف الأخلاقي، قال لي: والله ما دَعَوتُهُ إلى المسجد أبداً إلا أنَّه في

الدرس القادم وجَدْتُهُ بين الأخوة المصلين، ما قلت له ولا كلمة، تعال إلى المسجد، رأى موقفاً أخلاقياً، موقفا يلفت النظر، لم يفعله أحد ممن حوله، بدافع دينه فعله، فرأى هذا الإنسان بين صفوف المصلين في الدرس القادم، هكذا يمكن أن تدعو إلى الله وأنت ساكت، ولا كلمة، استقامة، صدق، رجل يبيع مواداً غذائية وله درس في مسجد، قال له: هل عندك بيض ؟ فقال: نعم، فقال الزبون: هل هو طازج ؟ فقال الأخ: له أربعة أيام، ولكن جاري قد أحضر الآن البيض، هذا أبلغ من آلاف المحاضرات، الكلمة الصادقة أبلغ من ألف محاضرة في الدين، ونحن نريد مسلمين من هذا الطِّراز، صادق لا يكذب، وأمين لا يخون، لا يحيف، لا يمشي مخاتلة، ولا يَحتال، وله وجْه واحِد، سره كظاهره، وسريرتُهُ كظاهره، وجلْوتُهُ كَخَلْوَتِهِ، ولا تأخذه في الله لومة لائم، والدنيا كلّها تحت قدَمِهِ، إذا جرته إلى معصية، هذا المؤمن، لا يُسَخِّر القِيَم ولا يسْخَر منها، هناك من يسخر من القيم، هناك من يسخرها لمآربه، يركب القيمة، يدّعي أنّه صالح و أنه يسعى للخير، فهو يطوف على الناس من أجل أن تعمّر الأرض مسجداً وأخذ أقلّ سِعر، فصاحب الأرض باعهُ إيّاها بِثَمن رمزي، فلمّا تملّكها أنشأ بيتاً وسكنَهُ، فهناك مَن يسَخِّر القِيَم، وهناك من يسْخر منها.

الكلمة الصادقة سلاح المؤمن:

أيها الأخوة، الآن فيما أرى أنّ المُمَارسات التي تُناقض الأقوال سبَّبَتْ في أن يكْفر الناس بالكلمة، فالكلمة لم تعُد لها قيمة، لأنّ هناك من يقول كلاماً مَعْسولاً، وله فِعلٌ آخر، وهذا التناقض بين الأقوال والأفعال، سبب للناس جهلهم بالكلمة، وإذا أردنا إحياء هذه الثقة بالكلمة لاحْتجنا إلى العمل الذي يُؤكِّد القَول، لذلك نحن لا نريد إنساناً عباداته صارخة، أحيانا تجد المسجد مليء، نريد إنساناً أعماله صارخة، نزاهته صارخة، واستقامته صارخة، والتِزامه صارخ، وبيته إسلامي، وعمله إسلامي، ودَخْلُهُ إسلامي، وإنفاقهُ مضبوط، ولا يكذب، هذا الشّخص يُعيد الثِّقة القُدْسيّة الكلمة، فالأنبياء جاءوا بالكلمة وهذا الإسلام الذي عمّ الخافقين، بماذا جاء الإسلام ؟ جاء بالتكنولوجيا ؟ لا، لم يأت بشيء لا جاء بطائرة، ولا جاء بغواصة، ولا ببارجة، ولا بأجهزة اتصال، ولا بكمبيوتر، ولكن جاء بالكلمة الصادقة، الكلمة الصادقة سلاح الأنبياء.

فإذا عاملْت المؤمن يجب أن تعتقد أنّ موتهُ أهْوَنُ عليه من أن لا يَفِيَ بعَهده طبعاً من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدّثهم فلم يكذبهم، و وعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته، هذا المؤمن، وبقدر ما تكون أخلاقياً يلْتفّ الناس حولك، وبقدر ما تكون أخلاقياً يتْبعك الناس في سَيْرك الصحيح.

هداية الناس أعظم عمل على الإطلاق:

أعظم عمل على الإطلاق (دققوا في هذا الكلام) فيه تجارات رابحة، فيه معامل إنتاجها غزير جداً، وبضاعة مباعة لسنتين قادمتين، فهناك شركات متعددة الجنسيات، هذه شركة كمبيوتر لبيع الأجهزة، اشْتَرت شركة ثانية، والثانية حجمها بالنسبة للأولى كالذبابة إلى الفيل، وثمن الذبابة ثلاثمئة ألف مليون دولار، فكم هو الحجم المالي للشركة الكبيرة ؟ فقد يكون لك شركات رابحة جداً، وأعمال كبيرة جداً، و دَخل فلكي، وإنفاق فلكي ومكانة عليّة، ولكنّ أعظم عمل على الإطلاق فيما ذكرهُ الصادق المصدوق، قال :

((يا علي: لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها))

بعض البلاد الصِّناعيّة كاليابان عندها مئة مليار دولار كل سنة فائض هي في حَيرةٍ كيف تُنفقهُ، ليس له مكان استثمار، مئة مليار كل سنة، لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، بكلمة الطيّبة، بمعاملة طيبة، بصبر، بتأن، بلقاء، اثنين، ثلاثة، يعني الإنسان إذا عرف يتكلم، يتكلم، إذا لم يعرف، يعطي شريطاً، إذا لم يعرف لا هذه ولا هذه يكون محسناً، وإنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسَعوهم بأخلاقكم، فلأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس، الرواية الأولى، خير لك من حمر النعم، الثانية، خير لك من الدنيا وما فيها.

مقام الإنسان عند ربه متعلق بعمله:

الإنسان بعمله، وجد شخصاً عنده أخلاقا عالية، يوجد حياء، يوجد أدب، عنده قِيَم، يجب أن يطْمَعَ في هِدايته أن يطمع في ضمه إلى مجموع المؤمنين، بالكلمة الطيبة، بالخِدمة الصادقة، والمنطق القوي، بالحجة الدامغة، بالمعاملة الطيبة، بالنزاهة، أنت بإمكانك أن تجلب الناس، وأن تحملهم على طاعة الله تعالى، وإذا سخّرك الله لأناسٍ طيّبين فهذه من أعظم النِّعم، أن يستخدمك الله في الحق، وكلما ألتقي بأخ كريم له عمل طيب، أطمئنه بهذه الكلمة، إذا أردْت أن تعرف مقامك فانْظر فيما اسْتَعملك، فهناك الطبال، والمغني، وهناك شخص أعماله خسيسة، وهناك من يقوم الليل بالدشّ، قيام ليل إلى الساعة الرابعة، بالوحل يعيش، بالمجاري، وهناك من يقرأ القرآن ويدعو الله ويُصلي، فإذا أردت أن تعرف مقامك، فانظر فيما استعملك.

المؤمن الحق من يسعى لخدمة الخلق و الدعوة إلى الله:

لذلك أيها الأخوة، لا يوجد إنسان في قلبه ذرّة إيمان إلا وهذا الإيمان يُعَبّر عن ذاته بذاته، بحركة نحو خدمة الخلق، لا يوجد مؤمن سلبي، المؤمن في قلبه غَيرة، في قلبه حبّ للآخرين، في قلبه غيرة على دينهم، وعلى آخرتهم، وعلى سعادتهم، فكل إنسان في قلبه إيمان، الإيمان يعبر عن ذاته بخدمة الخلق، يعبر عن ذاته بالدعوة إلى الله، ويسعى لِسعادة إخوانه، الإيمان يعبر عن ذاته بالأمر بالمعروف، و يعبر عن ذاته بالنهي عن المنكر، لا أمر بالمعروف، ولا نهي عن المنكر، ولا إنفاق المال، ولا إعمار مسجد، ولا إعمار ميتم، ولا خدمة، ولا صدقة، ولا شيء، وكان همّه بيْتُهُ، وترتيب بيته، ونزهاته، وانْغِماسه في الملذّات، وعلى الدنيا السلام، فهذا الإنسان إيمانه مهزوز، هذا إذا قلنا فيه إيمان، والأرجح أنه بعيد عن الإيمان. قال تعالى:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16))

[سورة الذاريات]

على الإنسان أن يقول الحق و أن يعمل له:

فنحن نريد إحساناً، المؤمن عمله متقن، وعدهُ صحيح، ولا يكذب أبداً، المؤمن لا يكذب، قل الحق ولا تأخذك في الله لومة لائم، قال لي أخ: عندي قطعة لسيارة، بقيت عنده خمس، ست سنوات، من جرد لجرد، وغالية، حقها عشرون أو ثلاثون ألفاً، لشاحنة كبيرة، جاءه زبون، لما قال له أريد هذه القطعة، كأنه عبء جبل أزيح عنه، ذهب لإحضارها، قال له أصلية ؟ قال وأنا على السلم، وقعت في صراع لأنها ليست أصلية، قال له ليست أصلية، قال له هاتها، بكلمة أصبح البيع حلالاً، وبكلمة أصبح حراماً، فلا تأخذك في الله لومة لائم، فالذي يقول لك: إن لم نكذب لا نعيش، هذه لا آية ولا حديث أساساً، هذا كلام الشيطان، اُصدق تعيش، وتربح، والله تعالى يرفعُ شأنكَ، فقط كلمة، إما أن ترفعك وإما أن تخفضك، وكلما توهّمت أنّه بالكذب رُزق فأنت مع الشيطان لا سمح الله، الرّزق مع الحق، ومع الصدق.

مطعم كان يبيع خموراً، وأحد الأخوة أقْنعَهُ مراراً حتّى أقْلع عن بيع الخمر، وإذا قلت لكم أن غلته أصبحت خمسة أضعاف لا أبالغ، عشرة أضعاف لا أبالغ، يوجد محل بشمال سورية، كاتب على المحل، ممنوع شرب الخمر بأمر الرب، والرزق على الله، تأتيه الساعة العاشرة، لا تجد مكاناً عنده، الساعة التاسعة، لا يوجد لحم، الثانية عشر، الواحدة، الثانية، الثالثة، الرابعة، أبداً، دائماً يوجد عنده ناس، صار غير المسلمين يضع اللوحة نفسها، غير المسلمين، ممنوع شرب الخمر بأمر الرب،

والرزق على الله، لكن لا زبائن، لذا عليك أن تتيقّن أنّ الحق هو الذي ينبغي أن تعمل له، ولا تأخذك في الله لومة لائم.

الإنسان الأحمق من يأكل أموال الناس بالباطل:

الوقفة كانت عند كلمة محسنين:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16))

[سورة الذاريات]

هل أنبئكم من هو الغبي ؟ الغبي كلّ الغبي هو الذي يُسيء للخلق، ويظنّ نفسه ذكيّاً وشاطراً، وغشّ الناس ولم يدروا، وجمع ثروة ضَخمة، أحد طلابي قديماً له خال صاحب دار سينما جمّع ثروة طائلة، القصة وهذه سنة الخامسة والستين، كان معه خمسة ملايين ليرة، وأصيب بمرض خطير (سرطان بدمه)، قال لي دخلت عليه وهو يبكي، فلما سأله عن سبب بكائه، قال له: أنا جمعت هذا المال لأستمتع به، و هاأنذا سأموت في مقتبل حياتي، طبعاً إذا أنت جمعت المال على حساب أخلاق الشباب لن تهنأ به، كل إنسان يسيء، يأكل مال الناس بالباطل، بالغش، بالاحتيال، بقوته، بهيمنته، بذكائه، بإمكانياته، يأخذ ما ليس له، والقضية مشت، وانطلت على الناس، هو أغبى الأغبياء.

الذكي و العاقل من يستقيم على أمر الله:

الذي يأخذ ما ليس له، لا بدّ أن يدْفع الثّمَن باهظاً في الدنيا قبل الآخرة، لذلك الذكي والعاقل هو الذي يستقيم، إذا انطلق الإنسان من حبه لذاته، إذا انطلق الإنسان من إفراطه في حبه لذاته يستقيم، قال تعالى:

(فَوَرَبّكَ لَنَسْأَلَنّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[سورة الحجر]

وقال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

[سورة الزلزلة]

الإحسان يأتي من اتصال الإنسان بالله عز وجل:

الكل محسوب، إذاً هذا الإحسان مِن أين جاءهم ؟ النفسية العالية، حبّ الخير، والإنصاف، والغيرة، و العِفّة، العِفّة والغيرة والإنصاف وإتقان العمل والصِّدق والأمانة، هذه الفضائل النبيلة جداً ؛ مِن أين ؟

من اتِّصالهم بالله عز وجل، ولأنّ الله تعالى مَنْبَعُ الكمال، وأنت بقدر اتِّصالك بالله تكون كاملاً قال تعالى:

(كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)

[سورة الذاريات]

علاقة رائعة جداً، بقدر ما أنت مُتَّصِلٍ بالله بقدْر ما أنت كامل، و بقدر بُعدك يوجد نقصك، انقطاع تام، نقص تام.

كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ: آية لها عدة معان:

1 ـ هؤلاء الذين قاموا الليل نومهم عبادة لله عز وجل:

قال تعالى:

(كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18))

[سورة الذاريات]

العلماء تساءلوا حول هذه الآية، إذاً: كانوا كثيراً من الليل ما يسجدون، لماذا ذكّر الله تعالى نومهم، ولم يذكر تهجّدهم ؟ أي حسب المنطق البشري، كانوا كثيرا ًمن الليل ما يتهجدون، قال لك: كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، الهجوع نوم خفيف، لذا قال العلماء إن في هذه الآية إشارة إلى أن هؤلاء الذين قاموا الليل نومهم عبادة لله عز وجل،أي استلقى حتى يستأنف، نوم المؤمن عبادة، وكأنه يعبد الله عز وجل.

2 ـ يستغفرون الله على أنهم لم يستطيعوا أن يكونوا في الطموح الذي يُريدونه:

شيء ثان:

(كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18))

[سورة الذاريات]

ويستغفرون الله عز وجل لأنَّهم هجعوا من شِدَّة تعلّقهم بالله عز وجل، يستغفرون الله على هجوعهم، وأيضا يستغفرون الله عز وجل على أنهم لم يستطيعوا أن يكونوا في الطموح الذي يُريدونه، وما من واحد من المؤمنين وأنا متأكد، إلا ويطمح في مرتبة هو دونها، يقول لك: يا ليتني أنفق مالي كله، لكن مضطر، يا ليتني أقرأ الكتب التالية ولكن لا يوجد وقت، ويا ليتني أخدم الناس خدمة جيدة، دائماً المؤمن نيَّتُهُ خير من عمله، دائماً، فهم يستغفرون الله عز وجل على أنّ أعمالهم لم تكن في مستوى طموحاتهم أو لأنَّهم هجعوا قليلاً.

الاستغفار و الإنفاق أساس إيمان الإنسان:

أيها الأخوة، مركز الثِّقل في هذه الآيات الإحسان، الإحسان سببه الاتِّصال بالله تعالى، قال تعالى:

(كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18))

[سورة الذاريات]

الآن الصلاة عبادة، والصوم عبادة، لكن لا يكلف، يتوضأ ويصلي ويقرأ القرآن ولكن مِصْداقيّتُهُ في الإيمان بالإنفاق، قال تعالى:

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة الذاريات]

الله عز وجل قال في آية أخرى:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة آل عمران]

إنفاق المال علامة حب الإنسان لربه و سعيه إلى الآخرة:

المتّقون لهم آلاف الصِّفات، ربنا عز وجل بدأ بصِفة أساسيّة، قال تعالى:

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة آل عمران]

وما سُمِّيَت الصَّدَقة صدقة إلا لأنّها تؤكِّد صِدْق إيمان صاحبها، لأنّ الحقيقة المال مُحَبَّب، وطبعك يقتضي أن تأخذ المال، أما إنفاقه غير محبب، خلاف الطبع، فعلامة إيمانك بالله، وعلامة حبّك له، وعلامة سعيك للآخرة، هي إنفاق المال:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17))

إنفاق المال في سبيل الله أشرف طريق على الإطلاق:

الإنسان حينما يعلم أنّ الدِّرهم الذي ينفقه في الدنيا يراه كأُحدٍ يوم القيامة يدهش، فالمال تنفقه في طرقٍ شتّى إلا أنّ أشرف طريق أن تنفقهُ في سبيل الله تعالى، وإنفاق المال له أهداف لا يعلمها إلا الله، فهناك من يجبره المال، إنسان يتزوّج، لما قدمت لإنسان مبلغاً من المال تزوج به، لما تزوج جبر خاطر فتاة، أهل الفتاة كلهم فرحوا، البنت جاء نصيبها، الذي أعطى المبلغ للشاب، والشاب اتخذ قراراً بالزواج، كل إنسان فرح.

مرة دخلت بيتاً، كان الأب مصاباً بمرض، وإنسانة كريمة دفعت قيمة العملية الجراحية، وجدت أولاده يرقصون من الفرح بعد نجاح العملية، فهذه التي دفعت المبلغ من المال في سبيل أن ترضي الله عز وجل، كم من إنسان سعد بهذا المبلغ ؟ فلو يعلم الأغنياء أنّ الأموال التي بأيديهم بإمكانهم أن يصِلوا بها إلى أعلى درجات الجنة.

إنفاق الإنسان للمال له أجر لا يعلمه إلا الله:

إخواننا الكرام: هذه حقيقة أريد أن أقولها لكم، كلّ إنسان بما آتاه الله يمكن أن يتفوّق، فالذي تعلّم يُعَلِّم، تفوق، هذا ليس معه مال، والذي كان غنياً ًبإنفاق ماله قد يصل إلى المرتبة التي وصل إليها العالم، هذا بماله، وهذا بعلمه، يوجد إنسان قوي بإنصافه، وخدمة الناس، إحقاق الحق، إزهاق الباطل، ونصر المظلوم، يرقى، إنسان قدم المال والمال شقيق الروح، وإنسان قدّم العِلم، إنسان قدم خدمة، وآخر ربّى ولداً صالحاً ينفع الناس من بعده، إذا أتقنت عملك تدخل الجنة، كنتَ أباً كاملاً أو ابناً كاملاً، أو تاجراً نصوحاً، صانعاً متقناً، أو مزارعاً خيّراً، فلا يوجد عمل يستعصي على أن تتَّخذِهُ سلّماً إلى الله عز وجل، وإلى مرضاة الله، فليس الدعاة وحدهم ذهبوا بالخير، كل إنسان ينفق ماله له عند الله أجر لا يعلمه إلا الله، الحياة تعاون.

ممكن الطبيب بطِبِّه والمهندس بهَندسته والداعية بدَعوته والمُحسن بإحسانه، أقرب مثل المسجد من عمَّره كان له أجر، ومن صلى فيه إماماً له أجر، والذي خطب فيه له أجر، ومن درّس فيه له أجر، فكلهم من عُمّار المساجد.

كل إنسان يرقى عند الله بما آتاه:

لا تظن أنه يوجد عمل هو العمل الوحيد الجيد، كل إنسان باختصاصه يمكن أن يصل إلى أعلى مرتبة، باختصاصه إذا أتقنه ونوى به خدمة المسلمين، فالغني بماله يرقى، والعلم بعلمه يرقى، والقوي بقوته يرقى، والصانع بصنعته يرقى، وكل إنسان يرقى بما آتاه الله، أبلغ كلمة:

(وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة البقرة]

كنت مرّة بحفل إنهاء كتاب الله حفظًا، فالذي كان عريف الحفل، شكر الطلاب الذين أقبلوا على حفظ القرآن وتجويده، كلام طيب، وشكر الذين قاموا بتَدريسهم خلال عام بأكمله، شيء جميل، وشكر الذين استمعوا إليهم وأعطوهم العلامات والدرجات، ولكن الذي أشْعرني بقيمة المال، طبعاً هناك بعض

الأشخاص قدموا جوائز مجزية، عمرة لكل حافظ قرآن كريم على حسابه، أناس قدموا عشرة آلاف لكل حافظ قرآن كريم، لفت نظري في عريف الحفل أنّه قال: والذين قدّموا أموالهم ابْتغاء مرضاة الله، والمال شقيق الروح، ليسوا أقلّ أجراً من هؤلاء، ترقى بمالك، ترقى بعلمك، ترقى بعملك، ترقى بأي شيء، أي شيء أعطاك الله إياه ترقى به، فالباب مفتوح أمامك.

رحمة الله تشمل كل إنسان بما أقامه الله:

إذا الإنسان آتاه الله اختصاص هندسة، والله شيء جميل، طبعاً اختصاص هذا، إنسان آتاه الله طباً، يطبب المسلمين، بتواضع، بأدب، دون ابتزاز لأموالهم، دون تضخيم لمشاكلهم، من دون طعن بالآخرين، مع رعاية تامة، مع متابعة، شيء جميل، وكلّ شخص يقدر أن يدخل الجنّة من أوسع أبوابها، باختصاصه، وعمله، فرحمة الله ليسَت محصورة بفِئة واحدة، إياك أن تظن هذا، رحمة الله واسعة، وكل واحد فيما أقامك الله، بإمكانك أن تصل إلى أعلى درجات الجنة، فما أقامك الله عز وجل، وهذه حقيقة أساسية، وبالطريقة هذه تجد أن الحياة تعاون.

أنت قدمت لقمة طيبة ونظيفة وصادقة لهؤلاء المسلمين، لك أجر، بهذه الطريقة صار الإنسان يتعلم، ومجال عمله اختصاصه، باختصاصه يرقى عند الله عز وجل.

الزكاة فرض على كل مسلم و مسلمة:

إذاً الله تعالى يقول:

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة الذاريات]

هناك إشارة لطيفة، يوجد آية أخرى:

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ)

[سورة المعارج]

قالوا هذه خاصّة بالزكاة، أما وفي أموالهم حق من دون معلوم ففي الصدقة، وفي المال حق سوى الزكاة.

عدم دفع الزكاة يؤدي إلى محق المال و إتلافه:

قال تعالى:

(وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

[سورة البقرة]

هذه غير هذه، الزكاة فرض، فأنت ممكن أن تدفع مثلاً (للتشبيه والتمثيل) الضريبة، وبهذه الضريبة تتلافى المصادرة، والمضاعفة، والجزاء، هذه فرض، أما كونك مواطن صالح ممكن أن تقدم مستوصف، هذا غير الضريبة، هذا يرقى بك كثيراً، يعني بالمفهوم المدني، كذلك إن أدّيتَ زكاة مالك نجَوت من محق المال وإتلافه.

إنفاق المال يرقى بالإنسان عند ربه:

أما حينما تنفق فوق الزكاة على الفقراء والمساكين حباً في الله عز وجل هذا ترقى به أكثر:

(وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ)

مهمة الإنسان أن يبحث عن الإنسان المتعفف الذي لا يسأل:

فالعلماء قالوا هذه الآية فيها إشارة إلى الصدقات لا إلى الزكاة، الزكاة:

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ)

أما في هذه الآية:

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

السائل الذي يسأل، والمحروم هو المتعفّف والذي لا يسأل فيحرم، فأنت مهمتك أن تبحث عن هذا الذي لا يسأل، عن هذا الند المتعفف الذي يحسبه الجاهل غنياً، مهمتك الكبرى الآن أن تبحث عن هؤلاء وما أكثرهم، لا أقول وتعرض عن الذين لا يسألون لكن الذي يسأل يعني أقل مرتبة من الذي لا يسأل:

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

وفي درس آخر إن شاء الله تعالى، ننتقل إلى قوله تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23))

[سورة الذاريات]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الذاريات 051 - الدرس (3-7): تفسير الآيتان 20-21 ، آيات الله الدالة على عظمته

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-07-07

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الذاريات، ومع الآية الكريمة العشرين.

الارتقاء إلى اليقين لا يكون إلا بالقناعة التامة:

قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

أي يا عبادي إذا أردتم اليقين، ففي الأرض آيات للموقنين.

اليقين أيها الأخوة شيء يختلف عن الوهم، وعن الشكّ، وعن الظنّ، واليقين قطعي، واليقين مع الدليل، واليقين الواقع يؤيّدُهُ، واليقين لا يُخالطه ريب ولا شك، قال تعالى:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6))

[سورة التكاثر]

والإنسان أيها الأخوة (ودقِقوا في هذا الكلام) إذا أيْقَنَ تحرّك، سُلوك الإنسان أساسه اليقين، إذا أيقن الإنسان أن في هذا الشيء شراً مُحقَقًا يبتعد عنه وإذا أيْقن أنّ في شِراء هذه السِّلعة رِبْحًا مُحققاً يشتريها، لاحظ نفسك، حينما تقتنعُ قناعة تامّة ترتقي إلى مستوى اليقين لا بدّ مِن أن تتحرّك، لابد من أن تستجيب، لابد من أن تلتزم، قال تعالى:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6))

[سورة التكاثر]

اليقين يفضي إلى طريق الحق:

الوهم ثلاثون بالمئة، أما الشك فخمسون بالمئة، والظنّ ثمانون بالمئة، أما اليقين فمئة بالمئة !! فنحن المشكلة أنّ المسلم يتعامل مع الظنّ، ولو تعامَل باليقين لالْتَزَم طريق الحق قطعاً، فربُّنا عز وجل يقول: يا عبادي إذا أردتم اليقين ففي الأرض آياتٌ للموقنين، لِمَن طلب اليقين، والدِّين لا يحْتمل الظن، ولا يحتمل كما قيل:

زعم المُنَجِّم والطبيب كلاهما   لا تُبْعثُ الأموات قلتُ إليكمـا
إن صحّ قولكما فلسْتُ بخاسرٍ   أو صحّ قولي فالخسار عليكمـا

* * *

فالشكّ لا يشْفي، والظنّ لا يشْفي، والوهم لا يشْفي، والرّيْب لا يشفي، فلا يشفي إلا اليقين لذلك قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق]

الاستقامة على أمر الله مرتبطة بيقين الإنسان أن الله سيحاسبه:

إذا تيقّنْتَ أنّ الله يعلم وسيُحاسِب فلا بدّ أن تستقيم على أمر الله، وإذا أردت الدليل فابحَث في حياتك الخاصّة، متى تشتري ؟ ومتى تبيع ؟ ومتى تصِل ؟ ومتى تقطع ؟ ومتى تُعطي ؟ ومتى تمْنع ؟ عند اليقين، أما إذا أيْقَنتَ بِحَقائق الدِّين فلا بدّ من أن تلْتزِمَ أوامر الله عز وجل، قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

أي لمَن أرادوا اليقين.

من آيات الله الدالة على عظمته:

1 ـ حجم الأرض و حركتها:

حجمُ الأرض مناسبٌ جدًّا، فلو كانت أقلّ حجماً لكان الإنسان أقلّ وزناً، ولو أنّها أكبر حجماً، لكان الإنسان أكبر وزنًا، فعلاقة وزْنك بِحَجم الأرض مناسب جدًّا، فالذين صَعدوا إلى القمر تضايَقُوا مِن خِفّة أوزانهم، ولو وقفنا فوق نَجم المُشتري لكان وزن الإنسان طنًّا أو طنَّين !! فالحجم مُناسب جداً.
الآن حركة الأرض، فلولا هذه الحركة لما كانت هناك حياة، إما ليل سرمدي، الحرارة مئتان وسبعون تحت الصفر، و نهار سرمدي ثلاثمئة وخمسون فوق الصفر، فَحَجم الأرض يؤكِّد لك أنّ الله حكيم، ودَوْرة الأرض تدور بِمِحور غير متوازٍ ومع مستوي الدّوران، فلو دارت على محور متوازٍ والشمس من هنا، لصار أيضاً نهار سرمدي، وليل سرمدي، لابد من أن تدور حول محور لا يتوازى مع مستوي

دورانها، إذا تدور بمحور غير متوازٍ مع مستوي الدوران، طيب إن وقفت، أو دارت على محور هكذا، نهار سرمدي، وليل سرمدي، قال تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

[سورة القصص]

إذاً: لو أن هذا المحور كان عمودياً على مستوي الدوران، الآية لأنه في الأرض آيات للموقنين، والشمس من هنا، هنا صيف سرمدي، خريف سرمدي، شتاء سرمدي، شيء لا يحتمل، الفصول لا تتبدل، إلا بميل المحور، مال المحور والأشعة عمودية (صيف)، هنا مائلة (شتاء)، انتقلت الأرض إلى هنا، هنا عمودية، هنا مائلة، فتبدل الفصول أساسه ميل المحور، من جعل محور الأرض مائلاً ؟ الله جل جلاله.

2 ـ دوران الأرض حول الشمس و حول نفسها:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

حجم الأرض، ودورانها، إذاً: سرعة دورانها متوافق بدِقّة، لو أنها تدور حول نفسها بساعتين لكان الليل بساعة، والنهار بساعة واحدة، ولاخْتَلّ نِظام الأرض، اندفعت دفعة، النهار ساعة، دوامك ثمان ساعات، معنى في أربعة أيام، إذا استيقظت في أربعة أيام، وأربع ليالي، بالاستيقاظ، تريد أن تنام بالنهار، مستحيل، ولو أنّها دارت حول نفسها بساعتين، لو أنها دارت بسنة لكان الليل سِتَّة أشهر، و النهار كذلك، مستحيل كذلك، إذا الدورة مناسبة، في الأربع والعشرين ساعة، تدور دورة، وهي تدور حول الشمس بسُرعة مُعيّنة ؛ ثلاثين كيلو متر بالثانية، قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

فأصبح حجمها، ودورانها، ومحور دورانها، وسرعتها حول نفسها، وسرعتها حول الشمس وبقيَ سطحها، ولو كان الخمس بحر، و الأربعة أخماس يابسة لمات الإنسان، ولانعدمت الأمطار، فلا بدّ أن تكون المُسطّحات المائيّة أربعة أخماس اليابسة، ولو لم تكن هناك صحاري لما كانت هناك رِياح فالصّحارى حارّة، والهواء فوق الصحارى مُتَمَدِّد، وضَغط منخفِض، والهواء فوق المناطق القطبيّة منكمِش وضَغط مرتَفِع، ومن تبايُن الضّغطين تتحرّك الرّياح، ما مصير السحاب بلا رياح تسوقه ؟ والرياح تسوق السحاب، من خلق الرياح ؟ الله عز وجل، و بسبب هذا التفاوت بين المناطق الحارة والبارِدة، وشمالاً وجنوبًا، وساحِلاً وداخِلاً.

3 ـ الهواء:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

مبدأ الهواء، والهواء من آيات الله الدالة على عظمة الله عز وجل، وتركيبه أوّلاً الأوكسجين، لو زادت نِسبتُهُ لاحْترق كل ما على الأرض، ولو قلّ لما اشْتَعَلت النار، والنبات يطرح الأكسجين و يأخذ غاز الفحم، والإنسان يأخذ الأكسجين، ويطرح غاز الفحم، يوجد توازن، فالغابات مُنْعِشَة، والصّنوبر مُنعِش جدّاً:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

إذاً المُسطّحات المائيّة تُسبّب الأمطار، والرّياح أساسها التفاوُت في مناطق الأرض، الآن هذا الهواء تركيبه، أخطر ما فيه أنّه ينثر الضّوء، تجد الأرض منيرة، ولو كُنّا على سَطح القمر لرأينا قرص الشّمس وما حولها أسْوَد أما في الأرض تجد ضياء، فالهواء ينثر الضوء، والهواء فيه أكسجين وآزوت و فيه غاز الفحم وفيه غازات أخرى، النبات يطرح الأكسجين و يأخذ غاز الفحم، الإنسان يطرح غاز الفحم ويأخذ الأكسجين، قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

4 ـ الماء:

الماء ؛ له حالة تجمّد، وحالة سائلة، وحالة غازيّة، فإذا بُرّد انْكمَش شأنه كشأن أي عنصر، إلى درجة زائِد أربعة يتمدّد ولولا هذه الظاهرة لما قامَت حياة على وجه الأرض، عندما نبرّده يتمدّد وتقلّ حينها كثافته فيَطْفو، و عندما يطفو تبقى البحار دافئة والأحياء فيها، ولو أنّه كلّما برد تجمد، وكلما تجمّد انكمشَ، كلما انكمش تزداد كثافته، فيَهوي في أعماق المحيطات، فالمحيطات كلّها تتجمّد، ومع تجمّدها ينعدم التبخّر، ومع انعدام التبخر ينعدم المطر، ومع انعدام المطر يموت النبات، فيموت الحيوان، فيموت الإنسان قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

ازدياد حجم الماء بعد تبريده إلى درجة زائد أربعة، هذه من أكبر الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل.

5 ـ الأمطار و الرياح:

الشيء الآخر: الهواء يحمل بخار الماء، ولولا أنّه يحمل بخار الماء لما كانت السحب، يحمل بخار الماء بحسب حرارته، فكلما سخن الهواء كلّما حمل بخار ماء أكثر، وكلما برد يتخلّى عن الكميّة الزائدة، وهذه هي أساس الأمطار، قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً)

[سورة النبأ]

نظام الأمطار نظام رائع جداً.

صار الهواء آية والماء آية، والرياح آية، والأرض يابسة وماء آية، حجمها آية، دورانها آية، نوع دورانها آية، السرعة آية، ميل المحور آية:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

6 ـ الأطيار:

الآن الأطيار: هذه الأطيار هي أنواع لا يعلمها إلا الله، وقد أجرَوا إحصاءً ثمانمئة وثلاثين ألف نوع من الطيور، طيور تقطع مسافة سبع عشرة ألف كيلو متر برحلة لا تحيد ولا تنحرف، يا ترى على أيّ شيء تمشي ؟ على التضاريس، من يهديها بالليل ؟ لا يوجد تضاريس بالليل، على أشعة الشمس، لا توجد فرضية طرحت إلا ونقضت، من الذي يهدي الطير في هذا السير الطويل ؟ طائر له عشّ بالشام، في دمشق، هنا في الصالحية، هاجَر إلى جنوب إفريقيا، حينما يعود ؛ من أعطاه الزاوِيَة المناسبة ليأتي إلى الشام ؟ لو انحرف درجة صار في مصر، درجة هنا بالعراق أو الأردن، من أعطاه هذه الزاوية، حتى يعود إلى عشه في دمشق ؟ وفي الصالحية ؟ الله جل جلاله، ما يمسكهن إلا الله، فالطائر نفسه آتاه الله تعالى ثمانية أمثال قوة رؤية عن الإنسان، لأنّه يُحلِّق على ارتفاعات شاهقة، إذا أراد أن يأكل، ولا يرى إلا لمسافة قريبة ماذا يعمل ؟ ينزل فلا يجد طعاماً، فيصعد، ينزل فيصعد، أما هو الطائر أحياناً يرى السمكة في الماء فينقض عليها، قوة إبصار الطائر رائعة جداً، من أعطاه هذه القوّة ؟ أحيانا ثلاثة وثمانين ساعة طيَرَان من دون توقف، إذًا له عضلات تتقلّص، وتحتاج إلى تبريد، فتنفّس الطائر يصل إلى كلّ خلية في جسم الطائر، فالقصبات الهوائيّة في الطائر تتمدّد إلى كل أجزاء الطائر، من أعطاه قوة طيران ثلاثة وثمانين ساعة بلا توقف ؟ سبعة عشر ألف كيلو متر يقطعها، فمن دلّه على طريق العودة ؟! هذه عناوين موضوعات، إخواننا الكرام، عناوين موضوعات.

7- السمك:

سمك السلمون الذي يأتي من رؤوس الأنهار في أمريكا، ويُهاجر إلى شاطئ أوروبا في الأطلس، ثمّ يعود إلى مسقط رأسه ثم يموت هناك، فهذه السمكة تتجه نحو الغرب، كذلك درجة واحدة تأتي في البرازيل، درجة في كندا، فهي تتوجه إلى مصب النهر الذي خرجت منه، من دلها ؟ سمك السلمون يصعد الشلالات، ليصل إلى مسقط رأسه، ويموت هناك، يضع البيوض في أعالي الأنهار وتعود، فسَمَك السلمون وحده من أكبر الآيات الدالة على عظة الله عز وجل، وهناك أفاعي بنَهر النيل تخرج من بحيرة فيكتوريا، وتتّجه نحو الشمال إلى أن تخرج من مصر، وتتّجه نحو الغرب إلى أن تصل إلى مضيق جبل طارق، وتتّجه نحو الشمال لِتُحاذي أسبانيا، ثمّ إلى فرنسا، تدخل في بحر المانش، إلى بحر الشمال وتعود أدراجها، والله قائد سفينة يحمل أعلى شهادة يضيع، فمن هداها إلى هدفها ؟

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

قدرة الله في خلق أجهزة عند السمك تعرف أين هي من سطح الماء:

هذه السمكة من أعطاها أجهزة تعرف بها أين هي من سَطح الماء ؟ فيها أنبوب مفرّغ، وكلّما غاصَت يضْغط الماء عليها فتعرف أنّها في الأعماق، هذا الجهاز ينبئها بِبُعدها عن سطح البحر، وجهاز آخر ينبئها باتّجاهها (ي ظهرها)، نحو سطح البحر أم نحو قاع البحر، وأساس الجهاز محفظة فيها حبّات رمل، مع أشعار تتحسّس بِحَبّات الرمل، فالحبات إذا كانت في أرض هذه المحفظة معناه أنّ ظهرها نحو الأعلى، من أعطاها ؟ الأسماك آية، والآن علماء البحار عدُّوا مليون نوع من السّمَك ! هناك أسماك طبيبات يَقِفن في عرض البحر، وتأتي الأسماك وراء بعضها بعضاً وتنتظر دورها في المعالجة، هذه الأسماك تتغذّى على الحراشف الملتهبة، والتي أصابها الإنتان تشفي وتتغذى، وهذه الأسماك لا أحد يأكلها باتّفاق بين كل اسماك البحار، هي أسماك طبيبات، مليون نوع من السمك في البحر، وهناك سمك متوحّش، وآخر وديع، وهناك الذي يُشبه باقة الزهور، والذي يمشي على أرجل في قاع المحيطات، غواصة مصنوعة من الفولاذ المصفح، إذا تعطل جهاز قياس الارتفاع، وغاص ربان الغواصة إلى أقل من مئتي متر، تتحطم الغواصة، أما هذه السمكة التي تعيش في خليج مريانة في أعمق نقطة في المحيط الهادي كيف تمشي على أرجلها في قاع البحر، وفوقها اثني عشر ألف متر من الماء ؟ يوجد قانون، فيها فتحات متداخلة، الضغط من الداخل يكافئ الضغط من الخارج، فالإنسان إذا أغلق فمه عند سماع مِدفع الإفطار ربّما ثقب غشاء الطّبل، أما إذا فتح فمه لا يحدث شيء، يدخل الهواء من فمه، ومن أذنه،

يتكافأ الضغطان، وكل سمك يعيش في قاع المحيطات هناك تكافؤ في الضغط، من جعله هكذا ؟ قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

8 ـ الحيوانات:

هذه الحيوانات التي نعيش معها نألفها وتألفنا، فالجمل وزنه طن، يألفنا ونألفه والطِفل يمكن أن يقوده، أما العقرب لو رأيتَهُ لخرجْت من جلدك، لماذا كان هذا الجمل مذللاً ؟ البقرة مذللة ؟ والغنم مذللة ؟ أما الضّبع غير مذلّل ؟ لو أن الله جل جلاله ركب أخلاق الضبع في الغنم، كيف نأكل ؟ هل يستطيع الإنسان أن يحضر أضحيته قبل يومين ؟ لا يقدر، قال تعالى:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

[سورة يس]

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

قدرة الله عز وجل في تحويل طعام البقر إلى لبن سائغ للشاربين:

وهذا الحليب التي تُنتجُهُ بعض الأغنام والأبقار قُبّة والخليّة الغُدِيّة قُبّة من سَطحها الأعلى شبكة أوعية دمويّة كثيفة جدّاً وحتّى هذه الساعة لا يعرفون كيف يتحوّل الدم إلى حليب من بين فرث ودم ؟ فالخليّة الغديّة تأخذ المواد التي تحتاجها من الدّم وترشح هنا حليباً، أربعمئة حجمٍ من الدّم من أجل حجم حليب واحد، يعني كل لتر من الحليب تأخذه من البقرة، ساهم في تشكيله أربعمئة لتر من الدم، فضَرع البقرة الذي يتّسِع إلى عشرين كيلو، وإلى أربعين كيلو أحيانًا لما لا يتمزّق ؟! قال هناك حواجز، جدران داخلية، طوليّة وعَرْضيّة فإذا كان هناك أربعة حلمات لثدي البقرة فكلّ حُلمة ممكن أن تُفرغ رُبع الحجم بالدِقة فمن جعل البقر مُذَلّلاً ؟ لِنَعرف نِعمة الله عز وجل جعل الله هناك مرضاً يُصيب البقر، ويُصبحُ متوحّشًا، فأخٌ كريم كانت له بقرة وتوحّشَت فقتَلت أول إنسان والثاني والثالث، فاضْطرّ صاحبها أن يطلق عليها النار و قتلها، وثمنها سبعون ألفًا فالبقرة ثروة وإنتاجها ثروة.

قدرة الله عز وجل في خلق الصوص من البيضة:

من جعل هذه الدجاجة تُعطي هذه البيضة ؟ البيضة تحوي كلّ شيء لأنّها تنتهي إلى صوص، ومعنى ذلك هناك كالسيوم ومغنزيوم، هناك عضلات، وأمعاء، وجهاز هضم، وجهاز عصبي، مخلوق كامل، فمن خلق هذه البيضَة ؟ أنظر إلى الدجاجة ماذا تأكل ؟ اِجْمع طعامها، لو اجتمع أهل الأرض و علماء الأرض ومعامل الأرض على أن يصْنعوا من هذا الطّعام الذي تأكله الدّجاجة وقد تكون أقذاراً هذه البيضة التي تحبها:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

و هذه البقرة ماذا تأكل ؟ خُذْ طعامها واجْعلْهُ حليباً لبناً سائِغاً للشاربين، قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

تسخير الغنم و الإبل للإنسان و راحته:

فالبقرة آية، والدجاجة آية، والغنم آية، دائماً عضلات الرجل قاسية، والأنثى لينة، الغنم بالعكس، الغنم المؤنث لحمه قاس، ليبقى للولادة وللحليب، أما النوع الذكري لحمه طري بعكس الإنسان، وهي خلاف من جعل هذه الآية ؟ فالغنم آية، البقر آية، والجمل آية، الله عز وجل قال:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

[سورة الغاشية]

الجمل له عينان تُريه البعيد قريباً، والصّغير كبيراً، وله رموش تحميه من رمال الصّحراء، ولو أنّ الجمل يسْتريح كما يستريح الحِصان كيف تُحمِّل عليه بضاعتك ؟ يجلس جلسةً نِظامِيّة،عن طريق هذه التفنات التي أودعها الله فيه، والجمل يمكن أن يعيش أشهر من دون طعام ولا ماء، وبإمكانه أن يأخذ من ماء خلاياه وسَنامِهِ، وهو مُجهّز خِصيّيصاً للصّحراء:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

[سورة الغاشية]

النحل:

انظر إلى النحل ؛ النحل مِن أعظم الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل، هل تستطيع أن تأتي بِبَلاطين، يبدأ كل منهما من طرف، ويلتقيان على بلاطة نظامية من النصف ؟ مستحيل، أما النحل يبني

أشكال مُسدّسة مئة بالمئة نِظاميّة، يبدأ من كل الجهات فموضوع النحل وحده يحتاج إلى درس، العاملات تَقِفن على باب الخليّة ومعهن كلمة سرّ، وكل نحلة لا تبوح بهذه الكلمة تُقْتَل، لو يوجد مليون نحلة، كل جماعة تذهب إلى خلاياها، عاملات للتنظيف، عاملات للحراسة، عاملات للتدفئة عاملات للتَّهْويَة، وعاملات وصيفات، عاملات لو رأيْن حشرة كبيرة يُغلِّفنها بالشّمع، ليمنعن تفسخها، وهناك رقْصة ترقصها النحلة تشعر زميلاتها ببعد الأزهار عن الخلية، والإيقاع أثناء الرّقص إذا كان سريعاً فمعناه الرحيق كثيف، وإذا كان الإيقاع خفيفاً يكون الرحيق قليلاً، والمَلِكة تبيض في اليوم آلاف البيوض، وتضع الأنثى في مكانها، والذّكر في مكانه، والملكة الأخرى في مكانها، من علمها ؟ موضوع النحل وحده، الإنسان يذوب خشوعاً لله عز وجل، النحل آية.

10 - النمل:

النمل آية، قال تعالى:

(قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[سورة النمل]

النملة تحمل أربعة أمثال وزنها، النملة تتخاطب مع بقيّة النمل، لو شخص سحق نملةً بيدِه ؛ رائحة النملة بعد سَحقها استِغاثة لِزَميلاتها، وحينما تُخزّن النملة الحبوب تأكل الرُّشَيم وهو الكائن الحي في البذرة، فمن علّمها تأكل الرُّشَيم ؟ هناك بذور لها أربعة رُشَيمات فتأكل هي الأربعة لكي لا تنبت.

مخلوقات الله جميعها آيات تدل عليه:

النمل آية، والعنكبوت آية، والنحل آية، والجمل آية، والبقر آية، الغنم آية، والسمك آية، والطّير آية، وأنا أذكر لكم عناوين موضوعات فقط، ولو أردنا التفاصيل لا ننتهي في سنوات، وكلّما فكّرت في خَلق الله عز وجل ازْدَدْت تعظيماً له، قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

أنت لا تلتزم ولا تتحرّك إلى الله إلا إذا أيْقَنتَ، واليقين بين يديك، فيا عبادي إذا أردتُم اليقين ففي الأرض آيات للموقنين وما أكثرها، بل إن كلّ شيء خلقه الله هو آية تدلّ عليه.

11 ـ الإنسان من أعظم الآيات الدالة على عظمة الله:

ثمّ يقول الله عز وجل:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات]

لا تبتعد، جِسْمك الذي يحملك ونفسك التي بين جَنْبَيك كلها آيات دالة على عظمة الله تعالى.

جسم الإنسان يدل على عظمة الخالق بما يحوي من:

1 ـ جهاز المناعة في الإنسان:

الآن أكثر شيء يتحدّثون عنه جهاز المناعة في الإنسان، خمسة وعشرون ألف كُريّة بيضاء أو أكثر أو أقلّ، هذا الرّقم يتضاعف في زمن الاسْتِنفار ويتضاعَف في أثناء القِتال، يعني جهاز المناعة يتضاعف مرتين أثناء القتال، فما هو جهاز المناعة ؟ دخل جرثوم إلى الدمّ، تتوجّه عناصر من الكريات البيضاء لِتَكْتشِف تركيب الجرثوم والشيفرة الكيماويّة وهذه الخلايا اسْتِطلاعِيّة وليس لها مهمّة أخرى إطلاقًا، لا تقاتل، تأخذ هذه الشيفرة وذاك الرمز إلى العقد اللمفاويّة، في هذه العُقَد عناصر تُصَنِّع المَصل المُضاد، تأخذ هذا الرمز أو تلك الشيفرة وتفكّها، وتصنع المصل المضاد لِهذا الجرثوم وتنتهي مُهمّتها، الآن تأتي الخلايا المُقاتلة فَتَحمِلُ هذا السِّلاح، وتتّجِه إلى مكان الجرثوم، وتُقاتِلُهُ بهذا السِّلاح، فإذا قتَلَتْهُ انتَهت مهمّتها، وجاء دَور الخلايا اللاقِمة، هذه تتّجه إلى ساحة المعركة لِتُنَظِّف أرض المعركة من الجُثث، خلايا مستطلعة، وخلايا مصنعة، وخلايا مقاتلة، وخلايا لاقمة، هذا هو جهاز المناعة، قال تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات]

والآن ثبت أنّ الشِدّة النفسيّة تُضْعِف جهاز المناعة، وأنّ هذا الجهاز المناعي إذا ضعف تفاقم المرض، ومات الإنسان لأدنى سبب، والآن المشكلة الأولى في العالم أنّ الانحراف الخُلقي يُسَبِّب فيروس الإيدز، هذا الفيروس يلتهم جهاز المناعة ؛ الكريات البيضاء، فإذا قُضِيَ على الجيش دخل العدوّ من أيّ جهة شاء.

الأعضاء النبيلة في الإنسان موضوعة في أماكن محْكمة لحفظها:

أيها الأخوة، الأعضاء النبيلة في الإنسان موضوعة بأماكن محْكمة فالدِّماغ بالجمجمة، والنُّخاع الشّوكي بالعمود الفقري، والقلب بالقفص الصدري، والرّحم بين عِظام الحوض، الرحم جهاز نبيل، ففيه ينمو الإنسان في قرار مكين، ومُحاط بعظام الحوض من كل الجهات، القلب في القفص الصدري، والنُّخاع الشّوكي بالعمود الفقري، الدماغ في الجمجمة، هذه ملاحظة، والعين في المحجر، الأذن، المدخل أضيق من أصغر أصبع، فيه غشاء طبل، فهذه آية من آيات الله الدالة على عظمة الله عز وجل.

2 ـ العين:

العين فيها طبقة قرنيّة شفافة، مع أنّ نِظام التغذِيَة في الإنسان أساسه الأوْعِيَة الشعريّة، لو كان تغذِيَة القرنيّة بالأوعية الشعريّة لأصبَحت الرؤية من خلال الشّبكة، ولكن الله جعل القرنيّة تتغذّى بطريقة فذّة، وهي طريقة الحلول، فالخليّة الأولى تأخذ غذاءها وغذاء جارتها، وتعطي جارتها غذاءها عبر الحلول لذلك تبقى القرنيّة شفافة مئة في المئة، ويأتي الدمع فيَغْسِلها، ويُذيبُ كلّ جسم غريب علِقَ بها، ويأتي الجفْنُ فيمْسَحَها كمسّاحة السيارات بشَكل آلي، وأنت لا تدري، وتأتي الرموش فتمنع التصاق الجفنين، لئلا يلتهبان، وتأتي القزحيّة، وهي فتحة العين تصغر كلّما ازداد الضوء، وتكبر كلّما قلّ الضوء، تصغر آلياً، وتفتح آلياً، بشكل ذاتي، ويأتي الجسم البلوري ؛ هذه العدسة المرنَة التي يزداد احْدِدابُها ويقلّ لِتَجعل خيال الشيء المرئي يقع على الشبكيّة دائماً، وهذا من أعظم الأدلة على عظمة الله عز وجل، عملية المطابقة في العين، وتأتي الشبكيّة في عشر طبقات، وكل طبقة مئة وثلاثين مليون عُصيّة ومخروط، وتنتهي بِعَصب بصري تسعمئة ألف عصب، ولكل عصب ثلاثة أغمدة، هناك حبل لا يزيد عن ثلاثة ميلي وهو العصب البصري، وتنتقل الصورة إلى الدماغ بشَكل متصالب مع البعد الثالث عن طريق العيْنين، طول وعرض وعمق، والصورة تراها بِحَجمها الحقيقي، وتراها فوراً، قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات]

3 ـ شعر الإنسان:

العين آية، شعر الإنسان، ثلاثمئة ألف شَعرة، ولكل شعرة وريد وشريان وعصب وعضلة وغدّة دَهْنيّة وغدّة صبغِيّة، فالشّعر آية، العين آية، والشمّ آية، كذا اللِّسان من آيات الله فكلّ حرفٍ تلفِظهُ يسْهم في

صُنعه سبْع عشرة عضلة! إذا الكلمة خمسة أحرف، والجملة خمس كلمات، والخطبة ساعة، كم عضلة ساهمت في صنع هذه الحروف ؟

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات]

4 ـ البلعوم:

البلعوم ؛ لسان المزمار هو شرطي المرور الذي يعمل ثمانين عاماً من دون كلل ولا ملل، وأنت نائم يزداد اللعاب في فمك، تذهب إشارة عصبية، اللعاب ازداد، يأتي أمر من الدّماغ لِتَحريك البلعوم، يفتح طريق المري، ويُغلق طريق التنفس، ثمّ يعود وأنت نائم ! البلعوم أكبر آية دالة على عظمة الله عز وجل يعمل بلا توقف، بشكل ذاتي:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

5 ـ البروستات:

والبروستات تقف عند ملتقى مجرى الخِصيَتين، ومجرى الكِليتين، يلتقيان في أنبوب واحد، وعند اللقاء تقع البروستات، فإذا كان طريق البول هو السالك تفرز مادّة تتعادل مع حمض البول، وإذا كان طريق الخِصيتين هو السالك تفرز مادّة مطهّرة، ومادّة معطِرة، ومادّة مغذية ! وتفتح وتغلق ثمانين عاماً، فيقول لك معه التِهاب بروستات، تحتاج إلى تجريد، هل تعرف ما هي البروستات ؟ البروستات آية، البلعوم آية، العين آية، اللسان آية، الشعر آية، الأذن آية.

6 ـ الدماغ:

من يُصَدِّق أنّ في الدّماغ جهازاً يحسُب تفاضل وُصول الصّوتين إلى الدّماغ والتفاضل واحد على ألف وستّمئة وعشرون جزءاً بالثانية، فيعرف الدّماغ جهة الصوت لو كان أذناً واحدة يسمع الصوت دون أن يعرف جهته.

7 ـ الأذن:

من خلق هذا الصّيوان الذي يلتقط الأصوات من كلّ الجهات ؟ من ؟ الله جل جلاله، ولا تزال هناك آلاف الأسئلة حول الفرق بين النّغم و بين الضجيج ؟ تقف أمام شلاّل صوته يصم الآذان، تستمتع،

تسحق قطعة بلّور تحت الباب، تكاد تخرج من جلدك لماذا طَربْت للشلال وصوته شديد وانزَعجْت من سحق قطعة البلور تحت الباب فهذا ضجيج وذاك نغم ؟ ولماذا تطرب بِصَوت العصافير ولا تطرب بِصَوت الآلات، ذاك نغم وهذا ضجيج ؟ ألف سؤال حول الأذن، فالأذن آية من آيات الله الدالة على عظمة الله جل جلاله.

8 ـ الهيكل العظمي:

الإنسان ينام، فيه هيكل عظمي، تحته عضلات، ونسيج لحمي، وفوقه عضلات، وزن الهيكل العظمي مع العضلات التي فوق الهيكل العظمي تشكل ضغطاً على ما تحته، الله تعالى جعل نقاط إحساس بالضَغط فإذا تحسست بالضغط، أعطت أمراً للدماغ، كان نائماً فقلب، مسألة التقليب من عظمة الله، قال تعالى:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

[سورة الكهف: الآية 18]

حتى لا يقع من على السرير، مرة على اليمين، مرة على اليسار، كلما العضلات انضغطت، بحيث لمعات الأوعية ضاقت، يتقلب الإنسان، هذه من آيات الله أيضاً، فالإنسان إن كان معه سبات إذا لم يقلب يتفسخ جلده، ينتهي، أوّل عِلاج له أن يُقلّب إن كان معه سبات، أما تصوروا إنساناً نائماً، يتقلب بالليلة ثمانية وثلاثين مرة، أنت تتقلب بالليل ثمانية وثلاثين إلى أربعين مرة، وأنت لا تشعر بشكل عفوي، فتقلبك بالليل بشكل متكامل، ذات اليمين مرة، وذات الشمال مرة، كلما انضغطت الأوعية بحيث أصبحت التروية ضعيفة، الإنسان يجلس على رجليه، يقول لك اخضرت رجلاي، ما معنى اخضرت رجلاي ؟ يعني التروية ضعفت (نملوا)، تحركها، أو تفقد الإحساس بها، فالإنسان كيف ينام ؟ يتقلب، فهذه من آيات الله الدالة على عظمة الله عز وجل.

9 ـ الأعصاب:

من جَعَل بِنَقي العِظام أعصاب حِسّ ؟ أربعة أخماس عِلاج الكسور بسبب الألم، فالألم الذي أتى من عصب الحِسّ في نقي العظام هو أكبر وقاية لعِلاج الكسور، الألم يجعلك تبقيها على حالها، أربعة أخماس العلاج أن تبقيها على حالها، لكنّ الله تعالى ما جعل بالأظافر أعصاب حسّ، كنت تحتاج عملية جراحية لقص الأظافر، ولا بالشعر، تحلق بكل راحة، فقص الشعر ما فيه شيء، مع أن فيه عصب

محرّك، يقول لك وقف شعر بدني، كيف يعني وقف ؟ كل شعرة فيها عضلة، وفيها عصب محرك، وليس عصب حسي، من جعل هذا ؟ قال تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات]

10 - الخلايا:

الإنسان كله يتبدّل، فأنت بعد خمسة سنوات كلّ جسمك يتبدّل تبديلاً كاملاً لأنّ أطول عمر خليّة خمس سنوات، وأقلّ عمر ثمانية وأربعون ساعة، أمعاؤك الدقيقة، و زُغَابَات أمْعائك الدقيقة تتبدّل كل ثمانية وأربعون ساعة وأنت لا تدري، زُغَابَات أمْعائك الدقيقة تتبدّل كل ثمانية وأربعون ساعة بالضّبط فأقلّ عمر ثمانية وأربعون ساعة، وأطول عمر خمس سنوات، فأنت كلّك تتبدّل بعد خمس سنوات عدا الدِّماغ والقلب، لو تبدل الدماغ لقال لك أنا كان معي دكتوراه لكن راحت الآن، تروح المعلومات، تنمحي الذاكرة، الدماغ لا يتبدل، والقلب لا يتبدل، ما سوى ذلك كله يتبدل:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات]

11 - جهاز التوازن:

الإنسان إذا مات ليس بإمكانك أن توقِفَهُ عن الموت، ولكن لو كان حيّاً وكان سيَسْقُط يتنبّه، فما التفسير؟ هناك جهاز توازن، ثلاث قنوات بالأذن وثلاثة أقواص، نصفها فيه سائل، وعلى الأطراف فيها أشعار هدبيّة تتحسّس بالسائل، فإذا ملت السائل يبقى سطحه أفقياً، فيصعد بقوس، فتحس أنك ملت، فتجلس نفسك، فلو أنّ الإنسان الْتَهَبت أذُنه الداخليّة لما استطاع أن يتوازن، أحياناً الإنسان لا يستطيع المشي بائعوا الألبسة في محلاتهم جسم بشري، انظر إلى قاعدته، سبعون سنتيمتراً، أما أنت بهذا الجهاز لك رجلان لطيفتان، فلولا جهاز الاستناد في الأذن الداخلية لاحْتَجت إلى قاعدة اسْتِناد سبعون سنتمتراً، إذا شخص لبس حذاء ومشى بالطين، يقول لك حملت كل رجل كيليين طين، صار المشي أشغالاً شاقة، أما أنت فلك قدمان لطيفتان ورشيقتان، حجمهما لطيف، ويوجد جهاز توازن، جهاز التوازن يجعل القدمين لطيفتين، لولا جهاز التوازن لاحتجت لأقدام أوزانها كبيرة ومساحاتها كبيرة لكي تتوازن، والله جعلك تمشي على رِجْلين، هذا من آيات الله الدالة على عظمة الله عز وجل.

12 ـ الطحال:

الطُحال ! الإنسان في كلّ ثانية يولدُ فيه اثنان ونصف مليون كُريّة حمراء، ويموت بِكُلّ ثانية اثنان ونصف مليون كريّة حمراء، إلى أين ؟ إلى المقبرة، مقبرة الكريات الحمراء هو الطُحال، لكنّ هذه المقبرة لها معامل، فهذه المقبرة تُحلِل هذه الكريات إلى هيموغلوبين، وإلى حديد، فالهيموغلوبين يذهب إلى الكبد، ومنه إلى الصفراء، فالصفراء خلايا كريات حمراء ميّتة، والحديد يُعاد شحنه إلى نقي العِظام لِيُعاد تصنيعه من جديد، فالطحال مقبرة مع معمل، والطحال معمل كريات حمراء احتياط والطحال مستودع لكُريات الدم، مستودع ومعمل ومقبرة، هناك شَخص يصبح الطُحال يتجاوز حدوده فَعِوَض أن يُحلِل الكرية الحمراء الميّتة يُحلِل الحيّة، فيُميتها ويُحلِلها، فصاحب المرض مات بهذا المرض، فالطُحال إذا رفع نشاطه قليلاً يموت الإنسان.

13 ـ الغدد:

وهذا البنكرياس، يقول لك: مرض السكر، فأنت لا تستطيع أن تضع على يدك قليلاً من السكر فتحترق، السكر يحترق على النار، أما البنكرياس فيُفْرز الأنسولين، يجعل السكر يحترق بدرجة سبعة وثلاثين، وقت ضعف إنتاج الغدّة الصماء، يوجد شخص معه مرض سكر، معه سكر زائد بالدم.
من صمّم لهذه الغدّة ذات الإنتاج الداخلي أن تحرق السكر بالدرجة السابعة و الثلاثين، قال تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات]

وظيفة الغدة النخامية (ملكة الغدد):

الغدّة النخاميّة وزنها نصف غرام، ملكة الغدد، وتفرز اثني عشر هرموناً، أحد الهرمونات إذا الإنسان رأى أفعى، أو رأى عدواً، أو رأى وحشاً، يخاف، طبعاً رؤية الأفعى تنطبع على الشبكية إحساساً، فتنتقل إلى الدِماغ إدراكاً، بحسب المفهومات السابقة، الدِماغ ملك الجهاز العصبي يعطي أمراً لِمَلكة الجهاز الهرموني (الغدّة النخاميّة) وهذه الملكة لها أتباع، وأحد أكبر أتباعها الكظر، فوق الكليتين، تعطيه أمراً فيتصرّف، والكظر يعطي خمسة أوامر ؛ يعطي أمراً للقلب برَفع نبضاته فالخائف يلهث، يضرب قلبه مئة وثمانين ضربة، خائف لوجود خطر، لِخَطر يلمّ به، ويحتاج لدَم أكثر، لا يكفي ثمانون ضربة في الدقيقة، يحتاج نبضاً سريعاً، حتى يكون الدم إسعافي، والأمر الثاني للرّئتين فيزداد وجيبهما، والأمر الثالث للكبد فيطرّح كميّة سُكّر إضافيّة، والأمر الرابع للأوعِيَة فتضيق لمعتها، والأمر الخامس

يزداد هرمون التّجلّط حتى إذا صار هناك نزيف لا يذهب الدم كلّه ! ثواني، بمعشار الثانية، القلب يزداد وجيبه، والرئتان يزداد وجيبهما، والدم في الكبد يطرح، ولمعة الأوعية تضيق، يصفر لونه، خائف، يدق قلبه، ويلهث، ويصفر لونه، ودمه فيه سكر زائد، ولو أنه جرح، يلتئم الجرح بسرعة، لأن معه تجلط، قال تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات]

14 - جهاز تبريد التعرق أرقى جهاز تبريد للإنسان:

أيها الأخوة، قد يكون جسم الإنسان أكبر آية بين يديك دالّة على عظمة الله، فالجلد آية، والشعر آية، وجهاز تبريد التعرّق، وهو أرقى جهاز تبريد للإنسان، تُفْرِز العرق، وبعدها يتبخّر، ولما يتبخّر يسْحب من حرارة الجسم، فالإنسان حينما يعرق تتوازن حرارته، فالتعرق جهاز تبريد، قال تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات]

15 - منعكس المص عند الوليد:

الذي أتمنّاه ؛ أن يُفكِّر الإنسان بِجسمه، فهذا الطِّفل يولد الآن، وإذا أُعْطِيَ ثَدْي أُمِّه يلتقمه (يمصّه)، المص عمَلِيَّة مُعقّدة، قالوا الإنسان يولد مع منعكس المص، ولولا هذا المصّ لما عاش طفل، هل تستطيع تعليمه ؟ انتبه يا بني الله يرضى عليك ضع فمك على حلمة ثدي أمك و اشرب الحليب واسحب الهواء ؟ لو لم يكن عنده إمكانية التقام الثدي يموت، ومن جعل جهازه الهضمي مملوءاً شحماً أسوداً، ومن جعل في حليب الأم مادّة مُذيبة للشّحم في أوّل الجرعات ؟ تجده أول يومين، برازه أسود، لأنه شرب صمغة أذابت الشحم، هذا تصنيع راق جداً:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

16 - تقلص رحم المرأة و انقباضه:

هذا الرحم الذي يتقلص تقلصاً متباطئاً لطيفاً قبل الولادة، بعد الولادة، تقلص مفاجئ حاد، لأن عشرات الألوف من الأوعية تقطعت، عند الولادة لو كان تقلصه لينا لماتت الأم نزيفاً، فالرحم ينقبض انقباضاً

شديداً تلتئم به هذه الأوعية المتقطعة، أما أثناء الولادة يوجد طفل، تجد التقلص لطيفاً، متزامناً، من جعل حوض المرأة يتوسع عند الولادة توسعاً ميكانيكياً بفعل أمر هرموني، من ؟

17 ـ تغير تركيبة الحليب في الرضعة الواحدة:

من يصدِّق أنّ هذا الحليب الذي يمصّه الطفل يتبدّل تركيبه في الرضعة والواحدة من أولها إلى آخرها، ويتضاعف السكر أربع مرات يكون الماء أول رضعة أربع أمثال، ثم ينزل إلى الربع، والسكر يتضاعف أربع أمثال، من؟! من جعل هذا ؟! ومن جعل تركيب حليب الأم يتناسب مع هضم الطفل ومع العصارات الهاضمة ؟

كلّ مناعة الأم بحَليبها، ساخن بالشتاء، وبارد في الصيف، ومعقّم جاهز، مع المناعة، وأحْدث بحث الآن أجري في جامعات راقية جداً، أنّ القصور العقلي سببه الإرضاع الصِّناعي، فالبديل مرضعة أخرى فإن ماتت الأم جاء الأب له بمُرضِعَة أخرى، وهذا الحليب مخصّص للطفل، قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10))

[سورة البلد]

عظمة الخالق في النبات:

أنا ما ذكرت إلا عناوين موضوعات للتفكر، عناوين، وكل موضوع يتحمل يوماً، ويومين، وثلاثة، وأربعة، وتطالع، وتفكر، وتدرس، لتعرف من هو الله، من هو الذي خلق ؟، قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً (25) ثُمّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً(26))

[سورة عبس]

ماء، ينحل فيه ثمانية عشر معدناً، من جعل المعدن يذوب ؟ فيه معدن، وفيه أملاح المعدن، يقول لك ماء فيه ماء حديد، الأشلات حديد، تعطي للنبات الأصفر حديد على شكل أملاح، يذوب في الماء يمتصه النبات، من جعل النسغ الصاعد فيه ثمانية عشر معدناً ؟ فيه اليخضور بالورقة، فيه الفوتونات، فيه الآزوت، نسغ نازل، يصنع الثمرة والزهرة والورقة والغصن والجذع، من جعل هذا ؟

أعظمُ معملٍ صنعه الإنسان يبدو تافهاً أمام الورقة، فالنبات آية، نحن ذكرنا نماذج في التفكر في آيات الله في السماوات والأرض، وفي النفس، فإذا صلى الإنسان الفجر، وجلس يقرأ القرآن أو يسبّح أو يكبّر، فليَجعَل جزءاً من هذه الجَلسة تفكّراً في خلق السماوات والأرض، والقضية بين يديك، وأنت تأكل، هذا القمح غذاء كامل، ستة أنواع من المعادن والفيتامينات في غشاء القمح (بغلاف القمح).

كأس الماء: إذا كان تحلية الماء يكلف حوالي خمسة عشر ريالا للتر، أغلى من البنزين، هذا ماء محلى خالص، من جعله عذباً فراتاً، وذاك ملح أجاج ؟ الله عز وجل.

الحكمة من نضج الخضار تباعاً و المحاصيل في يوم واحد:

إذاً لماذا الخضار تنمو تباعاً، والمحاصيل تنمو في يوم واحد ؟ آية دقيقة جداً.

مرة قال لي أخ، أخذنا حقل بطيخ تسعة أشهر، كل يوم نحول سيارة، قلت له كيف تعرفون البطيخة الناضجة كله أخضر ؟ قال لي يا أستاذ، فيها حلزون تمسكه إذا انكسر تكون مستوية، طري لم تستو بعد، حلزون صغير جنب منبتها، والله جعل لكل شيء علامة، علامة دقيقة جداً، قال تعالى:

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

[سورة النحل]

أساساً الله جعل علامات، كل شيء له علامة، لولاها كنا ضعنا، وجهه أصفر، معه فقر دم، فيه بحة، معه رشح مثلاً، فموضوع العلامات كذلك من آيات الله الدالة على عظمة الله تعالى، فعندك طعامك، عندك شرابك.

خلق الإنسان خلق مدهش:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6))

[سورة الطارق]

خمسمئة مليون حوين بين لقاء الزوجين، الحوين الواحد عليه خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، كلام دقيق أحكيه لكم، عند العلماء بديهي، خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة على الحوين، وعندك خمسمئة مليون حوين، فالمرأة جعل الله من بيضها بيوضاً معدودة تنتهي دخلت سن اليأس، الرجل ليس كذلك، ممكن إنسان ينجب بالتسعين، لكن المرأة لا تحمل بالتسعين، الله جعل المبيض فيه بيضات معدودة، تنتهي في الأربعين، في الخامسة والأربعين، الخمسين، سن اليأس، من جعل البويضات محدودة ؟ الحوينات غير محدودة ؟ تصميم من ؟ الإنسان يصاب بالصلع، لكن المرأة لا تصاب بالصلع، يخف شعرها لكن لا تصلع أبداً، من صمم هذا التصميم ؟ دقق في هذه الظواهر، هي كلها بين يديك، انظر خلق الأنثى، خلق الذكر، طباع الأنثى، طباع الذكر، انظر لطفل ولد الآن، كبر قليلاً، ركب عصا وذهب، أما البنت التي ولدت الآن، بعد كم شهر، تحمل مخدة على ظهرها، إذا: لماذا هذا ركب القضيب، هي حملت المخدة ؟ هذا شيء ببنية الإنسان، ففيه خلق مدهش.

التفكر يؤدي إلى معرفة الله و عبادته و السعادة بقربه:

أنت إذا فكرت في خلق السماوات والأرض عرفت الله، وإذا عرفتهُ عبدْته، وإذا عبدته سَعِدت بقربه في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الجاثية]

ما فيه حديث ثان، هذا هو الكون أوسع باب إلى الله، وأقصر طريق إلى الله تعالى، الكل بين يديك، إذا فكرت بالكون، وقلت الله يقشعر جلدك، إله الذي خلق السماوات والأرض:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ(5))

[سورة التين]

إذا ما عرف الله، رددناه أسفل سافلين.

سعادة الإنسان تكون بالتفكر بآيات الله و معرفة منهجه:

أرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الحقائق منطلقاً لكم في التفكر، جلست على الطعام فكر، نمت، النوم من نعم الله العظمى، الأعصاب تبتعد عن بعضها، السيالة العصبية تصل فتجد مسافة فتتوقف، أما إذا كان الصوت كبيراً جداً تتجاوز، تستيقظ، من جعل النوم سباتاً ؟ أي النوم آية، يعني الشيء الذي يعرفه العلماء عن الجسم البشري يفوق حد الخيال، ومع ذلك يقول لك أحد العلماء لازلنا لم تبتل أقدامنا بعد ببحر المعرفة، الإنسان لا يزال كله أسرار، يكشفون كل فترة أشياء لم تكن من قبل.

على كل، الآية اليوم قوله تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آَيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

[سورة الذاريات]

أي إذا أردتم اليقين القطعي، الأرض كلها آيات، والسماء كلها آيات، وأقرب الآيات لكم:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

دقق، وتأمل، وفكر، وتعرف إلى الله عز وجل، وتعرف إلى منهجه، طبق منهجه، تسعد في الدنيا وفي الآخرة، وفي درس آخر إن شاء الله تعالى، ننتقل إلى قوله تعالى:

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ(23))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الذاريات 051 - الدرس (4-7): تفسير الآيتان 22-23 ، الرزق و شروطه
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-07-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة الذاريات، ومع الآية الثالثة والعشرين.

الله عز وجل موجود بذاته ولا يعتمد في وجوده على ما سواه:

قال تعالى:

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ(23))

[سورة الذاريات]

سيكون الدرس الحالي حول هاتين الآيتين، أيها الأخوة: بادئ ذي بدء هناك واجب الوجود، وهناك ممكن الوُجود، وهناك مستحيل الوجود، فواجب الوُجود هو الله سبحانه وتعالى، وممكن الوُجود هو ما سِوى الله تعالى، ومستحيل الوجود لا يمكن أن يوجد، كيف ؟ فلا يمكن أن يكون الجزء أكبر من الكل، ولا يمكن أن يكون الابن قد وُلِد قبل الأب، هذه أشياء يستحيل على العقل تصديقها، مستحيلٌ أن يكو ن هناك إلهٌ مثل الله تماما ! فهناك واجب الوجود هو الله جل جلاله، وهناك ممكن الوجود وهو ما سوى الله ؛ الكون وما فيه من مخلوقات، وهناك مستحيل الوجود، دَعونا من مستحيل الوجود ولنَبْق في واجب الوجود وفي ممكن الوجود.

الله عز وجل موجود بذاته، واحِدٌ أحد فرْد صَمَد، ولا يعتمد في وجوده على ما سواه، ولا في استمرار وجوده، قال تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (4))

[سورة الإخلاص]

أكبر شيئين في حياة الإنسان وُجوده ورزقه:

لكن ممكن الوجود، الآن دققوا: مفتقر في وجوده إلى مَن يوجِدُهُ، ومُفْتَقِرٌ في استِمرار وجوده إلى مَن يُمِدُّهُ، ونحن من بني البشر، وهذه صِفتنا، مفتقرون في وجودنا إلى الله تعالى، وهو الذي أوْجَدَنا، وهو الذي خلقنا، قال تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

[سورة الإنسان]

ومفتقرون في استِمرار وُجودنا إلى من يُمِدُّنا بالهواء وبالماء، والطعام والشراب، وبالزوجة، وبالأجهزة ؛ القلب و الرئتين، وبالمعدة، والأمعاء، والكليتين، والأنسجة، والأوردة، والشرايين، فالإنسان جزءٌ من ممكن الوجود، وهو الكون، ومن خصائص ممكن الوجود أنّه مفتقر في وُجوده إلى من يوجِدُهُ وهو الله جل جلاله، ومفتقر في استمرار وُجوده إلى من يُمِدُّه.

لذلك الله جل جلاله هو الخالق أي الموجِد، وهو الرب أيْ هو المُمِدّ، خلقنا وأمدّنا بِكُلّ ما نحتاج لذلك الله عز وجل خالق يعني موجدٌ، ورازق يعني مُمِدّ، وأكبر شيئين في حياة الإنسان وُجوده ورزقه لأنّ وُجوده من دون موجِد عدم، ولأنّ رزْقه من دون رازق موت ! لذلك من أسماء الله الحسنى أنّه هو الرازق.

للإنسان ثلاث حاجات أساسية هي:

1 ـ حاجة الإنسان إلى الطعام و الشراب لاستمرار وجوده:

شيءٌ آخر، هذا الإنسان أودع الله فيه حاجة إلى الطعام والشراب ؛ مِن أجل اسْتِمرار وُجوده، فلو لم يودِع فيه هذه الحاجة ونَسِيَ أن يأكل لمات، فهذه الحاجة هي التي تدْفعه للأكل والشرب، هل هناك قانون في الأرض يُلْزِم الناس بالطعام والشراب ؟ مستحيل، لأنّ الجوع هو الذي يأكل كبد الإنسان، ينطلق إلى الطعام والشراب من أجل أن يسدّ هذه الحاجة، فهناك حاجة أساسيّة إلى الطعام والشراب، وهذه الحاجة مِن أجل بقاء الفرْد.

2 ـ حاجة الإنسان إلى الزواج لاستمرار النوع:

وهناك حاجة لا تقلّ في قيمتها عن حاجة الطعام والشّراب، وهي الحاجة إلى الزواج، هذه من أجل بقاء النوع.

3 ـ حاجة الإنسان إلى تأكيد الذات:

وهناك حاجة ثالثة لا تقلّ عن الأولى والثانية إلا أنّها ليْسَت ماديّة ؛ حاجة إلى بقاء الذِّكر، أو إلى تأكيد الذات، أو إلى الشعور بالأهميّة، هذه الحاجات الثلاث، الله سبحانه وتعالى حينما خلقها في الإنسان خلق ما يُلبّيها، فما دام أنّه خلق فماً، ومعِدةً، وأمعاء، وكبِداً، و دماً، وإحساساً بالجوع فلا بدّ أن يوجِدَ لهذا

الجسم ما يسدّ جوعه، ثمَّ إن الله سبحانه وتعالى ما دام قد أوْدَع في الإنسان الحاجة إلى الزواج فلا بدّ من أن يخلق الإنسان ذكراً وأنثى.

تساوي الذكر و الأنثى في التشريف و التكليف و اختلافهما في الخصائص:

للذّكر خصائصُهُ الجِسْميّة والعَقليّة والنّفسيّة والاجتماعيّة، وللأنثى خصائصُها الجِسْميّة والعَقليّة والنّفسيّة والاجتماعيّة، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

[سورة النجم]

الذّكر والأنثى (يشكل سريع) متساوِيان تساوياً تاماً عند الله في التكليف والتشريف والمسؤوليّة، ومختلفان اختلافاً كبيراً في الخصائص لأنّ كلاً منهما له خصائص تناسب وظيفته قال تعالى:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

[سورة آل عمران]

كل مخلوق على سطح الأرض له رزق يصله بأية طريقة:

ثمّ إنّ الله سبحانه وتعالى أوْدَعَ في الإنسان الرغبة إلى تأكيد ذاته، وإلى الإحساس بالأهميّة، وهذه هي الوقائع الثلاث التي أوجدها الله في الإنسان وما أوْجَدَها إلا وأوجَدَ ما يسدّها أو يُلبّيها، ما أوْجَدَها إلا وأوجَدَ ما يسدّها.

لذلك الله جل جلاله هو الرزاق ذو القوة المتين، يرزق النملة السوداء على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، ولو تبحّرْتَ في اسم الرزاق لوجدْت العجب العُجاب، لو تبحّرْتَ في اسم الرزاق ولو جدت الشيء الذي لا يوصف، فكلّ مخلوق يصلُهُ رزقه بطريقة أو بأخرى.

امتحان الإنسان من خلال بقائه في المجتمع:

أيها الأخوة الكرام: هناك شيء آخر، وهو أنّ الإنسان طاقاتهُ وإمكاناته تُتيحان له أن يُتْقِنَ اخْتِصاصاً واحِداً، أو اخْتِصاصين، أو ثلاثة، لكنّه بحاجة إلى ملايين الحاجات، إذاً هو مَقهور أن يكون في مجتمع، لو كتبت على ورقة ما تستهلكه في اليوم الواحد ؛ تحتاج إلى خبز، إلى ماء، إلى طعام، إلى شراب، إلى بيت، إلى فراش، إلى غرف، إلى تعليم، و إلى طبابة، أي تحتاج إلى أشياء لا تعد ولا تحصى، وقد يسّر الله لك عملاً واحِداً أو اخْتِصاصاً واحداً، ما معنى ذلك ؟ أنّك مقهور أن تكون في مجتمع .

الآن من خِلال حاجتك إلى الطعام والشراب تنطلق إلى العمل، ومن خلال حاجتك إلى الزوجة تنطلق إلى الزواج، ومن خلال حاجتك إلى تأكيد الذات تنطلق إلى أعمال تسعى إلى أن تكون لك نِبْراساً في المجتمع، ومن أجل حاجتك إلى آلاف المواد تعيش في مجتمع، كلّ هذا من أجل أن تُمْتَحن بالخير أو الشرّ، وبالعطاء أو الحِرمان، وبالإحسان أو الإساءة، وبالصّدق أو الكذب، وبالإخلاص أو الخيانة، وبالاستقامة أو الانحراف، بالكبر أو التواضع، وبالإنصاف أو الجحود، ومن خِلال العمل، ومن خلال الزواج، ومن خلال تأكيد الذات، ومن خلال بقائك في المجتمع تُمْتَحَن أشدّ الامتِحان، قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

[سورة الملك]

وقال تعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت]

الأعمال الصالحة ثمن الجنة:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

[سورة العنكبوت]

إذاً أنت في الحياة الدنيا مُبْتَلى من أجل أن تعمل عملاً صالحاً يُؤهِّلُكَ لِجَنَّة عرضها السماوات والأرض، فأنت مخلوق للجنة، للجنة وحدها، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

ليعرفوني فيُطيعوني فيسْعدوا بِقُربي في الدنيا والآخرة، وهذا هو الهدف.

أنواع الرزق:

1 ـ نوع ميسور بلا ثمن:

الرزق أيها الأخوة أنواع ؛ نوع مَيْسور بلا ثمن، الهواء، ولو كان الهواء بالثّمن و بالقسائم، وبالاحتِكار لهلَكَ الناس.

2 ـ نوع يحتاج إلى سعي:

نوع يحتاج إلى سعي طفيف كالماء ليس له ثمن، وثمنه ثمن خدماته، وتوفيره من مكان إلى مكان، نوع يحتاج إلى ثمن، ونوع يحتاج إلى عمل.

وهناك أنواع مُنَوّعة من الرِّزق أوْدَعها الله تعالى في الأرض، وبعضها تستخدمهُ مباشرةً، وبعضها يحتاج إلى تدخّل من جهد بشري، ومن خِلال هذا الجُهْد البشري المَبنيّ على العِلم والعمل يُمْتَحَنُ الإنسان فيرْقى أو ينْحَدِر.

الثوابت و المتغيرات في الكون:

أيها الأخوة الكرام، شيء آخر في الموضوع، وهذه كلّها موضوعات تَمْهيديّة ؛ هناك في الكون ثوابت ومُتَغَيّرات، فمن الثوابت مثلاً دورة الأرض حول نفسها، ومن خلال آلاف السنوات بل مئات ألوف السنوات، بل مئات مئات ألوف السنوات ما رأينا مرة الأرض توقّفت عن الدّوران، تدور بسرعة ثابتة، وتتحرّك بمواقيت موزونة، بشكل مذهل، حتى إنّ أدق الساعات في العالم تُضبْط على حركة الكواكب، فحركة الأرض حول نفسها، وكذا حركتها حول الشمس، وميْل مِحورها من الثوابت، لكنّ نزول الأمطار من المتغيّرات، مع إنّ الأمطار مَبْنِيّة على عِلمٍ دقيق إلا أنّ مفتاح التشغيل بيد الله عز وجل، فلو نظرت إلى آلةٍ بالغة التعقيد ؛ كلّ شيء يعمل فيها بانتظام، ولكن لهذه الآلة مفتاح إن لم تدر هذا المفتاح الآلة لا تعمل.

فالأرض من الثوابت، أما نزول الأمطار فَمِن المتغيّرات، والذي يُدْهش أنّ الله سبحانه وتعالى جعل الثوابت لِيَسْتقرّ الكون على نِظام ؛ نِظام الأيام والأسابيع والشهور والسنوات، ونِظام الليل والنهار، ونِظام الفصول هذه كلّها ثبّتها الله عز وجل، ومن الثوابت خصائص الأشياء، فالحديد صلب ما قولكم إذا كان الحديد مرة صلباً، ومرة مائعاً ؟ بعد أن أشدت البناء وقع، تغيرت خصائص الحديد، الحديد حديد، والنحاس نحاس، والفضة فضة، والرصاص رصاص، وبذرة الخيار خيار، والتفاح تفاح، والأجاص أجاص، فخصائص الأشياء ثابتة، هذه من الثوابت، خصائص الأشياء.

الهدف من التثبيت الاستقرار و الهدف من التغيير التربية:

نزول الأمطار من المتغيّرات فلمَ ثبّت ؟ ولمَ غيّر ؟ الذي ثبّته من أجل الاستقرار، والذي غيّره من أجل التربية، فالأب يُعطيك غرفة في البيت لك وحدك ً دائمة بشكل ثابت، أما المصروف فقد يدفعه إليك أو لا يدفعُه تأديباً وإثابة لك، فالثوابت كي يستقرّ الكون، والمُتغيّرات كي يُربّى الإنسان، إذا الرّزق متغيّر.

الفرق بين الرزق و الكسب:

أوّلاً هناك موضوع دقيق وهو ما الفرق بين الرّزق والكسب ؟ الرّزق ما تنتفِعُ به فقط، فالطعام الذي أكلته، والقميص الذي ترتديه، والسرير الذي تنام عليه، والبيت الذي تسكنه ؛ والطعام الذي تستهلكه، هذا فقط ووحده هو الرّزق، وأما الكسب فقد يكون لك في الحِساب مئات الألوف، أو بضعة ملايين، أو مئات الملايين، أو عشرات مئات الملايين لكنّها كسب وليس رزقاً، فالكسب حجمك المالي، أما الرّزق فهو مستهلكاتك، الكسب كلّه تُحاسب عليه ولا تنتفع به، لكنّ الرّزق تُحاسب عليه، وتنتفع به، أما انْتِفاعُكَ به فعلى ثلاثة أقسام ؛ قِسْمٌ تسْتَهلكُهُ كالطّعام والشراب، وقِسمٌ يَبلى كالثِّياب، وقِسمٌ يبقى كالصّدقات يقول ابن آدم مالي مالي، وليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفْنَيْت، أو لبِسْت فأبْلَيت، أو تصدّقْتَ فأبْقيت، من التي لك الثُلث، وما سِوى هذه الثلاثة ليست لك، قال عليه الصلاة والسلام:

((لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ))

[رواه الترمذي عن أبي بزرة الأسلمي]

الرزق أنواع كالطعام و الشراب و الزوجة و العلم:

أيها الأخوة، أُريد أن أقول لكم حقيقة، وهي أنّ الرّزق أنواع، هناك رزق كالطعام والشراب، وهناك رزق من النوع الثاني كالزوجة رزق، قال تعالى:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة البقرة]

لما سُئِل أحد العلماء الكبار عن حسنة الدنيا قال: هي المرأة الصالحة، فالمرأة الصالحة رزق، والعِلم رزق، والدليل قوله تعالى:

(وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)

[سورة الواقعة]

رزْقُ العلم حُرِمْتُم منه:

(وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)

[سورة الواقعة]

فكما أنّ الإنسان بحاجة إلى الطعام والشراب فَمِن الرّزق الطعام والشراب، وكما أنّه بحاجة إلى الزوجة فمن الرزق الزوجة، وكما أنّه بحاجة إلى عُلُوّ الذِّكر فالعِلم والحكمة من الرّزق، وما استرذل الله عبداً إلا أحضر عليه العِلم والأدب.

الرزق أداة ابتلاء:

أيها الأخوة الكرام، الرّزق هو الذي تنتفعُ به، والكسب هو الذي لا تنتفعُ به، وكلاهما تُحاسب عنه، الآن الرّزق أداة ابتِلاء، وأداة ثواب، وأداة عِقاب، أما أنّه أداة ابتلاء فالإنسان يُمْتحن بما أُعْطِيَ، ويُمْتَحن بما حُرِم ! أيْ أنّ الغنيّ مُمْتحنٌ بالغنى، وأنّ الفقير مُمْتحنٌ بالفقْر، فإذا نجَحَ الغنيّ في امْتِحانه كَسِب الدنيا والآخرة، وإذا نجح الفقير في امْتِحانه كسب الدنيا والآخرة، الإنسان ممتحن فيما أعطي، وممتحن فيما حرم، وربما كان امْتِحان العطاء أشدّ على الإنسان، فالفقير مثلاً خِياراته قليلة، وخياراته محدودة، يمتحن بالصبر فقط، لكنّ الغني عنده ألف خيار وخيار لِيَعصي الله تعالى، فإذا قال: إنّ أخاف الله ربّ العالمين، كان صَبْر الغني في الابتِلاء أشدّ من صبر الفقير، والضعيف خياراته محدودة، ولكنّ القوي بإمكانه أن يفْعل ويفْعل، وأن يؤذي ويسْحق، ومع ذلك حينما يكفّ يدهُ عن ظلم الناس خوفًا من الله فقد دفعَ الثمن باهظًا، لذا الإنسان يُمتحن فيما أعطي، ويمتحن فيما أُخِذ منه، ومن عادتي أنّني أقول لإخوتي الكرام دائماً إن رأيْتُهُ في بَحبوحة أقول له: هذه مادّة امْتِحانك مع الله تعالى، هل تؤدِّي شُكْر هذه النِّعمة ؟ وهل تدفَعُ جزءاً من هذا المال للفقراء والمساكين ؟ وحينما أرى إنسانًا آخر مُبْتَلى أقول له الكلمة نفسها ؛ هذه مادّة امْتِحانك مع الله تعالى.

العِبرة في خواتم الأعمال:

أيها الأخوة الكرام، الرّزق ابْتِلاء، وإنّ مِن عبادي مَن لا يصْلُحُ له إلا الفقر فإذا أغْنيْتُهُ أفْسَدتُ عليه دينه، وإنّ من عبادي من لا يصْلُحُ له إلا الغِنى فإذا أفْقرتُهُ أفسدتُ عليه دينه، فأنت ممتحن بالفقر و ممتحن بالغنى، ولكن لو أنّ إنسانين عاشَا ثمانين عاماً ؛ أحدهما فقير، والثاني غنيّ، لو أنّ الفقير نجَحَ في امتحان الفقر، ولو أنّ الغنيّ رسب في امتحان الغنى، ما النتيجة ؟ أنّه بعد الموت يسْعد الفقير في

جنّة ربّه إلى أبد الآبدين، ويشْقى الغنيّ الذي رسَب في امتِحان الغنى يشقى في جهنم إلى أبد الآبدين، إذًا العِبرة في خواتم الأعمال والعبرة كما قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

امتحان الفقر أهْون من امتحان الغنى:

الدنيا إن أتَتْ أو لم تأت لم تكن مِقياساً لإرضاء الله عنك، فالله عز وجل أعطى المال لمن لا يحبّه ؛ قارون، وأعطاه لِمن يحبّه ؛ سيّدنا سليمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، ولبعض أغنياء الصحابة كسيّدنا عثمان رضي الله عنه، فالمال يُعطى وليس هو دليل الرّضا، ويُمْنع، ولا يعني أن منعهُ دليل الفقْر، النبي عليه الصلاة والسلام سئِل: أتُحِبُ أن تكون نبيّاً ملكاً أم نبيّاً عبداً ؟ فقال:

((نبيّاً عبْداً، أجوعُ يوماً فأذْكُرهُ، وأشْبَعُ يوماً فأشْكُرُهُ))

ولعلّ النبي عليه الصلاة والسلام لِحِكمة بالغة أراد الأقرب إلى العبوديّة، وأراد الأسلوب من امتحان الغنى، فامتحان الفقر أهْون من امتحان الغنى، ويكفي أن تقول حسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، أما الغني هناك ألف مُنزلقٍ ومنزلق أمامه، فإذا نجا من هذا قد لا ينجو من الثاني.

الرزق أداة ثواب و عقاب:

أيها الأخوة، والرّزق أيضاً فضلاً على أنّه أداة ابتِلاء هو أداة ثواب وعِقاب والدليل ؛ أما العِقاب ورد في الحديث الشريف:

((قد يُحرم المرء بعض الرّزق بالذّنب يُصيبه، فمن نمّى ماله بالربا يمحقها الله، وأكل مالاً حرامًا أهلك الله ماله، وأهلكه معه))

فالرّزق أحيانًا أداة عِقاب، وأحيانًا أداة ثواب، قال تعالى:

(وَأَ لَو اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً)

[سورة الجن]

قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

[سورة المائدة: الآية 66]

إذاً الرّزق من المتغيّرات، وأداة ابْتِلاء، وأداة ثواب، وأداة عِقاب.

ضَمان الله عز وجل الرّزق المفيد للإنسان:

أما أنه مضمون، فقوله تعالى:

(فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)

[سورة الذاريات]

ما دام هذا الفم خُلِقَ لِيَأكل فلا بدّ له مِن طعامٍ وشراب، فالرّزق مضمون وقد يكون في حدوده الدنيا، فلا أحد يعلم أن هذا الطعام الخَشِن الذي يأكله المحرومون ربما كان في من المواد الغِذائيّة ما يفوق الطعام الثمين، فأمراض القلب في البلاد الصِّناعيّة الغنيّة ثمانية أمثال، وبالمناسبة قد أُجْرِيَت دِراسة على طعام الشّعوب في كلّ أنحاء العالم، فكان طعام شُعوب حوض المتوسِّط (وهي شُعوب فقيرة) أفضل طعام في العالم، والسبب أنهم يُكثرون من المواد السيللوزيّة، وهذه المواد تَصون الغشاء المخاطي في الجهاز الهضمي، وتمتصّ الكولسترول الزائد، وتُسْرِع في انتقال الطعام وإخراجه.

ًإذا الطعام الخشن غير العصير، غير المعالج، طعام مفيد جداً، واكتشفوا أيضاً أنّ هذه الشّعوب تُكْثِر من البروتينات النباتيّة كالحمص والفول، وهذا أسلم للجسم من اللحم الذي قد يؤذي كثرته، ثمّ إنّهم يستعملون زيت الزيتون، وهو من أفضل الدهون التي تُعين على مرونة الشرايين والإنسان عُمرهُ من عمر شرايينه.

دراسة دقيقة أجريت في مقارنة فيما بين الطعوم التي يأكلها الشعوب، وجد أن الطعام الذي في البلاد التي هي في الحوض المتوسط، وهي في الأعم بلاد فقيرة، أفضل طعام على الإطلاق، لذلك ضَمِن الله عز وجل الرّزق المفيد.

زيادة الرزق يكون بـ:

1 - الإيمان و التقوى:

أما الترف فأن تأكل عشاءً بِخَمسين ألفًا، هذه ليست مضمونة للكل، للمترفين مضمونة، أما أن تأكل ما يقيم أودك، هذا للجميع، الرزق مضمون، والرزق موزون، فهناك حِكمة بالغة مِن كون هذا الرّزق وافِراً أو قليلاً، ولكن السؤال الدقيق: هذا الرّزق هل يزيد أو ينقص ؟ الجواب: نعم، يزيد وينقص، والأدلّة كثيرة، وأوّل دليل قوله تعالى:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة الأعراف]

فالرّزق يزيد بالإيمان والتقوى.

2 ـ الاستقامة:

يزيد أيضاً بالاستقامة، قال تعالى:

(وَأَ لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا)

[سورة الجن]

3 ـ التزام أحكام الشرع:

يزيد بالْتِزام أحكام الشرع، قال تعالى:

(وَلَوْ أَنّهُمْ أَقَامُوا التّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ)

[سورة المائدة]

فالرّزق إذًا يزيد بالطاعة والإيمان والتقوى، والاستقامة وهذه الأدلة، ثلاث آيات قرآنية:

4 ـ الاستغفار:

والرزق يزيد بالاستغفار، قال تعالى:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبّكُمْ إِنّهُ كَانَ غَفّاراً (10) يُرْسِلِ السّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12))

[سورة نوح]

يزيد بالاستقامة والأيمان والطاعة، ويزيد أيضا بالاستغفار.

5 ـ إقامة الصلاة:

ويزيد الرّزق بإقامة الصلاة، قال تعالى:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتّقْوَى)

[سورة طه]

بيتٌ تُقام فيه الصّلوات ؛ هذا بيتٌ في الأعمّ الأغلب ؛ الله سبحانه و تعالى يرزقه فالرّزق ليس بالذّكاء ولكن بالتوفيق، والرّزق ليس بالحركة الطائشة الدؤوبة، ولكن بتَوفيق الله تعالى، إذا الالتزام يزيد في الرزق، والاستغفار يزيد في الرزق.

6 ـ الصدقة:

وفي الحديث الشريف الصدقة تزيد في الرّزق قال تعالى:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصّدَقَاتِ وَاللّهُ لَا يُحِبُّ كُلّ كَفّارٍ أَثِيمٍ)

[سورة البقرة]

المال الذي تنفق منه الصدقات يربو و يزيد وقد قال عليه الصلاة والسلام: استمطروا الرزق بالصدقة **!** أيْ إذا أردْتم رزقًا وفيرًا فتصدّقوا، ولِحِكمة أرادها الله عز وجل على الآلة الحاسبة الإنفاق ينقص المال، ولكن القرآن الكريم على كلام خالق الكون الإنفاق يزيد المال، فالإنفاق بالحسابات المادِّية ينقصه، لكنه بالحِسابات الربانيّة يُنمّيه يكثرهُ، لذلك ما نقص مال من صدقة.

7 ـ الإتقان:

شيء آخر، وهو أنّ الرّزق يزيد بالإتقان، فإتقان العمل جزء من الدِّين و هو أحد أسباب الرّزق، لأنّ الله يحبّ من العبد إذا عمِلَ عملاً أن يُتْقِنَهُ، وأنتم أمام هذه الحقيقة وجهاً لِوَجه، فكلّ أصحاب المصالح المتقِنون لا يتعطّلون، مهما عمّ الكساد، ومهما فشت البطالة، ولكنّ المهمِلين إذا صار الكساد تعطّلوا، أما المتقن لا يتعطل، فالإتقان أحد أسباب نماء الرّزق.

8 ـ الأمانة:

والأمانة كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الأمانة غِنًى))

فحينما تكون أميناً تمتلِكُ أكبر ثرْوة في الأرض، ألا وهي ثِقة الناس، الناس يُعطونك أموالهم حينما يأمنوك، فالأمانة غِنَى، وهذا في كلّ المجالات العامّة ؛ في الأعمال التِّجاريّة والصناعيّة والزراعية، فالعامل المخلص الأمين له مستقبل مزهر، ينتهي به الأمر إلى أن يكون صاحب العمل، والذي يخون ويأخذ ما ليس له يُلقى في مزبلة التاريخ، يلقى في المزبلة ويُطرّد، الأمانة غنى بالمعنى المادي، فإذا كنت أمينًا تهافت عليك الناس، وتنافسوا على أن يضمُّوك إليهم، الأمين، وأصحاب الأعمال يغفرون كلّ

خطيئة إلا الخِيانات فقد ترتكب أكبر الأغلاط في العمل،يمكن، أما أن تأخذ ما ليس لك، هذه لا تغفر لذلك ورد في الحديث:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[رواه أحمد عن أبي أمامة]

المؤمن لا يكذب ولا يخون:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[رواه أحمد عن أبي أمامة]

9 ـ صلة الرحم:

أيها الأخوة، الاستقامة، والصدقة، والاستغفار، وإتقان العمل، والأمانة والصلاة ؛ هذه كلّها تزيد في الرزق ! ثمّ إنّ صلة الرّحِم أيضاً تزيد في الرّزق فمن أراد أن يُنسأ له في أجله، و أن يزداد له في رزقه فلْيَصِل رحمه، يوجد شخص إشرافه كان على كل الأسرة، على أخواته، على أصهاره، على أولاد عمه، على من حوله، يواسيهم، يمدهم بالمساعدة، فهذا فالذي يصل رحمه، بالزيارة، والتوجيه، وإنفاق المال، هذا يزيد رّزقه، بشكل أو بآخر، أنت عندما تنفق من مالك، ويجعل الله رزق غيرك عندك، فإذا أردت أن تنفق يأتيك رزق الآخرين إليك لأجل أن تنفق، فالذي ينفق يزداد رزقه، أنْفِق بلالاً ولا تخشى من ذي العرش إقلالاً، وعبدي أنْفِق أنْفِق عليك، ويوجد ثمانية آياتٍ حصْراً وعد الله المُنْفقَ بالخُلف والتّعويض، قال تعالى:

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

[سورة سبأ]

وهذه حقيقة ثابتة في القرآن الكريم.

قلة الرزق مع توافر شروط زيادة الرزق تُعزى إلى حكمة الله عز وجل:

أيها الأخوة الكرام، الرّزق أحد أكبر الموضوعات التي تشغل الإنسان بعد وُجوده، فإذا كان موجوداً فالموضوع الأوّل الذي يشْغلهُ هو الرّزق، وقد ورد أنّ كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرّب أجلاً، كلمة الحق لا تقطع رزقًا ولا تقرّب أجلاً، والله سبحانه وتعالى هو الرزاق.

ولكن هناك سؤال ؛ فقد يقول أحدكم ؛ فلانٌ مستقيم، والاستقامة أحد أسباب زيادة الرّزق، وفلان متصدّق، ومستغفر، ومتقن، ويصل رحمه، وذو أمانة، ويصلي، ويأمر أهله بالصلاة، ومع كلّ هذه الشروط نجد رزقه قليلاً ! فما تفسير ذلك ؟ التّفسير أنّه إذا توافرَت كلّ هذه الشروط، ولم يكن الرّزق

وفيراً، فهذه الحالة النادرة الخاصّة تُعزى إلى حِكمة الله تعالى، وإنّ مِن عبادي من لا يُصلِحُه إلا الفقر، فإذا أغْنَيْتُهُ أفْسَدتُ عليه دينه، ولأنّ الله تعالى عَلِم ما كان، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون استسلم، وإنّ الله ليَحْمي صفيّه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام، وإنّ الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا، كما يحمي الراعي الشّفيق غنمه من مراتع الهلكة، وليس في الإمكان أبدع مما كان، وليس في إمكاني أبْدعُ ممّا أعطاني.

أيها الأخوة الكرام، إنّ مِن عبادي من لا يُصلِحُه إلا الفقر، فإذا أغْنَيْتُهُ أفْسَدتُ عليه دينه، إنّ مِن عبادي من لا يُصلِحُه إلا الغنى، فإذا أفقرته أفْسَدتُ عليه دينه، وهذه متى تعرفها ؟ يوم القيامة، يوم يكشف عن ساق، حينها يكشف لك عن حكمة أفعال الله معك، لا تملِك إلا أن تقول: الحمد لله رب العالمين، قال تعالى:

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة يونس]

الرزق الوفير لا ينفع الإنسان إن حُجب عن رحمة الله:

بقي في هذا الموضوع موضوع دقيق، وهو أنّ الرّزق المادي قد يتوافر وتُحْجب عنك رحمة الله، فإذا هذا المال الوفير هو أكبر عدوّ لك، هو سبب طلاق زوجتك، وسبب انحراف أولادك، وسبب عداوتهم لك، وسبب انْشِغالك إلى قمّة رأسك بالمال، وربما كان هذا المال الوفير سبب الشقاء في الدنيا، لذلك اُطْلب من الله رحمته أوّلاً، فإذا جاءك المال وحُجِبَت عنك رحمة الله كان المال وبالاً عليك، وكان المال أكبر عدوّ لك، وربّما قُتِل الإنسان من أجل ماله، وربّما انتَهَتْ حياتُهُ طمعاً بمَاله، وربّما قتله أقرب الناس إليه، لذلك إذا جاءك المال الوفير، وحُجِبَت عنك رحمة الله كالرزق أكبر أعدائك، وأما إذا أعْطيت رحمة الله عز وجل وكان مالكَ قليلاً كان هذا المال القليل فيه بركة، ففي الآلة الحاسبة هناك تسعة أرقام وصفر، فيه زائد، ناقص، فيه جذر، وفيه ذاكرة، وأزرار أخرى ولكن لا يوجد زرّ البركة إطلاقاً، لكنّ البركة حقيقيّة مع المؤمن، فقد يعطيك الله رزقًا قليلاً ويُبارك لك فيه، تأكل وتشْرب وتستمتع، وتُعطي من حولك، شيء عجيب، وقد يُؤتيك الرّزق الكثير فَتُنْفقُه على صحّتك، وتنفقهُ في أصعب الظروف ولأتفه الأسباب تدفع مئة ألف، ومئتي ألف، وأربعة الملايين لغلطة صغيرة تستوجب عشرين عاماً من السّجن، تدفعها لتنجو من السجن، المؤمن المستقيم الله جلّ جلاله يُبارك له في رزقه القليل، لذا إن كان رزقك كفافًا، يكفيك من دون زيادة، فقد أصابتك دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، لا تخف من هذه الدعوة، وافْرَح لها:

((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ))

[رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

المال الوفير للمؤمن الحقيقي أحد مفاتيح الجنة:

وإذا أعطاك الله الرّزق الوفير، وكنت مؤمناً، فاسْجُد لله تعالى، لماذا ؟ لأنّ الله سبحانه وتعالى يُمَكِّنك بهذا المال الوفير أن تصل إلى أعلى الدرجات في الجنّة، بإنفاق المال، دع الأمر له، استسلم له، إن جعلك ذا دخل محدود، وقد عافاك في إيمانك، وفي صحتك، وفي أهلك، وأولادك، فهذه دعوة النبي لك، اللهم من أحبني، فاجعل رزقه كفافاً، وإذا أعطاك المال الوفير على إيمان كبير، كان هذا المال الوفير، أحد مفاتيح الجنة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول وهو لا ينطق عن الهوى:

((لا حَسَدَ إلاّ في اثْنَتَيْن: رَجلٌ آتَاهُ الله مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُ منهُ آنَاءَ اللّيْلِ وآنَاءَ النّهَار، ورَجُلٌ آتَاهُ الله القُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللّيْلِ وَآنَاءَ النّهَار))

[البخاري عن أبي هريرة]

في مستوى واحد.

لذلك خُذْ من الدنيا ما شئت وخُذ بِقَدَرِها همّاً، ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه، أخذ من حتفه وهو لا يشعر.

الحكمة أعظم أنواع الرزق:

أيها الأخوة، ليس كلّ رزق يكون حتماً مادّياً، فأحيانًا تعد الحِكمة أعظم أنواع الرزق، والدليل قوله تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)

[سورة البقرة]

ومن يؤتى الحكمة، فإذا آتاك الله تعالى الحكمة فعرفت الله سبحانه فقد أوتيتَ خيراً لا يعلمه إلا الله، ماذا أعطى الله الأنبياء الذين أحبوه ؟ هل في الكون كلّه مخلوقات أحبّ إلى الله تعالى من أنبيائِه ورسُله ؟ هل جعلهم أغنياء جميعاً ؟ كان عليه الصلاة والسلام إذا دخَل بيته يقول:

((يَا عَائِشَةُ هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ ؟ قالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللّهِ مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ، قالَ فَإِنّي صَائِمٌ، قالَتْ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَأُهْدِيَتْ لَنَا هَدِيّةٌ أَوْ جَاءَنَا زَوْرٌ، قالَتْ: فَلَمّا رَجَعَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللّهِ أُهْدِيَتْ لَنَا هَدِيّةٌ أَوْ جَاءَنَا زَوْرٌ وَقَدْ خَبَأْتُ لَكَ شَيْئًا، قالَ: مَا هُوَ ؟ قُلْتُ: حَيْسٌ، قالَ: هَاتِيهِ فَجِئْتُ بِهِ فَأَكَلَ، ثُمّ قالَ قَدْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ صَائِمًا، قالَ طَلْحَةُ فَحَدّثْتُ

مُجَاهِدًا بِهَذَا الْحَدِيثِ فَقَالَ ذَاكَ بِمَنْزِلَةِ الرّجُلِ يُخْرِجُ الصّدَقَة مِنْ مَالِهِ فَإِنْ شَاءَ أَمْضَاهَا وَإِنْ شَاءَ أَمْسَكَهَا))

[رواه مسلم عن عائشة]

الرزق القليل أحياناً يكون دافعاً إلى الله عز وجل:

سيّد الخلق، وحبيب الحق، وكان إذا أراد أن يصلّي الليل تنحّي السيدة عائشة رضي الله عنها بعض جسمها ليصلّي، لأنّ الغرفة لا تتسع لصلاته ونومه، أربعمئة متر، ثلاث جبهات مفتوحة، كاشف الشام كله، فالنبي عليه الصلاة والسلام ما كان هكذا بيته، بيته متواضع، ورزقه محدود، وامتحنه الله بالفقر فصبر وبالغنى فشَكر، وامتحنه بالنّصر فتواضع، لما دخل مكة فاتحاً، كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره، ولما امتحنه بالقهر في الطائف، قال إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي.

اِسْعَ أيها الأخ الكريم سَعْياً حثيثاً، وحيثما انتهى بك السّعي، فقل الحمد لله رب العالمين، أنا لا أرضى لأحدكم أن يقعد، و يقول: هكذا أراد الله لي، هذا تواكل، ولا يتّفق مع الإيمان إطلاقاً ولكن إذا سَعَيت سعياً حثيثاً، وانتهى بك السّعي إلى هذا الرّزق فقُل: الحمد لله رب العالمين هذا الذي أراد الله لي، وربما أعطاك فَمَنَعَك، وربّما منعَكَ فأعطاك، وقد يكون الرّزق القليل أحياناً دافِعاً إلى الله عز وجل.

أحد أكبر أسباب السعادة أن يرضى الإنسان بما قسمه الله له:

أيها الأخوة الكرام، حقيقة أقولها لكم ؛ الدنيا العريضة، والأموال الطائلة، والبيوت الفاخرة، والمركبات الفارهة، والرزق الوفير، والتّمتع بمباهج الدنيا، في البلاد الغنية، جعلت بينهم وبين الله تعالى حِجاباً، والفقر أحياناً، والحاجة أحياناً، والشدّة أحياناً دافِعٌ لنا إلى باب الله تعالى، فربما أعطاك فَمَنَعَك، بالتعبير العامي خذها وانمحي، وربّما منعَكَ فأعطاك، أعطاك العلم الغزير، وأعطاك الحِكمة، وأعطاك معرفته، و أعطاك سُبل الجنّة وأعطاك سعادة الدنيا والآخرة، لذا قُل: يا رب لك الحمد، لا تعترض على رزق الله عز وجل، فأحد أكبر أسباب السّعادة أن ترضى بما قسَمَهُ الله لك، الله قسم لك هذا الدخل، قسم لك هذه الزوجة التي فيها ألف علة، الله قسم لك إياها، ارضَ بها، دارها تعش بها، قسم لك هذا البيت، أخي صغير، ماشي الحال، مأوى، معك مفتاح بيت، كان عليه الصلاة والسلام يقول إذا دخل بيته: الحمد لله الذي آواني، وكم ممن لا مأوى له، معك مفتاح بيت.

الغنى الحقيقي أن يكون الإنسان معافى في جسده:

والغِنى الحقيقي أن تكون مُعافىً في جسدك، كلية واقفة، ثمانمئة ألف، دسام خمسمئة ألف، فأنت إن أردْت أن تحْسب ثمن أجهزتك السليمة، مئة مليون حقها، التي في الجسم لوجدتها لا تُحسب بالمال، فشَل كلوي بالأسبوعين غسيل كلوي، تقف بالدور ثمان ساعات، الجلسة ست ساعات، بقول لك تبخش بدني، لم يعد هناك محل، يبقى بالمئة عشرون من حمض البول، يجعلك إنساناً عصبياً، لا تحتمل أحداً، شيء غير معقول، الذي كليته سليمة، وقلبه سليم، والدسامات سليمة، والشريان التاجي مفتوح، يستطيع المشي، ينام، يقف، يقدر أن يفرغ مثانته من دون مشكلة، هذا غنى كبير:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[رواه ابن ماجه عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْأَنْصَارِيِّ]

هذا كلام النبي، كلام رسول الله، الذي لا ينطق عن الهوى:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

وكان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ من نومه يقول:

((الحمد لله الذي ردّ إليّ روحي))

أيْ أنّ الله سمح لي أن تعيشَ يوماً جديداً، ويقول:

((الحمد لله الذي عافاني في بدني))

يقف، بصر سليم، سمع سليم، حركة سليمة، قضى حاجة، ما فيه مشكلة، الطرق سالكة كلها، انتهى ثم يقول:

((والحمد لله الذي أذن لي بذكره))

موضوع الرزق من أكبر الموضوعات بعد وجود الإنسان:

إخواننا الكرام، موضوع الرّزق من أكبر الموضوعات بعد وجود الإنسان، لذلك أن تعرف أسبابه، أن تعرف وحكمته، وأن تعرف أسباب زيادته و أسباب نقصانه، وكيف تنفقه، هذا جزء من الإيمان، وآية اليوم، قوله تعالى:

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ(23))

[سورة الذاريات]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الذاريات 051 - الدرس (5-7): تفسير الآيات 24-46 ، المؤمن المستقيم يعلم أن الله يراقبه في كل أعماله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-07-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة الذاريات، ومع الآية الرابعة والعشرين.

من دلائل نبوة الرسول الكريم إخباره بأخبار الأمم السابقة:

قال تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ)

[سورة الذاريات]

هل حرف استفهام، والاستفهام هنا استفهام إنكاري، أيْ لم يأتك، فمِن أين جئتَ بهذه الأخبار ؟ إنَّه من دلائل نبوّة النبي عليه الصلاة والسلام، هناك في القرآن الكريم أنواع ثلاثة من الأخبار ؛ غَيبُ الماضي، وغيبُ الحاضر، وغيب المستقبل، وهذه القصّة من غيب الماضي، وهي من دلائل نبوّة النبي عليه الصلاة والسلام، يعني أنت نشأت في الصحراء، وأنت أُمّيٌّ قال تعالى:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

[سورة العنكبوت]

أمية النبي عليه الصلاة و السلام كمال فيه و ليست نقصاً:

أُمِّيّة النبي عليه الصلاة والسلام كمال فيه لأنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي علّمَهُ، قال تعالى:

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7))

[سورة النجم]

ولو أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم تلقّى من ثقافة عصره الشيء الكثير، ثمّ جاءه الوحي العظيم، لكان هناك سؤالٌ لا يبْرح أذهان أصحابه ؛ فكلّما قال شيئاً يُقال له: أهذا وَحْيٌ أم مِن ثقافتك ؟ أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون كلّ نُطق النبي عليه الصلاة والسلام وحياً يوحى، فهو معصوم عن الخطأ في أقواله وأفعاله وإقراره وصفاته، و علّمه الله جلّ جلاله، وقطعه الله عن ثقافة عصره فهو أُمِيّ لا يقرأ ولا يكتب، قال تعالى:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

[سورة العنكبوت]

فهل أتاك أي لم تأتِكَ يا محمّد قبل هذا تلك الأخبار، إنّها من عند الله عز وجل الذي يعلم السرّ وأخفى، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن.

قدوم الملائكة إلى سيدنا إبراهيم على شكل ضيوف كرام:

قال تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ)

[سورة الذاريات]

ضيف إبراهيم هم الملائكة عليهم السلام، جاؤوا هذا النبي العظيم، جاؤوا أبا الأنبياء، على شكل ضيوف، ومن شيمة الأنبياء الكرم، فهم مُكرمون:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ)

قال علماء التفسير: إما أنّ إبراهيم عليه السلام بالغ في إكرامهم فصاروا مكرمين أو أنّهم من طهارتهم واستقامتهم مُكَرّمون.

استقامة الإنسان و أعماله الطيبة تجعله مكرماً عند الله و عند الناس:

الإنسان باسْتِقامته، وترفّعه عن السّفاسف، وتعلّقه بالكمالات، وباتِّصاله بالله عز وجل يُكرّم عند الله، وعند الناس، فَفُلانٌ من الناس مُكرّم باسْتِقامته ومكرم بإكرام الناس له، وكِلا المعنيَيْن يصِحّ في هذه الآية يمكن أن تستقيم، و أن تلتزمَ الصِّدق، وأن تؤدِّي الأمانة إلى أهلها، وأن تفي بالوعد، وأن تنجز الوعد، عندئذ أنت مكرّم عند الناس وعند الله تعالى، فأعمالك الطيّبة تنتزع تكريم الناس لك، واستقامتك تلفت النّظر، وعِفّتك تلفت النّظر، وإقبالك على الله يلفت النّظر، فأنت بإمكانك أن تكرّم نفسَك بِتَرفُّعها عن الدّنايا، وحينما تكرّم نفسَك بالتّرفّع عن الدنايا يُكَرّمك الله عز وجل عن طريق تكريم الخلق لك، قال تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

[سورة طه]

أيْ ألْقَيْتُ حُبّك في قلوب الخلق، وما أخْلص عبدٌ لله عز وجل إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودّة والرّحمة، وأثمن ثرْوةٍ، وأعظم رأسمالٍ تملِكُهُ ثِقة الناس بك، ومحبّتهم لك.

التواضع، العفة، الصدق، و الإخلاص كمالات ترفع الإنسان عند ربه:

إذاً وقفة دقيقة، فأنت باسْتِقامتك، وعِفّتك، وطهارتك، وصِدقك، ووفائِكَ بعَهدك، وإنجازك لِوَعدكَ، وترفُّعِكَ عن الدّنايا تتكرّم في ذاتك والناس يُكَرّمونك، فإذا فعَلْتَ هذا كرّمَكَ الله تعالى جزاءً، وألقى حُبّك في قلوب الخلق، وألقى مهابَتَك في قلوب الخلق، وجعل قلوب الخلق تميل إليك، فإذا أردْت عِزّاً بلا سلطان، و إذا أردت رِفعة بين الناس فكُنْ مع الله، وأخْلِص لله، واسْتَقِم على أمر الله، وأقْبِل على الله تعالى، وإذا أحبّ الله عبداً ألقى حُبّه في قلوب الخلق ، قال:

يُنادى له في الكون أنّا نُحبُّه فيسْمَعُ من في الكون أمر مُحِبّنا

* * *

والشيء الآخر، أنّ الكمال محبوب، والعِفّة مُعظّمة، والصِّدْق مُبجّل، والكرم يُمال إليه، فالكريم، والصادِق، والعفيف، والمتواضع، والمخلص، والوفي، هذه الكمالات هي التي ترفع الإنسان عند الله، بربِّكم، النبي عليه الصلاة والسلام أليس خطيباً من أعظم الخطباء ؟ بلى، أليس عالماً من أجلّ العلماء ؟ بلى، أليس قائداً سياسيًا مُحنّكا ؟ بلى، أليس أباً كاملاً ؟ بلى، أليس زوجاً ناجحاً ؟ بلى، أليس أخًا وفيًا ؟ بلى، أليس خطيباً مفوهاً ؟ بلى، أليس حكيماً ؟ بلى لمّا أراد الله أن يمْدحَهُ ؛ بماذا مَدَحَهُ ؟ قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم]

ما الذي يُعْتمد عند الله ؟ الخُلق العظيم، **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ.**

الْمُكْرَمِينَ: كلمة لها عدة معان منها:

فلذلك قال تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ)

[سورة الذاريات]

1 ـ إبراهيم عليه السلام بالغ في إكرام الملائكة:

المعنى الأوّل أنّ إبراهيم عليه السلام بالغَ في إكرامهم فَهُم مُكْرمون.

2 ـ الملائكة لطهارتهم صاروا مكرمين:

والمعنى الثاني أنّ الملائكة لِطهارتهم، وإقبالهم، وتعلّقهم بالله عز وجل صاروا مُكَرّمين.

3 ـ المعنى العملي بأن الله إذا أحب إنساناً مستقيماً أكرمه:

الآن المعنى العملي، أيٌّ واحدٍ من المؤمنين إذا جَهدَ في ضَبَط نفسِهِ، و ضبط أعضائِهِ وجوارحه، وضَبَط دَخْله وإنفاقه، وضبط بيته وعمله، وكلّ شؤون حياته وفق منهج الله، الناس يُكَرّمونه بشكل عفوي، فالناس يُحِبُّون الصادق، ويُحِبُّون المنْصِف، ويُحِبُّون المتواضع، ويُحِبُّون العفيف، ويُحِبُّون الأمين، ويُحِبُّون المستقيم، لذلك أنت تُكرّم نفسك بالاسْتِقامة، فيُكَرّمك الله تعالى بإلقاء حُبّه في قلوب العباد، ألم يقل تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

[سورة طه]

فإذا أحبَّك الله عز وجل وصَلَتَ إلى كلّ شيء، والله أيها الأخوة، ما من عطاءٍ، ولا كسْب، ولا إنجاز، ولا تفوّق، ولا نجاح، ولا نصر، ولا فوْزٍ أعظم من أن يُحِبّك الله تعالى، لذلك إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبُهُم، أبتليهم بالمَصائِب لأطَهّرهم من الذنوب والمعايب، والحسنة عندي بعشرة أمثالِها وأزيدُ، والسيّئة بمِثْلها وأعْفو وأنا أرْأف بِعَبدي من الأمّ بوَلَدها.

السعادة المادية المحضة تحتاج إلى وقت و مال و صحة:

أيها الأخوة الكرام، لو أنّ الإنسان ترك الآخرة، وترك التَّوَجُّه نحو الله عز وجل، وأراد الدنيا، الدنيا بين يديه، الشيء الملموس من المال والنِّساء و المناصِب والمُتَع والبيوت والحدائق والطعام والشراب، لو أنَّه أراد الدنيا ماذا ينتظرهُ ؟ قال عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[رواه الترمذي عن أبي هريرة]

ماذا ينتظر العبد المعرض عن الله غير هذه الأشياء ؟! ثمّ إنّ الناس يعلمون أنّ الرجل إذا ترك الآخرة، وترك ربّه، وأدار ظهره للدِّين، وأراد السّعادة المادّية المَحضة لا تُتِمُّ له، لأنّ السعادة المادية المحضة تحتاج إلى وقت، وإلى مال، وإلى صِحّة، ففي بدايته ليس هناك مال والصحّة متوافرة والوقت متوافر، وفي منتصف حياته الصحّة موجودة والمال موجود والوقت غير موجود، وفي آخر حياته الصحّة غير موجودة والمال والوقت موجودان !! فدائماً يوجد عنصر ناقص، والله عز وجل جعَلَ الحياة هكذا كي لا نرْكن إليها، ولكنّ الإنسان إذا عرف الله عز وجل يسْعد بقُربِهِ، ويسْعد في تحقيق هدفه.

على الإنسان ألا يعلق أهمية كبيرة على معرفة الناس له المهم أن يعرفه الله:

ثمّ قال تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25))

[سورة الذاريات]

لكنَّه ما عرفهم ؛ قَومٌ مُنْكرون !! سيّدنا عمر جاءهُ رسولٌ مِن إحدى المعارك في شرق آسيا فسأله ما الذي حدث ؟ فقال الرسول:

((ماتَ خلْقٌ كثير))

فقال له عمر: **أذْكُر لي أسماءهم**، فذَكَر له بعض أسمائهم، فقال: أيضاً ؟ فقال الرسول:

((ومات آخرون وأنت لا تعرفهم))

فبكى عمر رضي الله عنه وقال:**وما ضرّهم أنّي لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم**، أي لا تُعلِّق أهَمِيَّة كبيرة على أن يعرفَك الناس، فالله يعْرِفُك، قال تعالى:

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ)

[سورة يونس: الآية 61]

وقال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء]

المؤمن الحق يراقب الله و يعلم أن الله يراقبه:

قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ(218))

[سورة الشعراء]

حالُ المُراقبة، فالمؤمن الكامل دائِماً يُراقب الله تعالى، ويُراقبُ أنَّ الله يُراقبُهُ، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

[سورة النساء]

تعليم الله الإنسان آداب الضيافة وهي:

لكنّ هؤلاء الملائكة الذين في ِصُورة البشَر ما عرفهم إبراهيم عليه السلام، قال تعالى:

(فقالُوا سَلَاماً قالَ سَلَامٌ قوْمٌ مُنْكَرُونَ)

[سورة الذاريات]

الآن الله جلّ جلاله في كلماتٍ عِدّة يُعلِمنا آداب الضِّيافة.

1 ـ إكرام الضيف دون سؤاله:

قال تعالى: فراغ إلى أهله، معنى راغ أيْ انسلّ خُفْيَةً ! دون أن يُعْلِمَ الضّيف، ومن أدب الضِّيافة أنّك إن أردْت أن تُكْرِمَ الضّيف فلا ينبغي أن تسألهُ، إنّك إن سألْتَهُ أحْرجتهُ، وإنّك إن سألْتَهُ تَمَنّع وقال: لسْتُ بِحاجة إلى الطّعام، ربما أحرج، وربّما اسْتحيى، فمن أدب الضّيافة ألا تسألهُ.

2 ـ على الإنسان أن ينسل خفية لجلب الطعام:

ألا تخرج من البيت أمامه وكأنّك ذاهبٌ إلى جلب الطّعام، فراغ خفية، انسل، قال تعالى:

(فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)

[سورة الذاريات]

هذه الفاء تُفيد الترتيب على التعقيب أيْ ما إن خَرَجَ من عند الضّيوف إلا وأحضر لهم الطعام.

3 ـ عدم التأخر في إحضار الطعام:

ومن أدب الطّعام ألا يتأخّر، فالتّأخّر الشديد في إحضار الطّعام يُتْعِبُ الضّيف، ويجعلهُ يتضجّر، فالأدب الثاني أنّه عاد بالطّعام سريعاً، معنى ذلك أنّه مُسْتعِدّ، والكرماء دائماً يسْتَعِدُّون، وعندهم أكلات كثيرةٌ جاهزة، فما أن يأتي الضّيف إلا والطّعام بين يدَيه، وهذا من شِيَم الكرماء، وإطعام الطّعام من السنّة، قال تعالى:

(فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)

[سورة الذاريات]

مشْويّ، وورد في الحديث:

((أنّ المؤمن كالنّحلة لا يأكل إلا طيّباً، ولا يُطْعِمُ إلا طيباً.))

قال تعالى:

(قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا)

[سورة الكهف]

4 ـ تقريب الطعام إلى الضيف و دعوته إلى الأكل:

(فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)

[سورة الذاريات]

بعد أن جاء بهذا العِجل السّمين الطيّب الشهيّ المَشْويّ قرّبَهُ إليهم، فمعنى ذلك أنّ المُضيف ينْبغي أن يُلاحِظ أنّ هذا الطّبَقَ بعيدٌ عن الضّيف، وينبغي أن تُقرّبَهُ إليه، وقرّب إليه الماء، والخبز، هذا الطبق يحبه، فقربه إليهم، وأحيانًا يضَعُ المضيف الطعام أمام الضّيف، ويَنْشَغِلُ بحَديثٍ طويل، وينسى أن يقول له: تفضل كُلْ، والضّيف يستحي أن يبْدأ بالطّعام قبل أن يُدعى، إذا من أدب الضيافة أيضاً، أن تقرب الطعام إلى الضيف، وأن تدعوه إلى الأكل، قال تعالى:

(فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (27))

[سورة الذاريات]

خوف سيدنا إبراهيم من الضيوف عندما لم يأكلوا:

لكنهم ما أكلوا، فحينما لم يأكلوا أوْجسَ منهم خيفةً، قال تعالى:

(فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ)

[سورة الذاريات]

إما لأنّهم لم يأكلوا، أو إما لأنّ عدم الأكل دليل عداوةٍ أو حِقدٍ، قال تعالى

(فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ)

[سورة الذاريات]

أعظم فضل على الأب أن يكرمه الله بابن مستقيم مهذب:

بشّروا هذا النبي الكريم بغُلامٍ عليم، والله عز وجل إذا أكْرم الإنسان بغُلامٍ نجيب، وبغُلامٍ مُستقيم، وبغُلامٍ مؤمن، وبغُلامٍ مُحِبّ لله عز وجل، وبغُلامٍ يسْعى مع أبيه فهذا مِن أعظم الفضل على الأب، فالآباء الذين يَهَبُهم الله عز وجل أولاداً نُجَباء، خلوقين، ومُنيبين، ومُستقيمين ؛ هذه ثَرْوَةٌ لا يُمكن أن

تُقدّر بِثمن، لِقَول النبي عليه الصلاة والسلام: خيرُ كَسب الرّجل ولدُه، لكنّ شيئًا لا يكون من لا شيء، فأنْ تُنْجِب الأولاد، وأن تدعهم للطريق، ولِرُفقاء السُّوء، وأن تُهْمِل تربيَتَهم،وأن تهمل تهذيبهم، وتعليمهم، وتوجيههم، فإذا شَبُّوا انْحرفوا، وانساقو وراء شَهَواتهم، ومع أصدقائهم السيّئين ؛ عندئذ تندب حظّك، أنت هو المقصِّر، فالطِفل الصّغير ينبغي أن يرعى في وقت مُبكِّر، وأبوه مَسؤول عنه، وعليه أن يُلَقِّنَهُ العِلم، والأدَب، والخُلُق، وحُبَّ رسول الله، وحُبَّ أصْحابه، وأن يُعَلِّمه القرآن، ويُفقِهَهُ بالفقه، ويعلّمه السيرة والمغازي.

استغراب امرأة إبراهيم بأن تنجب طفلاً و هي عجوز عقيم:

قال تعالى:

(فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)

[سورة الذاريات]

لا أقول ضربَتْ وجْهها ولكن صكّته، كأن تقول: ردَدْتُهُ على ظهره قال تعالى:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18))

[سورة طه]

أهشّ بها لا يعني أنَّه يضرب بها غنمهُ، ولكن يضَع العصا على غنمه، فكذلك صكّت وجهها تَعَجُّباً ! أَيُعْقلُ أن أنْجِبَ وأنا في هذه السنّ ؟! أيُعْقلُ أن أنْجِبَ وأنا عَجوز عقيم ؟

قدرة الله عز وجل في تغيير الأسباب و تعطيلها:

لذلك قال تعالى:

(فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكَ)

[سورة الذاريات]

أي محجبة، صكت وجهها، وقالت عجوز عقيم، قالوا كذلك، وأنت عجوز عقيم، أي سوف تَلِدين غُلاماً عليماً، والمعجزة ليْسَتْ مُستحيلة عقلاً، ولكنَّها بعيدةٌ عادةً ! وفرْقٌ كبير، لأنّ الله الذي خلق الأسباب قادِرٌ دائماً على أن يُعَطِّلها، وأن يلغيها، وأن يخلق نتيجةً من دون سبب قال تعالى:

(فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30))

[سورة الذاريات]

سؤال سيدنا إبراهيم الملائكة عن مهمتهم التي جاؤوا من أجلها:

ثمّ قال تعالى:

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ)

[سورة الذاريات]

أيْ ما هي المهمّة التي أتَيْتُم من أجلها ؟! وما الذي بعثكم إلى المجيء إليّ ؟

إخبار الملائكة سيدنا إبراهيم عن المهمة التي كلفوا بها:

قال تعالى:

(قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34))

[سورة الذاريات]

أما معنى مُسَوَّمة أنّ كُلّ حَجَرٍ عليه اسم الذي سيَقْتُله، ولا يوجد شيء عند الله اسمه شظية طائشة، الشظية الطائشة سوء فهْمٍ من عندنا، أما عند الله فكُلّ شيءٍ مُسَوَّم، ولكلّ شيء حقيقة وما بلغ عبدٌ حقيقة الإيمان حتّى يعلم أنّ ما أصابه لم يَكن لِيُخطئَهُ، وأنّ ما أخطأهُ لم يكن لِيُصيبَهُ:

(قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34))

[سورة الذاريات]

المجرم من يخسر الدار الآخرة:

مجرم الذي يعصي الله تعالى مُجرم، قال تعالى:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

[سورة القلم]

ما الذي يُقابل المسلم ؟ المُجرِم، أجْرَمَ بحَقّ من ؟ بحق نفسِهِ، فلمّا الإنسان يخْسر الدار الآخرة، هو يخسَرُ نفسه، لا يزكيها، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

[سورة الشمس]

حينما يخسر نفسَهُ فهو في حَقِّها مُجْرِم، فالذي يخسر أهْلَه هو في حَقِّهم مُجْرِم، وحينما يخسر أولاده فهو في حقِّهم مجرم، وهذا الذي لا يدلّ زوجته على الله يخْسرها، وهذا الذي لا يزكِّي نفسه يخسرها، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

[سورة الزمر]

من يخسر نفسه يخسر كل شيء:

أنت لا تملك إلا نفسك فإذا خسرتها خَسِرْت كلّ شيء، لذلك قالوا: يا رب ماذا فقدَ من وجَدَك ؟ وماذا وجد مَن فقدَكَ ؟

ابن آدم اُطلبني تَجِدني، فإذا وَجَدتني وجدْت كلّ شيء، وإن فِتُّكَ فاتَكَ كلّ شيء، وأنا أحبّ إليك من كل شيء.

قال تعالى:

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32))

[سورة الذاريات]

لا تتوهّم الإجرام أن يدخل شخص إلى بيتٍ فيقتل إنسانًا، هذا في عُرْف مجتمعاتنا، أما المُجرم هو الذي لم يعرف الله تعالى، فأكل المال الحرام، واعْتدى على الأعراض، وتفلّت من منهج الله تعالى، وما عرف سِرّ وُجوده وغاية وجوده، وما عرف الدنيا، وما عرف من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ عاشَ كالناقة حبسها أهلها ثمّ أطلقوها، فلا هي عرفت لما حُبِسَت، ولا لِما أُطْلقَت، وجعله الله صحيح الجِسم، وما عرف هذه النِّعمة، وأمرضه الله فما عرف حِكمة المرض، ومن لم تُحدث المصيبة في نفسِهِ موعظة فمُصيبتُهُ في نفسه أكبر، وما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدّمَتْ أيديكم، وما يعْفو الله أكثر، وهذا الذي ما عرف حقيقة الدنيا، وما عرف حقيقة مُهمّته في الدنيا، وما عرف لماذا خلقه الله ؟ وماذا بعد الموت ؟ فهذا مجرم في حقّ نفسه.

الشارد عن الله حين يأتيه الموت يصاب بألم لا حد له:

لو أنَّه مكتوب على عمود الكهرباء: لا تقترب خطر الموت ! فإذا اقترب الإنسان وأمسَكَ بالتَّيار، ومات، لا أحد يُحاسبهُ، لكنّ التيار هو الذي حاسبه، ولو أنّ صاحب شاحنة كان يحمِل خمسة أطنان من السِّلعة، ووصَل إلى جِسر مكتوب عليه ؛ الحدّ الأقصى ثلاثة طنّ فإذا سأل هذا السائل: هل هناك شرطي مرور حتّى أجْتاز الجِسر ؟!!! ليس هذا هو الموضوع، إذا مشيْت فوق الجِسر وقعت الشاحنة

في النّهر، فأحياناً تكون أنت مجرمٌ بحقّ نفسك، ولا أحد يُحاسبك، فلمّا وصلَتَ إلى الأربعين والخمسين ولا زِلْتَ لا تعرف الله تعالى، ولا تعرف ماذا ينتظِرُكَ بعد الموت، حينما يأتي الموت فجأةً يُصيبُ الإنسان من الألم ما لا يُطاق، والله لو كشَفْت على إنسانٍ شاردٍ، وضالٍ مُضلّ جاءه الموت فجأةً، يدخل على قلبه من الألم والنّدَم والحزن ما لو وُزِّع على أهل الأرض لكفاهم، قال تعالى:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

[سورة الزخرف]

الإنسان حينما يأتيه ملك الموت وليس معه شيء، قال تعالى:

(وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

[سورة آل عمران]

عدم طلب العلم و إتباع الهوى أكبر جريمة يرتكبها الإنسان بحق نفسه:

قال تعالى:

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34))

[سورة الذاريات]

فكَلمة مُجرم في القرآن لا تعني أنّه قاتِل، بل تعني أنّه إنسانٌ ما عرف الله وحمّل نفسه ما لا تُطيق، ودسا نفسه وما زكّاها، وأبقاها جاهلة ومُنحرفة، وسَمَح لها أن تفعل ما تشاء، وأطلقها لِشَهَواتها، وجعلها كالدابة السائمة، هذا هو المجرم، والدليل قوله تعالى:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

[سورة القلم]

فإن لم تكن مسلماً فأنت مجرم بحَقّ نفسك، فإذا إنسان معه شيك بمَبلغ خيالي (ألف مليون) ولم يعرف قيمته فاسْتَعمله كَوَرَقة مسْودّة، حينما يعلم الحقيقة ؛ ماذا يحصل له ؟ هذا مجرم بحقّ نفسه، لذا أكبر جريمة أن لا تطلب العلم، وتتّبع الهوى، وأن تكون إمّعة، قال عليه الصلاة والسلام:

((لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا))

[رواه الترمذي عن حذيفة]

كل إنسان مسؤول عن عمله:

إذا قلتَ: كلّ الناس هكذا، والله يعفو علينا، هذا الكلام لا يُنجيك، وهذا الكلام لا معنى له، والدليل قوله تعالى:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

[سورة البقرة: الآية 286]

أنت تستطيع أن تستقيم.

قال تعالى:

(قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33))

[سورة الذاريات]

إذا أطلق الإنسان لابنتِهِ العنان، وقال: أنا أريد أن تعيش وقتها، وأنت تعيش شبابها، وأن تنطلق في الحياة كي تَقْوى شَخْصيّتها، وقال لها: اِذْهبي حيث تشائين، وارْتدي أيّ الثياب تريدين، وأنا أُحبُّك أن تكوني متألِّقة في المجتمع، هذه يوم القيامة تقول: يا رب، أنا لا أدخل النار حتّى أُدْخل أبي قبلي، لأنّ هذا الأب في حقِّها مجرم.

المجرم يخطئ في حقّ نفسه و ليس في حق المجتمع:

قال تعالى:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9))

[سورة التكوير]

هذه التي قُتِلت إلى أين مصيرها ؟ إلى الجنّة، أما هذه التي أُفْسِدَت وأُطلق لها العنان إلى أين مصيرها؟ إلى النار، فهؤلاء الفتيات اللواتي يتنزّهن في الطرقات والأسواق بأبْهى زينة، كاسياتٍ عارياتٍ ؛ أليس لهنّ آباء ؟ أليس لهنّ أزواج ؟ ألَيْس لهنّ إخوة ؟ هؤلاء سيُحاسبون عنهنّ، وقفْتُ هذه الوقفة عند كلمة مُجرم، لأنّك إن لم تكن مُسلماً فأنت مجرمٌ، لا في حقّ المجتمع ولكن في حقّ نفسك، فأقْرب مثل ؛ لو أنّ الأب ترك ابنه من دون توجيه ولا تعليم، ومن دون رعايةٍ، وضَبط، هذا الابن انطلق مُتفلِّتاً وشارداً ومنغَمِساً في المعاصي، ودخل في عصابة، فأُلْقِيَ القبض عليه وأُودِعَ السِّجن، من الذي فعل به ذلك ؟ الأب، ومن الذي أهملهُ ؟ الأب لذا نقول: هذا الأب في حقّ ابنه مجرمٌ.

الإنسان العاصي سمي مسرفاً لأنه خرج عن مسار منهج الله تعالى:

قال: هذه الحجارة من الطِّين مسوّمة عند ربّك للمسرفين، الذين أسْرفوا على أنفسهم، والله عز وجل قال:

(بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

[سورة هود]

النِّساء كُثُر، فمن التي بقِيَتْ لك حلالاً ؟ زوجتك، هذه هي بقيّة الله، والمال كثير، ولكن ما الذي يُسْمَحُ لك منه ؟ المشروع، أما غيره محرّم، فكلّ شيءٍ بقي لك من الشّهوات التي أوْدَعها الله في الإنسان هي بقيّة الله تعالى، فما من شهوةٍ أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناةً نظيفة تسري فيها فالله تعالى رحيم، فأوْدع فينا حبّ النِّساء، ولكن فتح باب الزواج، وأودع لنا حب المال، ولكن فتح الكسب المشروع، فما من حاجة أو مَيلٍ إلا وله قناةً نظيفة، فالعاصي الذي خرج عن مسار منهج الله تعالى، فالشّهوات لها قنوات نظيفة، ولها انحرافات خطيرة، لهذا سُمِّيَ العاصي مسرفاً لكنّ عدالة الله عز وجل تلفت النَّظر.

الله عز وجل إذا أراد حفظ عبد أبعده عن الخطر قبل وقوعه:

قال تعالى:

(فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36)

[سورة الذاريات]

حدّثني أخٌ كان ببَلدٍ غربي، حدث انفِجار وقبل دقائق من الحدث الله تعالى أودع فيه حاجة إلى الخروج من البناية، وبعد أن خرج بدقائق انفجر البناء، فالله عز وجل إذا أراد حِفظ عبده يُبعِدُه عن الخطر قبل وقوعه بوقت قصير، وهذا شيء يقع دائماً قال تعالى:

(فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36))

[سورة الذاريات]

قبل أن تأتي الملائكة بالحِجارة لِتَدمير قوم لوط، أخرجنا فيها من كان من المؤمنين ولم يكن هناك إلا سيّدنا لوط وبنتاه فقط، أما زوجته فمع قومها ومن هَوِيَ الكفرة حُشِر معهم.

طريق الإنسان إلى الله غير سالك إن لم يكفر بالكفار:

الإنسان أحياناً يذهب إلى بلاد الغرب ولما يعود تجده يشكرهم ليلاً نهاراً، أفلا رأيت الانحلال الخلقي، وتفسّخ الأسر، وتبادل الزوجات، واللِواط، وما رأيت هذا الشّقاء الذين يعيشونه ؟ نظرت فقط إلى البنايات، والسيارات، وحدائقهم، كُنْ مَوْضوعِيًّا، اُذْكُر ما لهم وما عليهم، فأنت إن لم تكفر بالكُفر فالطريق إلى الله تعالى غير سالك، أين هي حقوق الإنسان في العالم ؟ يَقضون على شَعبٍ بِأكملِهِ، وقد قيل:

قَتْلُ امرئ في غابةٍ جريمةٌ لا تُغْتَفَر وقتلُ شَعب آمنٍ مسألة فيها نظر

* * *

فالذي يجري في أوروبا ليس بعيداً عنكم ؛ أين هي رحمتهم ؟ وأين حقوق الإنسان فيهم ؟ وأين حرصهم على الإنسان ؟ أحقادهم ظاهرة، فهؤلاء الكفار إن لم نكْفر بهم فالطريق إلى الله تعالى غير سالك، وأكبر إنجازٍ حصل، أنّ كلّ إنسان يرى بعَينِهِ جريمة هؤلاء الكفار، ففي الخمسينات كان هناك من يمْدحهم، ولكنّهم الآن في الوَحل والحمد لله، ممكن أن يكون الطريق إلى الله تعالى سالك لأنّ التكريم انتهى.

العقاب و الثواب الحقيقيين يوم القيامة:

قال تعالى:

(فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (37))

[سورة الذاريات]

فالله عز وجل أحيانًا يُعاقب بعض المنحرفين عقاباً رَدْعِيًّا لِبَقِيّة المنحرفين، ويكافئ بعض المحسنين مكافأةً تشْجيعيّةً لِبَقِيّة المحسنين، ولكنّ الحساب الدقيق، والرصيد يوم القيامة قال تعالى:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران]

ففي الدنيا المُحسِن قد يُثاب تشجيعاً لبَقِيّة المحسنين، وقد يُعاقب المُسيء ولكن ليس هذا قاعدةً عامّة، إذْ العقاب والثواب الحقيقيّيْن يوم القيامة.

معجزات الأنبياء فوق طاقة السحرة:

قال تعالى:

(فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) وَتَرَكْنَا فِيهَا آَيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (37))

[سورة الذاريات]

بالمعجزات، نزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين، وألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، هذا فوق طاقة السحرة، قال تعالى

(وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ(39))

[سورة الذاريات]

قال بعض المفسّرين: الرُكن هنا جَيْشُهُ وبعضهم قال: تولّى بجانبه أي لم يُعط للحق أُذُناً صاغيَة، ولم يلتفِت إلى هذا النبي الكريم، ولم يعبأ به، ولم يعْقِل مقالة سيّدنا موسى، وتولّى عنه جانباً، وأدار ظهره إليه.

المعنى الثاني، أنّ رُكن الإنسان جماعته، فهو قوي وطاغِيَة، فاعْتَمَد على قوّته، ولم يعبأ بهذا النبي الضعيف، قال تعالى:

(فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

[سورة الذاريات]

تثبيت التهم الباطلة التي أتهم بها النبي ليكون أسوة للناس:

بالمناسبة، الله عز وجل ذكر التُهم الباطلة التي ألقاها الكفار على أنبيائه الكرام، وهذا القرآن يُتلى إلى يوم القيامة، لو اقْتربنا من النبي عليه الصلاة والسلام: قالوا عنه ساحِر، وقد ذُكِر هذا في القرآن الكريم، وقالوا عنه مجنون، وقد نفى الله عنه الجنون، قال تعالى:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

[سورة القلم]

وقالوا عنه كاهن، وقالوا شاعر، وكلّ هذه التُهَم أثبتها الله في القرآن الكريم ليكون النبي عليه الصلاة والسلام أُسْوةً حسنة لِكُلّ داعية إلى يوم القيامة، فالإنسان إذا دعا إلى الله، وكان له خُصوم وحُسّاد، أو أناس يطعنون في علمه أو نواياه الطيّبة، فلا ينبغي أن يحْزن أو ييْأس فهذا شأن الحق والباطل إلى يوم القيامة، ومعركة الحق والباطل معركة أزليّة، ولا تنقضي.

خيار الإيمان خيار وقت فقط:

قال تعالى:

(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ)

[سورة الذاريات]

أين قوّته ؟ الله عز وجل دَفَعَهُ إلى أن يتّبع موسى، سيّدنا موسى ضَرَب البحر بعصاه فإذا هو طريق يابس، ودخل معه المؤمنون، ولما خرج من الضفّة الثانية تبِعَهُ فرعون، ولما أصبح فرعون وجنوده وسْط اليمّ عاد الطريق اليبسُ بحراً، فغرقوا، وفي أثناء غرقه قال:

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة يونس]

معنى ذلك أنّ خيار الإيمان خيار وقت، فهذا أكفر أهل الأرض الذي قال: ما أرى لكم من إلهٍ غيري، والذي قال: أنا ربّكم الأعلى، ومع ذلك حينما أدركَهُ الغرق قال: آمنتُ، فإما أن تؤمن وأنت صحيح مُعافى، وإما أن تؤمن بعد فوات الأوان، فكلّ هؤلاء المتفلِّتين، والعصاة، والشاردين لَيْسُوا كَفِرعون، فرعون آمن، فالإيمان لا بدّ منه، وخيارنا معه خيار وقت فإما أن نؤمن، أو لا بدّ من أن نؤمن، أما إذا آمنّا فلنا كلّ شيء ولنا جنّتان ؛ في الدنيا وفي الآخرة، أما الإيمان بعد فوات الأوان ما هو إلا حسرة وندَم.

لوم الإنسان الشديد لنفسه عندما يعلم أنه مخطئ:

قال تعالى:

(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ)

[سورة الذاريات]

معنى ذلك أنّه لامَ نفسه، والإنسان حينما تنهار مَعْنويّاته، و حينما ينهار داخِليًّا عندها يعلم كم كان مخطئًا، قال لي أحدهم: النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ))

[مسلم عن معمر بن عبد الله]

من دون تشديد، فليس في الأمر خطأ شديد، فقلتُ له: الله عز وجل وصف فرعون وهامان بهذا، قال تعالى:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

[سورة القصص]

فكلمة خاطئ كلمة كبيرة جداً.

غضب الله عز وجل يعجز العالم كله عن رده:

ثمّ قال تعالى:

(وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (42))

[سورة الذاريات]

هذه العواصف، والأعاصير التي تزيد سرعتها عن ثمانمئة كيلو متر في الساعة، مئتان كيلو متر تهدم الجدران، ومئة وخمسين تقتلعُ الأشجار فكيف إذا كانت ثمانمئة، أحد الأعاصير في أمريكا دمّر ما قيمته ثلاثون مليار دولار بساعات !! فلا أبنية، ولا جُسور، ولا مزارع، كلّ شيء يُدمَّر من خلال هذه الإعصار، فالله عز وجل بالأمطار يُدمِّر، وبالرّياح يدمّر، وبالصّواعق، والزلازل، وبالإيدز يُدَمّر، وهناك الآن سبعة عشر مليون إنسان مُصاب به !! وأضعف فيروس هو فيروس الإيدز، والعالم كلّه عاجزٌ عن مُكافحته.

قال تعالى:

(وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (45))

[سورة الذاريات]

تمتع الكافر في الدنيا لا يعني أن الله يحبه:

دعاء سيدنا إبراهيم كما قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آَمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[سورة البقرة]

فَتَمَتُّع الكافر في الدنيا لا يعني أنّه على حق أو أنّ الله تعالى يحبُّه، قال تعالى:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

[سورة آل عمران]

قال تعالى:

(وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (45))

[سورة الذاريات]

لذا في دعاء النبي عليه الصلاة والسلام:

((أعوذ بك يا رب من فجأة نقمتك))

[أبو داود عن ابن عمر]

ابتعاد الإنسان عن غضب الله و سخطه:

يفْقِدُ الإنسان بصرَهُ فجأةً، ويفْقِدُ قوّته في لحظة، وخثرة بالدِّماغ، نقطة دم تجمَّدَت في الدِّماغ، فكلّ مكانة الإنسان، وكلّ قوّته، ورصيده المالي لا قيمة له، فهذا أحدهم درس ببلاد الغرب، وأخذ أعلى منْصِب فقَدَ بصرَهُ فجأةً، قال لِصديقي: أتمنّى إن أجلس على الرصيف أتكفّف الناس ولا أملك إلا هذا المعطف ويُردّ إليّ بصري، لذا:

((أعوذ بك يا رب من فجأة نقمتك، و تحول عافيتك، و جميع سخطك، و لك العتبى حتى ترضى))

[أبو داود عن ابن عمر]

فالله تعالى قال:

(وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (45))

[سورة الذاريات]

ثمّ يقول تعالى:

(وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (46) وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47))

[سورة الذاريات]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الذاريات 051 - الدرس (6-7): تفسير الآيات 47-51 ، كل شيء في الكون آية تدل على عظمة الخالق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-07-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس السادس من سورة الذاريات.

الكون آية من آيات الله الدالة على عظمته:

قال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (48) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (51))

[سورة الذاريات]

عَودة إلى معرض الكون، فالكون هو معرض أسماء الله الحسنى، فإذا أردت أن تعرف الله فالكون أمامك بِسَماواته وأرضه، وبِمَخلوقاته ونباتاته، وبِخَلْق الإنسان، فالله جلّ جلاله في هذه الآية يلْفت نظرنا إلى الكون.

اكتشاف النذر اليسير من الكون فقط:

قال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

[سورة الذاريات]

كلمة بِأَيْدٍ أي بِقُوّةٍ، الله جلّ جلاله يتجلّى باسم القويّ فتكون الجبال الشامخات، ويتجلّى باسم الجميل فتكون الزهرة الفواحة، وفي كلّ خَلْقٍ من مخلوقاته اسم يتجلّى أكثر ما يتجلّى فيه، فالسماوات بِمَجراتها، وكازراتها، ومُذنّباتها، وبِكَواكبها، وبِنُجومها، ومسافاتها الواسِعَة فالكون ينطَوي على قريب مليون مليون مجرّة، والتي عرفت حتّى الآن، قال تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة الإسراء]

وقال تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

[سورة البقرة]

التواضع صفة العالم و الكبر صفة الجاهل:

سُئِلَ أحد كبار العلماء والذي جاء بالنّظَريّة النِّسْبيّة، وهي من أعظم النّظَريّات في الفيزياء في هذا العصر، وقد اكْتشَف النّظريّة النِّسْبيَة والتي تؤكّد أن هناك بُعداً رابعاً هو بُعد الزّمَن، فالأشياء الماديّة رُباعِيَة الأبعاد طولٌ وعرض وارتِفاعٌ وزمن، هذا العالم يقول لما سئِلَ عن العِلم قال: طفلٌ صغير دخل إلى مكتبة، وكلّ جدرانها كتب حتّى السّقف، وقف بُرْهةً ونظر إلى الكتب وخرج، فماذا أخذ من العلوم ؟ هذا هو العلم الحديث كله، فهذا جواب أعلم العلماء في فنّ الفيزياء يقول هذا الكلام، وهذا عالمٌ آخر يقول: لم تبتلّ أقدامنا بَعْدُ ببَحر المعرفة، ولازلنا على الشاطئ وهذا هو معنى قوله تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة الإسراء]

لذا مِن علامة العالم التواضع، ومن علامة الجاهل الكِبْر، وقد ورَد أنّه يظلّ المرء عالماً ما طلب العِلم، فإذا ظنّ أنّه قد عَلِم فقد جَهل، ففي اللحظة التي تتوهّم فيها أنّك عالم فأنت جاهل !! لذلك الإنسان يطأطئ رأسه لِخالقه، قال تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة الإسراء]

نصف العالِم هو أخطر إنسان على المجتمع:

أحيانًا تقرأ أموراً تُحيّر، فهذه الغدّة الثّدْيَة في الحيوانات اللبونة، عبارة عن قُبَّة فوق أوْعِيَةٍ دَمَويّة، تختار من الدّم المواد الطاهرة النَّقِيّة التي تُناسبها، وتصْنَعُهُ حليباً، والتعليق الذي يلفت النّظر أنّه حتّى الآن لا أحد يعلم كيف تعمل هذه الخليّة ؛ تأخذ دماً فتَجْعلُهُ حليباً ! وأنت إذا قرأت كتباً علميّة منصِفة تجد هذه العبارة كثيراً، فلا أحد يعلم كيف يصبح الحليب حليباً وكيف يتم ذلك ؟

الآن العلماء انصرفوا لا إلى كُنهِ الأشياء، ولكن إلى ظواهرها، فالكهرباء مثلاً لا أحد يعلم كُنْهها ولكن نعلم ظواهرها فعلامة العالم التواضع، وعلامة الجاهل الكِبْر، وأخطر إنسان هو نصف العالم ؛ لا هو عالم فهو يُفيد من علمِهِ، ولا هو جاهل فيتعلّم، والإمام علي كرّم الله وجهه يقول: قِوام الدِّين والدنيا

أربعة رجال ؛ عالم مُستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلّم، وغنيّ لا يبْخل بماله، وفقير لا يبيع آخرته بدُنياه، ثمَّ يقول هذا الإمام الجليل: **فإذا ضيّع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلّم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدُنيا غيره.**

أصل الدين معرفة الله عز وجل:

أيها الأخوة، المؤمن مهما ازداد علمه يزداد تواضعه، والإمام الشافعي يقول:**كلّما ازْددْتُ علماً ازْددْتُ عِلماً بجَهلي**، والإمام مالك رحمه الله، وهو سيّد علماء عصره جاءَه وفد من بلاد الأندلس، ومعه ثلاثون سؤالاً فأجاب عن سبعة عشر سؤالاً، أما الأسئلة الباقية فلم يُجب عنها، فقالوا له: أنت إمام، وقد أتيناك من طرف الدنيا، ثمّ تقول: لا أدري ؟ فقال لهم بملء فمِهِ:**قولوا لهم الإمام مالك لا يدري**، نصف العلم لا أدري، فإن لم تكن تعلم فقل: لا أعلم، ولا تتحرّج، فهذا الذي يظنّ أنّه يعلم كلّ شيء هو لا يعلم شيئًا.

هذه المقدّمة، كلّما تأمّلت في الكون شَعَرت أنّ خالقه لا نهاية له في كماله، ولا نهاية لِقُدرته، ولا نهاية لِعِمله وخِبرته، لذا معرفة الله أصل الدّين فحينما نتّجه إلى جزئيات الدّين دون معرفة الأصول نقع في متاهة كبيرة، لماذا بقي أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ثلاثة عشرعاماً يتعرّفون إلى الكون.

الآيات الكونية موضوعات هامة للتفكر:

اِقرأ السور المكيّة، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

[سورة الطارق]

وقال تعالى:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

[سورة الشمس]

وقال تعالى:

(وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2))

[سورة الفجر]

فأنت لا تجد في القرآن الكريم في قسمه المكيّ إلا سورًا تتحدّث عن الكون، فهذه العبادة العظيمة التي هي سبب معرفة الله تعالى ؛ كيف أُهْمِلَت ؟ وكيف تجاوزْناها إلى جزئيات الدّين ؟ جزئيات الدين لا يمكن أن تعرفها إلا إذا عرفت كليّات الدِّين، الدّين بناء شامخ له أصول وله فروع، لذلك تقرأ القرآن

الكريم فتعجب، ففيه آيات لا تُعَدّ ولا تحصى تتحدّث عن الكون فهذه ما موقفك منها ؟ ولماذا أنزلها الله على النبي عليه الصلاة والسلام ؟ ومن أجل ماذا ؟ من أجل أن تكون هذه الآيات موضوعات للتفكّر، ومن أجل أن تتعرّف إلى الله تعالى مِن خلالها.

الآيات الدالة على عظمة الله:

الآية الأولى: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ:

هذه السماء التي فوقنا ؛ هل فكّرنا فيها ؟ وهل فكّرنا في الشمس والقمر، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

[سورة البروج]

الأبراج: نمرّ على كلّ شهر ببُرج، ومن هذه الأبراج، ومن بعض نجومه قلب العقرب، يسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، وهل فكّرتَ في قِوى التّجاذب بين الكواكب والنجوم ؟ وهل فكّرتَ في المسافات الكونيّة ؟ خمسين مليون عام، ونسير بالساعة مئة كيلو متر كي نصل إلى أقرب نجم ملتهب، والمرأة المسلسلة مليون سنة ضوئيّة، وبعض المجرّات أربعة وعشرون مليون ألف سنة ضوئيّة، فهذه المجرّة التي تبعد عنّا أربعة وعشرين مليون ألف سنة ضوئيّة كانت في مكانها حتّى وصل ضوءها إلينا فالضّوء استغرق أربعة وعشرون مليون ألف سنة ضوئيّة حتى وصل إلينا مع أنّ الضوء يقطع في الثانية الواحد ثلاثمئة كيلو متر، وسرعة الضوء ثلاثمئة كيلومتر بالثانية، وأين هي الآن ؟ لا يعلم إلا الله أين هي ؟

الآية الثانية: بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ:

قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة]

دقق في هذا الاعتِراض ؛ وإنّه لقسَم لو تعلمون عظيم، معنى ذلك كما قال تعالى:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)

[سورة فاطر]

هذه الشمس ؛ هل مِنّا من لا يراها ؟ هي أكبر من الأرض بمِليون وثلاثمئة ألف مرّة، فَجَوف الشمس يتّسع لهذا العدد من الأراضين ؟ فهذه القارات الخمس تساوي خمس الأرض، والأربعة الأخرى بحر،

والأرض كوكب في المجموعة الشمسيّة، والمجموعة الشمسيّة نقطة في مجرة درب التبانة، أرسلوا مركبة قبل بضعة سنوات إلى المشتري وهي أسرع مركبة اخترعها الإنسان ؛ أربعين ألف ميل في الساعة، كم احتاج إلى وصولها إلى المشتري ؟ سِتُّ سَنَوات، فهذه التجربة اثنا عشر سنة ذهاباً وإيّاباً، ولا زلنا في المجموعة الشمسيّة التي هي نقطة على درب التبانة، ومجرّتنا مجرة متواضعة وصغيرة ومعتدلة، هذا هو الكون وهذا هو خلق الله تعالى، فأروني ماذا خلق من دونه ؟

على الإنسان أن يعرف الآمر قبل الأمر ليطبق منهجه:

قال تعالى:

(وَالسّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنّا لَمُوسِعُونَ)

[سورة الذاريات]

قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسّماوَاتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ)

[سورة الزمر: الآية 67]

فالمشكلة في الدين أن تعرف الله فإذا عرفْتهُ انْدَفَعتَ إلى تطبيق أمره بِشَكل عجيب أما إن لم تعرفْهُ تفنّن عقلكُ في الاحْتِيال للخروج من منهجه، واختِراع الأساليب الملتَوِيَة كي لا يُطَبّق أمره، أما إذا عرفه يندَفِعُ إلى تطبيق أمره بِشَكل عجيب، لذا عليه الصلاة والسلام من حكمته بدأ بالتّعريف بالله تعالى لأصحابه، والآمر قبل الأمر، فإذا عرفْتَ الأمر قبل أن تعرف الآمر تفنّنت في مخالفته، أما إذا عرفت الآمر قبل الأمر تنطلق إلى تطبيق أمره.

العاصي يجب أن يُفكِّر قبل أن يعْصي ربّه هو من سيعصي ؟

قال تعالى:

(وَالسّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنّا لَمُوسِعُونَ)

[سورة الذاريات]

هناك في الفضاء الخارجي مقابر لمجرّات، ولقد سمّوها الثّقوب السّوداء منطقة ضَغط مذْهلة، ولو أنّ الأرض دخَلت إلى هذا الثقب الأسود لأصبحت بِحَجم بيضة الدّجاجة، وبِوَزنها نفْسِهِ، كم وزن الأرض ؟ جبل قاسيون ؛ كم وزنه ؟ وجبال هيمالايا كم وزنها ؟! أعلى جبال في العالم، وجبال الألب وطولوس، فكم وزن الأرض كلّها ؟ كلّ هذه الكرة لو دَخلت في هذا الثقب الأسوَد لأصْبحت بحجم البيْضة بالوزن نفسه، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

[سورة الذاريات]

موسعون أي مسافاتها شاسعة جدًّا، والإنسان حتى الآن لم يصِل إلى حدود الكون، فكيف بخالق الكون؟!! فالكون حادث، وسبقه عدم، وينتهي إلى عدم، ومع ذلك لا نهاية له، والإنسان حتَّى الآن لا يعرف حُدود الكون.

أنت بهذه العَين المجرَّدة ترى نجوماً تزيد عن عشرة آلاف نجمة، أما بالمراصد العملاقة فهناك مليون مليون مجرّة، وبكلّ مجرّة فيها مليون مليون، هذا هو العدد الذي عرفه الإنسان حتَّى الآن، فالإنسان لمّا يتَّجِه إلى معصيَة الله يجب أن يُفكِّر قبل أن يعْصي ربَّه هو سيَعْصي مَن ؟ فأنت بالمعسكر لا تستطيع أن تعصي أمر القائد، فكيف بالإله ؟ هذا المثَل منتزع من حياتنا، أتعصي من إذا قال للشيء كُن فَكُن قال تعالى في الحديث القدسي:

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[رواه مسلم عن أبي ذر]

الشقي من غفل عن آيات الله و نسيها:

أحيانًا يشْتدّ الحرّ، يقول لك المكيّف ثمنه مئة ألف ليرة، ومصروفه رقم كبيرة فإذا هبَّتْ نسْمة عليلة تُلغي كلّ المكيّفات، أحيانًا في الشتاء يأتي يومٌ دافئ يُنْعِشُ الناس، فالله عز وجل خالق كلّ شيء، والمؤمن لا يغيب عنه ربُّه، والله جلّ جلاله في كلّ شيء خلق له آية تدلّ عليه، ولكن من هو التعيسُ والشقيّ ؟ هو الذي غفل عن آيات الله، فالله تعالى قال:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

[سورة الذاريات]

لِسان اللّهب الذي يخرج من الشمس، يقترب من مليون كيلومتر، فحرارة الشمس فوق سطحها سِتَّة آلاف درجة، وفي مركزها عشرين مليون درجة، ولو أن الأرض أُلقِيَت فيها لتبخَّرَت في ثانيَة واحِدَة، فالأرض كلّها بصُخورها، وجبالها، وقاراتها، تتبخّر في ثانية واحدة، فهذه الشّمس التي تتَّقِد منذ خمسة آلاف سنة، والعلماء قالوا: سوف يستمرّ اتّقادها لِخمسة آلاف مليون سنة قادمة، الطاقة مِن أين ؟ أن

تُشْعِلُ مدفأةً، وبعد خمسة ساعات الخزان يصبحُ فارغاً، لا يوجد شيء يعطيك حرارة إلا ويحتاج إلى طاقة فالشمس تُعطي الضِّياء والدِّفء ومصدر الطاقة في الأرض من أين جاءتْ هذه الطاقة ؟ ومن الذي يُمِدُّها بهذه الطاقة ؟ فلو أنّ الشمس انطفأت لأصْبحت الأرض قبراً جليدِيّاً، ولانتَهَتْ الحياة، وتصبح حرارة الأرض مئتان وسبعون تحت الصِّفر، وهو الصِّفْرُ المُطْلق الذي تنْعَدِمُ فيه حركة الذرّة.

إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا: فزوال الكون:

1 - زوال انحراف:

الذرّة الكتروناتها حول النواة، فلو أنّ الذرّة بلغَت الصِّفر المطلق انعدَمتْ حركتها، وإذا انْعَدَمَت حركتها زال كلّ شيء، لذلك قال الله تعالى:

(إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)

[سورة فاطر]

هذه الآية من أدقّ الآيات فلو أنّ الأرض زالتْ ؛ فما معنى وقت الزّوال ؟ أي وقت الظّهيرة، حينما تزول الشّمس عن كبد السماء، أيْ حينما تنحرف فالزّوال الانحراف هذا هو المعنى الأوّل.

2 - زوال تلاشي:

الأرض تسير حول الشمس في مسار، فلو أنّ الأرض خرجَت من مسارها فابْتَعَدت عن الشمس، لأصْبَحت قبراً جليديّاً، ولوصلَت إلى الصفر المطلق، وتوقّفَت ذراتها عن الحركة وانعدم وُجودها، فهناك زوال الكون زوال الانحراف، و زوال التلاشي، ولو أنّ الأرض توقّفت عن الحركة لكانت حرارة السطح المُقابل للشمس ثلاثمئة وخمسون درجة، هل نستطيع العَيْش ؟ والوجه الآخر مئتان وسبعون تحت الصِّفْر.

قدرة الله عز وجل في جعل الأرض لا تنحرف عن مسارها أبداً:

الآن لو فرضنا أنّ الأرض خرجت عن مسارها، وأردنا أن نُعيدها إلى مسارها، لاحتجنا إلى مليون مليون حبل فولاذي، وقطر الحبل خمسة أمتار، وقوّة شدّ الحبل مليونين طنّ، كلّ هذه القوى من أجل أن تنحرف الأرض ثلاثة ميليمتر كلّ ثانية، بكل مسار إهليلجي حول الشمس، قال تعالى:

(إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)

[سورة فاطر]

كل ما في الكون آية تدل على الله:

قال تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ اللّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

[سورة القصص]

لو كان الليل مستمِرّاً كيف تكون الحياة ؟ فدَوران الأرض آية، ومَيْلُ مِحورها آية، حجمها آية، وحجم الماء عليها آية، ولولا الماء لانعدمت الحياة، ولانعدم النبات والحيوان، قال تعالى:

(وَالسّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنّا لَمُوسِعُونَ)

[سورة الذاريات]

الأهرامات يندهش الإنسان أمامها، فمَن بنى هذه السماء ؟ قال تعالى:

(وَالسّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنّا لَمُوسِعُونَ)

[سورة الذاريات]

الله عز وجل بناها واسِعَة، وبناها وهي تتّسِع، وهناك نظريّة الآن حديثة جدّاً، وهي أنّ الكون يتّسِع، وهي تتوافق مع هذه الآية، ونحن كما يرى علماء المسلمين لا ينبغي أن نجرّ الآية إلى الحقيقة العلميّة، أما إذا كان هناك تطابق عفْوي لكان هذا شيئاً رائِعاً، وعلى كلٍّ حقائق الفلك بين أيدي الناس، فكلّ من أراد أن يعرف عن الكون شيئًا، هناك آلاف الكتب والموسوعات العلميّة، شيء يُصدّق وشيء لا يُصدّق.

ثبات حركة الأرض من ملايين السنين إلى يوم القيامة:

قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة]

ثمّ إنّ الكواكب والمجرّات تسير بشدِة متناهيَة بدليل أنّ هناك تقاسيم هي بين أيديكم، تفتح التقويم تجد أنّ الشروق يوم كذا على الساعة كذا، معنى ذلك أنّ حركة الأرض ثابتة من ملايين السِّنين، وبالدقائق. يقولون: شِدّة القرب حِجاب، فإذا فتحت التقويم على الشهر كذا في اليوم كذا، ووجدت أنّ الشمس تُشرق

على الساعة كذا وبالدقيقة كذا، هل فكرت أنّ الشمس تتحرّك على مستوى مِعشار الثانية ؟ من يستطيع أن يضبط سيْر القطار ضبطًا تامًّا ؟ فالأرض تسير ألوف الملايين من الكيلومترات، ولا تتأخّر ولا ثانيَة، فهذه الدقّة المتناهية في الحركة ؛ مِن صُنع مَن ؟

على الإنسان التفكر في ملكوت السماوات و الأرض:

الشيء الآخر، لو جئتَ بِكُتلتين مغناطيسيَّتَين، وبحَجمين متساويَيْن، ضَعهما على طاولة، وائتِ بِكُرةٍ معدنيّة، واجعلهما بين الكتلتين، بحيث لا تنجذب لا إلى هذه ولا إلى هذه، هذا شيء مستحيل، أن تجعل الضبط تامًّا، فكيف إذا كانت ثلاثة كتل ؟ فكيف إذا اختلفَت الكُتَل ؟ فكيف إذا كانت هذه الكتل في الفراغ ؟ فكيف إذا تحرّكَت هذه الكتل ؟ كلّ هذا موجود في الكون من كواكب ونجوم، وكلها متحرّكة، وهي فراغ، والمحصّلة استِقرار، وهذه هي قوى التجاذب، وهذا هو معنى قوله تعالى:

(اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخّرَ الشّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّى يُدَبّرُ الْأَمْرَ يُفَصّلُ الْآيَاتِ لَعَلّكُمْ بِلِقَاءِ رَبّكُمْ تُوقِنُونَ)

[سورة الرعد]

أي بعَمدٍ لا ترونها، هل يمكن أن تُقيم بناءً يبدأ من خمسة أمتار فوق الأرض ؛ بين السماء والأرض ؟ وهذا الهواء الذي هو بيننا، ولا يحجب الرؤية، ولطيف، وينقل الصوت، هذا الهواء يحمل الطائرة ؛ بعض الطائرات وزنها ثلاثمئة وخمسون طنًّا، وهذا الماء إذا اندَفع لا توجد قوةٌ توقفه، وأحدث طريقة لِتفكيك الصخور هي حفْر الحفر وحقنها بالماء ثمّ تجميد الماء، فالماء آية، والهواء آية.

تذليل الأرض للإنسان:

لذا هذا الفِكر لا بدّ أن يجول في ملكوت الله تعالى، من هو الذي خلقك ؟ ومن هو الذي نهاك ؟ ومن هو الذي أمرك ؟ لما يقول الله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

[سورة النور]

وقال تعالى:

(إِنّ الصّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً)

[سورة النساء]

قال تعالى:

(وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ)

[سورة الذاريات]

ماذا نفعل لو كانت الأرض كلّها صخور ؟ لا يمكن أن نعيش عليها، فمن خلق التربة الناعمة، والأنهار، فمن فجّر ينابيع هذه الأنهار ؟ أحيانًا تجد نهر التايْمز بِلُندن كلّ أمطار بريطانيا لا تكفي لهذا النّهر، والعلماء يقولون: مستودعاته بأوروبا في جبال الألب، كلّ أخ درس الفيزياء والكيمياء يؤمن يقينيًّا أنّ هذا النّبع مستودعاته في جبل آخر أعلى منه، وقد سار تحت الوادي، هناك جزر مثل إندونيسيا أربعمئة جزيرة، وما منها إلا ولها نبْعٌ يتكافأ مع سكّانها وحجمها، هذه الجزر كلّها مستودعاتها في اليابسة، فمن فجّر الأرض ينابيع ؟ الله جلّ جلاله، فالإنسان إذا شرب كأس الماء، وأكل الخبز، وأكل خروفاً، من جعل هذا الخروف مذلّلاً ؟

من نعم الله الكبرى على الإنسان:

1 ـ الهواء:

الله عز وجل يقول:

(وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ)

[سورة الذاريات]

فالله وصف الأرض كلّها فراش، فيها ماء وهواء، فلو أنّ موجة حرّ داهمتنا لمتنا، كما حدث في أمريكا، فالإنسان تحت رحمة خالقه، والهواء يتجدّد دائماً، النبات يأخذ غاز الفحم ويطرح الأكسجين، وأنت بالعكس فهذه الغابات العِملاقة تأخذ غاز الفحم، وتعطيك الأكسجين، وهذه من آيات الله الدالة على عظمة الله تعالى.

2 ـ الماء:

فأحد أسباب الحياة على وجه الأرض هذه الظاهرة، وهي أنّ الماء يزداد حجمه إذا برّدته عند هذه الدرجة زائد أربعة، من قال ذلك ؟ الله جل جلاله، وهناك نقطة مهمّة جدّاً فأنت أحيانًا تشرب كأس الماء، وتستنشق الهواء، وتجلس على كرسي خشب، هناك أشياء سائلة، وأخرى صلبة، وأخرى غازيّة، وهذه في نفس الوقت، فهل انتبَهت لهذا ؟ لو أنّ درجة انْصِهار العناصر في الكون درجة واحدة لوجدت الكون إما صلباً أو مائعاً أو غازيًّا، أما هذا التفاوُت هو من نعم الله الكبرى.

3 ـ ثبات خصائص الأشياء:

الشيء الآخر ثبات الخصائص، فالحديد حديد، والذّهب ذهب، فكيف بك إذا اشْتريت ذهباً، وبعد مدّة صار حديداً ؟! فالخصائص ذابت، وهذه نِعمة لا يعلمها أحد، هناك معادن كالحديد بِكَمّيّات كبيرة، وهناك معادن نادرة كالذّهب، وهناك معادن لها استعمالات خاصّة، وأخرى سريعة الانصهار، فالمعادن وحدها لا يعلمها إلا الله، ومخلوقات كثيرة لا يعلمها إلا الله، فهناك أنواع كثيرة من الطيور ومن الأسماك، وكم نوع من اللّحوم ؟ وكم نوعاً من الخضر والفواكه ؟ لو سألت المهندسين الزّراعيّين عن أنواع الفواكه لَدُهِشْت، وكلّ نوع متفاوتة في الشكل والذّوق والاستعمال ؛ أنواع منوّعة، وخصائص لا يعلمها، وليس في الإمكان أن أذكر كلّ شيء، قال تعالى:

(وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ)

[سورة الذاريات]

كلّ شيء في الكون مكوّن من زوْجَين اثنين:

وقال تعالى:

(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

[سورة الذاريات]

وقتَ نزول الرّسالة المحمّديّة، أُناسٌ كثيرون لا يعلمون أنّ الحيوانات أزواج، والآن ثبت أنّ كلّ شيء مكوّن من زوْجَين حتّى الذرّة فيها شَحنات موجبة، وأخرى سالبة، وهذا الشيء عُرِف حديثاً، فالجسم الصُّلب الذي تتوهّمُهُ نوعاً واحِداً هو ذكر وأنثى، فالنواة لها شحنة والكهارب لها شحنة، وهذا موضوع طويل لا مجال للخوض في تفاصيل، قال تعالى:

(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

[سورة الذاريات]

طبعاً علماء التفسير في العصور السابقة قالوا: سماء وأرض، ونور وظلام، جبل ووادي، المُحَصّلة والنتيجة.

ففِرُّوا إلَى اللَّهِ: آية لها عدة معان:

1 ـ تحرّر أيها الإنسان مِن قُيود الأرض و شهواتها:

قال تعالى:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[سورة الذاريات]

تركيب رائِع، الدنيا تشدُّك إليها، مالها وطعامها وشرابها ونساؤها، أن تفرّ منها إلى الله، وإلا كما قال تعالى:

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة الأعراف]

معنى فِرُّوا، أوّلاً تحرّروا مِن قُيود الأرض، ومن شَهوات و نزوات الأرض، ومن مطالب الجسد، ومن مصالحكم الماديّة، هذه كلّها تشدّ إلى الأرض، فالفِرار يحتاج إلى انْعِتاق، ثمّ انطلقوا بسُرعة إلى الله تعالى فالمعنى الأوّل التحرّر من كلّ قيْد أرضي، وكلمة فرّ منه يعني وجود شيء مُخيف، وقويّ، فهذه الشّهوات و الغرائز، والأرض بمالها ونسائها، هذه كلّها عوائق، ففِرُّوا إلى الله.

2 ـ انطلق أيها المؤمن بسرعة إلى الله:

والمعنى الثاني السرعة، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

[سورة آل عمران]

فالمؤمن ينطلق إلى الله تعالى بسرعة كبيرة، لأنّ الوقت أثمن شيء، وهو كالسّيف إن لم تقطعْهُ قطعَك.

التوحيد أساس الدين:

قال تعالى:

(وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[سورة الذاريات]

التوحيد هو الدِّين كلّه، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، أما مع الشِّرك فلا شيء ينحلّ، لذلك قال تعالى:

(وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[سورة الذاريات]

قال تعالى:

(كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

[سورة الذاريات]

وفي الدرس القادم نقف مع هذه الآيات وقفةً متأنّية.

محصِّلة هذا التَّأمل في الكون ففِرُّوا إلى الله، وأن تفرّ من قُيود الأرض ومن شهواتها إلى الله تعالى، فأنت بحاجة إلى التفلّت، وإلى سرعة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الذاريات 051 - الدرس (7-7): تفسيرالآيات 50-60 ، علة وجود الإنسان في الأرض عبادة الخالق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-08-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع و الأخير إن شاء الله تعالى من دروس تفسير سورة الذاريات، ومع الآية الخمسين و الواحدة و الخمسين.

تذكير بالسابق وربط باللاحق:

أيها الأخوة، في الدرس الماضي كانت الآياتُ و هي قوله تعالى:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (48) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (51))

[سورة الذاريات]

معناه أن هناك علاقة بين الآيات الثلاثة الأولى و بين الآية الرابعة، قال تعالى:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[سورة الذاريات]

التفكر في آيات الله تؤدي إلى معرفة الله عز وجل:

الإنسان لا سبيل له لمعرفة الله إلا عن طريق معرفة آياته، و أيُّ توهُّمٍ أنه يمكن أن تعرف الله من دون التفكِّر في آياته، فهذا الإنسان يمشي في طريق مسدود، السبب أن الله يقول:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

[سورة المرسلات]

أي ليس هناك حديث يقرّب الناسَ من معرفة الله إلا التفكّر في آياته، و قد كان الدرس الماضي في مجمله حول آيات الله في السماء، و حول آيات الله في الأرض، و حول أن الله سبحانه و تعالى خلق من كلِّ شيءٍ زوجين اثنين، هذه الآيات كافيةٌ كي تؤمن أن لهذا الكون خالقاً و مربياً و مسيّراً و أن لهذا الكون إلهاً موجوداً و واحداً و كاملاً، و أن أسماء الله تعالى كلّها حسنى و أن صفاته كلّها فُضلى، و أنك إذا عرفته زهدت فيما سواه.

الإسراع إلى الله و إتباع منهجه ثمن معرفته:

أيها الأخوة الكرام، المحصِّلة و النتيجة و الشيء الذي يلزم هذه المعرفة أن تفِرّ إلى الله، و أقف الآن هنا قليلاً، المعلومات و الأفكار و الدروس و الخطب و المطالعات، هذه القوة الإدراكية التي أودعها الله فيك، و هذه المُدرَكات التي ملأتَ بها ذاكرتك ما الجدوى منها ؟ و ما فائدتها إن لم تتحوّل إلى عمل ؛ و إن لم تتحول إلى سلوك ؟ فالإنسان كاد يموت عطشاً يبحث عن الماء، ثم عرف الماءَ، إن لم يتجّه إليه ما قيمة هذه المعرفة ؟ إن لم يتحرك إلى الماء ما قيمة هذه المعرفة ؟ رغم أنها معرفةٌ مصيرية، لكن ما قيمتها إن لم تتحرك نحو الماء ؟ دقِقوا في قوله تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف]

انفصال الفكر عن السلوك أخطر مرض أصاب المسلمين في العصر الحديث:

نحن الآن عندنا مرضٌ خطير يصيب المسلمين هو انفصال الفكر عن السلوك، يألف أن يستمع و أن يحضر مجالس العلم و أن يستمع إلى الخطباء و أن يقرأ المقالات و الكتب، هذا كلّه ألِفه، و صار من عاداته اليومية لكن تجد حياته في وادٍ و فكرَه في وادٍ آخر، هذا الانفصال خطير جدّاً يصيب شخصية الإنسان، و انفصال الفكر عن السلوك هذا أخطر فتجد المسلمين يعيشون في ثقافة إسلامية و مشاعر إسلامية، إذا دخلتَ إلى بيوتهم فلن تجد إسلاماً، و إذا نظرتَ إلى أهلهم فلن تجد إسلاماً، و إذا دخلت في أعمالهم فلن تجد إسلاماً، لذلك هان أمرُ الله عليهم، فهانوا على الله، و ربُّنا سبحانه و تعالى يقول:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

[سورة النساء]

فما قولكم أن للكفار على المؤمنين ألف سبيل و سبيل، معنى ذلك صار هناك انفصام في الدين، و مرض الانفصام في الدين أخطر من مرض انفصام الشخصية، الفكر في وادٍ و السلوك في وادٍ، لذلك الحلّ كما قال عليه الصلاة و السلام:

((بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

و لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها فكيف صلح أوّلها ؟ بطاعة الله عز وجل.

لا يرقى الدين إلا بإنسان يخشى الله في الغيب:

نحن لسنا بحاجة إلى متكلِمين و لا إلى متفقهين و إلى متنطِعين و لا إلى متقعِّرين في الكلام، و لا إلى خطب رنّانة و لا إلى كلام بليغ و لا إلى مؤلّفات، نحن بحاجة إلى تطبيق، سيدنا عمر رأى راعياً يرعى شِياهاً، قال له:**لمن هذه الشياه ؟ قال ليست لي، قال: قل لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب، أو خذْ ثمنها، قال: و اللهِ إني بحاجة إلى ثمنها و لو قلتُ لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدّقني و إني عنده صادق أمين، و لكن أين الله ؟** هذا الأعرابي وضع يدَه على وجه الدين، و لو أن المعلومات الدينية قليلة جدّاً فهو كبير عند الله، لأنه خشِيه، وهو كبير عند الله لأنه استقام على أمره و أنه خافه بالغيب، نحن نريد مثلَ هذا الراعي، هذا الذي يعجن العجين في الليل و دخل إلى دورة المياه و خرج و آثار النجاسة على يديه، أيتابع عملَه و يقول: لا أحد يراني، أم يخاف على غذاء المسلمين ؟

نريد إنساناً يخشى اللهَ بالغيب، نريد إنساناً يخشى الله من دون أن يكون مُداناً في الأرض، بهذا الإنسان تصلح الأمة و ينتشر الدينُ، و بهذا الإنسان يدخل الناس في دين الله أفواجاً، بهذا الإنسان يرقى الدينُ.

أصل الدين أن يكون طاهراً نقياً لا حرفة أو صنعة:

كنتُ اليوم قبل أن آتيَ إليكم في عقد قران، أخٌ كريم تقدّم فخطب قبلي، و تكلّم كلاماً طيّباً و جيّداً و رائعاً إلا أنه قال: إذا رأيت داعية لم تجد سلوكه مطابقاً لقوله فلا تعبأ بذلك، خُذ قوله و دعْ سلوكَه، فلما جاء دوري في إلقاء الكلمة قلتُ: المدعو إن رأى المرء الذي يدعوه لا يطبّق منهج الله هناك سؤالان خطيران ؛ أوّل سؤال: هذا المنهج يبدو أنه غير واقعي لأن الذي يتحدّث عنه لا يصدّقِه، و إذا كان واقعياً المتحدِّث مقصِّر، و في كلا الحالين سقطتْ الدعوة، لا يمكن أن تصغي إلى إنسان لا يطبّق كلامه، ومثل هذا الإنسان لا شأن لك عنده إطلاقًا، وهذا الإنسان لا يستأهل أن تُصغي له، ولا أن تأتي بيته، ولا أن تأتي مسجده، لأنّه يُتاجِرُ بالدِّين والإمام الشافعي يقول: لأن أرْتزق بالرّقص، أهْونُ مِن أن أرتزق بالدّين، فلا تجعل الدِّين حرفة أو صنعة أو مهنةً، ولكن دَع الدِّين نقيًّا طاهراً في السماء.

تطبيق آيات القرآن الكريم سبب ارتقاء الإنسان عند ربه:

فيا أيها الأخوة ؛ هذا كلام مفيد، وكلام مُلخَّص، إذا أردْتَ أن ترقى، فَدَعْك من القيل والقال، والخِلافيّات، ودَعْك من الحِوارات، وطبِّق آية تعرفها، فهذا رسول الله لما قال له ذاك الأعرابي عظِني وأوْجِز تلا عليه النبي عليه الصلاة والسلام آيتين، وهو قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

[سورة الزلزلة]

و القرآن ستُّمئة صفحة من آيات، وأحكام، ووعد ووعيد، وأمر، ونهي، وغيب الحاضر، وغيب الماضي، وقصص السابقين، ولكنّ هذا الأعرابي اكتفى بآيتين فقط، وقال الأعرابي: كُفيت، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فقُهَ الرجل))

والله الذي لا إله إلا هو، لا نحتاج إلا إلى آية واحدة ؛ إقبال على معلومات كثيفة وغزيرة، وتنوّع وخِلافيات وموازنات، ورأي الفقهاء والمفسّرين، ورأي الشافعيّة والمالكيّة والحنابلة والحنفيّة، ورأي الصوفيّة والسّلفيّة، وهذا الأعرابي اكتفى بهذه الآيتين.

التوبة أساس الإيمان:

أيها الأخوة، نحن بحاجة إلى إنسان مسلم، وإلى بيت مسلم، وإلى عمل مسلم، وإلى حِرفة إسلاميّة، وإلى تربية إسلاميّة ؛ هذا الذي نحن بحاجة إليه، أما التّخمة بالكلام، فلِذلك الله عز وجل:

(وَالسّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنّا لَمُوسِعُونَ)

(وَمِنْ كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلّكُمْ تَذَكّرُونَ)

[سورة الذاريات]

النتيجة الحتمِيّة هي التوبة إلى الله.

فرّوا: كلمة لها عدة معان:

والآن نقف عند كلمة فِرُّوا:

1 ـ فرار الإنسان من الشيء المخيف:

الإنسان يفرّ مِن الشيء المُخيف، ويفرّ من الوحش، ومن المرض، ومن الفقر، ومن الذلّ، ومن الهَول.

2 ـ الفرار من الشهوات:

المعنى الجديد اليوم، فأنا قد ذكرتُ لكم في الدرس الماضي فِرُّوا من شَهوات الدنيا، ومن الشّهوات الأرضيّة، ومن الشّهوات المنْحطّة، ومن قيود الأرض، ومن كلاليب الأرض.

3 ـ الفرار من عقاب الله إلى طاعته:

ولكن هناك معنى آخر ؛ وهو فرُّوا من عِقابه إلى طاعته، ومن عِقابه إلى ثوابه، ومن معْصِيَتِهِ إلى طاعته، ومن الشِّرْك إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الخوف إلى الورع، فِرُّوا من التوكّل على غيره إلى التوكّل به فهناك شيئان: فِرارٌ من شيء، و فرار إلى الشيء:

((إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، اللَّهُ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ، قَالَ: فَرَدَّدْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا بَلَغْتُ اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، قُلْتُ وَرَسُولِكَ قَالَ لَا وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ))

[رواه البخاري عن البراء بن عازب]

هو واحدٌ إن عَصَيتَهُ ينتظرك عقابه، فإن فررْت من معصيتِه إلى طاعته نجَوْت من عقابه وأصبحت في رحمته، إن عصيتَهُ ينتظركَ عِقابه، فإن فررْتَ من معْصيتِهِ والتَجَأت من طاعته، نجَوْت من عقابه، ودخلْت في رحمته هذا هو المعنى، اللّهمّ أنا بكَ وإليك، فالإيمان واحد ؛ عنده عِقاب، وعنده ثواب، وعنده توفيق، وعنده تَعسير، وعنده صِحّة، وعنده مرض، وعنده عِزّ، وعنده ذلّ، وعنده غِنَى، وعنده فقْر، وعنده راحة نفْسِيَّة، وعنده ضيقٌ نفسي فالذين ينتحِرون كيف يَنْتَحِرون ؟ بلغَ ضيقهم النفسي مرتبة لا تُحْتمَل، قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه]

فَمَعنى فِرُّوا إلى الله تعالى ؛ فِرُّوا مِن معْصيَته إلى طاعته، وفِرُّوا من الإشراك به إلى الإيمان به، و فرُّوا من عِقابه إلى طاعته، ومن عِقابه إلى ثوابه، ومن معْصِيَتِهِ إلى طاعته، ومن الخوف إلى الورع، فِرُّوا من التوكّل على غيره إلى التوكّل عليه.

طاعة الله عز و جل حصن الإنسان من عذاب الله:

قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة الأنعام]

هذه فِطرة الإنسان، والله أيها الأخوة لو أنَّك أحْبَبْتَ ذاتَكَ وحْدها، وبالغْتَ في حُبّ ذاتك، ولو أنّك كنتَ كما يقول: أنانِيًّا، والتركيب غلَط، وهو شائع، لأنّ أنا و غير لا يؤخذ منها مصدر، والصواب الأثرة و

المؤاثرة، فبالتعبير المألوف عندكم: لو كنت أنانيّاً عليك بطاعة الله لأنّ طاعة الله حِصنٌ لك وأساس التوفيق.

لذا المؤمن يبحث عن أمر الله، وعن منهجه، وعمّا يُرضيه، وعن الحُكم الشّرعي في كلّ شيء، فَبَعْدَ أن تعرف الله ليس هناك موضوع أخْطر من أن تعرف أمرَهُ كي تُطيعهُ، لأنّ إذا عرفْتَهُ شَعَرتَ بدافعٍ لا يوصَف إلى التّقرّب إليه عن طريق طاعته، أين أمرهُ ؟ عليك أن تحضر مجالس العِلم.

لكل حسنة ثواب و لكل سيئة عقاب:

الخُطب أيُّها الأخوة تقريباً كالبضاعة المعروضة على واجهة المحلّ، وهذه البضاعة هي من أجل أن تجلب إلى الدخول إلى المحلّ، فإن لم تدخل فما استْفَدْت شيئًا، والخُطبة مهمّتها أن تُقنِعَك بأحَقِيَة الدِّين، وبطاعة الله، وبالعمل للآخرة، ولكنّك إذا اقْتَنَعْتَ تريد التّفصيلات، وتريد مجلس عِلم، هناك منهج مُفصّل، مجلس عِلم لِمَعرفة الحديث الشريف، وآخر للتّفقه، ومجلس للتفسير والسيرة، فأنت إن اقْتَنَعْت بالدِّين وأردْت أن تصْطلِحَ مع الله فالآن تحتاج إلى تفصيلات.

لذا الخطبة لا يُستغنى بها عن دروس العلم، فهي تُقْنِعُك بالدِّين، أما دروس العِلم ففيها تفصيلات الشرع، وتفصيلات كتاب الله تعالى، وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، لذا فَفِرُّوا إلى الله، وهذه الكلمة لو أنّ شخصاً خائفاً من شيء، المعْصِيَة من لوازمها العِقاب، وإنّ لكلّ حسنة ثواباً، وإنّ لكلّ سيّئة عِقاباً.

الشيء الآخر إن عرفْت أو لم تعْرف، إنّ عرفتَ أنّ لكلّ حسنة ثواباً، وأنّ لكلّ سيّئة عِقاباً، أو لم تعرف، للحسنة ثوابها، وللسيّئة عِقابها، قال: يا رب، عصيْتُ ولم تُعاقبني، فقال الله:

((يا عبدي عاقبْتُك ولم تدْر))

فأنت إن عرفْت أو لم تعرف فالعِقاب حاصِل، ولو دقّقت لوجدت أنّ أفعال الله كلّها حِكمةٌ ما بعدها حِكمة، وعَدل ما بعدها عدل، ورحمة ما بعدها رحمة، فإما أن تعرف وإما أن تجْهل ولكنّك إن جَهلت فليس معنى هذا أنّ الحسنة ليس لها ثواب، وأنّ السيّئة ليس لها عِقاب، فالعِقاب واقِع، والثّواب واقِع، قال تعالى:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[سورة الذاريات]

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط:

مرّة أخرى أيها الأخوة ؛ أُعيذ هذه الفِكرة مئات المرات خِيارُك مع الإيمان ليس خِيار قبول أو رفض، ولكن خِيار وقت فقط، الشيء الذي لا تعرفه، أو الشيء الذي عرفته وأنكرتهُ، أو الشيء الذي صَدَدْتَ عنه، لا بدّ أن تؤمن به عند لِقاء الله عز وجل، والدليل أنّ أكفر كُفّار الأرض حينما قال: أنا ربكم الأعلى، لمّا غرق قال كما حكي عنه تعالى:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة يونس]

فإما أن تؤمن، وأنت في بَحبوحة، وفي صِحّتك، وشاب، وغنيّ، وإما أن تؤمن بعد فوات الأوان، فليس المقولة تؤمن أو لا تؤمن، لا، لا بدّ من أن تؤمن، ولكن حينما تؤمن بعد فوات الأوان تندم أشدّ النّدَم، فالآن نحن في بَحبوحة، وباب الصّلح مع الله تعالى مفتوح، وباب التوبة والاستغفار مفتوح، وباب إصلاح الأخطاء الماضيّة مفتوح، وباب أداء الحقوق مفتوح، وباب الاستِسْماح مِمّن اغْتبْتَه مفتوح، الأبواب الآن كلها مفتوحة، ولكن حينما يأتي ملك الموت الأبواب كلها تغلق، قال تعالى:

(لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة المؤمنون]

باب التوبة مفتوح أمام الإنسان مادام في الدنيا:

قال تعالى:

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)

[سورة المؤمنون]

فنحن الآن في بحبوحة، فلا تقل: غداً، وورد في الأثر أنْ هلكَ المُسَوِّفون فلا تقل حتى أفعل كذا، وسوف أفعل، فهذه مِن سِلاح إبليس، فإبليس يستخدم سوف، فالله تعالى:

(فَفِرُّوا)

[سورة الذاريات]

الآن وما مضى فات والمؤمّل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، ونحن لا نمْلك إلا هذه الساعة، فهؤلاء الذين يموتون فجأةً في ذِهْنهم سيَعيشون عشرين عاماً قادِماً، فإذا بهم بعد ساعة ينتهون، أحدهم كان جالساً مع أصدِقائه، فقال: أنا لن أموت، فسأله أحدهم لماذا ؟ فقال: أنا رشيق، وصحّتي جيّدة، ولا أُدخِّن، تكلّم بهذا الكلام يوم السبت، وفي السبت القادم كان تحت التراب، سبعة أيام فقط، فلا أحَدَ يملك المستقبل، ما مضى فات والمؤمّل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، اِعْقِد العزمَ على التوبة الآن

وإصْلاح ما مضى، والآن ممكن أن تُحلّ المشكلات بالأموال، ولكن بعد الموت لا ينفع إلا العمل الصالح.

حقوق العباد مبنية على المشاحة و حقوق الله مبنية على المسامحة:

في الدنيا كلّ شيء يُحلّ، وكلّ شيء له حلّ، لكنّ المشكلات مع الله تعالى هي المعاصي، ولأنّ الله تعالى يقول:

(إنّ اللّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً)

[سورة النساء]

فهذا ذنب لا يُغفر، وهناك ذنب لا يُترك وهو ما كان بينك وبين العباد، تصوّر إنسانًا خاض معركة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي أشرف معركة، مات شهيداً في الأرض المعركة، ولما دُعِيَ النبي عليه الصلاة والسلام لِيُصَلِّيَ عليه قال:

((هل عليه دَين ؟))

فقالوا: نعم، فقال:

((صَلّوا على صاحبكم))

((يُغْفَرُ لِلشّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلّا الدّيْنَ))

[رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

قدّم روحه، لماذا ؟ لأنّ حقوق العباد مَبْنيّة على المُشاحة، بينما حقوق الله تعالى مَبْنِيّة على المُسامحة.

عدم قبول الله أي عمل للإنسان إذا أشرك معه إلهاً آخر:

أيها الأخوة الكرام، قال تعالى:

(فَفِرّوا إِلَى اللّهِ إِنّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ(51))

[سورة الذاريات]

لأنّ الله سبحانه وتعالى إن أشْركتَ به لا يقبل عملكَ كُلّه، والله تعالى يقول في الحديث القدسي:

((قَالَ اللّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشّرَكَاءِ عَنِ الشّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

فالعمل المُشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يُقبِلُ عليه، قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء]

الاعتماد على غير الله ذل و ضلال:

إذا أرادْت عذاب الدنيا فادْعوا مع الله إلهاً آخر فالإنسان أوّلاً ضعيف، وثانياً عِلمهُ مَحدود، وثالثاً قد لا يُحِبّك، قال تعالى:

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر]

كُن مع الذي يسْمعُ دعاءك في أيّ مكان، قد يُعيك رقم هاتفه، ولكنّ الهاتف مقطوع، وأنت بأمسّ الحاجة إليه، فَكن مع الذي إن دَعَوتهُ أجابك، وإن سألْتهُ أعطاك، وإن استغفرته غفر لك، وإن تبتَ إليه تاب عليك، وكُن مع الذي لا يغيب علمه عنك إطلاقًا، وربنا عز وجل غَيور، فإن جَعَلتَ معه إلهاً آخر لا بدّ أن يُخيّب ظنّك فيه، قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء]

فلا تعتمد لا على ابنك، حبّهُ في الله، وأكرمهُ، وأحِبَّ زوجتك لله ولا تعتمد عليها، ولا تعتمد على شريك، ولا على أخ، ولا على زوجة، ولا على ابن:

((لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي وَقَدِ اتَّخَذَ اللَّهُ عَزّ وَجَلّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلًا))

[رواه مسلم عن أبي الأحوص]

إعْتَمِد على الله تعالى، يا رب ماذا فقدَ من وجدَك ؟ وماذا وجد من فقدَكَ ؟ إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ إنسانٌ حصّل ثروة طائلة، وكانت له زوجة جيّدة جدّاً وكان اعتِمادُه عليها، أُصيب بِشَلل فلم تحْتَمِلهُ إلا أيّاماً معدودة، وكان في البناء قبو جعلتْهُ في الطابق السفلي، وكلّما طلب زوجته تأتيه بعد أيام، وبكَلماتٍ قاسيَة وبازْدِراء، ثمّ نقلتْهُ إلى بناءٍ آخر بعيد كي تستريح منه، فَمَن اعْتَمَد على غير الله تعالى ذلّ وضلّ.

على الإنسان أن يكون مع الله لأن كل شيء بيد الخالق:

هذا الحسن البصري كان عند والي البصرة فجاء توجيه من يزيد بن معاوية، ويبْدو أنّ هذا التوجيه لا يُرضي الله تعالى، فقال لِهذا الإمام:**ماذا أفعل ؟ إنّي إن نفّذْتُ هذا التوجيه أغْضبْتُ الله عز وجل، وإن لم أنفِّذْهُ أغْضَبتُ الخليفة، فماذا أفعَل ؟ فقال هذا الإمام: إنّ الله يمْنَعُكَ مِن يزيد ولكنّ يزيداً لا يمنَعُك من الله،** مهما كان الإنسان قويًّا، وضغط عليك فقُل إنّ الله تعالى يمْنَعُهُ مِنِّي ولكنَّه لا يمْنعني من الله تعالى، فالله تعالى بيَدِهِ قلبك، وبيَدِه الكبد، وفشَل كلوي، والنجاح بالمئة خمسين، وأورام من دون سبب ؛ مرّة بالجِلد ومرّة بالأحشاء، ومرّة بالدِّماغ، فصِحّتك بيَدِ الله تعالى، وأجهزتك كلها بيَدِهِ، وكلّ من حَولك بيَدِهِ، ورِزقُكَ بيَدِهِ، وزوجتك بيَدِهِ، فأحيانًا يُلهمها أن تكون ألطف زوجة وأحيانًا يُلهمها أن تكون أشرس زوجة، حتّى قال الإمام الشعراني: أعرف مقامي عند ربّي من أخلاق زوجتي، فالزوجة هي هي، لذا قال أحد الأنبياء كما قال تعالى:

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ)

[سورة هود]

أيها الأخوة، قال تعالى:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ(51))

[سورة الذاريات]

المؤمن يصبر في سبيل الدعوة إلى الله أسوة برسول الله:

ثمّ يقول تعالى:

(كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

[سورة الذاريات]

كما قال عليه الصلاة والسلام:

((مِلّة الكفر واحدة))

فمواقف الكفار منذ خلق الله الأرض ومن عليها وإلى يوم القيامة واحدة، انْتِقاداتهم واحدة، وطَعنهم واحِد، وادِّعاؤُهم واحِد، وقد يسأل سائل ويقول: يا رب، هذه التُّهَم الباطلة التي قالها الكفار على أنبيائِك الكِرام لماذا أثبتَّها في كتابك وجعلتها قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة ؟! لِيَكون الأنبياء جميعًا أُسْوةً لنا، فالأنبياء قالوا عنهم ما قالوا، فالنبي عليه الصلاة والسلام قالوا عنه: سَاحر، ومجنون وشاعر.

لذا إن قيل عنك شيءٌ فاصْبر، فقد قيل لِمن هو أفضل منك، لذا جعل الله تعالى النبي عليه الصلاة والسلام، والنبي تحمّل ما تحمّل في سبيل الدّعوة، ولاقى في جَنب الله تعالى ما لاقى، وأوذِيَ ولم يُؤْذ أحد وخاف، وجاع في سبيل الله تعالى، وكانت حياته كلّها متاعب، ومشقّة، وطريق كلّه أشواك، إلى أن بلّغَ الرّسالة، وأدّى الامانة، ونصَح الأمّة، وكشف الغمّة، وجاهد في الله حق الجهاد، وهدى العباد إلى سبيل الرشاد، ولاقى وجْه ربّه وهو في أعلى عِلِيّين، وهذه هي الحياة، وكلّ شيء في الحياة يُمَلّ.

الحياة من دون رسالة و قيم لا معنى لها:

هناك حقيقة في الحياة دقيقة جدّاً، فأنت ما دُمْتَ في أوّل الطريق فكلّ شيء له بريق فالإنسان يكون بالابتِدائي، فيرى تلامذة الإعدادي، والثانوي، وبعد أن يصل إلى الثانوي يأخذ البكالوريا، وبعدها الجامعة، ثمّ يتخرّج، وبعدها يشغل منصباً ثمّ يتزوّج، وبعد الزواج يُنْجب، وبعدها يُزوّج أولاده، وبعدها يكتشف تفاهة الحياة.

لذا الحياة من دون رسالة لا تُعاش، ومن دون قِيَم لا تُعاش، ومن دون هدف لا تُعاش، لذا غير المؤمن يضْجر، ويسْأم، ويَمَلّ، أما المؤمن فهو في شباب دائم، ولأنّ هدفه كبير، إلهي أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، فالمؤمن لا يشيخ، الجِسم يتراجع ولكن نفْسِيَّته نفسيّة شابّ، وله آمال لا تكفيها مئة عام، هذا هو المؤمن يعيش حياةً سعيدةً، أما الإنسان حينما يكون هدفه مادّي، ويصل بعدها إلى أهدافه يرى تفاهتها، ومَحْدودِيَّتها، وصغارها، وعندئذٍ يسأم ويضْجر، وأنت سعيد، لذا أنت موهوم بالسعادة قبل أن تصل إلى أهدافك، فإذا بلغْتها كلّها، وكانت مادّيَة تشْعر بتَفاهة الحياة، أما إذا عرفت الله مِن بدايات الحياة فأنت في شباب دائم، وفي سعادة دائمة.

أسعد الناس بالدنيا أرْغبهم عنها:

َمِن باب الطُرفة وهي أنّ الفرنْسِيُّون لهم حقيقة، أنا أرْويها فقط لأهل الدنيا لا للمؤمنين وهي: أنّ الحياة تحتاج إلى ثلاثة أشياء كي تكون سعيداً بها: تحتاج إلى صِحّة، وإلى وقت، وإلى مال، والإنسان يمرّ بِحياته بِثَلاثة مراحل ودائماً تنقصه واحِدَة، ففي أوّل حياته شابّ كالحِصان، ولكن لا يوجد مال، وفي المرحلة الثانيَة يؤسّس عملاً، فالمال موجود، والصحّة موجودة، ولكن لا يوجد وقت، وبالثالثة المال موجود، والوقت موجود، ولكن لا توجد صِحّة.

فدائماً ينقصك شيء، هذا الكلام أقوله لأهل الدنيا، لأنّ أسعد الناس بالدنيا أرْغبهم عنها، وأشْقاهم فيها أرغبهم فيها، أما المؤمنون ؛ منذ أن عرَفَ الله دَخَل في السّعادة، لأنّ هدفه أن يتعرّف إلى الله، وإلى أن

يستقيم على أمره، وهدفهُ أن يدْعو إليه، وأن يهْدي خلقه، وأن ينال رِضْوانه، وان يكون جُنْدِيًّا للحق، وهدفه أن يهْديَ الناس إلى طريق الحق فالمؤمن أهدافه كبيرة جدًّا، فدُنياهُ يراها آخرة.

طغيان الكفار جعلهم يقفون موقفاً موحّداً من الأنبياء:

قال تعالى:

(كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52) أَتَوَاصَوْا بِهِ)

[سورة الذاريات]

هل اتَّفقوا ؟ اتَّفقَ الكفار في كلّ مكان وزمان على اتِّهام الأنبياء باتِّهام واحد ساحر أو مجنون، والعجيب أنّه في كلّ زمان لو أصْغَيتَ إلى الكافر لرأيْت انْتِقاده يُشبِهُ انتِقاد إنسان آخر عاش قبل ألف وخمسمئة عام، يقول لك: دجّال، وهذا له مصْلحة، ويقول لك: هو لا يطبّق ذلك، قال تعالى:

(كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52) أَتَوَاصَوْا بِهِ)

[سورة الذاريات]

كيف جاءَتْ انتِقاداتهم وتُهَمُهم واحدة ؟ قال تعالى:

(بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

[سورة الذاريات]

طُغيانهم جعلهم مُتشابهين، وجعلهم يقفون موقفاً موحّداً من الأنبياء والمرسلين.

من عرف نفسه ما ضرّتْهُ مقالة الناس به:

قال تعالى:

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ)

[سورة الذاريات]

أنت أرقى من ذلك، فالله تعالى كرّم الإنسان بِمَعرفته، وبطاعته، وبالدّعوة إليه، فلا يلْتَفتُ إلى الحُسّاد، وضيّقي الأفق، وصِغار النُّفوس، وصِغار القلوب ؛ هؤلاء دَعْهُم ولا تلتفِت إليهم، فأنت أرقى من ذلك، ووقْتُك أرقى مِن أن تُضيّعَه معهم، نجاحك أثمن من أن تلتفت إليهم، القافلة تسير والكِلاب تَعوي، ما ضرّ السّحاب في السماء نَبْح الكلاب في الأرض، وما ضرّ البحر العظيم أن قذف الغلام فيه بالحجر، هذا لا يُساوي شيئًا قال تعالى:

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ)

[سورة الذاريات]

لا عندنا، ولا عند المؤمنين، ولا عند نفسِك، ومن عرف نفسه ما ضرّتْهُ مقالة الناس به.

الذكرى تنفع المؤمنين:

قال تعالى:

(قُلِ اللّهُ ثُمّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

[سورة الأنعام]

ثمّ يقول تعالى:

(وَذَكِّرْ فَإِنّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الذاريات]

المؤمن فيه حياة في قلبهِ، المؤمن اتّخَذ قراراً حقيقياً ومصيريا وهو طلب الحقيقة، ومعرفة الله وطاعته، فهذا المؤمن ذكِرْه، والذِّكْرى تنفعُ المؤمن.

خلق الله الإنسان ليعرفه فيطيعه فيسعد في الدنيا و الآخرة:

قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُون)

[سورة الذاريات]

و الله أيها الأخوة كنتُ أتمنّى أن أقف عند هذه الآية وقفة طويلة، لأنّها أخطر آية في كتاب الله ولأنها تُبيّن لماذا أنت في الدنيا ؟ خلقهم لِيَعرفوه فيُطيعوه فيسْعَدون، هناك جانب معرفي، وجانب سُلوكي، وجانب جمالي، فالجانب الجمالي هو الهدف الجمالي، قال تعالى:

(إِلّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ لَأَمْلَأَنّ جَهَنّمَ مِنَ الْجِنّةِ وَالنّاسِ أَجْمَعِينَ)

[سورة هود]

ثمن هذا الهدف الجمالي طاعته في الدنيا، وسبب الطاعة معرفته، تعرفُهُ فتُطيعُهُ فتَسْعَدُ بِقُربهِ في الدنيا والآخرة، هذه عِلّة وُجودنا على وجه الأرض.

علة وجود الإنسان في الأرض عبادة الخالق سبحانه:

قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُون)

[سورة الذاريات]

فالإنسان إن لم يعرف سبب وُجوده في الدنيا هذا إنسان جاهل أشدّ الجهل، فهل يوجد من يُسافر إلى بلد، ويدخل فندقاً و ينام، ويستيقظ، ثمّ لا يعرف لماذا هو في هذا البلد ؟! إن كنتَ طالباً فعليك بالجامعة،

وإن كنتَ تاجراً فالأسواق، أو سائحاً فالمتاحف، وكذلك السؤال نفسه ؛ لماذا أنا في الدنيا ؟! هل من أجل الأكل والشرب ؟ الحيوان يأكل ويشرب، من أجل أن تتباهى ؟ فهناك حيوانات تتباهى كالطاووس، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

لِيَتَعَرّفوا إليّ فَيُطيعوني ويسْعَدوا بِقُربي، وهذه الآية تُبيّن عِلّة وُجودنا على وجه الأرض، لا كما يقول الشاعر:

جئتُ ولا أدري من أين لكنّي أتَيْتُ لماذا أتَيْتُ لسْتُ أدري ولماذا

لستُ أدري لستُ أدري

هو وحده لا يدري، لكنّ الله عز وجل أعلمَنا أنّه خلقنا لِنَعبدَهُ.

من طلب العلم تكفّل الله برزقه:

قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57))

[سورة الذاريات]

لا تحتجّ بالرّزق، من طلب العلم تكفّل الله له برزقه، فالرّزق مضمون وموجود ومَقسوم، وكلمة الحق لا تقطع رزقًا ولا تقرّبُ أجلاً، والرّزق بيَد الله عز وجل، قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ هُوَ الرّزّاقُ ذُو الْقُوّةِ الْمَتِينُ)

[سورة الذاريات]

الرزق بيد الله سبحانه و تعالى:

من ابتغى أمراً بِمَعصيَةٍ كان أبْعَدَ مِمّا رجا وأقرب مِمّا اتّقى، قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ هُوَ الرّزّاقُ ذُو الْقُوّةِ الْمَتِينُ)

[سورة الذاريات]

إياك أن تقول: إن أطَعْتُ الله أخْسَرُ عملي، هذا كلام الجُهّال، وكلام مشرك، وكلام من أُفُقُه ضيّق، فهذا التوهّم من الشيطان، قال تعالى:

(إِنّمَا ذَلِكُمُ الشّيْطَانُ يُخَوّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

الظالم له عِقاب أليم في الدنيا والآخرة مثل عِقاب الأُمَم السابقة:

قال تعالى:

(فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ)

[سورة الذاريات]

الذّنوب هنا هي الحظ أي هؤلاء الذين ظلموا يا محمد صلى الله عليه وسلم وهم معك، لهم عِقاب أليم في الدنيا والآخرة مثل عِقاب الأُمَم السابقة الذين ذكرهم الله في كتابه الكريم، فهذه القِصص رَدْعِيَّة، كيف أهلك الله عاداً وثمود وفرعون وقوم لوط ؟ هؤلاء الأقوام الأقوياء الأشِدّاء والظالمين كيف دمّرهم الله عز وجل.

الفيضانات، الزلازل، الحروب، كلها بلاء من الله عز وجل:

قال تعالى:

(وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ)

[سورة ص]

ونحن عندنا عَيّنات في الحياة المُعاصرة، تجد زلزال أتى على كلّ شيء و إعصارات في شرق أمريكا كلّفت ثلاثون مليارا، وهذه فيضانات وصواعق، وحروب أهليّة، قال تعالى:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)

[سورة الأنعام]

فهذه الآية تشمل الزلازل والإعصارات والفيضانات والصواعق والحروب أهليّة، هذه كلّها بلاء من الله عز وجل.

توعد الله الكافر بويل عظيم يوم القيامة:

قال تعالى:

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

[سورة الذاريات]

الوَيل هو الهلاك، ونحن الآن في بَحبوحة، ولكن لمّا يصل إلى طريق مَسدود يُصيبُهُ ألمٌ وضيقٌ لو وُزّعَ على أهل بلدٍ لكفاهم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطور 052 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1-16، عدم إيمان الكافر بالوعيد الإلهي رغم آيات الله الدالة على عظمته

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-08-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون مع الدرس الأول من سورة الطور.

قسم الله عز وجل يدل على أن المقسم به شيءٌ عظيم:

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8))

هذه الصيغة صيغة قسم:

(وَالطُّورِ)

والقسم في القرآن يدل على أن المقسم به شيءٌ عظيم بالنسبة إلينا.

الله جل جلاله هو العظيم، ولا عظيم سواه، أما إذا جاءت واو القسم مع كلمات في فواتح السور، فهذه الكلمات تعني أنها أشياء يجب أن نفكر فيها.

معنى الطور:

1 - الجبل:

الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَالطُّورِ)

والطور في أصل اللغة الجبل الأخضر، الجبل المشجر، إما أنه آية من آيات الله الدالة على عظمته، أو أنه الجبل الذي كلم الله موسى عليه السلام عنده، وإما أنه آية كونية، وإما أنه مكان مقدس.

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2))

(سورة التين: 1 - 2)

(وَطُورِ سِينِينَ)

(سورة التين)

هو الجبل بمدين الذي كلم الله موسى عنده تكليماً.

الهدف من وجود الجبال:

نحن مخيرون بين أن نفهم الطور كآية كونية دالة على عظمة الله إذْ الجبلُ من الآيات التي أشار القرآن إليها، هذا الجبل الذي نراه بأعيننا ثلثه فوق الأرض، وثلثاه تحت الأرض، وهذه الجبال تارة وصفها القرآن بأنها أوتاد، وتارة رواسٍ، وتارة مستودعات للمياه، وتارة تزيد مساحة الأرض وتلطف الجو، هناك أهداف كثيرة جداً، وحكم بالغة من خلق الجبال لا يعلمها إلا الله، ويعلم بعضها المتخصصون، أوتاد تربط طبقات الأرض بعضها ببعض، ورواسٍ تعين على ثبات حركة الأرض، لأن الأرض من دون هذه الجبال تضطرب في دورانها، فجعلها رواسيَ ممّا يجعل دورانها مستقراً، والجبال مستودعات ضخمة للمياه، فالأنهار التي تزيد كثافتها عن ثلاثمئة ألف متر مكعب في الثانية أين مستودعاتها ؟ فالجبال مستودعات، والجبال أوتاد، والجبال رواسٍ، والجبال تلطف الأجواء في الأرض، الجبل متنفس بالصيف، والجبل يزيد مساحة الأرض، والجبل يعد مَصَداً للرياح، فهناك أهداف كبيرة من وجود الجبال، فمناخات الأرض تتحدد بحسب الجبال، اذهب إلى الشمال تجد في حمص رياحاً عاتية تنفذ إليها من فتحة نحو البحر، أما قبل حمص وبعد حمص فهناك سلاسل جبلية تمنع حركة الهواء الحادة إلى الداخل، حكم خلق الجبال لا يعلمها إلا الله، ولكن الجبل يعد آية من آيات الله الدالة على عظمته.

الجبال من آيات الله الدالة على عظمته:

الجبال كتلٌ من الصخور، فأحياناً ترى مقالع أحجار من الجبال منذ خمسين عاماً، ولم يتأثر شكل الجبل، فكم في هذا الجبل من صخور وكم فيه من الرمال، وكم فيه من كتل صخرية لا يعلم حجمها إلا الله عز وجل.

(وَالطُّورِ)

هذا معنى أول إذا أخذنا الطور على أنه جبل أخضر، وعلى أنه آية من آيات الله الدالة على عظمته.

2 ـ المكان المقدس:

أما إذا أخذناه مكاناً مقدساً، كلم الله عنده موسى عليه السلام، فهذا معنى آخر، فمن آيات الله الدالة على عظمته أيضاً أنه أوحى إلى أنبيائه، أنه لم يدع الناس بلا رسالة، لم يدعهم بلا تنبيه، بلا إرشاد، بلا تحذير، بلا توضيح، من رحمة الله عز وجل أنه خلق الخلق وأرشدهم إليه، كما يشق الطريق وتوضع

العلامات على جانبيه، فهنا منزلق خطر، هنا منعطف حاد، هنا جسر، هنا طريق رئيسي، هنا تقاطع خطر، هذه الإشارات بعد شق الطرقات مفيدة جداً، فالله سبحانه وتعالى خلق الأرض ونوّرها، نوّرها بالوحي، فأنت تعلم لماذا أنت مخلوق، ما الهدف من وجودك ؟ ماذا بعد الموت ؟ لماذا المرض ؟ لماذا الخوف ؟ لماذا الفقر ؟ لماذا الدنيا قصيرة ؟ لماذا الآخرة أبدية ؟ فالله سبحانه وتعالى نوّر الأرض بالوحي، ووضّح لعباده سر وجودهم وغاية وجودهم، فكأن الجبل يدل على الله، لكن الوحي يدلنا على طريقة عبادته، بالجبل نتعرف إليه، وبالوحي نتعرف إلى منهجه، بالجبل نعرفه وبالوحي نطيعه، بالجبل نعرفه وبالوحي نعبده، فإذا أردت الجبل كآية تدل على عظمته، وإن أردت الجبل كمكان مقدس عنده كلّم اللهُ موسى تكليماً.

معنى ذلك أن رحمة الله عز وجل تقتضي أن ينزل على أنبيائه كتباً، وأن يوحي إلى صفوة خلقه، وأن يبلّغهم ماذا ينبغي أن يبلغوه للناس.

يعني ما مِن أب في قلبه ذرة رحمة إلا ويملأ أذن ابنه نصائح وتوجيهات، وتحذيرات، وبيانًا، وتفصيلاً، وإعلاماً، وتحذيراً، وتبشيراً فالأب الكامل، فضلاً عن أنه هيأ لابنه بيتاً، وغرفةً، ومدرسين ووفّر له نفقاته، كما وفّر له كل حاجاته، وأهم من كل هذا توجيهات الأب ونصحه، وتعليمه، هذا أهم من الأشياء المادية.

الجبل رمز لمعرفة الله أو عبادته:

فالجبل إما أنه آية تدل على عظمة الله، وإما أنه مكان يشير إلى نزول الوحي من السماء، وإلى أن الخالق العظيم لا يدع خلقه بلا أمرٍ ولا نهيٍ، بلا بيانٍ، بلا تحذيرٍ، بلا تبشيرٍ، بلا تعريفٍ، والقرآن الكريم يدور كله حول التعريف بخالق هذا الكون ؛ إنه موجود، وهو واحد لا شريك له، وهو كامل، والتعريف بقصص الأنبياء السابقين والتعريف بالمنهج التفصيلي، والتعريف بمصير البشرية، بحال الإنسان بعد الموت، فبالكون نعرفه و بالشرع نعبده، والجبل رمز إلى معرفة الله أو إلى عبادته، إذا قلنا الجبل الأخضر آية دالة على عظمة الله، إذا قلنا مكان مخاطبة الله عز وجل لسيدنا موسى دليل الوحي، وأن الله لرحمته بخلقه، وحرصه على هداهم، والأخذ بيدهم إلى سعادة الدارين، أوحى إلى أنبيائه ليبلغوا الناس.

وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ: للكتاب عدة معان منها:

(وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2))

هذا الكتاب إما أنه الألواح التي تلقاها سيدنا موسى عليه السلام، وإما أنه القرآن الكريم الذي أنزله على سيد المرسلين، وإما أنه مطلق الكتاب، أيّ كتاب سماوي.

منهج الله لعباده في الأرض:

على كلٍ هناك طور، وهناك:

(وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3))

منهج، أنت إذا دخلت إلى بناء جامعة، قد تستنبط أن هذه الأقواس رائعة، فالمهندس على مستوى رفيع، وأنّ القاعات فيها واسعة، وهناك وحدة صوتية جيدة، وأن الحدائق غناء، وأنّ بيوت الطلبة مجهزة بكل وسائل الراحة، لك أن تستنبط من البناء، المخابر، وقاعات التدريس، والحدائق، وبيوت الطلبة، أشياء كثيرة جداً، لكن لو تأملت مئة عام في بناء الجامعة فهل يمكن أن تعرف نظامها الداخلي ؟ وهل يمكن أن تعرف عدد الكليات ومنهج كل كلية وأسماء المدرسين، لن تعرف ذلك إلا إذا قرأت الكتيب الخاص بالجامعة، ففيه شيء يُستنبط، وفيه شيء يقرأ، فالكون يدل على الله، أما القرآن فيه تفاصيل الأمر والنهي، والله عز وجل يقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام: 1)

وفي آية ثانية يقول عنه:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف: 1)

كأن الكون كله في كفة، وكتاب الله في كفة، يعني كما أنه خلق فقد أوحى، خلق وأرشد، وخلق ونوّر، خلق وبيّن، خلق ووضّح.

الكتاب هو المصدر الأول في الدين الإسلامي:

الله سبحانه وتعالى قال:

(وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3))

فالكتاب المصدر الأول في الدين الإسلامي، كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، غنى لا فقر بعده، غنىً لا غنىً فوقه.

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري عن عثمان]

خير جهاد تجاهده أن تتعلّم القرآن وأن تعلِّمه، والدليل:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

(سورة الفرقان: 52)

منهج خالق السماوات والأرض، كل كلمة قاعدة، كل حرف نظام أحياناً، الحركة لها معنى، الحرف له معنى في كتاب الله، هذا ليس كلام بشر، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، هذا هو الكتاب المقرر، طالب على مشارف الامتحان، وبالامتحان يتخرج، والشهادة عليا، ويعلق هذا الطالب على تخرجه آمالاً عظاماً وبقي للامتحان ساعات، أيقرأ غير الكتاب المقرر ؟ يكون أحمق عندئذٍ، فهناك ألفُ كتاب وكتاب، ما يطبع في اليوم من كتب في العالم، لا يمكن أن تقرأه في مئة عام، هذه كلها كتب كتبها أشخاص فيها الخطأ والصواب، فيها الحقائق والأوهام، فيها الحق والباطل.

القرآن الكريم كتاب محكم من عند الخالق:

الكتاب الذي لا باطل فيه، ولا وهم فيه، ولا ظن فيه، هو القرآن، وكله محكم من عند الله عز وجل:

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمّ فُصِّلَتْ)

(سورة هود: 1)

هو كلام الله، هذا كتابنا المقرر، يجب أن نقرأه صباحاً ومساء ليلاً ونهاراً، يجب أن نفهم أبعاده، مراميه، محكمه، متشابهه، ناسخه ومنسوخه، حلاله وحرامه، أمره ونهيه، وعده ووعيده، غيبه الماضي، غيبه الحاضر، غيبه المستقبل، هذا كتابنا المقرر، كلام الله عز وجل، والله لا أعجب إلا من إنسان قرأ كتاب الله ثم استهواه شيء آخر، لك أن تقرأ أي شيء، ما دام هذا الشيء يقربك من كتاب الله، لك أن تقرأ بحثاً علمياً يوضح لك آية كونية، لك أن تقرأ بحثاً فقهياً يوضح لك آية فقهية في كتاب الله، تقرأ له ومن أجله، ومن أجل معرفته.

الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ هو:

1 ـ الكعبة المشرفة:

(وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4))

قالوا: الكعبة المشرفة، البيت المعمور بالحجاج.

2 ـ أو بيت على سمت الكعبة في السماء:

وقد ورد في بعض الأحاديث أن البيت المعمور هو بيت على سمت الكعبة في السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك.

3 ـ أو الأرض:

وقالوا البيت المعمور هي الأرض لأن فيها كل شيء، كل حاجات الإنسان في الأرض موجودة.

4 ـ أو الحرم المكي الذي نزل فيه جبريل على سيدنا محمد:

لك أن تفهم البيت المعمور ؛ هو هذا البيت المقدس الذي نزل فيه الوحي، كيف أن الطور هو الجبل الذي كلم الله عنده موسى تكليماً، وكأن هذا المكان المقدس إشارة إلى هذا الوحي العظيم، كذلك البيت المعمور هو الكعبة المشرفة، أو الحرم المكي الذي نزل فيه جبريل الأمين على قلب سيدنا محمد سيد المرسلين بهذا القرآن العظيم، هذا هو البيت المعمور، وإما أنه بيت تدخله الملائكة في السماء ليعبدوا الله فيه، وقد ورد هذا في بعض الأحاديث، وإما أنه بيت الله الحرام يؤمُّه الحجاج، معمور بالحجاج، وإما أنه مطلق الأرض، لأن فيها كل شيء، والبيت المعمور.

السّقْفِ الْمَرْفُوعِ هو السماء التي خلقها تعالى:

لا زلنا في مفردات القسم:

(وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسّقْفِ الْمَرْفُوعِ(5))

هذه السماء.

(وَجَعَلْنَا السّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً)

(سورة الأنبياء: 32)

ورد في تفسير هذه الكلمة بأنها هي السماء، السماء بناء، وفي السماء مليون مليون مجرة، وفي المجرة الواحدة مليون مليون كوكب ونجم، وهذه الكواكب والنجوم، كلها في حركة دائمة، في مسار مغلق بعضها حول بعض، أحجامها متفاوتة، مساراتها متفاوتة جاذبيتها متفاوتة، كتلها متفاوتة، أبعادها متفاوتة، ومع ذلك هناك استقرار عام ؛ التوازن الحركي، الحركة المتوازنة، هي استقرار، دليل علم الله عز وجل:

(وَالسّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6))

السماء من آيات الله الدالة على عظمته:

أليست السماء آية ؟ انظر إلى السماء وهي زرقاء اللون، صافية في النهار متلألئة في الليل، فمن بناها؟ **(وَالشّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنّهَارِ إِذَا جَلّاهَا (3) وَاللّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))**

(سورة الشمس: 1 - 8)

السماء أيضاً من الآيات الدالة على عظمة الله، لو توقفت حركة النجوم، لأصبح الكون كله كتلة واحدة، انجذب بعضه إلى بعضه، هناك نظام تجاذب عجيب، لكن حركات النجوم كلها تخلق (إن صح التعبير) حركة نابذة قوة نابذة تكافئ القوى الجاذبة، القضية في منتهى الدقة والروعة ؛ أن القوى الجاذبة تعادلها قوى نابذة، فالمحصلة استقرار.

الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ: المسجور إما:

1 ـ الممتلئ:

(وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6))

كيف أن السماء زرقاء اللون، البحر أزرق اللون، البحر المسجور، من معاني المسجور الممتلئ.

2 ـ أو المشتعل:

من معاني المسجور المشتعل، البحر الآن ليس مشتعلاً، بل هو الآن ممتلئ، حسنًا فكم متراً مكعباً من المياه في البحر ؟ وإذا كان أربعةُ أخماس الأرض بحراً، القارات الخمس، آسيا وأوروبا وأفريقيا وأمريكا والقطبان الشمالي والجنوبي، إذا كانت هذه القارات الخمس كلها لا تشكل عشرين بالمئة من مساحة سطح الأرض وثمانون بالمئة، أو تسعة وسبعون بالمئة، هي بحار ومحيطات، وأعمق نقطة 12 كيلو مترًا، 43 ألف قدم تقريباً، تقع في المحيط الهادي في خليج مريانا، أكرّر كم متراً مكعباً ماءً في البحر ؟ البحر المسجور الآن يعني الممتلئ، وسيكون البحر المسجور يومًا مشتعلاً، أما الشيء العجيب أن هذا الماء الذي تُطفأ به النيران، مؤلف من أوكسجين وهيدروجين، والهيدروجين غاز مشتعل،

والأوكسجين غاز يعين على الاشتعال، يعني مؤلف من عنصرين غازيين الأول شديد الاشتعال والثاني يعين على الاشتعال، يشكلان ماءً تطفأ به النيران.

البحار يوم القيامة تصبح لهيباً لا ينطفئ:

الله عز وجل قد أشار إلى يوم القيامة أنّ تعديلاً طفيفاً تصبح معه البحار كلها لهيباً لا ينطفئ، ونحن إذا احترق بئر نفط فقد تمضي خمسون يوماً أو مئة يوم مثلاً وهو مشتعل، وقد تتعاون دول من أقصى الدنيا، مع خبرات عالية جداً، مع تكنولوجيا تفوق حد الخيال، لإطفاء البئر بعد شهر أو شهرين مثلاً، فكيف لو اشتعلت البحار:

(وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ)

إما أنه الممتلئ وإما أنه المشتعل.

البحر آية من آيات الله الدالة على عظمته:

ولا زلنا في الحديث عن القسم الذي تصدّر السورة.

(وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6))

البحر آية من آيات الله الدالة على عظمته، الكائنات البحرية لا تقل عن مليون نوع، أجل مليون نوع أو نحوها تعداد الكائنات البحرية، تنوع الأسماك عجيب جداً، تبدأ من سمك صغير، سمك زينة، إلى حيتان عملاقة، وزن الحوت 150طناً، 50 طناً لحماً، و50 طناً شحماً، 90 برميلاً زيت كبدِ الحوت، أرقام الحيتان وأحجامها، وأشكالها، وأنواعها، لا يعلمها إلا الله، وهي حيوانات تتنفس الهواء، ولولا الهواء لتكاثرت وأهلكت مَن في البحر، لكنها عندما تتنفس تطفو فيصطادها الإنسان.

أنثى الحوت تُرضع وليدها ثلاثمئة كيلو، ثلاثمئة كيلو في الرضعة الواحدة، ثلاث راضعات تعادل طناً حليباً، إذا جاع الحوت وأراد أن يأكل يفتح فمه ويسير فيلتقم أربعة أطنان من الأسماك، يعني شطيرة قبل الطعام، أحياناً الحوت يجر سفينة، فقد جرّ مرة سفينة 48 ساعة بينما كانت محركاتها تعمل بعكس اتجاه الحوت، من حيوان عملاق إلى أسماك زينة رائعة جداً، بعضها شفاف، بعضها فسفوري، وفي البحر مخلوقات لا يعلمها إلا الله، القنديل نوع من كائنات البحر الحية، المرجان الأصداف، المحار، اللؤلؤ، هذا اللؤلؤ، هو المحار: حيوان إذا شعر أن في داخله جسماً غريباً ولو أنها ذرة رمل، أفرز

عليها مادة كلسية فسفورية، إلى أن تصبح لؤلؤة، اللؤلؤ وسيلة من وسائل دفاع هذا الحيوان عن نفسه، فاللؤلؤ وُجِد من أجل الإنسان، إذًا فالكائنات البحرية شيء لا يوصف، وقد يعجز الإنسان عن حصرها.

محاسبة الله للإنسان يوم القيامة:

قرأت مقالة عنها يوماً فإذا هي تزيد عن مليون نوع، هذا

(البحر المسجور)

(والسقف المرفوع)

حدِّث ولا حرج، جاء الجواب:

(إِنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ)

كان النبي عليه الصلاة والسلام يقرأ هذه السورة في الصلاة، وقد صلى عمر بن الخطاب خلف النبي أعداداً من الصلوات لا يعلمها إلا الله، واستمع لهذه السورة، لكنه كان يتجول في المدينة، فسمع أحد الصحابة يقرؤها في الصلاة، نزل من على دابته وأسند ظهره للحائط واستمع إليها وهو يبكي، إذ كانت نفسه حينئذ منفتحة، وقلبه مشرقًا:

(وَالطّور (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6))

جواب القسم:

(إِنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ)

الإنسان مسؤول عن كل عمل يقوم به:

أفتعتقد بعد كل ذلك أنّ هذا الذي خلق الكون لن يحاسبك ؟.

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة: 36)

أفتظن أنّ هذا الذي خلق الكون لن يسألك أبداً ؟

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8))

(سورة البلد: 6 - 8)

أفيعتقد الإنسان أنّ الذي خلق العينين لا يبصر ؟

(وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النّجْدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ (16))

(سورة البلد: 9 - 16)

(إنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ)

فليس معقولاً أنّ الله تعالى خلق الإنسانَ سدًى ولن يحاسبه، جامعة تكلف ألف مليون، وفيها حدائق غناء، وفيها أطباء بمعدل كل خمسة طلاب لهم دكتور، مخابر، قاعات تدريس مكتبات، ملاعب، أفلا يكون امتحان آخر السنة ؟ يأتي الطلاب ويدرسون ويخرجون، وليس هناك امتحان:

(إنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ)

على الإنسان أن يحاسب نفسه حساباً عسيراً قبل لقاء ربه:

الإنسان مسؤول، الذي خلق الكون سيسأله، وسيحاسبه، عن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيمَ أنفقه ؟ وعن علمه ماذا عمل به ؟ وعن شبابه فيمَ أبلاه ؟ وعن عمره فيم أفناه ؟

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ))

[أخرجه الترمذي عن أبي بزرة الأسلمي]

(إنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ)

يعني هناك مسؤولية.

(فَوَرَبّكَ لَنَسْأَلَنّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر: 92 - 93)

إخواننا الكرام ؛ أحيانًا نقرأ الآيات ولا نعيشها، لما ربنا عز وجل يقول:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة: 7 - 8)

هذا كلام مَن ؟ كلام خالقنا، كلام رب العالمين:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة: 7 - 8)

العاجز من يتعامل مع الله بالتمنيات:

يجب أن نحاسب أنفسنا حساباً عسيراً، حتى يكون حسابنا يوم القيامة يسيراً انظر إلى قول النبي:

((الكيس (يعني العاقل) من دان نفسه (ضبط، ضبط بيته، ضبط عمله ضبط دخله، ضبط إنفاقه، ضبط جوارحه) من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني))

[أخرجه أبو داود عن عوف بن مالك]

هذا عاجز، أحمق، هذا الذي يتعامل مع الله بالتمنيات، والتمنيات بضائع الحمقى.

نفي الظلم عن الله عز وجل:

(وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

(سورة الإسراء: 19)

لم يقل سبحانه: وسعى لها فقط، لو قال: وسعى لها وانتهت الآية، لكان أيٌّ سعي مقبولاً، قال:

(وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

(سورة الإسراء: 19)

لها سعياً خالصاً، لا يقبل دونه سعيٌ:

(إِنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ)

خالقنا، ربنا، الذي بيده كل شيء، يقول هذا الكون يدل على إلهٍ بيده كل شيء، لم يخلقنا سدى، لم يخلقنا عبثاً، سيحاسبنا، وسيسألنا عن كل شيء، ولن نظلم عنده، لا فتيلاً، ولا نقيراً، ولا قطميراً.

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

(سورة غافر: 17)

الإنسان يوم القيامة يأتي ربه فرداً:

هذه قواعد الدين الكبرى:

(إِنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8))

بالأرض يصدر حكم قضائي لا ينفّذ أحياناً، يكون المحكوم قوياً، فأحياناً هناك من يدافع عنك، هناك من يخلصك، هناك من يشفع لك، هناك من يجمد هذا الحكم، هناك من يطوي هذه الضريبة، هذا في الدنيا. أما عند الله عز وجل:

(إِنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8))

يعني تأتي ربّك يوم القيامة فرداً، في الحياة الدنيا تجمعات، وجماعات وأحزاب، وهناك طوائف، وملل، ونحل، وشعوب، هناك تجمع أوربي، يضمّ 12 دولة، عملة واحدة، وجمارك واحدة، وهناك تجمع شرقي، وأحلاف، هذا في الدنيا، أما في الآخرة تأتي ربّك فرداً، لا أحد يخلصك، ولا أحد يدافع عنك، ولا أحد يمنعك من أن تأخذ نصيبك من العذاب:

(إِنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8))

العمل الصالح ثمن الجنة:

هذا جواب القسم يا أيّها الإخوة، الكون خلق بديع وعظيم، وهذه العظمة ؛ هل تعني أن الإنسان خلق سدى ؟ الإنسان بصورة عامة ينضج في الأربعين، ثم يموت في الستين وسطياً، فبين نضجه وبين موته ثلث حياته فقط.

فلولا الآخرة لكانت الحياة مدتها غير معقولة، لولا أن الله سبحانه وتعالى خلقنا لجنّة عرضها السماوات والأرض، ونحن في دار إعداد، في دارٍ دنيا هي إعدّاد لدارٍ عليا، لولا هذه الغاية لم يكن للحياة معنى إطلاقاً، ولذلك فالإنسان من دون دين في ضائع، هناك عنده ألف سؤال وسؤال بلا جواب، هذا يسبب اللامبالاة، سؤال لا جواب له، وسؤال لا جواب له، وسؤال لا جواب له، يجعل الإنسان في ضياع، وفي تيه، ثم ينتقل هذا إلى وضع لا مبالاة، إذ ليس عنده جواب، لكن ربنا عز وجل بيّن أنّ هذه حياة إعدادية لحياة أبدية، والعمل الصالح هو ثمن الجنة، قال سبحانه:

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل: 32)

نظام الدنيا نظام عمل و نظام الآخرة نظام إكرام:

نظام الحياة الدنيا نظام كدح، لكن نظام الحياة الآخرة نظام إكرام.

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ)

(سورة الفرقان: 16)

هنا:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

(سورة الانشقاق: 6)

في الدنيا:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

(سورة النجم: 39)

أما في الآخرة:

(فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ)

(سورة الصافات: 42)

أيٌّ خاطر يراود مخيلتك ترَ ترجمته أمامك، هذا هو منتهى الإكرام.

النية خلف أي عمل يقوم به الإنسان:

لذلك:

(إنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ)

يعني أنّ الذي خلق الكون لن يدع الخلق سدى ولم يخلقهم عبثاً، سيحاسبهم على أعمالهم كلها، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، ظاهرها وباطنها، علانيتها وإسرارها، كل شيء له حساب دقيق، وكأن أعمال الإنسان يوم القيامة تعرض عليه عرضاً، وبعد ؛ فإذا كان الإنسان الآن مراقباً ثم شاهد حركاته وسكناته مصورةً في فيلم ؛ وقيل له: لماذا ذهبت إلى هذا المكان ؟ ولماذا أخذت من فلان ؟ و لماذا أعطيت فلانًا ؟ يُصعق، أما أنت يوم القيامة، وكلنا جميعاً سوف تعرض علينا أعمالنا واحداً واحداً، العمل وخلفيته نيته، أنت أردت كذا، قاتلت ليقال عنك شجاع، وقد قيل فخذوه إلى النار، فهذا إذًا معنى، جواب القسم:

(إنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ)

يعني هذا الكون مخلوق من أجل أن تعرف الله وهذا الكتاب من أجل أن تقرأه، وأن تفهمه، وأن تعمل به، وهذه الشهوات من أجل أن تضبطها، وهذه الحرية من أجل أن تثمن بها عملك، وهذا الشرع من أجل أن تعيشه، وهذا الكون من أجل أن تفكر فيه، وهذا العقل من أجل أن تُعمله، وتلك الفطرة من أجل أن تحافظ عليها.

عذاب الله يكون عند:

1 ـ اضطراب السماوات والأرض:

(إنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8))

متى هذا العذاب ؟ قال:

(يَوْمَ تَمُورُ السّمَاءُ مَوْراً)

تنظر إلى السماء فتجدها وديعة، ليلُ الصيف مقمر، وبعض لياليه غير مقمرة، تتلألأ النجوم، وتتألق، لكن ما قولك لو رأيت النجوم تتهاوى ويصطدم بعضها ببعض، وأصوات لا تحتمل، وصوت الرعد يصم الآذان، وصواعق مخيفة جداً، إنّه يوم القيامة:

(يَوْمَ تَمُورُ السّمَاءُ مَوْراً)

اضطراب السماوات والأرض، كواكب تصطدم، كواكب تتحطم، حركات عشوائية، موراً يعني اضطراباً.

2 ـ سير الجبال:

(يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً (9) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً (10))

الجبال تسير، جبل بأكمله، يجري وكأنه ريشة في مهب الريح.

الدنيا دار عمل و كد و الآخرة دار جزاء:

(فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

نحن في الدنيا في بحبوحة، كالطلاب في العام الدراسي، كلهم يرتدي ثياباً خاصة، ويأتي إلى المدرسة، لكن بعضهم يدرس، وبعضهم لا يدرس، بعضهم يمضي وقته من غير جدوى، بعضهم ينتبه، بعضهم لا ينتبه، بعضهم يكتب، بعضهم لا يكتب، لكن عند الامتحان ويلٌ للكسالى، ونحن الآن في بحبوحة، الناس كلهم يأكلون ويشربون، وإن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين، حالُ المؤمن الآن لا يبدو صارخاً، واحد من هؤلاء الناس، يسكنُ بيتًا مستوراً، لكنّ حوله أناساً متفلتين، وربما كان حوله أناس عصاة، وأناس جاحدون، وأناس يقترفون الآثام ويأكلون المال الحرام، ويتحدون السماء وخالقها، ومع ذلك فالله يرزقهم.

وعزتي وجلالي ؛ عبدي خلقت لك السماوات والأرض، و لم أعيَ بخلقهن أفيعنيني رغيف أسوقه لك كل حين، لي عليك فريضة، ولك عليّ رزق فإذا خالفتني في فريضتي، لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا، تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

النجاة الحقيقية أن ينجو الإنسان من عذاب الله:

لذلك:

(يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً (9) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً (10) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11))

البطولة أن تنجو من هذا اليوم، قد يتهرّب إنسان من ضريبة، ويحسب نفسه بطلاً، وينجو من مشكلة، ينجو من مؤاخذة، ينجو من شيء مخيف، لكنّ النجاة الحقيقية أن تنجو من عذاب الله، والغنى الحقيقي

بعد العرض على الله، الغنى والفقر بعد العرض على الله، الدنيا لا قيمة لها، عَرض زائل يأكل منها البر والفاجر، والآخرة وعد صادق يحكم فيه ملِك عادل.

النار عاقبة المتفلت من منهج الله عز وجل:

(فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

هذا الذي أمضى حياته في غفلة عن الله، وفي تفلت من منهج الله، وفي إساءة للخلق، وفي ضياع، وفي انغماس في الملذات، هذا الإنسان تماماً كإنسان يركب مركبة في منحدر شديد، بسرعة عالية، والهواء العليل يلطف جو المركبة، و في نهاية هذا الطريق منعطف حاد، وليس معه مكابح وهو يضحك، ولا يعلم ماذا ينتظره بعد دقائق، بعد دقائق سيكون جثة هامدة، يقول الويل لنا، لقد متنا، المكبح معطّل، والمنعطف حاد والمنحدر شديد، وهو منطلق ويغني، ويضحك، أما الذي يعلم أن هذه المركبة بلا مكبح يعرف نتيجته الحتمية.

(فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12))

خوضُ مخاضةٍ، هذا يعني تصوراتهم عن الكون سخيفةٌ جداً، أحد الشعراء الجاهليين قال:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

* * *

يعني دعهُ ينطلق معَ فلسفته للحياة بأن يستمتع بشهواتها إلى أقصى حد.

هموم أهل الدنيا شهوانية مادية:

لو جلست مع أهل الدنيا، مع أهل الغفلة، مع أهل الجهل لوجدت في أفكارهم العجب العجاب، تصور سخيف للحياة، تصور سخيف للكون، تصور سخيف للإنسان، تصورٌ سخيف للجزاء والعقاب، واللهُ عز وجل سمى هذه التصورات خوضاً، مخاضة، وَحَل يعني: كلام لطيف جداً، معبر، أفكاره، معتقداته، تصوراته، مبادئه، قيمه كالوَحَل، مبدؤه المصلحة، يتلون ألف لون ولون بيوم واحد، من أجل مصلحته، ليس عنده شيء مقدس أبداً، يقدِّس ذاته فقط، يقدّس المال ويعبده من دون الله، مستعد أن يقول أي شيء من أجل أن يبقى في مكانه وفي عمله، وفي دخله الكبير، هذا خوض، ليس عنده مبدأ، ولا قيمة ثابتة، لا يعادي ولا يسالم، يسالم لنفسه، ويعادي لنفسه فقط، هذا الله عز وجل سماه خوضًا، مخاضة، وحَلاً، تصوراته كالوحل الآن اهتماماته كالوحل، ما عنده همّ مقدس، كل همومه أرضية، هُمه ملذاتُه، همه طعامه وشرابه، بيته، همُّه رفاهه واستمتاعه بالحياة، همه استعلاؤه على الناس، همه افتخاره بما عنده،

همه أن يكون مسيطرًا مثلاً، وأن يكون مستمتعًا، همومه كلها صغيرة، هموم مادية، هموم شهوانية، هموم مصلحية.

هموم أهل الآخرة مقدسة:

أما المؤمن الذي عرف الله عز وجل همومه مقدسة، يسعى لهداية الناس، يسعى لنشر الحق، يسعى لخدمة الخلق يسعى لمرضاة الله عز وجل، يسعى لجنة عرضها السماوات والأرض يسعى لحياة أبدية، يسعى ليكون:

(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر: 55)

همومه مقدسة، لأن معتقداته مقدسة، عالية، لو عرضت أفكار غير الإسلاميين على محك البحث لوجدت فيهم الشيء الذي لا يصدق فالله عز وجل سمى معتقدات هؤلاء، أو تصورات هؤلاء، أو مبادئ هؤلاء سماها خوضاً، وهم يلعبون فيها كالصغار، وسمى اهتماماتهم التي تشغلهم، والتي تنصب عليها همهم، وأن كل ما يعنيهم، سماها خوضاً أيضاً.

اهتمامات و معتقدات الكافر ما هي إلا خوض في وحل:

رجل جلس إلى شخص في بلد غربي، حدثه عن الإسلام، بعد حديث ممتع، دقيق، عميق، مدعم بالأدلة والشواهد، الحسية والعقلية، والواقعية، والفطرية، أخرج هذا الشخص الآخر من جيبه دولارًا و قال: هذا ربي أعبده من دون ربك.

ولقد التقيت مرة مع شخص مندوب شركة ؛ قال لي بالحرف الواحد بعد أنْ حدثته عن الله قليلاً، قال: هذا الموضوع لا يعنيني، ولا أهتم به، ولا ألتفت إليه، يعنيني بيت، وامرأة، وسيارة فقط، هذا خوض، في الوحل يعيشون، وفي الحمأة غارقون.

فالكافر اهتماماته سخيفة، ومعتقداته سخيفة، الله سمى هذه الاعتقادات والاهتمامات وأمثالها سماها خوضًا في وحل:

(فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12))

الفرق بين اللهو و اللعب:

اللعب عمل لا جدوى منه أولاً، لعب، ثم لهو، واللهو أخطر، لأنّ اللهو أن تشتغل بالخسيس عن النفيس، أن تشتغل بالأصداف عن اللآلئ، أن تشتغل بالقشور عن اللباب، هذا هو اللهو، أما اللعب عمل بلا جدوى، ليس له أي أثر مستقبلي، يعني شخص لعب النرد حتى الساعة السابعة صباحاً فماذا قدم للأمة ؟ لو قرأ كتاباً لاستفاد منه وأفاد، لو نام لأراح واستراح، لو أكل لتَقوّى على طاعة الله، لو جلس إلى أخ يحدثه عن الله عز وجل لأفاده، لو وجه أولاده لأفادهم فاللعب عمل بلا طائل، وكلما ابتعدت عنه رأيته حقيراً، ألا تنظر إلى طفل صغير يأخذ بعلبة يتوهمها سيارة ويحركها على الطاولة ويعطي صوتاً معها، هذا لو صورته صورةً متحركة ملونة وأرأيته إياها بعد أن يصير طبيباً، أو مهندساً، ألا يستصغر اهتمامه، وسخافة تعلقه بهذه العلبة ؟ اللعب من شأنه إذا ابتعدت عنه رأيته صغيراً تافهاً، اللعب يتناقص لا يتنامى، اللعب ليس له أي أثر مستقبلي.

دفع الكافر بإهانة يوم القيامة لمعتقداته السخيفة:

الله عز وجل بكلام موجز بليغ سمى معتقدات الكفار، واهتماماتهم خوضاً، وحركتهم في هذا المجال أنهم يلعبون، حركة عشوائية بلا هدف، العمل الذي لا جدوى منه العمل الذي لا طائل منه، العمل الذي ليس له أثر مستقبلي، هذا هو اللعب، أمّا الويل ؛ فهو الهلاك.

(فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً(13))

دَعّه ؛ أي دفعه على ظهره، بقسوة، وإهانة

(يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً(13))

طبعاً لأنهم كانوا في خوض، وكانوا يلعبون، واعتقدوا اعتقادات سخيفة، واهتموا بأشياء أسخف منها، هذه السخافة في معتقداتهم، وفي نشاطاتهم في الدنيا يناسبها أن يهانوا يوم القيامة، وشتّان بينهم وبين المؤمنين في ذلك اليوم، يوم توفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون.

المؤمنون يذهبون إلى الرحمن و المجرمون يُحشرون إلى جهنم:

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

(سورة الزمر: 73)

المؤمنون يذهبون إلى الرحمن وفداً، أما المجرمون فيُحشرون إلى جهنم وردا، إذا كان الشخصٌ متهماً بجريمة قتل مثلاً، فإذا طُرق بابُه وأُلقي القبضُ عليه، فمن باب البيت إلى السيارة يرحبون به دعًا وركلاً ويتقاذفونه فيما بينهم على طريقتهم الخاصة، فهو إنسان مجرم طبعاً، ويساق ليحاكم، وكذلك الكافر لأنه كان تائهًا، وكان شاردًا، وكان مؤذيًا، وكان شهوانيًا، وكان منحط الأخلاق، فإنه يلقى المعاملة نفسها، ومن ثَم جهنم وبئس المصير.

(يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً (13) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14))

بربكم لنأخذ مئة شخص، عيّنة عشوائية، كم واحدًا منهم يصدِّق بجهنم ؟ ويتقيها فعلاً ؟ فهي ليست داخلة في حسابات الناس بتاتاً، ولو كانوا مسلمين، يصلون لكن يأكلون المال الحرام، يأخذون الأموال الحرام بالملايين ولا يعبئون، يحسب أحدهم نفسه شاطراً ويبادر إلى توكيل محامٍ، ثم إذا نجحت قضيتُه يحسب أن المال صار في حوزته حلالاً، أما المؤمن فإنه يخشى درهماً حراماً أو ليرة أو أدنى من ذلك.

تحذير الله عز وجل لعباده من نار جهنم:

الإمام أبو حنيفة رَضِيِ اللّه عَنْه كان واقفاً في ظل بيت مرهونٍ عنده، فتحول إلى الشمس، لماذا ؟ فللبيت ظل، قال لمن معه: هذا البيت مرهون عندي، وأنا أكره أن أنتفع بظله، هذه جهنم من الذي أدخلها في حسابه اليومي ؟ من ترك مبلغاً من المال خوفاً من النار ؟ من الذي ترك نظرة إلى امرأة خوفاً من النار ؟ من الذي ترك سهرة خوفاً من النار ؟ ما أدخلت في حسابات الناس، بشكل واقعي، بشكل جاد، الإله يقول لك: هناك نار جهنم لا تحتمل:

(هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

أنا أريد أن أتوقف قليلاً، أرجو من الله عز وجل أنْ أحسن البيان والإيضاح، هذا كلام خالق الكون، إنه كلام الله سبحانه.أحيانا يصدر تصريح، من وزير الاقتصاد، يسمح بموجبه باستيراد سيارات فيهبط سعر السيارات خمسمئة ألف، بمجرد أربع كلمات في الجريدة مثلاً.

إلهنا وربنا، وخالقنا، وهذا كلامه، ويحذرنا من النار، ولا نتقيها ؟ واللهِ هناك أناس حمقى، وحمقهم شديد، ولكن إنما يتذكر أولو الألباب.

عدم إيمان الكافر بالوعيد الإلهي:

واللهِ إني لأخشى نار جهنم:

(هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

تسلّلْ ساعة أو يوماً إلى حياة الناس، ادخل إلى قصر العدل، بأي فرع من فروع القضاء آلاف الدعاوى وأكثرها افتراء، أكثرها دعاوى كيدية، هناك أكل للمال الحرام، هكذا بصراحة، أين الخوف من الله ؟ أين هذا المؤمن الوقاف عند كتاب الله ؟ أين هذا المؤمن الذي يخشى الله ؟ الذي يخشى أن يأكل مالاً حراماً، أن يعتدي على أعراض الناس، أن يعتدي على سمعتهم:

(هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

بصراحة أيها الإخوة: التكذيبُ نوعان، التكذيب بالقول ليس خطيراً جدًّا، فخطره محدود، فقد يعني أنك تناقشه، أما الخطر بالتكذيب العملي، فقد لا تقول بلسانك: أنا لا أؤمن بالنار لكن الأعمال كلها تؤكد أنك لست مؤمناً بها، فأعمالك، مثلاً قد توحي أنك لا تهتم بطريقة كسب المال ؛ من أين تأخذه ؟ هذا يعني أنك لا تؤمن بهذا الوعيد الإلهي.

كلام الله و كتابه هل هو سحر أم حقيقة ؟

لذلك يوم القيامة يقال لهؤلاء العصاة:

(هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15))

أحدُ القضاة طُرق باب بيته، جاءه الغلام فقال: إن بالباب رجلاً أعطاني طبقاً من الرطب، وكان القاضي معروفاً في المدينة، بأنه يحب الرطب في بواكيرها، قال من قدمه لك ؟ قال رجل، قال: صفه لي، قال: صفته كيت وكيت، فعرفه أنه أحد المتخاصمين عنده، قال له أعطه الطبق وردّه إليه، بعد أيام قابل الخليفة ليعتذر من منصب القضاء، قال له: و لمَ وأنت من القضاة النزيهين ؟ قال ولقد قُدم لي طبق رطب من أحد المتخاصمين ورددته، وفي اليوم التالي وقد وقفا بين يدي تمنيت أن يكون الحق مع الذي قدم الطبق مع أني لم آخذه فكيف لو أخذته، هكذا كان ورعهم، لأنهم آمنوا أن هناك ناراً حامية، وإذا عصى الإنسان ربه سيدخلها:

(هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15))

فهل كان الكلام سحرًا، أم قرآناً ؟ وهذه نتائجه.

اتهام الكفار للنبي الكريم بأن ما أُنزل إليه ما هو إلا سحر:

ثم إن الكفار بمنطقهم الأعوج:

(قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

(سورة الذاريات: 52)

كلامه سحر.

(إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ)

(سورة الشعراء: 49)

فهذا القرآن الذي وصف النار، وأنتم في الدنيا:

(هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

فهل كان كلامي وكتابي لكم سحراً، أم حقيقة ؟ هذا هو المعنى المستفاد.

الصبر على تحمل العقاب لا معنى له إطلاقاً:

(أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16))

هنا سؤال دقيق يطرح نفسه: كيف سَوّى الله بين الصبر وعدمه، مع أن الصبر مفيد وثوابه كبير ؟

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة الزمر: 10)

ما جواب ذلك ؟ الصبر في الدنيا مفيد، أما الصبر بعد إيقاع العقاب لا يفيد، تصبر أو لا تصبر سيان. يعني إذا ارتكب إنسان جريمة وحكم بالإعدام، وصُدق الحكم وسيق إلى المشنقة، يُحب أن يضحك، فليضحك، يحب أن يبكي فليبكِ لابد من تنفيذ الحكم، بعد صدور الحكم لا معنى للصبر، الصبر على تحمل العقاب لا معنى له إطلاقاً:

(فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

وصف الكفار لكلام الله بأنه سحر:

الآية دقيقة جداً:

(هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15))

كلام الله وصفتموه يوم كنتم في الدنيا بأنه سحر، هل كان سحراً أم حقيقة ؟

(اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

وأختم قولي بما قال تعالى:

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ)

(سورة النور: 63)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطور 052 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 17-28 ، عطاء الله للإنسان في الجنة لا يقدر بثمن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-08-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الثاني من سورة الطور، ومع الآية السابع عشرة.

التوازن أسلوب من أساليب الدعوة إلى الله:

قال تعالى:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَعِيمٍ)

من حكمة الله جل جلاله في كتابه الكريم، أنه إذا تحدث عن أهل النار، تحدث عن أهل الجنة، من أجل ماذا ؟ من أجل التوازن، يعني أنذر وبشر، خوّف، وافتح باب الرجاء ولا تقنّط يسر ولا تعسر، رغِّب ولا تُرهِّب، سدد وقارب، هذا أسلوب في الدعوة إلى الله، خلاصته التوازن، إن وصفت أهل النار فصِف أهل الجنة، من أجل أن يندفع الإنسان إلى السعي للجنة، كما يندفع في البعد عن النار، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11) الّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنّمَ دَعّاً (13) هَذِهِ النّارُ الّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(16))

سورة مخيفة، تحذِّر من حال أهل النار.

المتقي من حرص على مرضاة الله و دخول الجنة:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَعِيمٍ)

المتقين، هؤلاء الذين اتقوا أن يعصوا ربهم، هذا النموذج، يقول لا أفعل هذا، فهو حرام، لا يجوز، معاذ الله، يعني لو قطعتني إرباً إرباً لا أعصي الله، هذا المتقي، الذي يتقي أن يعصي الله، الذي يتقي أن يغضب الله، الذي يتقي أن يسخط عليه الله الذي يتقي أن يبتعد عن رحمة الله، الذي يتقي أن يخرج من دائرة عناية الله، والمنافق كما قال بعضهم، يبقى في حالة واحدة أربعين عاماً، و المؤمن يتقلب في اليوم الواحد في أربعين حالاً بين الخوف، والرجاء، والرحمة، بين الاستعطاف وطلب الرحمة، بين الاستغفار

والتسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل، بين أنْ يكون خائفًا و بين أنْ يكون راجيًا، بين وَجَلٍ وبين طمأنينة، يعني شدة خوفه من الله، وحرصه على مرضاة الله وطلبه للجنة يجعله في هذا الحال الذي خلاصته الخوف من الله.

(إنّ الْمُتَّقِينَ)

يعني هناك إنسانان، إنسان يقول لك لا تدقق، كما يقول العامة، "من هنا ليوم الله يفرجها الله"، وإنسان آخر يقول: لا أفعل هذا أبداً، هذا حرام، هذا لا يجوز، هذا الذي يسأل عن الحكم الشرعي دائماً، هل هذا حلال، حرام، مباح، مكروه، مندوب، فرض، سنة، واجب يسأل، وذاك الذي لا يسأل، ولا يعبأ، ولا يفكر في الحلال والحرام ولا في الخير والشر، ولا فيما يرضي الله، وما لا يرضي الله، فذاك الإنسان ليس معنياً بهذه الآية.

الإنسان الذي يحرص على اتصاله بالله يحرص على طاعته:

أما المعنيون بهذه الآية أولئك المتقون:

(إنّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ)

فانظر أين أنت من هذه الآية، أعندك تساهل ؟ أعندك تسيب ؟ وهل أنت ممن لا يعبأ بالمعصية ؟ ولا تعبأ بالدخل الحرام، ولا تعبأ إنْ صليت أمْ لم تصلّ، لا تعبأ بما فرضه الله عليك من أوراد، ومن أذكار، ومن أدعية، لا تعبأ بهذه الصلة مع الله عز وجل، ولا تحرص عليها، فالذي يحرص على اتصاله بالله يحرص على طاعته، إذا أردت أن تعرف مالك عند الله فانظر ما لله عندك، حريص على طاعة الله، إذاً أنت ممن تعنيهم هذه الآية، حريص على أن يكون دخلك حلالاً، أنت ممن تعنيهم هذه الآية، حريص على هذه الجوارح ألا تقترف معصية، أنت ممن تنطبق عليه هذه الآية:

(إنّ الْمُتَّقِينَ)

يعني يتقي، (اتقى) فعل خماسي مزيد، من (وقى) والوقاية من الخطر، وأكبر خطر أن تعصي الله عز وجل.

عن علي بن أبي طالب قال: **عليكم بخمس، لو رحلتم فيهن المطي لأنضيتموهن قبل أن تدركوا مثلهن: لا يرجو عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه.**

أكبر خطر أن ينتقل الإنسان من الدنيا إلى الآخرة وهو لا يعرف الله:

أكبر خطر أن تخسر نفسك يوم القيامة، أكبر خطر أن يأتيك الموت وأنت صفر اليدين من العمل الصالح، أكبر خطر أن تنتقل من الدنيا إلى الآخرة وأنت لا تعرف الله، أكبر خطر أن تصل إلى الحياة الأبدية وليس معك ثمنها.

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل: 32)

المتقي هو الذي يتقي أن يعصي الله، الذي يتقي أن يسخط الله، الذي يتقي غضب الله، الذي يتقي البعد عن الله، الذي يتقي النار التي توعّد الله بها العصاة المذنبين، كلمة جامعة مانعة، إما أن تكون حريصاً على طاعة الله فأنت من المتقين، أو لا تعبأ لا بطاعته ولا بمعصيته هناك نماذج، شاردة عن الله، ليست حريصة على مرضاة الله، فهي لا ترجو الله واليوم الآخر، بل ترجو الدنيا، ترجو مالها، ترجو شهواتها.

أكبر شيء في الجنة رضوان الله والنظر إلى وجهه الكريم:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَعِيمٍ)

والجنة هنا جنات، صيغة جمع، يعني جنة فيها الطعام والشراب، جنة فيها الحور العين، جنةُ الأنهار التي وصفها الله تعالى في القرآن الكريم، أنهار من عسل مصفى، وأنهار من لبن، لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، فواكه وهم مكرمون، ولدان مخلدون، حور عين، وفيها نظر إلى وجه الله الكريم، فيها رضوان من الله، أكبر شيء في الجنة رضوان الله، والنظر إلى وجهه الكريم.

(لِلّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

(سورة يونس: 26)

فهذه جنات، جنات منوعة، يعني كلما استغرقت في جنة رأيت جنة أخرى، أجمل منها، كلما تأملت في جنة واستمتعت بها، رأيت نعيماً آخر.

قضية الدين قضية مصيرية إما إلى جنة أو إلى نار:

وبعد، إخواننا الكرام: لو أيقن الناسُ يقيناً قطعياً بما أعد الله للعصاة من عذاب مقيم، لم يعصِه أحد، ولو أيقن الناس ما أعد الله للطائعين لأقبل الناس جميعاً على طاعة الله عز وجل، قضية يقين، أنت حينما تعلم علم اليقين أنك إذا تفوهت بكلمة تحاسب عليها، وسوف تلقى عذابًا لا يحتمل، لذلك تضبط لسانك،

أحد أسباب ضبط اللسان، اليقين أن هذه الكلمة لها حساب عسير، إذا أيقنت أن نقل هذا المال إلى بلد آخر يوجب عقوبة مؤلمة ضاغطة قد تدوم عشرين عامًا في السجن، لأقلعتَ عن مخالفة القوانين، لأنك أيقنتَ أن هناك عقاباً أليماً لمن يعصي هذه القوانين، أنت مع مخلوق تتقي أن تعصيه، فكيف مع خالق الكون؟ وعقاب الإنسان قد يكون أو لا يكون، وإذا كان ففي وقت محدود، لكن عقاب الله عز وجل جهنم إلى أبد الآبدين، فقضية الدين قضية مصيرية.

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60))

(سورة النجم: 59 - 60)

قضية الدين أكبر بكثير من أننا سمعنا الدرس وانتهينا إلى أن نقول: والله لطيف، الأمر دقيق واضح، عميق، القضية أكبر من هذا بكثير، قضية مصيرك الأبدي إما في جنة يدوم نعيمها، أو في نار لا ينفذ عذابها.

العاقل من تقيد بمنهج الله و نفذ أوامره:

(إنّ الْمُتَّقِينَ)

فعليك أن تراقب نفسك كتطبيق عملي لهذه الآية، يعني راقِب حركتك اليومية، طعامك، شرابك، خروجك من البيت، رؤيتك للنساء الغاديات الرائحات في الطريق، ما الموقف منهن، غض البصر، أو إطلاق البصر، لك لقاءات مختلطة، لك أوقات تمضيها متسيّبًا وراء جهاز لا يرضي الله عز وجل، لك ألعاب تقتل فيها الوقت بلا طائل، ولا ترضي الله فيها، أين أنت من هذه الآية ؟ يا ترى دخلك كيف ؟ إنفاقك كيف ؟ جوارحك الخمس كيف ؟ بيتك كيف ؟ زوجتك، بناتك، أولادك ؛ فهل ربّيت أولادك التربية الإسلامية، أقمت الفرائض، أديت ما عليك من زكاة، ضبطت مَن حولك، أطعت ربك، تقربت إليه، هل اتقيت أن تعصيه ؟ هل اتقيت أن تسخطه ؟ هل اتقيت أن تغضبه ؟ هل اتقيت ناره ؟ هل اتقيت البعد عنه أم رجوت طاعته ؟ ورجوت القرب منه، ورجوت مودته، ورجوت محبته، ورجوت الإقبال عليه.

الوَرِع هو الإنسان الذي يقف عند الشبهات:

(إنّ الْمُتَّقِينَ)

هذا المتقي، يعني هناك أناس شاردون، تائهون، عصاة يسخرون من الذين آمنوا، لِمَ أنت خائف، كن هادئًا، ضعها في رقبتي، كلام سخيف، وهراء يقود إلى بحر من الضلال والهلاك، الكافر أحياناً يُظهر

بطولته في التفلت من منهج الله، لا ! كلما تقيدت بمنهج الله فأنت العاقل، أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، كلما تقيدت، كلما وقفت عند الصغائر، كلما تورعت عن قرش حرام فتلك العقلانية، لو رأيتم حال الورعين لصغرت أنفسكم أمامكم، الورع هو الذي يقف عند الشبهات، يدع الشبهات استبراءً لدينه وعرضه، هذا هو الورع، ورع في دخله، في إنفاقه، ورع في المباحات، يأخذ منها القدر الذي سمح الله به، حتى تكون في جنات ونعيم:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَعِيمٍ)

الإنسان في الجنة مسرور من الداخل و الخارج:

وصف ربنا عز وجل دقيق:

(في جنات)

هذه الجنات جاءت جمعاً لأنّه فيها مناظر جميلة، وأنهارًا، وأشجارًا، ورياحين، وأطيارًا، وولدانًا مخلدين، وحورًا عينًا، وفواكه وهم مكرمون، الله عز وجل وصف أوصافًا مختصرةً، وفي جنة القرب من الله، وفي جنةٍ مشاهدةُ وجهِ الله الكريم، هذه جنات جاءت جمع:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ)

وكذلك:

(وَنَعِيمٍ)

نعيم نفسي.

أحيانًا لو كان الإنسان في مكان جميل، خضرة وأنهارًا وأشجارًا وجاءه خبرٌ سيئ، لمَا انشرح نفسًا، و لما داخله سرور ولما ابتسم أبداً، ضعه في أجمل مكان، في أجمل إطلالة على منظر جميل، أطعمه أطيب الطعام، إذا كان ابنه مريضًا، تسمعه يقول: لستُ مرتاحًا، فربنا عز وجل وصف الوصف الكامل:

(فِي جَنّاتٍ وَنَعِيمٍ)

حالته الداخلية نعيم، والحالة الخارجية في جنات، يعني مسرور من الداخل والخارج.

الكمال أن تكون من الداخل مسروراً و من الخارج محاط بالجنات:

قد يكون الإنسان ساكنًا في بيت صغير، طعامه خشن، لكنه مسرور بالله عز وجل، وقد يكون شخص آخر ساكنًا في بيت ثمنه أربعون مليونًا، ولكنّ البيت قطعة من الجحيم، أما أن يجمع بينهما فيكون في أجمل بيت، وفي أنعم حالة نفسية، هذا حال أهل الجنة:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَعِيمٍ)

نعيم داخلي، طمأنينة، سرور، استقرار، رضاء، وطعام وشراب، وفواكه مما يشتهون، وحور عين، وغلمان مخلّدون، وكل شيء أجمله:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ)

في الجنة غلمان مخلدون وحور عين:

أحياناً طفل صغير في البيت يملأ البيت فرحة، يملؤه أنساً، تتخاطفه الأيدي، لأنّ الطفل بريء، واللهُ عز وجل يصبغ عليه من اسمه الجميل، فتجده لطيفًا، وديعًا، ذكياً، ليس عنده خبث، وليس لديه احتيال، سريع الرضا، سريع الغضب، فالطفل من متع الحياة الدنيا، وهو من عطاء الله لك:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَعِيمٍ)

فيها غلمان مخلدون، وحور عين، قال لها: اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلّت إحداهن على أهل الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلك.

أي إذا كان مثلاً بالعبارة البسيطة: (زواج وسط)، وعنده متاعب، فالقضية مؤقتة هي تنتهي ذات يوم، فإذا كان مؤمنًا إيمانًا كاملاً، ومستقيمًا استقامة كاملة، ويسعى لمرضاة الله، فله عند الله الحور العين التي وعده الله بهنّ، فالإنسان الذي تزوج زوجة ولم يحسن اختيارها يبقى لديه أمل بما عند الله، في الجنة:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَعِيمٍ)

الكمال أن تكون من الداخل مسروراً، وأن تكون محاطاً بأجمل الأشياء، فجمال من الداخل وهو النعيم، ومن الخارج وهي الجنات.

فاكهين لها عدة معان منها:

1 ـ هم الذين يأكلون الفاكهة ويتفكهون بها:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَاكِهِينَ)

جاء في التفاسير:

(فاكهين)

هم الذين يأكلون الفاكهة، ويتفكهون بها.

2 ـ فرحين و سعداء:

وبعضهم قالوا والمعنى أقرب:

(فاكهين)

بمعنى فرحين، سعداء، فلان فكه يعني مرح، قد تجلس مع إنسان ذي دعابة، طيب النفس مبتسم الوجه، عذب اللسان، يملأ المجلس أنساً بمرحه، ودعابته، ولطفه، وتواضعه، وإيناسه، وبشاشة وجهه، الإنسان متى يُؤنس ومتى يُسعد ؟ ومتى تنطلق سريرته وتكون كعلانيته ؟ متى تشعر بالقرب منه ؟ إذا هو بالأساس سعيد، طيب هؤلاء قال الله فيهم:

(فَاكِهِينَ بِمَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

تلاحظ إنسانًا تلقى نبأ نجاحه بالشهادة، فخلال يومين أو ثلاثة تراه متألقًا، عيناه زئبقيتان، ابتسامته لا تفارق ثغره، يصبح ذا دعابة، يلقي الطُرف، يبتسم، يضحك، يبادر إلى خدمة من حوله، هذا الوضع فيه إيناس، وخدمة، ولطف، ومرح، كلّ هذا بسبب تلقيه نبأ النجاح والنجاح محبب في كل مجال، نجاح في الدراسة، نجاح في التجارة نجاح في الصناعة، نجاح في الزراعة، نجاح في ارتقاء المناصب، نجاح في إنجاز الكتب وتأليفها، فأيُّ عمل ذو قيمة يدخل على صاحبه السرور، والشعور بالإنجاز، هذا نجاح محدود.

أكبر نجاح يحققه الإنسان أن يصل إلى الجنة:

تصور أنّ إنسانًا نجا من عذاب النار، واستحق جنة ربه، هذا أكبر نجاح على الإطلاق، أكبر نجاح يحققه الإنسان أن يصل إلى الجنة.

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران: 185)

قد يقول لك: أنا اشتريت هذا البيت وثمنه ثمانية ملايين، يعطيها نغمة خاصة، بطرٌ وفرحٌ هذه الأرض تضاعفت مئة ضعف، أنا وكيل حصري للشركة الفلانية، باب البيع على مصراعيه، نجاح في الدنيا، نجاح في التجارة، في الصناعة، في الزراعة، في ارتقاء المناصب، في نيل الشاهدات، نجاح في الصحة، ذو شكل، وقوة، وبنية، نجاح في الزواج أحياناً، نجاح في اختيار بيت مناسب، له إطلالة جميلة واسع، راتب ضخم، كل هذه النجاحات سوف تفقدها عند الموت، أليس كذلك ؟ لكن هناك نجاح يدوم أثرُه هو أن تعرف الله ؟ وأن تكون طائعاً له ؟ وأن تكون مستقيماً على أمره ؟ لا تبتعد كثيراً، كم نعوة في دمشق يومياً، أكثر من خمسين نعوة، تقريباً، طيب ؛ هؤلاء الذين أصبحوا في القبور، أين كانوا

البارحة ؟ في البيوت، أليس لهم أسرّة نظيفة ؟ غرف استقبال، غرف طعام، غرف لاستقبال الضيوف، ليس لهم مركبات ؟ ألم يذهبوا إلى الأماكن الجميلة ؟ ألم يأكلوا أطيب الطعام ؟ ألم يسهروا ؟ ألم يسافروا؟ أين هذا كله ؟ هم الآن تحت أطباق الثرى، فلذلك لا يمكن أن يسمى عطاء الدنيا عطاءً، لأنه لا يدوم، أبداً.

حظوظ الدنيا ليست عطاءً إنما هي ابتلاء:

((النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: أتاني جبريل فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس))

[أخرجه السيوطي في الجامع الصغير عن جابر]

من الغباء، والسخف، وضيق الأفق أن تظن أن الدنيا عطاءً لذلك فالله عز وجل كما يقول علماء اللغة ردَعَ هذا الذي يقول:

(فَأَمّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعّمَهُ فَيَقُولُ رَبّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبّي أَهَانَنِ(16))

(سورة الفجر: 15- 16)

لا، قال له ربه كلا، ليس هذا إكراماً، إنه ابتلاء، فإن أنفقت هذا المال في طاعة الله كان نعمة، و أما إذا أنفقته في المعاصي والآثام هو نقمة، وهذا المال الذي ظننته عطاءً، وإكراماً هو ابتلاء وسبب الشقاء الأبدي، حظوظ الدنيا ليست عطاءً، إنما هي ابتلاء، انظرْ كيف توظفها ؟ إذا كان المرءُ ذكيًا فهذا الذكاء كيف وظّفه ؟ في نشر الحق أم في ترويج الباطل ؟ كل هذا ممكن، هذه القوة التي منحك الله إياها كيف تستغلها ؟ في نصرة الضعيف، أم في تثبيت مركزك، ولو على حساب أنقاض الآخرين ؟ القوة ابتلاء، الوسامة ابتلاء، المال ابتلاء، الغنى ابتلاء

عطاء الله للإنسان حيادي:

(فَأَمّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعّمَهُ فَيَقُولُ رَبّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر)

ليس هذا هو الإكرام، الإكرام أن توظف هذه الحظوظ في طاعة الله، إنّ الله أكرمك، أكرمك بمال فأنفقته في طاعته، أكرمك بعلم فبذلته في سبيله، أكرمك بقوة فنصرتَ بها الضعيف، أكرمك بلسان طلق

فوضّحت به الحق أكرمك بأهل فدللتهم على الله، فهذا إكرام فعلاً، أما مطلق المال ليس إكراماً، مطلق الأهل ليس إكراماً، مطلق العلم ليس إكراماً:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ(16) كَلَّا)

(سورة الفجر)

أداة ردع ونفي، كلا ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، إنما عطائي ابتلاء، وحرماني دواء، وإذا الإنسان كانت بين يديه الدنيا فليحذر فهذه ليست نعمة، نعمة إذا وظفتها في الحق، نعمة إذا وظفت طلاقة لسانك في نشر الحق، نعمة إذا وظفت قوتك في نصرة الضعيف، هذه هي النعمة لذلك العطاء حيادي، كيف تستغله ؟ كيف تمارسه ؟ كيف توظفه ؟ من طريقة توظيفك إياه، يتحدد ما إذا كان العطاء نعمة أو نقمة.

الفوز العظيم أن تفوز بمرضاة الله:

قال:

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27))

(سورة الدخان: 25 - 27)

نعمة، فكانت عليهم نقمة ولو حملت اسمَ نعمة.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

يعني هم سعداء في هذا العطاء الأبدي السرمدي، هذا هو العطاء، لذلك:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات: 61)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين: 26)

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: 58)

بهذا افرح، افرح بطاعة، افرح بعلم حصلته، افرح بقرب من الله، افرح إذا أويت إلى فراشك وخالقُ السماوات والأرض راضٍ عنك، لهذا افرح، هذا هو الكسب الحقيقي، إنّ هذا لَهُوَ الإنجاز العظيم، هذا هو الفوز العظيم، قل لي: ما الذي يفرحك أقلْ لك من أنت، قل لي ما الذي تعده فوزاً أقلْ لك من أنت، الفوز العظيم أن تفوز بمرضاة الله رب العالمين.

فرح الإنسان في الجنة لا يزول:

(فاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

أي إذا الإنسان صحته طيبة في الدنيا، ودخله كبير، وأهله يحبهم ويحبونه، وأولاده أبرار، ومنزله واسع، مركبته أمام بيته، وهذا كله شيء خيالي لا يتحقق إلاّ للقليل، وقد تجده فرضاً مرحًا، فمِن أين جاءه المرح والفرح والإشراق والتألق و الدعابة والإناس والكلام العذب ؟ من هذه النجاحات التي حققها، هذه النجاحات كونت هذا النموذج الفرح، المرح، طبعاً في الدنيا هي أعراض لا تدوم و سرعان ما تزول، أما في الجنة قال سبحانه:

(فاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

يعني أهل الجنة سعداء جداً.

(بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

السعادة سعادتان: إيجابية و سلبية:

إذا سمع الإنسان قصة انهيار إنسان، أو إنسان فقد ملكاته وقدراته العقلية، وهو المستمع بأعلى درجات الفهم، ألا يفرح ؟ نعم يفرح وفرحُه حقيقي، إنسانٌ له سلّم الله له جسمه من العاهات، ومن الأمراض، سلّم له أهله من المشكلات، سلم له دخله من الحرام، يعيش في طمأنينة، والسعادة سعادتان: سعادة إيجابية، وسعادة سلبية، نجاتك من عذابات الدنيا، وعذابات الآخرة، هذه سعادة، لكنها سعادة سلبية، فأنت عندك سعادتان، سعادة النجاة من عذاب النار، وعذاب الجحيم، والخزي يوم الدين، وسعادة الفوز بمرضاة الله رب العالمين، والفوز بالجنة، والآية الكريمة:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران: 185)

إخواننا الكرام: يجب أن تكون الآخرة أمام أعينكم ماثلة، يجب أن نعمل لها.

ما أكثر ما أذكر هذه القصة، ولا بأس من أنْ أكرّرها الآن: سألوا طالبًا أحرز الدرجة الأولى في امتحان الشهادة الثانوية، بِمَ نلت هذا المجموع العالي ؟ قال هذا الطالب كلمة دقيقة جداً، قال: لأنّ لحظة الامتحان لم تغادر مخيلتي إطلاقاً طيلة فترة الدراسة.

ونحن إن شاء الله لا نفوز إلا إذا بقيت الآخرة أمام أعيننا، قبل أن تعطي، قبل أن تأخذ، قبل أن تنظر، قبل أن تملأ عينك من محاسن هذه المرأة، قبل أن تأكل مالاً لا يحق لك أن تأكله، قبل أن تتلفظ بكلمة لا يحق لك أن تقولها، دقق كيف سيكون موقفك من الله يوم القيامة، عندئذٍ تكون من المتقين.

هَنِيئًا: كلمة لها عدة معان منها:

1 ـ عدم وجود الحزن و القلق في الجنة:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ ونَعِيمِ (17) فاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ووَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19))

معنى:

(هنيئاً)

يعني في الجنة لا نغص، ولا كدر، ولا حزن ولا قلق، ومن المؤكّد أنّ الإنسان في الدنيا في أعماقه قلق، وهذا القلق سببه أن الدنيا سوف تنتهي فمهما كان الإنسان فهو لا يخلو من قلق عميق، إذْ لعل هذا الدخل لا يستمر، ولعلّ هذا الجسم لا يسلم من آفة أو مرض، فلذلك لديه قلق، وقلق آخر خوفُه من زوال النعمة، قلق من زوال الصحة، قلق من زوال المركز، قلق من تنكّر الناس له، إذًا هناك قلق مستمر، لذلك أنت من خوف الفقر في فقر، ومن خوف المرض في مرض، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها، لكن بالآخرة ما في شيء من هذا.

(كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً)

هذا الطعام والشراب وهذه الجنة لا نغص فيها، ولا كدر، ولا حزن، ولا قلق، هذا معنى أوّل.

2 ـ حلالاً طيباً:

المعنى الثاني:

(هنيئا)

أي حلالاً طيباً، إذا الإنسان استمتع بشيء حرام ففي أعماقه نغص وقلق.

3 ـ عدم تحول أو زوال الإنسان و الأشياء التي حوله في الجنة:

المعنى الثالث: هو أقوى المعاني:

(كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً)

الإنسان إذا كان في نعمة، ويخاف أن تزول، أو كان في صحة ويخاف أن تزول، لم يعُدْ كلُّ شيء هنيئاً في حياته، لكنّ الجنة مبرأة من هذا الشعور، فالإنسان بعد الخمسين، احتمال بروستات، احتمال ماء

زرقاء، وأشباح أمراض كثيرة تحوم، أليس كذلك ؟ يعني عنده بعد الخمسين قلق، يا ترى هل أفاجأ بمرض ؟ هل أفاجأ بخلل في أحد أعضائي ؟ هذا الشعور ينتابُ الإنسانَ بعد الخمسين، أو بعد الستين، يساوره قلق مستمر على صحته، وقلق على دخله، وقلق على مصير أولاده من بعده، في الجنة هذه المشاعر كلها غير موجودة:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً)

يعني لا أنتم تزولون، وتتحوّلون، ولا الأشياء التي حولكم تزول أو تتحوّل.

عيشة الإنسان في الجنة راضية لا يفارقها و لا تفارقه:

والله قال:

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

(سورة الحاقة: 21)

العجيب أنه بحسب اللغة ينبغي كما نتوهم أن تكون العيشة مرضية، الإنسان راضٍ عنها، في القرآن بالعكس، قال:

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24))

(سورة الحاقة: 21 - 24)

معنى راضية، أيْ أنّ الإنسان في صحة طيبة، أو مع أهله على ما يرام، وأولاده أبرار، هذه عيشة مرضيٌّ عنها، لكنها حينما تزول، هذا المعنى أنها لم ترضَ عنك فتركتْكَ، زوالها يعني أنها ليست راضية عنك، لذلك تركتْكَ، فإذا الإنسان ضمن عيشة مرضية عنها ربما يقلق لأنها سوف تزول عنه، أما هذه العيشة راضية عنك بمعنى أنها لا تفارقك، فربنا عبر عن نعيم أهل الجنة:

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

(سورة الحاقة: 21)

أي أنت راضٍ عنها، فلا تتركها، وهي راضية عنك فلا تغيب عنك، هذا المعنى.

حساب الله للإنسان في الآخرة دقيق جداً:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

هذه باء السببية، يعني الله عز وجل حسابه دقيق.

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل: 32)

هي بالصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، بإنفاق المال، بالأمر بالمعروف، وبالنهي عن المنكر، بتربية الأولاد، أن تأخذ بيد أهلك إلى الله ورسوله، أن تدعو إلى الله، أن تصبر على بلاء الله، أن تصبر عن الشهوات، أن تصبر على قضاء الله وقدره، أن ترجو الله والدار الآخرة:

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل: 32)

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ(20))

الدنيا أساسها العمل، والجنة أساسها الإكرام.

أساس الدنيا العمل و أساس الآخرة الإكرام:

قد تكون عند الإنسان أعمال كثيرة، عنده متجر، عنده مكتب، عنده سلع كثيرة، عنده وظيفة، عنده دراسة، فهو دائمًا منهمك، يقرأ، يدرس، يبحث، يذهب، ينطلق أساس الحياة هو الكسب، والتعب، والكدح، والكد، وقد يرغب يومًا أنْ يقوم بنزهة، والأصل في النزهة الراحة، فلا يعمل شيئاً، ينام، ويأكل ويستمتع بالمناظر، ويسبح، و يلعب، الأصل في الاستجمام الاستمتاع بالدنيا، والأصل في الأعمال بذل الجهد، وبعدُ وبشكل مكبر فالآخرة كلها الأصل فيها الإكرام، لذلك لهم ما يشاءون، أي شيء خطر في بالك تجده أمامك.

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

(سورة ق: 35)

فأنت الآن في دنيا أساسها العمل، أساسها الكدح، أساسها بذل الجهد، أساسها الصبر، أساسها التحمل، أساسها بذل الطاقة لنيل مكسب صغير، الآخرة بالعكس، الحياة الآخرة كلها أساسها النعيم المقيم أساسها الإكرام، أساسها أن كل متاعب الدنيا منزهة عنها الدارُ الآخرة.

ثم إنّ الإنسان يكبر بالسن، يقول لك كبرت، قال لي شخص: سبحان الله أنا قبل خمسين سنة كنتُ أنشط من الآن، طبعاً، تضعف قوته، يضعف بصره، يضعف سمعه أحياناً، يشعر بوهن بجسمه، همته تضعف، لديه قلق لتقدم سِنِّه، وقلق لقلة الدخل، وقلق لتفرُّق الأهل، وقلق المرض، في الآخرة لا يوجَد شيء من هذا، كل أنواع القلق مبرأ منها الإنسان في الآخرة.

الجمال في الآخرة جمال مطلق:

(مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

تحار في جمالهن الأعين، عيناء ؛ واسعة العينين، بيضاء اللون:

(وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

طبعاً هذا وصف موجز لكن ربنا عز وجل في هذا الإيجاز يعبر عن كل شيء، يعني جمال مطلق، في الدنيا لا يوجد جمال مطلق، يعني في تفوق من جهة، وتخلف من جهة أخرى ورحمة بنا، لكن الجمال في الآخرة مطلق:

(وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

أكبر كسب للإنسان أعمال ذريته الصالحة إلى يوم القيامة:

أما هذه الآية، الآية الحادية والعشرين.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

هذه الآية إخواننا الكرام: أكبر كسب على الإطلاق تناله في الدنيا أن تنشئ أولادك تنشئة إيمانية، إنك إن ربيت أولادك على طاعة الله ومحبته، وعلى طاعة رسول الله ومحبته، وعلى حب آل بيت رسول الله، وعلى قراءة القرآن، وعلى ضبط الجوارح، والأعضاء، وعلى أكل المال الحلال، وعلى العمل الصالح، إن هؤلاء الذرية الذين ربيتهم، هذه التربية كل أعمالهم إلى يوم القيامة في صحيفتك:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ)

يعني أنت آمنت، وربيت أولادك حتى اتبعوك في إيمانك، ربيتهم إلى أن ساروا على نهجك، ربيتهم إلى أن أحبوك، ربيتهم إلى أن قدسوا اتجاهك وعظّموه في نفوسهم.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)

أعمال ذريتهم بمجملها، بأكملها، كل الذرية، يعني أولادهم، وأولاد أولادهم، وأولاد أولاد أولادهم، وأحفادهم، وأحفاد أحفادهم، إلى يوم القيامة، قد يموت الإنسان بعد أنْ يخلف خمسة أولاد، فحتى يوم القيامة قد يكون عددهم خمسمئة مليون، هذا جائز، كل هؤلاء في صحيفتك.

ما من عمل على وجه الأرض أربح من أن تُخلف ذرية صالحة:

أنا أقول لكم كلاماً دقيقاً، والله أيها الأخوة: ما من عمل على وجه الأرض أخطر، وأربح، وأنجح، وأثمن، من أن تخلف ذرية صالحة شباباً وشابات، وأن هذه الذرية أعمالها كلها في صحيفتك إلى يوم القيامة.

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ)

لماذا اتبعتهم ؟ لأن الأب كان كاملاً، كان أخلاقيًا، كان قدوة حسنة، بتوجيهه، بسلوكه، بحياته الخاصة، بحياته العامة، بكسبه للمال، الأب لما كان مثاليًا اتبعه أولاده، أما إذا لم يكن الأب مثاليًا، فقد تجد الابن يحترمه احترامًا ظاهريًا، ومع أصدقائه يقول: أبي بخيل، إذًا فالابن قد يكشفُ خطأ والده ولا يتبعه أما علامة الأب الكامل، الكامل في علمه، الكامل في أخلاقه، الكامل في عطائه، الكامل في عطفه، نتائج هذا الكمال في الأب أن يتبعه ابنه، هي إشارة لطيفة:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ)

طبعاً عن إيمان لا عن خوف، يعني آمنوا كما آمن، عرفوا الله كما عرف، أحبوا اللهَ كما أحبّ الأب، وبتوجيهه، وبتعليمه، وبإكرامه، وصبره.

الإنسان رهين عمله:

(بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

(ألتناهم)

أي أنقصناهم يعني عمل الأبناء، ألم يجعل كله في صحيفة الآباء ؟ نعم، من دون أن ينقص من أجر الأبناء، هذا من عطاء الله الكريم، فأنت إذا قلت لشخص مثلاً ضع مالك في هذا المعمل والمتجر، فوضع خمسة ملايين، أفيُعقل أنّ هذا المعمل أو المتجر يعطيك خمسة ملايين نظير أنك أرشدتهم إليه ؟ ليس معقولاً، لكن عند الله هذا واقع لا محالة أني تجد كل أعمالَ أولادك، وأولاد أولادك، وأولاد أولاد أولادك، إلى يوم القيامة، كلُّها أعمال صالحة، و سيكون لك الحجم نفسه أيضاً.

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

مرهون بعمله يعني في الدنيا هذا مودع في السجن على ذمة القضية الفلانية، فقد حريته، لأنه ارتكب عملاً ما، فكل إنسان رهين عمله، فلو تصورنا إنسانًا مستقيماً طليقًا، فهو يذهب، ويسافر، ويخرج من بلده، ثم يرجع، ليس عنده مشكلة إطلاقاً، أما إذا ارتكب إنسان معصية، أو مخالفة للقوانين يقول لك: ليس بمقدوري أن أسافر، أو كان مرتكباً ما هو أكبر من ذلك فليس بمقدوره أن يدخل القطر مثلا، هذا الإنسان مرهون بقضيته، وهذا مثل بسيط، والإنسان رهن عمله عند ربه.

قال له: يا قيس إن لك قريناً تدفن معه وهو حي، ويدفن معك وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك، و إن كان لئيماً أسلمك، ألا وهو عملك، فأنت إذًا رهين عملك فاحذر.

الحجاب بين المرء و ربه لا يهتك إلا بالعمل الصالح و التوبة:

مرة كنت عند صديق وهو قاضي تحقيق، وكان يحقق مع شخص ُيتاجر بالمخدرات، فكان هذا الإنسان وهو يجيب عن أسئلة القاضي نظره في الأرض، دخل شاب طليق الوجه، مبتسم، قلت هذا الذي دخل ليس متهماً، طلاقته تدلُ عليه، وهو قريب للقاضي، فإذا كان المرء طليقًا بريئًا من أيّ تهمة أو ذنب تجده جريئًا، مرحاً، وجهه متألق، أما إذا كان مذنبًا كان ممن ينطبق عليه قوله تعالى:

(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ(42))

(سورة عبس: 40 -42)

الوجه صفحة النفس، إذاً:

(كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

أنت حجمك عند الله بحجم عملك، بعدك عن الله لا سمح الله بقدر إساءتك هناك حجاب كثيف، وهناك حجاب رقيق، كل معصية تشكِل حجابًا فإذا كانتا معصيتين شكلتا حجابين، والحجاب بين المرء وبين الله يهتكه سريعاً بالتوبة، يهتكه بالعمل الصالح، لذلك: وأتبع السيئة الحسنة تمحُها وخالق الناس بخلق حسن.

نعيم الجنة باق لا ينفد:

(وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ)

أحيانًا الأكل لا يكفي، أما في الجنة فكُلْ ما شئت، مائدة مفتوحة بالتعبير المعاصر، كلْ ما شئت.

(وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (23))

خمرةُ الدنيا، إذا شربها الإنسان يفقد عقله، يتكلم كلمات غير معقول أن يتكلمها وهو في صحوه، والإنسان إذا شرب الخمرة يصبح أحمقَ في سلوكه وفي كلامه، ينشر فضائح، يتكلم من عقله الباطن، إنسان له مكانة رفيعة في المجتمع هو موجه تربوي لمادة معينة، فلما شرب الخمر تكلم بكلمات لا يعقل أن تصدر منه، فهذا هو اللغو والتأثيم. فلما شرب الخمر وقع في المحرمات وقد في ساحة من يلوذ به، أما خمرة الآخرة:

(لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ)

فخمرة الآخرة من نوع آخر وصناعة أخرى.

(يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ(23) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ)

من جمالهم.

حال أهل الجنة و هم في الجنة يتنعمون:

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

يعني أهل الجنة يتحدثون، يتحدثون عن الدنيا، كيف تعبوا ليصلوا إلى معرفة الله، كيف جاهدوا أنفسهم وأهواءهم، كيف التقوا مع من يحبون، كيف اهتدوا إلى الله:

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

أحياناً تجد الإنسان لما ينجح في الحياة، يجلس في مجلس، وقد يتصدره ويزهو قائلاً، أنا قدمت امتحانًا في اليوم الفلاني، وكان ضمن الأسئلة سؤال صعب، تعجيزي وأنا تذكرت، وكتبت، وأجبت، وكلما كان يواجه عقبة كان يتحدث كيف أنه انتصر عليها، وكيف تجاوزها، وكيف نجح، وكيف تفوق، وبعد النجاح غالبا ما يكون الحديث عن المتاعب حديثًا ممتعًا جداً، وكذلك نجح إذا الإنسان في عمله التجاري، وفي عمله العلمي، وفي عمله المنوع ووصل لقمة المجد في عمله، فإذا تحدث تحدّث عن متاعبه السابقة وكيف انتصر عليها، وكيف تحداها، وكيف تجاوزها، وكيف سخر منها، وكذلك حال أهل الجنة، وهم في الجنة يتنعمون، وقد وصلوا إلى أعظم الغايات.

حديث المؤمن عن خوفه من عذاب ربه:

قال تعالى:

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (25) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (26))

نحن كنا خائفين، ونعيش في قلق، يعني مثلاً لو أنّ طالبًا شكا همه لصديق، وقال له: أنا عندي وظائف، والأساتذة قساة، والواجبات كبيرة وكثيرة جداً، وعليّ أنْ أكتب موضوعًا، وأنْ أؤلف أطروحة، وأنْ أتقدّم لفحوص شفهية، وأدرس الدروس وأحضّرها، وهذا شيء لا يحتمل، فيقول له صديقه: أنا ليس لديّ مشكلة، فأنا أنام إلى الظهر، لما شكا الأول الصعوبات التي يلاقيها في حياته الدراسية، بينما الثاني من أولاد الأزقة، قال له أنا لا أحس بأيّ تعب من مثل هذا، أنا أنام حتى أشبع النوم، آكل كلّ ما أشتهي، أذهب إلى أي مكان يحلو لي، بينما أنت محروم من كلّ هذا، لا ! ثم لا فهذا في تيهٍ وضياع، وهذا ليس له مكان في المجتمع، أما هذا يعد ليكون إنسانًا متألقًا بالحياة.

(قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (26) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (27) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ(28))

جزاء المتقين يوم القيامة:

الله عز وجل حدثنا عن المتقين:

(جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20))

وعن تربية أولادهم، وأنهم وصلوا إلى غايتهم عند الله عز وجل، وأنّ أعمال أولادهم كانت في صحائفهم:

(وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (23) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (24) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (25) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (26) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (27) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28))

يتوجهون إلى الله بدعاء، والتجاء إليه، وضراعة، يستغرقون في مناجاة، وفي استرحام، وفي استغفار، وتسبيح، وتحميد، وتكبير، وشُغْلُهم في ليالي اعتكاف وصلاة بما فيها التراويح، وبعدها درس إرشاد ووعظ، وفي صلاة الفجر تجليات وضراعة، هذا هو المؤمن، من عمل إلى عمل، ومن مسجد إلى مسجد، ومن خدمة إلى خدمة، ومن فهم إلى تطبيق، ومن إنفاق إلى إنفاق.

(إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28) فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ(29))

وبعدُ ؛ فهذه الآية وما بعدها نرجئها إلى الدرس القادم إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطور 052 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 29-49 ، الدعوة إلى الله فرض على كل مسلم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-08-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام مع الدرس الثالث والأخير من سورة الطور، ومع الآية التاسعة والعشرين.

أمر الله عز وجل للنبي الكريم بتذكير الناس مهما استخفوا بدعوته:

قال تعالى:

(فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ(31))

أولاً فذكِّر: أمرٌ من الله عز وجل للنبي صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فما مسوّغ هذا الأمر ؟ أي مهما أساءوا إليك، ومهما استخفوا بدعوتك، ومهما عارضوك، ومهما كذبوك، أنت عليك أن تُذكِّر.

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22))

(سورة الغاشية: 21 - 22)

أنت لا تملكهم، لكن ذكِّرهم، ذكِّر، أيْ: فعل أمر موجه للنبي صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ، يمكن أن ينسحب إلى المؤمنين، وأنت أيها المؤمن فذكِّر، ذكِّر مَن حولك، الإنسان مهيأ للهدى، مهما رأيته متلبساً بمعصية، عليك أن تذكره، لا تدري لعل كلمة تقع موقِعاً حسناً في قلبه، لعل قضية تعالجها تفعل فيه فعل السحر

(فذكر)

المؤمن يذكر لذلك:

((بلغوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو]

التدين فطرةٌ في الإنسان يحتاج إلى تذكرة:

ذكرتُ اليوم أن الدعوة إلى الله تكون تارة فرض عين، وتارة فرض كفاية، فرض العين فيما أنت تعلم، في حدود ما تعرف، دون أن تزيد، ما من إنسان مسلم إلا ويحضر خطبة الجمعة، لأنها فرضٌ عيني على كل مسلم.

((من ترك الجمعة ثلاث مرات، تهاوناً بها، طبع على قلبه))

[أخرجه ابن ماجه عن عبيدة بْن سفيان الحضرمي]

إذًا لا بد من أن تلتزم خطبة الجمعة، طيب ؛ في هذه الخطبة أليس فيها آية ؟ حديث ؟ حُكم ؟ موعظة ؟ لا بدّ أن يكون شيءٌ من ذلك، لو أنك حفظت تفسير آية، أو شرح حديث، أو موقف صحابي، وفي خلال الأسبوع في أي لقاء، في أي اجتماع، في سهرة، في ندوة، في سفر، إن كنتَ في وليمة فذكر، يريد القرآن الكريم أن يكون في حياتنا دعوة، فالله عز وجل وجّه النبي عليه الصلاة والسلام أن يذكِّر، لكن كلمة (ذكر) ماذا تعني ؟ فأنت إذا رأيت منظراً، ثم ذكرت به، ما معنى ذكرت به ؟ رأيته من قبل، وهذا الكلام هو تذكرة، يذكرك بشيءٍ رأيته، وأغلب الظن أن التدين فطرةٌ مودعة في الإنسان، يحتاج إلى تذكرة، النفس مصممة على الإيمان، مصممة على أن تعرف الله، تحتاج إلى تذكير.

صلح الإنسان مع الله أساسه كلمة طيبة:

صدقوني أيها الإخوة: أن هناك حالات الاستجابة لدعوة من الإيمان والتوبة تلفت النظر، إنسان غارق في كل المعاصي، كلمة صادقة من إنسان صادق قلبته رأساً على عقب، حملته على التوبة، فلو استمعت إلى أيّ أخ كيف تعرف إلى الله، كيف تاب إلى الله، كيف اصطلح مع الله، فلا تعجب إنْ علمتَ أنّ صلحه مع الله كان أساسه كلمة طيبة، كلمة طيبة صادقة، مخلصة، قال لك: ذكِّر، لك ابن ذكِّره، لك أخ ذكِّره، لك جار ذكِّره، لك شريك ذكِّره، صديق سفر ذكِّره:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)

(سورة الغاشية)

الله سبحانه يأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يذكِّر، وأنت يجب أن تقتدي بالنبي عليه الصلاة والسلام وتذكر، نحن في شهر المولد، والشام كلها احتفالات في عيد المولد، شيء جميل جداً، لكن الأجمل من ذلك أن تقتدي برسول الله، وأن تقتفي أثره، لأن الله سبحانه وتعالى لا يقبل إدعاء حبه إلا بطاعة رسوله، فالاحتمال بالمولد يعني اقتفاء أثره في دعوته وتجديد معانيها.

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

(سورة آل عمران: 31)

من أراد بعمله وجه الله امتد أثر عمله لما بعد الموت:

من اتباع النبي عليه الصلاة والسلام أن تذكِّر، أن يكون لك لسان صدق، طبعاً ما من إنسان إلاّ له أخ، أو ابن، أو جار، أو قريب، أو صاحب، أو شريك، إلاّ وله صاحبٌ عابر في سفر، كل إنسان له اجتماع،

وسهرة، ندوة، ونزهة، ووليمة، وحفلة، لك أقرباء، ولك أصدقاء، وهناك مناسبات كثيرة، فحتَّى لا يكون الحديث عن الدنيا، فذكِّر، فالنبي عليه الصلاة والسلام أمر أن يذكِّر، وأنت كمؤمن أمرت أن تذكر، لكن لما تذكِّر، يجري اللهُ عز وجل على يديك الخير، ويقدر على يديك هداية إنسان، وهذه تجارة رابحة، هذا معنى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ)

(سورة الصف: 10 - 11)

يعني دائماً هناك مواقف حسّاسة ؛ اجعل الموت هو الحد الفاصل، أي عمل يستمر إلى ما بعد الموت، هذا العمل العظيم، هذا العمل الرابح، هذا العمل المجدي، هذا العمل الذي تسعد به، هذا العمل الذي يدل على عقل راجح، هذا العمل الذي ترقى به، هذا العمل الذي تطمئن به و تطمئنّ إليه، وأيّ عمل ينتهي عند الموت فهو للدنيا، فلو أراد الإنسان بعمله المهني وجه الله، وخدمة المسلمين، وكفاية نفسه، لامتد أثره إلى ما بعد الموت.

النية محصلة إيمان الإنسان:

أما النية فقضية معقدة جداً، النيةُ محصلة إيمانك، النية محصلة توحيدك، النية محصلة جهودك التي بذلتها في طريق الإيمان، كلما كنت متفوقاً في الإيمان، ارتقت نواياك، إذا ارتقت نواياك، صارت المباحات عند المؤمن عبادات، صار عمله عبادة، ظروف حياته مع أهله عبادة، لقاؤه مع إخوانه عبادة:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)

(سورة الغاشية)

الله عز وجل قال:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

(سورة البقرة: 152)

((قال الله عز وجل: لا يذكرني أحد في نفسه إلا ذكرته في ملأ من ملائكتي ولا يذكرني في ملأ إلا ذكرته في الرفيق الأعلى))

[أخرجه الطبراني عن معاذ بن جبل]

إذاً: إذا قال الله عز وجل يا أيها النبي اتق الله، أيْ ؛ أيها المؤمن اتق الله، إذا قال الله عز وجل: وتوكل على الله، أي ؛ أيها المؤمن توكل على الله، وإذا قال الله عز وجل: فذكر يا محمد، أنت أيضا أيها المؤمن ذكِّر، فأنت يجب أن تذكر كفرض عين، في حدود ما تعلم.

كل إنسان يحتاج إلى تذكرة صادقة مخلصة:

والله عز وجل قال:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ)

(سورة آل عمران: 104)

هذا فرض كفائي، الأمة بحاجة إلى دعاة كبار، إلى متخصصين، إلى متبحرين، هذا فرض كفاية، أما فرض العين، في حدود ما تعلم، يجب أن تذكر في حدود ما تعلم، دون أن تزيد على ما تعلم، ذكِّر، والإنسان إذا ذكر، وعُلِم الله منه الصدق، فليس بعيداً أن يجري الله على يده الخير، وكلمة (ذكّر) تعني أن الإنسان بفطرته وبأصل تكوينه مؤمن بالله، لا يحتاج إلا إلى تذكرة.

فمثلاً إذا رأى إنسانٌ مدينة معينة، كان قد سافر إليها، ثم غاب عنها وأريناه صورتها، لقال: نعم، نعم زرتها وأعرفها، فالإنسان يحتاج إلى تذكرة صادقة، مخلصة منيبة.

دعوة الله النبي الكريم بأن يُذكّر الناس رغم الاتهامات التي اتهموه بها:

(فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ)

(الكاهن)

هو الذي يتلقى عن الجن، والشياطين أحياناً يؤذون الإنس، فيصابون بالجنون، الشيطان في هاتين الكلمتين قاسم مشترك، إما أن الكاهن يتلقى عن الجن، وإما أن شياطين الجن تؤذي هذا الإنسان فيصبح مجنوناً، فالله سبحانه وتعالى يسلّي رسوله أنْ يا محمد لو أنهم قالوا لك أنت كاهن فلا تيأس وذكِّر، ولو قالوا: إنك لمجنون، ذكِّر، ولو قالوا: شاعر، ذكِّر، ولو قالوا: ساحر، ذكِّر، لذلك فالمؤمن لا تلين قناته، ولا يغير مواقفه، لأن هدفه الله عز وجل:

(فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ)

لقد ضربت مثلاً، لو كان معك خمسة كيلوات ذهب خالص، والناس قالوا: هذا ليس بذهب، هذا معدن خسيس، فمن الرابح ؟ أنت الرابح، ولو قالوا عن هذا المعدن ما قالوا، أنت عندك خمسة كيلوات من الذهب الخالص، هم يدّعون أنه معدن خسيس، كلامهم لا يجعله خسيساً، كلامهم لا يبدل ولا يغير الحقيقة، لو كنت تملك المعدن الخسيس وبذكاء بارع أوهمت الناس أنه معدن نفيس، فأنت الخاسر الوحيد، يعني أنت الرابح إذا كان معك الذهب الخالص، وأنت الخاسر إذا كان معك المعدن الخسيس، لا إقناعك للناس بأن ما عندك من الذهب الخالص، يجعله ذهباً خالصاً ولا اتهام الناس لك بأن ما عندك من معدن هو معدن خسيس يجعله خسيساً، أنت الرابح، وأنت الخاسر.

لا يقطف الإنسان ثمار الدين إلا إذا طبقه كله:

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾

فمثلاً إذا كان الإنسان يسكن في بيتٍ مريح جداً، وقال أحدهم: هذا البيت صغير، وهو في الحقيقة كبير، فكلمة صغير تجعله صغيراً، ولو كنتَ تأكل أطيب الطعام، وقيل: لك هذا الطعام طعمه غير مستساغ، هل هذه الكلمة تجعل الطعام غير مستساغ ؟ لا. فالكلام لا يصنع شيئاً، الكلام يعبر عن حقيقة، أو عن وهم، الكلام الخبري، يقال لصاحبه صادق أو كاذب، فأنت حينما أمر الله النبي عليه الصلاة والسلام أن تذكِّر فعليك أن تذكر:

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾

في الحقيقة إنّ الإنسان إذا قطف ثمار الدين، لا يتأثر بأقوال الناس إطلاقاً، لكن متى يتأثر ؟ يتأثر بتصغير الناس لشأنه، يتأثر بتشكيك الناس في صدقه، يتأثر بطعن الناس فيه، إذاً لو يُوفّق لقطف ثمار الدين، وهذا يعني وجود خلل، فمن خصائص هذا الدين أنه ينبغي أن تأخذه كله، حتى تقطف ثماره، إن أخذت بعضه، قد لا تستفيد، فلذلك: خذ بعضه وأتمم بعضه الآخر، لا نقول لمن يأخذ بعض الدين: دع هذا البعض، هذا كلام غير شرعي إطلاقاً، بل نقول: أتمم أتمّ الله عليك.

اتهام الناس النبي الكريم بأنه كاهن أو مجنون أو شاعر:

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾

شاعر أيضاً، في التصور الجاهلي له شيطان يوحي إليه، ومن أقوال الأدباء: إنّ شياطين الشعر توحي للشعراء، والشعراء حينما يبدعون تارة، ويهبطون تارة أخرى، فهذا الإبداع والتدني والهبوط سببه فيما يظنون ويتوهمون أن الشاعر جاءه شيطانه فأبدع، فلما غاب عنه شيطانه أسفّ وهبط، فعند الشعراء وكل أصحاب الأعمال الفنية ساعة إبداع، وساعة قصور، والعرب بالجاهلية تصوروا أنّ لكل شاعر شيطانًا، فإذا كان معه أبدع، وإذا غاب عنه قصر:

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾

يعني يطاله الموتُ ويريحنا منه، فجاء الجواب الإلهي:

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾

وأنا أتربص بكم، وسوف ترون لمن العاقبة، ولمن المستقبل.

من نشأ في طاعة الله تألق في آخر عمره:

والله عز وجل يقول:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف: 128)

((إنما الأعمال بالخواتيم))

[أخرجه أحمد والبخاري والطبراني في الكبير والدار قطني في الأفراد]

والعبرة لمن يضحك أخيراً، والعاقل من يهتم بخريف عمره، لا بمقتبل عمره، قد يستوي الناس جميعاً في شبابهم، أما التفاوت الكبير في خريف حياتهم، من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، من لم ينشأ في طاعة الله ويشكل حياته تشكيلاً إسلامياً، ربما تعب كثيراً في خريف عمره، وأفضل شيء لدى الإنسان أنْ يطبّق أوامر الله في سن مبكرة، وعندئذ في الأعم الأغلب، سيختار زوجة مسلمة صالحة، وسيختار عملاً شريفاً، فلو جاء إيمانه وصلحه مع الله متأخراً، وقد شكل حياته تشكيلاً غير إسلامي، فهناك يلقى متاعب لا تحصى، لذلك هنيئًا لمن نشأ في طاعة الله، فهذا له خريف عمر متألق.

العاقبة للمتقين:

(فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31))

لو درسنا تاريخ الإسلام في بدايته، أصحاب النبي الذين آزروه، ونصروه وأيدوه، وقاتلوا معه، ووضعوا أرواحهم على أكفهم، نصراً له، فما مقامهم في ذاكرة التاريخ ؟ والذين عارضوه، وكذبوه، وائتمروا على قتله، وإخراجه، والتنكيل بأصحابه، أين هؤلاء الذين عارضوه وكذبوه ؟ أين مقاماتهم التي تزار ؟ فهل رأى أحد منكم مقاماً لأبي جهل بمكة ؟ إنّهم في مزبلة التاريخ، أما أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام الذين نصروه، وأيدوه، في أعلى عليين، في مقام رفيع، فالعبرة للخاتمة، العبرة لمن يضحك آخراً، العاقبة للمتقين دائماً الإنسان عليه أن يضم الآخرة إلى الدنيا، أو عليه أن يضم نهاية الحياة مع بدايتها، أما إذا نظر إلى البداية قد يتوهم أن المتفلت أسعد من المنضبط، وأن الغني الذي جعل غناه من مال حرام أسعد من الفقير الذي تورع عن المال الحرام، أما إذا ضممت آخر الدنيا إلى أولها، أو ضممت الآخرة إلى الدنيا اختلفت الموازين.

الخطأ الكبير الذي يرتكبه الناس موازنة حياة الكافر مع حياة المؤمن:

ذكرت مرة أن راكب دراجة يسير على طريق مستوٍ، واجه طريقين، طريقاً نازلاً، معبداً، تحفه الأشجار والورود، والرياحين، وطريقاً صاعداً وعراً، فيه الصخور والأكمات، وفيه المتاعب، طبعاً راكب الدراجة يختار الطريق النازل، ويبتعد عن الطريق الصاعد لو كان في نهاية الطريق الصاعد قصرٌ منيفٌ، هو مِلكٌ لمَن يصله أوّلاً، وفي نهاية الطريق النازلة حفرة سحيقة قد يدرك الموتُ مَن يصل إليها، والآن نقول لك: اختر، فالأمر مختلفٌ كلية، إذا ضممت الحفرة إلى الطريق المريحة، وضممت القصر إلى الطريق الصاعد، تختار الطريق الصاعد، وهكذا الدنيا، وهذه حقيقتها.

الخطأ الكبير الذي يرتكبه بعض الناس أنّهم يوازنون حياة الكفار مع حياة المؤمنين، والحقيقة أنه ينبغي أن تضم إلى حياة الكفار مصيرهم، وينبغي أن تضم إلى حياة المؤمنين مصيرهم الذي وعدهم الله به، نظريا طبعاً، لا على شخص معين، إنسان انضبط، خاف من الله، تعرف إليه، رجا قربه، رجا ثواب طاعته، ضبط دخله، ضبط إنفاقه، ضبط جوارحه، ضبط أولاده، زوجته، وكان في الدنيا قليلَ ذاتِ اليد كما يقولون، والذي تفلت فأصبح غنياً، لا توازن هذا بهذا، إن أردت أن توازن، ضُمَّ الآخرة إلى الدنيا ووازن، ضم آخرة المنضبط إلى دنياه ووازن، وضم آخرة المتفلت إلى دنياه ووازن، لذلك قال سيدنا علي: **الغنى والفقر بعد العرض على الله:**

(أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31))

المؤمن خطه البياني صاعد:

لذلك فالله عز وجل أمر المؤمنين أن يقولوا للكافرين:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة: 51)

هل في الآية بشارة ؟ نعم البشارة من كلمة

(لنا)

(لنا)

تفيد التملك، والشيء الثمين هو الذي يملك، لكن تجد إنسانًا يملك عقرباً، فيقول: أنا عندي خمسة عقارب، الشيءِ الثمينُ هو الذي يملك، تملك الذهب، تملك الفضة، تملك الجواهر، اللآلئ، الله عز وجل قال:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: 286)

الشيء الثمين، الخير، الجيد لنفسك، والوزر، والإثم، والعقاب عليها، فحينما قال الله عز وجل:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة: 51)

يعنى أنّ المؤمن خطه البياني صاعد، ولو اقتضى التأجيل أحياناً، أو اقتضت عوامل التربية أن ينزل هذا الخط، لكن المحصلة النهائية أنّه صاعد، ينزل ثم يصعد، يتابع صعوده.

إذا أحب الله عبداً ضيق عليه ليحاسب نفسه على كل خطأ:

المؤمن مفتون ومبتلى، والله عز وجل يحاسبه، وربما حاسبه حساباً عسيراً، لأنه مظنة صلاح، الإنسان يحاسب المتفوق على خطأ طفيف.

((إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن رضي اصطفاه))

[أخرجه الديلمي عن علي]

((إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا))

[أخرجه الترمذي والحاكم عن أنس]

((إذا أراد الله بعبد خيرا عاتبه في منامه))

[أخرجه الديلمي عن أنس]

إذا أحب الله عبداً ضيق عليه.

((قال النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنزل الله جبريل في أحسن ما كان يأتيني في صورة فقال: إن الله تعالى يقرئك السلام يا محمد، ويقول لك: إني أوحيت إلى الدنيا أن تمرري وتكدري وتضيقي وتشددي على أوليائي كي يحبوا لقائي))

[أخرجه البيهقي عن قتادة بن النعمان]

أنت مخلوق للآخرة ؛ فإذا كنت في الدنيا مرتاحاً راحة تامة كرهت لقاء الله عز وجل، الحكمة تظهر لك بعد حين:

(قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ)

الإنسان حينما يطغى لن يستجيب للحق:

لا تنتظر أن يأتي العقاب لمؤمن، انتظر أن يأتي العقاب لغير المؤمن، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية: 21)

العرب أو قريش بالذات مشهورة في جاهليتها أن زعماءها كانوا أصحاب عقول راجحة، فبيَّنَ الله عز وجل أنّ هذا التكذيب، وذلك الرد، وهذا الاتهام بأن النبي ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون، فهذا الاتهام كلّه من صنع عقولهم الراجحة، أهكذا تأمرهم عقولهم ؟ قال سبحانه:

(أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

هل تستنبطون من هذه الآية شيئاً ؟ لماذا لم تأمرهم أحلامهم أن يؤمنوا ؟ أن يصدقوا ؟ أن يستسلموا ؟ أن يخضعوا ؟ قال:

(بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

(سورة الذاريات: 53)

الطاغي يأبى عقله أن يعترف بالحق:

الإنسان إذا طغى، اختلّ توازنه النفسي، فإذا اختلّ توازنه النفسي، لا يستطيع أن يعيد هذا التوازن إلا برد الحق وعدم قبوله، ولو قبل الحق وكان مخالفاً لتعليمات الحق، يزداد اختلال توازنه، أما حينما يتهم أهل الحق بالكذب، أو بالجنون، أو بالغيبيات، هذا الاتهام يحقق له توازنه لذلك فالإنسان حينما يطغى، فلن يستجيب للحق.

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص: 50)

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2)مَ)

(سورة الماعون: 1 - 2)

هو نفسه.

لذلك لو أنهم لم يكونوا قوماً طاغين لأمرتهم أحلامهم بالإيمان بالله ورسوله، لكن لأنهم قوم طاغون، عقولهم أبت أن تعترف بالحق:

(أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

اتهام الكفار بأن القرآن الكريم ليس من عند الله بل هو كلام النبي:

وبعدُ، فالله عز وجل خاطب الفطرة خطاباً رائعاً، وافترض كلّ الافتراضات ورد عليها:

(أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ)

أيْ أنهم قالوا: هذا الكلام ليس كلام الله، النبي جاء به من عنده، افتراه على الله، القرآن من صنع النبي عليه الصلاة والسلام، كان عبقرياً فذاً فكتب كلاماً، استحوذ على قلوب الناس به:

(أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ)

يعني أنّي لم أجد مثلاً أوضح لهذه الآية مما لو أطلعت إنسانًا على قطعة ماس من أعلى مستوى، ثم قال لك: هذه بلور، كيف يقول عن الماس إنه بلور ؟ لأنه لا خبرة له إطلاقاً بهذا الموضوع، ما قال هذه الكلمة إلا لأنه عديم الخبرة، لو كان خبيراً، لما قال عن هذا الماس الناصع إنّه بلور.

التوضيح، التبيين، والتنوير، من لوازم الإله الكامل:

(أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ)

أي اقرءوا القرآن ؟ لو وقفوا عند صياغته، ونظمه، وإعجازه، ودقة أحكامه، وتوافق أحكامه مع طبيعة النفس، لو تأملوا هذا الكتاب، لما قالوا تَقَوّل، ما من شيء في الإنسان أقبح من أن يمزق رسالة قبل أن يقرأها، إنه موقف قبيح وغبي، أن تمزق رسالة قبل أن تقرأها، فهذا الذي يقول إنّ هذا الكلامَ كلامُ محمدٍ، هل قرأ القرآن ؟ هل تدبر آياته ؟ هل شاهد إعجازه ؟ إعجازه العلمي، والتشريعي، والتاريخي، والبلاغي، واللغوي، والحسابي، هل وضع يده على إعجاز القرآن الكريم ؟ ثم يقول تقوّل:

(أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ)

لأنهم ما آمنوا بأن لهذا الكون خالقاً عظيماً، ولا يمكن يدع الناس من دون هدى.

فمثلاً هل تجد أباً يبقى ساكتًا، وأولاده يتحركون بغير منهج، ولا خطة، ثمّ لا يتدخل، أب يجلس ويرى ابنه الصغير يقترب من المدفأة، ألا يتحرّك ؟ أيبقى ساكتًا، يعني أنّ التوضيح، والتبيين، والتنوير، كلُّ هذا من لوازم الإله الكامل، الإله الكامل الذي خلق، فأبدع، لا بد أنه نوّر الناس وهداهم إلى طريقة سعادتهم، فلذلك ترى الإنسان حينما لا يؤمن، ينكر أن يكون هذا الكلام كلام الله، أما إذا آمن يرى أن هذا الكلام من لوازم الخالق، ومن لوازم كمال الخالق أن ينذر، وأن يحذر، وأن يبين، وأن يضع منهجاً لخلقه يهتدون بهديه.

تحدي الله عز وجل للناس جميعاً:

و هأنذا أضرب مثلاً ؛ شركة محترمة تصنع آلة بالغة التعقيد، النشرة التي ترافق الآلة من أخطر ما يجب أنْ يُلازَم، طريقة التشغيل والصيانة، كيفية أداءِ الآلةِ عملَها بأعلى مستوى، وأن تأخذ منها أعلى مردود، فالشركة المحترمة لا ترسل الآلة إلا معها تعليمات، أحياناً تلاحظ كثيراً من الآلات لها تعليمات

بالغة الدقة و الوضوح، فمأخذ الكهرباء مغلق، ومختوم، ومكتوب عليه 220، أو 110، لئلا تقع في غلط، فكلما كان رقيٌّ في الصناعة، كلما ارتقى التوجيه، وكلما ارتفع مستوى الصناعة ارتفع مستوى التعليمات، تعليمات دقيقة جداً، مرة قال لي أخ أنّ هناك برنامج كمبيوتر عادي مؤلّف، 1100 صفحة، كتاب تعليماته 1100 صفحة، أيُعقل ذلك ؟ برنامج تعليماته وطرق تشغيله وميزاته بهذا الحجم، فكلما ارتقت الصناعة، ارتقتْ معها التعليمات، فالله عز وجل هو الخالق المبدع، من لوازم كماله أن ينزل على أنبيائه كتباً، ومنهجاً، ودستوراً، وتوجيهاً، إذاً:

(أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34))

ولعل هذا أكبر دليل قطعيّ على أن هذا كلام الله هو إعجاز وَاللَّهُ عز وجل تحدى الناس جميعاً.

القرآن معجزة مستمرة إلى يوم القيامة:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)

(سورة الإسراء: 88)

هذا الإعجاز، يعني إذا قلت لي ما الدليل على أن هذا القرآن كلام الله ؟ أقول لك إعجازه، والإعجاز يحتاج إلى تأمل، وإلى تدبر طبعاً، والمجال لا يتسع الآن لبيان ضروب الإعجاز، ففيه إعجاز إخباري من غيب الماضي، وإعجاز من غيب الحاضر، وإعجاز من غيب المستقبل، وفيه إعجاز علمي.

في القرآن الكريم إشارات و إيماءات عن طبيعة مستوى عصر النبي لا يمكن أن يصل إليها إلا بعد ألف عام أو أكثر، وبعد قرونٍ طويلة، وبعد مئات السنين بعد 1500 عام ظهرت حقائق العلم التي تكشف إعجاز القرآن، لذلك القرآن معجزة مستمرة، إذا كانت معجزات الأنبياء حسية فهي كعود الثقاب تألقت مرة واحدة وانطفأت، وأصبحت خبراً، يصدقه من يصدقه، ويكذبه من يكذبه، لكنّ إعجاز القرآن مستمر إلى يوم القيامة، كلما تقدم العلم كشف جانباً من إعجازه.

كل شيءٍ خلقه الله من زوجين:

(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)

(سورة الذاريات: 49)

من كل شيء، ما كان أحد يعرف أن الجماد فيه ذرات، وشحنتها موجبة تارة، وسالبة تارة أخرى، حتى الجماد تجد أنّ بين النواة وبين الكهارب تبايناً في الشحنات، هناك شحنات موجبة، وشحنات سالبة، حتى النبات، كله ذكر وأنثى، والحيوان كذلك، والإنسان كذلك:

(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)

(سورة الذاريات: 49)

الله عز وجل قال:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة يس: 40)

كل شيءٍ خلقه الله يَسْبَح في فلك، بدءاً من الذرة وانتهاء بالمجرة، نظام الكون قائم على ذرة تدور حول أخرى في مسار مغلق، هذه الدورة ينتج عنها قوة نابذة تكافئ القوى الجاذبة، ولولا ذلك لاجتمع الكون كله في كتلة واحدة، هذه آية ثانية:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)

(سورة النجم: 45 - 46)

الآن وبعد خمسة عشر قرناً أثبت العلم أنّ كون المولود ذكراً أو أنثى لا يتعلق بالبويضة إطلاقاً، يتعلق بالحوين فقط، يعني يتحدد جنس المولد من خصائص الحوين فقط:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)

(سورة النجم: 45 - 46)

القرآن الكريم إعجاز علمي و تربوي و بلاغي:

كذلك:

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)

(سورة الحج: 27)

لِمَا لمْ يقل الله عز وجل من كل فج بعيد، بل قال: من كل فج عميق ؟ لأننا نحن على كرة، وكلما ابتعدنا عن إحدى نقاطها نشأ مع المسافة بعد ثالث، عمق:

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)

(سورة الحج: 27)

لم يكنْ في عهد النبي ما يسمى بأشعة الليزر التي تقاس بها المسافات بدقة بالغة، لكنهم قاسوا البُعْدَ بين الأرض والقمر على مستوى المليمترات بأشعة الليزر، هذا طيب ومطمئن، والآن ثبت أنّ أخفض نقطة في الأرض على الإطلاق غور فلسطين والمعركة التي جرت بين الفرس والروم كانت بحسب التاريخ في غور فلسطين قال تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3))

(سورة الروم: 2 - 3)

(في أدنى)

يعني في أدنى مكان من الأرض، ما كان أحد يعرف هذه الحقيقة، إذًا إعجاز علمي، وإعجاز فلكي، وإعجاز تاريخي، و إعجاز بلاغي، وإعجاز تربوي، فلذلك:

(أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33)فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)

كل شيءٍ في الكون يحتاج إلى مُحدث:

الآن:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

طبعاً ؛ هذه الآية فسّرها علماء العقيدة ؛ أنّ هناك في الكون واجبَ الوجودِ وهو اللهُ، وممكنُ الوجود وهو الكونُ، ومستحيلُ الوجود، فأمّا ممكن الوجود فلا يمكن أن يكون إلا بمحدث، كل شيءٍ حديث يحتاج إلى محدث قديم، الشيء الذي لم يكن قديماً يحتاج إلى من يوجده:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ)

العقل لا يقبل، والفطرة تأبى:

(أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

كيف خلقوا أنفسهم ؟ يعني كانوا قبل أن يخلقوا، كذلك لا يقبل العقلُ ذلك.

عدم قبول العقل بأن الإنسان خلق نفسه:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

طبعاً هذه الآية تشير إلى واجب الوجود، وإلى ممكن الوجود، وإلى مستحيل الوجود، فوجود الإنسان كم حالة وكم افتراض يفترض لوجوده ؟ إما أنه خلق من غير شيء، وهذا يرفضه العقل لأنه شيء حادث، والحادث سبقه عدم، وكل شيء سبقه عدم يحتاج إلى محدِث، إذًا فذاك الافتراضُ مرفوضٌ:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

وإذا كان قد خلق نفسه، فهو مخلوق قبل نفسه، فكيف خُلق ؟ ثم خلق نفسه ؟! أيضاً العقل لا يقبل هذا.

عدم قدرة الإنسان على امتلاك خزائن السماء:

(أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

هل يستطيع أحد الآن في عصر الكفر، والإلحاد، والتفلت، والضلالات، هل هناك جهة في الأرض تدّعي أنّها خلقت الشمس، أو القمر ؟ لا أحد يقول هذا، من يستطيع أن يدعي أنه خلق السماوات والأرض ؟

(أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (36)أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ)

يعني إذا كانت السماء شحت بالأمطار فهل يمكن لأكبر لجنة في الأرض أنْ تعقد اجتماعاً هامًّا وتتخذ قراراً بإنزال مطر، وهو قرار موقع من الجميع، ولا يطعن فيه أحدٌ، لا تقدر، هل عند الناس خزائن السماء ؟

الله تعالى وحده المسيطر على كل شيء:

الله عز وجل سلط على الناس الآن فيروس الإيدز، العالم كله في حيرة، 17مليون إنسان مصاب بالإيدز، والسلسلة ليست هندسية بل انفجارية، والعلم يعجز عن وضع مصلٍ لهذا الفيروس، ثم اكتشفوا أن له سلالات، إذا صرفوا ألوف الملايين لوضع مصل لهذا الفيروس هناك سلالة أخرى تحتاج إلى ألوف أخرى، فلذلك على أي شيء يسيطر الإنسان، هل يملك الإنسان أن يضمن عدم اهتزاز الأرض، بسبع درجات على مقياس رختر حيث يصير كلُّ ما على الأرض أنقاضًا، مثلاً: 5 رختر، بناء 14 طابقاً صار أنقاضاً، والزلازل موجودة في الأرض، في آسيا، وأوربا، وإفريقيا، والمغرب، مدينة أغادير على الساحل الأطلسي بثوانٍ معدودة أصبحت تحت الأرض كلها، فندق من30 طابقًا، بقي منه الطابق الأخير، وكأن هذا الطابق الأخير الذي عليه اسم الفندق صار شاهدة لهذا القبر.

(أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ)

أكبر محطة بترول في بحر الشمال، قالوا عنها: إنّها مدينة، مدينة أنشئوها في البحر، مهبط طائرات، ومكاتب، حطّمها موجٌ عاتٍ، وناقلة نفط تحمل مليون طن قد يأتي موج كالجبال فيشطرها شطرين، وباخرة (تيتانيك) قالوا عنها: إن القدر لا يستطيع أن يغرقها، غرقت في أول رحلة لها، ولها قصة مثيرة جداً.

الله سبحانه بيده تصريف كل شيء:

(أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ)

الآن في المغرب يوجد جفاف كبير جداً، وجفاف قبل سنوات في أوربا، وكذلك قبل سنوات كان عندنا جفاف، وفي العالم مثلاً منطقة تموت من العطش، أين المطر ؟ ليتّخذوا قرارًا بإنزال المطر، منطقة تموت من الفيضانات:

(أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ)

تملك الرياح، إعصار واحد يدمر كل شيء هناك أعاصير في أمريكا، لا تبقي ولا تذر، لقد كان هنا مدينة ثم تحوّلت كلها إلى أنقاض، لا أشجار ولا أبنية ولا شيء بقي منها، هل نملك تحريكَ الرياح أو تسكينها ؟

هبّت عاصفة رياح واحدة قلعت 130 بيتًا زراعيًا في الساحل، عاصفة واحدة وفي وقت قصير، وأحياناً صقيع يتلف النبات كله، فهل نملك في تصريف الحرارة شيئًا ؟ قبل أعوام على الساحل بلغ سُمكُ الثلج ثمانية سنتيمترات، والدرجة 9 تحت الصفر، عند سطح البحر، إننا لا نملك أن نفعل شيئاً إزاءَ ذلك، وليس لنا سلطان لا على الحرارة، ولا على البرودة، موجة حر واحدة مات بسببها 380 شخصًا ألمّت بأمريكا قبل أسابيع، فالذي يملك الزمام والذي بيده تصريف كل ذلك هو الله سبحانه.

(أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ)

قد تأتي حشرة تقضي على كل المحصول، ذبابة أحياناً، قد تعجز كل الفئات العلمية أن تكافحها، كالذبابة البيضاء، فالإنسان ضعيف، إذا اعترف بضعفه صار قوياً.

عدم قدرة الإنسان الاستماع إلى وحي السماء:

(أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

أأنتم تفرضون هذا الوحي ؟ هل عندكم طريقة لأخذ خبر السماء من غير هذا الطريق، هل عندكم من يستمع إلى وحي السماء ؟

(فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

ادعاء العرب في الجاهلية أن الملائكة هن بنات الله:

ثم إن العرب كانت تحتقر البنات في جاهليتهم ألم يقل الله عز وجل:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9))

(سورة التكوير: 8 - 9)

فكان العرب في جاهليتهم ينسبون الملائكة، ويتوهمون أنهم بنات الله.

(أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ)

ثم إن هذه الدعوة، هل طالبَ الأنبياءُ بأجر عليها ؟ فالإنسان عند طبيب ينقد الأجر، وقد يؤدِّيه مسبقًا، كذلك عند المحامي والمهندس، ولا يجرؤ إنسان أن يدخل محلاً تجارياً أو عيادةَ طبيب، أو مكتبَ محامٍ، إلا ومعه المال المخصص لأدائه وإلاّ رُفِض، لكنه يدخل المسجد من دون رسم دخول، ومن دون رسم شهري، ومن دون رسم اشتراك، وليس على المحاضرة أجرةٌ مقابلةٌ، لا شيء من هذا أبداً.

الإسلام لا يطالب الإنسان بشيء إلا بحسن العاقبة:

(أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ)

بينما الإنسان حين يعصي الله يؤدّي الكثير من النقود، فمثلاً ليلة رأس السنة الميلادية على الشخص 1500 ليرة سورية لدخول الفندق، ولا بدّ مِن أجر باهظ ليسمع لهو الحديث، أجر باهظ بأرقام كلها خيالية، فأجرة المغني خمسون ألف دولار، وأثوابه من بلد أجنبي مثلاً، لكن الإسلام لا يطالبك بشيء من هذا إطلاقاً، وكلُّه من غير مقابل مع حُسن العاقبة.

الغيب بيد الله وحده:

(أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41))

هل مِن جهة أرضية تستطيع أن تكشف الغيب ؟ هذا الذي حصل في شرق العالم، انهيار دول عظمى، مَن كان يتنبأ بهذا ؟ والله لو تنبأ أحدٌ بهذا لأُدخل إلى مستشفى الأمراض العقلية، لكن بعد حين هذه القلعة الشامخة من قلاع الكفر أصبحت كبيت العنكبوت، من يتنبأ بهذا؟

(أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42))

الكافر في قبضة الله لا يتحرك إلا بإذنه:

الكافر لا يصنع الكيد، يقع عليه الكيد، هو موضوع الكيد ليس صانع الكيد، الله جل جلاله هو الذي يدبر، أما الإنسان يُدبّر له:

(أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ)

أي الكافر في قبضة الله، أيْ إذا أراد أن يتحرك فبإذن الله، لأنّ الله سمح له أن يتحرك، وفي أية لحظة يمكن أنْ يقعَ في قبضة الله، ولا يَلْوي على شيء.

(أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43))

سورة الطور الآية الوحيدة التي تطرح كل الشبهات و ترد عليها:

لا أعتقد أنّ في كتاب الله مجموعة آيات متتابعة تطرح كل الشبهات وترد عليها كلها مجتمعة كما جاء في هذه الآيات التي ضمّتها سورة الطور:

(فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (32) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43))

العاقل من يعدّ العدة ليوم القيامة:

(وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ)

قد يكون هذا الكسف الساقط بلاء كبير، قالوا بسذاجة: سحاب مركوم.

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

دقق نظرك في هذه الآية:

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

العاقل يتهيأ لهذا اليوم، يعد العدة له، يعد له استقامة، يعد له طاعة، يعد له إنفاقاً، يعد له شوقاً، يعد له حباً، هذا شأن العاقل، لكنّ الإنسان إذا أنغمس في الدنيا، وأعرض عن ذكر الله عز وجل حينما يأتي ملك الموت معلناً قرب أجله، يصعق !.

اهتمام الكافر بالدنيا لا ينفعه عندما يأتي ملك الموت:

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (46))

كل تدبيرهم، واهتمامهم بالدنيا، وعنايتهم بها، والعناية ببيوتهم وأعمالهم، وضبط أمورهم، وتأمين أرصدة كبيرة جداً، للمفاجآت، كل هذا الذي أعدوه لشيخوختهم لا ينفعهم شيئاً عندما يأتي ملك الموت.

(يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (46) وَإِنّ لِلّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (47))

هو عذاب في الدنيا، أجل: لهم عذاب بالدنيا، وعذاب بالآخرة.

المؤمن الحق في أعلى درجات العناية و الحفظ و التأييد:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبّكَ فَإِنّكَ بِأَعْيُنِنَا)

هذه الآية خاصة بالنبي عليه الصلاة والسلام، ولكل مؤمنٍ نصيبٌ منها على قدر إيمانه، وعلى قدر استقامته، وإخلاصه، فالله عز وجل قال لسيدنا موسى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبّةً مِنّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

(سورة طه)

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

(سورة طه)

وقال للنبي عليه الصلاة والسلام:

(فَإِنّكَ بِأَعْيُنِنَا)

يعني في أعلى درجات العناية، أعلى درجات الحفظ، والرعاية، والتأييد، والتوفيق وكل مؤمن مستقيم، محب لله عز وجل، يشعر أن الله معه، وهو في محنته، يشعر أن الله معه، ولن يخيب ظنه، ولن يسلمه لأحد، ولا يتخلى عنه.

طاعة الله ثمنها التأييد و الرعاية و الحفظ:

(فَإِنّكَ بِأَعْيُنِنَا)

قدم الطاعة فقط، وانتهى الأمر، قدم الطاعة وانتظر أن ينطبق مضمونُ هذه الآية أو بعضها عليك:

(فَإِنّكَ بِأَعْيُنِنَا)

برعايتنا هذا معنى قول الله عز وجل:

(أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ)

قال العلماء: **هذه معية خاصة**، معية بالتأييد، والنصر، والحفظ، والتوفيق:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبّكَ)

فالحكم غيرُ واضحٍ، إذْ لو كان واضحاً لمَا احتاج إلى صبر.

امتحان الله لعبودية الإنسان ليعرف صدقه و استسلامه له:

قد يجلس المريضُ على كرسي طبيب الأسنان، ويعلم علم اليقين أنّ هناك إبرة بنج، وسوف تغرز لثة أسنانه، وهناك ألم محقق، لأنه يعلم حقيقة ما سيجري، والحكمة مما يجري، لا يقال لهذا: اصبر، لكنْ يقال لإنسان: اصبر إذا كان الحكْم غيرَ واضحٍ، فاللّهُ أحياناً يمتحن عبوديتنا له بقدر غير واضح، ولأنه غير واضح تظهر عبوديتنا واستسلامنا له وصدقنا في محبته، لذلك قال سيدنا علي: الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

هذه مشيئة الله، هكذا أراد الله، هذا قرار الإله، هذا حكم الله، فالمؤمن الذي يعرف حكمة الله ويعرف أن كل أفعاله سبحانه حكيمة يصبر.

على الإنسان أن يسبح ربه بكرة و أصيلاً:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُوم (49))

يعني إذا قمت من فراشك، فسبّح بحمد ربك، وإذا قمت إلى عمل فسبّح بحمد ربك، وإذا أويت إلى الفراش فسبّح بحمد ربك:

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ)

وإذا استيقظت إلى صلاة الفجر فسبحه، يعني سبحه ليلاً ونهاراً:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُوم (49))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النجم 053 - الدرس (1-9): تفسير الآيات 1-4

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-09-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون: مع الدرس الأول من سورة النجم:

على الإنسان ألا يعبد النجم من دون الله لأنه يتلاشى يوم القيمة:

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى)

النَجم مُطْلَقُ النجمِ، ليس نجماً بعينه، هذا النجم الذي في السماء حينما يهوي، أي حينما ينزل وراء الأفق بحكم دورة الأرض حول نفسها، أو حينما يغيب، أو حينما ينتثر.

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2))

(سورة التكوير)

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (2))

(سورة الانفطار)

حينما يغيب عن الأنظار، أو حينما ينزل وراء الأفق، أو حينما ينتثر، هذا النجم لا ينبغي أن يُعبَد من دون الله لأنه يغيب، لأنه يسقط، لأنه يتلاشى يوم القيامة.

الله رب كل شيء في الكون:

المعبود ينبغي أن يكون أزلياً أبدياً، لا أول له ولا آخر له، وقد قال بعض المفسرين: **" إن النجم يقصد به نجم الشِعرَى "**. هذا النجم كان يُعبَد من دون الله في الجاهلية، لذلك قال تعالى:

(وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى)

(سورة النجم)

الشعرى ليس رباً، الله ربه، فأي شيءٍ دون الله عزّ وجل إذا عُبِدَ من دون الله فهو سيتلاشى، وسيغيب.

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً)

(سورة الأنعام)

معنى هذا أن أيٍّ شيءٍ في الكون مهما بدا لنا عظيماً فالله ربه، والفناء مآله، إذاً لا ينبغي أن يُعبَد من دون الله، هذه نقطة.

إرسال الله عز وجل الرسول الكريم لهداية الخلق:

النقطة الثانية:

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2))

الواو واو القسم، فإذا أقسم الله بالنجم فلِيُلفتَ النظر إلى عظمة هذه الآية التي تُجَسِّد أسماء الله الحسنى ؛ القوة والعلم والقدرة، هذا كلُّه يتضح من خلقه، فإذا تجاوزنا أن النجم إذا هوى أي إذا سقط، أو إذا غاب عن الأنظار، أو إذا انتثر يوم القيامة، فهذا لا ينبغي أن يُعبَد من دون الله، وكأن القرآن الكريم أشار إلى الشِعْرَى بكلمة (والنجم)، وقبل نهاية السورة قال سبحانه:

(وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى)

أما المعنى الثاني: أن هناك علاقة بين هذا الرسول الكريم الذي جاءكم بهذا الكتاب الكريم، وبين خالق السماوات والأرض الذي خلق النجم حينما يهوي هو الذي أرسل هذا الرسول، شرفُ الرسالة من شرف المرسِل.

رسول الله الذي بعثه الله للعالمين ينبغي ألا تتهموه بالضلال أو الغواية:

أنت أحياناً تقرأ آلاف الكتب، مئات الكتب لكيلا أبالغ فكل هذه الكتب من تأليف البشر، لكن هذا القرآن له شأنٌ آخر، هذا كلام خالق البشر، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، شتَّانَ بين من يقرأ كلام البشر وبين من يقرأ كلام خالق البشر، فالذي خلق الكون كامل، ومن لوازم كماله أن يبيّن، أن يرسِل، أن ينزّل الكتاب، فإرساله للرسل، وإنزاله للكتب دليل رحمته، ودليل حرصه على هداية خلقه، ودليل إرادته أن يسعدهم في الدنيا والآخرة.

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2))

هذا الذي أمامكم هو رسولي، والذي بين يديه كتابي، فينبغي أن تصغوا إليه وأن تقرؤوا كلامي، لا ينبغي أن تتهموه بالضلال، ولا بالغواية.

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى: آية لها عدة معان:

1 ـ الشيء مهما كان عظيماً لا ينبغي أن يُعبَدَ من دون الله:

المعنى الأول: أنّ شيئاً مهما كان عظيماً لا ينبغي أن يُعبَدَ من دون الله، المعبود ينبغي أن يكون باقياً على الدوام، هو الحيُّ الباقي، ليس من شأن الفاني أن يُعبَد، إنك إن ربطت مصيرك به فحينما يفنى، وحينما يغيب أين أنت إذاً ؟ ومن معبودك إذا اضمحلّ أو غاب ؟

2 ـ النجم آية من آيات الله الدالة على عظمته ينبغي ألا يعبد:

المعنى الثاني:

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى)

آيةٌ من آياته الدالة على عظمته، قد ترى نجماً بعيداً صغيراً، هذا النجم قد يتّسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، والشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرّة، وبين الشمس والأرض مئة وستةٌ وخمسون مليون كيلو متر، وهذا نجم العقرب (قلب العقرب). النجم الصغير الأحمر المتألِّق يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، هذه النجوم بعضها يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، بعضها كنجم القطب يبعد عنّا أربعة آلاف سنة ضوئية، بعضها مليون سنة ضوئية، وبعضها يبعد أربعة وعشرين ألف مليون سنة ضوئية.

لفت الله عز وجل أنظار الناس إلى آياته الدالة على قدرته:

المعنى الأول: لا ينبغي لشيءٍ في الكون مهما بدا لكم عظيماً أن يُعبَد لأن مصيره إلى الفناء، المعبود الحق هو الحيُّ الباقي على الدوام.

المعنى الثاني: أن النجم آية من آيات الله، فالواو واو القسم ؛ إذا أقسم سبحانه فبالنسبة إلينا، وإن لم يقسِم فبالنسبة إليه.

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

(سورة الواقعة)

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ(18))

(سورة التكوير)

إن لم يقسم فبالنسبة إليه، وإن أقسم فبالنسبة إلينا، وإن أقسم يخرج هذا القسم عن معناه الأصلي إلى معنىً آخر، هو أن الله سبحانه وتعالى يلفت نظرنا إلى آياته التي يمكن أن تكون دليلاً على عظمته، ودليلاً على قدرته، وعلى علمه، وعلى رحمته.

معرفة قريش لصدق النبي الكريم و أمانته:

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ)

لماذا قال صاحبكم ؟ أي لأنكم تعرفونه، تعرفون صدقه، وتعرفون أمانته، وتعرفونه أنه ما كذب قط في حياته، قالوا: ما جرّبنا عليه كذباً قط، أجل: تعرفون نسبه، وتعرفون صدقه، وتعرفون أمانته، وتعرفون عفافه، وهكذا قال سيدنا جعفر بن أبي طالب، قال:

((كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ))

(أحمد عن أم سلمة)

تعرفونه، هو بين أظهركم، نشأ بينكم، ما جرّبتم عليه كذباً قط، ما وجدتم منه فاحشة ولا زلّة قدمٍ، هذا صاحبكم تعرفونه ما ضلّ وما غوى، ما ضلّ عقله ولا انحرف سلوكه، وفي هذا تعريضٌ بقريش، أي أنتم ضللتم وغويتم، أنتم ضللتم وانحرفتم، أنتم ضللتم واعتديتم، هو ما ضلّ وما غوى.

الإنسان إذا سار على منهج الله لا يضل عقله:

تعلمون أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

أيْ أنت عقلٌ يدرك، وقلبٌ يحبّ، فإذا سرت على منهج الله لا يضل عقلك، ولا تشقى نفسك بانحرافك.

نعمة العلم أعظم نعمةٍ لأنها تؤدي إلى الصلاح:

أولى ثمار الإيمان إخوانا الكرام أن يستنير عقلك، المؤمن يتمتّع بنعمة لا يعلمها إلا الله، ما هذه النعمة؟ أن الأمور واضحة في ذهنه، يعرف سرّ وجوده، يعرف غاية وجوده، يعرف حقيقة الدنيا، يعرف

الحلال والحرام، يعرف الحقّ من الباطل، يعرف ما ينبغي وما لا ينبغي، يعرف الحكمة من كل شيء، نعمة العلم لا تعدلها نعمة، رتبة العلم أعلى الرُتب، أن تعرف: لماذا أنت في الدنيا ؟ وأن تعرف أثمن ما فيها.

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً)

(سورة الكهف)

العمل الصالح أثمن شيء في الحياة الدنيا:

أن تعرف أن العمل الصالح هو أثمن شيءٍ في الدنيا، نعمة العلم أعظم نعمةٍ على الإطلاق لأنها تؤدِّي إلى عبادة الله حقّا وإلى التقوى والصلاح.

((اغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخامسة فتهلك))

(رواه الطبراني عن أبي بكرة)

((اغْدُ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا وَلَا خَيْرَ فِيمَا سِوَاهُمَا))

(أخرجه الدارمي عن عبد الله بن مسعود)

يقول سيدنا علي كرَّم الله وجهه: **الناس ثلاثة ؛ عالمٌ ربّاني، ومتعلمٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ رعاع أتباع كل ناعق لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركنٍ وثيق،** فاحذر يا كميل أن تكون منهم:

((اغْدُ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا وَلَا خَيْرَ فِيمَا سِوَاهُمَا))

لا يؤكِّد في الإنسان إنسانيته إلا طلب العلم، لا يرفعك عند الله إلا العلم.

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة: آية " 11 ")

ثمرات الإيمان هي:

إنارة العقل و سعادة النفس:

أيُّ حظٍّ من حظوظ الدنيا الذي يعظِّمه الناس لا قيمة له عند الله، فالله جلّ جلاله في كتابه الكريم لم يعتمد أية قيمةٍ من قيم الناس، لا قيمة المال، ولا قيمة الذكاء، ولا قيمة القوّة، ولا قيمة الجمال، لم يعتمد إلا قيمة العلم والعمل.

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة: آية 19)

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأحقاف: آية " 19 ")

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)

(سورة التوبة: آية " 105 ")

أيها الإخوة الكرام: أولى ثمار الإيمان أن يستنير عقلك وأن تسعد نفسك.

ضلال عقل الإنسان من أكبر مساوئ البعد عن الله:

أكبر مساوئ البعد عن الله أن يضلّ عقلك، وأن تشقى نفسك.

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

الإنسان إذا تصوّر تصوُراً خاطئاً وسار في طريقٍ مسدود، ثم اكتشف الحقيقة بعد فوات الأوان أنه كان مخطئاً، فماذا يحصل له ؟ حدّثني أخ كان في فرنسا، رجل من وجهاء الشعب الفرنسي، شغِل منصب رئيس وزراء سابقاً، من أرقى الأسَر، غني، انتحر وهو في السبعين من عمره، وحار الصحفيون في تحليل انتحاره، صحفي واحدٌ اهتدى ولعلّه أصاب، بأنه اعتنق مبدأ لا أصل له سبعين عاماً، فلّما اكتشف أن هذا المبدأ باطل، وأنه لا أصل له، وأنه قائمٌ على أوهامٍ لا على حقائق احتقر نفسه، وأنت لو طلبت العلم الصحيح لن تجد عندك مفاجأة إطلاقاً في حياتك، لن تأتي الأيام بمفاجأةٍ تنقض ما اعتقدته، مُضِيُّ الأيام لا يزيدك إلا يقيناً، كل الحوادث تؤكِّد صحّة ما تعتقد، إن كان اعتقادك نابعاً من كلام الله وسنَّة رسول الله، هذا كلام الله عزّ وجل، أنت حينما تقرأ القرآن، وحينما تأخذ منه عقيدتك، وحينما تأخذ منه منهجك فأنت تأخذ من الجهة الصانعة، من الجهة الخبيرة، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

تعريض الله عز وجل بقريش بأنهم هم من غووا و ضلوا:

لذلك:

(مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى)

فكأن الله سبحانه وتعالى يعرّض بقريش ؛ أنتم الذين ضللتم، أنتم الذين غويتم، أنتم الذين جهلتم، أنتم الذين انحرفتم، أنتم الذين شقيتم.

(مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى)

تعريضٌ بقريش بضلالها وبغوايتها، وانحرافها وعدوانها، نبيٌّ كريم عقله مستنير، ونفسه صافيةٌ سعيدةٌ بلقاء الله عزّ وجل، أكبر نعمةٍ على الإطلاق أن يكون عقلك مستنيراً بالحق، وأن تكون نفسك مطمئنّةٌ بصلتها بالله عزّ وجل، كلام طيّب، فالإنسان عقل وقلب، العقل يدرك والقلب يطمئن، قال تعالى:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد)

لحظة الموت أسعد لحظات المؤمن:

هل هناك من شعور يفوق شعور المؤمن بأن الله راضٍ عنه ؟ وأن الله يحبُّه ؟ وأنه على الطريق السوي ؟ وأن الطريق ينتهي بجنّةٍ عرضها السماوات والأرض ؟ وأن مضي الزمن لصالحه ؟ وأن خطّه البياني صاعدٌ صعوداً مستمرّاً ؟ وأن الموت عرس المؤمن ؟ وأن لحظة الموت أسعد لحظات المؤمن ؟ هذا الموت عند الناس أكبر مصيبة، يقولون لك: مسكين ؛ إنه مات، لا، ليس مسكين إذا كان مؤمناً، النبي رأى جنازة فقال:

((مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ...))

(متفق عليه عن أبي قتادة الأنصاري)

عام دراسي مثقل بالمتاعب والدراسة، والتحضير والتأليف، والمذاكرات الشفهية والتحريرية، والوظائف والدوام المرهق، والساعات الطويلة إلى أن أدّى الامتحان فنال الدرجة الأولى فاستحقّ أعلى درجة تكريم، ساعة الامتحان ساعة سعادة، ورد في الحديث الصحيح:

((تحفة المؤمن الموت))

(أخرجه الطبراني، وأبو نعيم، والحاكم، والبيهقي، عن ابن عمر)

والموت عُرْسُ المؤمن الإنسان أحياناً يسعى ثلاثين عاماً من أجل أنْ يشتري بيتًا، ويخطب ويتزوج، فيوم عرسه بحسب مفاهيم الناس أجمل أيام حياته، أما المؤمن عرسه ساعة لقاء الله عزّ وجل، بكت ابنة سيدنا بلال وقالت: **"واكربتاه يا أبت** (وهو على فراش الموت)، قال: **لا كربَ على أبيك بعد اليوم غداً نلقى الأحبّة محمداً وصحبه "**، شتّان بين من يرى الموت أكبر مصيبة، وبين من يرى الموت أنه ساعة اللقاء بالله عز وجل، ولقاء الأحبة في رحاب رحمة الله.

فرح المؤمن و ندم الكافر عند الموت:

أيها الإخوة: لو قرأتم سِيَرَ صحابة رسول الله، فهي سير مختلفة، ومواقف مختلفة متباينة، لكنّ فيها موقفاً متشابهاً: كان أصحاب النبي يرون أسعد لحظات حياتهم وهم على فراش الموت، سيدنا رسول الله تفقّد أحد أصحابه فلم يجده فقال:

((ابحثوا عنه في أرض المعركة))

ذهبوا إلى هناك، فرأوه بَيْنَ (اسمه سعد بن الربيع)، قيل له: يا سعد أمرنا رسول الله أن نتفقّد شأنك، هل أنت بين الأحياء أم بين الأموات ؟ أيْ أنت ما وضعك ؟ قال: بين الأموات (انتهيت) ولكن بلغوا عني رسول الله: جزاك الله عنّا خير ما جزى نبياً عن أمّتهٍ، أي أنه مُمْتَن برسول الله الذي دَلّه على الله حتى عَرَفَهُ، وبلِّغ أصحابه أنه لا عذر لكم إذا خُلِصَ إلى نبيُّكم وفيكم عينٌ تطرف، أي يعني إذا العدو وصل إلى النبي وبقي منكم واحد لا عذر له.

(مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى)

أنت مؤمن، أنت عرفت الله، عقلك مستنير، عرفت سرّ الكون، هذا الكون خُلِق لتعرف الله من خلاله، عرفت سرّ الحياة إنها إعدادٌ لسعادةٍ أبدية، لحياةٍ أبدية، والدليل أنّ الإنسان عند الموت يقول:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26))

(سورة الفجر)

على المؤمن أن يطمئن قلبه بذكر الله:

أيها الإخوة: كلمة:

(مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى)

أكرّر أنّ هذا تعريضٌ بأهل الكفر، أي أنتم ضللتم، وأنتم غويتم، وانحرفتم، واعتديتم، وظلمتم، لكن هذا النبي الكريم ما تكلّم كلمةً باطلة، ما ضلّ أبداً، ولا زل، ولا اختل، ولا غوى، ولا انحرف، وصاحبكم تعرفونه، ما الحكمةُ في أنّ النبي ولد في قريش ؟ لو جاء من الشام لا يعرفون ماضيه، يشكّون، بل إنه تربّى بينكم، ونشأ بين ظهرانيكم، فرأيتم صدقه وأمانته وعفافه، وعرفتم نسبه، حينما هاجر النبي عليه الصلاة والسلام من مكّة إلى المدينة، فالكفّار المشركون كانت أماناتهم وأموالهم ودائعَ عند النبي لأنهم يثقون به، لذلك أبقى سيدنا علياً كرّم الله وجهه ليردّ الودائع إلى أصحابها.

(مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى)

المعنى المعاكس (والمعنى المخالف) هو: أي أنتم أيها المؤمنون ينبغي أن تستنير عقولكم وأن تطمئنّ قلوبكم.

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد)

من خصائص المؤمن قول الحق:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

أيضاً في هذه الآية تعريضٌ بالكفّار، أنتم إذا تكلّمتم تكلّمتم بأهوائكم، لو أنّ الإنسان راقب نفسه (طبعاً الإنسان غير المنضبط، غير الملتزم، المتفلِّت) تسعة أعشار كلامه غير موضوعي، يتكلم عن هوى، يتكلّم كلاماً لمصلحته، إذا كانت البضاعة بضاعته يُثْني عليها ثناءً لا حدود له، أما إذا كانت بضاعة جاره فيسكت ولا يتكلّم ولو كلمة، ولكنه يحوقل إشارة إلى أنها كأنها لا تعجبه، هذا شأنه ينطق عن هوى، ويسكت عن هوى، والإنسان قد يتكلّم لصالحه، يمدح ما عنده، يذم ما عند غيره، يُحسِّن الشيء إذا كان يملكه، يُبَخِّس الشيء الذي لا يملكه، فتسعة أعشار كلام الناس كلامٌ غير موضوعي، غير حقيقي، ليس فيه دقّة ولا فيه إنصاف، أما النبي:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

حقّا إنّ الإنسان غير المؤمن ينطق عن الهوى، تجد أن الناس في زماننا كفروا بالكلمة، لماذا ؟ لا توجد كلمة صادقة، كل الكلام ينطلق من مصالح ويتّجه نحو مصالح، فالموضوعية شبه نادرة بين الناس، فقل الحقّ ولو كان مرّاً، وقل الحقّ ولو كنت أنت المعنيّ به، وهذا شيء من خصائص المؤمن، إنه يتكلّم الحقيقة.

عدل و حكمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

كان سيدنا عمر بين أصحابه، فأحد أصحابه تكلّم ولا أدري لماذا قال هذا الكلام، نظر إلى عمر، فقال: **" والله يا أمير المؤمنين ما رأينا أفضل منك بعد رسول الله "** وظنّ أنه قال صواباً، فنظر عمر إليه وأحدّ فيه البصر فارتبك وتكهرب الجو، إلى أن قال أحدهم: لا والله يا أمير المؤمنين لقد رأينا خيراً منك، قال: ومن هو ؟ قال: الصدّيق، فقال سيدنا عمر: **لقد صدق هذا وكذبتم جميعاً** (عدّ سكوتهم كذباً)، قال سيدنا عمر: **والله كنت أضلّ من بعيري وكان أبو بكرٍ أطيب من ريح المسك ".**

يوم كنت أضل من بعيري كان أبو بكر أطيب من ريح المسك كلام موضوعي، لم يتكلّم عن الهوى، أراد القائل لنفسه الرفعة فأثنى عليه، قال له: **" ما رأينا رجلاً أفضل منك بعد رسول الله** (إنه كلام طيّب يرفع شأنه) فقال لهم: **كذبتم جميعاً، لكن هذا الذي قال: لا والله لقد رأينا من هو خيرٌ منك، قال: كذبتم جميعاً وصدق، والله كنت أضلّ من بعيري وكان أبو بكرٍ أطيب من ريح المسك.**

صعِد المنبر ليخطب أول خطبةٍ بعد تولّيه الخلاقة، وقف على الدرجة العُليا ثم نزل درجة، تعجّب أصحابه !! قال: **"ما كان الله ليراني أن أرى نفسي في مقام أبي بكر ".** هذه الدرجة لأبي بكر وأنا أنزل درجة، لكن سيدنا عثمان ما نزل درجة ولحكمةٍ أرادها، فأحد خلفاء بني أمية سأل وزيره قال له: **" لمَ لم ينزل عثمان درجة ؟ قال: والله لو فعلها لكنت في قعر بئر ".** فمن غير المعقول أنّ كل واحد ينزل درجة، لاحتجنا إذاً أن نحفر الأرض، سيدنا عمر نزل درجة تواضعاً وإعلاءً لمقام سيدنا الصديق، وسيدنا عثمان لم ينزل لأنه لو فعل لكانت سنّة ولانتهت هذه السنّة إلى أعماق الأرض.

شدة و رحمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

سيدنا عمر هاب الناس شدّته، فقال: **"كنت مع رسول الله خادمه وجلوازَه وسيفه المسلول، فكان يغمدني إذا شاء، وتوفي عني وهو عني راضٍ، الحمد لله على هذا كثيراً وأنا به أسعد (أنا أسعد الناس أن النبي توفي وهو عني راض). ثم كنت خادم أبي بكر وجلوازه وسيفه المسلول، فكان يغمدني إذا شاء (كنت قوة بيده) "**، عندما توفي رسول الله عليه الصلاة والسلام قال سيدنا الصديق لسيدنا عمر: **" يا عمر مدّ يدك لأبايعك، قال: معاذ الله أنت أفضل مني، فقال له: أنت أقوى مني، فقال له: قوتي إلى فضلك "**، أنا خادم لك، أنت صاحب الفضل وأنا وإن كنت كما قلت: إنني قوي ؛ فقوتي لك.

قال: **" وكنت خادم الصديق وجلوازه وسيفه المسلول، فكان يغمدني إذا شاء، وتوفي وهو عني راضٍ والحمد لله وأنا به أسعد، ثم صارت الأمور إليّ، واعلموا أيها الناس أن تلك الشدّة قد أُضعِفت، أنا عندما كنت شديداً كان سيدنا رسول الله رحيماً، تجتمع رحمته مع شدّتي فيتعادلان، لما كنت شديداً كان الصديق حليماً، أما الآن آلت الأمور إلي فاعلموا أن تلك الشدّة قد أُضعِفت وإنما تكون على أهل البغي والعدوان، أما أهل التقوى والعفاف فإنني أضع خدّي لهم ليطئوه، ثم قال: أيها الناس خذوا عني خمس خصال خذوني بهن (أيْ حاسبوني عليهن) لن آخذ من أموالهم شيئاً إلا بحقِّه، ولن أنفقه إلا بحقِّه، ولن أجمِّركم في البعوث (أيْ في الجهاد) ولكم عليّ أن أزيد عطاياكم إن شاء الله تعالى، فإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا.**

قال له سيدنا أبو ذر: **" إن الناس خافوا شدّتك، قال: والله يا أبا ذر لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه، ولكن هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى ".**

المؤمن الصادق لا ينطق عن الهوى:

كان مرّةً مع سيدنا عبد الرحمن بن عوف في المدينة يجوبان طرقها فرأيا قافلة قد استراحت في ظاهر المدينة، فقال: **"تعالَ نحرسها، ولم يلبث أنْ سمع بكاء طفلٍ، فذهب عمرٌ إلى أمه وقال: أرضعيه، فأرضعته، ثم بكى فقال: أرضعيه، فأرضعته، ثم بكى فقال لها: أرضعيه يا أمة السوء، قالت: وما شأنك بنا ؟ إنني أفطمه، قال: ولمَ ؟ قالت: لأن عمر لا يعطينا العطاء إلاّ بعد الفطام، فأمسك بيده وضرب رأسه وقال: كم قتلت من أطفال المسلمين يا عمر، ثم صلى صلاة الفجر ولم يستطع أصحابه أن يستمعوا إلى قراءته من شدّة بكائه، ودعا وقال: ربي هل قبلت توبتي ؟ ".**

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

لقد وقفت عند هذه الآية طويلاً، حياتنا كلها تفيض بالكلام الجزاف يومياً ؛ في البيع والشراء، واللقاءات والزيارات، قد تمدح إنساناً فتجعله ولياً، وإذا أساء إليك تجعله في الحضيض، لا الكلام الأول صحيح ولا الثاني صحيح، فليس هناك إنصاف، المؤمن الصادق لا ينطق عن الهوى إنه موضوعي.

على الإنسان إنصاف الآخرين و لو كانوا خصومه:

سيدنا رسول الله رأى صِهرَه بين الأسرى، ما معنى أن يرى النبي صهره بين الأسرى ؟ أي أنه جاء يحارب النبي، ولو تمكّن لقتله، رآه بين الأسرى فنظر إليه وقال عليه الصلاة والسلام:

((والله ما ذممناه صهراً))

هذا صهر ممتاز، ما هذه الموضوعية ؟! الآن إذا الإنسان خطب ولسبب أو لآخر لم تتم الخطبة، تجد الأسرتين يتكلّمون على بعضهم كلاماً ما أنزل الله به من سلطان، فكلّ تكيل التهم للأخرى من غير إنصاف، والنبي قال:

((أحْبِبْ حبيبَك هَوْنا مّا، عسى أن يكونَ بَغِيضَكَ يوماً مّا، وأبْغِضْ بغيضَكَ هَوْنا مَا عسى أن يكونَ حبيبَك يوماً ما))

(أخرجه الترمذي عن أبي هريرة)

أنصف، قل الحقّ ولو كان مُرّاً، قل الحق ولو كان على نفسك، فالله عزّ وجل قال:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا)

(سورة المائدة: آية " 8 ")

أخطر شي ء على الإنسان الشرك الخفي:

عندك إمكانية أن تنصف عدوك، لك في العائلة خصم وورد ذكره في مجلس، وأنت تعرفه مُتقناً لعمله، تعرفه صادقاً في كلامه، وعندك جرأة أن تتحدّث بموضوعية عن صفاته النبيلة فافعل وزد عنه، فهذا المؤمن، أما لم تكن لنا مصلحه ذممناه، وإن كانت لنا مصلحة مدحناه، فهذا الإنسان ليس له قيمة عند الله عزّ وجل، وغير موضوعي ينطق عن الهوى، النبي الكريم قال:

((الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحبّ على جور وأن تبغض على عدل))

أي أن تحبّ شخصاً منحرفاً لأن لك مصلحة معه، فهذا شرك بالله، إنسان آخر نصحك نصيحة بأدب، ومعه الدليل، هذه الآية وهذا الحديث، ثم قال: هذا العمل غلط يا أخي، أنت أخ كريم ومؤمن، فإن تألّمت من كلامه، فلمجرّد أنك تألّمت من نصيحةٍ مخلصةٍ عادلةٍ فأنت مشرك، طبعاً شرك ليس جلياً ولكنّه خفي:

((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي))

(رواه البزار عن أبي صالح)

الإنسان من دون إيمان عبد لمصالحه:

لذلك:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

هل تستطيع أن تعاهد نفسك على ألاّ تتكلّم كلمة إلا أن تكون حقّا ؟ فالنبي قال: عامل الناس كما تحبُّ أن يعاملوك.

هل تستطيع أن تعامل زوجة ابنك كما تعامل ابنتك ؟ إذا كنت مؤمناً هكذا يجب أن تعاملها، لكن الابنة مهما أخطأت تتلقّى خطأها بصبر وحلم وطول بال، وإذا أخطأت زوجة ابنك خطأ صغيراً تقيم عليها النكير، هل هذا هو الإنصاف ؟ هل تعامل الذي في محلِّك التجاري في سنّ ابنك كما تعامل ابنك ؟

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

هذه آية دقيقة جداً، قبل أن تنطق فكِّر مليّاً، هل ستقول الحق أم الباطل ؟ هل تبالغ ؟ هل تقلل من شأنه لأنه خصم ؟ هل تكبّر في حجمه لأنه محبٌ لك ؟ لأنه يمدحك، يعطيك، الإنسان من دون إيمان عبد مصالحه، فالجهة التي فيها مصلحته يضخِّم ويمدح ويثني، الجهة التي ليس له فيها مصلحة يصغِّر من شأنها، هذا كلّه صادر عن الهوى ولا قيمة له.

الحق عظيم من دون تضخيم والباطل أحقر من أن تصغِّره:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

هل من الممكن أن تتكلّم كلاماً صحيحاً وأنت متهم ؟ إذا كنت متلبّساً بمعصية وسألك شخص ما حكم هذا الشيء فماذا تقول له ؟ هل تحاول أن تبرّر وتسوغ ؟ لا، يجب أن تقول: هذا الحكم هكذا وأنا مقصّر، لا تبرّر، لا تغطِ، لا تجُرّ الحق لصالحك، الحق أكبر وأعظم أن تكذب له، أكبر وأعظم من أن تكذب عليه، لا تكذب له ولا تكذب عليه، الحق أكبر من أن يحتاج إلى تضخيم، فهو عظيم من دون تضخيم، والباطل أحقر من أن تصغِّره، صوِّرْه بحجمه لأنه صغير.

(إنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

(سورة الإسراء)

أي كن موضوعياً، لا تبالغ، لا تقلل، لا تطمس، لا تبرز، لا تعتِّم، تكلّم بالحق وقل الحقّ فالحقُ قويٌّ، والحقُ لا يحتاج أن تكذب له، ولا أن تكذب عليه، ولا أن تُضَخِّمه، ولا أن تقلل خصمه، فخصمُه قليل ضئيل زاهق، خصمُه الباطل:

(إنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

و:

(الْحَقّ أَحَقّ أَنْ يُتّبَعَ)

(سورة يونس: آية " 35 ")

عامل الناس كما تحب أن يعاملوك:

لقد وقفت عند هذه الكلمة:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

راقب نفسك، ضمن البيت إذا أخطأت فاعترف بخطئك، فكما تريد أن يعترف الطرف الآخر بخطئه اعترف بخطئك، والحقيقة أنّ هناك مقياساً دقيقاً جداً، وهذا المقياس ميزان لا يخطئ وهو عامل الناس كما تحب أن يعاملوك دائماً: فاعكس الصورة، أنت وراء الطاولة (موظّف) وأمامك مراجع فاعكس الحالة، لو كنتَ مكانه ما الذي يرضيك أن تُعامل به ؟ أنت عندك زوجة ابن في البيت، لو أن ابنتك في بيتٍ آخر كم تتمنى أن تُعامل بالإحسان واللطف والعطف، عامل الناس كما تحب أن يعاملوك، من أجل أن تكون موضوعياً.

النبي الكريم معصوم في أفعاله و أقواله و إقراره:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(هو)

تَعُودُ على مَن ؟ قال: تعود على القرآن في بعض التفاسير، وعلى نطق النبي في بعض التفاسير، إذا أعدنا

(إن هو)

على نطق النبي يعدُّ كلام النبي وَحْيَاً، لذلك علماء الأصول يقولون: **" الوحي وحيان وحيٌ متلوٌ ووحيٌ غير متلوٍّ، الكتاب والسنّة "** الكتاب حقّ كله، والسنّة حقّ كلها، لكن الكتاب قطعي الثبوت كله، أما السُنَّة بعضها قطعي الثبوت وبعضها ظنّي الثبوت، أي هناك حديث ضعيف، وهناك حديث موضوع، أما السنّة الصحيحة فكأنها وحيٌ إلهي.

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

إن أعدنا

(هو)

إلى القرآن فالقرآن وحيّ يوحى، إن أعدنا

(هو)

إلى نطق النبي فإن نطقه وحيٌ يوحى، لكن الشيء الثابت أن النبي معصوم في أقواله، وفي أفعاله، وفي إقراره، وفي صفاته، لأن الله أمرنا أن نتبعه، لو لم يكن معصوماً لكان أمرُ الله لنا أمرٌ بالمعصية، لذلك قال له أحد أصحابه: **" أنكتب عنك يا رسول الله في غضبك ؟ "** قال:

((والذي نفسي بيده هذا اللسان لا ينطق إلا بالحق في الغضب والرضا))

أناسٌ كثيرون في حالة الغضب ينطقون بالباطل، يبالغون، يتهجّمون، يسيئون، لكنّ النبي عليه الصلاة والسلام معصومٌ في كل أقواله، وفي كل أفعاله، وفي إقراره، وفي صفاته.

نزول الوحي على النبي الكريم و هو في أعلى درجات اليقظة:

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ)

فما معنى كلمة:

(يُوحَى)

أحياناً الكلمات لها مجاز، أي أنّ الوحي فعلاً وحيٌ حقّاً ؟ قال:

(وَحْيٌ يُوحَى)

مثلاً هذا طعام، أكلٌ يؤكل، هذا كتاب، كتابٌ يُدْرَس، كلمة يوحى تفيد دفع توهُّم المجاز، وحي حقيقي، لذلك عندما جاء الوحيُ إلى النبي صلى الله عليه وسلّم، فإنّ جبريل ضمّه ضمّةً اختلفت معها أضلاعه، لماذا ؟ أيْ أنّ هذا الوحي لم يجئه في الرؤيا وهو نائم، لا بل جاءه يقظة وإنه ضمّه ضمّةً اختلفت معها أضلاعه ثم أرسله، ثم ضمّه، ثم أرسله، ثم ضمّه وقال: اقرأ، قال: **ما أنا بقارئ ؟ قال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ ؟ قال:**

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2))

(سورة العلق)

إذًا فالوحي جاءه وهو صاحٍ، في أعلى درجات اليقظة، وهذه الضَمّة حكمتها أنه كان يقظاً وكان صاحياً بكامل وعيه.

الوحي كيان مستقلّ عن كيان النبي:

فالقضية:

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

والدليل أنّ الوحي انقطع فترة عن النبي الكريم ثم نزل قولُه تعالى:

(وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3))

(سورة الضحى)

فالنبي ظنّ أن الله قد ودّعه وقلاه، فقال له: لا.

(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)

لكن تأخُّر الوحي له معنى عميق جداً، لو كان الوحي كما يتوهّمٌ المتوهمون من فعل النبي لما انقطع أبداً، الوحي كيان مستقلّ عن كيان النبي، لا يملك له جلباً ولا دفعاً.

دين الإسلام أساسه الوحي من الله تعالى:

لمّا قال المرجفون في المدينة ما قالوا عن السيدة عائشة، واتهموها، وافتروا عليها، انقطع الوحي شهراً، فماذا يفعل النبي ؟ إنه لا حيلة له، ولو كان الوحي ادِّعاءً من عند النبي لأتت بعد ثانية آيةٌ بتبرئتها، لكنه بقي ثلاثين يوماً وقيل: أربعين يوماً، والنبيُّ لا يملك دليلَ إثباتٍ ولا دليلَ نفيٍ، لماذا تأخّر الوحي ؟ ليعرف الناس قاطبة أن الوحي لا يملكه النبي أبداً، الوحي مستقلّ عن النبي لا يملك جلبه ولا دفعه.

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

ديننا أساسه الوحي، إذاً نقف عند قوله تعالى:

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

الوحي أصل من أصول الدين و السنة فرع له:

إخوانا الكرام: يجب أن نعلم علم اليقين أن هذا الدين العظيم في الأصل هو وحي، الدين نقل، والعقل لفهم النقل، الركن الركين أنّ الله جلّ جلاله أنزل هذا القرآن، والنبي بيّن هذا الدين، الله أنزل والنبي بيّن، ونحن دورنا دور التلقي فقط، إنما أن متبع ولست بمبتدع.

عقلنا لا ينبغي أن يشرّع، عقلنا يفهم، العقل يتأكّد من صحّة النقل ويفهم فقط، ولذلك فالوحي يُعدُّ أصلاً من أصول هذا الدين، الوحي أصل، والسنّة فرع له، السنّة وحي غير متلو، القرآن وحي متلو، قال عليه الصلاة و السلام:

((تركت فيكم شيئين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي))

(أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة)

على الإنسان أن يرد أي خلاف إلى القرآن و السنة:

لذلك فالله عزّ وجل قال:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

أي بينكم وبين أمرائكم، أو بينكم وبين علمائكم.

(فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

(سورة النساء: آية " 59 ")

أيْ إلى القرآن وإلى السُنّة، والله عزّ وجل قال:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: آية " 33 ")

ومعنى:

(وأنت فيهم)

أيْ أن سنّتك في حياتهم مطبّقة، ما داموا مطبقين لمنهج الله عزّ وجل فهم في بحبوحةٍ من أن يُعذّبوا.

على الإنسان أن يكون موضوعياً في كل أمر:

وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى نتابع تفسير الآيات التالية:

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى(11))

لكننا الآن لا بدّ من العودة إلى مطلع السورة لاستخلاص العبرة منها:

و التطبيق العملي لهذه الآية: احرص على ألاّ تنطق بالهوى، بل قل الحقيقة، قل الحق ولو كان مُرّاً، الحق يرفعك، والكذب يرديك ويهوي بك، لا تمدح شيئاً بما ليس فيه، كن موضوعياً، العلم الوصف المطابق للواقع مع الدليل، لا ينهضُنا إلا الموضوعية، لا يخلِّصنا مما نحن فيه إلا الصدق، لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام كل كلمةٍ قالها كانت حقّاً، لا مجال لا إلى التضخيم ولا إلى التقليل، كن موضوعياً تكن مُطَبِّقاً لهذه الكلمة، وكن منصفاً أبداً، ولو كنت في خصومة مع غيرك.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النجم 053 - الدرس (2-9): تفسير الآيات 5-18
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-09-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون: مع الدرس الثاني من سورة النجم، ومع الآية الخامسة:

الأمية في حق النبي الكريم كمال له:

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5))

(سورة النجم)

أيْ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أميٌّ، والأمية في حقه كمال، وفي حقنا نقص، أميٌّ حُجزَ عن ثقافة عصره، لم يطِلع على ثقافة عصره ؛ كانت هناك ثقافة إغريقية، وثقافة يونانية، حُجب عن ثقافة عصره كي يكون كلامه كله وحياً من الله عزّ وجل، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام لو اطّلع على ثقافة عصره، وتكلم بعد نزول الوحي لكان هناك سؤالٌ يلقى عليه كل دقيقة: هل هذا الكلام من ثقافتك أم من وحي السماء ؟ فالكمال في حقه صلى الله عليه وسلم أن يحجز عن ثقافة عصره فجعله الله أمياً..

(مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ)

(سورة الشورى: آية " 52 ")

تعلم النبي الكريم عن طريق جبريل الذي علّمه الله:

الآية الكريمة: ما الذي حل محل أميته ؟ أن الله جلّ جلاله عن طريق جبريل علّمه.

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

المفسرون على مذاهب في تفسير هذه الآية، بعضهم قال: علّمه جبريل، ومَن علّم جبريل ؟ الله جلّ جلاله، وبعضهم قال: علّمه الله جلّ جلاله.

(شَدِيدُ الْقُوَى)

عند بعض المفسرين الله جلّ جلاله، وعند جمهور المفسرين جبريل عليه السلام، لكنّ الله علّمه عن طريق جبريل، بهذا الكلام نجمع بين التفاسير كلها.

العلم الذي تعلمه النبي الكريم علم محكم لا خلل فيه:

(عَلّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرّةٍ فاسْتَوَى (6))

(ذُو مِرّةٍ)

أي ذو إحكامٍ، أيْ أنّ العلم الذي تعلّمه النبي صلى الله عليه وسلم علمٌ مُحْكَم، العلم المحكم لا خلل فيه، لا تناقض، لا اضطراب، لا ضعف، لا ضعف في المعالجة، لا ضعف في التفسير، لا ضعف في التأويل، علمٌ محكمٌ، مكينٌ، قويٌّ، متماسكٌ، معللٌ بالدليل، مؤيدٌ بالواقع.

(عَلّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرّةٍ فاسْتَوَى (6))

الحبل يُفْتَل، ويفتل، ويفتل حتى لا يمكن فكُّه، نقول: هذا الحبل ذو مرة، هنا استعير هذا التعبير للتأكيد على أن العلم الذي تعلمه النبي صلى الله عليه وسلم علمٌ متين، علمٌ محكم، علم ينطبق على الواقع والفطرة والحقيقة مئة بالمئة، علمٌ هو في الحقيقة وحيٌ من السماء، فلو جمعت كل معلمي الأرض لقصروا عن الغاية، فالله جلّ جلاله هو الذي علم النبي صلى الله عليه وسلم.

علمُ رسول الله ما هو إلا وحيٌ من السماء:

الإنسان أحياناً يتباهى بأستاذه، يقول لك: أنا خريّج بالجامعة الفلانية، وقد علمنا البروفسور فلان، نوع من التباهي، يتباهى الإنسان بجامعته وبأستاذه، فإذاً حُقّ للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتباهى بعلمه، فهو يتباهى بأن الله جلّ جلاله هو الذي علمه، لذلك علمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وحيٌ من السماء.

(عَلّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرّةٍ فاسْتَوَى (6))

وبينت لكم قبل قليل أن رأيَ بعض المفسرين أنّ الذي علّمه هو الله جلّ جلاله، وأن بعضهم الآخر بل وجمهورهم على أن الذي علّمه هو جبريل عليه السلام، والقضية تحصيل حاصل، علمه الله عن طريق جبريل، أو أنّ الله جلّ جلاله علّم جبريل، وجبريل علّم النبيّ صلّى الله عليه وسلم.

(عَلّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرّةٍ فاسْتَوَى (6))

الفرق بين التشريع الإلهي و التشريع الأرضي:

لذلك الشرع الإسلامي أساسه وحي، والوحي أساسه من عند الله عزّ وجل، من عند الخالق، فينبغي أن نعلم علم اليقين أن هناك فرقاً نوعياً بين كل تشريعات الأرض وبين تشريع الله عزّ وجل، هذا شرع

الخالق، وذاك شرع المخلوق، فمن الممكن أن نُصدر قراراً نقول فيه: لأية امرأةٍ مطلقة الحق في نصف أملاك زوجها، فما الذي يحصل ؟ يعزف الرجالُ عن الزواج كلياً، يعيش معها وينجب من غير زواج، هذا الشرط يستعصي تطبيقه، ففي بعض البلاد العربية التي أرادت أن تقلِّد الغرب في الأحوال الشخصية أيضاً ألزمت الزوج إذا طلّق زوجته أن يعطيها نصف ممتلكاته كلها، فما الذي حصل ؟ أن الآباء يقدِّمون لخاطبي فتياتهم سندات أمانة بأرقام فلكية، يقولون: نُبرزُها إذا طالبناك بنصف أملاكك، لأن سوق الزواج بارت.

في الصين أرادوا أن يلزموا كل أسرةٍ بمولودٍ واحد، فما الذي حصل ؟ صارت الأسرة الصينية إن أنجبت بنتاً خنقتها، إلى أن تنجب المولود الذكر فتسجله، ولا زالوا كذلك حتى نشأت عصابات لخطف الفتيات اللاتي في سن الزواج، والآن يقدر في عام ألفين أنّ هناك خمسين مليون صيني من غير امرأة، هذا تشريع الأرض، فينبغي أن نميّز بين التشريع الإلهي الذي هو من عند الخبير، الذي خلق الإنسان، وبين التشريع الأرضي الذي هو من الإنسان الذي لا يعلم، وإذا علم يحابي نفسه.

الإنسان مهما علا ليس مؤهلاً أن يشرع:

الإنسان أي إنسان مهما علا ليس مؤهلاً أن يشرع، لأنه لا يخلو من جهلٍ، أو من محدوديةٍ، أو من هوىً، الذي يرضيه في تشريعه جهله أو هواه، وكلاهما يجعلان التشريع تشريعاً غير محكمٍ، وغير واقعي، وغير منصفٍ.

فأنتم إذا قرأتم القرآن، وإذا قرأتم سنة النبي العدنان، فأنتم مع وحي السماء، أنتم مع تشريع الخالق، أنتم مع المطلق، فالقرآن الكريم كلام الله، صحته مطلقة، ثبوته مطلق، خيريته مطلقة، عدالته مطلقة، رحمته مطلقة، لذلك قال بعض العلماء: **" الشريعة عدلٌ كلها، رحمة كلها، مصلحة كلها، وأية قضيةٍ خرجت من المصلحة إلى المفسدة، ومن العدل إلى الجَوْر، ومن الرحمة إلى القسوة فليست من الشريعة ولو أدخلتَ عليها ألفَ تأويلٍ وتأويل ".**

أنتم إذا قرأتم القرآن أو قرأتم سُنّة النبي عليه الصلاة والسلام فأنتم مع وحي السماء، أنتم مع كلام الخبير، لذلك لا يمكن أن تطيع الله في منهجه، وفي قرآنه، وفي سنة نبيه وتشعر بالندم، تقطف الثمار يانعة، ثمار نفسية، اجتماعية، روحية، أخلاقية، صحية، جسمية، مالية:

((استقيموا ولن تحصوا))

(أخرجه ابن ماجه عن ثوبان)

كلام خالق الكون لا يأتيه الباطل أبداً:

فبالتقريب أنت مع تعليمات الصانع، فإذا طبّقتَ تعليمات الصانع عند صيانة آلةٍ وتشغيلها قطفت الثمار يانعة، وأخذت منها أعلى مردود بأقل كلفة، فالإنسان إذا انطلق من حبه لذاته، من حرصه على سلامته، وسلامة وجوده، ينبغي أن يطيع الله عزّ وجل، كلمة:

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

أنت إذا قرأت حديثاً شريفاً صحيحاً، أو قرأت آيةً وتفسيرها وفهمتَ مدلولاتها، فأنت مع المعلِّم الأول، أنت مع الخالق، قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

الفوز كل الفوز، والنجاح كل النجاح، والفلاح كل الفلاح، والتفوق كل التفوق في طاعة الله عزّ وجل، أنت بمكتبة فيها ألف كتاب، فيها خمسة آلاف كتاب، فيها مليون كتاب، ينبغي أن تضع القرآن في كفة، هذا كلام خالق الكون الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكل الكتب الأخرى هي كتبٌ من تأليف بشر، والبشر يصيبون ويخطئون.

السنة وحي إلهي:

ما من كتابٍ أُلِّف إلا وظهر فيه خللٌ بعد حين، هذا شيء ثابت، أما كتاب الله عزّ وجل فقد مضى على نزوله ألفٌ وخمسمئة عام، وليس في العالم كله حقيقة تصدم آياته أبداً، لأنه كتاب خالق الكون، لذلك إذا اتبعت السُنّة، فقد اتبعت وحي السماء، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ))

(أخرجه أبو داود عن المقدام بن معدي كرب)

هي السنة.

(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة البقرة: آية " 129 ")

و من هنا قال العلماء: كل إنسان يؤخذ منه ويرَدُّ عليه إلاّ صاحب هذه القُبّةِ الخضراء، كل إنسانٍ يؤخذ منه ويرد عليه، أمةُ محمد صلى الله عليه وسلم معصومة بمجموعها، لكن النبي صلى الله عليه وسلم معصومٌ بمفرده، كلمة (وحي) كلمة كبيرة جداً، خالق الكون يوحي إلى رسول الله، ونحن نأخذ هذا الوحي عن رسول الله.

أوامر خالق الكون على كل إنسان أن يتبعها:

لو فرضنا: عندك جهاز بالغ التعقيد، جهاز حاسوب من أعلى مستوى، وإلى جانب بيتك عشرون محلاً تجارياً، بائع خضار، بائع أقمشة...إلخ، كل هؤلاء على أخلاقهم الرَضِيّة ليسوا مُؤَهّلين أن يصونوا لك هذا الجهاز، إلا أن يأتي مندوب الشركة، فهو الخبير، لذلك قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

فأنت مع شيء نوعي، أنت إذا قرأت القرآن ورأيت فيه توجيهاً، أو حكماً، أو أمراً، أو نهياً، أمراً بغض البصر، أمراً بأداء الأمانة، أمراً بالتوكل على الله، أمراً بالنظافة، هذه أوامر خالق الكون.

تعليم الله عز وجل الرسول الكريم عن طريق جبريل:

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6))

الآن إذا فسرنا أن الذي علّمه شديد القوى هو الله عزّ وجل، فاستوى بمعنى استوى على العرش، والاستواء معلوم والكيف مجهول، أما إذا فسرنا أن الذي علمه شديد القوى هو جبريل عليه السلام.

(ذُو مِرَّةٍ)

أي أنّه ذو علمٍ محكم، ذو علمٍ متين.

(فَاسْتَوَى)

في الأفق، فحينما كان النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء رأى جبريل عليه السلام فيما ترويه الروايات الصحيحة، رآه وقد سدّ الأفق كله، رآه على الصورة التي صوره الله بها، ملأ الأفق كله شرقه وغربه.

اقتراب جبريل من النبي الكريم في البداية بصورته الحقيقية:

(ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا دَنَا)

جبريل عليه السلام، بصورته الحقيقية التي تملأ أفق السماء شرقاً وغرباً، ثم دنا من محمد عليه السلام شيئاً فشيئاً فشيئاً ثم تدلى له، حتى كان على شكل دُحية الكلبي وهو من أحب الناس إلى النبي عليه والصلاة والسلام ومن أجملهم صورة.

(ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى)

أو ثم تدلى فدنا، كلاهما بمعنى واحد، تدلى أي نزل إليه شيئاً فشيئاً، واقترب منه شيئاً فشيئاً، ثم أصبح بصورة إنسانٍ من بني البشر محببٍ إلى النبي عليه الصلاة والسلام جميل الصورة اسمه دحية الكلبي.

(ثُمّ دَنَا فَتَدَلّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9))

العرب كانوا إذا اصطلحوا بعد نزاع و خصومة يجعلون القوسين قوساً واحداً ويرمون بهما معاً رمياً واحداً، فالقوسان هنا تلامسا، حتى اتحدا وصارا شيئاً واحداً.

نزول جبريل بصورة دحية الكلبي كان بداية الوحي:

(فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى)

أيْ أنّه نزل من السماء، تدلّى من السماء، واقترب شيئاً فشيئاً، إلى أن أصبح قريباً من النبي كقرب القوس من القوس، و أصبحت صورته صورة دِحية الكلبي أحب الناس إلى رسول الله وأجملهم صورة.

(فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى)

عندئذٍ

(فَأَوْحَى)

جبريل..

(إِلَى عَبْدِهِ)

محمدٍ صلى الله عليه وسلم..

(مَا أَوْحَى)

قال له: اقرأ، قال له: لست بقارئ، قال له: اقرأ قال: لست بقارئ، قال:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2))

(سورة العلق)

كأن هذه الآيات ترينا بداية الوحي، أي أن هذا القرآن من وحي السماء، من عند خالق الأكوان، من عند مدبّر الأرض والسماوات.

آفاق الأنبياء مقدسة و هدفها إسعاد البشر:

أما إذا فسّرنا أن الذي علمه شديد القوى هو الله جلّ جلاله.

(ذُو مِرّةٍ)

ذو قوةٍ وعلمٍ، فاستوى على العرش، وهو بالأفق الأعلى، عندئذٍ نفسر (هو) بأنّها تعود على النبي صلى الله عليه وسلم، هو في أعلى الآفاق، كل إنسان له أفق، إنسان يعيش في الوحول، إنسان يعيش مع القاذورات، إنسان يعيش مع سفاسف الأمور، إنسان يعيش مع المُلِهيات، إنسان يعيش مع الجنس، إنسان يعيش مع المال، إنسان يعيش مع المباهج المادية التي لا تبقى ولا تستمر، وإنسان يعيش مع المبادئ، يعيش مع الخُلق، يعيش مع القيم، فهناك إنسان هدفه إمتاع جسمه، وهناك إنسان هدفه إسعاد الخلق، إذًا آفاق، الأنبياء لهم آفاق خاصة، آفاقهم مقدسة، آفاقهم علوية، آفاقهم هداية البشرية.

سؤال كل إنسان نفسه في أي أفق هو ؟

كل إنسان منا له أفق، فلان أفقه لا يتمنى على الله إلا أن يتزوج فقط، فإذا تزوج وصل إلى كل أهدافه، وإنسان آخرُ هدفه أكبر من الزواج، يتمنى على الله أن يصل إليه، أن يتعرف إليه، أن يكون جندياً للحق، أن يكون في خدمة الخلق، يتمنى على الله أن يكون داعيةً إلى الله، هادياً مهدياً، يتمنى على الله أن يقدِّر على يديه كل خير، فلذلك كل إنسان له أفق، فالسؤال الآن: أنت في أي أفق ؟ فالإنسان حينما يصحو صباحاً على أي شيءٍ يصحو ؟ من أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة.

لذلك فعلى الإنسان أنْ يتأمل، في أي أفقٍ يعيش، يعيش في أُفق إصلاح ذات البين، يعيش في أفق معرفة الله، يعيش في العمل الصالح، يعيش في فهم كتاب الله، يعيش في فهم حديث رسول الله، يعيش في فهم سيرة رسول الله، يعيش ليخدم الخلق، يعيش ليهدي الخلق إلى الله عزّ وجل، هذا أفق، وهناك إنسان آخر يعيش ليأكل، يعيش ليتزوج، يعيش ليشتري بيتاً، يعيش ليستمتع بالحياة، يعيش ليسافر، فكل إنسان له أفق، وهناك من الناس مَنْ يعيش ليؤذي الناس، ليأكل أموالهم بالباطل، ليوقع فيهم الرُعب، يعيش ليتلذذ بإيقاع الأذى بآخرين، هذا مستوى أيضاً، هذا المستوى تحت الأرض.

اقتراب الإنسان من الله بالعمل الصالح:

(وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى)

فالنبي عليه الصلاة والسلام استحق أن يوحي الله إليه، وأن يعلمه العلم المتين، لأنه بالأفق الأعلى، ثم إذا فسرنا أن الذي علمه هو الله عزّ وجل، وهو الذي استوى على العرش، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بالأفق الأعلى.

(ثُمَّ دَنَا)

ثم دنا النبي من الله عزّ وجل، والإنسان يدنو من الله دنواً حكمياً، العمل الصالح يقربك من الله، أنت في بيتك، وفي غرفة نومك، وفي غرفة جلوسك، وفي مكتبك، وفي معملك، وفي متجرك، وفي الطريق، العمل الصالح يجعلك أقرب إلى الله من أي وقتٍ آخر، فكلما عملت عملاً صالحاً اقتربت من الله، فلذلك:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

(سورة الكهف: آية " 110 ")

النبي الكريم بالأفق الأعلى لأن همه هداية الخلق:

العمل الصالح يرفع الإنسان، فالنبي صلى الله عليه وسلم لأنه بالأفق الأعلى، لأن همومه مقدسة، همومه تزيد عن حاجاته، فالإنسان قد تكون همومه مطابقة لحاجاته، فإذا حُقِقَت حاجاته انتهت همومه، أما الأنبياء والمرسلون، همومهم تفوق كل حاجاتهم، تفوق كل متطلباتهم، همومهم هداية الخلق، لذلك:

((لو تعلمون ما أعلم ولضحكتم قليلاً و لبكيتم كثيراً))

(أخرجه مسلم عن أنس بن مالك)

يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث:

((الحزانى في كنف الله))

(ورد في الأثر)

((إن الله يحب كل قلبٍ حزي))

(حديث صحيح عن أبي الدرداء)

أي حزنٍ هذا ؟ الحزن المقدس، تنظر إلى الناس تراهم ضائعين، تائهين، شاردين، بيوتهم جحيم، أعمالهم ربوية، مالهم حرام، ملاهيهم تجعلهم في الوحول، هذا الذي يسهر إلى الفجر ويتابع مشاهدة أجهزة اللهو الفضائية، في أي مكان هو ؟ في قنوات المجاري لا في قنوات الفضاء، في أي مستوى يعيش ؟ هذا الذي يطلِّق امرأته بعد ثلاثين عاماً لأنها لا تروق له بالموازنة مع ما يراه في هذه المحطات الفضائية، أي إنسانٍ هذا ؟ في أي دركٍ يعيش ؟ في أيّ قنوات المجاري يعيش ؟ أمّا رسول الله صلى الله عليه و سلم كما وصفه ربُّه:

(وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى)

معنى آخر.

نزول الوحي عن طريق جبريل عليه السلام:

(ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى(11))

فلكم أن تفهموا هذه الآيات على نحوين، إن فهمناها مع جمهور العلماء على أنه جبريل عليه السلام.

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7))

ملأ الأفق.

(ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9))

فأصبح في صورة دِحْيَةَ الكلبي.

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

وقد نفهمها فهماً آخر: علمه الله جلّ جلاله، وهذا قول الإمام الحسن، علمه الله جلّ جلاله..

اجتماع العلم و القوة في الخالق سبحانه:

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ)

أي قوة وعلم، قد تجد العلم ولا تجد القوة، العلم يصغر في نظرك، وقد تجد القوة ولا تجد العلم فالقوة تصغر في نظرك، إنسان قوي بكل معاني القوة لكنه جاهل، وإنسان عالم ولكنه ضعيف، أما أن يجتمع العلم والقوة شيءٌ مدهش، إنهما تجتمعان في الله عزّ وجل، قويٌ ولا حد لقوته، عليمٌ ولا حد لعلمه، يعني قوته متعلقةٌ بكل ممكن وعلمه متعلقٌ بكل ممكن، قوته مطلقة وعلمه مطلق.

استواء المعاني المقدسة في صدر النبي الكريم:

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6))

استوى على العرش، وقال بعض المفسرين: استوى القرآن في صدره، استوت هذه المعاني المقدّسة في صدر النبي عليه الصلاة والسلام، أو استوت في صدر جبريل.

(وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى)

لماذا علّمه ؟ لأنه بالأفق الأعلى، قد يرى أبٌ من ابنه تفتحاً وتطلعاً إلى العلم، ونهماً له، ورغبةً فيه، فعندئذٍ يضع الأب كل إمكاناته من أجل أن يصل ابنه إلى ما يصبو إليه، هذا إن رأى منه تفتحاً، وتشوقاً، وتلهفاً، وتعلقاً، وألمعية، ورغبةً صادقةً ملحة، عندئذٍ يقدم له كل ما يملك من أجل أن يتعلم.

اقتراب الإنسان من الله إذا كان بالأفق الأعلى:

(وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8))

إذاً: هنا لدينا معنى آخر: تدنو من الله إذا كنت بالأفق الأعلى، وتبتعد عنه إذا كنت بالأفق الأدنى، إذا كنت في الأرض، الأرض تمثل الشهوات..

(وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)

(سورة الأعراف: آية " 176 ")

و السماء تمثل المَكْرُمات..

(ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى(11))

هناك تطابق بين رؤية القلب ورؤية العين.

مطابقة رؤية قلب النبي لرؤية عينه:

أحياناً ترى بعينك شيئاً لا تصدقه، فالقلب ينكر عليك ذلك، بعض السحرة المهرة، ترى عندهم شيئاً بعينك لكن قلبك لا يصدقه، أمّا هنا.

(مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى)

رأى بعينه ورأى بقلبه، فجاءت رؤية قلبه مطابقة لرؤية عينه.

(مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12))

وهذه مشكلة كل مؤمنٍ في آخر الزمان، يرى أن الله هو كلُّ شيء، يرى أن الدين هو كل شيء، يرى أن طاعة الله هي كل شيء، يرى أن المعصية هلاك، يرى أن الانحراف عن الطريق الصحيح شقاء، يرى أن الكسب الحرام متلفة للمال، يرى أن أشقى الأشقياء من عصى رب الأرباب، هذه رؤيته، وحوله أناسٌ يرون غير هذه الرؤية، يرون الدنيا كل شيء، المال كل شيء، الشهوات هي كل شيء.

العبرة في النهاية نجاة الإنسان من عذاب الله الأبدي:

دائماً يوجد مشادة بين أهل الإيمان وبين أهل الإعراض، أنت إما أن تقبل وإما أن تعرض، إما أن تستقيم وإما أن تنحرف، إما أن تُخْلِص وإما أن تخون، إما أن ترقى وإما أن تسفل، إما أن تنصف وإما أن تجحد، فلذلك:

(مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12))

هو يرى، لذلك قال سبحانه:

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2))

(سورة القلم)

أنت لست مجنوناً، أنت عاقل، والحقيقةُ أنّ العبرة في النهاية، العبرة في العاقبة، العبرة من يضحك أخيراً، العبرة حينما يأتي الموت ويرى المؤمن أنه قد نجا من عذابٍ أبدي، عندئذٍ يصيح ويقول: لم أرَ شراً قط.

لقاء الله عز وجل أسعد لحظات المؤمن:

إخوانا الكرام: ورد في الأحاديث:

((تحفة المؤمن الموت))

(أخرجه الطبراني، وأبو نعيم، والحاكم، والبيهقي، عن ابن عمر)

أن الموت عرس المؤمن، وأن المؤمن أسعد لحظات حياته حينما يلقى الله عزّ وجل، لماذا ؟ لأنه لا يعرف حقيقة فوزه وحقيقة نجاحه إلا عندما يرى مقامه في الجنة، هو في الدنيا مع الناس، قد لا يتميز عنهم كثيراً، يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، وكما يلعبون، وكما يتنزّهون، ويتزوجون، ويطلقون، ويتاجرون، ويكسبون المال وهو واحدٌ منهم في هذا، لكن المؤمن ينفرد من بين هؤلاء بطاعة الله، وابتغاء مرضاته، فإذا جاء الموت فرز الناس، طبعاً..

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)

(سورة يس)

ابتعدوا عنهم، حقيقة الفوز لا يعلمها الإنسان إلا حينما يلقى الواحد الديان.

رؤية النبي الكريم لجبريل عليه السلام مرة أخرى في رحلة المعراج:

(أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13))

النبي عليه الصلاة والسلام رأى جبريل مرةً أخرى..

(عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى)

حينما كان في رحلة المعراج، وحينما وصل إلى درجة لم يصلها نبيٌّ قبله.

(سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى)

في المعنى الدقيق أعلى مرتبة وصلها إنسان، حتى إن سدرة المنتهى في رأي بعض المفسرين هي المكان الذي وقف عنده جبريل ولم يستطع أن يجاوزه، وجاوزه النبي، لذلك نحن أتباعٌ لسيد الأنبياء والمرسلين، لسيد ولد آدم ولا فخر، للإنسان الأول الذي أقسم الله بعمره الثمين، قال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة الحجر)

(عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى)

حقيقة الجنة القرب من الله عزّ وجل.

السلامة و السعادة مطلبان لكل إنسان لا يتحققان إلا بالقرب من الله:

إخوانا الكرام: حقيقة أقولها لكم متواضعة: إذا اعتقدت لثانيةٍ واحدة أن شيئاً في الأرض مهما كبر ومهما علا يمكن أن يسعدك فأنت جاهل، لا تسعد إلا بالله، فأيٌّ شيءٍ في الأرض ؛ سواء أكان المال الوفير، الصحة القوية، الجمال الفتَّان، المنصب الرفيع، القصر المنيف، المركبة الفارهة، العز التليد، إذا اعتقدت أن شيئاً في الأرض مهما علا يمكن أن يسعدك سعادةً متنامية فأنت واهم، لا تسعد إلا بالله.

(عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى)

فهل هناك من إخواننا الحاضرين وغير الحاضرين، أو من بني البشر قاطبة من بين خمسة آلاف مليون لا يتمنى السعادة والسلامة ؟! هذا مطلبٌ ثابت، بل إن السعادة والسلامة مطلبان ثابتان لدى كل إنسان، هذان المطلبان لا يتحققان إلا بالقرب من الله عزّ وجل، والقرب من الله أساسه الاستقامة والعمل الصالح، والاستقامة والعمل الصالح أساسهما معرفة الله، لذلك حينما تبادر لتتعرف إلى الله تفعل أخطر عملٍ في حياتك، تفعل أجل عملٍ في حياتك.

الاستقامة و العمل الصالح أساسهما معرفة الله:

طالب المدرسة، أو الطالب الجامعي، ما هو أجل عمل في حياته ؟ أن يحضر محاضرة الأستاذ، وأن يقرأ البحث، ويؤدي الامتحان، أما لون قميصه فليس له علاقة باختصاصه، مكان بيته، نوع الطعام الذي أكله، فهذه أشياء كلها ثانوية، الشيء الأساسي أن يحضر الدرس، وأن يستوعب، وأن يقرأ فيفهم، وأن يؤدي الامتحان فينجح، هذا أهم ما في الجامعة، وما سوى ذلك ؛ كألوان الألبسة، وألوان الأطعمة، ومواقع البيوت، ونوع القلم، يا ترى قلم سيّال، قلم حبر، قلم جاف، أشياء كلها لا تقدم ولا تؤخر، وفي التجارة أهم شيء الربح، فإن لم تربح فلست تاجراً، الإنسان حينما يأتي إلى الدنيا أخطر شيءٍ في حياته

أن يعرف الله، لذلك: طلب العلم فريضة على كل مسلم، إن عرفته وعرفت أمره ونهيه، وطبّقت أمره ونهيه، سعدت بقربه في الدنيا والآخرة، هذا ملخص الملخص.

رحمة الله محيطة بالنبي الكريم من كل جانب:

(عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16))

النبي عليه الصلاة والسلام جاءه من الله عزّ وجل من الرحمات ما لا يوصف، الشيء العجيب أن هذا النبي الكريم لو أتيح لواحدٍ منا (وهذا من الحلم) أن يلتقي به حينما كان حياً يجد ما لا يصدق فلديه أنوار من الله، وتحوطه رحمات من الله، ولديه قوة تأثير، وسعادة لا توصف، كان أحد أصحابه سيدنا ربيعة يخدمه، فإذا أذِن له النبيُّ أن ينصرف لا ينصرف، بل يبقى على عتبة البيت إلى صلاة الفجر، فبماذا يشعر ؟ وهو ينام على عتبة البيت من الخارج بماذا يشعر ؟ يشعر بشوق وحنين لا يوصف، وهذا أثر من آثار القرب من رسول الله، والقرب من الله، فإذا كان الإنسان قريباً من الله يسْعَد، فهو موصول بمصدر النور، بمصدر السكينة، بمصدر الطمأنينة، بمصدر الإشراق، بمصدر الكمال، تجد المؤمن الموصول كامل السعادة، عفيفاً، عفيفَ اللسان، عفيف اليد، حيياً، كريماً، شجاعاً، ذا مروءة، منصفاً، هذه الصفات الإنسانية العالية مع الوجهة الصادقة إلى الله، مع السكينة التي في قلب الإنسان، هذه تجذب الناس إليه، فمؤمن صغير صغير صغير في آخر الزمان إذا نظرت إليه ذكرت الله عزّ وجل، أولياء أمتي إذا رأوا ذُكر الله بهم، إذا نظرت إليه ذكرت الله، إذا نظرت إليه اطمأن قلبك، ارتاح قلبك، اطمأنت نفسك، فما عند هذا المؤمن الصغير مما عند النبي الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم ؟!

تجلي الله على قلب المؤمن بالرحمة و المودة:

لذلك:

(عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16))

تسميها رحمات، تسميها تجليات، تسمها قُرُبَات، تسميها سكينة، تسميها حالاً، أنا لا أعرف، سمِّها ما شئت، أما إذا عملت عملاً صالحاً اقتربت من الله، إن اقتربت منه تجلّى على قلبك، هذا الشهر يعرفه كل مؤمن، وبينما كان سيدنا الصديق يمشي في الطريق رأى صحابياً اسمه حنظلة، ونَدّعُه يقصُّ علينا خبرَه، فعَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ قَالَ وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ: قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ ؟ قَالَ: قُلْتُ نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا

مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ ؛ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

(رواه مسلم عن حنظلة الأسدي)

علامة إخلاص المؤمن ارتياد المساجد و هو في كامل فرحته:

إخوانا الكرام: علامة إخلاصك، وعلامة صدقك، وعلامة محبتك أنك إذا دخلت المسجد فأنت في الجنة، هذا بيت الله، وأنت في ضيافة الله، هذا بيت الله وأنت لم تأت إلى فلان أو علان، أبداً، أنت لم تأت إليه، أتيت إلى بيت الله عزّ وجل، والله هو الذي يكرمك، فإنسان ترك بيته، ترك المقعد الوثير، ترك الطعام الطيّب، ترك الجلوس مع أهله وأولاده، وركب مركبة، هي أول مركبة، قد يكون ركب مركبتين إلى أن وصل إلى بيت الله، أفلا يجد شيئًا ؟ فهل هذا معقول ؟ ألاّ يجد شيئًا أبداً ؟!! هل تجد بيتًا تدخل إليه ولا يقدم لك فنجان قهوة، أو حتى سكرة، أو كأس ماء.

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوّارها هم عمارها، فطوبى لعبدٍ تطهر في بيته ثم زارني، وحُقّ على المزور أن يكرم الزائر))

وأنت في بيت الله في ضيافة الله، أنت في رحمات الله، فلذلك قال حنظلة: **"نكون مع رسول الله ونحن والجنة كهاتين.. فإذا عافسنا الأهل ننسي "**، نأتي إلى البيت فلا نجد الأكل جاهزاً، نغضب، وشُطْنا غضباً، راح الحال، أين هذا الحال ؟ فسيدنا الصديق لطيف وأديب ومتواضع قال له: **" أنا كذلك يا أخي، انطلق بنا إلى رسول الله "**. فحدثاه.. قال عليه الصلاة والسلام:

((الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم))

(أخرجه البخاري عن أنس بن مالك)

أساس الدين الإسلامي الصلة بالله عز وجل:

الأنبياء في اتصال مستمر، لكن المؤمنين على قدر إيمانهم يكون فتورهم، المؤمن لا يوجد عنده حال معصية وطاعة، انتبهوا، إياكم أن تفهموا هذا لا يوجد عنده طاعة ومعصية، عنده إقبال وفتور، كلما

اتسع وقت إقباله ارتقت مرتبته، وكلما قلّت مدّةُ فتوره ارتقت مرتبته، أما إذا اتسع وقت فتوره وقلّ وقت إقباله هبطت مرتبته، قال لهما:

" أما أنتم يا أخي فساعة وساعة، لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة، ولزارتكم في بيوتكم ".

فأنا من أنصار التعلم، من أنصار التفقه في الدين، لكن دين، علم، وفقه، من دون حال، من دون اتصال بالله عزّ وجل، من دون ذكر، من دون أن يعمر القلب بذكر الله، يصبح الدين ثقافة، والحركات التعبُّدية تصبح طقوساً، فلماذا يتراجع المسلمون ؟ لأنهم أفرغوه من مضمونه الأساسي، أساس الدين هذه الصلة بالله..

الصلاة هي أول ما يحاسب العبد عليه يوم القيامة:

"لا خير في دينٍ لا صلاة فيه ".. " الصلاة معراج المؤمن ".. "الصلاة نور المؤمن ".. " الصلاة طهور ".. الصلاة مناجاة.. الصلاة قُرْب.

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق)

الصلاة ذكر..

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه)

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

(سورة العنكبوت: آية " 45 ")

الدين كله صلاة، وأول ما يحاسب العبد يوم القيامة عن صلاته، فجوهر الدين هذا الاتصال، أما المعلومات مفيدة، لكنها ثقافة، والحركات والسكنات طقوس، أما إذا وجدتَ استقامة، وكان اتصال بالله عزّ وجل، وصار عندك حال، وغمرتك سكينة وطمأنينة فاض عندك نور يشع منك، وهذا يسمى قوة التأثير، لذلك: ما أخلص عبدٌ لله عزّ وجل إلا وجعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودة والرحمة.

أساس الصلاة طاعة الله عز وجل:

(عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16))

هذه العبارة عند البُلَغَاء اسمها إيجازٌ غني.

(إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى)

ما يغشاها من الرحمة، من العلم، من السكينة، من السعادة، من الرُقيّ، من السمو

(إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى)

والإنسان عندما يكون له اتصال بالله عزّ وجل تشمله حالةُ تجلٍّ متنوع، فترى رؤيا صحيحة، وتجد نفساً مطمئنة، وقلباً قوياً، حكمة، قدرة على اتخاذ قرار في الوقت المناسب، هذه الحكمة مع الرؤيا الصحيحة مع السكينة مع الطمأنينة هذه من آثار الصلاة، أساس الدين هو الصلاة، الصلاة أساسها طاعة الله عزّ وجل، والطاعة معرفة، معرفة طاعة صلاة سعادة.

الأدب و الثبات و قوة الشخصية صفات امتاز بها النبي الكريم:

(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)

زاغ نظر يمنة أو يسرة، طغى نظر إلى ما لا يحق له أن ينظر، فكان في أعلى درجات الأدب والثبات، أحياناً الإنسان يجمع بين الأدب والثبات، بين قوة الشخصية والأدب.

سيدنا عمر كان يمشي في الطريق رأى غلماناً، لما رأوه وكان صاحب هيبة شديدة تفرقوا، إلا واحداً منهم بقي واقفًا بأدب، فلما وصل إليه قال: **"يا غلام لما لم تهرب مع من هرب ؟ قال: أيها الأمير لست ظالماً فأخشى ظلمك، ولست مذنباً فأخشى عقابك، والطريق يسعني ويسعك "**، طبعاً بقي ثابتاً، ما غيّر، وما هرب، ولما سُئل أجاب، وقد جمع بين الثبات والأدب، لكن هناك ثبات مع وقاحة، و أدب مع خوف.

(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)

ما زاغ من خوفه ولا تجاوز الحد من أدبه، هنا الآن في أعلى مقام، فليس من مقام وصله نبيٌ كما وصل نبينا الكريم هذا المقام، لذلك قال:

((سلوا لي الوسيلة))

(أخرجه أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص)

نحن إذا سمعنا الأذان، فالمسلمون بعد الأذان يقولون، ونحن قبل الصلاة نقول:

((اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً (صلى الله عليه وسلم) الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة، وابعثه اللهم مقاماً محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة))

(أخرجه البخاري عن جابر بن عبد الله)

هذا الدعاء أساسه أن النبي الكريم قال:

((سلوا لي الوسيلة (اطلبوها لي) فإنها مقام لا ينبغي إلا لواحدٍ من خلقه، وأرجو أن أكون أنا))

إطلاع الله عز وجل النبي الكريم على كل شيء:

لذلك:

(لَقَدْ رَأَى مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)

قيل: إن الله سبحانه وتعالى أطلعه على كل شيء، حتى على نهاية العالم، حتى على أهل الجنة وأهل النار، فالذي نؤمن به نحن بالخبر الصادق فقد رآه النبيُّ رأيَ العين، لذلك فالنبي وحده إذا حدثنا عن اليوم الآخر، وعن نعيم أهل الجنة، وعن عذاب أهل النار، وحده، حديثه عن رؤيةٍ وشهود لا عن تصديقٍ وإقرار، نحن نؤمن بالجنة والنار والصراط المستقيم، والسؤال، والحساب، والعذاب، والثواب، والعقاب، نؤمن به مصدقين لأن هذا ورد في كتاب الله الكريم، أما النبي.

(لَقَدْ رَأَى مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)

أطلعه الله على ما كان وعلى ما يكون وعلى ما سيكون، لذلك أحاديث النبي عن آخر الزمان وعن قيام الساعة، وعن علاماتها الصغرى والكبرى من هذا القبيل، مثلاً حديث النبي:

((رأيت عامة أهل النار من النساء))

(ورد في الأثر)

النبي رأى رأي العين من يعذّب في النار، رأى المرابين، رأى الزناة، رأى المنحرفين، رأى آكلي أموال الناس بالباطل، رأى آكلي أموال اليتامى، كل هذا رآه رأي العين، أي أنه رأى ملكوت السماوات والأرض.

عطاء الله للإنسان لا يتناهى:

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأنعام: آية " 75 ")

رأى ملكوت السماوات والأرض في أعلى درجة.

(لَقَدْ رَأَى مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)

فالإنسان على قدر استقامته، وعلى قدر إخلاصه، وعلى قدر معرفته ينال من هذا العطاء الذي لا يتناهى، والشقي كل الشقي هو الذي غابت عنه هذه الحقائق وعاش في أوحالِ مادة، لذلك من الأدعية المأثورة:

((اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، أخرجنا من وحول الشهوات إلى جنّات القُربات))

الثمار اليانعة التي يقطفها المسلم من الإقبال على الله:

أحياناً يكون البيتُ قطعةً من الجنة، فيه صلاة، وذكر، وتلاوة قرآن، ودعوة إلى الله، وسهرة اجتمعوا فيها عليه وتفرقوا عليه، بذل الطعام للفقراء خدمة لعباد الله، جو مقدس، وقد تجد بيتاً فيه قنوات لا يعلمها إلا الله، يقول لك: عندي ثمان وسبعون قناة، يتباهى بها، فهذا بيت آخر، أهلُه في الوحول غارقون، لأن الشيء استشرى وكبر جداً، وغدتْ حالات الطلاق كثيرة من وراء هذه الأجهزة، حالات انحراف مادي خطير، حالات انحلال، فالمؤمن يعيش في جنات القربات، يطلب من الله أن ينجيه من وحول الشهوات إلى جنّات القربات.

على كلٍ في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نتابع هذه الآيات ورغبتي الملحّة أنْ أضع أمامكم كل التفسيرات، فملخّصها ؛ إنْ فسّرت:

(علّمَه)

الله جلّ جلاله فالآيات تأخذ منحى معيّناً، وإن فسرت:

(علّمه شديد القوى)

هو جبريل تأخذ الآيات منحى آخر، على كلٍ هذه الآيات بتفسيريها تشير إلى مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى شدة قربه من الله، وإلى الثمار اليانعة التي قطفها حينما تعرف إلى الله وأقبل عليه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النجم 053 - الدرس (3-9): تفسير الآيات 19-23

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-09-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس الثالث من سورة النجم، ومع الآية التاسعة عشرة وهي قوله تعالى:

الأصنام التي كانت تُعبد من دون الله:

(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (21) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى (22) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (23))

أيها الأخوة الكرام: قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام كان في الجزيرة العربية أصنامٌ كثيرة، من أشهرها:

(اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20))

هذه الأصنام كان لها شأنٌ كبير، فالناس كانوا يحجُّون إليها، ويطوفون حولها، ويذبحون قرابينهم إليها، واحدةٌ في الطائف وهي اللات، وقالوا: اللات مؤنث لفظ الجلالة، جلّ جلاله وتعالى عما يقولون علوّاً كبيراً، والعزّى مؤنّث العزيز، والمناة أيْ التي تحقق للإنسان أمانيه، هناك وجهات نظرٍ كثيرةٍ جداً حول أسباب التسمية، لكن الذي يعنينا أن هذه الأصنام الثلاثة التي كانت تُعبَدُ من دون الله كانت لها أبنية كبيرة وكان الناس يحجّون إليها، ويطوفون حولها، ويذبحون الذبائح تقرُّباً إليها، وكانوا يعبدونها من دون الله

دعوة الله الإنسان للتفكر في الأصنام التي نحتها بيده:

الذي يعنينا من هذا أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(أَفَرَأَيْتُمُ)

إنه يدعونا إلى التأمُّل في هذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، أحجار لا تقدِّم ولا تؤخِّر، لا تملك الحياة، ولا تملك الموت، ولا تملك الرزق، ولا تعطي ولا تأخذ، ولا ترفع ولا تخفض، ولا تملك شيئاً..

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ)

(سورة الصافات)

تنحتونها أنتم وتعبدونها من دون الله **!!** هذا الكلام قد يضيق وقد يتسع، قد يضيق حينما نرى صنماً في عهد رسول الله قبل البعثة يُعْبَدُ من دون الله، أما حينما يعبد الإنسان شهوته هذا شرك مَوسَّع.

معاني الشرك:

الشرك له معانٍ كثيرة، ومن معانيه الضيقة أن تتخذ إلهاً من دون الله تعبده مع الله، لكنْ من معانيه الواسعة أن تعتمد على مخلوقٍ مثلك، أن تعقد الآمال على مخلوقٍ مثلك ضعيف لا ينفع ولا يضر، فالشرك الجلي انتهى مع بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، بقي الشرك الخفي، الرياء شرك خفي:

((من علق تميمة فقد أشرك))

(أخرجه أحمد عن عقبة بن عامر الجهني)

أي علّق شيئاً يتوهّم أنه يمنعه من الموت، فهذا الذي يعلِّق حذوة فرسٍ مثلاً ماذا يقصد بها ؟

((من علق تميمة فقد أشرك))

حينما تتجه إلى شيءٍ من دون الله تعظِّمه، وتعقد عليه الآمال، وتجعله أساساً لرفعتك أو تخاف أن يخفضك، هذا الشيء هو الشرك بعينه، لكن الشرك الجلي انتهى، بقي الشرك الخفي، والرياء من الشرك الخفي، والنفاق من الشرك الخفي، وأن تعتمد على جهةٍ غير الله من الشرك الخفي، وأن ترتجف، وأن تخاف، وأن تعتمد، وأن تثق، وأن تعلِّق الآمال، وأن تفعل شيئاً يغضب الله من أجل أن ترضي ما سوى الله فهذا هو الشرك أيضاً، فلذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((أخوف ما أتخوف على أمّتي الإشراك بالله، أما إني لستُ أقولُ يعبدون شمساً و لا قمراً ولا وثناً ولكن أعمالاً لغير الله وشهوةٌ خفيّة))

(أخرجه ابن ماجه عن شداد بن أوس)

الإشراك هو اعتماد الإنسان على جهة غير الله اعتماداً كلياً:

أيها الأخوة الكرام: كما قلت قبل قليل: ولّى زمن الشرك الجلي، ونحن كمسلمين لا نؤخذ إلا من الشرك الخفي، أحياناً إنسان يعلِّق آماله على ابنه، يعقد عليه كل الآمال ؛ غداً يكبر ويعمل، ويكون له دخل كبير وأنا أستريح، إذا اعتمد على ابنه فقد أشرك، قد يسخِّر الله له عدوّاً يخدمه، أما إذا اعتمد على جهةٍ غير الله اعتماداً كلِّياً ونسي الله فقد أشرك، فكيف إذا عصى الله من أجل هذه الجهة ؟ هذا أبلغ، إن اعتمدت على جهةٍ غير الله فقد أشركت، أما إذا عصيت الذي خلقك من أجل أن ترضي جهة غير الله هذا هو الشرك الذي رافقته المعصية، لذلك:

((من أرضى الناس بسخط الله سخِط عليه الله وأسخط عليه الناس، ومن أرضى الله بسخط الناس رضي عنه الله وأرضى عنه الناس))

(ورد في الأثر)

الدين هو عبادة و توحيد:

أيها الأخوة: الإنسان كما يتمنّى أحياناً الشرح والتفصيل، يتمنّى أحياناً الإيجاز، يعني إذا أردت أن تضغط الدين كلّه بكلمتين، فنظرة سريعة إلى المؤلّفات في مكتباتنا، ترينا أنّ هناك عشرات الألوف، بل مئات الألوف، بل ألوف الألوف من المؤلّفات في الإسلام، فإذا أردنا أن نضغط كل هذه المؤلّفات بكلمتين أنا أقول لك: التوحيد والعبادة.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

العقيدة: التوحيد، والعبادة: عمل، وأنت بين عقيدةٍ وبين عمل، العقيدة وحدها شرطٌ لازمٌ غير كافٍ، والعمل وحده شرطٌ لازمٌ غير كافٍ، ولابدّ من أن تعتقد التوحيد وأن تنصاع إلى هذا الإله العظيم، إنْ وحدّته وعبدته فقد حققت المراد من وجودك، هذا هو الإيجاز.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة الكهف: آية " 110 ")

الله تعالى بيده كل شيء:

هذا كلام إدراكه سهل، كلمة لا يوجد إلا الله، هذه المقولة إدراكها سهل لكن شتّان بين أن تدركها وبين أن تعيشها، أنت في حياتك أشخاص أقوياء، تريك عينك هذه أنهم يفعلون ما يريدون، يقرّبون ويبعدون، يعطون ويمنعون، يرفعون ويخفضون، يغضبون ويرضون، وأن الدنيا بيدهم أحياناً، هذه العين تريك أن هناك أشخاصاً بيدهم الأمر، لكنك إذا تعمّقت في فهم الدين، وتعمّقت في التأمّل في ملكوت السماوات والأرض لا ترى إلا الله.

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: آية " 84 ")

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: آية " 123 ")

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

جو التوحيد لا يعيشه إلا من ذاقه:

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف: آية " 54 ")

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

(سورة هود: آية " 56 ")

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: آية " 10 ")

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر: آية " 2 ")

هذه الحقائق إذا أدركتها عشت في جوٍ آخر، جو التوحيد لا يعرفه إلا من ذاقه، أكثر الأمراض النفسية أسبابها ضعف التوحيد، الخوف المرضي ضعف توحيد، القلق ضعف توحيد، النفاق ضعف توحيد، الرياء ضعف توحيد، الوساوس المتسلِّطة ضعف توحيد، إنك إن وحّدت الله عزّ وجل، ورأيت أن بيده كل شيء، وأنه القوي، وأنه الغني، وأنه العادل، وأنه الرحيم، وأنه المعطي.. أي..

(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة الصافات: آية " 35 ")

هو المعطي، هو المانع، هو الرافع، هو الخافض، هو المعز، هو المذل، هو الذي يقرّب، هو الذي يبعد، هو الذي يوفق..

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

(سورة هود: آية " 88 ")

المؤمن الناجي من عذاب الله هو المؤمن الموحد:

لا يتحقّق هدفٌ على وجه الأرض صغيراً كان أو كبيراً إلا بتوفيق الله..

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

هذا هو التوحيد، هذا هو الدين، لذلك المؤمن عزيز، من أين جاءت عزّته ؟ من توحيده، المؤمن شجاع، من أين جاءت شجاعته ؟ من توحيده لأنه يعلم أن أمره كلّه بيد الله، وأنه مطيعٌ لله، وأن الله لا يضيّعه، ولا يسلمه، ولا يخذله، ولا يتخلّى عنه، ولا يعاقبه إلا بذنبٍ ارتكبه لقوله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة النساء: آية " 147 ")

لا داعيَ للعذاب إنْ آمنتم، هذه المعاني أيها الأخوة إذا تعمّق فيها الإنسان صار مؤمناً، الحقيقة الإيمان دائرة تتسع فتتسع وتتسع وتتسع إلى أن تشمل كل إنسانٍ قال: لهذا الكون إله، وتضيق وتضيق حتى يعدُّ المؤمن الناجي هو الموحِّد.. من مات غير مشركٍ أصابته شفاعة رسول الله.. ومرّةً ثانية أكرّر:

((أخوف ما أتخوف على أمّتي الإشراك بالله، أما إني لستُ أقولُ يعبدون شمساً و لا قمراً ولا وثناً ولكن أعمالاً لغير الله وشهوةٌ خفيّة))

(أخرجه ابن ماجه عن شداد بن أوس)

المسافة الكبيرة بين إدراك عقيدة التوحيد و بين تطبيقها:

لا شكّ أنك إذا قرأت أن اللات والعزّى آلهة تعبد من دون الله، تسخر وتستسخف بهؤلاء الذين فعلوا ذلك، لأن عهد الشرك الجلي قد انقضى، وإن كان هناك شركٌ جلي فهو في بقاعٍ شتّى من الأرض عند غير المسلمين، بوذا يُعبَد من دون الله، الهندوس، والسيخ، واليابانيون، وكل شعبٍ تائهٍ ضالٍ شارد يعبد إلهاً من دون الله، لكن الله سبحانه وتعالى تفضّل علينا بعقيدة التوحيد، عقيدة التوحيد كفكرة سهلٌ إدراكها، أما أن تعيشها، مسافة كبيرةٌ جداً وبونٌ شاسعٌ بين أن تدرك عقيدة التوحيد وبين أن تعيشها، إن عشت عقيدة التوحيد صرت إنساناً آخر، الدليل:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

التوحيد يريح، والشرك يعذِّب، المشرك معذّب دائماً لأنه يخاف من قِوى كثيرة، هذه القوى لا تحبُّه ولا تتمنّى له الخير، ويراها قويةً جداً، أمره بيدها، مصيره بيدها، رزقه بيدها، نماؤه بيدها، تراجعه بيدها، فإذا أدركت أن إنساناً من بني جلدتك أمرك بيده وهو لا يحبُّك هذا أكبر مصدر عذاب ينوبُ الإنسان..

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215))

(سورة الشعراء)

تكريم الله تعالى للإنسان بدين الإسلام:

لذلك:

(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى)

فهل من المعقول أنْ ينحت إنسانٌ من الحجر صنماً يعبده ويُؤَلِهَهُ ويقدِّسه ويرجو رضاه ويخاف نقمته ؟ هذا إنسان عقله معطّل.. مرّة شاعر جاهلي رأى صنماً قد بال عليه الثعلب، فقال:

أربٌ يبول الثعلبانُ برأسه !! لقد ضلّ من بالت عليه الثعالبُ

***

أمعقول ؟!! قبيلة اسمها (ودٌّ) صنعت إلهاً من تمر، فلمّا جاعت أكلته، أهذا إلهٌ ؟! الإله يؤكل ؟ وإذا ذهبت إلى شعوب الأرض شرقاً وغرباً لرأيت ما لا يصدّق، فسبعمئة وخمسون مليوناً يعبدون البقر من دون الله، وأكبر قطيع بقرٍ في العالم في الهند، والبقرة في الهند مقدّسة، يوضع روثها في غرف البيوت في الأعياد، يُتعطّر ببولها، إن دخلتْ إلى بقّالٍ وأكلت من الفاكهة ما لذّ وطاب فهو من أسعد الناس، لأن الإله دخل إليه وأكل من عنده، هذه شعوب كثيرة، منها السيخ، والهندوس، وهناك شعوبٌ تعبد ذكر الرجل، وهناك شعوب تعبد الجُرْذان، وهناك شعوب تعبد موج البحر، الله جلّ جلاله كرّمنا بالإسلام، وكرّمنا بعبادة الواحد الديّان، وكرّمنا بالحقيقة.

المؤمن الحق من يؤمن بأن الله تعالى فعّال لما يريد:

طبعاً نحن على مستوى العالم الإسلامي بخير، عقيدة الشرك الجلي لا وجود لها إطلاقاً والحمد لله، لكن يشكو بعض المسلمين، أو يقع بعض المسلمين وهم لا يشعرون بالشرك الخفي، الشرك الخفي قال النبي عليه الصلاة والسلام ما معناه: الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحبَّ على جور، وأن تبغِضَ على عدل.

أيْ إذا أحببت إنساناً وهو ليس على الحق، بل هو جائر، حبُّك له أنّك أشركته مع الله، وإذا تألّمت من إنسان قدّم لك النصيحة الصادقة، فألمك من هذا الإنسان دليل أنك أشركت نفسك وأبيت أن تعترف بذنبك، فأن تتألّم من نصيحةٍ مخلصة، وأن تُوادد إنساناً منحرفاً هذا من الشرك الخفي.

فلذلك إخواننا الكرام: إنّ الفكرة دقيقة الدلالة جداً: أن تؤمن أن لهذا الكون خالقاً فهذا يؤمن به عامّة الناس، ما من إنسانٍ إلا قلّة قليلة جداً عطّلت عقلها، ما من إنسانٍ فيه ذرّة عقلٍ إلا ويقول: هذا الكون له خالقٌ عظيم، حتى إن عُبّاد الأوثان يقولون:

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلّا لِيُقَرّبُونَا إِلَى اللّهِ)

(سورة الزمر: آية " 3 ")

معنى ذلك أن تؤمن أن لهذا الكون خالقاً هذا شيء مفروغ منه، حتى إن الشيطان الذي أبعده الله ولعنه قال: ربي..

(فَبِعِزّتِكَ)

(سورة ص: آية " 82 ")

لكن المطلوب ليس أن تؤمن أن لهذا الكون خالقاً، المطلوب أن تؤمن أن هذا الخالق العظيم هو فَعّال، هو الإله، بيده كل شيء، لا يعذب عنه شيء..

(فَعّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

(سورة البروج)

هذا هو الإيمان.

من أساسيات الدين معرفة أسماء الله الحسنى و صفاته الفضلى:

لذلك أن تعرف أسماء الله الحُسنى وصفاته الفُضلى هذا شيء من أساسيات الإيمان، ما معنى أن الله إلهٌ فعّال بيده كل شيء ؟ فأساساً الآية:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود: آية " 123 ")

قال لك: كلُّه، الأمر معرّفة، تعريف استغراق..

(الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20))

هذه الآلهة كما ترون، الله جلّ جلاله، وعزّ نواله، وتعالى عما يقولون علّواً كبيرا، اللاّت مؤنّث الله، أي أن هذا الصنم الذي يعبدونه الذي كان في الطائف صخرةٌ بيضاء منقوشة، وحولها بناءٌ كبير ويحجُ إليها الناس، ويذبحون تقرُّباً إليها، ويطوفون حولها هذه جاءت مؤنّث، والعزّى مؤنث عزيز..

استئثار الكفار بالذكر و نسب الأنثى إلى الله عز وجل:

(وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (21))

أنتم تكرهون الإناث وتحبّون الذكور وتنسبون إلى الملائكة أنهم بنات الله..

(أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى)

جعلوا هذه الآلهة إناثاً، وجعلوا هذه الآلهة التي هي إناثٌ بنات الله عزّ وجل..

(تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى)

فأنت تكره شيئاً فتنسبه إلى خالق الكون، وتحبُّ شيئاً فتؤثره على نفسك، أو تستأثر به، تحب الذكر فتستأثر به، وتكره الأنثى فتنسبها إلى الله عزّ وجل ؟..

(تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى)

تسمية كل صنم باسمه بعد نحته و جعله إلهاً:

أما الجواب الدقيق:

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة النجم: آية " 23 ")

في لغتنا العربية شيء: اسمه اسم ومسمّى، طبعاً هذه مسجّلة لها وزن، لها حجم، لها طول، لها عرض، لها بعد ثالث، لها آلية معيّنة، اسمها مسجّلة، الاسم كلمات، مقاطع صوتية ؛ ميم، سين، جيم، لام، تاء مربوطة، أي إنها مقاطع صوتية، هذا هو الاسم، لكن هذا الاسم يقابله شيء وهو المُسَمّى، فكل اسم له مسمّى، وكل مسمّى له اسم، أما هذه الحجارة (اللات) التي نحتوها بأيديهم وعبدوها من دون الله وجعلوها آلهة، قال الله في حقِّها:

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ)

من غير مسمّيات، لا أصل لها، لا يقابلها شيء في الواقع، فإذا شخص مثلاً وليكُنْ طالباً في الصف التاسع قال: أنا وزير التربية، وعمل بطاقة وطبع عليها وزير التربية، فهل صار وزير تربية ؟ مثلاً فإذا كتب على بطاقة أنه وزير التربية، وهو لا يحمل كفاءة وعمره اثنتا عشرة سنة، فالكلمة التي طبعها على بطاقته هل تجعله وزيراً للتربية ؟ هذا اسم من غير مسمّى، ولا وجود، ولا واقع، ولا أصل، فأحياناً تجد المسمّى وله اسم، أحياناً تنطق بالاسم وله مسمّى، إذا قلت: جبل، يوجد جبل كتلة كبيرة جداً، جبال هملايا ارتفاعها اثنا عشر ألف متر، إذا قلت: بحر، فإن أربعة أخماس الأرض بحر، إذا قلت مثلاً: فيل، فإن الفيل حيوان ضخم، وإذا قلت: الحوت الأزرق، فإن هذا اسم ولكن يقابله مسمّى، يوجد حوت وزنه مئة وخمسون طنًا، إذا قلت: زلزال، كلمة لها دلالتها، فمدينة أبيدت عن آخرها بخمس ثوان بزلزال، كلمة زلزال يقابلها زلزال أتلف كل شيء، إن قلت: إعصار، فإن هناك إعصار إذا أتى على مدينةٍ جعلها قاعاً صفصفاً..

عدم فائدة هذه الأصنام التي لا تضر و لا تنفع:

(لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً)

(سورة طه)

كلمة إعصار اسم وله مسمّى، زلزال اسم له مسمّى، إذا قلت مثلاً: صاعقة، تجد أنها أحرقت مركبة ضخمة، هذه كلِّها أسماء لها مسمّيات، أما إذا قلت: اللاّت فهل خلقت اللاّت شيئاً ؟ هل أوجدت ؟ هل

حرّكت الأفلاك ؟ هل أخرجت النبات من تحت الأرض ؟ هل أنزلت المياه من السماء ؟ ماذا فعلت هذه؟..

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ)

هذه شأنها كالذي يكتب على بطاقته: وزير تربية، بينما هو طفل صغير لا يتجاوز سنّه العشر سنوات، لا يفقه شيئاً من أمور الدنيا وكتب ما كتب على بطاقته..

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

نحن أحياناً نتوهَّم أن فلاناً (موظّف في دائرة)، وهناك إنسان أعلى منه مرتبة، يراه يفعل كل شيء ويرى نفسه ليس بشيء، هو أسبغ عليه هذه الهالة العظيمة، هو الذي يسعد إذا ابتسم في وجهه ويتألّم أشدّ الألم إذا عبس في وجهه، هذا الشخص هو الذي أعطاه هذه الهالة، هو في الحقيقة لا شيء، عبدٌ فقير.

قيل لأحد الخلفاء من خلفاء بني العبّاس وأظنّه هارون الرشيد، وقد طلب كأس ماء فقال له أحد الحكماء: **" بكم تشتري هذه الكأس إذا مُنِعت منك ؟ قال: بنصف ملكي، قال: فإذا مُنِع إخراجها ؟ قال: بنصف ملكي الآخر ".** فالإنسان مفتقر لكأس ماء، مفتقر إلى شربه ومفتقر إلى إخراجه.

الإنسان مهما كان قوياً أمره بيد خالقه العظيم:

الإنسان مهما بدا عظيماً، مهما بدا قويّاً، مهما بدا حكيماً، مهما بدا ذكياً يحمل شهادة بورد مثلاً، يملك كذا، حجمه المالي فلكي، يقول لك: أرقام كلها فلكية، بيته من أفخم البيوت، مركبته من أحدث المركبات، كل هذه المكانة وهذا العطاء خثرة دمٍ لا تزيد عن حجم رأس دبوس إذا تجمّدت في أحد عروق الدماغ تجعله مشلولاً، أو تجعله أعمىً، أو يفقد ذاكرته، أو يفقد توازنه، فما هذا الإنسان ؟! كل قيمة الإنسان تتوقف على خثرة دم مجمّدة في رأسه، شيء مخيف إذا قال لك الطبيب: خثرة في الدماغ، أي أنه انتهى، إنها تنتقل من مكانٍ إلى آخر، مكان الذاكرة، مكان الحركة، مكان الإدراك، مكان التصوُّر، مكان الرؤية، مكان السمع، مكان الشم، أي مكان مدمِّر، خثرة دم، إذا انسد شريان عند إنسان يحتاج إلى فتح قلب، وإلى عملية قلب مفتوح، وإلى أخذ شريان من ساقه، وجراحة تكلِّف الملايين، فما هو هذا الإنسان ؟ يقول لك: أنا، فمن أنتَ ؟

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

أي أنت الذي أعطيت هذه الهالة ورسمتها حول نفسك أو غيرك، فأحياناً: ابن يرى أباه كل شيء، وهذا الأب الغني والقوي مفتقر إلى كأس ماء يشربه، إلى هواء يتنفّسه، إلى سيولة دمه.

الأصنام ليس عندها حجّة ولا تملك قوّة:

حدّثني طبيب يجري عملية قلب مفتوح: المريض يأخذ الأسبرين وهو لا يقول، لم يذكر ذلك للطبيب، العملية بعد أن نجحت والدم مائع فمات بهذه الطريقة. فالإنسان حبّة من الأسبرين تنهي حياته إذ لم ينته عنه قبل العميلة بأسبوعين، حبّة أسبرين، أنت لو تعرف أن انتقال الإنسان من دار البقاء إلى دار الفناء مرهون بأسبابٍ قد تكون صغيرةً جداً، والله عزّ وجل جلّت حكمته قد يمهل المريض فتمضي سنوات تلو السنوات وهو طريح الفِرَاش، وأحياناً يُخْطَف خطفاً، وهو في أعلى درجات نشاطه وذكائه ونجاحه يقول لك: سكتة دماغية، ما هذا الإنسان ؟..

(إِنْ هِيَ إِلّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

ليس لها قوّة تتحرك بها، وليس لها قوّة إقناع، فأحياناً ترى إنساناً قوياً أمامك، قوته المادية تغنيك عن أسباب إدراك قوته، وأحياناً يتمّع بحجّة قوية، فالحجّة سلطان، والقوة سلطان، فالله عزّ وجل قال:

(مَا أَنْزَلَ اللّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

ليس عندها حجّة ولا تملك قوّة، صنم جامد، والإنسان إخواننا الكرام يحتاج إلى أن يراجع حساباته، أن يراجع مفهوماته، تصورّاته، مدركاته، عقيدته..

(إِنْ هِيَ إِلّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

الإشراك هو إضفاء صفة القوة و العطاء على غير الله:

قد تجد الابن يعبد أباه من دون الله وهو لا يدري، طمعاً بعطاء أبيه يعصي الله إرضاءً لأبيه، هذا الإنسان يُؤَلِّه أباه ويعبده من دون الله، وإنسان آخر يعبد زوجته من دون الله إرضاءً لها، يفعل كل شيء من أجل أن ترضى، أو من أجل أن ترضى عنه، هو يعصي الله، إذاً الإنسان عندما يضفي على المخلوقين صفة القوّة، وصفة الديمومة والعطاء يكون أشرك وهو لا يدري..

(تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى (22) إِنْ هِيَ إِلّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

مثلاً: هذه الدراجة التي لها ثلاث عجلات لو وضعنا عليها إشارة أضخم شركة في الأرض فهل تصبح من صناعة تلك الشركة ؟ هذه كلمة، اكتب ما شئت، أنت الآن لو تحمل شهادة إعدادية تكتب دكتوراه في الفيزياء النووية ؟ هل تصير عالمَ فيزياء نووية ؟ لا، إذّا أريد أن أبين لكم أن الكلمات لا تفعل شيئاً، الوصف لا يفعل شيئاً، اكتب مثلاً على آلة سيئة جداً " هذه أفضل آلة في العالم "، فهل تغدو أفضل آلة في العالم ؟ لا، وصفك لا يقدّم ولا يؤخّر، وصفك للشيء بأكبر مما هو فيه لا يجعله كبيراً، فلذلك أنا أضرب مثلاً دائماً: الذي معه كيلو معدن إن استطاع بذكاءٍ كبير أن يوهم الناس أنه ذهب وهو ليس ذهباً

فإنه هو الخاسر، وإن ظنّه الناس معدناً خسيساً وهو ذهبٌ خالص فهو الرابح، لا اتهام الناس لك يفقدك ما عندك، ولا إيهامك الناس أنه عندك شيءٌ ثمين يمنحك ما تفقد..

على الإنسان ألا يفرح بالمديح الكاذب لأنه لا يقدم شيئاً:

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ)

هناك معنى آخر: الآن لو قالوا عنك: العالم الجليل، المُحسن الكبير، فريد عصره، وحيد زمانه، لو أضفى الناس عليك كل صفات العلم والتقوى والصلاح ولم تكن كذلك هل تجعلك هذه الصفات كذلك ؟ لا. أبداً فلن تجعلك، فمثلاً النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ولَعَلّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنّمَا أَقطعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النّارِ))

(البخاري عن أم سلمة)

لو استطعت أن تقنع النبي وهو سيدُ الخلق وحبيبُ الحقّ، لو أمكنتك حجّتك القوية، وطلاقة لسانك، وروعة بيانك أن تنتزع من فم النبي حكماً لصالحك ولم تكن محقًا فإنك لن تنجوَ من عذاب الله، فإذاً:

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

لو قلت عن إنسان: تقيٌّ نقّي ورع، وهو ليس تقياً ولا نقياً ولا ورعاً، هذه الأوصاف لن تفيد شيئاً، لذلك الإنسان لا يفرح بالمديح الكاذب ولا يعبأ به لأنه لا يقدِّم، بل قد يؤخِّر وينعكس سلباً.

اقتفاء نهج رسول الله و آثاره ترفع الإنسان عند ربه:

يروى أنه حين كان زعيم المنافقين يحتضر طلب وهو على فِراش الموت قميص رسول الله، فأعطاه قميصه، وقال عليه الصلاة والسلام:

((الآن استقرّ في جهنّم حجرٌ كان يهوي به سبعين خريفاً))

وهو يرتدي قميص رسول الله، وماذا يفعل قميص رسول الله مع إنسانٍ منافق ؟ الإنسان الذي لا يعتقد عقيدة التوحيد، فيتمسّح، إذا تمسّحت بثوب الكعبة ولم تكن مستقيماً فإن هذا لا ينفعك شيئاً، ذات مرّة قلت لكم: إنني في إحدى الزيارات للمدينة المنورة صليت في محراب رسول الله، ثم خطر في بالي أن عالماً كبيراً جليلاً له عشرات المؤلّفات فلو كان عنده آذن وقفز هذا الآذن وجلس في مكانه في غيبته وراء مكتبه هل يصبح عالماً ؟ لا، هذا الآذن لو درس كتاباً، أو لو أخذ الكفاءة لسار على طريق العلم، هذا أفضل من أن يجلس في مكانه، طبعاً الذي يرفعك عند الله أن تقتفي أثر رسول الله لا أن تصلي مكان

صلاته، ولا أن تتمسّح بقبره، العبرة أن تقتفي أثره، أن تجعله قدوةً لك، أن تجعله أسوةً لك، فالذي يرفعك عند الله اقتفاؤك نهج النبي وآثاره لا تمسُّحك بأشياء ماديّة لا تقدِّم ولا تؤخِّر.. أعطاه قميصه وقال:

((الآن استقرّ في جهنّم حجرٌ كان يهوي به سبعين خريفاً))

لكنّ صحابيًّا آخرَ طلب قميص رسول الله وهو على فِراش الموت، صحابيٌّ جليل، قالوا: **"ولِمَ ؟ قال: إذا جاءني الملكان وسألاني: من ربك ؟ أقول: الله ربي، من نبيك ؟ أقول: هذا قميصه "**. هذا موضوع ثانٍ، فهذا صلاح وهناك نفاق.

على الإنسان التمسك بما وافق القرآن و السنة:

(إنْ هِيَ إِلّا أَسْمَاءٌ سَمّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتّبِعُونَ إِلّا الظّنّ)

وبعدُ ؛ فهل تتبع الحقيقة أم تتبع الظن ؟.. ما قولك أن معظم الذي يعتقده الناس ظنون لا أصل لها، ولا علاقة لها بالواقع إطلاقاً ؟ أي أما آن الأوان أن تعمل جرداً لمعتقداتك، لأفكارك، لتصوراتك، ما وافق الكتاب والسُنّة فتمسّك به، وما خالف الكتاب والسنّة فانبذه ولا تلوِ على شيء غيرهما، فالإنسان لا يليق به أن يعتقد الباطل، أن يعتقد خرافات تؤخّر مسيرة الحياة الإيمانية و العقدية، فالناس يعيشون في خرافات لا يعلمها إلا الله (صبُّوا له ماء وملحاً)، خصومته مع زوجته سببها يدّعي أنهم صبُّوا له ماء و ملحاً، هكذا يدّعي، أنت السيئ مع زوجتك ومعاملتك سيئة، هذا سبب الخلاف، أُسَر تعيش على الخرافات والتنجيم، فهناك منجّمون، وهناك كُهّان، وهناك عرّافون، وفكوا له السحر، ولف له لفة خضراء وفك السحر، وطلب منه خروفًا كبيراً لونه كذا وفيه لطخة سوداء، هذا كلّه كلام فارغ أجوف، هذه كلِها دجل (زعبرة)..

(إنْ هِيَ إِلّا أَسْمَاءٌ سَمّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتّبِعُونَ إِلّا الظّنّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ)

لا يليق بالإنسان و هو المخلوق الأول أن يعتقد بالخرافات:

نحن بحاجة إلى علم، بحاجة إلى منهج، هذا هو منهجنا، هذا هو كتابنا، هذه سنّة نبينا عليه الصلاة والسلام، هذا الكتاب لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه، الحق فيه مُطْلَق لأنه كلام خالق الكون، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، فالإنسان لا يليق به وقد كرّمه الله وشرّفه

وجعله المخلوق الأول، لا يليق به أن يعتقد بالخرافات، والتُرهات، والأباطيل، والأوهام، والله أنا أستمع إلى أناس يرتادون المساجد ويحملون أفكاراً لا أصل لها في الدين، يعتقدون بالسحر:

((من أتى كاهناً فصدقة بما يقول فقد كفر))

(رواه البزار عن جابر بن عبد الله)

من أتى ساحراً فلم يصدِّقه لم تُقبَل له صلاة أربعين صباحاً، فكيف إذا صدّقه ؟! القضية سهلة ؟ يدّعي أنّه يتسلّى ؟ الله عزّ وجل يقول:

(قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة النمل: آية " 65 ")

تأخذ أرقاماً، ما هو اسمك ؟ اسمي سعيد، السين خمسة عشر، العين ثلاثة عشر، معنى هذا: لك مستقبل مظلم، ما هذا الكلام، هذه كلها خرافات..

(مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

هذه اركلها بقدمك، كنا بصدد أن نبيع بيعة فدخل شخص فقَسَت البيعة، قدومه سوء، قدوم هذا الشخص ليس له علاقة، هناك أناس يكرهون يوماً معيّنًا، رقماً معيّناً، شخصاً معيّناً، كلِها معتقدات لا أصل لها، الله الموفِّق..

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

(سورة هود: آية " 88 ")

الإنسان الموفق من آمن بالله و عمل أعمالاً صالحة:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

قانون التيسير..

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10))

(سورة الليل)

هذا القرآن الكريم..

(أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ)

آمن واتقى وعمِل أعمالاً صالحة فهو موفّق، أموره ميسّرة، اللهمّ لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، هكذا النبي علّمنا، لكن لم يعلِّمنا أن نتشاءم من شخص، أو أنْ نتشاءم من طير طار عن شمالنا..

(قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ)

(سورة يس: آية " 19 ")

على الإنسان التمسك بالأفكار التي توافق القرآن و السنة:

أي أنت خيرك منك، من استقامتك، وشرّك من معصيتك فقط ليس من أحد آخر..

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام: آية " 164 ")

هذا الحق.

أيها الأخوة: إذاً فالإنسان بحاجة إلى مراجعة تصوّراته، مراجعة أفكاره، أفكاره التي توافق القرآن الكريم وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ليتمسّكْ بها ويعتمدها دون غيرها، قال تعالى:

(لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة النمل: آية " 65 ")

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

(سورة الأعراف: آية " 188 ")

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن)

سلوك الإنسان غير المبني على آية أو حديث سلوك خاطئ:

إخواننا الكرام: بإمكانك أن تركل بقدمك كلّ الخرافات التي فحواها أن فلاناً يعلم الغيب، هذا هو الإيمان، لأن خالق الكون يقول لك هو:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

الأحاديث الصحيحة عن أمارة قيام الساعة كثيرة، وعن علامات آخر الزمان أيضاً، وهذه ما عرفها النبي بذاته بل أعلمه الله بها، وما سوى النبي لا نعبأ بكلامه إطلاقاً، فأنت حينما تقرأ القرآن وتعرف معرفة يقينية أن أحداً في الكون لا يعلم الغيب ألا ترتاح من آلاف القصص، ومن آلاف الخزعبلات، والترُّهات، والدجل ؟ هذه ليست لها معنى في حياتك، إذا علمت أن خيرك من طاعتك لله، وأن الشر من المعصية فعندها لا تفعل شيئًا ليس له معنى، مثلاً إذا علّقت حذوة فرس على سيّارتك أفلا يكون هناك حادث ؟ لا، لأن الوقاية من الحادث بطاعتك لله، بدفع الصدقة ليس في تعليق هذه الحذوة، هذه ليس لها معنى إطلاقاً، كل سلوك الإنسان غير المبني على آية أو حديث أو سنّة نبويّة هو سلوك خاطئ غير صحيح، فالآن آن الأوان أن تراجع معتقداتك، تراجع تصوراتك وأفكارك.

العاقل من لا يقبل إلا الحق:

أحياناً أسمع أخباراً لوقائع ليس لها أصل، وفحواها ظلم شديد، واللهُ يقول:

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

(سورة الكهف)

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة العنكبوت: آية " 40 ")

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

(سورة غافر: آية " 17 ")

في الظاهر هناك ظلم، أما في الحقيقة فلا ظلم أبداً، إذاً الإنسان بحاجة إلى أن يراجع حساباتِه، يراجع معتقداته، يراجع تصوّراته لأنه:

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ)

لذلك الخشية كل الخشية أن تتبع الظن، أن تتبع الوهم، الدعاء الشريف:

((اللهمّ أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم))

الأوهام ظلمات بعضها فوق بعض، واللهِ هناك أسر تشقى بالأوهام، وشركات تنفصل بالأوهام والسوسة، وساوس متسلِّطة، أوهام، أقوال كلها غير صحيحة، فالإنسان العاقل هو الذي لا يقبل إلا الحق، والحق من كتاب الله ومن سنّة رسوله..

العقيدة الإسلامية لا تقبل تقليداً بل تحقيقاً:

(إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ)

(سورة يس: آية " 18 ")

أي تشاءمنا، قال:

(طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ)

(سورة النمل: آية " 47 ")

أنت خيرك من طاعتك لله، وشرّك من معصيتك لله فقط وأي عامل آخر غير صحيح، لا تصدِّقه..

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنّ)

قال بعض العلماء: **" لا تُقبَل العقيدة إلا تحقيقاً "**. هناك جمهور من العلماء يرفض أن يعتقد الإنسان تقليداً لأنه ظن..

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنّ)

الله تعالى لا يعذر إنساناً يتبع إنساناً غير مستقيم:

يجب أن تُحقِق، يجب أن تدقِق، إذاً العقيدة لا تُقبل إلا تحقيقاً ولا تُقبَل تقليداً، ولو قُبِلَت تقليداً لكان كل الذين انحرفوا في عقيدتهم عند الله ليسوا مؤاخذين، يا رب فلان قال لنا هكذا فسمعنا كلامه، فهذا كلام مرفوض ؛

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَة)

وبعد ؛ كل إنسان إذا كان قد نشأ مع جماعة ولهم رأس وتكلّم رأسهم كلاماً غير صحيح وأسقط الصلاة وأسقط غيرها من التكاليف، يا رب إننا لا نعلم..

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ)

لذلك لا تُقبَل العقيدة إلا تحقيقاً، لا تُقبَل إلاّ تصديقاً، لا تقبل تقليداً، أنت يُمكن أنْ تقلد في حكم شرعي، تقلِّد في حكم فقهي، يا أخي أنا حنفي ورأي الإمام أبي حنيفة هكذا، هذا في العبادات أما في العقائد لا يقبل إلا أن تتحقق، لأن الله لا يعذرك إذا اتبعت إنساناً غير مستقيم..

((ابن عمر، دينك، دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

(العلل لابن أبي حاتم)

الظن، الوهم، الهوى، مفاهيم تتبع من دون الله:

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنّ)

عندنا مفاهيم منها: الظن، والوهم، والهوى، قال:

(وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ)

أحياناً شهوة تتخَذ إلهاً يُعبَد من دون الله، أحياناً الإنسان يقول لك: الاختلاط ليس فيه حرج أبداً بل بالعكس إنه يهذِّب المشاعر، فهذا ماذا يتبع الآن ؟ إنه لا يتبع الوهم، بل يتبع ما تهوى الأنفس، أحياناً تتبع وهماً، يقول لك: إنّ الآلهة اليوم ساخطة عليك لأنك لم تقرّب لها القرابين، كانوا يختارون أجمل فتاة في مصر ويلقونها في النيل لماذا ؟ استرضاءً للنيل، شعوب تُقدِّم الفتاة الجميلة وتُلقَى في النيل، وتموت غرقاً من أجل أن يرضى عنهم نهر النيل، فهذا وهم، أما عندما يروج الإنسان المعصية ويفلسفها، ويعمل لها غطاء فكرياً، ويقول لك: الاختلاط يهذِّب المشاعر، هذا لا كلام ثانٍ، هذا هو ما تهوى الأنفس، فالإنسان إما أن يتبع الظن أو أن يتبع ما تهوى الأنفس..

الهدى أساس القضاء على الوهم و الهوى:

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى)

وبعدُ ؛ فالوهم قُضي عليه بالهدى، والهوى الموهوم قُضي عليه بالهدى، انتهت الحجّة، ولكن قبل نزول هذه الرسالة العظيمة كان هناك الوهم والهوى، ولكن بعد أن بيّن الله كل شيء وأنزل على عبده الكتاب، وجعله نوراً، وجعله إماماً، وجعله حبلاً متيناً، فبعد أن أرسل الله أنبياءه ورسوله انتهت الضلالات، وانتهت الأهواء، قال:

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى)

العبرة بالمضمون لا بالأسماء الفارغة التي لا تقدم و لا تؤخر:

محور درسنا اليوم..

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ)

ائت بسيارة صُنِعَت عام أربعين وهي لا تقوى على السير، وعلِّق عليها ماركة أعلى سيارة في العالم، فإنها تبقي كما هي قديمة مستهلكة، هذه الكلمة لا تقدِّم ولا تؤخِّر، هذا معنى واضح جليّ:

(أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ)

فالإنسان لا يتعلّق بالأسماء، يتعلّق بماذا ؟ بالمسمّيات، لا يقبل اسماً بلا مسمّى، بعضهم قال: **"كان التصوّف مسمىً بلا اسم في عهد أصحاب رسول الله، فأصبح اسماً بلا مسمى فيما بعد ".** العبرة بالمسمى، بالمضمون، بالجوهر لا بالأسماء الفارغة، فالأسماء الفارغة لا تقدِّم ولا تؤخِّر، وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى نتابع تفسير الآيات:

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (24) فَلِلَّهِ الْآَخِرَةُ وَالْأُولَى (25))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النجم 053 - الدرس (4-9): تفسير الآيات 24-28

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-09-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الرابع من سورة النجم، ومع الآية الرابعة والعشرين:

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (24) فَلِلَّهِ الْآَخِرَةُ وَالْأُولَى (25))

(سورة النجم)

عدم نجاة الإنسان من عذاب الله إلا بطاعته:

الإنسان يتمنى، يخطط، يرسم ملامح المستقبل، يستخدم طاقاته، إمكاناته، علمه، خبرته، لبلوغ هدفٍ معين، فلو أنه ظن أن قدراته الذاتية كافية لتحقيق أهدافه فقد أشرك.

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

الأمر كله بيد الله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فالإنسان إذا تصور أنه قادرٌ على أن يفعل ما يريد، أو يحقق ما يتمنى، أو أن يصل إلى ما يصبو إليه فقد أشرك نفسه مع الله وهو واهمٌ، وهذا عين الجهل، القضية ليست بتمنيات الإنسان، ولا بتخطيطه، ولا بنزواته، ولا بسعيه، ولكن بفعل الله ومشيئته، أضرب لكم مثلاً:

هناك قوانين قننها الله عزّ وجل، فأنت إن لم تتأدب معها فهذه القوانين من شأنها أن تسحق الإنسان، من هذه القوانين قانون السقوط، سقوط الأجسام سقوطاً حراً، أنت إن لم تتأدب مع هذا القانون وتستخدم مظلة تجعل للهواء مقاومة تهبط رويداً رويداً، إن لم تعبأ بهذا القانون وألقيت نفسك من الطائرة هلكت، هذا مثل، السقوط له قانون، من أجل أن تصل سالماً تحتاج إلى مظلة، هذه المظلة تقاوم الهواء، هذه المقاومة تجعل السرعة معتدلة، ثابتة، إلى أن تصل بها إلى الأرض، فالله عزّ وجل سَنّ سنناً، وقنن قوانينَ، فأنت لا تنجو من عذاب الله إلا بطاعته، لا تنجو من عذاب الله إلا بإتباع سنة نبيه، الأمر ليس بتمنياتك، ولكن الأمر بقانونٍ قننه الله، مثلاً:

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة يونس)

قانون..

الجاهل من لم يتبع القوانين التي سنها الله عز وجل:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: آية " 50 ")

قانون، لو أنك تتبعت القوانين التي قننها الله في القرآن الكريم لوجدت أنك إن لم تتبعها فأنت جاهل.

إخوانا الكرام: الإنسان إذا تمنى، وخطط، ورسم هدفاً، واستخدم طاقاته، وقدراته، وخبراته، وإمكاناته لتحقيق هذا الهدف ولم يكن مطيعاً لله عزّ وجل، ولم يكن متبعاً لمنهجه، فهذا الهدف لا يتحقق، وإذا تحقق يكون هذا مُناقضاً لوجود الله عزّ وجل، النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول:

((ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً سهلا))

الآية الكريمة تؤكِّد أن شيئاً لا يحدث في الكون إلا بتوفيق الله، وما توفيقي إلا بالله، هذه الحقيقة حينما تغيب عن الإنسان يؤلِّه الأسباب، ويعبدها من دون الله، ويتوهمها كافيةً لتحقيق النتائج والأمر ليس كذلك.

السعادة، التوفيق، النجاح أشياء مرتبطة بطاعة الله:

بعض العارفين يقول: **" عرفت الله من نقض العزائم "**، تخطط، وتدبر، وتهيّئ، وتتخذ الأسباب، وتجعل الطاقات كلها مركزةً في هدفٍ معين، ثم لسببٍ تافهٍ تافه يُحْبَطُ عملك، ويخيب ظنك، ويفشل مسعاك.

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

فكم من إنسان، وكم من فئة، وكم من جهة، وكم من شعب، وكم من أمة تمنّت فلم تحقق أمنياتها، الأمر ليس بتمنياتك، الإنسان أحياناً يخطط، سأفعل كذا، سأكون كذا، بعد كذا سأكون كذا، يفاجأ أن الموت قضى على كل آماله، أو أن مرضاً عُضالاً أذهب كل تمنياته، أو أن خطأً آخر جرّه إليه ففقد كل آماله، فأنت إذا أردت السعادة في الدنيا، أو أردت التوفيق، أو أردت النجاح، فالأمر ليس بتمنياتك، ولكن بتوفيق الله لك، وتوفيق الله لك منوطٌ بطاعتك له، القضية دقيقة.

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

أيُّ شيء تتمناه يكون ؟ فهذا شأن الخالق.

مشيئة الله فوق كل شيء في الكون:

الله عزّ وجل يصف نفسه فيقول:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

(سورة البروج)

هذا شأن الخال لا شأن المخلوق، المخلوق لا يفعل ما يريد، كم يريد ولكن ما أكثر ما ألاّ يتحقق ما يريد.

((أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد، إن سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

فالآية دقيق جداً معناها: اعتقد اعتقاداً جازماً أن شيئاً في الكون لا يقع إلا بمشيئة الله، وأنت لا تستطيع أن تحقق أمنياتك إلا بتوفيق الله، وتوفيق الله ثمنه طاعته، فإن أردت أمراً بمعصيةٍ كان هذا الأمر أبعد مما ترجو وأقرب مما تحذر، من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى.

الجاهل من لا يدخل في حساباته توفيق الله عز وجل:

لذلك فالإنسان الجاهل يخطط لتحقيق أمنياته ولا يدخل في حساباته توفيق الله عزّ وجل، ولا يعبأ بوحدانية الله، وأنّ الله يفعل ما يريد، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، كم من حدث، آلاف الأحداث التي تجري تحت سمعنا وبصرنا مفادها أن الإنسان إذا أراد تحقيق ما يريد بمعزلٍ عن مشيئة الله فهذا الشيء لا يتحقق، ولحكمةٍ بالغةٍ بالغة يحبط بسببٍ تافهٍ تافه، إذا أراد الله عزّ وجل إظهار آياته نصر المؤمنين بسببٍ صغير، فرياحٌ عاتية هبت على الأحزاب في موقعة الأحزاب فأطفأت نيرانهم، واقتلعت خيامهم، وقلبت قدورهم، فحملوا أمتعتهم وغادروا.

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

(سورة الأحزاب)

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)

(سورة الأحزاب: آية " 25 ")

هم ماذا أرادوا ؟ أراد كفار قريش ومن لف لفهم ومن ناصرهم ومن حالفهم أرادوا أن يَسْتَأْصِلوا شأفة المسلمين، أرادوا أن يبيدوهم عن آخرهم، فجاءهم جيش مؤلفٌ من عشرة آلاف مقاتل، ولم يجتمع جيشٌ في الجزيرة من قلُ بهذا العدد، ثم إن اليهود كعادتهم نقضوا عهدهم معهم، فالمسلمون كُشفوا، وأصبح القضاء عليهم قضية وقت، أصبح استئصالهم لسويعاتٍ قليلة..

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (12))

(سورة الأحزاب)

نصر الله عز وجل للمؤمنين الصادقين:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب)

الله عزّ وجل ساق لهم الرياح قلبت قدورهم واقتلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم، وجعل النصر المؤزّر على يدِ صحابيٍ جليل هو نعيم بن مسعود أسلم حديثاً ولم يعلم بإسلامه أحد فقال للنبي عليه الصلاة والسلام: **" مرني ماذا أصنع ؟ "** قال: **" خذل عنا ما استطعت "**، فذهب إلى جموع المشركين وحدّثهم بحديث، وذهب إلى اليهود وحدثهم بحديث، أوقع بينهم، وهبت الرياح، معركةٌ كان القصد منها استئصال شأفة المسلمين، لكنهم لم يفلحوا، و ردّهم بغيظهم لم ينالوا خيراً.

فالذي أريده من هذه الآية أن كل ما يتمناه الإنسان لا يقع إلا إذا شاء الله له أن يقع.

أعظم الشرك من يعتقد أنه سينتصر دون مشيئة الله:

بمعنى آخر أن خطة الله عزّ وجل تستوعب خطة الإنسان، لا يقع من خطة الإنسان إلا ما شاء الله منها أن يقع، أما أن تظن أن في الأرض جهةً مستقلةً بمشيئتها عن الله، أما أن تظن أن جهةً في الأرض مهما قويت شوكتها ومهما عظم شأنها تستطيع أن تفعل ما تريد، فهذا هو عين الشرك، لذلك:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة يونس)

الأخذ بالأسباب من تمام التوكل:

حينما كان النبي عليه الصلاة والسلام وصاحبه الصديق في غار ثور، فالنبي عليه الصلاة والسلام أخذ بالأسباب كلها، اتجه بمن معه مساحلاً، وهيّأ من يمحو آثار سيرهم، وهيّأ من يأتيه بالأخبار، ومن يأتيه بالزاد، واستأجر خبيراً متمكناً من خبايا الطريق، وآثر الخبرة على الولاء، ومع كل هذه الاحتياطات،

ومع كل هذه الأسباب، ومع كل هذه الأساليب وصل المشركون إلى غار ثور، فقال الصديق: **"يا رسول الله لو أن أحداً نظر إلى موطئ قدمه لرآنا "**، فقال عليه الصلاة والسلام:

((يَا أبا بَكْرٍ مَا ظَنّكَ باثْنَيْن الله ثَالِثُهُمَا))

(متفق عليه)

أي إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ثم تروي كتب السيرة أن سيدنا الصديق قال للنبي عليه الصلاة والسلام: **" يا رسول الله لقد رأونا "**، فقال عليه الصلاة والسلام: **يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى:**

(وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف)

الله تعالى فعّال لما يريد:

و في طريق الهجرة ألم يأتِ سراقة وهو من كبار الفرسان ليأخذ النبي، وليأتي به حياً أو ميتاً لينال مئتي ناقة جائزة خصّصت لكل من يأتي به حياً أو ميتاً ؟ ماذا قال عليه الصلاة والسلام لسراقة ؟:

((يا سراقة كيف بك إذا لبست سواري كسرى))

كلكم قرأتم هذه الفقرة لكن قلما يقف عندها، النبي ملاحق وقد هدر دمه، ووضعت مئتا ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً ويقول لسراقة:

((يا سراقة كيف بك إذا لبست سواري كسرى))

أي أنا سأصل إلى المدينة، وسأنشئ مجتمعاً إسلامياً، وسنحارب الكفار، وسننتصر عليهم، وسنأتي بتاج كسرى وسواريه من غنائمنا، ويا سراقة أنت سوف تلبس سواري كسرى، هذه ثقة النبي بالله عزّ وجل، يجب أن نؤمن أنه لا فعال إلا الله، وأن كل الذين ترى أعينكم أدواتٌ بيد الله يحركها كيف يشاء، لذلك لخص هذه الحقيقة أحد الأنبياء الكرام فقال:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

((قلوب العباد بين أصبعي الرحمن إنه إذا أراد أن يقلِّب قلب عبد قلبه))

(أخرجه أحمد عن عائشة)

أساس الدين التوحيد:

أنت الآن تقف أمام إنسان أقوى منك، ما الذي يدور في خلده ؟ الله يعلم، من الذي ألقى في رُوعه أن يسامحك ؟ الله، من الذي ألقى في روعه أن يحاسبك ؟ الله، من الذي عَطّفَهُ عليك ؟ الله، من الذي قسّا قلبه عليك ؟ الله، فأنت علاقتك مع الله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، بيده الخلق، بيده الأمر، بيده مرجع كل شيء، بيده ملكوت كل شيء، إليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه.

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر: آية " 2 ")

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: آية " 84 ")

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: آية " 10 ")

هكذا الدين، الدين توحيد، الدين ألاّ ترى مع الله أحداً.

تعلق إرادة الله المطلقة بحكمته المطلقة:

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

فالكافر يظن نفسه أنه يسبق الله عزّ وجل، يتوهّمُ ذلك حينما يظنُّ أن بإمكانه أن يفعل ما يريد، لا والله، الله وحده الفعال لما يريد، أما أنت لا تستطيع أن تفعل إلا ما أراده الله لك أن تفعل، اختر ما شئت وافعل ما شئت لكنه لا يقع إلا ما أراده الله، يجب أن نعلم علم اليقين أن كل شيءٍ وقع أراده الله، وأن كل شيءٍ أراده الله وقع، وأن إرادة الله متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

المؤمن الحقيقي من يثق بأمر الله و وجوده:

لو أن إنساناً قوياً تمنى شيئاً لا يرضي الله، وسخّر كل طاقاته و إمكاناته لتحقيقه وتحقق، هذا يتناقض مع وجود الله، لذلك الإنسان لا ينبغي أن يضفي على الكفرة الفجار القوى الأسطورية، لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً إلا أن يأذن الله، الأمر بيده، بيده وحده.

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

﴿ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾

(سورة الأعراف: آية " 54 ")

هكذا الإيمان..

عين الشرك من يعتقد أن جهة ما مستقلة عن الله في أفعالها:

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾

أي إذا توهّمتَ أن جهةً في الأرض مهما قويت، ومهما علا شأنها أنها مستقلةٌ في إرادتها وفي أفعالها عن الله، فهذا هو عين الشرك، وهذا هو الشرك الذي لا يقبله الله عزّ وجل، شأنك مع الله، علاقتك بالله، فمثلاً: لو أن أحداً عاش في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت له قضيةٌ مع إنسانٍ آخر، ورُفِعَت القضية إلى النبي صلى الله عليه وسلم، كلٌ أدلى بدلوه، واحدٌ منهم بحجةٍ ناصعة وبيانٍ طليق، ولسانٍ ذرب استطاع أن ينتزع من فم النبي حكماً لصالحه ولم يكن محقاً لا ينجو من عذاب الله.

((وَلَعَلّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النّارِ))

(البخاري عن أم سلمة)

علاقتك مع الله وحده وهو يراك حين تقوم، يرى تقلّبك في الساجدين، يرى نواياك، يرى مبتغاك، يرى ما تصبو إليه، يرى ما يعتلج في صدرك، يرى كل دقائق حياتك، يرى كل ثنيات شخصيتك، أنت مكشوفٌ أمامه، لذلك تعامل مع الله وحده، ولا تبالِ بأحد، فإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان الله عليك فمن معك، ما معك أحد، أقرب الناس إليك يتنكر لك، وإذا كان الله معك عدوك اللدود يخدمك، شاءت حكمة الله أن يسخِّر لك عدواً يخدمك إن توكّلت عليه، وأن يتنكر أقرب الناس إليك إن اعتززت بنفسك.

من يشرك نفسه مع الله يتخلى الله عنه:

يا أيها الأخوة الكرام: هذا الموضوع متصل بهذه الآية، أنت في حياتك الدنيا، أنت في كل يومٍ بين حالين، حال التولّي، وحال التخلِّي، إما أن يتولاك الله فيكفيك كل مؤْنَة، وإما أن يتخلّى عنك فيقوى عليك كل صغير، إذا كنت معه موحداً، منيباً إليه، مفتقراً لعونه، يتولاك، عندئذٍ أنت أقوى الناس، وأنت أغنى الناس، وأنت أكرم الناس، أما إذا قلت: أنا، واعتدَدت بنفسك، وأشركت نفسك مع الله، يتخلّى عنك، وإذا

تخلّى عنك لا ينفعك أحد، وليس هذا بدعاً من القول، الصحابة الكرام، ومعهم سيد الأنام في معركة حنين هزمهم الله عزّ وجل..

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

الإنسان المفتقر إلى الله يتولاه الله برحمته و رعايته:

لكن في معركة بدر قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران: آية " 123 ")

أي مفتقرون، فأنت على علمك، واختصاصك، وخبرتك، ومالك، وموقعك، وشأنك في المجتمع، مهما علا شأنك إذا قلت: أنا، تخلّى الله عنك، إذا قلت: الله، تولاّك، فأنت بين التخلِي والتولِي، إن شئت أن يتولاّك الله وهو خير ولي فكن مفتقراً إليه، وإن شئت أن يتخلّى عنك كان لك ذلك، وإذا تخلّى عنك وَكَلَكَ إلى نفسك وأنت ضعيفٌ صغير، عندها يتجرّأ عليك أضعف الخلق وأحقر الخلق.

أيها الأخوة: كما في الدعاء الشريف:

((اللهم صُنْ وجوهنا باليسار ولا تبذلها بالإقتار فنسأل شر خلقك ونبتلى بحمد من أعطى وذم من منع، وأنت من فوقهم ولي العطاء وبيدك وحدك خزائن الأرض والسماء))

ليس للإنسان ما يتمنى إنما ما يقدره الله له:

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

هذا استفهام إنكاري، ليس له ما يتمنى، الآية الكريمة:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة النساء: آية " 123 ")

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة البقرة)

القضية بالسَعْي، القضية بالعمل، القضية بإتباع منهج الله، القضية بطاعة الله.

طاعة الله عز وجل أصل كل خير يقدره للإنسان:

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

استفهام إنكاري، أي ليس له ما يتمنّى، ليس له إلا ما يقدِّرُهُ الله له، والله يقدر كل خير بناءً على طاعتك له، الأصل أن تطيعه:

(إنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: آية " 13 ")

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

لا منجى منه إلا إليه:

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنـــا

و لذ بحمانا واحتــم بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنــا

و عن ذكرنا لا يشغلنك شاغل و أخلص لنا تلقى المسرة و الـــهنا

و سلم إلينا الأمر في كل ما يكن فما القرب والإبعاد إلا بأمرنـــا

***

سعادة الدنيا والآخرة مرتبطة بطاعة أمر الله:

أيها الأخوة: طاعة الله عزّ وجل هي سبيل الفوز العظيم، طاعة الله عزّ وجل هي سبيل النجاح، سبيل التوفيق، سبيل الطمأنينة، سبيل سعادة الدنيا والآخرة، سبيل استحقاق نصر الله، سبيل استحقاق تأييده، سبيل استحقاق حفظه، سبيل استحقاق عفوه، سبيل استحقاق سعادة الدنيا والآخرة.

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

الجواب: ليس له ما تمنى..

الآخرة بيد الله لا بيد الأصنام:

(فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى)

(لله الآخرة)

فالأبدية بيد الله، فإن ظننتم يا كفار قريش أنكم تعبدون اللاّت والعُزّى كي تتقربوا بها إلى الله زلفى، الآخرة بيد الله لا بيد اللات والعزى، هذا معنى الآية:

(فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى)

حينما قالوا:

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ)

(سورة الزمر: آية " 3 ")

قال الله لهم:

(فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى)

الأمر ليس بيد هذه الأصنام، ولا بيد الملائكة الذين اعتقدتم أنهم أناسٌ وهم بنات الله بزعمكم.

تقديم الآخرة على الأولى لأنها الحياة الحقيقية للإنسان:

(فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى)

وقد قُدِّمَتْ الآخرة على الأولى تقديم أهمية، لأن الآخرة هي الحياة الحقيقية، ألم يقل الإنسان إذا جاءه الموت:

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

أيّةُ حياةٍ كان يحياها، هذه حياةٌ دنيا، حياةٌ كلها متاعب، حياةٌ قصيرة، حياةٌ متعبة..

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

(سورة الانشقاق)

حياةٌ أساسها بذل الجهد، حياةٌ مشحونة بالمتاعب، لا تصفو لأحد، مصممة على ألاّ تصفو لأحد، **" إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي ".**

الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف:

الدنيا مصممة على أنها لا تصفو لإنسان، لا راحة لمؤمنٍ إلا بلقاء وجه ربه، ولحكمةٍ بالغةٍ بالغة جعلها الله عزّ وجل مشحونة بالمتاعب لئلا نركن إليها، إنها مدرسة وليست نزهة، الإنسان في المدرسة لا ينبغي أن يكون المقعد مريحاً جداً، إذاً ينام، إذا شاء لمدرسةٍ أن تكون المقاعد فيها وثيرةً ومريحة، والغرفة مكيفة تكييفًا رائعاً، والطعام أمامه، والشراب أمامه، والمجلاّت أمامه، فأين المحاضرة ؟ فهذه ليست مدرسة، إننا في مدرسة، إننا في مزرعةٍ للآخرة، إننا في دار عمل لا في دار جزاء، في دار

سعي لا في دار نعيم، في دار تكليفٍ لا دار تشريف، الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف، الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء، فإذا فهمنا الدنيا دار جزاء أو دار راحة وقعنا في مطبٍ كبير، وقعنا في خطأٍ قاتل.

إنك هنا في الدنيا من أجل أن تعرف الله، ومن أجل أن تطيعه، ومن أجل أن تعمل العمل الصالح الذي تستحق به دخول الجنة، قد تتنعم إذا شاء الله لك أن تتنعم، أما أن تجعل النعيم هدفاً، أما أن تجعل الراحة هدفاً فقد أخطأت سواء السبيل:

((إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ))

(مسند الإمام أحمد عن معاذ بن جبل)

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

(سورة الفرقان: آية " 63 ")

مهمة الإنسان الأساسية في الدنيا معرفة الله:

سيدنا عمر كان إذا سار أسرع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وإذا قال أسمع، لا يمشي هوناً، والنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا سار كأنه يَنْحَطُّ من صَبَبْ، أي يسرع، ما معنى الآية إذاً ؟ معنى الآية أن المؤمن لا يسمح لشيءٍ أن يلغي وجوده، ولا يسمح لعملٍ أن يلغي معرفته بربه، لا يسمح لشيء أن يستهلكه، يمشي هوناً، يقتطع من وقته وقتاً لمعرفة الله، يقتطع من وقته وقتاً لمعرفة منهجه، يقتطع من وقته وقتاً للعمل الصالح، يقتطع من وقته وقتاً للأمر بالمعروف، وهو مخلوقٌ لمعرفة الله، فإذا غابت عنك مهمتك الأساسية فهذا ضياع شديد.

شاب سافر إلى بلد لينال الدكتوراه، فلما وصل إلى هذا البلد، نسي مهمته، فكان ينتقل من مسرح إلى مسرح، ومن نادٍ إلى نادٍ، ومن متحفٍ إلى متحف، حتى انقضت المدة وعاد إلى بلده صفر اليدين، نقول: هذا ما عرف الهدف الذي من أجله سافر إلى ذاك البلد، لو عرف الهدف لَجَمّعَ طاقاته كلها في الدراسة.

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (24) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (25) وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (26))

يأذن الله لمن يشاء أن يشفع، ويرضى لمن شُفِعَ له أن يُشَفَّعُ له.

على الإنسان الاتكال على الله لا على أحد من خلقه:

لذلك:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ)

(سورة الزمر: آية " 19 ")

يا محمد..

(أفَمَنْ حَقّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أفَأنْتَ)

(تُنْقِذُ مَنْ فِي النّار (19))

((يا فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم اعملي لله خيراً فإني لا أغني عنك من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب يا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم اعمل لله خيراً فإني لا أغني عنك يوم القيامة من الله شيئاً))

(رواه البزار عن حذيفة)

((وَمَنْ يُبْطِئْ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

(أخرجه أحمد عن أبي هريرة)

لا تتكل على أحدٍ من خلق الله، النبي عليه الصلاة والسلام حينما يرى أمته يوم القيامة تُساق إلى العذاب يقول:

((أُصَيْحَابِي، أُصَيْحَابِي، فَقِيلَ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، قَالَ: فَأَقُولُ: بُعْدًا، بُعْدًا، أَوْ قَالَ: سُحْقًا، سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي))

(أحمد عن أبي سعيد الخدري)

تقسيم أمة سيدنا محمد إلى:

لذلك فالعلماء قسّموا أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم إلى أمتين، أمة التبليغ، وأمة الاستجابة:

1 ـ أمة التبليغ:

أي كل إنسان ولد من أبوين مسلمين وسمع من خُطب الجمعة مبادئ الإسلام فهو من أمة التبليغ، وليس لهذا الإنسان أية مَيّزةٍ على الإطلاق..

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللّهِ وَأَحِبّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة: آية " 18 ")

أيْ إذا قال المسلمون قياساً على هذه الآية: نحن أمة محمدٍ، يقال لهم:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمّنْ خَلَقَ)

هذه أمة التبليغ.

2 ـ أمة الاستجابة:

أما الذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وطبقوا منهج الله في بيوتهم وفي أعمالهم، واستلهموا هَدْيَ القرآن الكريم، ولم تأخذهم في الله لومة لائم، هذه أمة الاستجابة، هؤلاء أمة محمدٍ المرحومة، هؤلاء الذين لهم عند الله مكانة كبيرة، هؤلاء الذي ينطبق عليهم قوله تعالى:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران: آية " 110 ")

كنتم ببعثة النبي عليه الصلاة والسلام وبإتباعكم لمنهجه خير أمةٍ أخرجت للناس، بهذا: والعِلّة..

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران: آية " 110 ")

ظن المشركين أن الملائكة إناث و هن بنات الله عز وجل:

إذاً:

(وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (26) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (27))

توهّموا وظنّوا وجهلوا أن الملائكة إناثٌ وأنهن بنات الله، قال:

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (27) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (28))

لذلك قد تعشعش في ذهن الإنسان أوهامٌ ما أنزل الله بها من سلطان، ضعْ لأعمالك جرداً، فهذا وَهْمٌ دعه، وهذا حقٌّ فاتّبعه واجعل الحقيقة هي التي تصبو إليها نفسُك.

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (27) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (28))

الطاعة لا تكون إلا بمعروف:

أيها الأخوة الكرام: احرصوا حرصاً بالغاً على ألاّ تعتقدوا إلا العقيدة الصحيحة التي توافق الكتاب والسنة، أما أن يمتلئ عقل الإنسان بالضلالات، وبالخرافات، وبالتُرّهات، فهذا من شقاء الإنسان في الدنيا والآخرة، فالإنسان مكرمٌ عند الله عزّ وجل، وهو أعظم وأجل من أن يكون ضحية خرافةٍ أو فِرْيَةٍ

أو إفكٍ أو قضيةٍ مبنيةٍ على الوهم والظن، فالإنسان عليه أن يتحرّى، ولا يقبل شيئًا إلاّ بدليل، وبتعليل وعلى بصيرة، والله سبحانه وتعالى علّمنا من خلال سنة النبي أشياء كثيرة، هؤلاء الذين بعثهم النبي في سريةٍ وأمّر عليهم أنصارياً وقال هذا الأنصاري: **" أضرموا ناراً واقتحموها، فقال بعض أصحاب النبي: كيف نقتحمها وقد آمنا بالله فراراً منها ؟ "**. فلما رُفِعَ الأمر للنبي قال عليه الصلاة والسلام:

((لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً، إنما الطاعة في معروف))

(أخرجه البخاري عن علي)

علامة المُتبع للنبي الكريم أنه يدعو على بصيرة:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة يوسف)

فنحن على بصيرةٍ ؛ أنا ومن اتبعني، فعلامة المُتبع للنبي أنه يدعو على بصيرة، يدعو بالدليل، يدعو بالبرهان، يدعو بالحجة، ولا يأتي بشيء من عنده، أنما أنا متبع ولست بمبتدع فلذلك:

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ)

اطلب الدليل، لا تقبل أية فكرة، لا تكن ضحية لفكرةٍ غير صحيحة، لا تكن تابعاً لوهمٍ لا أساس له..

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ)

ولو استخرجنا ما في عقولنا وعرضناه على مِحَكِّ الواقع، ومحك الكتاب والسنة، ومحك العلم، لوجدنا أربعة أخماس ما نعتقده وهمٌ بوهمٍ وخرافةٌ بخرافة، فيجب أن تحرر العقول من كل الأوهام، وما أكثر الأوهام في حياتنا.

الحق ما وافق العقل والنقل والفطرة والواقع:

لذلك:

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً)

نحرص حرصاً بالغاً على أن نعتقد الحقيقة، على أن نعتقد ما جاء به القرآن الكريم، ما جاءت به السنة النبوية، على أن نعتقد ما وافق الواقع الإسلامي، على أن نعتقد ما وافق الفطرة، على أن نعتقد ما وافق العقل، على أن نعتقد ما وافق النقل، هذا هو الحق، يوافق النقل الذي هو وحي السماء، يوافق العقل الذي هو مقياسٌ أودعه الله فينا، يوافق الفطرة التي هي مقياسٌ نفسيٌ لا يخطئ، يوافق الواقع، وكل ما خالف الواقع، أو خالف الفطرة، أو خالف العقل، أو خالف النقل، فهو ليس من الحق، مقياس الحق دائرةٌ يمرُ فيها أربعة خطوط، خط العقل والنقل والفطرة والواقع، فيجب على كل منا أن يستخرج ما عشعش في

ذهنه، من اعتقادات لا أصل لها، من خرافات لا يقبلها العقل السليم، من ظنون لا أساس لها، أن ننبذها وأن نعتقد ما جاء به القرآن والسنة الصحيحة.

كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه:

إذا قلنا مثلاً: لا يعلم الغيب إلا الله، كم قصةٍ يمكن أن تركلها بقدمك وفق هذه الآية ؟ كم ادعاء يّدعيه الشّذّاذ والأفّاكون ؟ كم ادعاء يدّعيه المنحرفون ؟ فقد يدعون أنهم يعلمون الغيب مثلاً، آية واحدة يمكن أن تجعلك تركل ألف قصةٍ بقدمك، يجب أن تعتقد ما في القرآن الكريم، الآن العالم كله يتوهّم أن الإنسان أصله قرد، هكذا قال داروين، فالقرآن ماذا يقول ؟

(وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)

(سورة السجدة)

فلو اعتقدت أن هذا كلام الله وأنه كلامٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا تعبأ بأية نظريةٍ من صنع أناسٍ حقدوا على الدين وأرادوا أن يصدموا الدين في جذوره وفي أصوله.

الحقيقة علاقة مقطوعٌ بصحتها توافق الواقع:

لذلك:

(إ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (27) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ)

هنا الظن بمعنى الوهم، وطبعاً كما تعلمون مقياس الحقيقة علاقة مقطوعٌ بصحّتها، فإنْ لم تكن مقطوعاً بصحتها كان الوهم، أو كان الشك، أو كان الظن، فنسبة الوهم ثلاثون بالمئة، الشك خمسون، الظن ثمانون أو سبعون، أما الحقيقة فمقطوعٌ بصحتها مئة بالمئة، علاقة مقطوعٌ بصحتها توافق الواقع وعليها دليل، لو ألغينا الدليل لكان التقليد، لو ألغينا الواقع لكان الجهل، لو ألغينا القطع لكان الوهم والظن والشك، فالحقيقة ليست وهماً ولا شكاً ولا ظناً ولا تقليداً ولا جهلاً، الجهل هو مخالفة الواقع، فمن دون دليل تقليد، ومن دون قطع مئة بالمئة شكٌ أو وهمٌ أو ظن.

معرفة الحقيقة توصل إلى الله:

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ)

أي الوهم، لذلك فالدعاء في مثل هذه المناسبة:

" اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القُربات ".

(وَإِنّ الظّنّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقّ شَيْئاً)

إخوانا الكرام: ما من شيء أهم في حياة الإنسان من معرفة الحقيقة، إنك إن عرفتها سعدت بها في الدنيا والآخرة، إن عرفت الحقيقة عرفت سر وجودك، عرفت غاية وجودك، إن عرفت الحقيقة تتبعت منهجها، إن عرفت الحقيقة وصلت إلى الله لأنه هو الحق لذلك لا نشاط في الحياة الدنيا يعلو على أن تعرف الحقيقة، لا نشاط في الحياة الدنيا يعلو في أهميته على أن تعرف الحقيقة..

تطبيق آيات القرآن الكريم سبب سعادة الإنسان في الدنيا و الآخرة:

(وَالّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت)

أيها الأخوة: هذا كتاب الله، هذا وحي السماء للأرض، هذه تعليمات الصانع، هذا الكتاب يهدي للتي هي أقوم، من أمسك به فقد أمسك حبل الله، ومن أمسك حبل الله نجا من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرة.
فلذلك يا أيها الأخوة: هذا الكتاب علينا أن نقرأه، أن نتلوه حق تلاوته، ومن تلاوته حق تلاوته أن نتلوه وفق أحكام التجويد، وأن نتلوه فنفهم آياته، وأن نتلوه فنتدبّرها، وأن نتلوه فنطبّقها، إن تلوته حق تلاوته، وإن فهمت آياته، وإن تدبرتها، وإن طبقتها سعدت به في الدنيا والآخرة، هذا كتابنا المقرر، وهذا الكتاب الذي نحاسب عليه.

(وَلَقَدْ يَسّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدّكِرٍ)

(سورة القمر)

تريده مسموعاً فهو متوفر، أو مطبوعاً فهو في متناول يدك، أو مقروءاً فما أكثره، وكذلك مفسراً، فالملاحظ أن هذا الكتاب الكريم قد تولّى الله جلّ جلاله في عليائه حفظه، وتولى تيسيرَهُ للناس، تسمعه صباحاً ومساءً، فلا تجد بيتاً إلا وفيه أكثر من نسخة للمصحف وتفاسير، ودروس علم، والأبواب مُفَتَّحَةٌ على مصاريعها، من غير رسم دخول، ولا ضريبة، ولا أيّة عقبة، تعالَ واستمع وطبّق واسعد في الدنيا والآخرة.

القرآن الكريم ربيع القلوب:

فيا أيها الأخوة الكرام: القرآن ربيع القلوب وهو روح الروح، ما معنى روح الروح ؟ أي جسمك يحتاج إلى غذاء، وروحك تحتاج إلى غذاء، غذاء روحك هذا القرآن، إذاً هو روح روحك.

أيها الأخوة: إذا قرأته وتدبّرته وجدت حلاً لكل مشكلاتك، ما من سؤال عويص إلا وترى فيه حلاً في القرآن الكريم، لذلك لا يحزن قارئ القرآن، وهذه بشارة: من تعلّم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، اقرأه صباحاً ومساءً، أثناء الليل وأطراف النهار، احضر دروس التفسير، اعمل به، طبّقه يكن لك ذخراً وسعادةً في الدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النجم 053 - الدرس (5-9): تفسير الآيات 29-31

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-09-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس الخامس من سورة النجم، ومع الآية الكريمة الآيةِ التاسعةِ والعشرين، وهي قوله تعالى:

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (30))

أمر الله عز وجل للنبي الكريم بأن يُعرض عمن تولى عن ذكره:

أيها الأخوة الكرام: النبي صلى الله عليه وسلّم يتلقّى أمراً من الله عزّ وجل بأن يعرض عمّن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا، هناك نموذج: إنسانٌ أعرض عن ذكر الله، أدار ظهره للحق، لم يعبأ بكل الآيات الكونية والتكوينية والقرآنية، لم يعبأ بكل العِبَر، ولا بكل المواعظ، ولا بكل ما يُتلى عليه.

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى)

تولّى أدار ظهره لذكرنا.

(وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

لم يرد إلا و(إلاّ) هنا تفيد القصر، أي لا يعرف من الدنيا إلا مالها، لا يعرف من الدنيا إلا نساءها، لا يريد إلا الدنيا، فإرادته محصورةٌ في الدنيا، قَصَر طلبَه، ورغبَته، واتجاهَه، وإقبالَه على الدنيا.

الإقبال على الدنيا فقط ضرر بالآخرة:

طبعاً لو كانت نقطتان وأنت واقف بينهما، كلّما اقتربت من إحدى النقطتين ابتعدت حكماً عن الثانية، لذلك من أحبّ دنياه أضرّ بآخرته، ومن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه، فالله عزّ وجل يبيّن للنبي عليه الصلاة والسلام وهو السيد الكريم، وهو الرحيم الحريص على هداية أمّته، قال: هؤلاء الذين أداروا ظهورهم لذكرنا، لآياتنا، لوعدنا، لوعيدنا، لأمرنا، لنهينا، لآياتنا الكونية، والتكوينية، والقرآنية، هؤلاء الذين لم يعبئوا، ولم يهتمّوا، ولم يخافوا، ولم يصغوا، ولم يلقوا السمع ما أرادوا إلا الدنيا، إلا المال، إلا اللذّة، إلا الشهوة، إلا العلو، هذا النموذج الذي أعرض عن ذكر الله وأقبل على الدنيا، أعرض فأقبل، أقبل فأعرض، كما قلت قبل قليل: نقطتان وأنت بينهما، إذا اتجهت إلى إحدى النقطتين ابتعدت حكماً عن

الثانية، قال العلماء: هذا النموذج الذي يُقبِلُ على الدنيا بكليتِه، بطاقاته، بإمكاناته، بتصوّراته، بخواطره، بنومه، بيقظته، بحضره، بسفره، هذا الذي يُقبل على الدنيا وحدها لو أن الله عزّ وجل قال: وأراد الحياة الدنيا هذا لا ينفي أن يريد شيئاً آخر، لكن:

(وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

فرقٌ كبيرٌ بين المعنيين، أي أعرض عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا:

(تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

الإعراض عن الإنسان الذي لا يعبأ بالوعد و الوعيد:

قال العلماء: إنّ هذا النموذج لا خير فيه، فأنت في وادٍ يا محمد وهو في واد، أنت في طريق وهو في طريق، تصوُّراته لا تتفق مع إيمان المؤمن، أهدافه لا تنطلق من إيمان مؤمن بل تنطلق من شهوة منحرف، من شهوة معرض.

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

فإذا كان عليه الصلاة والسلام أُمِرَ أن يعرض عن هذا النموذج، وأبناء أمّته أيضاً مأمورون بالتبعية أن يعرضوا عن مثل هؤلاء الأشخاص، فإنسان لا يُدخِل الآخرة في حساباته إطلاقاً، لا يدخل عقاب الله في كل حساباته أبداً، لا يعبأ بكل الوعد والوعيد الذي ورد في كتاب الله، لا يعبأ بكل الآيات الدالّة على عظمة الله، هذا الذي أعرض عن ذكر الله ولم يرد إلا الحياة الدنيا، يريد المال بأية طريقة، بأية وسيلة، من أي مصدر، بأي صفة، من طريقٍ حرام، من طريقٍ حلال، بشكلٍ مشروع، غير مشروع، معقول، غير معقول، بشكل مقبول، غير مقبول..

(وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

هذا النموذج لا خير فيه، لا تضع وقتك معه لأنك أنت في وادٍ وهو في واد، أنت في طريق وهو في طريق.

الإنسان المعرض عن الآخرة إنسان ميت لا خير فيه:

إنسان ينطلق باتجاه الشرق وإنسان باتجاه الغرب فإنهما لا يلتقيان، ولا يجتمعان، ولا يترافقان، ولا يتناصحان، هذا في طريق والآخر في طريق معاكس، فالذي ينطلق من حبِّ الدنيا، وينطلق من إهمال الحق والإعراض عنه، هذا لا يمكن أن يصغي لأهل الحق، ولا أن يؤمن بما يؤمنون، ولا أن يخاف ما يخافون، ولا أن يرجو ما يرجون، ولا أن ينضبط كما ينضبطون، ولا أن يسمو كما يسمون إطلاقاً،

فالإنسان كي يوقِر وقته، كي يكون عمله مع أهل الحق، مع أهل الخير، مع أهل الصلاح، مع من يُظَنُّ فيه الخير، عليه بكتاب الله وسنة نبيّه، قال تعالى يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام مبيّناً أن هؤلاء الأشخاص الذين أعرضوا، والذين انكبّوا على الدنيا حتى انغمسوا فيها إلى قمّة رؤوسهم، هؤلاء مقبورون بشهواتهم، هؤلاء موتى وليسوا أحياء.

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(سورة فاطر)

من لا يخاف الله لا خير فيه:

هؤلاء في آذانهم وقرٌ، وعلى عيونهم غشاوة، هؤلاء:

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

(سورة البقرة)

هؤلاء لا يعرفون الحق، ولا يألفونه، ولا يحبّونه.

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

لذلك من تكلّم بالحكمة لغير أهلها فقد ظلمها، ومن منعها أهلها فقد ظلمهم، فالمؤمن يتوسّم الخير فيمن يدعوهم إلى الله، يستشف ما ينطوون عليه من خوف، من إيمان، من حياء، من خجل، لكن: إذا لم تستح فاصنع ما تشاء الذي لا يستحي لا خير فيه، الذي لا يخاف الله لا خير فيه، الذي لا يرجو ما عند الله لا خير فيه، الذي لا يسأل عن الحلال والحرام لا خير فيه، الذي لا يخاف من وعيد الله لا خير فيه، الذي لا يرجو جنّة الله لا خير فيه.

ابتعاد الإنسان عمن يفضّل المتع الرخيصة:

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا)

أي أنه مستعد أن يحدِّثك لفترة خمس ساعات واقفاً في الطريق، وليس مستعداً أن يستمع إلى حقيقة دينية ولا لخمس دقائق، ويمكن أن يمضي وقتاً طويلاً في كلامٍ فارغ، وفي متعةٍ رخيصة، وفي عملٍ فنيّ ساقط، وليس مستعدّاً أن يجلس في بيتٍ من بيوت الله ليستمع إلى الحكمة والموعظة الحسنة أبداً، قال العلماء: هذا النموذج لا خير فيه، فأنت في وادٍ وهو في واد، أنت في طريقٍ وهو في طريق معاكس، أنت في السماء وهو في الوحل، أنت تحت الضياء وهو في الظلام، أنت مبصر وهو أعمى.

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

أيها الأخوة الكرام: هذا النموذج كثير، وهو في كل مكان، وفي كل زمان، إنسان أراد الدنيا، أراد المال من أي طريق، وبأي أسلوب، لا يعنيه حلالاً أو حراماً، مشروعاً أو غير مشروع، معقولاً أو غير معقول.

صمم آذان أهل الدنيا عن الحق:

(وَلَمْ يُرِدْ إِلّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

يريد اللذّة الرخيصة المحرّمة، لا يؤْتمَنُ على امرأة ولا حتى فضيلة، لا بدّ من أن يكون مثل هذا الإنسان قد أصمّ أذنيه عن الحق، فالنبي عليه الصلاة والسلام يأتيه توجيةٌ إلهيٌ لطيف: أن يا محمد هذه النماذج لا تتعِب نفسك معهم، هؤلاء لا خير فيهم، هؤلاء يتناقضون معك، هؤلاء لا ينطلقون مما تنطلق، ولا يخافون ما تخاف، ولا يرجون ما ترجو، ولا يحبون ما تحبّ، هؤلاء بعيدون كل البعد عن الحق، هؤلاء في الوحول وأنت في العلياء..

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

هذا كل علمهم، قال سبحانه:

(ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)

وصف أهل الدنيا:

الله عزّ وجل وصف أهل الدنيا بآيةٍ كريمة فقال:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الروم: آية " 7 ")

الله جلّ جلاله ما أثبت لهم من العلم شيئاً ولا بحقيقة الدنيا، علموا ظاهرها، فلو تعلّموا، لو كان لهم اختصاص، ولو تمرّسوا بشيء، ولو تراكمت خبراتهم، هذا العلم لا قيمة له عند الله لأنه علمٌ للدنيا، والدنيا زائلة وفانية ولا قيمة لها، هناك علمٌ لا يُنَجّي صاحبه كما قال عليه الصلاة والسلام:

((اللّهُمّ إِنّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا))

(مسلم عن زيد بن أرقم)

أيها الأخوة: العلم في الدنيا حرفةٌ من الحرف، إنسان يرتزق من يده، من مهنةٍ، من حرفةٍ، إنسان يرتزق من اختصاصٍ فكري.

أنواع العلم ثلاثة:

وبعدُ، ها نحن ندخل في موضوع صغير لكنَّه خطير، هناك علمٌ لله، وعلمٌ بخلقه، وعلمٌ بأمره.

1 ـ العلم بخلقه:

العلم بخلقه أن تدرس الفلك، أو الرياضيات، أو الفيزياء، أو الكيمياء، أو أن تدرس علم النفس، أو علم النفس الاجتماعي، أو علم الاجتماع، أو التاريخ والجغرافيا، أو أن تدرس بعض التطبيقات العملية، كأن تكون مهندسَ ميكانيك، هذا اختصاص ترتزق منه ولا يسمو بنفسك، هذا علمٌ بخلق الله.

2 ـ العلم بأمره:

وهناك علمٌ بأمره ؛ معلومات دقيقة، علاقات، أدلّة، براهين، مقدِّمات، نتائج، كتب، هذه ينبغي أن تُحفَظ، وأن تُدرس، وأن تُراجَع، وأن تفهم، وأن يُذاكر بها، وأن يؤدّى بها امتحان، و أن تنال الشهادات، العلم بخلق الله والعلم بأمره علمان يحتاجان إلى مُدارسة، إلى قراءة، إلى فكر، إلى مراجعة، إلى السؤال، إلى جواب، إلى كتابة، إلى تدريب، هذه العلوم علومٌ ماديّة، العلم بخلقة والعلم بأمره، وتحتاج هذه العلوم إلى مدارسة، هي عمل فكري محض، ولا علاقة لها بسمّو النفس إطلاقاً، وهذه العلوم حِرْفَة من الحرَف، وحينما ينتهي أجل الإنسان تنتهي قيمة هذه العلوم، وليس لها أثر بعد الموت.

3 ـ العلم بالله:

لكن العلم بالله أن تتعرّف إلى الله من خلال آياته الكونية، أو من خلال آياته التكوينية، أو من خلال آياته القرآنية، وأن تجاهد نفسك وهواك، هذا العلم أساسه المجاهدة لا المدارسة، العلم بخلق الله والعلم بأمره أساسه المدارسة، بينما العلم بذاته، العلم بالله أساسه المجاهدة، هذا العلم ثمنه باهظ لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلّك، لن تنال منه شيئاً إلا إذا جاهدت نفسك وهواك، إلا إذا حملتها على طاعة الله عندئذٍ هذا العلم يسمو بك.

فحينما ترد كلمة العلم في الكتاب والسنّة فهي تحمل مدلولاً معيّناً، فالإمام الغزالي رحمه الله تعالى يرجّح أن كلمة العلم إذا وردت في الكتاب والسنّة فإنما تعني العلم بالله، العلم الذي يحملك على طاعة الله، العلم الذي يسمو بك إلى الله، العلم الذي يهذِّب جوارحك، العلم الذي يثقل وجدانك، هذا هو العلم.

هناك علم هو عين الجهل وهو عدم تحكيم منهج الله في حياتنا:

لذلك:

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)

أنّ هناك علماً هو عين الجهل، مثلاً: بلدةٌ فيها نهرٌ ملوث، أُصيب سكّانها بأمراضٍ وبيلة، بلدية هذه البلدة أرسلت الأطبّاء ليتخصّصوا، واستقدمت الأجهزة، والمخابر، وأنشأت المستشفيات، وهي تعمل ليل نهار لتكافح هذه الأمراض، لكنها لو منعت هذه المياه الملوّثة أولاً لامتنعت كل هذه الأمراض، لذلك يبيحون للإنسان المعاصر كل شيء، نبيح له المحرّمات، فالمدنية المعاصرة في بلاد الغرب تبيح له كل الرذائل و الموبقات، وبعد ذلك يئنون من وطأة الأمراض الوبيلة، يقول لك: الإيدز أدّى إلى عشرين مليون إصابة في العالم، وما قرأت مقالة حول هذا الموضوع تنطلق من ضبط الشهوات، ولا من تحكيم منهج الله أبداً، ما قرأت عن هذا المرض إلا رغبة ملّحة في البحث عن مصلٍ لهذا الفيروس فقط.

انحراف الناس سببه إطلاق العنان للشهوات:

الخلاصة لو أننا ضبطنا أنفسنا لما وقعنا في شرّ أعمالنا، نثير الشهوات إلى أقصى درجة ثم نضع أيدينا على رؤوسنا من كثرة الجرائم، وكثرة حالات الزنا، وكثرة دور الدعارة، حينما نطلِق للشهوات العنان فالنتيجة الطبيعية أن ينحرف الناس، فأي علمٍ هذا ؟ فدرهم وقاية خيرٌ من قنطار علاج، هناك علمٌ هو عين الجهل.

لو أن الإنسان أدمن على شرب الخمر وتشمّع كبده، وقال: أنا سوف أذهب إلى فرنسا لأزرع كبداً جديدة وقد تكلِفني سبعة ملايين، فبدورنا نقول له: لو لم تشرب الخمر لما كان ما كان، فهذه المخالفة الصريحة لمنهج الله أعطبت الكبد، عندئذٍ نحتاج إلى عمل جراحي، وإلى زرع كبد، وإلى دراسات، وإلى تحليل، وإلى زُمَر نسيجية، وإلى انتظار إنسان كبده سليمة، فالمرء يشعر أن هناك علماً متفوقاً جداً، لكن هذا العلم احتجنا إليه لانحرافنا عن طريق الحق.

أصل المرض خروجٌ عن منهج الله عزّ وجل:

أيها الأخوة: ما أردت أن أقلِل من قيمة العلوم الحديثة، ولا من قيمة علم الطب، ولكن إذا أطلقنا للشهوات العنان وخرجنا عن منهج الله، فطبيعيٌ جداً أن تنشأ أمراضٌ لا حصر لها، فالعلوم المتقدِمة في

مكافحة هذه الأمراض نحن في غنًى عنها لو تتبّعنا منهج الله عزّ وجل، والله عزّ وجل يقول على لسان سيدنا إبراهيم:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)

(سورة الشعراء)

خلقني، هو الخالق..

(وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ)

ثم يقول:

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

فلم يقل: والذي إذا أمرضني هو يشفين، المرض عُزِيَ إلى الإنسان لأن أصل المرض خروجٌ عن منهج الله عزّ وجل، فحينما لا نتقيّد بفطرة الله عزّ وجل ولا بمنهجه ونخرج عن هذا المنهج فهناك طبعاً مشكلات لا حصر لها، لها أول وليس لها آخر، هذه تحتاج إلى حلول، نحتاج إلى تقدُّم علمي، وإلى تقدُّم في الصناعة، وإلى تقدم في صناعة الأدوية، كل هذا بسبب خروجنا عن منهج الله عزّ وجل.

الإنسان فريسة الخروج عن منهج الخالق:

الإنسان حينما لا يعبأ بمنهج الله، لا يعبأ بالأمر والنهي، لا يعبأ بأن تُحكِّم في حياتنا الشريعة الغرّاء، فعندئذ لا بدّ من انحرافات تقتضي المعالجات، تقتضي الدراسات، كل هذا كان من الممكن أن نستغني عنه لو سرنا على منهج الله عزّ وجل.

فعن طريق الربا مثلاً ينمو المال نمواً سريعاً، في الربا المال يلد المال، فإذا ولد المالُ المالَ أصبحت الكتلة النقدية بأيدٍ قليلة حُرمت منها الكثرة الكثيرة، وصار هناك فجوة كبيرة بين الناس، أناسٌ يملكون كل شيء وأناسٌ لا يملكون شيئاً.

عُقِد مؤتمر وأعتقد أنه في أوروبا حول دول الشمال والجنوب، فمن نتائج هذا المؤتمر أن خمس سكّان العالم يملكون أربعة أخماس ثروة الأرض، الخمس يملكون أربعة أخماس، طبعاً هذا وقع عندما سمحنا بكسب المال غير المشروع، وعندما سمحنا أن يلد المالُ المال فماذا نشأ ؟ نشأت فجوة بين الناس، والله عزّ وجل أراد أن يكون المال متداولاً بين الناس جميعاً.

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

(سورة الحشر: آية "7 ")

فإنْ خرجنا عن منهج الله في كسب الأموال، وسمحنا أن ينمو المال نمواً ربوياً، وأن يلد المالُ المال، وإذا خرجنا في علاقاتنا بالمرأة عن منهج الله وسمحنا لها أن تتبذّل، وأن ترتاد الأماكن غير المقبولة،

وأن تكون سلعةً من السلع، وأقبل الشباب منحرفين، وأصيبوا بأمراضٍ وبيلة، فهذه مشكلة عضوضة فريستها الإنسان.

الوقاية أرقى من العلاج:

أيها الأخوة الأكارم: الله عزّ وجل يقول:

(ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)

درهم وقاية خيرٌ من قنطار علاج، لو أن الناس اتبعوا منهج الله لكانوا في غنىً عن نفقاتٍ لا يعلمها إلا الله، إنّ كل ما تربحه شركات التبغ في العالم، في العالم كلِّه، هذه إحصائية دقيقة قبل سنة، أقل مما تنفقه هذه الدول على معالجة الأمراض الناتجة عن التدخين، إن كل ما تربحه شركات الدخّان في العالم أقل من المبلغ الذي تنفقه الدول على الأمراض الناتجة عن التدخين، فهذه البحوث المتعلِّقة بسرطان الرئة مثلاً، وبموات الأعضاء، وبأمراض الأوعية هذه كلها نتيجة مرة للتدخين.

أخ طبيب في أمراض القلب جرّاح حدّثني فقال لي: والله منذ ست سنوات وأنا أجري كل يومٍ أو كل يومين عملية قلب مفتوح، قال لي بالحرف الواحد: الشيء الثابت عندي أنه ما من مريضٍ أجريت له عمليةً في قلبه إلا وهو يدخِّن. نحتاج إلى جراحة قلب مفتوح، ونحتاج إلى أجهزة، وإلى وإلى، وكان من الممكن أن نتلافى كل هذا إذا تركنا ما يؤذينا.

ذكرت هذه الأمثلة: إنْ في كسب المال، أو في العلاقة بالنساء، أو في العادات الصحية الضارّة من أجل أن نعلم أن الوقاية أرقى من العلاج، وأنك إذا توقيّت أن تقع في المعاصي فأنت في غنىً عن علومٍ لا حصر لها.

الإنسان المعرض هو الإنسان البعيد عن رحمة الله:

قال تعالى:

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)

علمهم محدود، متعلِّقٌ بالمادة، متعلقٌ بالمال، متعلقٌ بالملذّات، أما أن يتعرّفوا إلى الله، أن يتعرّفوا إلى منهج الله، أن يتعرّفوا إلى طريقة الاتصال بالله عزّ وجل والإقبال عليه، والتقلّب برحمته، فإنهم بعيدون جداً عن هذا، قال سبحانه:

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)

الإعراض له عدة معان منها:

1 ـ عدم تعليق الأهمية على هؤلاء الناس:

وبعد فنحن الآن بصدد معنى آخر، فالإعراض هنا له معنىً ذو دلالة أخرى هي أن هؤلاء يا محمد لا شأن لهم، ولا قيمة لهم، وفي ميزان الحياة الإنسانية ليسوا بشيء، والعاقبة للمؤمنين، وهم سوف يَهْلِكون، وسوف يقبعون في مزابل التاريخ، ولا أحد يلتفت إليهم، أعرض عنهم، ففي المعنى الأول: أي لا تعلِّق أهمية عليهم، لا تعلِّق آمالك بهم، أنت في وادٍ وهم في واد، أنت في طريقٍ وهم في طريق.

2 ـ ليس لهؤلاء الناس شأن في المجتمع:

المعنى الثاني: هؤلاء لا تلق لهم بالاً، فليس لهم شأنٌ في ميزان المجتمع، لا يقدِّمون ولا يؤخِّرون، أسقطهم من حساباتك اليومية..

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)

شعور المؤمن بفضل الله عليه عند جلوسه مع إنسان من أهل الدنيا:

أيها الأخُ الكريم: ألم تجلس يوماً إلى شخصٍ جاهل بعيدٍ عن الدين، بعيدٍ عن الآخرة، بعيدٍ عن معرفة الله، بعيدٍ عن طاعته ؟ ألم تشعر أن بينك وبينه مسافةً كبيرة ؟ وأنك في وادٍ وهو في واد ؟ أنت في طريقٍ وهو في طريق ؟ أنت في العلياء وهو في الوحول ؟ أنت في الطاعات وهو في الحماقات ؟ شيء واضح جداً، فالإنسان إذا جلس إلى أهل الدنيا المُعْرِضين الغافلين وعرف قيمة إيمانه، وقيمة معرفته، وقيمة إقباله، وقيمة اتصاله بالله عزّ وجل، والله جلّ جلاله من هذا اللقاء العابر يشعرك بفضله عليك، وإذا قرأت قوله تعالى:

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيما)

(سورة النساء)

يقشعرُ جلدك..

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً)

(سورة النور: آية " 21 ")

العلم هو الخطوة الأولى لارتقاء الإنسان:

الإنسان حينما يعرف سرّ وجوده، وغاية وجوده، ويعرف الله عزّ وجل وهو على أمره ملتزمٌ ولجنّته طالبٌ، ومن جهنّم خائفٌ، هذا إنسان قطع أربعة أخماس الطريق، أما الذي وهو في الستين لا يصلي، وهو في السبعين يبحث عن الشهوة المحرّمة، وهو في خريف العمر لا يعنيه إلا كسب المال، أين هو ؟ وماذا ينتظره ؟ الإنسان إذا مات وكان غافلاً وجاهلاً رفرفت روحه فوق النعش تقول: **"يا أهلي يا ولدي، لا تلعبنّ بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حَلّ وحرُم، فأنفقته في حِلّه وفي غير حلِّه، فالهناء لكم والتبعة علي ".**

أيها الأخوة: ورد في الأثر:

((إن أندم الناس رجلٌ دخل ورثته بماله الجنّة ودخل هو بماله النار))

فلذلك:

(ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)

العلم أساس الحياة، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، العلم هو الخطوة الأولى إلى كل ارتقاء، العلم هو طريق النجاح وطريق الفلاح.

أعظم عمل على الإطلاق طلب العلم:

ألا يكفينا قوله تعالى:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: آية " 9 ")

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة: آية " 11 ")

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام: آية " 132 ")

لذلك طلبك للعلم أعظم عمل على الإطلاق، لك فطرة سليمة، أنت مفطور على حب وجودك، وعلى سلامة وجودك، وعلى كمال وجودك، وعلى استمرار وجودك، هذه الفطرة الراقية لو عرفت الحقيقة لاتّبعتها، لو عرفت الخير لأقبلت عليه، لو عرفت الخطر لابتعدت عنه، إذًا هي أزمةُ معرفةٍ فقط.

الجهل هو أعدى أعداء الإنسان:

أقول لكم دائماً: الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، هذا مثل أضربه: مزارع اشترى سماداً من أغلى أنواع السماد، أُعطي تعليمات دقيقة أن ضع في البرميل كيلو من هذا السماد، وأذبه واسق به الحقل، عنده محصول ثمنه مئتا ألف ليرة، فوضع ضعف الكمّية من أجل أن ينمو الزرع أكثر، فهذه الكمية المُضاعفة من السماد أتلفت محصوله كله وأحرقته، ما الذي أضرّه ؟ عدوه ؟ لا، خصمه ؟ لا، ما الذي أتلف كل هذا المحصول ؟ جهله، يجب أن تؤمن أن أعدى أعدائك هو الجهل في كل شيء.

فالإنسان لو أراد أن يتاجر ولم يتبع منهج الله قد يفلِس، أو قد يكسب مالاً حراماً يستحقُّ الإفلاس، وقد لا يفلِح، أما إذا اتبع منهج الله في كسب المال نما المال، إذا اتبع منهج الله في زواجه سَعِد بزوجته، إذا اتبع منهج الله في أي شيء قطف كل الثمار اليانعة، فلذلك العلمَ العلمَ، هؤلاء الذين أعرضوا عن ذكر الله وأقبلوا على الدنيا لماذا كانوا كذلك ؟ لأنهم لم يتعلّموا، ظنّوا أن الدنيا هي كل شيء، قال الشاعر الجاهلي.

فإن كنت لا تستطيعُ دفع منيّتي   فدعني أبادرها بما ملكت يدي

***

العلم أساس معرفة الله و الانضباط بمنهجه:

المؤمن ينكبُّ على الحق ويبذل من أجله الغالي والرخيص والنفس والنفيس، والجاهل ينكبُّ على الدنيا، لكن مع هذا الانكباب مفاجأة، مفاجأة صاعقة، حينما يقترب أجله وهو صفر اليدين، فأول ليلة في القبر من أصعب الليالي، يقول الله عزّ وجل:

((عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت))

هذا المنغمس في الشهوات، في الموبقات، في المعاصي، في كسب الأموال، في الانغماس في الملذّات، هذا حينما يصحو على مرضٍ عُضال وقد شارف على ترك الحياة، والله يصيبه من الآلام ما ينسيه الحليب الذي رضعه من ثدي أمّه، فالعلم، لابدّ من طلب العلم، لابدّ من معرفة الله، لابدّ من معرفة منهج الله.

(ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)

معنى ذلك أنهم لو علموا لما كانوا كذلك، لو عرفوا كما عرفتم لما كانوا كما كانوا بل كانوا كما كنتم..

الحياة الدنيا من دون أمل في الآخرة مغامرة ومقامرة:

(إِنّ رَبّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى)

إذاً المعنيان، الأول: هؤلاء لا خير فيهم، المعنى الثاني: هؤلاء ليس لهم وزنٌ إطلاقاً في ميزان الحياة، هؤلاء سقطوا، هؤلاء ينساهم الناس، هؤلاء الذين أعرضوا عن ذكر الله وأرادوا الحياة الدنيا حينما تذوي دنياهم يسقطون معها، فإذا كان الإنسان (والفكرة دقيقة) كلُّ مكتسباته هي الدنيا، هذه الدنيا تنصرف عنه في ثانيةٍ واحدة حينما يقف قلبه، فهناك حادث مفاجئ أحياناً ينهي حياة الإنسان، أو موت مفاجئ، أو مرض مفاجئ، أو موت طبيعي ولكن مبكِّر، فأين مكتسباته ؟ فالمال تركه، المكانة تخلّى عنها، اللذّائذ فاتته، بيته سُلِبه، ثم أُودِعَ في القبر، فلذلك الحياة الدنيا من دون أمل في الآخرة مغامرة ومقامرة، كل مكتسباتك ما دام القلب ينبض، لو توقف لم يبق هناك شيء، وصار نعوةً في ورقة على الجدران، والأموال كلِّها انتقلت إلى الورثة، إذاً العلم هو الذي يجعلك تعمل للآخرة، العلم هو الذي يجعل الدنيا مَطِيّة وليست غاية، يجعلها ممراً وليست مقرّاً، يجعلها دار تكليف لا دار تشريف: **" إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عِوضا، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي ".**

العلم أساس السعادة في الدنيا و الآخرة:

أنا عند قوله تعالى:

(ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)

سرُّ شقائهم، سرُّ تولِّيهم عن الحق، سر انكبابهم على الملذّات أنهم لا يعرفون، ولو عرفوا لما فعلوا، إذاً طلب العلم فريضةٌ على كل مسلم، طلب الفقه حتمٌ واجبٌ على كل مسلم، الدنيا أساسها العلم، والآخرة أساسها العلم، وهما معاً أساسهما العلم، والعلم أساس النجاح، وأساس التفوّق، وأساس السعادة في الدارين، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((لفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد))

(رواه البيهقي عن أبي هريرة)

((فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر سائر الكواكب))

(أخرجه أبو نعيم في الحلية عن معاذ)

((فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم))

(أخرجه الترمذي عن أبي أمامة)

تقييم العباد من شأن ربِّ العباد:

(إنّ رَبّكَ هُوَ أعْلَمُ بِمَنْ ضَلّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أعْلَمُ بِمَن اهْتَدَى)

أي كلٌ يدّعي وصلاً بليلى، كلٌ يقول: أنا على حقّ، أنا منطقي، أنا أفعل الشيء الصحيح، هذا ادِّعاء، لكن الله وحده يعلم من هو على الحق ومن هو على الباطل، وأنت كمؤمن إن رأيت هذا الإنسان يتحرّك وفق منهج الله فإنك تحكم عليه حكماً أولياً أنه على حق، وإن رأيته يعصي الله تحكم عليه حكماً أولياً أنه يعصي، أما الخاتمة لا يعلمها إلا الله، لعلّه يتوب، أو لعلّهَ يبقى على انحرافه، إذاً:

(إنّ رَبّكَ هُوَ أعْلَمُ بِمَنْ ضَلّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أعْلَمُ بِمَن اهْتَدَى)

هذه الآية يُستنبط منها أن تقييم العباد من شأن ربِّ العباد، إيّاك أن تتورّط وأن تقييم الناس، ليس هذا من شأن البشر إن هذا من شأن خالق البشر، أنت قل: هذا العمل معصية أرجو الله أن يتوب على صاحب هذه المعصية، وهذا العمل طاعة أرجو الله أن يقبله.

العمل لا يقبل إلا بشرطين خالصاً و صواباً:

الله سبحانه وتعالى ذكرنا من خلال الكتاب والسنّة كما بيّن بعض العلماء كالفضيل ابن عياض أن العمل لا يقبل إلا بشرطين: إلا إذا كان خالصاً وكان صواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السُنّة، فكن كما قال الفُضيل وقد أُخِذ هذا من قوله تعالى:

(وَأنْ أعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

(سورة النمل: آية " 19 ")

وفِّقني ل

(أن أعمل صالحاً)

أي أعمل وفق منهجك يا رب،

(ترضاه)

أي أكون مخلصاً بهذا العمل، وأكرِّر للفائدة: فيجب أن تعلم علم اليقين أن العمل لا يُقبَل إلا بشرطين: أن يكون خالصاً لله، وأن يكون وفق سنة رسول الله، فنحن كما قال الله عزّ وجل:

(إنّ رَبّكَ هُوَ أعْلَمُ بِمَنْ ضَلّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أعْلَمُ بِمَن اهْتَدَى)

الله يعلم ما إذا كان عملك مطابقاً أو غير مطابق، وإذا كان مطابقاً فالله يعلم ما إذا كنت مخلصاً أو غير مخلص، من أجل أن يُقبَل العمل لابدّ من أن يطابق السنّة، ولابدّ من أن يكون خالصاً لله عزّ وجل،

فمدى مطابقته للسنّة يعلمه الله، وقد يعلمه بعض الناس، لكن مدى إخلاص صاحبه به، فهذا مما يعلمه الله وحده، لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((نحن نحكم بالظاهر والله يتولّى السرائ))

الله سبحانه وتعالى يملك كل شيء خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً:

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (30) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

طبعاً لله هذه لام المُلك، والله سبحانه وتعالى يملك كل شيء، يملكها خلقاً، وتصرُّفاً، ومصيراً، والإنسان أحياناً يملك ولا ينتفع كمن يملك بيتاً مؤجّراً ولا يسكنه، وأحياناً ينتفع ولا يملك كالمستأجر، وأحياناً يملك وينتفع لكن المصير ليس له، أي يصدر قرار استملاك يأخذ منه البيت، فهذه أمثلة: يملك ولا ينتفع، ينتفع ولا يملك، يملك وينتفع وليس له المصير، لكن الله سبحانه وتعالى يملك خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً.

الجزاء من لوازم أن الله خلق للسماء و الأرض:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

فمن لوازم أن الله خلق السماوات والأرض أنه لابدّ من الجزاء، ألا تقرؤوا في الفاتحة كل يوم، وفي كل صلاةٍ وفي كل ركعةٍ:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

ما يوم الدين ؟ أي يوم الدينونة، يوم الجزاء، يوم أن يُجْزَى كل إنسانٍ بما يسعى، لذلك كل شيءٍ نعمله سوف نُحاسب عليه، كل حركةٍ وكل سكنةٍ، وكل صلةٍ وكل قطيعةٍ، وكل غضبٍ وكل رضاً، وكل ابتسامةٍ، وكل كسبٍ، وكل إنفاقٍ، كل هذه الأعمال سوف نحاسب عنها، فالإنسان المؤمن قبل أن يتحرّك يدقق، يتأمّل، يتفحّص النية، يتفحّص العمل.

عين الجهل من يظن أنه تفلت من عقاب الله:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

أيها الأخوة الكرام: الإنسان إذا ظنّ أن إنساناً عمل عملاً سيئاً وتفلّت من عقاب الله عزّ وجل فهو لا يعرف الله، طبعاً إلا أن يتوب ويستغفر ويُصلِح، أما إذا ظنّ أن الأمور سائبة، وأن الإنسان يُترَك سُدَى، وأن للإنسان ما تمنى، وأن الإنسان خُلِق عبثاً فهو في بوار وخسار.

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

(سورة المؤمنون: آية " 115 ")

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

(أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

(سورة النجم)

إذا ظنّ الكافر أنه سبق الله عزّ وجل أي تفلّت من عقابه، أو فعل شيئاً ما أراده، فهذا هو عين الجهل، لذلك الله عزّ وجل قال:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا)

العلم: أنْ تعلم أنّ كل شيء تفعله تُحاسَبُ عليه:

يجب أن نوقن جميعاً أن لكل حسنةٍ ثواباً وأن لكل سيئةٍ عقاباً، الإنسان لا ينجو إلا أن يتوب، أما إذا فعل السيئات ولم يتب فإن لكل سيئةٍ عقاباً، هذه هي عدالة الله في الأرض، فالإنسان يكون أحمقَ إذا فعل السيئات وظنّ أنه مفلحٌ بهذا العمل، يكون أحمقَ إذا أكل أموال الناس بالباطل وظنّ أن هذا ذكاء، يكون أحمقَ إذا اعتدى على أعراض الناس وظنّ أن هذا من شطارته، يكون غافلاً إذا قصّر فيما عليه من حقوق وظنّ أن الأمور مسيّبة وليس هناك محاسبة، الإله العظيم يقول:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

هذا هو العلم، العلم أنْ تعلم أنّ كل شيء تفعله تُحاسَبُ عليه، الإنسان إذا أدرك أنه محاسب لا يفعل سوءاً، فبحكم فطرتك، وبحكم بُنْيَتِكَ إذا أيقنت أنك محاسب فلن تعصيَه، وأنت بهذا تتعامل مع إنسان مثلك، مع إنسان قوي إذا علِمت أنك لن تفلت من عقابه، ولن تنجوَ من هيمنته فإنك لا تعصيه أبداً، فهذا إنسان قد لا تحبّه لكنه أقوى منك، فكيف بالواحد الديّان ؟ يقول الله عزّ وجل:

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

إدراك الإنسان حقيقة اليوم الآخر سبب نجاته من النار:

فيا إخواننا الكرام: إذا الإنسان لم يدرك حقيقة اليوم الآخر، ولم يؤمن إيماناً حقيقياً كإيمانه بوجوده أن هناك يوماً يحاسب فيه الإنسان عن كل صغيرةٍ وكبيرة، عن كل موقف، وعن كل عطاء وكل منع، وعن كل صلة وكل قطع، وعن كل غضب وكل رضا..

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا)

أقول مرّة ثانية: أنت مع إنسان لا يمكن أن تخالف أمره إذا أيقنت أن علمه يطولك وأن قدرته تطولك، والله يخبّرنا أنّ أعمالكم كلُّها محصاةٌ عليكم، أعمالكم كلها سوف تحاسبون عنها، سوف تقفون موقفاً صعباً يوم القيامة، لماذا فعلت كذا ؟ سوف تُعْرَضُ أعمالنا علينا عملاً عملاً في الوقت المناسب، والزمان المناسب..

آيات القرآن الكريم دليل على محاسبة الإنسان الدقيقة:

فيا أيها الأخوة الكرام: هذه الآية وحدها تكفي عظة و عبرة، ألم يقل ذاك الأعرابي، وقد قال للنبيّ الكريم: **" عظني ولا تُطِل "**، فقال عليه الصلاة والسلام:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

ذاك الأعرابي البسيط، غير المثقف، لم يقرأ ولم يطلع، ولم يحضر محاضرات، وليس عنده مكتبة ضخمة تملأ أربعة جدران، وليست عنده مكتبة أشرطة، ولا هو مشترك في المجلات والدوريات، هذا الأعرابي البسيط أدرك معنى الآية..

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

قال: **"كُفِيت "**، فقد اكتفى بآية واحدة، القرآن الكريم ستمئة صفحة، وكل صفحة فيها ثلاثون أو عشرون آية، القرآن الكريم فيه آيات كثيرة جداً، أعرابي بسيط اكتفى بآية واحدة

التفكير هو الأساس قبل الإقدام على أي عمل:

واللهِ هناك عشرات الآيات وكل واحدة تكفي، قوله تعالى:

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

(سورة النساء)

ألا تكفي ؟..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

(سورة فصلت: آية " 46 ")

ألا تكفي ؟..

(إِنّ رَبّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

ألا تكفي ؟..

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً)

(سورة الزخرف: آية " 79 ")

هكذا انتهت إليه مفاهيمكم ؟..

(فَإِنّا مُبْرِمُونَ)

فهذا ردٌ له، هناك آلاف الآيات وكل آيةٍ تكفي، فلذلك هذه الآية:

(وَلِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

أي قبل أنْ تعمل أيّ عمل سيئ عُدّ للمليون، فكِّر إذا كنت في القبر وسألك الله عزّ وجل: لماذا فعلت كذا ؟ فكِّر إذا كنت يوم القيامة وعُرِض عملك على الله عزّ وجل لماذا فعلت كذا ؟

الإنسان البطل من يهيئ جواباً لكل سؤال يوم القيامة:

شخص قال للنبي عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله إني نؤوم، فقال عمر: **"ويحك فضحت نفسك "**، فقال عليه الصلاة والسلام:

((دعه يا عمر، فضوح الدنيا خيرٌ من فضوح الآخرة))

حينما تقف أمام الناس جميعاً من آدم إلى يوم القيامة وتسأل عن أعمالك كلِّها: لماذا فعلت كذا ؟ لماذا منعت ؟ لماذا أعطيت ؟ لماذا أسأت ؟ لماذا اعتديت ؟ ما جوابك ؟

لذلك أيها الأخوة: الإنسان البطل الذي يهيئ لله جواباً عن كل تصرُّف، الإنسان أحياناً يعبد الله ستين عاماً ثم يضرُّ بالوصية فتجب له النار، يصلي، يصوم، وحاجج ثلاث حجج، وثلاث عشرة عمرة، وحَرَمَ البنات قبل أنْ يموت، تجب له النار، فأين تذهبون ؟ الناس يتحركون بأهوائهم لا بمنهج ربّهم، فلا يقيمون قيمة لمنهج الله، الله يقول لك: افعل ولا تفعل، فيكون جوابه: فلان يحزن، أبي يلومني و يعنِّفني، أين معرفة الله عزّ وجل ؟ هذه الآية دقيقة جداً وأرجو الله سبحانه وتعالى أن تترجم إلى سلوك، فالعمل الصالح، والعمل السيئ محاسب عليهما محاسبة دقيقة..

(لِيَجْزِيَ الّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

المؤمن الصادق هو من لا ينسى اليوم الآخر أبداً:

إخواننا الكرام: هذه نقطة هامة جداً: قد يعاقب الله بعض المسيئين في الدنيا عقاباً ردعياً تنبيهًا لبقية المسيئين، فلا تقولوا: فلان ماله حرام ولم يحدث له شيء، وقد يُكافِئ بعض المحسنين مكافأةً تشجيعيةً تعليماً لبقية المحسنين، ولكن يوم القيامة هو اليوم الفصل الذي لابدّ من أن يُحاسَب الإنسان فيه على كل أعماله..

(وَإِنّمَا تُوَفّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران: آية " 185 ")

إخواننا الكرام: المؤمن الصادق هو الذي لا يغيب عن ذهنه اليوم الآخر أبداً، أبداً أبداً، اليوم الآخر، أن نقف بين يدي الله عزّ وجل، لماذا تكلّمت ؟ لماذا ابتسمت ابتسامة ساخرة ؟ لماذا فعلت ؟ لماذا لم تفعل ؟ هكذا.. لماذا، لماذا، لماذا، مصداقاً لقوله تعالى:

(وَقِفُوهُمْ إِنّهُمْ مَسْؤُولُونَ)

(وَلِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نتابع تفسير الآيات:

(الّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلّا اللّمَمَ إِنّ رَبّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنّةٌ فِي بُطُونِ أُمّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتّقَى)

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس السادس من سورة النجم، ومع الآية الواحدة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

(سورة النجم)

الجزاء أساس الاستقامة:

أيها الأخوة الكِرام: مما تقتضيه ألوهية الله عزّ وجل الذي يملك السماوات والأرض، وشؤون السماوات والأرض، وملكوت السماوات والأرض، أن يجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، والإنسان أيها الأخوة حينما يوقِن أن لكل حسنةٍ ثواباً ولكل سيئةٍ عقاباً يستقيم، ففكرة الجزاء هي أساس الاستقامة، أمّا حينما تؤمن بعبثية الخلق فالأمر ضلال و ضياع، وإنّ عندنا حالتين هما: إما أن تؤمن بعبثية الخلق.

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

(سورة الؤمنون: آية " 115 ")

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

وإما أن تؤمن بالجزاء.

الإنسان العاصي ينطلق من عبثية الخلق:

فكرةٌ أساسيةٌ في الدين، أساسيةٌ في العقيدة، أساسيةٌ في فلسفة الحياة، أن تؤمن بالجزاء، فإنسانٌ يسيء لن يفلت من يد الله عزّ وجل وعقابه.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

أيها الأخوة الأكارم: الإنسان الذي يعصي والذي يسيء والذي يعتدي، والذي يأخذ ما ليس له، والذي يطغى، والذي يبغي، إنسان حتماً ينطلق من عبثية الخلق، هكذا، بلا ضابط، بلا حساب، بلا مسؤولية، بلا جزاء، بلا جنة، بلا نار، بلا ثواب، بلا عقاب.

عدم استواء المحسن و المسيء يوم القيامة:

أنت إذًا أمام خيارين ؛ إن آمنت بالجزاء استقمت على أمر الله، وإن لم تؤمن بالجزاء وتوهّمت العبثية، فعندئذٍ تنحرف، وعندئذٍ تعد الذكاءَ أن تأخذ ما ليس لك، وعندئذٍ تعد الذكاءَ أن تبغي على حقوق الآخرين، وأن تظلم، وأن تستغل، وأن تحتكر، وأن تسيء، كل أنواع التفلّت، كل أنواع المعاصي أساسها توهُّم العبثية، توهُّمُ أن الإنسان سيترك بلا حساب.

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

فهل يستوي مسيءٌ ومحسنٌ في النهاية ؟! وهل يستوي كافر ومؤمن في النهاية ؟! وهل يستوي مسلم ومجرم في النهاية ؟!

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36))

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجّارِ)

(سورة ص)

هذا مستحيل.

عدم نجاة أي مخلوق من قبضة الله يوم القيامة:

فأين تذهبون ؟

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: آية " 21 ")

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص: آية " 61 ")

أنت بين إيمانين إما أن تؤمن بالجزاء، وإما أن تؤمن بالعبثية، إن توهّمت العبثية عندئذٍ لن تستقيم، قد تعدُّ نفسك عاقلاً وشاطراً بالتعبير الدارج إذا أخذت ما ليس لك، أما إذا آمنت بالجزاء فلن يفلت مخلوقٌ من قبضة الله، لن يفلت مخلوقٌ من عقاب الله في الدنيا والآخرة، هنا مَحَطُّ الشاهد، هنا بيت القصيد، هنا محط الرحال، لن يفلت من عقاب الله.

من أبرز العقائد الصحيحة الإيمان بالجزاء:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

" لو أن شاةً في الفرات تعثرت لحاسبني الله عنها، لِمَ لمْ تصلح لها الطريق يا عمر " ؟ عمرُ آمن بالجزاء، فكلامه نتيجة طبيعية لإيمانه، وهذا أعرابي راعي غنم، قال له عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: **"بعني هذه الشاة وخذ ثمنها قال: ليست لي، قال له: قل لصاحبها إنها ماتت، قال له: ليست لي، قل له: أكلها الذئب، قال: ليست لي، خذ ثمنها، قال له: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله ؟ ".**

الموضوع يتلخّص في فكرة واحدة: إن آمنت بالجزاء استقمت على أمر الله، ووقفت عند الحد الذي حدّه الله، تقنع بمالك ولا تأخذ ما ليس لك، العقيدة مهمة جداً، فالإنسان حينما يعتقد خطأً يرتكب آلاف الأخطاء ولا يتوب منها، أما حينما يعتقد اعتقاداً صحيحاً فالخطأ يقع و لكن لا يتكرر، سريعاً ما يتوب منه، فأهمّ شيء في حياتك أن تعتقد اعتقاداً صحيحاً، من أبرز العقائد الصحيحة الإيمان بالجزاء، لن يفلت مسيءٌ من قبضة الله، لن يفلت ظالمٌ من قبضة الله ومن عقاب الله، لن يفلت منحرفٌ من سؤال الله، والجزاء على ما قدمت يداه.

صعوبة الاستقامة إذا توهم الإنسان الفوضوية في الخلق:

الآية الكريمة ربطت..

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ)

أي أن علة ملك السماوات والأرض لله أنه:

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

إنه يؤمن بالجزاء تجد نفسك مستقيماً وأنت لا تشعر، عندئذٍ تغدو الاستقامة سهلة، متى تغدو صعبة ؟ إذا توهّمت العبثية، إذا توهّمت الفوضوية، إذا توهمت أنك خُلِقْتَ سُدى، هكذا بلا سبب، بلا هدف، أما

إذا أيقنت أن الذي خلقك سيسألك، وأن الذي أبدعك سيحاسبك، وأن الذي أوجدك سيجازيك على عملك إنْ خيراً فخير وشراً فشر، عندئذٍ تستقيم على أمر الله سبحانه.

العلم أساس النجاح في الدنيا و الآخرة:

لذلك أيها الأخوة: دائماً دقِق الفكر و النظر، فلما الإنسان يأخذ ما ليس له فإنه يفتخر أحياناً، وحينما يفتخر فهو يؤمن بالعبثية وهو لا يشعر، إذا افتخر بإساءةٍ أو بعدوانٍ أو بظلمٍ أو بطغيانٍ أو ببغيٍ ينطلق من توهُمِهِ العبثية وهو لا يشعر، أما إذا أيقنت بالجزاء، فمثل ذلك شخص بضاعة يستورد بضاعة فتذهب صورة من مستورداته إلى المالية، فإذا لم يصرح عن هذا المستورَد يعاقب بتضْعيف الضريبة، فتجد كل من يستورد يقدِّم بيانات صحيحة. لماذا ؟ لأنه موقن بمضاعفة الجزاء لو قدم بياناً فيه خطأٌ، أنت مع إنسان، إنسان من جلدتك من بني جنسك لأنه يطولك علمه وتطولك قدرته فتستقيم على أمره، فكيف بالواحد الديان ؟

إخواننا الكرام: إنّ الإنسان إذا لم يستقم فهناك خلل في بعقيدته، لذلك فالعلم ضروري.

((طلب العلم فريضة على كل مسلم))

(أخرجه ابن ماجه عن أنس بن مالك)

إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، إذا أردت النجاح في عملك فعليك بالعلم، والعلم يعطيك المنهج، يبيّن الحصن الذي تجد الأمن فيه.

المفهوم الدقيق و المفهوم الساذج للشفاعة:

هذه الآية دقيقة الدلالة جداً، وطبعاً الآن عُرِضَتْ من زاويةٍ أخرى، فالإنسان حينما يؤمن بالجزاء يستقيم على أمر الله، وحينما يتوهّم العبثية والفوضوية، وأنه يترك سدى فعندئذٍ ينحرف حتماً، فالإنسان العاقل حكيم نفسه، ويفسر دائماً ما يفعله بأسلوبٍ علمي، فمتىُ تِّقصر ؟ متى تعصي ؟ متى تأكل ما ليس لك ؟ متى تطغى ؟ متى تبغي ؟ إذا أيقنت أو توهّمت أنك لن تحاسب، فكل ذلك تمارسه بلا مبالاة. فمثلاً لو توهم واحدٌ منا أن أمة النبي صلى الله عليه وسلم سوف تدخل الجنة بغير حساب، والنبي عليه الصلاة والسلام سوف يشفع لها:

((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي))

(أخرجه الترمذي عن أنس)

لكن هذا الفهم الساذج للشفاعة التي هي حق، ولها مفهومٌ دقيق في الكتاب والسنة، فإذا فهم إنسان الشفاعة هذا الفهم السقيم الساذج فلا يمكن أن يستقيم، ماذا نفعل بقول الله عزّ وجل:

(أفَمَنْ حَقّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أفأَنْتَ)

يا محمد..

(تُنْقِذُ مَنْ فِي النّارِ)

(سورة الزمر)

ماذا نفعل بقول النبي عليه الصلاة والسلام حينما يقول يوم القيامة:

((أَصْحَابِي، أَصْحَابِي، فَقِيلَ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، قَالَ: فَأَقُولُ: بُعْدًا، بُعْدًا، أَوْ قَالَ: سُحْقًا، سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي))

(أحمد عن أبي سعيد الخدري)

ماذا نفعل بقول النبي صلى الله عليه وسلم ؟

((يا فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم اعملي لله خيراً فإني لا أغني عنك من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب يا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم اعمل لله خيراً فإني لا أغني عنك يوم القيامة من الله شيئاً))

(رواه البزار عن حذيفة)

((وَمَنْ يُبْطِئْ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

(أخرجه أحمد عن أبي هريرة)

الاعتقاد الخاطئ أخطر شيء في حياة الإنسان:

لو فرضنا أنك آمنت بالله، وآمنت مع إيمانك بالله بمفهومٍ ساذج غير صحيح للشفاعة فلن تستقيم على أمر الله أبداً، وإذا آمنت أن الإنسان مجبورٌ على فعل السوء، مقهور..

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء.

***

وأن أعمالنا الصالحة والسيئة مكتوبة علينا قبل أن نُخْلَق، ولا سبيل إلى تغييرها، وأن الله سبحانه وتعالى خلق الكافر كافراً ووضعه في النار ولا ذنب له، إن اعتقدت عقيدة الجبر التي هي مخالفةٌ لعقيدة أهل السنة والجماعة فلن تستقيم على أمر الله، وهاأنذا أضرب لكم أمثلة: أية عقيدة فاسدةٍ من نتائجها التفلّت من منهج الله، أية عقيدةٍ فاسدة سواءً توهّمت العبثية في أصل الخلق، أو توهّمت شفاعة النبي بمفهومها الساذج، أو توهّمت مفهوم الجبر في العقيدة، إن توهمت الجبر أو الشفاعة بمفهومها الساذج أو توهمت عبثية الخلق فلن تستقيم على أمر الله، والإنسان كلما انحرفت عقيدته كلما انحرف سلوكه، وكلما

استقامت عقيدته استقام سلوكه، ولأن السلوك انعكاسٌ طبيعيٌ جداً لما تعتقد، ولأنه كذلك أصبحت العقيدة خطيرةً جداً، لو توهمنا أنه يمكن أن تعتقد عقيدةً فاسدة من دون أن تتأثر بها سلوكياً، عندئذٍ اعتقد ما شئت، لو كان هناك فصلٌ بين العقيدة والسلوك، لو لم يكن السلوك انعكاساً للعقيدة لقلنا لك: اعتقد ما شئت ولا تثريب عليك، لا، لأن كل سلوك الإنسان صورةٌ لعقيدته، منعكسٌ لعقيدته، تجسيدٌ لعقيدته، لذلك نقول: أخطر شيءٍ في حياة الإنسان أن يعتقد اعتقاداً خاطئاً.

سلوك الإنسان ما هو إلا انعكاس لما يعتقد:

تصور ميزاناً دقيقًا جداً وضعنا تحت كفته اليمنى مئة غرام، واستخدمناه طويلاً وزنّا به ألف وزنة، الألف وزنة كلّها غلط، لأن هناك مئة غرام في أسفل كفته اليمنى، فالخطأ في الميزان خطأ مدمِّر، خطأ في كل الوزنات من دون استثناء، أما لو كان الميزان دقيقاً و حساساً وصحيحاً وقرأنا الكيلو كيليين مرة من المرات، فهذا الخطأ لن يتكرر، وقع مرة واحدة، لذلك قالوا: هناك خطأٌ في الوزن وخطأٌ في الميزان، الخطأ في الوزن سهل جداً قد لا يتكرر، لكن الخطأ في الميزان نتائجه فاحشة، فالخطأ بالعقيدة خطأ في الميزان لا في الوزن، الإنسان قد يرتكب بعض الأخطاء، وإذا عرفها يتوب منها فوراً، أما الذي يخطئ في الميزان، فإذا كان في ميزانه خطأً فهذا لن يستقيم على أمر الله أبداً.

يا أيها الأخوة: اعتقدوا اعتقاداً جازماً أن كل أنواع السلوك إن هي إلا انعكاساتٌ لما تعتقد، وأن أخطر شيءٌ في حياة الإنسان عقيدته إن صحّت صح عمله، وإن فسدت فسد عمله، لذلك كما قال عليه الصلاة والسلام:

((ابن عمر، دينك، دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

(العلل لابن أبي حاتم)

خذ عن الذي استقاموا في عقيدتهم وفي سلوكهم، ولا تأخذ عن الذي مالوا.

نتائج عقيدة الجزاء و وهم العبثية:

نحن اليوم بين عقيدةٍ ووهمٍ، عقيدة الجزاء ووهم العبثية، عقيدة الجزاء نتائجها الاستقامة، وعقيدة العبثية نتائجها التفلّت، لكن أريد أن أؤكِّد لكم حقيقةً خطيرة، قانون السقوط، هذا قانون نافذ، في كل مكانٍ وزمان، أنت إن آمنت به أو إن لم تؤمن، تأدبت معه أو لم تتأدب، اعتقدت به أو لم تعتقد، نافذٌ فيك، فعدم إيمانك بحتمية هذا القانون لا يُعَطِّله دقِّقوا، والدليل: لو أن إنساناً ألقى بنفسه من طائرة، ولم يعبأ بهذا القانون ولا بحيثياته ولا بتفاصيله لتحطّم فوراً أمّا لو نزل بمظلة يكون قد تأدّب مع هذا

القانون، وقد درس هذا القانون، وصمم هذه المظلة وفق هذا القانون، بحسب وزنه وبحسب مقاومة الهواء، وبحسب اتساع المظلة، وبحسب نوع القماش الذي صنعت منه المظلة، نوع القماش ومساحة القماش مدروستان دراسةً دقيقةً مع قانون السقوط، فهذا القانون نافذ، شئت أم أبيت، أعجبك أم لم يعجبك، آمنت به أم كفرت، تأدبت معه أم لم تتأدب، أيقنت به أم كفرت به، سيّان، القانون نافذ، وقانون الجزاء نافذ في الدنيا والآخرة، آمنت أم لم تؤمن، صدقت أم لم تصدق، اعتقدت أو لو تعتقد، نافذ.

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

خيار الإنسان خيار وقت فقط:

لكن المشكلة أنّ الكافر المتفلّت العاصي بعد أن يدفع الثمن باهظاً يقول: إي واللهِ لقد كنت مخطئاً، إذاً فالقضية أنّ الخيار خيار وقت، خيار وقت يا إخواننا، أيْ أنّهُ لابد من أن تؤمن بحتمية هذا القانون، لكن بدل أن تؤمن بحتميته وقد كنت أنت الضحية، وقد دفعت الثمن باهظاً لتؤمن من دون تبعة عليك، فمثلاً الله عزّ وجل قال:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

جملة محدودة من ثلاث كلمات في كتاب الله، الذي يحتوي على ستمئة صفحة قال لك:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

فيأتي إنسان نما ماله بالربا، يشتري أجمل البيوت، وأجمل المركبات، ويرى أن الربا هو أفضل طريقة لنمو المال، بلا تعب، بلا نَصَبْ، بلا مسؤولية، بلا كَد، بلا قلق، بلا خوف، إذاً هو الآن آمن. لا. إنّ هذا الشعور آنِيٌّ، وإنّ هذا الكلام غير واقعي، وحينما يُتْلِفُ الله ماله كله يؤمن، فمتى آمن ؟ بعد أن كان هو الضحية، بعد أن دفع الثمن باهظاً.

الله تعالى سيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته:

إخواننا الكرام: إيماننا بحتمية الجزاء لا بد كائن، وهذا الإيمان أنت مخير فيه. خيار وقت لا خيار قبول أو رفض، النقطة دقيقة، أعجبك أم لم يعجبك، آمنت به أم لم تؤمن، تأدّبت معه أم لم تتأدب، نافذٌ فيك، رغم أنف كل الناس، كقانون السقوط، فلو أنّ إنسانًا أنكر هذا القانون ولم يعبأ به وألقى بنفسه من الطائرة لنزل ميتاً، عدم إيمانه بهذا القانون لا يلغي فعل القانون، فأثره نافذ فيه، فالجزاء نافذ، أما إذا

آمنا بالجزاء منذ البدء فإننا نستقيم على أمر الله، فنسعد في الدنيا والآخرة، وإن لم نؤمن بالجزاء وآمنا بالعبثية انحرفنا، وإذا انحرفنا طُبِّق علينا قانون الجزاء الذي لم نؤمن به، ونفذت الأحكامُ فينا.

وهذا مثل أوضح، أنت مع قانون السير، فإذا صدرت تعليمات بحجز المركبة، وإيداع السائق السجنَ شهراً، وأنت لم تبال، ولم تقرأ القانون ولا اتعظت به، فإذا خالفت وقعت في قبضة القانون شئت أم أبيت، فالقضية كلها وما فيها: إما أن تؤمن بالجزاء وإما أن تؤمن بالعبثية، الذي لا يستقيم على أمر الله يتوهّم العبثية، والمستقيم على أمر الله يؤمن بالجزاء، الآية الكريمة:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

الذي يملك السماوات والأرض هو الذي سيجازي، الذي يملك السماوات والأرض، الكون كله، هو الذي سيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

التائب من الذنب كمن لا ذنب له:

من هم الذي أحسنوا ؟ قال سبحانه:

(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ)

قال بعض العلماء: **الفاحشةُ فرعٌ من الإثم**، الإثم الكبير، المعصية الكبيرة التي تحجب عن الله وتبعد عن الله، الإثم الكبير الذي ورد فيه لعنٌ لمن يفعله، أو وعيدٌ في النار لمن يقترفه، الإثم الكبير هو الذنب الذي يحجب عن الله عزّ وجل، والفواحش ؛ الإثم المتعلِّق بالعلاقات الاجتماعية، الذي يفشو بين الناس بأقبح الصور، وأقبح السُمَع.

(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ)

وكذلك قال العلماء:

(اللمم)

مَن فعل إثماً وتاب منه توبةً نصوحاً، هذا صار لممًا، ألمّ به وتاب منه، فكل شيءٍ فعله الإنسان قبل أن يتوب، فعله في جاهليته، فعله قبل أن يصطلح مع الله، فعله من قبل وتاب منه فهو لمم، وبعضهم قال: اللمم كل شيءٍ حدّثتك نفسك بفعله ولم تفعله فهو من اللمم، وكرم الله سبحانه وتعالى يقتضي ألاّ يحاسب المرء إلا على العمل، فمن حدّث نفسه بمعصيةٍ ولم يفعلها خوفاً من الله عزّ وجل لا يحاسب عليها، لكن

ننصحه أن يوقف هذه الخواطر، لأنه إذا تابعها واستمرأها ربما انقلبت إلى أعمال، فاللمم هو الذنب الذي اقترفه الإنسان وتاب منه، أو حديث النفس بالمعصية دون أن يفعلها.

مغفرة الله عز وجل وسعت كل الذنوب:

(إِنّ رَبّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنّةٌ فِي بُطُونِ أُمّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتّقَى)

(إِنّ رَبّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ)

أيْ أنّ مغفرته وسعت كل الذنوب.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعاً إِنّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ)

(سورة الزمر: آية " 53 ")

كل الذنوب، أما قوله تعالى:

(إِنّ اللّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ)

(سورة النساء: آية " 48 ")

فهذه الآية حملها كل المفسّرين على أنه إذا مات دون أن يتوب مما اقترفت يداه، فإن تاب غفر له، وحتى إذا كان مشركاً وتاب غفر الله له هذا الذنب، لقوله تعالى:

(إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعاً)

(سورة الزمر: آية " 53 ")

بعد التوبة.

باب التوبة مفتوح على مصراعيه:

(إِنّ رَبّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ)

وسعت رحمته كل شيء وأنت شيء، وسعت مغفرته كل الذنوب، مهما عظم الذنب تتسع له مغفرة الله عزّ وجل، تصوّروا العكس لو أن الله سبحانه وتعالى لا يتوب على عباده المؤمنين ماذا يفعلون ؟ إلى أين يلتجئون ؟ أصغر ذنبٍ يتفاقم إلى أكبر ذنب، يقول لك: لا توجد مغفرة، فأفعل إذاً ما أشاء، فالإنسان عندئذ يسترسل في المعصية، لكن رحمة الله واسعة، ومغفرته مرتجاة، مما يدفعه إلى التوبة وإلى أن يقلع عن كل سيّئة.

((لو جئتني يا عبدي بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

والصُلْحَة بلمحة:

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فقد اصطلح مع الله))

(ورد في الأثر)

سبحان الله أشد العجب أن باب التوبة مفتوحٌ على مصراعيه، وأن الناس يترددون في التوبة، الإسلام يجب ما كان قبله، الإسلام يهدم ما كان قبله:

((إذا تاب العبد توبة نصوحًا، أنسى الله حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه))

(ورد في الأثر)

والله سبحانه وتعالى يريد أن يتوب عليكم، وما أمركم بالتوبة إلا ليتوب عليكم، وما أمركم بالاستغفار إلا ليغفر لكم، وما أمركم بالصلح معه إلا ليكرمكم.

إكرام الله للعبد بالتوبة إذا رجع عن ذنبه:

(وَاللّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الّذِينَ يَتّبِعُونَ الشّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

(سورة النساء)

أهل الدنيا يريدون أن تميلوا مع الشهوات، وأهل الدين يريدون لكم أن تتوبوا، لذلك:

(وَلِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (31) الّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلّا اللّمَمَ)

(سورة النجم)

قال تعالى:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً)

(سورة النساء)

الإنسان إذا ترك الكبائر غفر الله له الصغائر، فالصلاة إلى الصلاة، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، والعمرة إلى العمرة تكفِّر ما بينها، صليت الظهر، ثم ندّت منك كلمة أزعجتك وأوقعتك في الإثم، فعند العصر يغفرها الله لك، ما بين الصلاتين، وبين الجمعتين، وبين رمضانين، وبين العمرتين..

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً)

(سورة النساء)

الفرق بين النبي و الولي:

السيئات التي يمكن أن تصدر من المؤمن عن غير قصدٍ، وقد تصدر عنه صغائر كثيرة، ولكنه يستغفر ويسعى إلى طاعة الله، والفرق بين النبي والولي هو أن النبي لا يعصي الله أبداً، فهو معصومٌ من أن يعصي الله، بينما الولي لا تضره معصية بمعنى بأنه يتوب منها سريعاً، ويستغفر ويتوب ويؤمن، والمؤمن مذنبٌ توّاب، شديد التوبة، يُحْدِثُ عند كل ذنبٍ توبةً، فالآية الكريمة..

(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ)

ذنبٌ ارتكبه ثم تاب منه، أو نفسه حدّثته بعملٍ ولم يفعله هذا هو اللمم، شيءٌ وقع وتاب منه، أو شيءٌ لم يقع لكن جرى بينه و بين نفسه حديث ملامة بسببه.

اتهام النفس من علامات الإيمان:

(إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

فالتوجيه الإلهي هنا لا تقل: أنا، امرأةٌ قالت لصحابيٍ جليل توفاه الله عزّ وجل وكان النبي يزوره، يزوره بعد وفاته، قالت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك: لقد أكرمك الله. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-:

((وما يدريك أن الله أكرمَهُ ؟ فقلت: بأبي أنت وأمّي يا رسول الله، فمن يكرمه الله ؟ فقال: أمّا هو فقد جاءه اليقين. والله إني لأرجو له الخير. والله ما أدري - وأنا رسول الله - ما يُفعَلُ بي ؟))

(أخرجه البخاري عن خارجة بن زيد)

فالمؤمن لا يزكي نفسه، سيدنا عمر قال **": ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتها كانت عقيماً "**، سيدنا حذيفة كانت معه قائمة بأسماء المنافقين، قال له عمر: **"بربك اسمي بينهم ؟ "** وهو **عملاق الإسلام،** المؤمن لشدة ورعه وشدة خوفه من الله يتهم نفسه دائماً، وقد روى بعض التابعين أنه التقى بأربعين صحابياً، ما منهم واحدٌ إلا وهو يظن نفسه منافقاً، فاتهام النفس من علامات الإيمان، لكن الطمأنينة لخطرات النفس، وتزكيتها، ومدحها من علامات النفاق.

تقييم الإنسان من شأن الله وحده:

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

أيضاً ولا تُزكِّ على الله أحداً، لا تقل: فلان تقي، نقي، ورع، قل: أظنه كذلك ولا أزكي على الله أحداً، زكِّه وقل: والله أعلم، زكِّه وقل: ولا أزكي على الله أحداً، سيدنا الصديق حينما استخلف سيدنا عمر، بعض من حوله قالوا له: **" كيف تولي عمر وهو شديدٌ جداً ألا تخشى أن يعاتبك الله ؟ قال: أتخوفونني بالله، أقول: يا رب لقد ولّيت عليهم أرحمهم (معنى ذلك أنه زكّاه) ثم قال: هذا علمي به، فإن بدّل وغيّر فلا علم لي بالغيب".** لا تتورط بتزكية إنسان تزكية مطلقة، قل: أحسبه مؤمناً ولا أزكي على الله أحداً، قل: أحسبه صادقاً ولا أزكي على الله أحداً، قل: أحسبه أميناً ولا أزكي على الله أحداً، قل: أحسبه صالحاً فإن بدّل وغيّر فلا علم لي بالغيب، هذا موقف علمي، موقف فيه تحفُّظ، موقف فيه أدب مع الله عزّ وجل، لأن الله وحده يعلم حقيقة الإنسان، لأن تقييم الإنسان من شأن الله وحده، وتزكية الإنسان من شأن الله وحده.

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)

(سورة الإسراء)

وحده يعلم، لذلك لا تزكِّ على الله أحداً، إن زكيت تحفّظ، قل: هذا علمي به، ولا علم لي بالغيب، أحسبه أميناً ولا أزكي على الله أحداً، تنفيذاً لهذه الآية الكريمة..

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

على الإنسان ألا يتورط في مديح إنسان لا يعرفه:

سيدنا الصديق مرةً مدحه المادحون فبكى وقال: **" يا رب أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون ".**

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

فأحياناً يعدُّ المدح كالذبح، لا تمدح أخاك فقد ذبحته، أحياناً يصدق الممدوح أنه كذلك، سيدنا عمر مرةً كان مع أصحابه قال بعضهم: **"والله ما رأينا خيراً منك بعد رسول الله". أحدّ فيهم النظر، و قسا في نظرته إليهم إلى أن قال أحدهم: "** لا والله لقد رأينا من هو خيرٌ منك، قال: ومن هو ؟ قال: الصدِّيق، فقال لهذا الذي قال: رأينا من هو خيرٌ منك. قال: **"لقد كذبتم جميعاً وصدق هذا "**، ماذا فعل عمر ؟ عدّ سكوتهم كذباً، قال: **" لقد كذبتم جميعاً وصدق، والله كنت أضل من بعيري وكان أبو بكرٍ أطيب من ريح المسك ".** هذا الإيمان.

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

أحياناً تجد أن المديح يكال جزافاً، في حفلات عقد القران يصفون الأسرتين المتصاهرتين بالتقى والورع إلى درجة، وليس من هذا شيء، الإنسان إذا كثر مديحه اتهم بعقله، اتهم بورعه، لا تزكو

أنفسكم، حدثنا عن الله فقط، ولا تحدثنا عن عباد الله لأن عباد الله تقييمهم من شأن الله لا من شأن العباد، الإنسان لا يتورط في مديح إنسان لا يعرفه، وليس متأكداً من دينه، ولا من استقامته، ولا من ورعه، دائماً يُكال المدح جزافاً في كل عقود القِران بشكل غير مقبول، هذا مرض اجتماعي، نحن بحاجة إلى عمل لا إلى المدح.

الإنسان الذي يبحث عن المدح والثناء ليس مخلصاً:

قال الصديق للسيدة عائشة ابنته بعد أن برّأها الله من حديث الإفك: " **قومي إلى رسول الله فاشكريه، قالت: والله لا أقوم إلا لله** "، فتبسم النبي عليه الصلاة والسلام وقال:

((عرفت الحق لأهله))

النبي عليه الصلاة والسلام لعلو مقامه عند الله ما كان يعنيه أن يمدحه المادحون، دخل عليه رجل، أصابته رِعْدَة قال:

((هون عليك فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأةٍ تأكل القديد))

(أخرجه ابن ماجه عن أبي مسعود)

عَرّف نفسه بأنه ابن امرأةٍ من قريش كانت تأكل القديد، وانتهى الأمر، كان الأعرابي إذا دخل على النبي يقول: **"أيُّكم محمد ؟ "** لا يعرفه، لا توجد له أي ميزة، أيكم محمد ؟ يقول: **"قد أصبت "** أنا، وأحياناً يقول له أحد الصحابة: **" هذا الوضئ الذي أمامك، هو محمد "**. فالذي يبحث عن المدح ورفعة القدر والثناء هذا ليس مخلصاً بما فيه الكفاية.

الإنسان الذي تولّى عن الحق لا يستحق أن تصغي له:

(هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33))

تولّى عن الحق، هذا الذي تولى دقق نظرك في عمله، دقق وتأمّل في أمانته، دقق في صدقه، ثم دقق في عفافه، فلا صدق ولا أمانة ولا عفاف، ماذا قال سيدنا جعفر ؟ قال:**"كنا قوماً أهل جاهلية ؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ونقطع الرحم، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونسبه"**.

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى)

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (10))

(سورة العلق)

في الآية توجيه دقيق جداً، فأنت قبل أن تصغي إلى كلامه دقق في أعماله، فهو قد يكون غير مستقيم، غير أمين، غير صادق، غير عفيف، لا استقامة، ولا أمانة، ولا صدق، ولا عفاف، إذاً لا تلق إلى كلامه بالاً إطلاقاً، لا يستحق أن تصغي له، كلامه مهدور، كلامه كذب، كلامه نفاق.

الإنسان الذي يمنع مصيره بيد خالقه لا بيده:

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى (34))

أي منع:

(أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى)

هذا الذي تولّى عن الحق، وأدار ظهره للدين، وقال: الدين أفيون الشعوب، غيبيّات، أوهام، شعور الإنسان الضعيف أمام قوى الطبيعة القاهرة، هذا الدين، الدين سحر، الدين خرافات، الدين تُرُّهات، الدين لا يعتنقه إلا الضعاف، ومرضى النفوس، هذا كلام أعداء الدين.

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى (34) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (35))

فهذا الذي يمنع هل يعلم أنه سيسعد في دنياه وأخراه أم يشقى ؟ وهل يرى أن مصيره بيد نفسه ؟

الإنسان يؤخذ بذنبه لا بذنب غيره:

(أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37))

وفىّ ما عليه، وفىّ شكر النعمة.

(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

هذا مبدأ أساسي، مبدأ خطير..

(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

الإنسان يؤخذ بذنبه لا بذنب غيره، امرأة فرعون زوجة إنسان ادّعى الإلوهية وقال:أنا ربكم الأعلى، قال الله تعالى على لسانها:

(قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة التحريم)

هذا المبدأ الأساسي..

(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

كل إنسان مسؤول عن عمله يوم القيامة:

قد ينجب الأب ابناً ضالاً، منحرفاً، فاسقاً، ربّاهُ أعلى تربية لكنه آثر الانحراف.

(ألّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

قد يأتي الابن صالحاً من أبٍ فاسق..

(ألّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

قد تأتي ابنةٌ متدينةٌ من امرأةٍ فاسقة..

(ألّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

الوازرة الحاملة، الوزر الحمل، لا تحمل نفسٌ ذنب نفسٍ أخرى.

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلّا مَا سَعَى (39) وَأَنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40))

عدم محاسبة إنسان عن آخر إن آثر هو الانحراف:

أيها الأخوة الكرام:

(ألّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

مبدأٌ في الحياة، كل إنسانٍ محاسبٌ على فعله فقط، ولا يؤخذ بجريرة غيره، مثلاً: سيدنا نوح نبيٌّ كريم أنجب ابناً عاصياً لا يحاسب عليه، إذا ربّاه التربية المُثلى، ثم إذا آثر هذا الابن الانحراف لا يحاسب الأب عنه، امرأة لوطٍ لم تؤمن بلوط..

(ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً لِلّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللّهِ شَيْئاً)

(سورة التحريم: آية " 10 ")

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً لِلّذِينَ آَمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنّةِ وَنَجّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ)

(سورة التحريم)

أب كافر وابنه نبي، سيدنا إبراهيم، أب مؤمن وابنه كافر، سيدنا نوح، زوج كافر وزوجته صديقة، فرعون، زوجة صالحة وزوجها كافر، آسية امرأة فرعون، فكل الحالات موجودة على صعيد الواقع، وسيدنا رسول الله عمُّه أبو لهب.

(تَبّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5))

(سورة المسد)

عدم محاسبة الإنسان على بيئته بل على عمله:

(ألّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

كل إنسان محاسب بفعله، فقد يسعى لهداية نفسه وقد يسعى لهداية أقربائه أيضاً، أما أنْ يقول: أنا هكذا نشأت، هكذا أبي ربانا، هكذا علمنا، ظروفي صعبة، بيئتي صعبة، كلام غير مقبول عند الله عزّ وجل، يمكن أن تستقيم وفق بيئةٍ فاسدة، وأن تطلب العلم وفق بيئةٍ جاهلة، وأن تصبح مؤمناً وفق بيئةٍ كافرة.

(ألّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

لا تحاسب على بيئتك التي لا تعجبك، تحاسب على عملك وحدك، هذه الآية مبدأ أساسي في الحياة، وإلا كان ذاك الحساب ظلماً.

حُرْمَة المال لا تأتي من عين المال بل من طريقة كسبه:

بائع جاءته امرأةٌ تشتري منه ثوباً فأعطاها الثوب المناسب بالسعر المناسب، ولا يدري أن هذا الثمن أخذته المرأةٌ من الفاحشة، نجيبه إذا سأل:

(ألّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

حُرْمَة المال لا تأتي من عين المال بل تأتي من طريقة كسبه، فهذا المبدأ مريح جداً يَبُثُّ الطمأنينة في النفوس.

(ألّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

الابن الراشد محاسب عن نفسه، والأب محاسب، والزوجة محاسبة، والجار محاسب، أما أنْ يدّعي إنسان أن بيئتي كذا، ونشأت في هذه الأسرة، هكذا تربينا، هكذا علّمنا والدنا، هذا الكلام مرفوضٌ من أصله.

أحكام الشريعة كلها ضمن طاقة الإنسان:

الله منحنا عقلاً، وأعطانا فطرة، وأنزل لنا شرعاً، فكل إنسان يعزو أخطاءه إلى البيئة والعادات والتقاليد وفساد الزمان، يقول لك: أخي لا أستطيع أن أستقيم، لماذا ؟ يقول لك: الاستقامة فوق طاقتي، معنى ذلك أنك تكذّب كلام الله، ألم يقل الله عزّ وجل:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: آية " 286 ")

أنت إذا قلت: لا أستطيع الاستقامة، تؤكد أن الله كلفنا ما لا نطيق، حينما تقول: الاستقامة صعبة ومستحيلة وهذه فوق طاقة البشر أنت لا تدري أنك تكذِّب آيةً في كتاب الله، حينما قال الله عزّ وجل:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

وُسعُ النفس يعلمه الله وحده ولا تعلمه أنت، ولولا أن أحكام الشريعة كلها ضمن وُسع النفس لما كُلِّفنا بها، فالإنسان قبل أن يتكلّم ينبغي أن يعلم، وينبغي أن يدقق، ويحقق، فما كل كلمةٍ تُلْقَى على عواهنها ينجو بها صاحبُها من عذاب الله.

(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41))

هذه الآيات إن شاء الله لنا عودةٌ إليها في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس السابع من سورة النَجم، ومع الآية التاسعة والثلاثين.

مكانة الإنسان عند ربه بحجم عمله الصالح:

قال تعالى:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

هذه الآية أيها الأخوة أصلٌ من أصول الدين، أي أن الإنسان لا يمكن أن ينالَ ثواب عملٍ لم يفعله، كما أنه لا يمكن أن يُنتقص من عمله عملٌ فعله، فلا إضافة تضاف إلى عمله و لا ينقص من عمله شيء، ولو أن الله سبحانه وتعالى (فرضاً) قال: وللإنسان ما سعى، فقد نفهم من هذا الكلام أن له ما سعى، وله ما لم يسعَ، أما حينما جاءت هذه الآية بصيغة القصر..

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

فهذا يعني أنه لا يمكن أن يناله شيءٌ من ثواب الآخرين ولا من أعمال الآخرين، كما أنه لا يُنتَقَص لا من عمله ولا من ثوابه، بل عمله وحده يُحاسَب عليه، ومكانته عند الله بحجم عمله الصالح، ليس له إلا ما سعى.

فعل الخيرات صدقة جارية بعد موت الإنسان:

لذلك فالإمام الشافعي رحمه الله تعالى استنبط من هذه الآية أن **الميّت لا يصله إلا ثواب عملٍ عمله في حياته**، وحينما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مُسْلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

(صحيح عند ابن خزيمة عن أبي هريرة)

والثلاثة من سعيه قبل أن يموت، صدقةٍ جارية، أنشأ مَيْتَماً مثلاً، أو أنشأ معهداً شرعياً، أو أنشأ مستشفى خيرياً، أو أنشأ وقفّا، أو أنشأ بناء لحلّ مشكلات الناس، الأوقاف التي كانت من قبل دليل رغبة الناس الصادقة في فعل الخيرات، فهذه هي الصدقة الجارية، ساهم في بناء مسجد، أو في بناء

مستوصف خيري، أو في بناء مستشفى خيري، أو في بناء جمعية خيرية، أسس مشروعاً خيرياً، أسّس عملاً خيرياً،

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ))

شقّ نهراً، أقام جسراً، أنشأ مدرسة..

((وعلمٍ يُنْتَفَعُ به))

تعلّم وعلّم وترك أثراً، فألّف تفسيراً، أو كتاباً في الحديث، الإمام النووي ترك آثاراً طيّبة جداً، العلماء الكبار، هؤلاء المجتهدون الأربعة وسواهم، المفسِّرون، المحدِّثون، علماء الحديث، علماء الفقه، علماء التفسير، علماء العقيدة، حتى علماء الفرائض، وعلماء التجويد، كل هؤلاء تركوا علماً يُنْتَفَع به.

العمل الصالح، الصدقة الجارية، الولد الصالح: من سعي الإنسان قبل أن يموت:

الإمام الغزالي مثلاً ترك كتاب الإحياء، كان يضمُّ درسه أربعمئة عمامة، فلّما توفي انفضّ المجلس، فماذا بقي من الغزالي ؟ بقي كتاب الإحياء، مضى عليه ألف عامٍ ينتفع به المسلمون والعلماء، والخطباء والمعلِمون، فإذا تركت أثراً علمياً ؛ كتابَ تفسير، كتاباً في الحديث، كتاباً في الفقه، كتاباً في العقيدة، كتاباً في السيرة انتفع الناس به، قرؤوه في كل الأقطار والأمصار، هذا من الصدقة الجارية، علم يُنتَفع به، أو ربّيت ولداً وهيأته ليكون داعية إلى الله عزّ وجل، علّمته العلم الشرعي، لكن الآباء الآن يضنون بأبنائهم أن يعلِموهم العلم الشرعي، يريده طبيباً، ولو كُشِفَ له الغِطاء أن هذا الابن إذا علّمته العلم الشرعي وهيّأته ليكون داعية فكل هؤلاء الذين يهتدون على يديه في صحيفة الأب، لكن هذه الحقيقة تغيب عن كثيرٍ من الآباء، حبّذا لو أنّ كل أب اختار من أولاده النجيب المتفوّق الألمعي وعلّمه العلم الشرعي، وسلّكه طريق الإيمان ليكون داعية، فكل أعماله في صحيفة الأب، فهذا الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلّم يقول:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

(صحيح عند ابن خزيمة عن أبي هريرة)

هذه الثلاثة من سعي الإنسان قبل أن يموت، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

كل إنسان ينال جزاء عمله يوم القيامة:

إياك أن تتوهّم أنه يمكن أن ينالك من سعي الآخرين شيءٌ، حتى إن الأب (دققوا فيما سأقول) إذا كان على غير المنهج القويم ولم يعمل لآخرته إطلاقاً، وجاءه ولدٌ صالحٌ، وكان هذا الأب على خلافٍ معه طوال حياته، وكان يمنعه من طلب العلم الشرعي، وكان لا يرضى عن سلوكه، فلو أن هذا الابن أصبح أكبر داعيةٍ في الأرض فلن ينال الأب منه شيئًا، لماذا ؟ لأنه ما أراده كذلك، ولم يُسهم في تكوينه كذلك، فالقضية دقيقة الدلالة جداً.

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

لا يُضاف لك شيء لم تفعله، كما أنه لا يُحذَف شيءٌ مما فعلته، عملك تنال جزاءه جزاءً وفاقًا، وفاقَ النية الطيبة وحجم العمل.

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

كل عملٍ للميت نصيب فيه قبل موته يصل إليه:

إلا أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم قال:

((أسرع الدعاء إجابة دعوة أخ لأخيه بظهر الغيب))

وتوجد رواية ثانية:

((دعوة الأخُ لأخيه بظهر الغيب لا تُرد))

كيف ؟ أيضاً هذه الدعوة من سعي الإنسان، فلو أنك كنت محسناً لأخيك وغمرته بإحسانك، فلمّا غبت عنه وألّمّ بك مكروه دعا لك، لماذا دعا لك ؟ لأنه تذكّر إحسانك إليه فدعا لك، حتى حديث النبي صلى الله عليه وسلم:

((دعوة الأخُ لأخيه بظهر الغيب لا تُرد))

علّله بعض العلماء: أن الإنسان لا يتذكّر أخاه إلا إذا كان محسناً له، فإذا أحسنت إلى أخيك، وألّمّ بك مكروه، ودعا لك بظهر الغيب فإن دعوته لا تُرد، وهذه الدعوة ثمرة من ثمار عملك الصالح. كما أن الصدقة تصل إلى الميت بعد موته لأن النبي صلى الله عليه وسلم بيّن هذا ووضّحه، ولولا أن هذا الميّت ترك أثراً طيّباً في تربية أولاده، وفي معاونة إخوانه، وفي مواساة أحبابه لما تذكّروه بعد موته وأنفقوا هذه الصدقة على روحه، فالصدقات تصل، والدعاء يصل، وكل عملٍ للميت نصيب فيه قبل موته يصل إليه، وهذا ينطلق من قوله تعالى:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

تربية الأولاد التربية الصالحة من أعظم الأعمال عند الله:

أيها الأخوة الأكارم: هذا حديثٌ دقيق المعنى، من أدقّ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم، اعمل عملاً يستمرّ أثره بعد الموت، هذا العمل لا ينقطع ثوابه، والإنسان في قبره تأتيه الخيرات، هذا الولد الذي ربّيته، الذي سهرت في تربيته، الذي جعلته معك رفيقاً، الذي أخذته إلى المسجد، علّمته القرآن، جَهدتَ في تربيته وتوجيهه، بذلت من مالك من أجل إكرامه، زوّجته، هذا الابن الذي ساهمت في تكوينه وتكوين إيمانه ذخرٌ لك من بعدك، لذلك تربية الأولاد التربية الصالحة تُعدُّ من أعظم الأعمال عند الله عزّ وجل، لماذا ؟ لأن ثوابها لا ينقطع بالموت، أيّ عملٍ صالح إذا فعلته ينتهي عند الموت إلا تربية الأولاد.

((من كن له ثلاث بنات فعالهن وآواهن وكفهن، وجبت له الجنة. قلنا: وبنتين ؟ قال: ' وبنتين '. قلنا: وواحدة ؟ قال: ' وواحدة))

(أخرجه الطبراني عن أبي هريرة)

أي: إذا إنسان رزقه اللهُ فتاةً فربّاها تربيةً إسلامية، عرّفها أمر دينها، عرّفها بكتاب الله، جعلها زوجةً صالحة تقية ورعة مطواعةً لزوجها، اختار لها الزوج المؤمن الذي يحفظ لها دينها، هذه الفتاة تأخذ بيد أبيها إلى الجنّة، هؤلاء الفتيات ذكرهنّ النبيُّ عليه الصلاة والسلام فقال:

((إنهنّ المؤنسات الغاليات))

(رواه أحمد و الطبراني عن عقبة بن عامر)

لماذا ؟ لأن كل فتاةٍ في البيت (دققوا فيما سأقول) يمكن أن تكون سبباً في دخولك الجنّة، كل فتاةً إن ربّيتها تربية إسلامية، إن ربيتها على العفاف، إن ربيتها على طاعة الله، إن حجبت مفاتنها عن الأجنبي وبقيت للمحارم، إن اخترت لها زوجاً مؤمناً يحفظ لها دينها، يتابع طريق إيمانها، هذه الفتاة سببٌ لدخولك الجنّة.

العلم أثره باق و ثمرته لا تنقطع:

أيها الأخوة: تربية الأولاد والعلم الذي يُنتفع به، أثرُهما باقٍ، وثمرهما لا ينقطع أبداً إن شاء الله، مرّةً قرأت تفسير آيةٍ في كتاب تفسير ألّفه صاحبه قبل ألف عام، لفت نظري دقّة هذا التفسير فجعلته موضوع خطبةٍ وألقيتها على الإخوة الكرام، شعرت أن أثراً كبيراً تركته في الناس، تذكّرت هذا المفسِّر الذي كتب هذا التفسير قبل ألف عام، فمن هذه الخطبة جاءه الخير، وذُكر بالخير، لا تجد إنساناً يترك أثراً علمياً ؛ كتاب تفسير مثلاً، أو كتاب حديث، أو كتاب فقه، أو كتاباً في العقيدة، أو كتاباً في فروع

الدين، أو كتاباً في الآيات الكونية، لا يوجد إنسان يترك أثراً علمياً ويموت، إلا وكلُّ مَن قرأ هذا الكتاب، وكل من انتفع بهذا الكتاب، وكل من اقتبس من هذا الكتاب، وكل من ضمّن في دعوته وفي خطبه مما في هذا الكتاب فهو في صحيفة المؤلِف إلى يوم القيامة.

فالإنسان إذا كان عاقلاً يبحث عن عملٍ يدوم، يبحث عن عملٍ كأني أقول يلغي موته، سيدنا علي يقول: **"يا بني العلم خير من المال، لأنّ العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقِصُه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق، يا بني مات خُزّانِ المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة ".** يجب أن تحدِّث نفسك بطلب العلم، ويجب أن تُعَلِم بعد أن تحصِّل العلم، لأن خيركم كما قال النبي الكريم:

((خيركم من تعلم القرآن و علمه))

(البخاري عن عثمان)

الصدقة الجارية في صحيفة الإنسان إلى يوم القيامة:

ينبغي أن تدع أثراً، ولو رسالة صغيرة، ولو بحثاً صغيراً، ولو تركت أثراً في أولادك، أحياناً ألتقي مع بعض الأخوة الطيّبين، كلّما ذكر أباه ترحّم عليه، ويقول: أبي علّمنا أن نصلي الفجر في المسجد، أبي علّمنا ألاّ نكذب، أبي علّمنا أن نتواءم بعد وفاته، أبي علمنا أن نحسن للناس، أبي علمنا أن نكون صادقين، كل أعمال هذا الابن في صحيفة أبيه، أنت أمام أبواب لا يعلم إلا الله خيراتها ؛ تربية الأولاد، وطلب العلم، وتعليم العلم، وترك أثراً علمياً، وصدقةٍ جارية، بناء مسجد.

أنا كنت أقول حينما تأتيني لجان من المساجد الأخرى للتبرُّع، أقول: كل من صلى في هذا المسجد، وكل درس يعقد في هذا المسجد، وكل دمعةٍ تنهمر من عين مصلٍ في هذا المسجد، وكل توبةٍ تعقد في هذا المسجد في صحيفة من بناه إلى يوم القيامة، فالصدقة الجارية، أحياناً مسجد، وأحياناً معهد شرعي، هناك معاهد شرعية الآن تعدُّ مفخرة، تضم آلاف الطلاّب، ماذا يُعَلّمون ؟ يُعَلّمون الكتاب والسنّة، والفقه والتفسير، والآداب الإسلامية والعقيدة الصحيحة، فإذا الإنسان ساهم ببناء مسجد، أو بترميم مسجد، أو بتأمين مرافق المسجد ؛ من نحو: تكبير الصوت، الإضاءة، التدفئة، التكيّيف، الفرش، ساهم بالتدريس في المسجد، ساهم بدعم هذا المسجد، كل هؤلاء لهم عند الله أجرهم، هذه الصدقة الجارية ؛ مسجد، مستشفى خيري، مستوصف خيري، معهد شرعي، مرفق عام مفيد جداً.

على الإنسان أن يترك أثراً من عمل الصالح ينفعه بعد موته:

هؤلاء الأجداد المرجة في دمشق هذه أرضٌ وقفية، أوقفها أصحابها للدوّاب المريضة كي ترعى وتستريح، هناك أوقاف في الشام لا يعلمها إلا الله كلها تنطلق من أعمال الخير، العصر ونية هي وقف، فكل طفلٍ أو خادمٍ انكسر معه إناءٌ وله سيدٌ قاسٍ يأتي إلى هذا المكان فيأخذ الإناء الجديد ويعطيهم أثراً من القديم، كم مشكلة حُلت بهذه الطريقة ؟ وكانت هناك بمارستانات قديماً، مستوصفات خيرية مجّانية، طعام مجاني للفقراء، سبحان الله كان السلف الصالح همُّهم الوحيد خدمة الخلق، والتقرُّب إلى الله عزّ وجل، الآن همّه الفيلا ومسبح فيها، ومركبة فاخرة، وقضاء إجازة في أنحاء العالم، همه المتعة فيموت صفر اليدين، كان الأجداد همهم العمل الصالح، همهم تركُ أثر، والأبواب مفتوحة أيها الأخوة، بإمكانك أن تطلب العلم، بإمكانك أن تحفظ كتاب الله، بإمكانك أن تتعلّم علم التجويد، بإمكانك أن تعلِّم التجويد، بإمكانك أن تعلِّم ما علّمك الله، وهكذا تكون قد تركت أثراً علمياً، ألِف كتاباً صغيراً إذا كنت من أهل التأليف، اترك أثراً علميّاً، اترك أثراً فكريّاً، اترك أثراً اقتصادياً، أثراً من عمل الصالح ترجو ثوابه عند الله سبحانه.

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

(صحيح عند ابن خزيمة عن أبي هريرة)

أعظم عملٍ على الإطلاق الاستقامة و الدعوة إلى الله:

هل بيننا شخص ليس له ابن ؟ فهذا الابن يجب أن تفكر تفكيراً ملياً أن تجعله داعية، وعلى الله رزقه، وتأتي الدنيا وهي راغمة، حينما جُعِلَ الصف العاشر في التعليم الشرعي خاص بالمتفوقين أعرض الناس عنه ووضعوا أولادهم في التعليم العام، فلماذا لا تجعل ابنك يدرس العلم الشرعي ؟ لمَ لا تجعله داعية ينفع الناس بعلمه، لمَ لا تجعل كل دعوته في صحيفتك ؟ هذا هو العمل العظيم، فالأعمال كثيرة جداً، وربنا عزّ وجل قال:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت)

خالق الكون يقول لك: إن أعظم عملٍ عندي على الإطلاق أن تستقيم على أمري وأن تدعو لي. أكرّر قوله تعالى ثانية علّه ينفذ أثره إلى قلوب الآباء:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

عدم وصول الإنسان إلى الجنة إلا بعمله الصالح:

يحب أن تفكِّر جديّاً، فهذه المساجد من يتولّى أمرها ؟ كيف ينقرض العلم ؟ بموت العلماء، والشيء المؤلم أنه كلّما توفي عالم ليس هناك من يخلفه، فبموته انهدم ركنٌ من أركان الأمّة، فلابدّ من أن نهيئ دعاة إلى الله يخلفون السلف، وفي القطر أربعة آلاف مسجد، فمن لهذه المسجد ؟ كلها تحتاج لخطباء صحيحة عقيدتهم، مستقيمي السلوك، نيري الذهن، مثقّفين ثقافة عالية لكي يتركوا أثراً في الناس، فلذلك لابدّ لكل إنسان أن يفكر تفكيراً جديّاً: كيف أدعو إلى الله ؟ إما من خلالك شخصياً أو من خلال أولادك، فلماذا لا تتمنّى إلا أن يكون ابنك طبيباً ؟ آلافٌ مؤلّفة يحلّون محلّ ابنك في هذه الحرفة، لماذا لا تتمنّى ابنك إلا أن يكون مهندساً ؟ لمَاذا لا تتمنى أن يكون ابنك داعية إلى الله عزّ وجل ؟ لِمَ لَمْ تهيئه منذ صغره ليكون عالماً ؟ وهذا كله في صحيفتك، فلذلك إما أن تدعو أنت مباشرةً، أو من خلال أولادك، أو أن تدعم إنسانًا يدعو إلى الله عزّ وجل، وهذا بإمكاناتك، لأن الحياة تحتاج إلى دعم في مختلف مناحيها، فلذلك:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40))

فهذه الآية أصل من أصول العقيدة، فكثير من الأفكار والقصص الخرافية توهم أن الإنسان بكلمة أو بدفعة من عالِم صار من أهل جنة، هذا كله كلام لا معنى له، لن تصل إلى الجنة إلا بعملك الصالح.

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل)

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح..

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأحقاف: آية " 19 ")

الداعية إلى الله عمله في صحيفة أبيه إن رباه على ذلك:

فيا أيها الأخوة الكرام: هذا الحديث الشريف هو محور هذا الدرس:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ))

(صحيح عند ابن خزيمة عن أبي هريرة)

اختر من بين أولادك النجيب المتفوق، الألمعي وقل: هذا سيكون داعية إن شاء الله، أدخله المعاهد الشرعية، والحمد لله عندنا معاهد شرعية كثيرة، والشهادة التي ينالها طالب المعهد الشرعي تعادل الشهادة العامّة تماماً، الذي يحمل ثانوية شرعية يدخل أي فرع في الجامعة، طبعاً الفرع الأدبي، فهناك تعادل الشهادات والحمد لله، وهناك دعم للتعليم الشرعي وهذا من فضل الله عزّ وجل، فرصة، فكل

واحد يفكر أن يعلِم ابنه التعليم الشرعي، أن يجعله عالِماً، أن يجعله داعيةً، هذه المساجد تحتاج إلى خطباء، تحتاج إلى علماء، تحتاج إلى مدرِّسين، فعندما يفكر الإنسان تفكيراً جيداً بأن يجعل ابنه داعيةً إلى الله عزّ وجل وفق المنهج الصحيح، وفق العقيدة الصحيحة، وفق الأسلوب التربوي الذي سلكه النبي صلى الله عليه وسلّم فهو عندئذٍ يكون ممن تنطبق عليه هذه الآية:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

النية وراء كل عمل صالح:

ذكرت فكرة وسأعيدها مرّة ثانية: لو أنّ أباً أنجب ولداً وهذا الابن تديّن تديّناً صحيحاً ولم يكن الأب راضياً عن تديّنه، يريده أن يكون في عمل آخر وله شأن آخر، لو أن هذا الابن أصبح أعلم العُلماء، وأكبر الدعاة لا ينال الأبَ من ابنه شيء، لأنه لم ينوِ ولم يردْ منه ذلك، أراده إنسانًا متفلِّتًا، فالعبرة هي النية:

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى))

(متفق عليه عن عمر بن الخطاب)

إذا دخل الوالدُ إلى بيته ورأى أولاده وبناته وقلّب النظر فيهم، فإن كان الولد ذكراً فإنه يمكن أن يكون أحد أكبر أسباب سعادتك الأبدية إذا عرّفته بالله، وإذا حملته على طاعة الله، وإذا هيّأته ليكون عالماً، أو ليكون داعيةً، أو ليكون عضواً نافعاً في المجتمع، ثم هناك أبوابٌ لا تعدُ ولا تُحصى للصدقة الجارية، وإن كان الولد بنتاً و أحسنتَ تربيتها كانت من المؤنسات الغاليات و أخذت بيدك إلى الجنة.

هذه المساجد التي تفتخر بها دمشق من بناها ؟ من ساهم في بنائها ؟ من ساهم في تأسيسها ؟ من عَمَرَها بالصلاة وبالتدريس والخطبة ؟ فهؤلاء جميعاً شركاء في الأجر، والولد الصالح الذي يدعو لك من بعدك، والصدقة الجارية، والعلم الذي يُنتَفع به كل أولئك في صحيفتك إن شاء الله.

الحد الأدنى أن تدعو إلى الله في حدود ما تعلم:

الإنسان أحياناً ولا أبالغ فيما أقول: فأنت إن حضرت مجلس علم والدرس ساعة أليس في الدرس آية تركت أثراً في نفسك ؟ حضرت خطبة، وإنك تحضر الدروس والخطب من عشرين سنة، ولكن ألم تجد آية واحدة تركت أثراً عميقاً في نفسك ؟ ألا يوجد حديث شريف هزّ أعماقك ؟ ألا توجد قصّة لصحابي جليل غيّرت مجرى حياتك ؟ ألا تستطيع أن تنقل هذه الآية، أو ذاك الحديث، أو تلك القصّة إلى الآخرين؟ بأسلوبك المتواضع، ولو بلغتك العامّية، لمن حولك، هل هناك إنسان ليس حوله أشخاص ؟

هل تجد إنسانًا لا يلتقي مع أقربائه في الأسبوع عدة مرّات ؟ في سهرة، أو خِطبة، أو لقاء عائلي، أو عقد قِران، وأحياناً مواساة في حزن، وعيادة مريض، أو وليمة، أو سفر، أو نزهة، فكل إنسان يعيش في مجتمع من الأهل والأصدقاء والجوار، في هذه اللقاءات ماذا تقول وبِمَ تتحدث ؟ عن أي شيء تتكلّم في هذه اللقاءات ؟ ألا ينبغي أن تحدِّثهم عما فهمته من كتاب الله ؟ ألا ينبغي أن تحدثهم عما فهمته من كلام رسول الله ؟ ألا ينبغي أن تحدثهم عن بعض مواقف الصحابة وما أكثرها و ما أجلّها ؟ فأنت داعية بهذه الطريقة، أنا لا أكلِفك أن تكون العالِم الوحيد، وحيد عصره، ووحيد زمانه، في حدود ما تعلم أنت داعية، قد لا يصل الأمر إلى أن تكون من العلماء الكبار اللامعين، أنت سمعت آية واحدة، حديثاً واحداً، قصّة واحدة، أليس بالإمكان أن تعيدها لمن حولك ؟ لأقربائك، لأولادك، لإخوانك، لزملائك، لمن معك في العمل، لشركائك، لأولاد أخوتك، أنت عايش مع الناس، لمَاذا لا تجعل كل لقاءاتك مع الآخرين لقاءات دعوة إلى الله ؟ لقاءات تذكير، لقاءات تعريف بالله عزّ وجل، أنت طالب علم، أنت معدودٌ على أهلك أنك طالب علم فأين علمك ؟ وأين حديثك عن الله عزّ وجل ؟

أبواب الجنة مفتحة أمام الإنسان:

ولعلّك أنْ تنقل تفسير آيةٍ واحدةٍ تنقذ بها إنساناً، هذا الإنسان هو وأهله، وأولاده، وذرّيّته إلى يوم القيامة في صحيفتك، ما قولك الملاحظ أنّ هناك إخوانًا يتوهّمون أن حضور الدرس هو كل شيء، والله حضور الدرس وحده ليس بشيء، إلا في حالة واحدة وهي أن تنطلق منه إلى فعل كل شيء، حضور الدرس من أجل أن تخرج للعمل، فالنبيُّ عليه الصلاة والسلام يعلّمنا أنّ أحدنا إذا دخل بيت الله عليه أنْ يدعو فيقول:

((اللهمّ إني أسألك أن تفتح لي أبواب رحمتك))

فإذا جلست بعد ذلك في مجلس علم تشعر بالتجلّي، تشعر بالسكينة، بالراحة النفسية، بالغذاء الروحي، وكان عليه الصلاة والسلام إذا خرج من المسجد قال:

((اللهمّ افتح لي أبواب فضلِك))

إنه يريد عملاً يجسِّد هذا الفهم، يريد عملاً صالحاً يجسِّد هذا الفهم لكتاب الله، فالإنسان مفتّحةٌ أمامه أبوابٌ كثيرةٌ، ابنتك باب للجنّة، وبنتان فلكَ بابان، ثلاث بنات، هل راقبت أهلك في الصلاة في البيت ؟ أين قوله تعالى:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

(سورة طه)

على الإنسان أن يحدّث نفسه بالأعمال الصالحة التي تستمر بعد موته:

خروج بناتك هل راقبته ؟ راقب صلاة بناتك، راقب تصرفات بناتك عند خروجهن أو في البيت، هل هو خروج شرعي أم هناك مفاتن ظاهرة ؟ وأنت مسؤول، شيء ثالث: هل راقبت حديث بناتك ؟ فيه غيبة، فيه نميمة، فيه كِبْر، فيه استعلاء، فيه كلام فارغ، فيه حديث لا يرضي الله عزّ وجل، يجب أن تلاحظ الحديث، وأن تلاحظ الصلاة، وأن تلاحظ الخروج، فإذا ربيت ابنتك تربية إسلامية، ثم جاءها الخُطّاب فاخترت من بينهم المؤمن، فإن هذه الفتاة في صحيفتك إلى يوم القيامة، وهي أحد أسباب دخولك الجنة.

كذلك ابنك إذا علّمته، إذا كان معك في المسجد، إذا نشأ على حضور مجالس العلم، إذا نشأ يألف بيوت الله عزّ وجل دائماً، إذا جلست معه الساعات الطِوال تسأله وتجيبه، وتعلِمه وتوجّهه، هذا ابن، إذا خرج مؤمناً صادقاً كان حقّاً قرة عين، إذاً البنت باب، والابن باب، فإذا حضرت مجلس علم وسجّلت بعض النِقاط وجعلتها منهجك طوال الأسبوع فهذا نهج حميد، فمثلاً في هذه الجمعة فسّرنا قوله تعالى:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

ألا يمكن أن تعيد جزءاً من معانيها ؟ بلقاء، باثنين، بثلاثة، بعملك، بسهرتك مع أحد إخوانك، في سهرةٍ، في عشاءٍ، في وليمةٍ، في لقاءٍ مع الجيران، في عقد قِران، ألا يمكنك إعادته ؟ صرت داعية، فالإنسان يجب أن يُحَدِّث نفسه بالعمل الصالح الذي يستمر بعد موته.

أعظم الأعمال هي الأعمال التي تستمر بعد الموت:

بالمناسبة فإن أعظم الأعمال هي الأعمال التي تستمر بعد الموت، وأفدحُ الأعمال شناعة هي الأعمال التي يموت صاحبها ولا ينتهي الإثم الذي تركه، أسّس ملهى تُقام فيه كل المعاصي والآثام وبعد الافتتاح بجمعة مات، هذه ليست صدقة جارية بل هو إثمٌ جارٍ إلى يوم القيامة، فالعبرة أن تعمل عملاً يُخَلِّد ذكرك بعد الموت، الآن نحن الحاضرين، في الأعم الأغلب بعد مئة سنة لن يكون واحد على قيد الحياة، وهناك طقم بشري ثانٍ يأتي، في الأسواق، في البيوت، الله جعلنا خلائف يخلف بعضنا بعضاً، معنى هذا نحن زائلون، فماذا يبقى ؟ العمل الصالح هو الذي يبقى، هو الذي يرفعنا عند الله عزّ وجل، لكن ماذا أكلنا ؟ ماذا شربنا ؟ أين سكنّا ؟ كم هي مساحة البيت ؟ تزيين البيت، هذا كله زائل، فالعلماء الكبار، والمصلحون الكبار، والقادة الكبار تركوا بصمات واضحة في الحياة.

العلماء والقادة الكبار تركوا بصمات واضحة في الحياة:

مَن منّا لا يذكر سيدنا صلاح الدين الأيوبي ؟ كيف ردّ أوروبا بأكملها، وحرّر هذه البلاد من الغزاة الأجانب ؟ مَن منّا لا يذكر سيدنا عمر بن الخطّاب ؟ وهؤلاء الصحابة الكرام، هؤلاء الذين تركوا بصمات واضحة في المجتمعات، فكل إنسان بحسب إمكاناته يمكن أن يدع بصمة، ذات مرّة قال لي أخ: أنا أستيقظ قبل الفجر دائماً، وقال: إنّ والدي عوّدني على ذلك، فكان يأخذني معه إلى المسجد قبل الفجر لنصلي قيام الليل ونصلي الفجر حاضراً، واستمر هذا ديدنه وشأنه حتى سن متأخِّرة، وكان يترحّم على والده، فأنت من الممكن أن تعمل عملاً طيّباً يبقى ذكره لك إلى يوم القيامة.

من يطلب العلم و لو مشافهة يترك علماً نافعاً يجازى عليه:

ملخّص هذه الآية: قد يتوهّم أحدكم أنه لا ينجو أو لا يرقى عند الله إلا إذا كان من أعلام العلماء، لا، أبداً، إذا حضرت مجلس علم وفهمت آية ونقلتها للآخرين نقلاً صحيحًا، وهؤلاء الآخرون استفادوا منها وغيّروا سلوكهم فأنت ممن تنطبق عليه هذه الآية، تركت علماً نافعاً يُنتَفع به، فالأمور تكبر وتصغر، تتوسّع وتضيق، فالحد الأدنى أن تدعو إلى الله في حدود ما تعلم، ومَن تعرف فلن تجد أحداً إلاّ وحوله أقارب، أقرباؤك الخُلّص، إخوانك، أصدقاؤك، جيرانك، زملاؤك، فأنت حينما تطلب العلم مشافهةً وتنقله مشافهة في حدود ما تعلم، وفي حدود من تعرف، فقد تركت علماً نافعاً، وقد يقول الذي نقلت له هذه الآية يوماً وهو يقصدك بقوله: جزاه الله خيراً، فبسبب هذه الآية أقلعتُ عن تلك المعصية، بسبب هذه الآية بدأتُ أصلي في الجماعة، بسبب هذه الآية فعلت كذا وكذا، فهذه واحدة ولكنها ترجح كفة الميزان.

على كل إنسان أن يبحث عن عمل صالح ينفعه بعد موته:

أحياناً الإنسان لا يُحسِن النقل ولكنه يعطي شريطًا، وهذا الشريط فيه خير كبير، وبهذه الطريقة أيضاً أنت نقلت العلم، وانتُفِعَ به وفي صحيفتك، ولك أجرٌ كبير، فنشر العلم النافع باب واسع جداً، بإمكان كل مَن حضر هذا الدرس أنْ يكون له نصيب منه

((و علمٍ يُنتَفَعُ به))

إنسان ساهم بتنظيف مسجد وهو فقير وليس معه شيء، لنا إخوان (جزاهم الله خيراً) نظّفوا هذا السجاد، واشتغلوا فيه شهراً حتى صار نظيفاً، فخدمة بيت الله خدمة عظيمة جداً، فالإنسان يقدر أنْ يساهم بتنظيف المسجد مثلاً، أو بتأمين مرافق المسجد أحياناً، أو تصليح كهربائه، وتأمين التدفئة،

وتأمين التهوية، وتكبير الصوت، فهذه صدقة جارية في صحيفتك، أجرينا توسعة فساهمت فيها فهذا في صحيفتك، فابحث عن عمل ينفعك بعد الموت.

أو:

((ولدٍ صالح))

الذي عنده ابن، الذي عنده أخ صغير أخذه معه إلى المسجد، قدّم له هدية، حبّب إليه المسجد، عامله معاملة خاصة فقرّبه مِن ربّه، فعندما يحضر الطفل إلى بيت الله المرة تلو الأخرى فإنه يألف بيوت الله، ويألف الحق، ويألف تطبيق الحق، فهذا شيء رائع جداً، وأعود فأكرر هذا الحديث محور درسنا، وهو حديث صحيح رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

(صحيح عند ابن خزيمة عن أبي هريرة)

هذا هو العمل الطيّب.

مجالات الصدقة الجارية واسعة جداً:

مثلاً: الكهرباء انقطعت فجأةً فبعض الأخوة هيئوا لنا مولِّدة وعلى الفور اشتغلت واتصل التيار، فهذا في صحيفته إلى يوم القيامة، والدرس قائم فنحن نحتاج إلى تكبير صوت وإلى إضاءة، فالذي ساهم بتأمين مولِّدة له أجر، وهذه صدقة جارية، والذي ساهم بفرش المسجد، والذي ساهم بالتدفئة المركزية، والذي ساهم ببعض الأشياء الأساسية في المسجد، فكم شخصٍ صلّى تحت هذه الخيم، الشمس حادّة، والذي ساهم فيها له أجر.

أيها الأخوة: الصدقة الجارية مجالاتها رحبة واسعة جداً، فبإمكان كل واحد منّا أن تكون له صدقة جارية، وكذلك الولد الصالح ففي كلّ تقريبا فيه أولاد وبنات، ولِيعلِّمْ كل واحد منّا ابنته وابنه صلاحهما، ويضبط سلوكهما وخروجهما، وحديثهما، يربيهما تربية صالحة وبذلك يكون قد ساهم بولدٍ صالحٍ أو ابنة صالحة يدعوان له، وكذلك العلم يُنتَفع به فتعلّمْ وعلِّمْه..

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

وقوف الإنسان يوم القيامة ليرى عمله أمام جميع الخلائق:

إيّاك أن تتوهّم أن شيئاً تناله من دون أن تفعله، أو أنّ شيئاً من عملك يُنتَقَصُ منه، أبداً، حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، لكن الإنسان أحياناً في الدنيا يكون في عمل عظيم فنُعَتِّم عليه، وفي عمل صغير ننفخ فيه، شأن بعض الناس يتصفّ بحسب أهوائه، مثل قريب جداً: أحياناً تكون امرأة لها ابنة ومتزوِّجة، فأعمال ابنتها الصغيرة تُضَخَّم، وتُضخَّم، وتُضَخَّم، وتثني عليها في المحافل وعلى ذكائها، وعلى كونها زوجة صالحة، وعلى تربيتها لأولادها، وأعمال زوجة ابنها أحياناً في التعتيم، مهما فعلت يُعتَّم عليها، وهذا مثل مأخوذ من واقعنا الاجتماعي، فالإنسان في الدنيا بحسب أهوائه يبرز أو يعتِّم، لكن الله سبحانه وتعالى لعدله ولكرمه يبيّن أنّ هذا السعي سوف يُرى..

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40))

هذا السعي سوف يشهده الناس جميعاً، سوف يقف الإنسان يوم القيامة ليُرى عمله أمام الخلق قاطبة، في هذا الوقت يعدُّ العمل الصالح مفخرةً لصاحبه، ويعدُّ العمل السيئ وصمة عارٍ على جبين صاحبه..

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)

(سورة آل عمران: آية " 106 ")

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

(سورة الصافات)

العمل الصالح مفخرة لصاحبه والعمل السيئ عار على صاحبه:

لذلك الآية الثانية متمِّمة..

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40))

ليس هناك تعتيم، ولا تضخيم، عملك الصالح بحجمه الحقيقي، بنواياه الطيّبة سوف يبرز للخلق قاطبة، لذلك مرّة قام أحد من حول النبي عليه الصلاة والسلام فقال: **"يا رسول الله إني نؤوم "** (أنام عن الصلاة) فسيدنا عمر غضب وقال: **" ويحك لقد فضحت نفسك "**، فقال النبي الكريم:

((مه يا ابن الخطاب فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة))

(رواه الطبراني عن الفضل بن عباس)

فإذا أخطأ الإنسان بين خمسة أشخاص أهون مِن أن يخطئ بين ألف شخص، أو بين مليون شخص، وأحياناً الإنسان يغلط في حديثه لأجهزة الإعلام غلطة فيتناقلها الناس في كل بقاع الأرض، فكيف يوم القيامة إذا أخطأ خطأ عرض على الخلق قاطبة ؟

(وَأَنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى)

سيقف الأنبياء، سيقف العلماء، سيقف الدُعاة، سيقف المدّعون، سيقف المجرمون، كلٌ بحسب عمله..

(وَأَنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى)

العدل المطلق يوم القيامة:

الإنسان أحياناً بذكاءٍ وطلاقة لسانٍ وقوّة بيان يقلب الحقّ إلى باطل والباطل إلى حقّ، لكنه يوم القيامة كيف يكون شأنه، يقول الله عزّ وجل ؟:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ)

(سورة يس: آية " 65 ")

فالآية الثانية خطيرة جداً..

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلّا مَا سَعَى (39) وَأَنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40))

المرحلة الثالثة:

(ثُمّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى)

عدلٌ مطلق..

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

(ثُمّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى)

المؤمن حقّه عند الله محفوظ يوم القيامة:

الحركات والسكنات والنيات والتطلعات والصراعات كلّها مسجّلة، لذلك فالإنسان إذا أيقن من خلال هذه الآيات الثلاث أن الأحوال كلها مكشوفة وهو مجزيٌّ بها فإنه يحتاط لنفسه.

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلّا مَا سَعَى (39) وَأَنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41))

إذًا: فاعلم أنّ هذه الآيات الثلاث أصل من أصول الدين، فلا تتوهّم أن يأتيك ثواب عمل لم تفعله، ولا تخف أن يُنتقص من عملك الصالح الذي تبتغي به وجه الله عزّ وجل، وأن هذا العمل بحجمه الحقيقي وبخلفيته الصحيحة (النية التي وراءه) سوف يبدو للملأ قاطبةً يوم القيامة، والمرحلة الثالثة: سوف تنال جزاءه كاملاً دون نقصٍ ودون ظلمٍ، فالمؤمن حقّه عند الله محفوظ، فإذا كان الله هو الذي يسجّل عليك، وهو الذي سيُظهر عملك، وهو الذي سيكافئك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فماذا نفعل ؟ إذاً لابدّ من عملٍ صالحٍ يبقى بعد الموت، لابدّ من صدقةٍ جارية، لابدّ من علمٍ يُنتَفعُ به، لابدِ من ولدٍ صالحٍ يدعو له.

الوقت و المال أثمن شيء يملكه الإنسان في حياته:

كل بيت فيه أولاد، وكل إنسان بإمكانه أن يسمع الدرس ويبلِّغه، وكل إنسان يقدر أن يترك أثراً في مسجد، أو في مشروع خيري، لو بجهده مثلاً، فأحياناً يقدِّم خدمة فيقول لك: أنا سوف أنظِّف المسجد في الجهة الفلانية، هذا قدّم شيئًا، هذه صدقة جارية، فالإنسان عليه ألاّ يضن بوقته ولا بماله لأن هذا الذي يبقى، والذي نستمتع به في حياتنا هو الذي يذهب، هذا الذي يبقى وذاك الذي يذهب.

كان موضوع درسنا اليوم ثلاث آيات، هي:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41))

وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى:

(وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (43) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (44) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النجم 053 - الدرس (8-9): تفسير الآيات 42-49
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-10-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الثامن من سورة النجم، ومع الآية الثانية والأربعين وهي قوله تعالى:

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

محاسبة الله كل إنسان على عمله:

نهاية العباد، ومصيرهم، ومرجعهم، ومآلهم إلى الله، وسوف يحاسبهم، فلو أن الإنسان آمن بالله، فسينتهي إليه، وسيكافئه على إيمانه واستقامته وعمله الصالح، ولو أنه كفر بالله وأساء إلى الخلق فسينتهي إليه وسيحاسبه على كفره وإساءته وتفلته، ولو أنه فعل ما فعل من إيذاء الخلق فسينتهي إلى الله وسيحاسبه، ولو أنه أحسن فسينتهي إلى الله وسيحاسبه، لو اتصل بالله وعرفه حقًا فسينتهي إليه وسيكافئه، لو ترك الصلاة فسينتهي إليه وسيعاقبه.

تصور ساحة فيها عشرات بل مئات الطرق، وهذه الطرق تبدو متباعدة، لكن في النهاية كلها تصب في شارع عريض واحد، افعل ما شئت، لك أن تؤمن، ولك ألاّ تؤمن، لك أن تشكر، ولك أن تكفر، لك أن تستقيم، ولك ألاّ تستقيم، لك أن تحسن، ولك أن تسيء، لك أن تخلص، ولك أن تخون، لك أن تعفو، ولك أن تنتقم، لك أن تنفع، ولك أن تؤذي، افعل ما شئت، اعملوا ما شئتم، لابدّ من أن تنتهي إلى الله، فليس من طريق آخر، كل الطرق تنتهي إلى الله، والله سيحاسب كل إنسانٍ على عمله.

كل الطرق تنتهي إلى المولى سبحانه:

فيا أيها الأخوة الأكارم: لو أن الإنسان عرف هذه الحقيقة في بداية حياته لشكل حياته على نسق خاص، ولضبط سلوكه وفق هذه الفكرة الخطيرة، فإذا سافر الإنسان إلى أي مكانٍ فإنه سوف يعود به إلى بلده وسيحاسب عن كل كلمةٍ قالها، لو أيقن هذا فلن يتكلم كلمة خلاف الأصول، فالمؤمن، والكافر، والمُلحد، والفاجر، والفاسق كلّ إلينا راجعون، آمنت أو لم تؤمن، قلت: الدين لا علاقة له بالحقيقة، قل ما شئت فلابدّ من أن تنتهي إلى الله وأن يحاسبك الله على كل أقوالك وأفعالك.

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

تحرّك، ربنا عزّ وجل قال:

(إنّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة القلم)

الإنسان في قبضة الله ولو ذهب إلى أي مكان:

المتانة صفة تؤكد مقاومة قوى الشد، أما القساوة تؤكد قوى الضغط، الألماس قاسٍ جداً، أما الفولاذ المضفور أمتن معدن في الأرض، لذلك: المركبات التي تمشي على أسلاك يستخدمون لسيرها الفولاذ المضفور، فالفولاذ المضفور أمتن معدن، والألماس أقسى عنصر، فقوى الضغط تقابلها القساوة، وقوى الشد تقابلها المتانة، فربنا عزّ وجل قال:

(إنّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة القلم)

فالإنسان مربوط وفي أية لحظةٍ هو في قبضة الله، اذهب إلى أي مكانٍ شئت.

لا تأمن الموت في طرفٍ ولا نفس وإن تمنّعـت بالحجاب والحرس
فما تزال سهـــام الموت نافذة في جـنب مدّرع منها و متّرسِ
أراك لســت بوقافٍ ولا حذر كالحاطب الخابط الأعواد في الغلس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكـها إن السفينة لا تجري على اليبــس

***

إلى أيّة مكانةٍ ارتقيت، وفي أي مكانٍ كنت يأتي بك الله عزّ وجل، والآية الكريمة:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

(سورة البقرة: آية " 148 ")

معرفة الإنسان بأن مرجعه إلى الله دليل استقامته:

(إنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمّ إنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

اذهب يميناً، يساراً، شمالاً، جنوباً، اركب الطائرة، كن وسط أعماق البحار، اصعد إلى القمر، أسس شركات، اجمع الأموال، افعل ما تشاء.

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

سوف تحاسب على كل كلمةٍ، وعلى كل همسةٍ، وعلى كل سكنةٍ، وعلى كل تصرفٍ صغيراً كان أو كبيراً.

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

هذه الحقيقة لو أيقن بها لكانت حياتنا غير هذه الحياة، ولاستقام الجميع على أمر الله، لسلكوا منهج الله، لطبّقوا شرع الله، لخافوا من الله، إذ هناك حساب دقيق، الإنسان في الدنيا أحياناً يحسب حساباً لكل كلمة يقولها، لأنه يعلم أنه سيحاسب، فكيف برب العالمين الذي يقول:

(إِنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمّ إِنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

لا مفر للإنسان من الله إلا إلى الله:

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

إليه ينتهي كل الخلق على اختلاف أعمالهم، ينتهي إليه أهل الجنة، وأهل النار، والكفار، والمؤمنون، والملحدون، والعصاة، والطائعون، والفجّار، الناس جميعاً، كل الخلق ينتهون إلى الله، هذه هي الحقيقة، هذه الآية وحدها لو أيقنا بها لاستقمنا على أمر الله، إلى أين تفرُّون ؟ اعملوا ما شئتم، فأنتم إلى الله راجعون، وإليه تنتهون.

(إِنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمّ إِنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

هذا هو معنى الآية، فيا أيها الإنسان أين تفرُّ ؟ لا مفر من الله إلا إلى الله، ولا ملجأ منه إلا إليه.

(إِنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

على الإنسان أن يعلم أن كل شيء محاسب عليه قبل فوات الأوان:

ساحة عامة فيها مئة طريق، يمين، يسار، شمال، جنوب، طريق مزدان بالأزهار، طريق مليء بالأشواك، افعل ما شئت، اسلك أيّ طريقٍ شئت، كل هذه الطرق سوف تلتقي في نقطةٍ واحدة عند هذه النقطة تحاسب على كل أعمالك، أنت الآن مخير، لكن بعد أن يأتي يوم الدين، يوم الدينونة والجزاء، يوم الحساب، تحاسب على كل شيء، هذه الحقيقة لابدّ من أن ندركها، لكن قد ندركها بعد فوات الأوان، بعد أن نصل إلى الله، وبعد أن ننتهي إليه، ثم نَلْقَى الحساب الدقيق، وقد علِمنا علم اليقين أن كل صغيرةٍ

وكبيرةٍ محاسبون عليها، والإدراك في هذه اللحظة لا جدوى منه، إدراكٌ جاء متأخراً، جاء بعد فوات الأوان، العبرة أن تعرف الحقيقة في الوقت المناسب، من أجل أن تستفيد منها، وقد أنبأنا الله بهذه الحقيقة في وقت مبكِّر، وقبل فوات الأوان.

(وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى)

النهاية إلى الله لا محالة، تجد شاباً وافاهُ الموت وهو في ريعان شبابه، إلى أين سيذهب ؟ إلى الله، إنسان مُعَمِّر وافته المنيةُ فإلى أين سيذهب ؟ إلى الله، هذه الجنائز التي ترونها كل يوم إلى أين تصير ؟ إلى القبر، وماذا في القبر ؟ حسابٌ دقيق، مَن ربك ؟ ما دينك ؟ مَن نبيك ؟ لمَ فعلت ؟ لمَ لم تفعل ؟ هذا بعض الحساب.عدلٌ من الله، واستسلام مع العبد.

مصير الإنسان متعلق بإخلاصه في عمله:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

دققوا، فالإنسان قد يسافر، يركب طائرات، ينتقل من قارة إلى قارة، ثم يموت، قد يعود إلى مسقط رأسه وقد لا يعود، على كلٍ:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

فما دام المصير إلى الله والمنتهى إليه فلا بدّ من الصلح معه في الوقت المناسب، إذا كان المصير إلى الله، فالعاقل هو الذي يتوافق مع هذه الحقيقة ويعمل لها، مِن تعريف الذكاء: التلاؤم، القدرة على التكيُّف، فإذا أيقنت أن المصير إلى الله، وأن المنتهى إلى الله، وأن المرجع إلى الله، وأن المآل إلى الله بالقبر فأخلص العمل، قد يعيش المرء في أفخر بيت، فيُلَفُّ في أرخص أنواع الأقمشة، يلف ويوضع في حفرةٍ، لا ضوء، ولا نور، ولا ماء، ولا شيء من هذا القبيل، فالحفرة من تراب والمهاد من تراب، ويغلق عليه القبر وينتهي الأمر **"عبدي رجعوا وتركوك "** رجعوا وتقاسموا الإرث **"وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت ".**

العاقل من يتكيف مع لقاء الله عز وجل:

أيها الأخوة الأكارم: مِن أدق الحقائق هذه الحقيقة.

(وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى)

تاجر أسس معملاً فاغتنى، وجَمّع ثروة هائلة، ثم اشترى أفخر بيت في المدينة، كما اشترى أفخر بيت في المصيف، ركب أفخر سيارة، قام برحلات بعيدة جداً، نزل بأفخر الفنادق، ثم ماذا ؟ لابدّ من الموت، أو دعا إلى الله، بذل جهداً جهيداً في خدمة الخلق، طلب العلم، علّم العلم ثم ماذا ؟ لابدّ من اللقاء مع الله عزّ وجل، هذا هو اللقاء الحَتْمِيّ، فالعاقل هو الذي يتكيّف مع هذا اللقاء، يتكيف معه بالاستقامة، يتكيف معه بالعمل الصالح.

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

ما من طريق سالك لغير الله عزّ وجل، لو كان هناك طريق آخر لاجتازه فلان، أو قل: نفد فلان، بالتعبير العامي: (دَبّر حاله)، لكن ليس من طريق آخر، وليس من مصير آخر ؟ وليس من إله آخر تلجأ له ؟ في الدنيا قد يعتبر لاجئًا، أحياناً الإنسان يضغط عليه فيلجأ إلى بلد آخر، يقبلونه لاجئًا، ويكرمونه، لكن هل من إله آخر تلجأ له ؟

(إِنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمّ إِنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

الموت و الحساب نهاية الخلق:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً)

(سورة البقرة: آية " 148 ")

في أي مكانٍ كنت، وفي أية مكانةٍ كنت، الملوك يموتون، والأنبياء يموتون، والأغنياء يموتون، والفقراء يموتون، والأصِحاء يموتون، والمرضى يموتون، طبيب ألّف كتاباً جمع فيه مقالات متناثرة في عشرات المجالات ؛ فوائد هذا الغذاء، كيف يجب أن تنام، كم ساعة ينبغي أن تنام، نصائح لا تعد ولا تحصى، في الحياة اليومية، في تناول الأغذية، في الرياضة، ثم يفاجأ الإنسان أن هذا الطبيب الذي قدّم مئات النصائح، بل آلاف النصائح مات، فالأطباء إذّا يموتون، وأطباء القلب يموتون، وأطباء الجهاز الهضمي يموتون بأمراض هضمية أحياناً.

(إِنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمّ إِنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

فيا أيها الأخوة: هذه حقيقة، مهما أنكرناها فهي واقعةٌ بنا ونحن إليها مآلنا، وهناك نقطة مهمة جداً، فمثلاً: إنكارك للشيء لا يُلْغي فاعليته، إذا أنكرنا هذه الحقيقة فالحقيقة باقية، الآية مطبقة علينا، اعترفت بها أو لم تعترف، آمنت بها أو لم تؤمن.

وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى: آية لها عدة معان:

1 ـ المصير و المرجع و الحساب إلى الله تعالى:

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

المصير إلى الله، المرجع إليه، المآب إليه، النهاية إليه، عنده الحساب، وعنده الجزاء، وعنده جنة، وعنده نار، والجنة لمن أطاعه، والنار لمن عصاه، وهذا الكلام علينا أن نعرفه في الوقت المناسب ونحن أحياء، وفي حياتنا بقية، وقلبنا ينبض، ونحن أصحاء فتنتفع به، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اغتنم خمسا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك))

(أخرجه الحاكم، والبيهقي عن ابن عباس، أحمد عن عمرو بن ميمون)

إذاً العقل كل العقل، والذكاء كل الذكاء، والفلاح كل الفلاح، والفوز كل الفوز، في التكيّف مع هذه الآية..

(إِنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمّ إِنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

هذا معنى أوّل.

2 ـ على الإنسان ألا يفكر في ذات الله سبحانه:

وهناك معنى آخر للآية، النبي عليه الصلاة والسلام تلا هذه الآية وقال فيما يروى عنه: **" لا فكرة في الرب "**. أنت يمكن أن تفكر في مخلوقاته، فكر ما شئت، كلما فكرت في خلق الله ازددت معرفة به، وازددت تعظيماً له، وخشية له، لكنك إذا وصلت إلى الخالق فلا ينبغي أن تفكر في ذاته، عندئذٍ تهلك، لأنهم: وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً، وقال أيضاً:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة: آية " 255 ")

مستحيل أن تحيط بالله عزّ وجل، لك أن تفكر في خلقه، وليس لك أن تفكر في ذاته، لأنك لن تصل إليه، فلا تعمل عقلك في ذاته لأن هذا مهلكة لك.

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

الهلاك مصير التفكير في ذات الله:

إذا ركبت مركبة، هذه المركبة ممكن أن تصل بك إلى ساحل البحر، لكن هذه المركبة ليست مائية لتمخر بها عباب الموج، إذًا تغرق، مركبة أرضية تنقلك إلى الساحل، وليست مجهَّزة أن تخوض بها أعماق البحر، فالإنسان يفكِّر في مخلوقات الله، لكن لا ينبغي أن يفكر في ذاته فيهلك، وكل إنسان فكر في ذات الله أهلكه الله، لأن هذا شيء غير معقول، فتصور ورقة دخينة، وهو يصنع من أرق الورق، ألقيتها في فرن لصهر الحديد، تقول: ما مصيرها ؟ من الوهج تلاشت، تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا، لذلك **" لا فكرة في الرب "** فلن تصل إلى شيء، ومثلك كما قال الشاعر:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فما وهنت وأوهى قرنه الوعلُ

***

من خصائص العقل الإيمان بالله و رسله و كتبه:

قالوا: **العقل حصانٌ ينقلك إلى قصر السلطان،** فإذا دخلت القصر تركت الحصان خارج القصر، بالمناسبة ما دام الموضوع قد طرحناه، فعقلك مهيأ أن تصل به إلى أن لهذا الكون خالقاً واحداً، إلهاً كاملاً موجوداً، وعقلك مهيّأ أن تصل به إلى أن هذا الخالق العظيم لا يمكن أن يدع خلقه من دون توجيهٍ كريم، لابدّ من كتاب أنزله، وعقلك قادرٌ على أن يصل إلى أن هذا الإنسان الذي جاء به هو رسول مِن عند الله، فالإيمان بالله وبرسوله وبكتابه، من خصائص العقل، لكن بعد أن تؤمن بالله موجوداً وواحداً وكاملاً، وأن هذا كلامه، وأن هذا الإنسان رسوله، الآن عليك أن تتلقى، بحثت فوصلت، بقي عليك أن تتلقى عن الله ما جاء في كتابه.

إخبار الله للإنسان لا يمكن أن يكون عقله حكماً عليه:

أما إذا أعملت عقلك في ذات الله، أو في كلامه اعتراضاً ورفضاً، أو في كلام النبي تساؤلاً واستخفافاً، فأنت إذًا قد هلكت، كإنسان مصاب بآلام حادة في المعدة، بحث عن أفضل طبيب، طبيب اختصاصي، نزيه، مُخْلِص، صادق، أمين، له خبرات واسعة، له يد طويلة في شفاء المرضى، فلما فكر هذا المريض وفكر وسأل وبحث ودرس دُلّ على طبيب تتوافر فيه هذه الصفات، دخل إلى العيادة انتهى دور العقل، الآن ينبغي أن يأخذ عن هذا الطبيب، لو أنه اعترض عليه معنى ذلك أن بحثه كان غير صحيح،

ما دام البحث صحيحاً، فالآن دور التلقِي، كنت تبحث، والآن تتلقى، فإذا آمنت بالله الإيمان الصحيح، وآمنت بكتابه الإيمان الصحيح، وآمنت برسوله الإيمان الصحيح، فالآن دورك دور التلقِي، الذي أخبرك الله به لا يمكن أن يكون عقلك حكماً على ما أخبرك الله به، فلذلك الله جلّ جلاله يقول:

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

مصيرنا إليه وهو سيحاسبنا.

الله تعالى وهب الإنسان خاصة الضحك و البكاء:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(وَأَنّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)

مَن خلق في الإنسان خاصة الضحك ؟ الله جلّ جلاله، وخاصة البكاء ؟ الله جلّ جلاله، يروي بعض العلماء أن القِرد وحده هو الذي يضحك من بين الحيوانات ولكن لا يبكي، وأن الجمل وحده يبكي ولا يضحك، وما سوى ذلك لا يبكي ولا يضحك، أما الإنسان يضحك ويبكي، فمن خلق في الإنسان خاصة الضحك ؟ ومن خلق في الإنسان خاصة البكاء ؟ الله جلّ جلاله، ثم من خلق أسباب الضحك، وأسباب البكاء ؟ يرزق الإنسان فيضحك، إذا أقام الإنسانُ ميزانية ووجد أن ربحه كبيراً، تجده في وضع متميّز، تألّق، عيناه زئبقيّتان، تورّد خده، شعر بنشوة، فالنجاح مسعد، أخذ شهادة، نجح بدرجة ممتازة، يظل شهر متألِقاً، واختلف كلامه، واختلف تعامله، وتغيّرت مشيته، وتغيّرت أناقته، فالنجاح مسعد، من الذي أعطاك أسباب الضحك ؟ الله جلّ جلاله، من الذي سمح لك أن تضحك ؟ الله جلّ جلاله.

الله عزّ وجل خلق أسباب الضحك و أسباب البكاء:

إنسان متزوج زوجته مخلصة، جلس مع أهله وأولاده، جرى حديثاً لطيفاً فضحك، هذا الضحك سببه أن لك أهلاً ولك أولاداً، وبينكما مودة ومحبة، ولا عداء، ولا دعاوى في المحاكم، بل إخلاص ومحبة، من يسّر لك أسباب الضحك ؟ هو الله عزّ وجل، الصحة طيبة، فلو جاء في أي تقرير أنك مصاب بورم، ما أحسنتَ ضحكاً على الإطلاق، انتهى، فشل كلوي مثلاً، فلن تضحك أبداً، تشمع كبد فلن تعرف سبيلاً للضحك، وكذلك إذا كانت خثرة بالدماغ فلن تضحك البتة، أليس كذلك ؟ ما دام هناك معافاة في الصحة، معنى ذلك أنّ الضحك موجود، يضحك الإنسان، وتجده مرحاً، إذا كان آمناً في سربه، معافىً في جسمه، عنده قوت يومه، يضحك، إذا ذكرت طرفة مضحكة يضحك من أعماقه، فالله عزّ وجل خلق أسباب الضحك، خلق خاصة الضحك، وأضحك أناساً، وأبكى أناساً.

الآن حدثٌ شخصاً يضحك منه إنسان ويبكي منه إنسان، قابلة دخلت إلى بيتٍ لتولِد امرأةً فجاءها مولودٌ ذكر فصاح الجميع بالبكاء، عندها سبع ذكور وهي تنتظر أنثى، فذهبت إلى بيتٍ آخر في اليوم نفسه وجاء المولود ذكراً فضج البيت بالفرح والضحك، عندهم سبع بنات فجاءهم ذكر، فالمولودان ذكران، في بيت خيّم الحزن، وفي البيت الأخ شاع الفرح، إذاً شيء واحد يضحك ويبكي، أحياناً إنسان يتعيّن في منصب، تجد البيت قاعة استقبال وتهانٍ، وإنسان فَقَدَ نفس المنصب تجد البيت غمره حزنٌ وكآبة، يضحك أناس ويبكي أناس، أحياناً تضحك من شيءٍ بكيت منه بالأمس، فالمتصرف هو الله، أحياناً قد تواجهك مشكلات ظاهرها مشكلة معقّدة، لكن باطنها نعمة، فالله عزّ وجل قال:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

الضحك الحقيقي للإنسان أن يصل إلى الجنة:

الذي أبكاك بالأمس أضحكك اليوم، والذي أضحكك بالأمس أبكاك اليوم، فيمكن للحدث الواحد أن يضحك منه إنسان ويبكي منه إنسان آخر، ويمكن أن تضحك مما بكيت منه، ويمكن أن تبكي مما ضحكت منه، والمؤمن يضحك في الجنة الضحك الحقيقي، والعبرة: مَن يضحك آخراً، الضحك الحقيقي، الفرح الحقيقي، الفوز الحقيقي، النجاح الحقيقي، الفلاح الحقيقي، أن تصل إلى الجنة، لذلك:

(لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة يونس)

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

(سورة الزمر)

فالضحك الحقيقي أن تصل إلى الجنة.

البكاء الحقيقي خسران الإنسان لآخرته:

البكاء الحقيقي أن يخسر الإنسان آخرته، هذا الحزن المطلق، والضحك المطلق، وربنا عزّ وجل قال:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين)

لكن الذي كفروا في الدنيا يضحكون من المؤمنين، يتهمونهم بالسذاجة، والخوف غير المعقول.. إذاً:

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)

الضحك نعمة على الإنسان أن يذوب حباً لله على هذه النعمة:

صدقوني أيها الأخوة لمّا أرى إنسانًا يضحك أقول: لو عرف نعمة الله عليه حتى جعله يضحك لذاب حباً لله عزّ وجل، الضحك نعمة، وليس من السهل أن تضحك، مرة كنا مدعوّين في بستان، دخل صاحب البستان ولم يسلم على الحاضرين إطلاقاً، فسألت قريبه: ما شأن هذا ؟ قال: كان في غسيل كليته، لا يرى أمامه أحداً، الإنسان لمّا يأتيه شيء عُضال ينتهي الضحك من حياته كلياً، إذا كان الإنسان في صحة طيبة، أجهزته سليمة، أعضاؤه صحيحة، حواسه في عافية، له مأوى، وله زوجة، وله أهل، وله دخل محدود يغطي حاجاته، فسهر سهرةً وضحك، يجب أنْ يسجد لله شاكراً: يا رب لك الحمد فأنت أضحكتني، سمحت لي أن أضحك، هناك إنسان يبكي، والله عزّ وجل قادر على أن يبكّيّ الرجال الأشداء الأقوياء، فالله جبار وقهار، فلا تخدعنّ أحدًا صحّتُه أو قوّتُه.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

من استقام و اتبع سنة النبي يضحك في الدنيا و الآخرة:

قال لي رجل: أعاني من مرضين: في المعدة والقلب، أدوية المرض الأول تؤذي المرض الثاني، وأدوية المرض الثاني تؤذي المرض الأول، فهو إذا مستسلم بلا دواء، أحياناً تُجرى للإنسان عملية بلا مخدِّر، قلبه لا يحتمل المخدر، الآلام لا تطاق، فالله عزّ وجل أضحك وأبكى، فإذا الإنسان استقام على أمره، واتبع سنة نبيه، وتقرب إليه بالعمل الصالح، فأغلب الظن أنّ الله يضحكه في الدنيا، له في الدنيا جنة خاصة..

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

الله عزّ وجل يضحك ويبكي، إذا ضحك أحد فلا يظن أنه ضحك بذكائِهِ، لا، بل الله سمح له أن يضحك، وإذا بكي فلعلّ البكاء فيه رحمة.

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)

الضحك المطلق والفرح المطلق لا يكون إلا في الجنة:

بعضهم قال: أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر، بعضهم قال: أضحك الشجرة بالزهر، شجرة الربيع ضاحكة، في الشتاء باكية، الأرض أحياناً كلها أزهار ونباتات، وكأنها عروس ترتدي أجمل ثيابها، طبعاً هذه معانٍ مجازية، لكن المعنى الأساسي أن الضحك الحقيقي والمطلق يكون في الجنة، فبعد دخول الجنة لا يوجد قلق، ولا خوف، ولا شقاء، في الدنيا لو ضحك الإنسان فقد ينتظره شيء يُبكيه، لا يدري ما سيأتي، أما الضحك المطلق والفرح المطلق في الوصول إلى الجنة، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: آية " 58 ")

ينبغي أن تفرح بفضل الله لأنك عرفت الله، لأنك استقمت على أمره، لأنك عملت الصالحات، لأن الله سمح لك أن تذكره، سمح لك أن تعرفه، قدّر على يديك الخير، اصطفاك من بين العصاة، هذا الذي ينبغي أن نفرح له.

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)

الله وحده الذي يضحك الإنسان و الذي يبكيه:

لو أن الله عزّ وجل قال: وأنه أضحك وأبكى، لاختلف المعنى، معنى ذلك أن هناك إله آخر يضحك ويبكي، أما حينما قال الله عزّ وجل:

(وأنه هو أضحك وأبكى)

أي وحده، الله وحده الذي يضحك، ووحده الذي يبكي، ولا إله آخر، هو وحده يضحك أو يبكي، تجد أحياناً إنسانًا بغير الضحك والبكاء يشعر بانقباض، وأحياناً بانشراح أيضاً:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمّ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَخَافُ عَلَيْنَا وَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ بِمَا جِئْتَ بِهِ ؟ فَقَالَ إِنّ الْقُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزّ وَجَلّ يُقَلِّبُهَا وَأَشَارَ الْأَعْمَشُ بِإِصْبَعَيْهِ))

(أخرجه ابن ماجه عن أنس بن مالك)

أحياناً يحس بانقباض لا يدري له تفسيراً، وأحياناً يحس براحة وبانطلاقة وببشر، وهو لا يدري لها تفسيراً، فقلب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن.

العبرة بخواتيم الأمور لا ببداياتها:

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)

خلق خاصة الضحك والبكاء، ثم خلق أسباب الضحك وأسباب البكاء، ثم جعل ما تضحك منه اليوم تبكي منه غداً، وما تبكي منه اليوم تضحك منه غداً، والعبرة: الضحك الأخير، أحياناً تقبل الدنيا فتجد شخصاً من شدة فرحه اختل توازنه، يا ترى: أهذا الضحك بعده بكاء ؟ قد يكون بعده بكاء شديد، فالعبرة بخواتيم الأمور، العبرة للنهايات، العبرة لختام العمر، **"اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم نلقاك وأنت راضٍ عنا ".**

الله عز وجل خلق الموت و الحياة:

(وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)

طبعاً حينما ينفخ الله في النطفة من روحه تحيا، صار مولوداً، يتكلم، يضحك، يبكي، يأكل، يشرب، ينمو، وقد يموت هذا المولود، فالذي خلق الموت والحياة هو الله، والعلماء أضافوا لهذا المعنى: أن الإنسان يموت قلبه بالبعد عن الله، ويحيا بالاتصال به، والدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

وقال تعالى:

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(سورة فاطر)

وصف الكافر بالموت و المؤمن بالحياة:

قال تعالى:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل: آية " 21)

فالله عزّ وجل وصف الكافر بالموت، ووصف المؤمن بالحياة، فهناك حياتان حياة الجسد وحياة القلب، وهناك موتان موت الجسد وموت القلب، الكفار وهم في أوج حياتهم موتى، **"يا بني مات خُزّان المال وهم أحياء "**، بينما الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات وهم في قبورهم أحياء.

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

(سورة آل عمران)

فالإنسان يحيا ويموت، يحيا جسمه ويموت جسمه، ويحيا قلبه ويموت قلبه.

(وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)

لذلك **"كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تُقرّب أجلاً "**.

تحديد جنس المولود متعلق بالنطفة لا بالبويضة:

(وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (44) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

هذه الآية فيها إعجاز علمي، طبعاً بعد تقدُّم العلوم الطبية تبيّن أن جنس المولد ذكراً كان أو أنثى لا تحدده البويضة بل تحدده النطفة، ولهذا البحث تفصيلات طويلة، هناك في العُرى الملونة عروة شكلها إكس، وعروة شكلها وأي، فالنطفة وحدها تحدد ما إذا كان المولود ذكراً أو أنثى، فهذا الذي يغضب من زوجته إذا أنجبت له الأنثى جاهل، جاهل لا يفقه شيئاً، الذكر منه والأنثى منه.

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

والأصح من ذلك:

(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50))

(سورة الشورى)

أن يكون الأولاد كلهم ذكوراً من الله، أن يكون الأولاد كلهم إناثاً من الله، أن يكونوا ذكوراً وإناثاً من الله، أن يكون الإنسان عقيماً من الله، هذا كلام الله عزّ وجل.

عظمة خلق الله عز وجل:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

في اللقاء الواحد بين الزوجين خمسمئة مليون حوين تختار البويضة أقوى هذه الحوينات، والحوين عليه خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، هذا اسمه علم الوراثة الآن، وهو الآن العلم الأول في العالم، فالمعلومة مبرمجة، وكذلك البويضة، وحينما تلقّح البويضة يبدأ الانقسام، في طريق البويضة من المبيض إلى الرحم تنقسم هذه الخلية الملقّحة إلى عشرة آلاف قسم دون أن يزيد حجمها، والموضوع طويل، وعلم الأجنة يقدِّم لنا حقائق مذهلة عن عظمة الخلق.

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (47))

سيعاد خلقنا من جديد، وسينفخ في بقية أجسامنا التي في القبور، وسوف يعاد خلقنا لنحاسب على أعمالنا كلها.

إعادة خلق الإنسان من جديد لمحاسبته:

(وَأَنّ عَلَيْهِ)

الله عزّ وجل إذا جاءت على متعلقة بذاته جلّ جلاله يقولون: تفيد الإلزام الذاتي.

(وَأَنّ عَلَيْهِ النّشْأَةَ الْأُخْرَى)

سوف يعاد خلقنا مرةً ثانية لنحاسب على أعمالنا كلها.

(وَأَنّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (43) وَأَنّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (44) وَأَنّهُ خَلَقَ الزّوْجَيْنِ الذّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46) وَأَنّ عَلَيْهِ النّشْأَةَ الْأُخْرَى (47) وَأَنّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى(48))

هو الذي يغني، هناك أذكياء جداً، كل ذكائهم لم ينفعهم في أن يغتنوا..

ولو كانت الأرزاق تجري مع الحجا هلكنَ إذاً من جهلهن البهائم

الله يغني ويفقر.

أَغْنَى وَأَقْنَى: آية لها عدة معان:

(وَأَنّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى)

بعض العلماء قالوا: َأَقْنَى أفقر، أي أغنى وأفقر، أضحك وأبكى، أمات وأحيا، وبعضهم قال: َأَقْنَى من القُنْيَة أي أعطاه أشياء ثمينة، ملّكه أشياء، بعضهم قال: َأَقْنَى أَخْدَمَ، أغناك وجعل قلوب الخلق تميل إليك هذا من فضل الله عزّ وجل، بعضهم قال: َأَقْنَى أخدم وأرضى، أحياناً الله يعطي إنسانًا مالاً كثيراً وهذا الإنسان لا يرضَى عن الله، تجد رجلاً أعطاه شيئًا قليلاً وهو راضٍ عن الله، فالعبرة أن ترضى عنه لا أن يرضى عنك، العبرة أن ترضى عنه أنت أولاً، أن ترضى عنه هو سر الإيمان به، هذا رجل يطوف حول الكعبة يقول: **"يا رب هل أنت راضٍ عني ؟ "** ووراءه الإمام الشافعي قال له: **"يا هذا هل أنت راضٍ عن الله حتى هو يرضى عنك ؟ "** قال: **"يا سبحان الله من أنت يرحمك الله ؟ "** قال: **"أنا الشافعي محمد بن إدريس "**، قال: **"كيف أرضى عنه وأنا أتمنّى رضاه ؟ "** قال: **"يا هذا إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله ".**

فبعضهم قال: **"أغنى أي جعلك غنياً "** وبعضهم وسّع هذه الآية قال: أغناك بالعلم، أغناك بالحكمة، أغناك بالرضا، أغناك بالعمل الصالح، أغناك بمعرفته، أغناك بالجنة، فهذه الآيةواسعة سعة كبيرة، قد يغنيك بالمال، وقد يغنيك براحة البال

(فيهديهم ويصلح بالهم)

راحة البال ثمينة جداً، وقد يغنيك بالسمعة الطيبة، وقد يغنيك بالحكمة، وقد يغنيك بالعلم، وقد يغنيك بمحبة الخلق، وقد يغنيك بالعمل الصالح، يجري على يديك أعمالاً كبيرة جداً.

كل المسلمين في صحيفة النبي الكريم إلى يوم القيامة:

عدد المسلمين هذه الأيام يبلغ مليار ومئتي مليون مسلم، وكلُ هؤلاء في صحيفة النبي عليه الصلاة والسلام، إلى أيّ مكان ذهبت في العالم فكلُ المسلمين في صحيفة النبي، في خلال ربع قرن غَيّر وجه الأرض، سيدنا عمر قال: **"أنا ؛ ما أنا إلا حسنة من حسنات أبي بكر "**، أنا كلِّي، عملاق الإسلام حسنة من حسنات أبي بكر.

مرة قال له واحد: **"ما رأينا أفضل منك بعد رسول الله "**، فأحدّ فيهم النظر، فخافوا فقال أحدهم: قال له: **"من هو ؟ "** قال: **"أبو بكر "**، قال: **"لقد كذبتم جميعاً وصدق هذا، فعَدّ سكوتهم كذباً. قال: والله كنت أضل من بعيري وكان أبو بكرٍ أطيب من ريح المسك "**، ولما وقف على المنبر نزل درجة، تعجبوا !! قال عمر رضي الله عنه: **"ما كان الله ليراني أن أرى نفسي في مقام أبي بكر "**، سيدنا عثمان لم ينزل درجة، ولحكمةٍ بالغة، فلما سئل بعض خلفاء بني أمية عن السبب: **"لما لمْ ينزل عثمان درجة ؟ "** قال:**"والله لو فعلها لكنت الآن في قعر بئر "**، هذه أيضاً حكمة فلو نزل عثمان درجة أخرى، وسيدنا علي لو نزل درجة لصار مقامه على الأرض، فالذي بعده تُحفر له الأرض لينزل درجة، فانظر لو تتابعت سُنة عمر في نزوله درجة !!

مجالات الإغناء:

العبرة أن الله سبحانه وتعالى (أغنى): سنعدِّد مجالات هذا الإغناء: أغناك بالمال، أغناك بالعلم، أغناك بالحكمة، أغناك براحة البال، أغناك بالسمعة الطيبة، أغناك بأولاد أبرار، أغناك بزوجةٍ صالحة، أغناك بعملٍ صالح كبير، أغناك بالجنة، هذا معنى:

(وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى)

مجالات الإقناء:

أمّا: (أقنَى)، أولاً أرضاك بما أعطاك، السعادة هي: لا أن تأخذ الكثير بل أن ترضى بالقليل، أحد أسباب السعادة الرضا، أغنى وأقنى أرضى، أغنى وأقنى: فهناك شيء غير الغنى المادي، فإذا كان الخلق قد تعلقوا بك وأحبوك هذه ثروة كبيرة جداً، فالإنسان كان محبوباً فهذه ثروة كبيرة جداً، وإذا الإنسان كان محبوباً فهذا عطاء إلهي كبير، يعيش بين أحباب، الكل يتمنى أن يلتقي معه، الكل يتمنى أن يخدمه، هذا من فضل الله علينا، لمّا مُدِحَ سيدنا الصديق قال: **"يا رب أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون".**

الجنة أوسع شيء في الغنى:

الله أحياناً يعطيك محبة الناس، يعطيك ثقة الناس، هذا عطاء كبير جداً، أحياناً يملِّكك الرقاب، والناس لا يحبونك، أحياناً يملكك القلوب وهذا هو العطاء الحقيقي، الأقوياء ملكوا الرقاب لكن الأنبياء ملكوا القلوب، وفرقٌ كبير بين أن تملك الرقاب وأن تملك القلوب، أغنى وأقنى، المحبة، الرضا، الخدمة، وبعضهم قال: أفقرَ، فأغنى وأقنى: أغنى وأفقر، والغنى أوسع شيء فيه الجنة.

تنبيه الله عز وجل للعرب بأن الشعرى مربوباً و ليس رباً:

(وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (48) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (49))

قال: الشِعْرَى أبعد من الشمس بمليون ضعف، بعد الشمس عن الأرض مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر اضربها بمليون، يعطيك بالكيلومترات بُعدَ نجم الشعرى عن الأرض، وقال: قوة إضاءته خمسون ضعفًا، وكتلته عشرون ضعفًا عن الشمس، والعرب كانوا يعبدونه من دون الله، فربنا نَّبَهُهم بأنّ هذا النجم الذي تعبدونه مربوب وليس رباً، قال سبحانه:

(وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى)

ثم يقول الله عزّ وجل:

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى(55))

الله رب كل شيء و إليه يرجع كل شيء:

كان درسنا اليوم:

(وَأَنّ إِلَى رَبّكَ الْمُنْتَهَى)

بمعنيين..

(وَأَنّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (43) وَأَنّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (44) وَأَنّهُ خَلَقَ الزّوْجَيْنِ الذّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46) وَأَنّ عَلَيْهِ النّشْأَةَ الْأُخْرَى (47) وَأَنّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (48) وَأَنّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى(49))

وهناك درس أخير إن شاء الله، فإنْ أحْيانا الله سنتابع تفسير الآيات المتبقية، وبه تنتهي سورة النجم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النجم 053 - الدرس (9-9): تفسير الآيات 50-62
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-10-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس التاسع والأخير من سورة النجم ومع الآية الخمسين:

إهلاك الله قوم ثمود إهلاك استئصال:

وهي قوله تعالى:

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51))

هناك إهلاك استئصال، وهناك إهلاك ضعف..

(وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى)

أهلكها إهلاك استئصال، فلم يبق منهم أحداً إلا نبيَّ الله صالحاً ومن آمن معه، فقد نجاهم الله.

قوم نوح و طغيانهم الكبير:

(وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى)

أي أنهم كانوا أشدّ ظلماً وأشدّ طغياناً، لأن نبيهم الكريم نوحاً عليه السلام لبث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً، وخلال هذه المدّة الطويلة لم يهتدوا إلى الله، ولم يرجعوا عن كفرهم.

إهلاك الله قوم لوط بأن جعل عالي الأرض سافلها:

(وَالْمُؤْتَفِكَةَ)

أي قوم لوطٍ..

(أَهْوَى)

أي جعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارةً فساء مطر المنذَرين، و صاروا جميعا هلكى.

(وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54))

الموعظة أساس تذكير الله الإنسان بمصير الأقوام السابقة:

ماذا نستفيد من تعداد هؤلاء الأقوام وكيف أهلكهم الله عزّ وجل ؟ لا شكّ أن العلماء يتحدّثون عن شيءٍ اسمه الاستقراء، فمثلاً إنْ أتينا بمعدن وسخّنّاه فتمدّد، ثم أتينا بمعدنٍ آخر وسخنّاه فتمدّد، ثم أتينا بمعدنٍ ثالث سخّناه فتمدّد، بعد استقراء عدّة تجارب نستنتج ونقول: المعادن كلها تتمدّد بالحرارة، هذا قانون، فلمّا ربنا عزّ وجل ذكر كيف..

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54))

أقوامٌ كثيرون أهلكهم الله عزّ وجل، فما المقصود ؟ ونحن أيضاً إن خرجنا عن منهج الله، وإن عصينا، وإن شردنا، وإن تفلّتنا لابدّ من أن يصيبنا ما أصاب هؤلاء لأنه قانون إلهي، ألم أقل لكم قبل قليل: هناك استقراء..

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54))

كل إنسان ينحرف عن سواء السبيل يستحقّ الهلاك:

أحد نشاطات العقل هو الاستقراء، حادثة وثانية، ثالثة ورابعة، خامسة وسادسة، سابعة وثامنة يُستنبَط قاسم مشترك بين كل هذه الحوادث، هذا القاسم المشترك هو القانون، بعدئذٍ نعمِّم، نستقرئ ثم نعمِّم، الحديد تمدّد بالحرارة، والذهب تمدّد بالحرارة، والفضة تمددت بالحرارة، والنحاس تمدد بالحرارة، إذاً كلُّ المعادن تتمدّد بالحرارة، فإذا فهمنا هذه الآية بطريقة الاستقراء نستنبط منها قانوناً هو أن كل قومٍ انحرفوا عن سواء السبيل استحقوا الهلاك، فإذا أردنا أن نسحب هذا القانون على حياتنا نجد أن كل منحرفٍ على مستوى فردي وعلى مستوى جماعي هالك لا محالة.

ظلم الإنسان لأخيه يتناقض مع عدالة الله عز وجل:

أقول لكم هذا الكلام، والكلام دقيقٌ جداً في معانيه وغاياته: إنّ الإنسان إذا انحرف إن في كسبه للمال، أو في إنفاقه، أو في معاملته لمن حوله ؛ لأقرب الناس إليه، لمن هم أدنى منه، لمن هم تحت إمرته، إذا انحرف في معاملتهم، فظلمهم، وبغى عليهم، وطغى عليهم وهو أقوى منهم قدرةً ومالاً، والأمور سارت

على ما يرام هذا الظالم إلى ما شاء الله، فهذه الحوادث تتناقض مع وجود الله، تتناقض مع عدالته، تتناقض مع تربيته..

(أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ(149))

(سورة الشعراء)

معالجة الله للإنسان تكون بأربعة أساليب:

1 ـ الدعوة البيانية:

الإنسان لا يُترك من دون معالجة، ولا تنبيه، وقد ذكرت لكم سابقاً: أن هناك أساليب أربعة يطبّقها اللهُ جلّ جلاله على عباده.

أول أسلوب: الدعوة البيانية، كلام، أنتم الآن وأنا معكم نتلقّى دعوة بيانية من كتاب الله عزّ وجل ؛ تحضر درس علمٍ، خطبة جمعةٍ، تقرأ القرآن، تستمع إلى شريط، تقرأ كتاباً، هذه دعوةٌ بيانية، وأكمل حالةٍ في الدعوة البيانية أن تستجيب لها، أن تأتمر بما أُمِرت، وأن تنتهي عما نُهيت، وأن تفعل ما ينبغي أن تفعل، وأن تدع ما لا ينبغي أن تفعل، الاستجابة للدعوة البيانية هي أكمل حالةٍ معها.

لذلك قال الله عزّ وجل ودققوا في هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

إجابة الإنسان لله و للرسول ثمنها الحياة الطيبة:

الله سبحانه وتعالى وعدنا بحياةٍ إذا استجبنا لأمره، ولا يُعقل أن يكون أي منهج أرضي يحقق حياةً أكمل من الحياة التي وعدنا الله بها، لا يُعقل أبداً، هل يُعقل أن منهجاً أرضياً ؛ طريقةً في الحياة، مبدأً وضعياً، أسلوباً في المعيشة، ينقلك إلى حياةٍ بكل جوانبها أكمل من الحياة التي وعدنا الله بها، خالق الكون يقول: يا عبادي لمجرّد أن تستجيبوا لي ولرسولي فأنا أعدكم بحياةٍ طيّبة..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

لما فيه حياة أجسامكم، وحياة قلوبكم، وحياة نفوسكم، وحياة مجتمعكم، لذلك أيها الأخوة، حينما يقرأ الإنسانُ كلامَ الله عزّ وجل يجب أن يعلم ماذا يقرأ، إنه يقرأ كلام خالق الكون، إنه يقرأ كلاماً هو قانونٌ يحكم كلّ حركاته وسكناته، يقول الله لنا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

المؤمن يحيا حياةً طيّبة، والكافر يحيا لكن حياته ليست طيّبة..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

أسعد الناس من انصاع لأمر الله سبحانه:

أيها الأخوة الكرام: الله سبحانه وتعالى أورد هذه القصص كي نستفيد منها، هناك دعوةٌ بيانية، كمال الاستجابة لها أن تستجيب لها مؤتمِراً بما أُمرت، منتهياً عما نُهيت، وهؤلاء هم أسعد الناس، أسعد الناس الذين إن استمعوا إلى كلمة الحق بادروا إلى الانصياع لها، لذلك:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: آية " 36 ")

هذا أمر الله على العين والرأس، هذه سنّة رسول الله على العين والرأس..

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: آية " 36 ")

2 ـ مرحلة التأديب:

لو أن إنساناً لم يستجب فادّعى قائلاً، يا أخي لا نستطيع، نسأل اللهَ أنْ يغفر لنا ويرحمنا، هذا كلام بعض المسلمين، ماذا سيكون ؟ ستكون المرحلة الثانية وهي مرحلة التأديب، تضييق، شدّة ؛ نفسية، مادّية، اجتماعية، خوف، حزن، نقصٌ في المال، نقصٌ في الأولاد، علاقات عملٍ سيئة، حياةٌ زوجية مزعجة، علاقةٌ مع الأولاد لا ترضي، الله عزّ وجل هو الخبير وهو الحكيم، وهو الذي يعلم كيف يُعَالِج هذا العبد، حينما لا تجدي الدعوة البيانية، أو حينما لا يستجيب المرء للدعوة البيانية يأتي التأديب التربوي، ماذا ينبغي أن نفعل إذا جاء التأديب التربوي ؟ ينبغي أن نتضرّع إلى الله تائبين، منيبين، عائدين.

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فقد اصطلح مع الله))

(ورد في الأثر)

((إذا تاب العبد توبة نصوحاً أنسى الله حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه))

(ورد في الأثر)

فالإنسان إذا كان في طور الدعوة البيانية، إذا كان في مسجدٍ يستمع إلى درس علمٍ، وفي هذا الدرس أمرٌ ونهيٌ، وحلالٌ وحرامٌ، وحقٌّ وباطل، هذا هو الحق فاتّبعه، وذاك هو الباطل فاجتنبه، أنت في طور الدعوة البيانية، وأكمل شيءٍ في هذا الطور أن تستجيب، فإن استجبت فلك الحياة الطيبة، لك الحياة التي لا تعلو عليها حياة، لك الطمأنينة التي لا تعلو فوقها طمأنينة، لك البِشر الذي لا يعلو فوقه بِشر، لك السعادة التي لا تعلوها سعادة.. وهكذا..

3 ـ الإكرام الاستدراجي:

فإنْ لم يوفّق الإنسان إلى أن يستجب للدعوة البيانية دخل في طور التأديب، إننا نجد بينَ الأطبّاء من يقول لك: هذا المرض يُشفى بالأدوية الخارجية، بحبوب، بحُقَن، وأحياناً يقول لك الطبيب: لابدَّ من عمليةٍ جراحية، هذا التأديب التربوي، فإذا دخل الإنسان مع الله طور التأديب التربوي فعليه أن يتضرَّع، وأن يلجأ، وأن يتوب، وأن يُقلِع، وأن يستقيم على أمر الله، إن فعل ذلك فقد فعل أكمل شيءٍ في هذه الحالة، فإن لم يستجب، ولم يتضرّع، ولم يتُب، ولم ينْصَع إلى أمر الله، الله عزّ وجل ينقله إلى طورٍ ثالث وهو الإكرام الاستدراجي..

4 ـ القصم:

يعطيه الدنيا كما يريد، هذا الضيق يزيحه عنه ويجعل له منه مخرجاً، هذه الشدّة يكشفها عنه، هذا الخوف يزيله من قلبه، ما هو أكمل رد فعلٍ على طور الإكرام الاستدراجي ؟ أن تشكره، فإن لم تجدِ الدعوة البيانية استجابة، وإن لم يجدِ التأديب التربوي تضرُّعاً، وإن لم ينفع الإكرام الاستدراجي شكراً فعندئذٍ يأتي القصم..

(أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

السعيد من طبق منهج الله عز وجل:

لذلك أيها الأخوة: مَن هو السعيد ؟ هو الذي يتمتَّع بصحّته، وبقوته، وبشبابه، وبأهله، ويُدْعى إلى الله، فعليه أن يستجيب، والعبرة لا بكثرة الحاضرين بل العبرة بالمطبّقين، لأن واحداً كألف وألفٌ كأف،

واحد مطبّق وملتزم يقول: أين الله ؟ هو أفضل عند الله من ألف مستمع لا يطبّق، لماذا كان أصحاب النبي عليهم رضوان الله سبعين ألفاً وتمكّنوا أن يفتحوا العالم شرقاً وغرباً ؟ ولماذا المسلمون اليوم يزيدون عن مليار ومئتي مليون وليست كلمتهم هي العُليا ؟ لأن مطبّقاً واحداً أفضل عند الله من ألف مستمع..

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

(الجامع الصغير عن أنس)

من لم يكن له ورعٌ يصدّه عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله.

الموعظة من ذكر الأقوام السابقة:

فيا أيها الأخوة...

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى(55))

الآلاء أي النِعم، هذه دروس وُضِعت بين أيدينا، هذه وقائع ينبغي أن نستقرئها، هذه أخبار ينبغي أن نتّعظ بها..

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى)

إذاً كيف أننا في الفيزياء نأتي بتجربة وثانية، وثالثة ورابعة، وخامسة ثم نستنبط القانون ونعمّم فنقول: كل المعادن تتمدّد بالحرارة، كذلك قوم عادٍ أهلكهم الله، وقوم ثمودٍ أهلكهم الله، وقوم نوحٍ أهلكهم الله، وقوم لوطٍ أهلكهم الله لكفرهم، فإذا فعلنا فعلهم، وشردنا عن منهج الله كان لنا مثل مصيرهم.

لابد من عقاب ينتظر الإنسان إذا انحرف عن منهج الله:

ذكرت اليوم في خطبة الجمعة: أنه بعد خمس سنين يمكن أن يكون عدد المصابين بمرض الإيدز مئة وعشرين مليون، وأن من المفارقات التي تلفت النظر أن البعوضة لمجرّد أن تلدغ إنساناً مصاباً بمرض الطاعون مثلاً وتأتي إلى إنسانٍ سليم فتلدغه ينتقل المرض من المريض إلى السليم، أما في هذا المرض (طاعون العصر) فالبعوضة لو غرست خرطومها في دم إنسانٍ مصابٍ بالإيدز ثم انتقلت إلى سليمٍ، واختلط الدمان لا يعدى الثاني بالأول، لأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون هذا المرض عقاباً للمنحرفين فقط، هذا المرض لا يصيب إلا المنحرفين لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة الروم)

إذاً هؤلاء الأقوام ضلّوا وانحرفوا فأهلكهم الله عزّ وجل، ونحن على المستوى الفردي أو الجماعي إذ انحرفنا وضللنا لابدّ من عقابٍ ينتظرنا.

تأديب الله في الدنيا نعمة لأن هذا عذابٌ أدنى من عذاب الآخرة:

هذا العقاب نعمة، لماذا ؟ لأن الله عزّ وجل يقول:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

لأن المفارقة..

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى(55))

أي أن تأديب الله في الدنيا نعمةٌ لأن هذا عذابٌ أدنى ربّما كان أقلّ من العذاب الأكبر، إلا إذا جاء التأديب إهلاكاً عندئذٍ هو عقابٌ وليس تأديباً..

الكون، العقل، الفطرة، أشياء تدل على الله:

(فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (55) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (56))

تتمارى أي تجادل، من هو النذير ؟ قال بعض العلماء: **"النبي صلى الله عليه وسلّم هو النذير ".**

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (45) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً (46))

(سورة الأحزاب)

فالنبي نذير، والكون وحده يدل على الله، وعقلك أداةٌ لمعرفة الله، وفطرتك وحدها تدلّك على خطئك، بإمكانك من خلال عقلك أن تعرف الله، ومن خلال عقلك أن تتعرّف إلى كلامه، وأن القرآن كلامه، ومن خلال عقلك تصل إلى أن هذا الذي جاء بهذا الكلام هو نبيّه، وفطرتك تدلّك على خطئك، ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى أرسل الأنبياء والمرسلين، لماذا ؟ ليكون هؤلاء الرجال العِظام الذين هم قِمَمُ البشرية في معرفة الله ومحبّته والإقبال عليه، ليكونوا منذرين للأمم والشعوب..

هَذَا نَذِيرٌ: اختلف العلماء في كلمة نذير فمنهم من قال هو:

1 ـ النبي الكريم:

(هَذَا نَذِيرٌ)

النبي جاء نذيراً..

(مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى)

كيف أن كل قومٍ أهلكهم الله عزّ وجل، وقبل أن يهلكهم أرسل إليهم نبياً ورسولاً لينذرهم وليحذِّرهم ؟ كذلك النبي عليه الصلاة والسلام هو النذير..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (45) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً (46))

(سورة الأحزاب)

2 ـ القرآن الكريم:

وبعض العلماء قالوا: **"النذير هو القرآن الكريم لأنه عرَضَ صوراً لمصير الإنسان في الجنّة أو النار "**، ونحن في الدنيا وقبل أن ينقضي الأجل، وقبل أن يُختَم العمل أرانا الله عزّ وجل من خلال كتابه الكريم مصير المؤمن في الجنّة، ومصير الكافر في النار، وأصحاب النبي رضوان الله تعالى عليهم ألهموا في بصيرتهم رؤية صادقة.. فالنبي خاطب أحد أصحابه فقال:

((كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: إن لكل إيمان حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ ' قال:..... وكأني بأهل الجنة في الجنة يتنعمون فيها وكأني بأهل النار في النار يعذبون. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أصبت فالزم مؤمن نور الله قلبه))

(رواه البزار عن أنس بن مالك)

فقد كان أصحاب النبي يرون الحقائق، تفتّحت بصائرهم، ألم يقل عليٌّ رضي الله عنه وكرّم الله وجهه: **"والله لو كُشِفَ الغطاء ما ازددت يقيناً ؟ "**. ويقول صحابيٌّ جليل: **"والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي. "** لشدّة التفوّق والإقبال على الله عزّ وجل.

3 ـ سن الأربعين:

فالنذير هو النبي عليه الصلاة والسلام، وهو القرآن الكريم، وفي رأي الإمام القرطبي النذير أيضاً هو سنُّ الأربعين، هذا سنُّ النُضج:

((من بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شرّه فليتجهّز إلى النار))

(ورد في الأثر)

من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة، من دخل الأربعين أغلب الظن أن ما بقي له من عمره أقلُّ مما مضى، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((مُعْتَرَكُ المنايا ما بين الستين إلى السبعين))

(رواها رزين)

فإذا بلغ الأربعين معنى ذلك أن الذي بقي أقلّ من الذي مضى، كيف مضى الذي مضى ؟ كلمح البصر، إذاً ما بقي يمضي أيضاً كلمح البصر، نحن مع بعضنا، في السبعينات حينما يأتي عام الثمانين دخلنا في الثمانين، واحد وثمانون، اثنين وثمانون ثم دخلنا في التسعين، الآن نقول: سنة ألفين، والأيام تمضي، هكذا، لذلك فالوقت من خصائصه سرعة انقضائه، وأن ما مضى منه لا يعود، وأنت بين أيامٍ ثلاثة ؛ ما مضى فات، والمؤمّل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، إذاً سنّ الأربعين نذير..

إلى متى أنت باللذّات مشغولُ وأنت عن كلّ ما قدّمت مسؤولّ

***

تعصي الإله وأنت تُظهر حبّه هذا لعمري في المقال شنيعُ

لو كان حبُّك صادقاً لأطعتـه إن المحبّ لمن يحبُّ يطيع

***

النذير سنّ الأربعين، أَبَعْدَ الأربعين لا يصلي ؟ أعوذ بالله، أَبَعْدَ الأربعين يمضي وقته في لعب النرد حتى الساعة الثانية فجراً ؟ أعوذ بالله، ماذا ينتظر ؟ أَبَعدَ الأربعين يُطلِق بصره في الحرام ؟ معاذ الله، أَبَعدَ الأربعين يسهر وراء المُلْهيات حتى آذان الفجر وهو يقوم الليل في قنوات المجاري ؟ أَبَعدَ الأربعين؟ فالأربعون نذير .

4 ـ سن الستين:

وقال بعض العلماء: **"الستّون هو النذير ".**

5 ـ الشيب:

قال بعضهم: **"الشيب هو النذير ".**

((عبدي كبرت سنّك، وانحنى ظهرك، وضعُف بصرُك، وشاب شعرك، فاستحْي مني فأنا أستحي منك))

العاقل من يستعد للقاء ربه و هو على أفضل حال:

أيها الأخوة: كان من الممكن أن يبقى الإنسان شاباً إلى حين وفاته، ويُقصَم قصماً، لماذا يضعُفُ بصره فيضع نظارات ؟ ولماذا تضعف همّته ؟ ولماذا يشيب شعره ؟ ولماذا يشعر بأعراض لم تكن من قبل ؟ يقول لك: مناقير في الركب، أسيد أوريك في الدم، لا يوجد إنسان إلا و يعاني من علّتين أو ثلاث، هذه العلل لحكمةٍ بالغةٍ بالغة جعلها الله تنبيهاتٍ لطيفة، أن يا عبدي لقد اقترب اللقاء فهل أنت مستعدٌ له ؟ اقترب اللقاء فخذوا حذركم وانفروا فارّين إلى الله.

بعض القرى التي فيها مولِدات كهربائية خاصة بها، فهذا المولِد يتوقف الساعة الثانية عشرة ليلاً، قبل عشر دقائق تُطفأ الكهرباء لثانيتين فقط، إشعاراً أنه بقي عشر دقائق لإطفاء الأنوار فاستعد، لذلك فالشيب، وضعف البصر، وضعف السمع أحياناً، وأعراض المفاصل، بعض أمراض الدم، وهنُ القِوى، وانحناء الظهر هذه كلها إشاراتٌ لطيفة لطيفة أن يا عبدي قد اقترب اللقاء فهل أنت مستعدٌ له ؟ والعاقل والذكي والمتفوق هو الذي يستعدُ لهذا اللقاء من أول حياته.

على الإنسان ألا ينسى لحظة اللقاء مع الله عز وجل:

قلت لكم مرّاتٍ عديدة: أن طالباً نال الدرجة الأولى على القطر في الثانوية العامة، سُئل مرّةً هذا السؤال: ما الذي حملك على أن تنال هذه الدرجة ؟ فأجاب إجابة أعجبتني أردت أن أطبّقها على الدين، قال هذا الطالب: لأن لحظة الامتحان لم تغادر مخيّلتي ولا لثانيةٍ واحدةٍ. وكذلك نحن فلحظة مغادرة الدنيا، لحظة اللقاء مع الله، لحظة الحساب تُقبلها دائمًا، وهيّئ لله جواباً عن كل فعل، عن كل تصرُّف، عن كل صلة، عن كل قطيعة، عن كل قرار، عن كل عطاء، عن كل منع، عن كل غضب، عن كل رضا، هيئ لله عزّ وجل جواباً.

6 ـ المصائب:

فيا أيها الأخوة أعود فألخِّص: النذير هو القرآن الكريم، والنذير هو النبي عليه أتم الصلاة والتسليم، والنذير هو سن الأربعين، والنذير هو سن الستين، والنذير هو الشيب، والنذير المصائب، وأحياناً فالإنسان على مستوى البيان لا ينتبه، فهو سارح في المعاصي، غافل عن الله، فهذا لا توقظه خطبة تلقى على مسامعه، وقد لا يوقظه درس علمٍ لأنه لا يحضره، وقد لا توقظه موعظةٌ لأنه لا يعبأ بها، فما الذي يوقظه ؟ أحيانًا مصيبة تقضّ مضجعه، طارئٌ يطرأ على حياته، نقصٌ في ماله، نقصٌ في صحته،

نقصٌ في أولاده، لذلك فالمصائب أحياناً هي النذير، ومن أبلغ النذر كما قال الإمام القرطبي: موت الأقارب، فإنسانٌ مِلْءُ السمع والبصر تحبه ويحبك، تزوره ويزورك، تعامله ويعاملك، في لمح البصر صار خبراً بعد أن كان رجلاً، أين هو ؟ وقد أستمع أحياناً إلى بعض الأخوة الكرام من الشباب يقول: فلان توفي وهو في مثل سني، وفلان توفي وهو في مثل سني، وفلان جاءه الموت وهو في مثل سني، يقول: لم يبق غيري من بين أترابي، فموت الأقارب الذين في مثل سنه يعني أنّ احتمال الموت بحسب قانون الاحتمالات تطرّق إليه، وإن كان ليس هناك سنٌ يستعصي على الموت..

النذر من دلائل رحمة الله بخلقه:

(هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى)

وما أكثر النذر، بل إن النذر من دلائل رحمة الله بخلقه، الله عزّ وجل لا يأخذنا بغتة، ينذرنا، ويحذرنا، ويلفت نظرنا، من خلال الكون تارةً، من خلال أفعاله التكوينية تارةً ثانية، من خلال آياته الكونية تارةً أخرى، من خلال قرآنه تارةً، من خلال كلام نبيه تارةً، من خلال بعض الأحداث التي تلم بنا تارةً، من خلال ملامح شبح بعض المصائب تارةً، فالله سبحانه وتعالى يعالجنا، ويحذرنا، وينذرنا، فحينما لا نستجيب نقع في شر عملنا، والعياذ بالله.

مجالس العلم دعوة من الله:

إخواننا الكرام: من أبلغ الآيات قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

و ما مجالس العلم التي يُتلى فيها كلام الله عزّ وجل وتُبيّن فيها آياته تفسيراً واستخلاص عبرٍ إلا دعوةٌ من الله عزّ وجل.

(هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى)

فالنذير موجود، شعرك نذير، ضعف بصرك نذير، انحناء ظهرك نذير، بعض الأعراض التي لم تكن من قبل والتي طرأت على صحتك نذير، موت الأقارب نذير، بعض المصائب نذير، سن الأربعين نذير، سن الستين نذير، القرآن الكريم هو النذير، النبي هو النذير.

استهلاك عمر الإنسان من خلال مرور الزمن:

(هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (56) أَزِفَتِ الْآَزِفَةُ (57))

هناك واقع زمني تألفونه جميعاً، ينتهي رمضان فتقول في نفسك: أين رمضان التالي، أين ؟ هناك أشهر عديدة، وأنت لا تدري جاء شهرٌ ومضى شهرٌ فإذا أنت مرةً ثانية تحت مظلة رمضان جديد، يأتي العيد ويمضي وتقول: بيننا وبين العيد الثاني سنةٌ بأكملها، ثم تفاجأ بأن العيد الثاني قد حطّ رحاله، وللطلاب كذلك يبدأ العام الدراسي، فيمضي كلمح البصر، فإذا هم أمام الامتحان وجهاً لوجه، كل شيء متوقع آت، وكل آتٍ قريب، فمادام للزمن حركة، وقطارُهُ منطلق فلابدّ من أن يصل، هذه المركبة انطلقت فلابدّ من أن تصل، أنت مع الزمن تمضي شئت أم أبيت، الزمن لا يقف، الزمن يمضي، وما دام الزمن يمضي فهو يستهلك عمر الإنسان..

(أَزِفَتِ الْآَزِفَةُ)

الأعمال الصالحة أفضل عمل للإنسان في الليل و النهار:

كلنا جميعاً كنا أطفالاً، وكنا صغاراً، وكنا في التعليم الابتدائي، وفي التعليم الإعدادي، وفي التعليم الثانوي، وكان كثيرٌ منا طلاباً في الجامعة، وتخرّجنا، وعملنا، وتزوجنا، كيف مضت هذه المراحل كلها، الآية الكريمة:

(لَتَرْكَبُنّ طَبَقاً عَنْ طبَقٍ)

(سورة الانشقاق)

قال بعض المفسرين: هناك ممرٌ إجباري، ومراحل لابدّ منها، هناك فترةٌ في حياة الإنسان شغله الشاغل في دراسته، في جو الامتحانات، والأساتذة، والأسئلة، والتوقّعات، والأبحاث، فإذا نال الشهادة العليا يدخل في مرحلة ثانية، العمل، والوظيفة، والعمل الحر، إلخ، فإذا دخل في هذه المرحلة وخرج منها يطالعه موضوع الزواج، واختيار الزوجة، فإذا دخل مخدع الزوجية دخل في موضوع شراء البيت وتأثيثه، ثم إنجاب الأولاد، ثم تربية الأولاد، ثم انتقل إلى تزويج الأولاد، ثم يدخل في شؤون صحته، يعتني بصحته، ويرى أنه كان مقصراً في صحته، ثم تكتب نعوته على الجدران، سلوكٌ لابد منه، الزمن يمضي ويستهلك الإنسانَ، وأبلغُ كلمة قالها سيدنا عمر بن عبد العزيز: **"الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما "**. وأوضح شاهد صورةٌ لك قبل عشرين عاماً، فرقٌ كبير حينما كنت شاباً أو طفلاً ولك وجهٌ كالبدر ثم تتالت الأعوام والسنون فرسمت هذه الخطوط، وهذه التجاعيد، فهذا من فعل الزمن، الليل والنهار يعملان فيك، فلئلا تسمح لليل والنهار أن يعملا فيك فاعمل فيهما الأعمال الصالحة.

عدم استطاعة أي جهة في الأرض كشف وقت الساعة:

(أَزِفَتِ الْآَزِفَةُ (57) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (58))

إنها الساعة ؛ ليس من دون الله جهة تستطيع أن تقرّبها أو تبعدها، ولا أن تكشف وقتها، ولا أن تلغي عملها، ولا أن تزيح التَبِعات التي تنطوي عليها، فأحياناً هناك مدرس حازم يعيّن يوماً للمذاكرة، لكن الطلاّب يطلبون تأخير المذاكرة، فأبداً لا تقدم، ولا تؤخر، ولا يزال الخطر الكامن فيها.

(أَزِفَتِ الْآَزِفَةُ (57) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (58) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59))

تعجبون عجب التكذيب.

كل إنسان مدعو إلى حياةٍ لا موت فيها:

(وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ)

إخواننا الكرام: هذا الكلام متعلِّق بمصير الإنسان إلى أبد الآبدين، مرة ذكرت أني كنت في جامع العثمان وأمامي كتاب قدّرت طوله بخمسة وعشرين سم، قلت: لو أن رقم واحدٍ في طرف الكتاب وبعد كل سنتيمتر وضع صفر، معنى ذلك أنه صار لدينا خمسة وعشرون صفراً، رقم واحد وأمامه خمسة وعشرون صفراً، كم هذا الرقم ؟ إذا كانت الستة أصفار مليونًا، التسعة أصفار ألف مليون، الاثنا عشر صفراً ألف ألف مليون.. أي مليون مليون.. فالخمسة والعشرون صفرًا كم تشكِّل ؟؟ ذكرت هذا كله ثم قلت: لو أن الأصفار امتدّت من هنا حيث كنت أجلس في المحراب إلى باب المسجد.. كم هذا الرقم ؟ فإلى ساحة شمدين بحي ركن الدين ؟ إلى القطيفة ؟ إلى النبك ؟ إلى حمص ؟ كل ميلي صفر، إلى حماة؟ حلب ؟ أنقرة ؟ موسكو ؟ القطب الشمالي ؟ لففنا حول الأرض إلى القطب الجنوبي ؟ إلى مكة المكرمة ؟ إلى عمان ؟ إلى درعا ؟ إلى دمشق ؟ أي أربعين ألف كيلو متر وهو محيط الكرة الأرضية، فنحن مع رقم خمسة وعشرين صفراً لم نتحمله، واحد أمامه أربعون ألف كيلو متر من الأصفار، كم هذا الرقم ؟ هذا الرقم إذا قسته إلى اللا نهاية فهو صفر، لا شيء، فأنتم مدعوون إلى الحياة الأبدية، إلى حياةٍ لا موت فيها إلى اللانهاية.

الدنيا ما هي إلا إعدادٌ لحياة أخرى:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

(سورة الزخرف)

هذه الحياة الدنيا ليست بشيء إطلاقاً، لا شيء، حقًا إنها إعدادٌ لحياة أخرى.

فيا أيها الأخوة الكرام:

(أفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60))

(أفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ)

أي عجيب في نظر الكافرين أنّ الإنسان في الدنيا له رسالة !! عجيب إذا علموا أن هذه الدنيا المحدودة هي دار عمل وليست دار نعيم !! هو شيء غير معقول عندهم أن نأتي إلى حياةٍ إعداديةٍ لحياة أبدية هو لديهم عجيب !! أعجيب أن يكون لهذا الكون خالقٌ عظيمٌ !! أعجيب أن يكون لإلهنا العظيم منهجٌ ينبغي أن نسير عليه ؟! هذا هو الأصل وهو الحق و الصواب، العجيب خلافُه وعكسه، العجيب الفوضى، العجيب العبثية، العجيب أن يخلق الإنسان سُدَى..

تعجب الكافر أن الإنسان في الدنيا له رسالة:

(أيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

العجيب أن نخلق عبثاً. هذا هو العجيب الغريب، أما أن يكون لهذا الكون إلهٌ عظيمٌ، موجودٌ، كاملٌ، واحدٌ ؟!! فهذا هو الأصل، أعجيب أن يكون لهذا الإله منهجٌ ينبغي أن نسير عليه ؟! لا ليس عجيباً، أعجيب أن تنظم علاقاتنا وفق تعليمات الخبير الصانع ؟! لا ليس ذلك عجيباً ؟ العجيب خلاف ذلك، فليس عجيباً أن هذه الشهوات التي أودعها الله فينا ينبغي أن نتحرك فيها وفق منهج دقيق، أعجيب أن نكون أمناء ؟! أن نكون صادقين ؟! أن نكون أعِفّة ؟! هذا المنهج الدقيق ليس عجيباً، بل هذه هي الحقيقة.

كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ونقطع الرحم، ويأكل القوي منا الضعيف هذا هو الأصل في حياتهم الجاهلية، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته وصدقه وعفافه، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحّدَهُ، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، و صلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، فأيهما هو العجيب ؟ إنسان متفلِّت أم إنسان منضبط ؟ إنسان مسيء أم محسن ؟ مخلص أم خائن ؟ كاذب أو صادق؟ فإذا الله عزّ وجل أنزل على نبيه منهجاً ودستوراً يهدي للتي هي أقوم، أفيكون هذا عجيباً ؟

تعجب الكافر أن بعد الموت حياةٌ أبدية لا نهاية لها:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

هل عجيب أن تسير على مبدأ ؟ وأن تسير وفق منهج ؟ وتنطلق وفق خطة عمل دقيقة ؟ عجيب أن تكون نظيفًا في العلاقات الجنسية ؟ ليس لك إلا زوجتك ؟ أهذا هو العجيب ؟! حقًّا، إنها لا تعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب التي في الصدور.

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ)

أعجيب أن يكون بعد الموت حياةٌ أبدية لا نهاية لها ؟ وهذا هو الأصل، والدنيا وحدها تثير ألف سؤال، أيعقل أن يعد الإنسان نفسه أربعين عاماً ليعيش عشر سنوات ؟ ليس ثمّة تناسب، إلا أن تكون هذه الحياة الدنيا حياةً إعدادية لحياةٍ أبدية، هذا هو العجيب ؟!

استهزاء المنافق بالمؤمن الصالح:

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ)

فلان تمشيخ، يستهزئون، يقولون: فلان متزمت، أفقه ضيق، لا يعرف إلا الله، مباهج الدنيا لا يعرفها، صلب لا يوجد عنده مرونة، يقصدون بالمرونة النفاق، يقصدون بالمرونة المعاصي، متزمِّت، متحجِّر، يقول لك: عقله متكلِّس.

(وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ)

قال:

(وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ)

المعنى الواسع لـ (سامدون): لاهون، المعنى الضيق: تُغَنُّون، إذا أصبح الغناء يغطي كل أوقاتنا فهذه مصيبة، دقق في معاني الغناء ؛ معانيه تافهة، معانيه سخيفة أحياناً كثيرة.

عدم اجتماع القرآن و الغناء في قلب الإنسان:

اقرأ القرآن:

((ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن))

(أخرجه البخاري عن أبي هريرة)

لا يجتمع في قلب الإنسان قرآنٌ وغناء، الغناء ينبت النفاق، من استمع إلى صوت قينةٍ، كما ورد في الأثر:

((من قعد إلى قينة يستمع منها صب الله في أذنيه الآنك يوم القيامة))

(الآنك: هو الرصاص الأبيض).

(كنز العمال عن أنس)

فحينما نغرق في الغناء، يقول لك: عنده ثلاثمئة شريط، أربعمئة، خمسمئة، له هوايات متعددة، استريو، هاي فاي.

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (61))

علة وجود الإنسان أن يعبد الله:

إذًا ما الذي ينبغي أن تفعلوه ؟

(فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا)

فَاسْجُدُوا لِلَّهِ واخضعوا له، واطلبوا العون منه، واعبدوه..

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

يجب أن نعلم أيها الأخوة الكرام أن علة وجودنا أن نعبد الله.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

عبادة الإنسان تقتضي معرفة و سلوكاً و جزاءً:

العبادة تقتضي معرفة، وتقتضي سلوكاً، وتقتضي جزاءً، فالهدف أن تسعد بقربه، هدف جمالي، والثمن أن تطيعه، والسبب أن تعرفه، أن تعرفه فهذا هو الجانب الفكري في الإسلام، فتستقيم على أمره وهذا هو الجانب السلوكي، فتسعد بقربه هذا هو الجانب الجمالي، وفي الإسلام كُلِّيَّات ثلاث ؛ جانب معرفي، جانب سلوكي، جانب جمالي، الجمالي هو الهدف.

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: آية " 119 ")

والثمن طاعة الله عزّ وجل..

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

والسبب معرفته، إذاً إذا أردت أن تسعد فعليك بالعلم، العلم ثم العلم ثم العلم، بالعلم تستقيم على أمره، وبالعلم تتقي نواهيه، وبالعلم تسعى لقربه فتسعد، وبالعلم تتقرب بالأعمال الصالحة، لذلك: **"إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم ".**

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: آية " 9 ")

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام: آية " 132 ")

السجود من أبرز عبادات الله:

وبعدُ، أيها الأخوة: فالمُلَخّص والموقف العملي أن نعبد الله، ومن أبرز عبادته السجود لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أقْرَبُ ما يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ ساجِدٌ))

(رواه مسلم عن أبي هريرة)

الصلاةُ فيها قيام وركوع وسجود، أنت في أقرب حالاتك إلى الله وأنت ساجد، فلذلك الأصل أن تعبده، أن تعبده بأداء العبادات التي فرضها عليك ؛ من صلاة، وصوم، وحج، وزكاة، ونطق بالشهادتين، وأن تعبده بالمنهج التفصيلي ؛ أحكام الفقه، أحكام البيوع، أحكام الزواج، وأن تعبده بالآداب الإسلامية، وأن تعبده بالتعرف إليه، كُلُّها عبادة، فالعبادة هي الأصل حسب منهج الله لتتحقق عبودية الإنسان لخالقه، و عندها تبدو معاني الألوهية لديه مشرقة واضحة.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إلّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

على الإنسان أن يقتطع من وقته وقتاً للتأمل و معرفة الله:

طاعةٌ طوعية ممزوجةٌ بمحبةٍ قلبية أساسها معرفةٌ يقينية تفضي إلى سعادةٍ أبدية، الإنسان بحاجة ماسة إلى فلسفة صحيحة، إلى تصور صحيح لحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة ذاته، من عرف نفسه عرف ربه، فلذلك الإنسان قد ينشغل باللهو والغناء، والترُّهات والأباطيل، ولابد من صحوة، لابد من يقظة، لابد من تأمل، ألم يقل الله عزّ وجل:

(وَعِبَادُ الرّحْمَنِ الّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

(سورة الفرقان: آية " 63 ")

ما معنى هوناً ؟ أي يقتطعون من وقتهم وقتاً للتأمُّل، لمعرفة ربهم، لطلب العلم، لفهم كلام الله، لفهم سنة رسول الله، لا يسمحون للدنيا أن تطغى عليهم، ولا أن تستهلكهم، لا يسمحون لمشاغلهم أن تلغي وجودهم، لا يسمحون لشيءٍ مهما كان عظيماً أن يصرفهم عن هدفهم الكبير.

أيها الأخوة الكرام: هذه سورة النجم ولقد كان عليه الصلاة والسلام يقرؤها كثيراً، وقد أمضينا فيها تسعة دروس، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بها، وأن تكون الآية الأخيرة هي الباعث الدقيق للنجاة من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القمر 054 - الدرس (1-5): تفسير الآيات 1-8
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-11-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس الأول من سورة القمر.

(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ)

أحد أشراط الساعة بعثة النبي الكريم:

الساعة يوم القيامة، واقتربت أي اقترب مجيئها، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((بعثتُ أنا والساعة كهاتين))

(رواه الطبراني عن سهل بن سعد)

أي أن بعثة النبي عليه الصلاة والسلام أحد أشراط الساعة، وقد ذكر النبي عليه الصلاة والسلام عن أشراط الساعة الشيء الكثير بعضها وقع وبعضها لمّا يقع.

استعداد الناس لساعة الفراق :

أيها الأخوة:

(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ)

أي يا أيها العباد هيئوا أنفسكم لهذه الساعة، ويمكن أن نفهم نحن من هذه الآية أن لكلٍ منّا ساعة قد تأتي قبل يوم القيامة، فالأوْلى أن يستعدّ الإنسان لساعته، ساعة فِراق الدنيا، وساعة لقاء ربّه، وأن يستعد لهذه الساعة بمعرفة الله، ومعرفة كتابه، ومعرفة سنّة النبي، وبالتوبة، والعمل الصالح، والبذل، والتضحية، كأن يقول إنسان ناصح لطلابه: اقترب الامتحان، فما معنى اقترب الامتحان ؟ أي ينبغي أن نستعدّ له بالدراسة، وإتقانها، وبالحفظ، واستغلال الوقت، وعدم تضييعه، وبالتعمُّق، والمذاكرة، والتدريب من أجل أن ننجح في الامتحان، فاقتراب الامتحان أي ادرسوا، واقتراب الساعة يوم القيامة أي استعدُّوا لهذا اليوم، يوم الدين، أو يوم الدينونة، أو الجزاء، أو الحساب، يوم يقوم الناس لرب العالمين، ويوم الحق، ويوم الفصل، وأن يأخذ كل ذي حقّ حقّه، و أن تنكشف الحقائق، وتصبح واضحة كالشمس، أي يوم تقع الواقعة:

(لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

(سورة الواقعة)

ومن لوازم وجود الإله وهو الحقّ أن يقيم الحق، وأن تسوّى كل الحسابات، وأن تؤدّى كل الحقوق، وتُدفَع كل الغرامات، ويُحاسَب الإنسان عن كل أعماله، هذا هو يوم الدين.

الاستقامة سبب الإيمان بالحساب:

أيها الأخوة: ذكرت هذا قبل درسين سابقين: وفرقٌ كبير بين أن تؤمن بالحساب وبين أن تتوهم العبثية، إن توهّمت العبثية فلن تستقيم على أمر الله، أما إن آمنت بالحساب فلابدّ من أن تستقيم، والله عزّ وجل كل أسمائه محقّقةٌ في الدنيا إلا اسم العَدل فلا تراه واضحاً جليّاً إلا يوم القيامة، فالله سبحانه وتعالى يبدأ الخلق وقد بدأه، ثم يعيده لماذا ؟

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

(سورة طه)

تسجيل حركات الإنسان و سكناته يؤدي إلى انضباطه:

مرّة ركبت مع صديقٍ لي في مركبته، وقد وضع صورةً لها وقد التُقِطَت من جهاز الرادار، وأُرسِلَت له إلى البيت، أي هذا أنت، في التاريخ، والساعة، والدقيقة، والسرعة كانت كذا، وصورة المركبة ولوحتها، وهذا الشيء مُسكِت، فلا يستطيع أن يقول كلمة، ولا حرفًا، لم أكن أو كنت، في الوقت، والتاريخ، واليوم، والمكان، والسرعة، وصورة المركبة مع لوحتها، فإذا كانت كل أعمالنا عند الله هكذا، وهي أعمالنا مسجّلة بدقائقها، وتفاصيلها، ووقتها، ومكانها، وزمانها، ويوم القيامة تُعرَض علينا.

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

(سورة الكهف)

فإذا توهّم الإنسان أن جهازه الهاتفي مراقب فكيف يتكلّم ؟ وإذا راقب إنسان إنسانًا، أي مخلوق راقب مخلوقًا فإنه ينضبط أشدّ الانضباط، فكيف إذا أيقن أن على كتفيه ملكين يسجّلان عليه كل حركاته وسكناته، وكل أعماله خيرها وشرّها، صالحها وطالحها ؟

استعداد الإنسان ليوم القيامة بالتوبة:

كأن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ)

أي يا عبادي استعدّوا، استعدوا لها بالتوبة، حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، فملك الموت تخطّاكم إلى غيركم وسيتخّطى غيركم إليكم فخذوا حذركم.

(اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ)

فإذا أردت أن تفهم الساعة على أنها يوم القيامة وهذا هو الأصل، ولكن الشيء الواقعي والقريب منّا أنه لكل منّا ساعته التي لابدّ منها، وقد تأتي قبل يوم القيامة، والزمن يمضي، والإنسان في خسر لأن الزمن يستهلكه، وكلّما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه.

(اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ)

المؤشرات التي تدل الإنسان على اقتراب ساعته:

أحياناً الإنسان يشيب شعره، ويضعف بصره، وسمعه، وتسقط أسنانه، وينحني ظهره، ويتألّم في مفاصله، وتضطرب نسب دمه، وتزداد الحموض، والمواد الدسمة، فهذه المؤشِّرات تدل على أن الساعة قد اقتربت، يا عبدي لقد اقترب اللقاء فهل أنت مستعد ؟

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في الـمقال شنيع

لـو كان حبك صادقا لأطعته إن المـــحب لمن يحب يطيع

***

إذاً الآية الكريمة:

(اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ)

أي استعدّوا لها بالتوبة:

((لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد))

(أخرجه ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة)

أبواب التوبة مفتوحة لكل الناس:

الشيء لا يُصدّق أن الماضي كلّه يُلغى بثانية، من تاب من ذنبه كمن لا ذنب له وإذا ذهب الإنسان إلى بيت الله الحرام تائباً منيباً مخلصاً عاد من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وإذا جاءه رمضان وصام صوماً صحيحاً، صام نهاره وقام ليله وعبد ربّه خرج من رمضان كيوم ولدته أمّه وأعتقه الله من النار، وإذا

تاب العبد، وصام، وحجّ، وصلّى الجمعة وتاب في أثنائها كفّر الله كل سيئاته التي كانت قبلها، فأبواب التوبة مفتّحة على مصارعها، والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نتوب، والدليل:

(وَاللّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء: آية " 27")

و ما فتح لكم باب التوبة إلا ليتوب عليكم، وما فتح لكم باب الاستغفار إلا ليغفر لكم، وما فتح لكم باب الدعاء إلا ليستجيب لكم، قال لكم:

(ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر: آية " 60 ")

استغفروني أغفر لكم، توبوا إلي أتب عليكم، فماذا بقي ؟ وهذا معنى:

(اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ)

العاقل من كسب وقته و لم يضيعه في أشياء تافهة:

كأن تقول لطالبٍ في نهاية العام الدراسي: اقترب الامتحان، أي اذهب إلى النزهات ؟ أو نم إلى منتصف النهار ؟ أو تسلى بأشياء سخيفة ؟ فهل يُعقَل هذا ؟ ماذا نقصد من قولنا لطالبٍ على وشك الامتحان: اقترب الامتحان ؟ أي انتبه، و استنفر، وشَمِّر، واكسب وقتك، وإياك أن تضيعه، هذا معنى:

(اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ)

فالساعة أي يوم القيامة، والساعة ساعتنا كلّنا، ساعتنا ساعة مغادرة الدنيا:

(وَانْشَقّ الْقَمَرُ)

الكون أكبر معجزة للإنسان:

الله عزّ وجل كما ورد في سورة الإسراء في قوله تعالى، الله جلّ جلاله ذكر في هذه السورة الكريمة حديثاً:

(وَلَقَدْ صَرّفْنَا لِلنّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النّاسِ إِلّا كُفُوراً (89) وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً (91) أَوْ تُسْقِطَ السّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيّكَ حَتّى تُنَزّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبّي هَلْ كُنْتُ إِلّا بَشَراً رَسُولاً (93))

(سورة الإسراء)

أي أن كفّار قريش طالبوا النبي بمعجزاتٍ حسّية، وهذه الآيات التي تلوتها عليكم تؤكِّد هذه الحقيقة، طالبوه بمعجزاتٍ حسّية، وغاب عنهم أن القمر أعظم من انشقاقه، وأن الشمس أعظم من انطماسها، وأن نظام الكون على ما هو عليه أعظم من خرقه، ولكن الكافر يتعنّت، و يطمس ما يوصله إلى الحقيقة، وقد ورد في الأثر: أن حسبكم الكون معجزة، الكون وحده.

خلق الإنسان معجزة من معجزات الرحمن:

ابنك الذي أمامك كيف خُلِق من نقطةٍ لا ترى بالعين ؟ و الخمسمئة مليون نطفة تشكِّل اثنين سنتيمتر مكعّب، أو سنتيمتراً مكعّبًا، والطفل خُلِق من نطفةٍ واحدة لقّحت بويضةً، وانقسمت إلى عشرة آلاف قسم، وتشكلّ الدماغ، مئة وأربعون مليار خلية استنادية لم تُعرَف وظيفتها بعد، أربع عشرة مليار خلية سمراء فيها النشاط الفكري، والمحاكمة، والتصور، والتذكّر، وأعصاب لا يعلم عددها إلا الله، مئة وخمسون ألف كليو متر من الأوعية الدموية في جسم الإنسان، ثلاثمئة ألف شعرة ولكل شعرة وريدٌ، وشريانٌ، وعصبٌ، وعضلةٌ، وغدّةٌ دهنية، وغدّةٌ صبغية، ومئة وثلاثون مليون عصيّة ومخروط في شبكية العين لالتقاط الصور، والقلب يضخ ثمانية أمتار مكعّبة في اليوم الواحد، والأسرة قد تستهلك في السنة بأكملها مترًا مكعبًا وقوداً سائلاً، أما القلب ففي اليوم الواحد يضخ ثمانية أمتار مكعبة دون كللٍ ولا مللٍ، بدسّامات، وبطينين، وأذينين، وشريان أبهر، والشرايين قلوب، فالشريان مرن، يأخذ دور القلب فإذا نبض القلب اتسع الشريان، لأنه مرن وإذا عاد إلى وضعه الطبيعي ضخّ الدم وبالتالي، فكل شريانٍ مضخّةٌ تعين القلب، وحينما تتصلّب الشرايين يضعف القلب، وقد قالوا: عمر الإنسان من عمر شرايينه.

كل شيء في الكون يدل على الله:

اكتشفوا الآن أن زيت الزيتون وحده هو الذي يقي من تصلّب الشرايين، فالإنسان بوضعه الراهن، أي بعضلاته، وأعضائه، وعظامه، وأعصابه، وجهاز الدوران، وجهاز الهضم، وجهاز التصفية والإخراج فالإنسان وحده معجزة، والتفّاحة معجزة، والقمح معجزة، ونزول هذه الأمطار معجزة، وهل يوجد عندنا شيء يتحرّك بلا صوت، بربكم ؟ فطائرة تحمل خمسمئة راكب تملأ الدنيا ضجيجاً.

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)

(سورة النمل: 88)

بلا صوت:

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل: آية " 88 ")

فالحقيقة الإنسان إذا نما عقله يرى أن كل شيءٍ في الكون يدّل على الله، وعلى وجوده، وعلى وحدانيته، وعلى كماله، أما الذين يطلبون خرق النواميس فهؤلاء ما عرفوا حقيقة الكون، ولو عرفوها لذابوا إعظاماً لله عزّ وجل، لا على خرقه للنواميس بل على خلقه المتقن وصنعته المتقنة:

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (4))

(سورة الملك)

وَانْشَقَّ الْقَمَرُ: آية لها عدة تفسيرات:

(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ)

كلمة انشقّ القمر العلماء فسّروها تفسيرات عديدة، منهم من قال: " القمر انشق حقيقةً مرّتين في عهد النبي، وانشقاق القمر من معجزاته الحسّية "، إذْ علّق كفّار مكة إيمانهم على آيةٍ حسيّة فقد جاءت هذه الآية الحسيّة وانشقّ القمر، وبعضهم قال: **" اقتربت الساعة واقترب انشقاق القمر "**، واقتربت الساعة تُشْبِهُها آيةٌ كريمة وهي:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: آية " 1 ")

ومعنى هذا أنه لم يأت، ولكن الإله إذا قرّر شيئاً فكأنه وقع.

الله تعالى وحده يستخدم الفعل الماضي ليعبر عن المستقبل:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117))

(سورة المائدة)

هذا الشيء لم يقع بعد، فلماذا عبّر الله عنه بالفعل الماضي ؟ قالوا: هذا الماضي الذي عبّر الله به عن المستقبل لتحقّق الوقوع، والإنسان مهما كان قوياً، ومهما كان متمكّناً فإنه يقول لك: سأفعل كذا بعد أسبوع، وقد يموت قبل أن يفعل، ولا توجد جهة في الكون تستطيع أن تجزم بفعلِ شيءٍ قبل وقوعه إلا الله، ولذلك فربّنا وحده إن عبّر عن المستقبل يستخدم الفعل الماضي.

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ)

(أَتَى أَمْرُ اللَّه)

إنه لم يأتْ بعد، والدليل:

(فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

فالله جلّ جلاله إذا وعد بشيء وقع.

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس)

انشقاق القمر من المعجزات الحسية للنبي الكريم:

إما أن نفهم الآية على أن القمر انشقّ حقيقةً، وهو من المعجزات الحسيّة للنبي عليه الصلاة والسلام، كما قال كفّار قريش: يجب أن تأتينا بالملائكة قبيلاً، وأن تفجر الأرض ينبوعاً.. إلخ، فكانت هذه الآية إجابة لطلبهم كي يؤمنوا، وبعضهم قال: " **انشقاق القمر لم يقع بعد** لقوله تعالى:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)

(سورة الرحمن)

والقمر من السماء، فإما أن نعتقد أن القمر لم ينشقّ بعدُ، وإما أن نعتقد كما قال بعض المفسِّرين: إنه انشق.

انغماس الكفار في شهواتهم و عدم إصغائهم إلى الحق:

على كلٍ العبرة فيما يلي:

(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2))

وهؤلاء الكفّار الذين انغمسوا في شهواتهم إلى قمّة رؤوسهم، وأرادوا الدنيا، وأرادوا مالها، ونساءها، وزينتها، ومباهجها، و متعَها الرخيصة، فهؤلاء لا يستطيعون أن يصغوا إلى الحق لأنهم إن أصغوا إليه قيّدهم وألجمهم، وحدّد حركتهم، فالذين ينغمسون في ملذّاتهم إلى قمّة رؤوسهم، فهؤلاء الذين يردّون الحق، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((الكبرْ بطرُ الحقّ، وغمطُ الناس))

(أخرجه مسلم و الترمذي عن عبد الله بن مسعود)

بطر الحقّ أي ردُّ الحق، تأتيه آيةٌ كالشمس في رابعة النهار، فيركب رأسه وينكرها، ويأتي زلزال واضح جداً فيقول لك: اضطرابٌ في القشرة الأرضية، ولا يقبل أن تُفسَّر الأشياء تفسيراً سماوياً، ولا يقبل إلا التفسير الأرضي:

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)

(سورة الزمر: آية " 45 ")

أما إذا فسّرت الأمور تفسيرًا أرضيًا شركيًا فيقبلونه.

الآيات الكونية و التكوينية و القرآنية تدل على الله:

إذاً:

(وَإِنْ يَرَوْا آيَةً)

آيةً كونية، وما أكثر الآيات الكونية، فالله عزّ وجل ونحن تحت سمعنا وبصرنا نرى بلاداً أصابها الجفاف سنواتٍ عِجافاً أكلت الأخضر واليابس، ونرى بلاداً أصابتها أعاصير فدمّرت كل شيء، وبلاداً أُهلِكَت بالفيضانات، وبلاداً أُهلِكَت بحروبٍ أهلية، فالله جلّ جلاله يقول:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

إنه شيء مخيف، فالآيات تتلى، وهي بين أيدينا، نصغي إليها صباحاً ومساءً فمركبةٌ فضائية سمّوها المتحدّية احترقت بعد سبعين ثانية وعليها سبعة روّاد فضاء وفيهم امرأة، يتحدّون من ؟ أحياناً توضع الثقة كلّها بشيءٍ فيأتي إعصارٌ يدمّره، أو زلزالٌ يهدمه، فهذه آيات، والذي فعله الله بالأقوام السابقة آيات، وهناك آياتٌ كونية، فالشمس والقمر آيتان، الليل والنهار آيتان، والسماوات والأرض آياتٌ تدل على عظمة الله عزّ وجل، فخلق الإنسان آية، وطعامه وشرابه، والأسماك، و الأطيار، والهواء، والماء، هذه آياته الكونية تدل عليه، وكتابه آياتٌ قرآنية، وأفعاله آياتٌ تكوينية، فأنت بين آياتٍ ثلاث: بين آياته الكونية، وآياته التكوينية، وآياته القرآنية، فالكون خلقه، والقرآن كلامه، والأحداث أفعاله، وكل هذا يدلّ عليه.

معاني كلمة مستمر:

(وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ)

سُحِرنا.

(مُسْتَمِرٌّ)

فهي معانٍ ثلاثة، مستمر أي محكم، و متقن، ودائم، فكثيراً ما يأتي الناس بمثل هذه الأقوال، سحر دائم، أو ذاهب لا قيمة له وسوف ينقضي، فهو إما ذاهب، أو مستمر، أو محكم.

(وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)

فهم كالنعامة تماماً حينما تواجه الحقيقة تغرس رأسها في الرمل وتتوهَّم الحمقاء أنها نجت، لكنها لم تنجُ، أن تغمس النعامة رأسها في الرمل متوهِّمةً أنها ناجيةٌ من الخطر القريب منها فهو منتهى الحمق والغباء، ولذلك فبعض الكفّار كالنعامة يغرسون رؤوسهم في الرمال ويتعامون عن الحقائق الدينية الباهرة على توهّم أنهم سينجون.

لن تكون في مأمن من عذاب الله إلا إذا كنت على منهجه:

النقطة الدقيقة جداً التي أُلِحُّ عليها في هذه المناسبة، أنه إذ لم تؤمن أنت بقانون فلا تستطيع أن تمنع وقوعه، فقانون السقوط إن لم تعبأ به ونزلت من طائرةٍ بلا مظلّة فإنك لا تنجو من أن تقع مكسّر الأضلاع، لأن القانون قائم وواقع آمنت به أو لم تؤمن، قدّسته أو لم تقدّسه، قبِلْتَهُ أو لم تقبله، فالقانون واقع، فسنّة الله ساريةٌ في عباده انْتَبهوا إليها أو لم ينتبهوا، وأيقنوا أو لم يوقنوا، فلا يمنعك من الله إلا أن تكون على منهجه في أمره ونهيه.

(وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا)

دقِقوا:

(وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

العلاقة بين إتباع الهوى و التكذيب:

لماذا كذّبوا ؟ لأنهم اتبعوا أهواءهم، ولماذا اتبعوا أهواءهم ؟ لأنهم كذّبوا، ماذا نقول في العلاقة بين الكلمتين ؟ نقول هناك علاقةٌ ترابطية، لأن الإنسان حينما يكذِّب بالآخرة فالشيء الطبيعي جداً أن يتبع هواه باعتقاده لا توجد آخرة، ولا حساب، ولا مسؤولية، والقضية عنده عبث، والإنسان يُترَك سُدى، والخلق خَلْقُ عبث أي لا غاية له، فلو آمنت هكذا فيجب أن تتبع الهوى، وهذا شيء طبيعي، أما إذا آمنت أن الإنسان لن يُترَك سدى، وأن الله سبحانه وتعالى لم يخلقنا عبثاً، وأننا سوف نُسأل وسنُحاسَب، وسوف يُقتصُّ منّا واحداً واحداً، وسوف تسوّى الحسابات، وتؤخذ الظلَمات، ويدفع الثمن أصحابها غاليا، وعندئذٍ يستقيم على أمر الله.

(وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

وهذا المعنى تؤكِّده آية أخرى، فالله عزّ وجل قال:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: آية " 55 ")

العلاقة بين إضاعة الصلاة و إتباع الشهوات:

قد يسأل سائل ما الوضع ؟ نحن أين موقعنا من هذه الآية ؟ موقعنا هو قوله تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

(سورة مريم)

لماذا أضاعوا الصلوات ؟ لأنهم اتبعوا الشهوات، ولماذا اتبعوا الشهوات ؟ لأنهم أضاعوا الصلوات، علاقة ترابطية بين إضاعة الصلاة وإتباع الشهوات.

(وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

آية ثالثة:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص)

الاستقرار على الحق أساس كل شيء:

أما الآية الدقيقة:

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ)

الأمور تستقرُّ على الصحيح، فالباغي تدور الدوائر عليه، والمُخادِع يخدع نفسه، والذي يمكر لا يمكر إلا بنفسه، والذي يستهزئ، يستهزئ بنفسه، فالإنسان مهما تحرّك فالأمور تستقر على الحق، فتصوّر كرة وألصق في جدارها الداخلي قطعة رصاص ودحرجها فإنها لا تستقر إلا والرصاصة على الأرض.

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ)

الاستقرار على الحق، فالله عزّ وجل يدمّر الظالم، وينصر المستقيم، ويرفع مكانة الأمين، ويفضح الخائن، ويدعم الصادق، و يفضح الكاذب، وكل أمرٍ مستقر.

(وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ)

سنة الله في خلقه:

((البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، اعمل كما شئت، كما تدين تدان))

(أخرجه عبد الرزاق في الجامع عن أبي قلابة)

لأن الله موجود، ولأن الأمر كله بيده، ولأنه الفعّال لما يريد، والقاهر فوق عباده، وهو على كل شيءٍ وكيل، فالبرُّ لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديّان لا يموت، والمستقيم له معاملة، وله مصير رسمه الله له، في تأييد ونصر وحفظ، فالمنحرف له معاملة، فينكشف انحرافه ويلقى جزاء عمله، والغاشّ للمسلمين له معاملة، إذ يفضحه الله ويخسر المال الذي جمعه من غِشّه، فيفضحه الله على رؤوس الأشهاد ويخسر المال بل أضعاف المال الذي جمعه من الغِشّ، والنصوح يرفع الله اسمه ويدعم عمله.

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ)

والرحيم يتجلّى الله عزّ وجل على قلبه:

((الراحمون يرحمهم الله))

(أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص)

فكل أمرٍ مستقر، والغاش يُكشَف غشّه، والمنافق يُكشَف نفاقه، والمُحتال يُكشَف احتياله، والأمور لا تستمر على وضعها غير الصحيح، وهذه سنّة الله في خلقه، فإنسان يحتال على الناس، لابدّ من أن يفضحه الله، وإنسان يكذب، لابدّ من أن يُكشَف كذبه، والأمور لا تستقر، فالحائط لا يستقر إلا إذا بني على شاقول، فإذا بني من دون شاقول أصبح مائلاً ولابدّ من أن يقع، ووقوع البناء دليل أنه لم يكن صحيحاً، وثبات البناء دليل أنه بني صحيحاً.

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ)

زوجان بَنَيا زواجهما على طاعة الله، فهذا الزواج يستقر ويتنامى، وزوجان بنيا زواجهما على معصية الله، فهذا الزواج يتصدّع وينهار.

الأمور التي يفعلها الله تعالى مبنية على علم منه:

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ)

يوجد معنى آخر لهذه الآية: فالأمور التي يفعلها الله عزّ وجل مبنيةٌ على علم، واستقرار الشيء دليل إتقان صنعته، فأحياناً تكون المنضدة قد صُنِعَت بشكلٍ سريع غير متقن، فهي غير مستقرّة، بل تتحرّك، أما إذا كانت مستقرّة فمعنى هذا أنها متماسكة، ومتوازنة، ومدروسة، فالاستقرار معناه إتقان الصنعة، وكل أمرٍ خلقه الله عزّ وجل مستقرٌ على علمٍ، و حكمةٍ، وعدلٍ، ورحمةٍ، وعدالةٍ، وهذا المعنى الثاني.

(وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ(4))

قصص الأقوام السابقة زجر للمنحرفين:

هذا كتاب الله فيه قصص الأقوام السابقين ؛ قوم عادٍ وثمود، وقوم تبّع، وأصحاب الأيكة، وقوم نوح، ولوط، وإبراهيم كيف أنهم كذّبوا فأهلكهم الله عزّ وجل، هؤلاء.

(الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6))

(سورة المطففين)

هؤلاء يحاسَبون، فالقرآن فيه قصص الأقوام السابقة، أليست هذه مزدجراً للمنحرفين ؟ ففي القرآن الكريم آياتٌ كثيرة.

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

أليست هذه الأنباء كافية كي تزجر المنحرفين ؟ ففيه قصص الأنبياء السابقين، أو أقوامهم المكذّبين، وفيه آيات الحلال والحرام، والحقّ والباطل، والخير والشر، ومشاهد يوم القيامة وما يتعذّب فيه الكفّار في النار، وما يتنعّم فيه المؤمنون في الجنة.

عدم نفع النذر عند تعطيل العقل:

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ)

في هذا الكتاب.

(مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ)

ومع ذلك لم يزدجروا، فقد يأتيك طبيب بإحصاءات مذهلة أن نسب الذين يصابون بأمراض القلب من بين المدخّنين عشرة أمثال، فطبيبٌ جرّاح للقلبٍ قال لي بالحرف الواحد: والله أنا أجري عمليات قلب مفتوح منذ سبع سنوات في هذه البلدة، وما دخل إلى غرفة العمليات مريضٌ واحد إلا وهو يدخّن، تعطيه أمثلة، وشواهد، وأدلّة، وأقوال، وورماً خبيثاً في الرئة، والحنجرة، واللسان، واحتمال الغرغرين.. ومرض الموات. وتصلّب الشرايين، وضعف القلب، وتسرُّعه، والجلطة، وإنك تعطيه الأدلّة الكافية ومع ذلك يدخّن، الأمر عجيب:

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (5))

فالإنسان إذا عطّل عقله فالنذُر لا تنفعه.

الإنسان يملك باعثين: العقل و الشهوة:

الإنسان له باعثان: باعث العقل، وباعث الشهوة، فإن استجاب لباعث الشهوة فإنه يمشي في طريق الهلاك، أما إذا استجاب لباعث العقل فهو في طريق النجاة، وإن استجاب لباعث إرضاء الله فهو في طريق السعادة، أما إذا استجاب لباعث إرضاء الذّات فهو في طريق الشقاء، إن استجاب لباعث العمل للآخرة كسِبَ الدنيا والآخرة، وإن استجاب لباعث العمل للدنيا خسِر الدنيا والآخرة، فيوجد باعثان وليس هناك باعثٌ ثالث، بل حتميّة الباعثين.

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص: آية " 50 ")

الإنسان إن لم يعرف الله و يطلب الحقيقة لا ينفعه شيء:

لذلك:

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ)

فالإنسان أحياناً يجب أن يقف موقفًا جريئًا، فهذا كلام الله، وهل هناك شك ؟ لا، فالله عزّ وجل يَعِد العصاة بالنار، فما موقفك ؟ وهل أنت مصدِّقٌ لهذا الوعيد أم لست مصدِّقاً له ؟ فالطبيبُ إذا منعك أكلةً تحبُّها فإنك تمتنع عنها، وأنت تحبها جداً، أيكون وعيد الطبيب أشدّ من وعيد الله ؟ أتصدِّق الطبيب دون أن تصدِّق الله عزّ وجل ؟ فالإنسان حينما يعصي الله فهو محاصر، وموضوع في زاوية ضيّقة، ومتَّهم بالغباء، وبالكُفْرَان.

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (5))

أي أن الإنسان إن لم يتخذ قراراً بمعرفة الله وطلب الحقيقة من أعماق أعماقه فلا ينفعه شيء، ولو أنّ الآيات حوله من كل جانب، لو أنّ الأحداث كلّها تؤكِّد حقيقة الدين فلا ينتفع بها، أما إذا أراد أن يعرف الله فإن كل شيءٍ في الكون يدلّه على الله، كونه، وأفعاله، وكلامه.

اختيار الإنسان لطريق الحق أو الباطل:

(حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ)

إن الإنسان مخيّر، وإذا أراد أن يهتدي تعرّف إلى الله من خلال عقله، أو فطرته، أو الأحداث التي حوله، أو كتابه، أما إذا أراد أن يتّبع شهوته فلو أنّ الأمور كلها تنطق بحقائق الدين ما استمع إليها.

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (5) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ)

دعهم لي، هذا كلام فيه تهديد، دعهم يا محمد لقد أصمّوا آذانهم، حبهم للدنيا أعماهم وأصمّهم، دعهم لي، إن لم يستجيبوا لك فتولّ عنهم.

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ)

ليوم عسير:

(يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (6) خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (7) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (8)ٌ)

خيارنا مع الإيمان خيار وقت فقط:

إخوانا الكرام: الحقيقة خطيرة جداً، أنت خيارك مع الإيمان خيار وقت **(دققوا فيما سأقول)**، إن لم تؤمن الآن وأنت صحيحٌ، قويٌ، غنيٌ، حي، فهذا أخذته من قول النبي الكريم

((اغتنم خمسا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك))

(أخرجه الحاكم، والبيهقي، عن ابن عباس، و أحمد عن عمرو بن ميمون)

فإن لم تؤمن وأنت شاب، صحيح، غني، فارغ، حَيّ، فلابدّ من أن تؤمن بعد فوات الأوان، ففرعون قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس: آية " 90 ")

قيل له:

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس: آية " 91 ")

ما نَفْعُ إيمانك الآن ؟ نحن مع الإيمان ليس خيارنا خيار قبول أو رفض، بل خيار وقت فقط.

الحقائق التي يعرضها القرآن ستراها إن لم تؤمن بعد مغادرة الدنيا:

ذكرت هذا في الأسبوع الماضي: أن الفرق بين المصاب بالإيدز والحامل لهذا الفيروس ليس فرقاً في النوع لكنه فرقٌ في الوقت فقط، فالمصاب ظهرت عليه أعراض الإيدز المرعبة، وأما الحامل أعراض

الإيدز المرعبة ففي طريقها إلى الظهور، إنها لم تظهر بعد، فالقضية قضية وقت بينهما، وليس هناك فرقٌ نوعي بل فرق زمن، ونحن إن لم نؤمن فلابدّ من أن نؤمن، وجميع الحقائق التي يعرضها القرآن الكريم سوف ترونها رأي العين عند مغادرة الحياة.

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

(سورة المؤمنون)

غير الذي كنت أعمل، وغير الذي كنّا نعمل.

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: آية " 37 ")

يوجد نذير.

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً (29))

(سورة الفرقان)

أهوال يوم القيامة:

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ)

هذه كلمة مخيفة جداً، أي إن لم يستجيبوا لك يا محمد دعهم لي، دعهم ليومٍ تشيب فيه الولدان، وليومٍ لا يُنْسَى فيه شيء إنه يوم الهول الأعظم، قال عليه الصلاة والسلام:

((يحشر الناس يوم القيامة حفاةً، عراةً، غرلاً))

(مُتَّفَقٌ عَلَيْه عن عائشة)

أي بغير ختان، فقالت يا رسول الله: هكذا يرى بعضنا بعضاً بلا ثياب ؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

((يا أمّ المؤمنين الأمر أفظع من أن يعنيهم ذلك))

لشدّة الهول لا يعنيهم ذلك، فأحياناً تقول الأم لابنها وقد وقعت عينها على عينه يوم القيامة، تقول: **" يا ولدي لقد كان بطني لك وعاءً، وصدري سقاءً، وحجري وطاءً، فهل من حسنةٍ يعود عليّ خيرها اليوم؟ قال: ليتني أستطيع ذلك يا أماه إنني أشكو مما أنتِ منه تشكين "**، هذا هو يوم القيامة، كل شيء فعله الإنسان سيُحاسَب عليه، فإذا لم تستجب الآن ونحن أصحّاء، أشدّاء، أحياء، وعندنا وقت فراغ، إن لم نستجب الآن يقول الله لنبيّه:

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (6) خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (7) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (8))

محاسبة النفس قبل فوات الأوان :

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر)

دقِقوا أيها الأخوة وتوبوا إلى الله قبل فوات الأوان، واصطلحوا مع الله قبل أن يأتي يومٌ لا نستطيع ذلك، فعالجوا أنفسكم، وحاسِبوها قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، فهذه الآيات أيها الأخوة في درسٍ قادمٍ إن شاء الله نتابع تفسيرها مبتدئين بقوله تعالى:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القمر 054 - الدرس (2-5): تفسير الآيات 9-16
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-11-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الثاني من سورة القمر، ومع الآية التاسعة:

بسم الله الرحمن الرحيم

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ)

القرآن الكريم أحياناً آياته تفسّر آياته.

عدم اجتماع الهوى مع الحق:

قال تعالى:

(وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القمر: آية " 3 ")

أي كذبوا لأنهم اتبعوا أهواءهم، أو كذبوا لأن حالتهم إتباع الهوى، فالهوى والحق لا يجتمعان، ولقد قلت لكم من قبل إن وراء كل عملٍ يفعله الإنسان أحد باعثين العقل أو الشهوة، إرضاء الذات، أو إرضاء الله عزّ وجل، الإحسان أو الإساءة، القِيَم أو الحاجات، العمل للدنيا أو العمل للآخرة، وهذان الباعثان لا ثالث لهما، فإن لم تكن بالباعث الأول فأنت بالباعث الثاني، فالآية الثالثة وهي قوله تعالى:

(وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ)

عدم الاستقامة تؤدي إلى عدم التقيُّد بأوامر الشرع:

أيها الإخوة: حينما قال الله عزّ وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: آية " 55 ")

فإن لم تجد الاستخلاف، ولا التمكين، ولا التطمين، فلا استخلاف ولا تمكين ولا تطمين، فكيف تفسر هذه الآية ؟ هذا الوضع تفسره آية ثانية:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

(سورة مريم)

أما إضاعة الصلاة فلا تعني أنهم تركوا الصلاة، ولكن أضاعوا قيمتها بعدم الاستقامة، فالإنسان إذا استقام فإنه يتَّصل، وإن لم يستقم فلا يتصل، وكل إنسانٍ بإمكانه أن يتوضأ، وأن يقف، وأن يقرأ، ويركع، ويسجد، ولكن ليس بإمكانه أن يتصل إن لم يكن مستقيماً، فمن إضاعة الصلاة عدم الاستقامة، ومن إضاعة الصلاة أكل المال الحرام، ومن إضاعة الصلاة عدم التقيّد بأوامر الشرع، ومن إضاعة الصلاة التفلّت في العلاقات النسائية، لذلك التكذيب يرافقه إتباع الهوى.

التكذيب: ألا يأتي عملك مطابقاً لمعتقدك:

(وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

ولكن أيها الإخوة: أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقني إلى توضيح عميق لمعنى التكذيب، وأحياناً الإنسان يصدِّقُ بلسانه وهذا شأن عامة المسلمين، ما من مسلمٍ في العالم الإسلامي يمكن أن يقول: أنا لا أعتقد بالآخرة، ولست مؤمناً بها، وهذا الكلام لا يقع ما دام الإنسان نشأ من أبوين مسلمين في عالمٍ إسلامي، فالجو العام جو فيه آخرة، وفيه جنة، وفيه نار، وحساب، وعذاب، وصلاة، وصوم، وحج، وزكاة، فليس هذا هو التكذيب العميق، فالتكذيب العميق ألا يأتي عملك مطابقاً لمعتقدك.
فالإنسان حينما يرتكب الحرام، أو يأكل المال الحرام، أو يتفلّت من منهج الله، وهو مقيمٌ على هذه المعصية، وليس في رغبته أن يقلع عنها، وهو يقرأ القرآن ويحضر خطب الجمعة، فهذا مكذبٌ بعمله لا بلسانه.

التكذيب نوعان:

1- التكذيب باللسان:

التكذيب بالعمل أبلغ من التكذيب بالقول، لأن الذي يكذِّب بلسانه تناقشه، وتحاوره، وتجيبه، وتوضّح له، وتؤكِّد له، وتقنعه، وتقيم عليه الحجة والبرهان.

2 ـ التكذيب بالعمل:

الذي يكذب بعمله فهذا قد يقول بلسانه: أنا مؤمن، والآخرة حق، والجنة حق، والنار حق، ولكن لا ترى في عمله أثراً للإيمان بالآخرة.

التكذيب العملي أخطر من التكذيب النظري:

الامتحان محدد في شهر حزيران، والطالب لا تراه إطلاقاً يفتح كتاباً، ولا يعكف على دراسةٍ، ولا يسأل سؤالاً، ولا يؤدي واجباً، فهذا عدم الاهتمام بالقراءة والمطالعة والحفظ والمراجعة وأداء الواجبات وهو يعلم علم اليقين أن الامتحان في حزيران فنقول: إنه يكذب بالامتحان لا بلسانه ولكن بعمله، فحذار أن يقع الإنسان في هذا المأزق، فتنفصل عقيدته عن سلوكه، ويعتقد أن الإسلام حق ودين عظيم، والآخرة حق، والجنة حق، والنار حق، وهناك حساب، وعذاب، وما شاكل ذلك، فإذا دخلت بيته أو زرته في عمله فلا تجده منضبطاً ولا على طريق الاستقامة قائماً، ولا تجد دخله حلالاً ولا إنفاقه حلالاً، فكيف نوفّق بين هذا الوضع ؟ لا شك أن يكون هناك ما يسمى بالتكذيب العملي، والتكذيب العملي أخطر بكثير من التكذيب النظري.

والمؤمن الصادق دائماً وأبداً يطابق بين سلوكه ومعتقده، وبين سلوكه ومنهجه، بين سلوكه والحلال والحرام، وقوام الدين بعد معرفة الله الحلال والحرام:

((أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

(رواه الطبراني عن ابن عباس)

التكذيب قديم و مستمر:

الإنسان حينما يكذب يكون متبعاً للهوى، اتبع الهوى فكذب، أو كذب فاتّبع الهوى.

(وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ)

فلذلك:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ)

أي أن التكذيب قديم، والتكذيب مستمر، والإنسان حينما يقرأ كلام الله عزّ وجل يشعر أن هناك سُنَنَاً ثابتة في الحياة، فالحق قديم، والحق يعاديه الباطل من القِدَم، وهناك معركةٌ بين الحق والباطل، كانت ولا تزال وستبقى، فإنسان متفلت إن كان له أخ في البيت ملتزم دائماً يحاسبه حساباً عسيراً، ودائماً يضعه تحت الأضواء الكاشفة، ودائماً يكبّر أغلاطه ليثبت أنه على حق وأن أخاه على الباطل.

عاقبة الإنسان الهلاك إن خالف الدين و اتبع هواه:

أيها الإخوة الكرام:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ)

الحقيقة أن هذه القصص حينما يبيّن الله لنا جلّ جلاله أن هؤلاء الأقوام كذّبوا فأهلكهم، أريد بعد حين بعد أن نأتي على كل قصص هذه السورة، وأريد آيةً أساسيةً في هذه السورة وهي قوله تعالى:

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46))

(سورة القمر)

هذه الآية هي مغزى تلك القصص، إذا أهلك الله قوم نوحٍ بأنهم كذبوا واتبعوا أهواءهم، وأهلك قوم عادٍ وقوم ثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وقوم شُعيبٍ، فمن نحن ؟ إن أهلك هؤلاء الأقوام، فلابد من أن نهلك إن خالفنا واتبعنا أهواءنا، هذا هو المغزى، وقد يقول الأب لابنه أحياناً: انظر إلى فلان وفلان لقد انحرفا فدمرا نفسيهما، أي لا تنحرف لئلا تدمر كما دمر غيرك، ولا تأكل مالاً حراماً لئلا يتلف مالك كما أتلف مال غيرك، ولا تنحرف أخلاقياً تُصَب بالمرض نفسه، فالإنسان العاقل يستنبط من التاريخ أجَلّ المواعظ.

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ)

(سورة القمر)

عدم الإيمان بالآخرة من أكبر المصائب:

والذي أريد أن أؤكِّد عليه أن التكذيب الخطير هو التكذيب العملي، والتكذيب العملي ألا يأتي السلوك مطابقاً لما تعتقد، وحينما لا تجد في حياة الإنسان ما يؤكد أنه مؤمنٌ بالآخرة فهذه من أكبر المصائب.

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا)

أما عبدنا، العبد هو سيدنا نوح وأما هذه (نا) ضمير الدال على الجماعة، أُضيف هذا الإنسان إلى ذات الله عزّ وجل، كما قال العلماء: **إضافة تكريمٍ وتشريف.**

تسخير السماوات و الأرض للإنسان تسخير تعريف و تكريم:

حينما يقول الله عزّ وجل:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الزمر: آية " 53 ")

فحينما يقول الله عزّ وجل:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الحجر)

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ)

(سورة الإسراء: آية " 53 ")

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الحجر: آية " 42 ")

هل تشعر أن هذا العبد إذا أضيف إلى ذات الله عزّ وجل فهذه إضافة تكريمٍ وإضافة تشريف، أيليق بالإنسان وهو الذي سخرت له السماوات والأرض تسخير تعريف وتكريمٍ أن يكون غافلاً عن الله في حين أن كل المخلوقات تسبح بحمد الله وتقدِّس له.

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: آية " 44 ")

استمرار وجود الإنسان منوط بإتباع تعليمات الخالق:

حينما يأتي الإنسان ليستمع إلى تفسير آياتٍ من كتاب الله، فهل هناك عمل أجل وأخطر وأنفع من أن تتعرف إلى منهجك في الحياة ؟ فإذا اشتريت آلة غالية الثمن، غالية جداً، ولها أرباح طائلة، وجعلتها قِوام عملك، فهل من عملٍ أخطر وأنفع وأجدى من أن تعكف إلى تعليمات الصانع فتدرسها، فالذي عنده آلة ثمنها ثلاثون مليونًا، آلة إلكترونية، ويعلق عليها آمالاً كبيرة، وهي مصدر رزقه الوحيد، فهل من عملٍ أجل وأخطر من أن يعكف على تعليمات الصانع فيترجمها ويفهمها، ويستعملها ؟ وأنتم ؟ ألا تحبون أنفسكم ؟ فالإنسان يحب ذاته، ويحب وجوده، و كمال وجوده، واستمرار وسلامة وجوده، فسلامة وجودك، وكمال وجودك، واستمرار وجودك منوطٌ بإتباع تعليمات الصانع، فالإنسان حينما ينطلق من حبه لذاته في تطبيق تعاليم الله عزّ وجل فهذا من أعظم النعم.

طلب العلم أساس في معرفة الله:

ذكرت اليوم لمن فاته استماع هذه الحقيقة أن مركبةً فضائيةً أرسلت إلى الفضاء الخارجي قبل أربع سنوات، وهي تقطع في الساعة أربعين ألف ميل، والميل كيلو ونصف تقريباً، وقبل يومين أرسلت إشارةً إلى وجود مجرةٍ تبعد عنا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، أُذيعت هذه الحقائق في إذاعة عالمية، فالمجرة التي اكتشفت حديثاً جداً تبعد عن الأرض ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، ومعنى ذلك أن هذه المجرة كانت في هذا المكان قبل ثلاثمئة ألف بليون سنة وهي تمشي بسرعة مئتين وأربعين ألف كيلو متر في الثانية، وأين هي الآن ؟ ألم يقل الله عزّ وجل:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

(سورة الواقعة)

أهذا الإله العظيم يعصى ؟ أهذا الإله العظيم ألا يخطب وده ؟ أينسى ؟ أم يغفل عنه ؟ فالإنسان العاقل يطلب العلم ليتعرّف إلى الله عزّ وجل، وليتعرف إلى منهجه، ويملك كما يقولون عزيمة قوية تحمله على تطبيق الأمر والنهي، فهذا هو الفلاح، والنجاح، وهذا هو الفوز والتفوق.

الاعتراف بفضل الله عبودية له:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا)

عبدنا، هل أنت عبدٌ لله ؟ وهل تشعر بافتقارك إلى الله ؟ فالعبودية لله عزّ وجل ليست تأدُّباً ولكن حقيقة، وأحياناً الإنسان يتواضع وهو يعلم أنه كبير، وأنه قوي، وقادر، وغني ولكنه يتواضع، إلا أن العبودية لله شيءٌ آخر، وكلما ازددت معرفة بذاتك تواضعت لله، وافتقرت إليه، وأقبلت عليه، والإنسان لا شيء، إنه قويٌ بالله، وعالمٌ به، غنيٌ بالله، ومعافى بفضله، إذ يتحرّك بفضل الله، ويفكر بفضله، والإنسان مُعَرّض في أية ثانيةٍ إلى فقد أحد أعضائه أو أحد أجهزته، أو إلى خللٍ خطيرٍ يصيب أجهزته، فعندئذٍ تصبح حياته جحيماً، فالذي يعترف بهذه الحقيقة هو عبدٌ لله.

وحينما تشعر أن هذه الآلة كل ميزاتها لا تقوم إلا إذا وصلتها بالتيار الكهربائي، فتشعر أنها مفتقرة إليه، فلو انقطع عنها سكنت، وتعطّلت وأصبحت عبئاً عليك، وليست في خدمتك، فالاعتراف بالحقيقة عبودية لله عزّ وجل، فالإنسان حينما يفتقر يرقى، وحينما يستغنى يسقط.

طغيان الإنسان سببه الاستغناء عن الله:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى)

متى.

(أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

(سورة العلق)

إذا استغنى عن الله يطغى، أما إذا افتقر إلى الله يستقيم على أمره، فإذا شعرت أنك عبدٌ وأن الله هو كل شيء، وأن هذا منهجه، إذاً عليك بطاعته، أما إذا شعرت أنك مستغنٍ عنه فهذه هي الطّامة الكبرى.

خُلق الإنسان ضعيفاً ليفتقر في ضعفه:

وبالمناسبة أيها الإخوة: ذكرت مرةً أن هذه المنضدة مثلاً موضوع عليها هذا المصحف، وهذه الآلات، وهذا الكأس، لكن هي تتحمل أوزانًا أكبر من هذا بكثير، بمعنى أن هناك احتياطاتٍ كثيرةً أودعت فيها، فيمكن أن يقف عليها إنسان، ويمكن أن تتحمّل إنسانين، وقلّما تصاب بالعطب لأن احتياطها كبير، وكان من الممكن أن يكون الإنسان على شاكلة هذه الطاولة، بكل عضو من أعضائه، بكل جهاز من أجهزته احتياط كبير، بحيث لا يمرض أبداً، بل يعيش شاباً إلى أن يأتيه الأجل، فيموت فجأةً، كان من الممكن أن يكون الإنسان كذلك، لكن شاءت حكمة الله أن يخلق الإنسان ضعيفاً، لماذا ؟ ليفتقر في ضعفه، وليرى ضعفه.

ولعل من حكم الصيام أن الإنسان القوي الشديد، العتيد حينما يدع الشراب والطعام في أيام الصيف الحارة يرى أنه ذاب كما تذوب الشمعة، وذبل كما تذبل الورقة، وتتوقف نشاطاته على كأس ماء، ولعله في الصيام يعرف حجمه، وضعفه، وافتقاره.

يتولى الله الإنسان بالرعاية إذا افتقر إليه:

أيها الإخوة: يفتقر الإنسان إلى أن يكون عبداً لله، فالعبودية أن تعرف الله، ولا أبالغ إذا قلت: إن الدرس اليومي الذي نمتحن به مقدار افتقارنا إلى الله ومقدار اعتزازنا بأنفسنا، ففي اللحظة التي نفتقر إلى الله يتولأنا الله بالرعاية والعناية، وفي اللحظة التي نعتد فيها بأنفسنا يتخلى الله عنا، ولذلك فمن دعاء النبي عليه الصلاة والسلام:

((فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين لا إله إلا أنت))

(أخرجه أبو داود عن ابن أبي بكرة)

فالقانون أنك تفتقر فيتولاَّك، وتستغني فيتخلى عنك، فأنت بين الافتقار وبين الاستغناء، الاستغناء جهل، والافتقار علم، الاستغناء ضعفٌ في الأخلاق، أما الافتقار قمة الأخلاق، ولا تنسوا أن أصحاب النبي رضوان الله عليهم وهم قمم البشرية حينما قالوا: لن نغلب من قلة تخلى الله عنهم.

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمّ وَلّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

يوم حنين أعجبتكم كثرتكم، وفي بدرٍ افتقرتم:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلّةٌ)

(سورة آل عمران: آية " 123 ")

العبودية لله أعلى مرتبة من مراتب الإيمان:

صدقوني أن هذا الامتحان يصيب كل مؤمن في اليوم عشرات المرات، إذا خطر بباله أنه متمَكِّن، وأن خبرته عميقة، وأن ماله وفير، أنه بالدراهم يحل كل مشكلة، فقد اعتز بماله، واعتز بقوته، وبعلمه، و بخبراته، فيتخلى الله عنه، ويلقِنه درساً لا ينسى، تأتيه المشكلة من حيث لا يحتسب، من مكان طمأنينته، ومأمنه، إذ يؤتي الحذر من مأمنه، فأنا هذا الكلام تعليق على قوله تعالى:

(فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا)

فأنت في شؤون العلم تبدأ بإتمام مرحلة ابتدائية، فإعدادية، فثانوية، فإجازة أو ليسانس أو بكالوريوس، ثم دبلوم عام، ودبلوم خاص، وماجستير، ودكتوراه، ثم بورد إذا كان بالطب مثلاً، أكريجيه، إف آر إس، كيف الشهادات مسلسة هكذا، صدقوني أن مراتب الإيمان مسلسلة إلى أن تنتهي في أعلى مستوياتها في العبودية لله عزّ وجل، وحينما بلغ النبي سدرة المنتهى، ماذا قال الله عزّ وجل:

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

(سورة النجم)

أي أنك في أعلى مستوياتك حينما تشعر بعبوديتك لله عزّ وجل، وأنت في أعلى درجات رقيك حينما تشعر أنك مفتقرٌ إلى الله، وكلما ازددت إدراكاً لعبوديتك لله ازددت رفعةً عند الله وعند الناس، وأمدك الله بقوةٍ منه، وبعلمٍ منه، وغنًى، فأنت غنيٌ بالله فقيرٌ بذاتك، وأنت قويٌ بالله ضعيفٌ بذاتك، وعالمٌ بالله جاهلٌ بذاتك.

إكرام الله للإنسان إذ خلقه بأحسن صورة:

لذلك أيها الإخوة كان الأنبياء عُبّاداً لله عزّ وجل، والمؤمن يعرف هذه العبودية، ولذلك حينما يعقل الإنسان هذه الحقيقة لا تجد على لسانه فلتةً تشير إلى شِرْكِهِ، فدائماً يقول: إن شاء الله، لقد أكرمني الله، لقد منّ الله علي بفضله فأعطاني كذا، فلا يرى أن الذي حصله بجهده، ولا بكسبه، ولا بذكائه، فماذا قال قارون ؟

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ)

(سورة القصص: آية " 78 ")

فأهلكه الله:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

(سورة القصص: آية " 81 ")

وماذا قال إبليس ؟

(قالَ أنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

(سورة ص: آية " 76 ")

فأهلكه الله عزّ وجل، وماذا قال قوم بلقيس:

(قالُوا نَحْنُ أولُو قُوّةٍ وَأولُو بَأسٍ شَدِيدٍ وَالْأمْرُ إلَيْكِ فانْظُرِي مَاذا تَأمُرِينَ)

(سورة النمل)

هذا هو الشرك، والمؤمن يرى أن الله سبحانه وتعالى أكرمه، أكرمه إذ خلقه.

المؤمن من ينسب النعمة إلى المُنعم:

(هَلْ أتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

(سورة الإنسان)

أنعم عليه بنعمة الوجود، والإمداد، والإرشاد، ولذلك فالمؤمن دائماً ينسب النعمة إلى المُنْعِم، والكافر يقف عند النعمة، والمؤمن يعزوها إلى المُنْعِم، أما الكافر فيقف عندها ويستمتع فيها بلؤمٍ شديد.

مَجْنُونٌ: كلمة لها عدة تفسيرات:

1 - المجنون من عصى الله:

إذاً:

(كَذّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذّبُوا عَبْدَنَا وَقالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ)

و الحقيقة إن المجنون من عصى الله، وقد مَرّ النبي عليه الصلاة والسلام برجل مجنون (في اصطلاح الناس)، فسأل عنه سؤال العارف فقالوا: هذا مجنون يا رسول الله، قال:

((ليس هذا المجنون، المجنون من عصى الله هذا مبتلى))

هذا مريض، مرضٌ أصاب دماغه، أما المجنون من عصى الله، ولذلك:

(مَا أنْتَ بِنِعْمَةِ رَبّكَ بِمَجْنُونٍ)

(سورة القلم)

(قالَ يَا قوْمِ أرَأيْتُمْ إنْ كُنْتُ عَلَى بَيّنَةٍ مِنْ رَبّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمّيَتْ عَلَيْكُمْ)

(سورة هود: آية " 28 ")

2 ـ المجنون من عُميت عليه رحمة الله:

من هو المجنون ؟ الذي عُمِّيَت عليه رحمة الله، ففي مقتبل العمر يرى المال كل شيء، وفي أوسطه يراه شيئاً وليس كل شيء، وإذا على شفير القبر يراه لا شيء:

((يا أهلي يا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي))

(ورد في الأثر)

فالمؤمن يرى طاعة الله هي كل شيء، يُصَدِّق الله عزّ وجل.

التعليم عن طريق اللغة يليق بالإنسان:

هناك نقطة دقيقة جداً ذكرتها اليوم في الخطبة: كان من الممكن أن نأتي جميعاً إلى الدنيا دفعةً واحدة، وأن نغادرها دفعةً واحدة، ولكن شاءت حكمة الله أن نأتيها تباعاً، فلماذا ؟ لأنه يمكن لأحدنا أن يُعَلِّم الآخر، فالإنسان الذي عمره خمسون سنة قد تراكمت عنده الخبرات، والحقائق والتجارب، والمعارف، وعرف الله، فيُلَخِّص كل هذا العمر وكل هذه التجارب لمن كان صغيراً بكلمات، فسر التعليم أنك تأخذ خبرات الأجيال، فهذا كتاب الله عزّ وجل، حينما تستمع إلى تفسيره، فهذا عمل خطير جداً لأنه منهجك في الحياة، فالتعليم عن طريق اللغة شيء راقٍ جداً، وهذا الشيء يليق بالإنسان، لأن الله عزّ وجل قال:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

فأنت مكرم بالبيان، والبيان شفهي، وهناك بيان كتابي، والكتابي أرقى وأسمى لأنه ينقل المعارف من جيل إلى جيل، ومن أمة إلى أمة، ومن قارة إلى قارة.

من علامات آخر الزمان تصديق الكاذب و تكذيب الصادق:

فلذلك:

(فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ)

فإذا أمسك إنسان بكيلو من الذهب الخالص، وقال له آخر: هذا ليس بذهب، بل هو معدن رخيص، فهل هذا الاتهام يجعل هذا المعدن رخيصاً ؟ أبداً، فتقييمك لا يغيّر حقائق الأشياء، فلو قالوا عنه:

(مجنون وازدجر)

هو عند الله نبيٌ مرسل، فالمؤمن الصادق لا يلقي بالاً لأقوال الناس، من عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به، ازدجر أي زجرته الجن، أي أصابته لوثة عقلية، فهذا من عمل الجن، والحقيقة حينما يتخلف المجتمع وتفشو فيه المادة ويصبح المؤمن غريباً، قال عليه الصلاة والسلام:

((بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء))

(رواه مسلم عن أبي هريرة)

((طوبى للغرباء فقيل من الغرباء قال أناسٌ صالحون في أناس سوءٍ كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم))

(أخرجه أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص)

فالإنسان إذا أقام شرع الله وترك كل الموبقات، وترك كل الملهيات، وضبط لسانه، يتهم عند الناس بأنه مجنون، وأنه لا يعرف كيف يعيش، وأن الذين أكلوا المال الحرام هم الأذكياء والأقوياء، فهذا حال المجتمع في آخر الزمان، يكذّب الصادق، ويصدّق الكاذب، ويؤتمن الخائن ويخوّن الأمين، فهذا من علامات آخر الزمان التي أشار إليها النبي عليه الصلاة والسلام.

الأنبياء قدوة للناس:

(فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ)

ومعنى ذلك هناك سؤال دقيق الآن، أي أن هذه التهمة التي اتهم بها هذا النبي الكريم سيدنا نوح عليه السلام، ألا يسأل أحدكم هذا السؤال: لماذا أثبتها الله في القرآن الكريم ؟ تهمة طرحت، والنبي عليه الصلاة والسلام قالوا عنه: ساحرٌ ومجنون، وكاهن، وشاعر، فلماذا أثبت الله هذه التهم المفتراة على أنبيائه في قرآنه الكريم الذي يتلى إلى يوم الدين ؟ الجواب بسيط جداً: أي من أنت إذا كان نبيٌ كريم قد اتهم بالجنون، وأثبتت هذا التهمة في القرآن الكريم لتتلى إلى يوم الدين، ومن أنت إذا انتقدك منتقد أو انتقص من قدرك إنسانٌ جاهل ؟ لا تعبأ فربنا عزّ وجل جعل الأنبياء قدوةً لنا.

الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء:

(وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10))

فالله عزّ وجل ما كان بالإمكان أن يخلق النبي وأصحابه المحبّين في عصرٍ دون أن يخلق معهم إنساناً كافراً ولا مكذباً ولا مفترياً، فيعيش النبي مع أصحابه حياةً هنيئة وادعةً، كلها مودة، ومحبة، وخدمة، ومؤاثرة، والإسلام ينتشر هكذا بيسر، من دون جهد، وحروب، و غزوات، دون أن يوجد رجل كافر ينتقد النبي، ولا شاعر يهجوه، ولا كفار يخرجونه من بلده، ولا أشخاص يتّبعونه في طريق الهجرة، ولا

أشخاص يؤذونه في الطائف، ولا آخرون يأتمرون عليه في الخندق، ألم يكن هذا ممكناً ؟ ممكناً، إنه ممكن، ولكن كيف يظهر كمال النبي ؟ شاءت حكمة الله أن يجعل الحياة الدنيا دار ابتلاء، وامتحان، والإنسان بالابتلاء والامتحان يظهر معدنه، فما كان لنا أن نعرف قدر النبي لولا هؤلاء الكفار الذين نَكّلوا، واتهموا، وأخرجوا، وكذبوا، وفعلوا الأفاعيل، وقد صبر النبي وصبر حتى أكرمه الله عزّ وجل.

أنا أقول لكم هذا الكلام: الإنسان إذا اتبع الحق فربما أصابته بعض المتاعب، وأحياناً من أقرب الناس إليه، وأحياناً من زوجته، وأولاده، و إخوته، و جيرانه، فوطِّن نفسك على أن الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح، ووطِّن نفسك على أنك مبتلى، وممتحن، و أن الله لن يمكنك قبل أن يبتليك، ولن يعطيك قبل أن يجعلك تجاهد في سبيله، فلذلك هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ)

أعلى مرتبة ينالها الإنسان أن يكون عبداً لله:

أثبت لنا هذه التهمة الباطلة المفتراة على نبيٍ كريم كي يكون لنا قدوةً في تحمل الشدائد، وذكر:

(فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا)

و الله جلّ جلاله جعل أعلى مرتبةٍ ينالها الإنسان أن يكون عبداً لله، وكلما ازداد افتقاراً لله ومعرفةً بقدره وضعفه ازداد قرباً ورفعة وقوةً وعلماً وغنى، ولذلك فالنقطة الدقيقة جداً أن الله خلقك ضعيفاً لتفتقر في ضعفك فتسعد في افتقارك، ولم يخلقك قوياً لأنه إذا فعل ذلك استغنيت بقوتك فشقيت باستغنائك، إذن استغنيت فشقيت، وافتقرت فسعدت.

الدعاء هو العبادة:

(فَدَعَا رَبَّهُ)

إخوانا الكرام: والله الذي لا إله إلا هو يكاد الدين كله في النهاية يكون دعاءً صادقاً لله عزّ وجل، وما أحسن هذه الأدعية التي دعا بها النبي، وأصل الدعاء من أرقى أنواع العبادة، فالدعاء هو العبادة، والدعاء هو افتقار، فالإنسان لما يكون مؤمنًا بالدعاء، فربنا عزّ وجل قال:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ)

(سورة الفرقان: آية " 77 ")

أي أن الله عزّ وجل يعبأ بنا إذا دعونا، ويحبنا، ويكرمنا إذا دعوناه، ويستجيب لنا، وينصرنا، وينقذنا، ويحمينا، ويوفقنا إذا دعوناه، فلماذا ؟

من أسباب دعاء الله عز وجل:

أولاً: لأن الإنسان لا يدعو إلا من يؤمن بوجوده، وهل يمكن لك أن تدخل إلى بيت فارغ لا يوجد فيه إنسان وتخاطب واحداً موهوماً ؟ إنه غير معقول، أنت لا تدعو إلا إنساناً مؤمناً بوجوده.

ثانياً: وأنت لا تدعو إنساناً لا يسمع، بل تدعو إنسانًا أمامك تراه رأي العين وهو مستمعٌ إليك، فإذا كان لا يسمع فإنك لا تدعوه.

ثالثاً: وإنسان موجود ويسمعك، لا تدعو عدوّك، بل تدعو من يحبك.

رابعاً: الإنسان لا يدعو إلا إنسانًا مؤمنًا بوجوده، يستمع إليه، محباً له، قادراً على إنقاذه مما هو فيه، فأنت حينما تدعو الله حقيقة فأنت مؤمنٌ بوجوده، ومؤمنٌ بأنه يسمعك، ويحبك، وأنه قادر على إنقاذك مما أنت فيه، لذلك يعبأ بك، والدعاء معناه معرفة، وأنت لا تدعو الله إلا إذا عرفته لذلك:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ)

(سورة الزمر)

وراء كل مصيبة للإنسان المستقيم قفزتان:

شيء آخر:

(أَمّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ)

(سورة النمل: آية " 62 ")

فالمضطر من له غير الله ؟

إخوانا الكرام: يجب أن تعلموا علم اليقين أن الإنسان إذا ألمّت به مصيبة وكان مستقيماً على أمر الله، فعليه أن يعلم العلم القطعي أن هذه المصيبة التي شاءها الله له وهو على استقامةٍ على أمر الله سوف ترفعه مرّتين، وسوف ترفع مستوى معرفته بالله، وسوف ترفع مستوى محبّته لله، وهناك قفزتان وراء كل مصيبة للمؤمن المستقيم.

(وَلَنَبْلُوَنّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصّابِرِينَ (155) الّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنّا لِلّهِ وَإِنّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157))

(سورة البقرة)

إن الله يحب الملحين في الدعاء:

أيها الإخوة:

(فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ)

إن الله يحب الملحين في الدعاء، من لا يدعُني أغضب عليه، إن الله يحب من عبده أن يسأله حاجته كلها، إن الله يحب من عبده أن يسأله ملح عجينه:

((ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا نقطع))

(أخرجه الترمذي عن ثابت بن أنس)

ادع الله:

((إِنّ اللّهَ يُمْهِلُ حَتّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللّيْلِ الْأَوّلُ نَزَلَ إِلَى السّمَاءِ الدّنْيَا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ ؟ حَتّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ))

(رواه مسلم عن أبي هريرة)

فيجب أن تجعل الدعاء أساس حياتك، إذا كان هناك مشكلة، وكان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمرٌ بادر إلى الصلاة، فيكون لك صلاة الحاجة، والنبي شَرَعَ لنا صلاة الحاجة، لك مشكلة صلّ صلاة الحاجة.

الدعاء سبب قوة الإنسان و غناه:

(فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10))

لدينك يا رب، يقولون: إن نور الدين الشهيد (هكذا قرأت والله أعلم)، حينما أراد أن يدفع الفرنجة عن هذه البلاد وكانت هناك معركةٌ حاسمة فسجد وقال: " يا رب من هو نور الدين حتى تنصره ؟ انصر دينك "، وأيضاً أنت ادعُ الله عزّ وجل، وربنا عزّ وجل إذا ساق لك شبح مصيبةٍ من أجل أن يسمع صوتك، ومن أجل أن يسمع دعاءك، وأن تستيقظ لقيام الليل، وأن يسمع تهجُّدك، وأن يكرمك، وبعد كل مصيبة هناك شَدةٌ إلى الله، وكل شِدَةٍ وراءها شَدّة، وكل محنةٍ وراءها مِنْحة، هذا هو المعنى.

(فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً)

أنت بالدعاء تصبح أقوى الناس، لأن الله أقوى من كل قوي، وأنت بالدعاء تصبح أغنى الناس لأن الله أغنى من كل غني، فالدعاء، ملخّص الدين كله أي أن تكون مع الله بالدعاء، وإذا قال الله عزّ وجل:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

(سورة المعارج)

أي يدعون الله دائماً في كل أحوالهم.

الدعاء في أي لحظة و بأي لغة دعاء مقبول:

والدعاء كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((الدعاء مُخّ العبادة))

(أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك)

ومن لا يدعوني أغضب عليه، والدعاء هو العبادة، والشيء الدقيق أن الإنسان بالدعاء يقفز قفزةً نوعيةً في معرفته بالله، وفي محبته له، وإذا أردت أن تحدث الله فادعوه، وإذا أردت أن يحدثك الله عزّ وجل فاقرأ كلامه، فهل هناك أمتع من أن تناجي الله عزّ وجل ؟ ولذلك احفظ أدعية النبي عليه الصلاة والسلام، أدعيةً جامعةً مانعةً محكمةً، واجعل كتاب دعاءٍ في جيبك، الإنسان ميّت أحياناً، فيركب مركبة عامة أحياناً، ويسافر، ويمشي في الطريق، فإذا كان معه كتيّب دعاء، وقرأ أدعية النبي وحفظها وأصبحت ملكه، فهو قادر على أن يدعو الله في كل لحظة، وإن كان بأي لغة، وبأية طريقة، وبأي أسلوب فالدعاء مقبول.

أدعية النبي الكريم:

تجد أن دعاء النبي جامع مانع، مثلاً:

((اللهم اهدنا فيمن هديت وعافنا فيمن عافيت وتولنا فيمن توليت، وبارك اللهم لنا فيما أعطيت))

(رواه الترمذي عن الحسن بن علي)

اللهم اهدنا فيمن هديت (بعد الهدى العافية)، وعافنا فيمن عافيت (بعد المعافاة يتولاك)، وتولنا فيمن توليت، وبارك اللهم لنا فيما أعطيت، فأحياناً يخلق الله من الشيء القليل شيئًا كثيرًا، وهنا دعاء جامع.

((اللهم إنك عفوٌ كريم تحب العفو فاعفُ عني))

(أخرجه الترمذي عن عائشة)

((اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا))

(رواه أحمد عن أبي سعيد الخدري)

((اللهم اغفر ذنبي، وأقل عثرتي، وأمن حوائجي))

اقرأ الأدعية:

((اللّهُمّ إنّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيّ قَضَاؤُكَ))

(أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود)

((اللهم اهدنا بالهدى ونقنا بالتقوى))

((اللهم ارزقني حبك وحب من ينفعني حبه، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب))

(أخرجه الترمذي عن عبد الله بن يزيد)

((اللهم دلني عليك ودلني على من يدلني عليك))

أدعية جميلة جدا.

((اللهم نحن بك وإليك))

((اكفنا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، و أغنني بفضلك عمن سواك))

(أخرجه الترمذي عن علي)

دعاء سيدنا نوح عليه السلام:

(فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11))

سمعت مرة أنه في قرية من قرى إيطاليا نزل فيها أمطار في ليلة واحدة ثمانمئة ميليمتر، ونحن مستوى أمطار دمشق في العام كله مئتان وستة عشر، وهناك في ليلة واحد نزل ثمانمئة ميليمتر، فربنا عزّ وجل إذا فتح أبواب السماء يصبح الماء مصيبة.

(فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ)

ماء السماء مع ماء العيون.

حفظ الله تعالى للمؤمنين و نجاتهم من الغرق:

(فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)

أي أن هذا الأمر هو إهلاك هؤلاء القوم غرقاً، أما المؤمنون:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

(وَحَمَلْنَاهُ)

سيدنا نوح ومن آمن معه.

(عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ)

أي في سفينة مؤلّفة من ألواح ومن حبال مربّطة بها الألواح.

(وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا)

أي بحفظنا، ورعايتنا.

نجاة المؤمن من الكرب عند نزول البلاء الشديد:

أحياناً الإنسان يتكلم كلمة لطيفة، فيقول لك: هذه الحاجة لزمتني في وقت الشدة فكأن ثمنها مليون ليرة، فالإنسان حينما تأتي مصيبة كبيرة، يأتي كربٌ عظيم، ويكون مستقيماً سابقاً والله ينجيه، فيشعر بقيمة الإيمان، ففي الرخاء المؤمن غير واضح، إنه مؤمن مستقيم لكنه ضائع مع الناس، أما حينما يأتي الكرب العظيم والبلاء الشديد، فالله عزّ وجل يجعل الناس كأعجاز نخلٍ منقعر ترى هذا المؤمن قد حفظه الله عزّ وجل بحفظه الشديد، وهناك آلاف القصص، ولا مجال لذكرها هنا، آلاف القصص تؤكِّد أن المؤمن المستقيم ينجيه الله عزّ وجل، وأنا أقول لكم دائماً: أنه ما من مصيبةٍ أعظم من أن ترى نفسك فجأةً في البحر، في الليل، وأنت لا تحسن السباحة، في أعماق البحر، ثم يأتي حوتٌ فيلتقمك، فتصبح في بطنه، في ظلمة بطن الحوت، وفي ظلمة البحر، وظلمة الليل البهيم.. فسيدنا يونس نادى في الظلمات:

(أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88))

(سورة الأنبياء)

يجب أن توقن بهذه الآية، المؤمن ينجّيه الله من الكرب العظيم دائماً:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

قانون، هذا قانون.

عاقبة المكذبين بالدعوة إلى الله:

طبعاً:

(وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (14))

دعا إلى الله ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً، فنادى نوحٌ ربه:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً (6))

(سورة نوح)

والله عزّ وجل قال:

(تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا)

وحفظنا، ورعايتنا.

(جزاءً لمن كان كفر)

أي بهذا النبي الكريم الذي كفروا بدعوته.

(وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

إنذار الله تعالى للناس قبل عذابهم:

نحن يهمنا آخر آية التي هي مفصلية كما يقولون، هنا:

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46))

وبالمناسبة في ساعة عامة وساعة خاصة، الإنسان إذا طغى وبغى له ساعة خاصة ينتهي فيها، فالموت، والإنسان إذا استقام وعمل أعمالاً صالحة يكون الموت عرسه، وفرحته، وتحفته.

(وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

أي هل من متذكِّر ؟

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُر)

دائماً العذاب يأتي قبله إنذار، وهذه السور، وهذه القصص إنذار من الله عزّ وجل، فالإنسان العاقل يبادر إلى طاعة الله، والصلح معه، والإنابة إليه حتى ينجو من عذاب الله، والعذاب محقق ما دام هؤلاء الأقوام فعلوا فاحشة واحدة، أما في آخر الزمان فالفواحش كلها مرتكبة.

الاستقامة و التوبة ثمن النجاة من عذاب الله:

لذلك فالله عزّ وجل:

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ)

إن من، أي ما من.

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً)

(سورة الإسراء)

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

فنحن يجب علينا أن نُعِدّ الاستقامة والتوبة كي ينجو الإنسان إما من ساعةٍ خاصة أو من ساعةٍ عامة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القمر 054 - الدرس (3-5): تفسير الآيات17-32

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-11-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الثالث من سورة القمر، ومع الآية الثامنة عشرة وهي قوله تعالى:

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

إلزام الله نفسه بهداية العباد:

الله عزّ وجل قال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل)

هداية الإنسان، بيان الحقيقة، بيان سرّ الوجود، بيان غاية الوجود، بيان المنهج التفصيلي، بيان افعل ولا تفعل، بيان ملامح الطريق إلى الله عزّ وجل هذا على الله.

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

و حيثما وردت كلمة على مع لفظ الجلالة فتفيد أن الله سبحانه وتعالى منّة منه وكرماً ألزم نفسه بهداية العباد، ولذلك قال تعالى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام: آية " 1 ")

نعمة الإيجاد و الهداية:

الكون، كلمة السماوات والأرض مُصْطَلَحٌ قرآني يعني الكون، والكون يعني ما سوى الله.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

الآية الثانية:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف: آية " 1 ")

فكما أنّ الله خلق، فقد نوّر، خلق وهدى، قال:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50))

(سورة طه)

فنعمة الهداية لا تقلّ عن نعمة الإيجاد، ونعمة الإيجاد لا تقلّ عن نعمة الهداية.

القرآن الكريم كتاب عربي معجز:

لذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ)

كتابٌ، معجزٌ، عربيٌّ.

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

(سورة الشعراء)

فيه الأمر، وفيه النهي، والوعد، والوعيد، وفيه بيانٌ للباطل وبيانٌ للحق، وفيه تاريخ الأمم، والمستقبل البعيد، والمَثَل، والقصّة، و الحقائق المُجَرَّدة.

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ)

قد تأتي بعض آيات كتاب الله بشكلٍ مباشر، قال تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد: آية " 19 ")

وقد تأتي ممدّدةً بقصّةٍ مطولةٍ مغزاها لا إله إلا الله، ما مغزى قصة سيدنا يوسف عليه السلام ؟

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

توافق كتاب الله مع النفس البشرية:

ولذلك فربنا عزّ وجل جعل هذا الكتاب كتاب هداية، ولأنه كتاب هداية فإنه يتوافق مع طبيعة النفس، فمن أمرٍ، إلى نهيٍ، إلى قصّةٍ، إلى بيان مستقبلٍ، إلى وعدٍ، إلى وعيدٍ، إلى بيان موعظةٍ، إلى مَثَلٍ، إلى قصّةٍ، فالله عزّ وجل نوّع الأساليب في كتاب الله، أحياناً يستخدم ربنا عزّ وجل قصص الأقوام السابقة من أجل أن نستنبط العِبَر، ودائماً وأبداً أُؤكِّد لكم أنّ أية قصةٍ في كتاب الله لا يمكن أن تكون قصّة بالمعنى الذي يفهمه عامّة الناس، لأن كلام الله عزّ وجل أجلّ وأعظم من أن يكون قصصاً تطلع عليها، أو تقرأها، أو تأخذ علماً بها.

فكتاب الله عزّ وجل أجلّ وأعظم من ذلك، وما من قصةٍ إلا وهي تعبيرٌ غير مباشرٍ عن حقيقة، فالسعيد من قرأ القرآن الكريم واستنبط منه المواعظ والعبر، والسعيد من تجاوز أبطال القصة، ووقائعها، وحوار أشخاصها، ووصل إلى مغزاها، أي إلى الهدف الكبير الذي من أجله ذكر الله هذه القصّة، فلذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

الله عز وجل يتولى حفظ كتابه و سنة نبيه بنفسه:

هذا كتاب الله تولّى الله بذاته حفظه، أليس الحديث الشريف (الصحيح طبعاً) تفسيراً لكلام الله ؟ السنة مُبَيّنة، كما أن الله جل جلاله تولّى بذاته حفظ كلامه، وتولّى أيضاً حفظ سنّة نبيّه، لأن من لوازم فهم كلامه فهمُ أقوال نبيّه عليه الصلاة والسلام، إذاً فالله عزّ وجل تولّى بذاته حفظ كتابه وحفظ سنّة نبيه، وهذا من قبيل:

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ)

هذا الكتاب الذي بين أيدينا هو نفسه الذي نزل به جبريل الأمين على قلب سيدنا محمد، فهذا الشيء معجز، كتابٌ مضى على نزوله من السماء خمسة عشر قرناً لا يوجد فيه حرف، ولا توجد حركة زيادة، هذا من حفظ الله له، تولّى الله حفظه، قال تعالى:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

(سورة الحجر)

فأنت أمام كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فأمامك كتاب كما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو بين يديك ؛ آياته الكونية، وآياته التكوينية، ومواعظه، وعبره، وقصصه، وأمثاله، وأوامره، ونواهيه، وكل هذا بين يديك.

فإنسان بين يديه كلام خالقه أفلا يسعد به ؟!! النبي عليه الصلاة والسلام ورد عنه:

((ومن جمع القرآن متعه الله بعقله حتى يموت))

(الجامع الصغير عن أنس)

طاعة الله عز وجل سبيلك للتمتع بعقلك و قدراتك:

لا يوجد شيء أصعب في الحياة من أرذل العمر، فأرذل العمر أن لا يعلم بعد علمٍ شيئًا، أي إنه خرف، ثم يردُّ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علمٍ شيئاً، ومن جمع القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، وهل هناك بشارةٌ أعظم من هذه البشارة ؟ أن تتنعّم بعقلك إلى آخر لحظةٍ في حياتك، ألم يدع النبي عليه الصلاة والسلام ويقول:

((ومتِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوّتنا وعقولنا ما أحييتنا واجعله الوارث منّا))

(أخرجه الترمذي عن ابن عمر)

سبيلك للتمتّع بعقلك، وقدراتك، وحوّاسِّك الخمس طاعة الله عزّ وجل..

((يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله))

(أخرجه أحمد و الترمذي عن ابن عباس)

القرآن ميسّر ولا سيما في هذا الزمان، طبعات القرآن شيء يسعد العقول، من جميع القياسات، بأفخر ورق، وأجمل خط، وأوضح عبارة، وتفسير مفرداته، تفسير معانيه، إنها تفاسير تملأ كل مكان، القرآن متلو، مجوّد بصوت قرّاءٍ كبار، يمكن أن تسمعه مسجّلاً، وأن تقرأه مطبوعاً، وأن تقرأ تفسيره، وأن تحضر مجلس علم يُفسّر فيه القرآن.

(وَلَقَدْ يَسّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدّكِرٍ)

ندم الإنسان يكون بمعرفة كلام الله و عدم تطبيقه:

قالوا: **" ما أكثر المواعظ وما أقلّ المتعظين، وما أكثر العبر وأقلّ المعتبرين ".** والإنسان يندم أشدّ الندم حينما يكتشف بعد فوات الأوان أن كل سعادته بمعرفة كلام الله، وكان كلام الله عنده مهجوراً.

(وَقَالَ الرّسُولُ يَا رَبِّ إِنّ قَوْمِي اتّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً)

(سورة الفرقان)

أي بإمكانك أن تستمع إلى تفسير كلام الله في المساجد، وبإمكانك أن تقرأ التفاسير، وأن تقرأ القرآن، وأن تستمع إليه، وتسأل عن معانيه.

أيها الإخوة: حُرْقة في القلب إلى أبد الآبدين بسبب أن الإنسان يكتشف بعد فوات الأوان أن كل سعادته بمعرفة منهج ربّه، والقرآن منهج ربنا عزّ وجل، فهذا بين أيدينا ونحن أحياء.

((اغتنم خمسا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك))

(أخرجه الحاكم، والبيهقي، عن ابن عباس أحمد، عن عمرو بن ميمون)

الإنسان العاقل من يتعظ بغيره:

(كَذّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

عاد قومٌ جاءهم نبيٌّ كريم فكذّبوه، ولم يعبئوا بدعوته، ولا برسالته، وعصوا أمره، وكذّبوه تكذيباً قولياً وعملياً، يقول الله عزّ وجل:

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

كيف كان ؟ فالإنسان العاقل من اتعظ بغيره، والشقي من يتعظ بنفسه، نحن على مستوى الصحّة إذا رأيت إنساناً أسرف على نفسه في عادة غذائية سيئة، ثم أُصيب بمرض عُضال، ألا ينبغي لك أن تتخذ

درساً بليغاً من هذا الإنسان ؟ وسرٌ هذه الآيات وتلك القصص أن الله سبحانه وتعالى يبيّن أن هؤلاء فعلوا ما فعلوا فأصابهم سيئات ما عملوا.

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

على الإنسان فهم آيات الله فهماً توحيدياً:

دعك من الأقوام السابقة، نحن ألا نسمع بما حلّ في بعض الأقوام ؟ في عصورنا هناك الزلازل، والفيضانات، والحروب الأهلية.

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

هذه الآية ألم تتحقق في هذا العصر ؟ كم من قريةٍ كانت:

(كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ)

فالآيات بيننا، وبين أيدينا وتحت سمعنا وبصرنا، ويمكن أن نطلع عليها، لكن العبر أن تفهم هذه الآيات فهماً توحيدياً لا فهماً أساسه الشِرْك.

(كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

فالزلزال حينما يقال لك: إن مدينةً بأكملها أصبحت أثراً بعد عين بعد ثلاث دقائق، فأين الأبنية ؟ وأين الطوابق ؟ وأين السُكّان ؟ هذا كله بين أظهُرنا وتحت سمعنا وبصرنا.

إنذار الله للعبد قبل عذابه:

(كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

والعذاب دائماً تسبقه النُذُر، فالله عزّ وجل رحمةً بالعباد لا يوقع العذاب إلا بعد الإنذار، ولعلّ القرآن الكريم هو النذير، لأن الإمام القرطبي عندما فسّر قوله تعالى:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: آية " 37 ")

قال: **" النذير هو القرآن الكريم "**، بيّن لنا مصير الأقوام التي عَصَت الله، وبيّن لنا كيف أهلك الأقوام السابقين، وبيّن لنا مشاهد من الجنة ومشاهد من النار، هذا نذير، فأنت معك كتاب فيه وصفٌ لكل شيء؛ وصفٌ لما كان، ولما هو قائم، ولما سيكون.

عاقبة المؤمن و الكافر:

ألا يكفي أن الله عزّ وجل يقول لك في كتابه:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: آية " 97 ")

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

هذه آية.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: آية " 21 ")

أليست هذه آية ؟

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

عذابي شديد، وإنذاري واضحٌ بيّن، ألا نرى ونسمع أن إنسانًا منع زكاة ماله فأتلف الله ماله ؟ وإنسان اعتدى على أعراض الآخرين فاعتُدي على عرضه، وإنسان أكل أموال الناس بالباطل فدمّره الله عزّ وجل، وإنسان بغى وطغى ونسي المبتدى والمنتهى فوقع في شرّ عمله، فأهلكه الله عزّ وجل ؟

أثمن شيء يملكه الإنسان هو الوقت:

هناك آلاف القصص تجري تحت سمعنا وبصرنا، فالعبرة أن تتعظ لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أمرني ربي بتسع: خشية الله في السرّ والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأن أعفو عمن ظلمني، وأن أعطي من حرمني، وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبرةً))

دقق.. صمتي فكراً، نطقي ذكراً، نظري عبرةً.. فالمؤمن إن نظر يعتبر، وإن صمت يفكِّر، وإن نطق يَذْكُر، ويجب أن نعلم علم اليقين أن أثمن شيءٍ نملكه على الإطلاق هو الوقت، أنت وقت، وأنت بضعة أيام وكلّما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منك، وقد كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ يقول:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

(الترمذي عن أبي هريرة)

فيجب أن تعلم علم اليقين أنه إذا استيقظت فقد سمح الله لك أن تعيش يوماً جديداً.

عذاب قوم عاد:

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً)

صرصراً أي هي ريح لها صوتٌ مخيف، أي ريحٌ باردةٌ لها صوتٌ مخيف.

(فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ)

أي مستمرٌ هذا اليوم إلى أن يهلكهم، أحياناً تأتي ضربة غير قاضية، أما إذا أردت أن تجهز على هذه الحشرة فإنك تضربها حتى تموت.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً)

ريحاً باردةٌ لها صوتٌ مخيف إنها مستمرّةٌ حتى تستأصلهم من شأفتهم أو من جذورهم.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ(20))

مشهد من مشاهد آيات الله الدالة على عظمته:

حينما تأتي رياحٌ عاتية فإنها تقلع أشجار النخل من جذورها، ومن قعرها أي من أصولها، فالله عزّ وجل صوّر لنا مشهداً من مشاهد آياته الدالة على عظمته.

(تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (21))

(كيف كان عذابي ونذر)

هذه الآية تتكرّر، أي انتبهوا يا عبادي، وأنا أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفّقني لتوضيح هذه الحقيقة، أي ما من مصيبةٍ تقع على وجه الأرض إلا وينبغي لنا أن نفهمها فهماً توحيدياً لا فهماً أساسه الشِرْك، لا تقل: زيد وعبيد والجهة الفلانية والعلاّنية، قل: قدّر الله وما شاء فعل لأن.

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: آية " 10 ")

ولأن الله.

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: آية " 84 ")

الله تعالى بيده الخلق و الأمر:

لأن الله يقول عن ذاته:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)

(سورة الحديد: آية " 3 ")

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف: آية " 54 ")

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(سورة الرعد: آية " 41 ")

فأنت إذا فسّرت الأحداث كلّها تفسيراً أساسه التوحيد تسعد بهذا التفسير، أما إذا فسّرت الأحداث تفسيراً أساسه الشرك فإنك تشقى بهذا التفسير، لأنه كما ورد عن النبي أنه قال:

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

(أخرجه ابن عساكر عن البراء)

عقاب الإنسان الكافر في الدنيا و الآخرة:

فالإنسان العاقل يجعل من هذا الحديث القدسي نبراساً له.

((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد فسألوني وأعطيت كل إنسان منهم ما سأل لم ينقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص البحر إن يغمس فيه المخيط غمسة واحدة، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحفظها عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه))

هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة قال فيه الذهبي: هو في مسلم

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى)

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً)

(سورة الكهف)

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ)

أي يا عبادي أنا لا أجازي غير الكفور ؟ هذا كلام الله، فيجب أن تفسّر ما يقع تفسيراً توحيدياً لتكون هذه الأحداث متصلة بهذه القصص.

(كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (21))

طاعة الله تبعد الإنسان عن الخوف:

أحياناً يأتي العقاب جماعياً، وفي أحيان كثيرة يأتي العقاب فردياً، فعلى الإنسان ألاّ يغتر إذا كان الناس في بحبوحة، فقد يأتي العقاب فردياً له بالذّات، فالعاقل لا يطمئن إلا إلى طاعة الله، ولا ينجيك من الله إلا أن تطيعه.

((مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ))

(ابن ماجه عن عبد الرحمن بن أبان)

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

فالإنسان يجب أن يخاف، والخوف من خصائص الإنسان.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

ينبغي لك أن تخاف، فإنك إن خفت من الله عزّ وجل اتقيت الخوف منه بطاعتك، إذ لا ملجأ منه إلا إليه.

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (21) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (22) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ(23))

عدم الإيمان بالآخرة يدل على تعطيل فكر الإنسان:

كما تحدّثت في دروسٍ سابقة: التكذيب الخطير هو التكذيب العملي، أن لا تجد في سلوك الإنسان ما يدل على أنه مؤمن بالآخرة، فالإنسان عندما يكون راكباً سيارة وسيجتاز حدود بلد آخر، فما دام مؤمناً أن هناك حواجز، وتفتيشاً دقيقًا، ويوجد تكليف برسوم جمركية، فتجده يهيئ أغراضه ويرتبها ترتيباً معيناً، حركته في ترتيب الأغراض يعني أن هناك حاجزاً سوف يسأله: فهذه من أين جئت بها ؟ وهذه ممنوع أن تدخل فعليها رسم، فكل إنسان ما دام مؤمناً أن هناك عند الحاجز سؤالاً فإنه يرتب الأغراض ترتيباً معيناً، أما إذا كان إنسان لم يبال إطلاقاً، ومعه أشياء كلها ممنوعة فمعنى هذا أن تفكيره معطّل.
إذاً:

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ)

التكذيب العملي، والنظري، والقولي، نحن بالمناسبة هناك كفرٌ اعتقادي، وهذا الكفر الاعتقادي يُخرج الإنسان من ملّة الإسلام، وهناك كفرٌ عملي، وكفرٌ قولي، وهذا الكفر هو دون الكفر الاعتقادي.

مضمون الدعوة لا الداعي يحدد مصير الإنسان:

(فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

هذه نقطة دقيقة جداً، وهي ثابتة على مدى الأزمان، فأحياناً الإنسان لا ينظر إلى فحوى الدعوة بل ينظر إلى الداعي، يقول: فلان صديقي أعرفه حينما كان صغيراً، وفلان أصبح كذا وكذا، إنه يتعامى عن مضمون الدعوة، ويتعامى أن مضمون الدعوة خطير جداً، وهو مضمون مصيري يحدد مصيره في الدنيا والآخرة، فلا يلتفت إلى مضمون الدعوة، ولا إلى الأمر والنهي، ولا إلى الموعظة، ولا إلى القصّة، ولا إلى العبرة، ولا إلى الآية الكونية، فقط يلتفت إلى هذا الذي يقول، من فلان ؟ ومتى صار داعية ؟ ومتى صار كذا وكذا ؟ فالذي يحجبه عن الحقيقة هو أنه ترك الفحوى ونظر إلى المتكلِّم، فهذه النظرة الشخصية المبنية على حسد أحياناً أو على شعور بالدّنية هذه النظرة تحجبه عن الحقيقة، خذ الحكمة ولا يهمُّك من أي مكانٍ خَرَجَت، العبرة أن تستفيد، فلذلك:

(فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ)

النبي الكريم صفوة الله من خلقه:

أيُعقَل أنّ أمّة بأكملها تتبع إنساناً واحداً، فهذا الإنسان نبيٌّ كريم، اصطفاه الله عليكم جميعاً.

(اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ)

(سورة البقرة: آية " 247 ")

والنبي يعدُّ قمّة المجتمع:

((الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم))

(أخرجه البخاري عن انس بن مالك)

والنبيّ الكريم يقظٌ دائماً، متصلٌ بالله دائماً، صفوة الخلق، وحبيب الحق، وتوجد مستويات، فإذا كان هناك حجرة ماس تقليد بألفين، فالماس الحقيقي بخمسمئة ألف، إذ يوجد فرق كبير جداً، فهؤلاء الأنبياء إن الله جلّ جلاله اصطفاهم على الخلق.

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران: آية " 33 ")

و صفوة الله من خلقه، هؤلاء الأنبياء قمم في العلم، وفي الكمال، والخُلُق، والفصاحة، والبيان، والفطانة، والنقاء، والِعصمة، هم قمم، فإذا توهّم الإنسان أن هذا النبي إنسان وهذا إنسان.. ردّ الشاعر فقال:

محمّدٌ بشرٌ وليس كالبشَرِ لأنه جوهرةٌ والناسُ كالحجرِ

* * *

فالجوهرة حجر ولكنه حجر كريم، والجوهر فحم ولكن جاءه ضغطٌ شديد وحرارةٌ كبيرة فصار ماساً، وكل إنسان إذا ضُغِطَ عليه، وساقه الله إلى أبواب عبوديّته وأبواب رحمته فيصبح كالماس.

طلب الجنة من غير عمل ذنب عظيم:

الإنسان الذي يصل إلى مرتبة عالية فهذا تحمّل ضغوطًا لا يتحمّلها عامّة الناس، ودفع ثمن هذا المقام عند الله باهظاً، وترك الدنيا وزهد فيها وقال: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، ووضع المال تحت قدمه ولم يعبأ به، فلم تغره الدنيا ولا ما كان منها، فسلعة الله غالية، وطلب الجنّة من غير عملٍ ذنبٌ من الذنوب.

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لمـا وليت عنا لغيـرنا

و لو سمعت أذناك حسن خطـابنا خلعت عنا ثياب العجب و جئتنا

و لو ذقت من طـعم المحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا

و لو نسمـت من قربنا لك نسمة تـركت جميع الكائنات لأجلنا

فما حبّنا سهلٌ وكل من ادّعـى سهولته.. قلنا له: قد جهلتنـا

* * *

فهناك إنسان خطب فتاة والدها عالِم فقال: كم تريد من المهر يا سيدي ؟ قال: أن تحضر مجالس العلم هذا هو المهر، فحضر المجلس، وثابر على ذلك، فانجذب إلى الحق، واستغرق في محبّة الله عزّ وجل، ونسي وصالاً، فلمّا عاتبته وقالت: **"أين الوعد "**. قال: **" يا وصال كنتِ سبب الاتصال "**.

الاتصال بالله سبب سعادة الإنسان و طمأنينته:

أحياناً الإنسان يكون سارحاً في الدنيا، ضائعاً، هائماً على وجهه، مبعثراً، مشتّتاً، كئيباً أحياناً، فإذا وصل إلى الله وجد السعادة، والطمأنينة، والرضا، والفوز والتفوّق، فالله عزّ وجل سلعته غالية وهو عزيز، فهل بأعمال بسيطة لا تكلِّفك شيئًا، بركعتين، أو بليرتين تدفعهما !! لا.. فالله أعظم من ذلك.

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبّونَ)

(سورة آل عمران: آية " 92 ")

(وَالّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنّهُمْ سُبُلَنَا)

(سورة العنكبوت: آية " 69 ")

(أَحَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

فإذا طلب الإنسان مرتبة عالية في الدنيا، بهذه السنين المحدودة لكي يجلس ويعاين مريضًا ربع ساعة ويأخذ ألف ليرة، يكون قد درس ثلاثة وثلاثين سنة قبلها، لا يقدر إنسان لم يدرس إطلاقاً أن يفتح عيادة ويستقبل مرضى وسيأخذ على كل مريض ألف ليرة، لا يقدر، أما ثلاثة وثلاثون سنة دراسة فممكن أن تستقبل مريضاً وتأخذ منه ألفاً خلال خمسة دقائق، ومعنى هذا أنه عنده علم، أنا أضرب مثلاً، فإنسان يصل إلى مراتب عُليا في الدين بلا تعب ؟ لا يوجد عنده وقت يحضر مجلس علم لأنه مشغول، ولا يوجد عنده وقت ليقرأ القرآن، ليس متفرغًا لأن يطبّق أحكام الله عزّ وجل، يقول لك: لا تدقق، نحن عبيد إحسان ولسنا عبيد امتحان، هذا المستوى المتفلِّت المقصِّر، فبالطبع هان الله عليهم فهانوا على الله، أو هان أمر الله عليهم فهانوا على الله.

الغرور يصيب الجاهل و يبعده عن سعادة الآخرة:

(كَذّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقَالُوا أَبَشَراً مِنّا وَاحِداً نَتّبِعُهُ إِنّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (24))

دقِقوا في هذه الفكرة: تركوا فحوى الدعوة، والمضمون ونظروا إلى المتكلِّم، فأصابتهم الغيرة، وأكل قلوبهم الحسد، ورأوه واحداً منهم، وفكّروا لعلّهم أغنى منه، وأقوى، فمَنْ فلان ؟ فالإنسان أحياناً يُحجب عن سعادة الآخرة ببشرية المتكلِّم، لا تنظر إلى المتكلِّم بل انظر إلى فحوى دعوته، فإن كانت الفحوى خطيرة فتمسّك بالحق.

(فَقَالُوا أَبَشَراً مِنّا وَاحِداً نَتّبِعُهُ إِنّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

أي نحن جاهلون، وفي ضلال، وفي جحيم إذا اتبعنا إنساناً، فلو أن هذا الإنسان هداكم إلى الله، وإلى سعادتكم، وحملكم على طاعة الله، ودلّكم على سرّ وجودكم، وعلى طريق طمأنينتكم، وعلى طريق التوفيق، والتأييد، والنصر، والحفظ، ودلكم على حقيقة ذاتكم، وعرّفكم بربّكم فيجب أن تقبلوا منه ذلك.

الإنسان السيئ من يسيء الظن بالآخرين:

(أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ)

قال العلماء: **" أشِر أي أراد الدنيا بالدين "** أراد بهذه الدعوة أن يجمع الناس حوله وأن يأخذ من أموالهم.

(بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ)

يكذب على الله ليسود على قومه، ويكذب على الله ليجمع الأموال من قومه، فدائماً الإنسان السيئ يسيء الظنّ بالآخرين، فإذا كان الإنسان مستواه منخفض جداً، فلا توجد عنده بخبرته السابقة حالة معرفة الله والمؤاثرة، فالبخيل يتهم الكريم بالجنون، بنيته وحرصه على المال ويجعله ينظر إلى الكريم من هذه الزاوية، ولذلك يتهم الكريم بالجنون، والجبان يتهم الشجاع بالتهوّر، والأحمق يتهم الحكيم بالحُمق أحياناً، فالإنسان من خطورة نظرته أنه ينظر إلى الكمال من زاوية نقصه، وهذا خطرٌ كبير، وإذا لم يتمكّن الإنسان أن ينظر إلى الأمور نظرة موضوعية، ولم يتمكّن أن ينحي ذاته جانباً لينظر إلى الحقيقة المجرّدة فهذا الإنسان ليس موفّقاً بحياته.

العبرة بخواتم الأمور و عاقبتها:

(أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ)

أي متى كان فلان ؟ فإذا قضَى الإنسان عمره في النوم، والسهر مع أصدقاء السوء، في الملاهي، وله صديقٌ درس دراسة جديّة حتى صار شخصية متألِقة في الحياة، فهذا الذي يقول: متى صار فلان ؟ أين كنت أنت حينما كان يدرس ؟ وأين كنت حينما كان يسهر الليل ؟ وأينما كنت حينما كان يؤدّي الامتحانات ؟

(أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ)

أي أنه يكذب ليغتني، أو يكذب ليقوى، أو يكذب ليجمع الناس حوله، يقول الله عزّ وجل:

(سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ)

العبرة بخواتم الأمور، وبالنتائج، والعبرة بعاقبة الأمور، وبالنهايات، وبعد الممات.

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)

(سورة يس)

خسارة الإنسان الحقيقية أن يخسر نفسه و الآخرة:

العبرة أن الإنسان إذا جاءه ملك الموت ورأى مكانه في النار يقول: لم أر خيراً قط، وكل ألوان النعيم التي تنعّم بها في الدنيا لا يراها إطلاقاً، ولا يرى إلا العذاب، أما حينما يأتي مَلَك الموت إلى الإنسان ويُطْلِعُه على مقامه في الجنّة يقول كذلك: لم أر شرّاً قط، ومرّة امرأة أحد أصحاب رسول الله كلّفته بشيءٍ لا يطيقه، أو طلبت منه شيئاً لا يطيق شراءه فقال **" اعلمي يا فلانة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلّت إحداها على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحّي بكِ من أجلهن أهون من أضحي بهنّ من أجلكِ "**، فالمؤمن موعود.

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة السجدة)

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

(أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة)

أي أن الإنسان إذا عاش مئة سنة يقول لك: ما شاء الله إنه معمِّر، الجنّة لا يوجد فيها عمر، فمليون مليون، ومليار مليار، ومليار مليار بليار إلى أبد الآبدين، الأبد شيء صعب على العقل أنْ يتصوّره، ولا يوجد رقم بالأبد، وأكبر رقم مقداره صفر إذا قسته للأبد، فالحقيقة أن الخسارة الحقيقية هي أن يخسر الإنسان هذه السعادة الأبدية، وأن يخسر الإنسان نفسه التي بين جنبيه.

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر: آية " 15 ")

أخطر حدث في حياة الإنسان مغادرة الدنيا:

(سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ)

هذه السين فيها تهديد، غداً تعلم من هو الخاسر، الآن المشكلة أن هناك أشخاصاً كثيرين يتوهّمون أنهم ناجحون في الحياة، فيكون قد حصّل أموالاً طائلة، فاشترى أراضٍ بأسعار بخسة فارتفعت أسعارها مئة ضعف تقريباً، واشترى بيوتاً بالأسعار القليلة وارتفع سعرها، وأسس تجارة، ومعملاً، فشعر بقوّته المالية، والاقتصادية، وبالفوز، فهذا وهم، فالغنى والفقر بعد العرض على الله، وأخطر حدث في حياته ما أدخله في الحساب أبداً، حدث مغادرة الدنيا، وهناك إنسان ورث من قريب له سمعت سبعين أو

ثمانين مليوناً، من وقت موت قريبه وهو يعمل ليلاً ونهاراً في متابعة المعاملات المتعلِقة بالإرث، وحَصْر الإرث، وقد دخل إلى الحمام ليتوضّأ (ولا أدري لماذا دخل) فوقع ميّتاً، ولم يقبض درهماً واحداً من الإرث، الموت يأتي بغتة، والقبر صندوق العمل، كم من زوج جاءه الموت قبل يوم العُرس، وكم من طالب علمٍ لم يستمتع باختصاصه ولا ساعة، بعد أن نال الدكتوراه وافته المنيّة، وكم من إنسانٍ شيّد بيتاً بشكلٍ رائع ولم يسكنه، فالذي يضع كل البيض في سلّةٍ واحدة يخسر، اجعل للدنيا نصيباً وفق منهج الله، وللآخرة نصيباً وفق منهج الله عزّ وجل.

(سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ)

من هو الذي يكذب على الناس ليأخذ أموالهم ؟ هؤلاء الأنبياء منزّهون، وهؤلاء صادقون، وأنقياء، ونظيفون، أما الكذّاب الأشر فليس ممن يتعلّق بهم الدين، فالدين أنقى وأجل وأعظم من أن يكون أتباعه كذّابين أشرين.

إقامة الحجة على قوم عاد:

(إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ)

طلبوا ناقة تخرج من الجبل، فالله سبحانه وتعالى أعطاهم سؤلهم وخرجت الناقة من الجبل، طبعاً شيء غير معقول، جبل صخري، فأرسل الله لهم الناقة كي يقيم عليهم الحجّة.

(إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ)

لكنّ هذه الناقة التي خرجت من الجبل بناءً على طلبهم.

(وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ)

فالماء بينهم وبينها يحضرون يوماً فيشربون من ينابيع الماء، وتحضر الناقة يوماً فتشرب اليوم كله.

(وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ)

أنواع الهلاك:

1 ـ هلاك ضعف:

لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام بشّره الله بأن أمّته لن تهلك هلاك استئصال كقوم عادٍ وثمود، بل هلاك ضعف.

2 ـ هلاك استئصال:

أما هلاك استئصال إذا جاءت المعجزة وكفر الناس بها استحّقوا الهلاك، لأن كل شيءٍ انتهى.

مراحل الدعوة إلى الله:

1 ـ الدعوة البيانية:

كلكم يعلم أن الله سبحانه وتعالى يبدأ مع الإنسان بالدعوة البيانية، كلام، خطبة جمعة، ودرس تفسير، ونصيحة صادقة، والأولى أن يستجيب الإنسان لهذه الدعوة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

2 ـ التأديب التربوي:

فإن لم تجد معه هذه الدعوة البيانية يأتي التأديب التربوي، فتأتيه المصائب..

3 ـ الإكرام الاستدراجي:

الأولى بالإنسان أن يتضرّع إلى الله عزّ وجل فإن لم يتضرّع جاءت مرحلة ثالثة وهي الإكرام الاستدراجي..

(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا)

(سورة الأعراف: آية " 95 ")

4 ـ القصم:

الأولى أن يشكر، فإن لم يستجب، وإن لم يتضرّع، وإن لم يشكر ما بقي إلا القصمُ.

المشاركة و الدعم و الإقرار مشاركة في الإثم:

طلبوا معجزة، فخرجت الناقة من الجبل، فعقروها، فاستحقّوا الهلاك، وانتهى الأمر، لذلك:

(وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (28) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ)

الذي عقرها.

(فَتَعَاطى فَعَقَرَ)

قال: ثَمِلَ حتى آخر قطرة وعقر الناقة.

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

والعلماء استنبطوا من ذلك أن الذي يرضى بفعلٍ ما هو شريكٌ مع الفاعل.

(وَنَبِّئْهُمْ أَنّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ)

أي القوم يشربون يوماً من الماء، والناقة تشرب يوماً.

(مُحْتَضَرٌ)

يحضرون فيشربون.

(فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطى فَعَقَرَ)

عقرها، الذي عقرها واحد لكن الله عاقب الجميع على هذه الجريمة، قالوا: لأنهم راضون بهذا العمل، ومتعاطفون معه فهم شركاء في الجريمة، ولذلك يقول سيدنا عمر: **" لو أنّ أهل بلدةٍ بأكملهم ائتمروا على قتل رجلٍ (طبعاً المنفِّذ واحد) لقتلتهم جميعاً به "**. لأن المشاركة، والدعم، والإقرار مشاركة في الإثم.

عقاب الله للكافر بكلمة واحدة كن فيكون:

(فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطى فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (30) إِنّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً)

كلمة واحدة لها معنى كبير، أي هؤلاء مهما كانوا أقوياء تكفيهم صيحةٌ واحدة، كأن تقول: هذه الحشرة الصغيرة لا تحتاج أكثر من ضربة واحدة فتموت، أما الوحش الكاسر فيحتاج إلى جهد كبير، ولذلك فكلمة واحدة أي لا شأن لهم عند الله، كن فيكون زُلْ فيزول.

(إِنّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ)

المحتظر أي صاحب الحظيرة يأتي إلى أرضها بالأغصان اليابسة والأوراق كي تكون مهاداً لبعض الدوابّ، فهذه الأوراق المقطوعة اليابسة، وهذه الأغصان القصيرة، وهذا القش هذا هشيمِ المحتظر، فكانوا من التفاهة والضعف وقلّة الأهميّة كهشيمِ المحتظر.

(إِنّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31) وَلَقَدْ يَسّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدّكِرٍ (32))

الهلاك و الدمار عاقبة المذنب و العاصي:

أيها الإخوة: ذكرت لكم في الدرس السابق: أن كل هذه القصص لها مفتاح، ومفتاحها في آخر السورة وهو:

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46))

(سورة القمر)

فما ذكر الله لنا هذه القصص إلا لينبئنا أننا إذا فعلنا مثل أفعالهم استحقّ علينا الهلاك مثلهم، فإذا فعلنا مثل أفعالهم فنحن هالكون مثلهم، فانتبهوا، هؤلاء الأقوام فعلوا ذنباً واحداً فدمّرهم الله عزّ وجل، فكيف بمجتمع فيه كل المعاصي والآثام ؟ فالهلاك، لذلك قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً)

(سورة الإسراء)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القمر 054 - الدرس (4-5): تفسير الآيات 33-46
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-11-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الرابع من سورة القمر، ومع الآية الثالثة والثلاثين.

الاستقامة على أمر الله:

أيها الإخوة: قبل أن نمضي في الحديث عن الأقوام الذين كذبوا واستحقوا عذاب الله عزّ وجل، لابدّ من حقيقةٍ محورية في هذا الدرس وهي: أن كل قومٍ كذّبوا الحق، وانحرفوا، وعصوا، جاءهم الإنذار تلو الإنذار، فركبوا رؤوسهم واستكبروا، ثم جاءهم العذاب، والسؤال هنا: إذا تحقق الإنسان أن هذا الإنذار صادق ولا شك في مصداقيته أبداً، وأن هذا الذي وقع بعد الإنذار من عذاب استئصال لا يمكن لواحدٍ أن يتفلت منه، فإذا ثبت لديك مصداقية الإنذار وحتمية العقاب، فماذا يجب عليك أن تعمل ؟ أنت في تعاملك مع الدنيا، ومع من حولك، إذا ثبت لديك أن واحداً من الناس إذا قال فعل، وأنه إذا أراد أن يفعل لن تستطيع أن تتفلت من قبضته، فعليك أن تجد نفسك مستقيماً على أمر الله.

العذاب الأليم لمن كذب بدعوة الأنبياء:

العبرة من هذه القصص أن الله سبحانه وتعالى حدثنا عن أقوامٍ كثيرين، حدثنا عن قوم نوح، وعن قوم صالح، وعن عادٍ وثمود، وحدثنا عن قوم فرعون، وعن قوم لوط، وكيف أن هناك قاسماً مشتركاً بينهم جميعاً، كذبوا دعوة الأنبياء، وكذبوا وعيد الأنبياء، وانحرفوا، فجاءهم العذاب الأليم، وهذه سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

ومرةً ثانية أعود وأقول: إن كل القصص في كتاب الله، لا يمكن أن تكون قصة بمعنى أن أشخاصاً، ووقائع، وحوادث، وحواراً، ووصفًا، وبداية، وعقدة، ونهاية، نقرأها فنستمتع بها، أو نقرأها فنأخذ علماً بها، قصص كتاب الله عزّ وجل فوق هذا بكثير، إنها قوانين صيغت على شكل قصص، وإنها حقائق صيغت على شكل حوادث، وإنها سنن صيغت على شكل أشخاصٍ يتحاورون، فالذي يعنينا من هذه القصص، أن الإنذار صادق، وأن العقاب حَتْميّ، فإذا كان الإنذار صادقاً والعقاب حتمياً فماذا ينبغي لنا أن نعمل ؟ ينبغي لنا أن نستقيم على أمر الله، وأن نفر إليه، وأن نلجأ إليه.

الهلاك عاقبة من يخالف الحكم و الفطرة:

الله سبحانه وتعالى يقول:

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ)

قوم لوط الذين أرسل الله لوطاً إلى هدايتهم، هؤلاء كانوا منحرفين انحرافاً أخلاقياً، آثروا الرجال دون النساء، واليوم كما تعلمون في أمريكا وحدها كما تقول الإحصاءات سبعة عشر مليون شاذ، وما مرض الإيدز الذي هو وباء العصر إلا بسبب هذا الانحراف، فهؤلاء القوم انحرفوا عن الفطرة التي فطرهم الله عليها إلى طريقةٍ شاذةٍ في إشباع هذه الرغبة، والحقيقة أنّ ثمة فرقاً كبيراً بين الزاني وبين اللوطي، فالزاني خالف الحكم الشرعي، لكن الشاذ خالف الفطرة، إنه فرق كبير جداً، فالتصميم الإلهي.

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

(سورة النجم)

فهناك المكان الطاهر، المكان الذي ينبت.

(نساؤكم حرثٌ لكم)

مكان إنجاب الأولاد، المكان الطبيعي الذي خلق للإنسان، فالذي أراد انحرافاً وشذوذاً لم يخالف الحكم الشرعي بل خالف الفطرة، ولذلك فهؤلاء القوم خالفوا الحكم والفطرة معاً، فاستحقوا الهلاك، لكن هذا على مستوى قوم، وعلى مستوى فردي فالإنسان إذا انحرف وخالف تعليمات الصانع فالعقاب حتمي، لكن رحمة الله عزّ وجل تقتضي أن يسبق عقابه إنذاره، ولذلك قال تعالى:

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً)

البلاء العام لا يصيب المؤمنين الصالحين:

القصة في أماكن أخرى بشكل مفصل، أحياناً ربنا عزّ وجل يعرض القصة مفصلةً في مكان وموجزة في مكان آخر، بل إن بعض علماء التفسير قالوا: إن كل قصةٍ عرضت في كتاب الله عزّ وجل، عرضت من زاوية، فإذا رأيت قصة موسى عليه السلام.. مثلاً.. عرضت في أماكن عديدة جداً، ففي كل مكانٍ من كتاب الله عرضت القصة من زاويةٍ معينة، فاليوم في سورة القمر ليس هناك تفصيلات كثيرة حول هذه القصة.

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً)

رياحٌ فيها حجارة، أهلكتهم.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آَلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ)

من هم آل لوط ؟ الذين آمنوا معه، فالقاعدة الثانية أن الله سبحانه وتعالى إذا أنزل بلاءً عاماً وكان في هؤلاء القوم أناس مؤمنون، صالحون، مستقيمون، فالله جلّ جلاله ينجّيهم.

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة الزمر)

حقيقة الإيمان أن الأمور كلها بيد الله تعالى:

" لكل شيءٍ حقيقة وما بلغ عبدٌ حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه "، ليس هناك شيء طائش، شظية طائشة، أو قذيفة طائشة، أو رصاصة طائشة، كل هذه القذائف مسوّمة، أي عليها اسم صاحبها، هذا هو الإيمان، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

إن لم نؤمن أن الأمور عند الله محسوبة بأدق التفاصيل فالإيمان يحتاج إلى تجديد، فهؤلاء القوم الذي استحقوا الهلاك من الله عزّ وجل، لكن آل لوطٍ الذين آمنوا معه نجّيناهم بسحر، قال:

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34))

(سورة الذاريات)

فاستبدل كلمة لا تقل: طائشة، بل قل: مسوّمة، وهذه قاعدة مطبقة في كل الحياة، كل شيء مسوم وما في الحياة شيء طائش أبداً، لأن الله عزّ وجل كماله مطلق، وكل شيء بيده.

نجاة المؤمن الصادق من الكرب العظيم:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف: آية " 54 ")

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

(نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ)

يمكن أن تستمع إلى آلاف القصص في حياتنا، كيف أن الله سبحانه وتعالى نجّا المؤمن المستقيم من كربٍ عظيم، ومن كارثةٍ كبيرة، ومن مصيبةٍ طاحنة، لسببٍ صغيرٍ صغير لم يلق له بالاً، لكن:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

أن ينجي الله المؤمنين هذا أحد قوانين الله عزّ وجل، نجاة المؤمنين من الكرب العظيم إحدى سنن الله عزّ وجل.

طاعة الله أساس كل طمأنينة و ليس حذرك:

بالمقابل الإنسان مهما كان ذكياً، ومهما كان عاقلاً، وحكيماً، و أخذ الحيطة، والحذر، واستعدّ لكل الاحتمالات، وسد كل الثغرات، فقد يأتيه المُصاب من مأمنه، وقد قيل: يؤتى الحذِر من مأمنه، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((لن ينفع حذرٌ من قدر ولكن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل))

(أخرجه أحمد عن معاذ)

فالإنسان لو أنه لم يكن مستقيماً، وكان حكيماً، وذكياً، وعاقلاً، وسد الثغرات، وأخذ كل الاحتياطات، وتوقّع كل الاحتمالات، وأخذ بكل الأسباب، فالله جلّ جلاله يؤدبه من الجهة التي اطمأن إليها، ومن الجهة التي أغلقها، واعتمد عليها، ومن مكانٍ لا يتوقّعه، فما الذي ينفعك ؟ لا ينفعك حذرك، بل تنفعك استقامتك (دقق في هذا الكلام). لا ينفعك ذكاؤك ولا مالك، ولا حذرك، ولا أن تأخذ بالأسباب، ولا أن تسد الثغرات، ولا أن تتوقّع الاحتمالات، ولا أن تغطي المُشكلات، فلا ينفعك إلا أن تطيعه، فإن أطعته طمأنك، وحماك، وحفظك، وأيّدك، ونصرك.

الاعتماد على الأسباب وحدها توقع الإنسان بالعذاب الأليم:

الآن: الإنسان أحياناً يكون غارقا في المعاصي ولكن يقول: هذه القضية أغلقتها، وهذه القضية أخذت الحيطة منها، لا، لا ينفع حذرٌ من قدر ولكن ينفع الدعاء مما نزل ومما لم ينزل، فلا يمنعك من الله إلا أن تكون على أمره ونهيه، والحذِر يؤتى من مأمنه، فمثلاً: أحياناً طبيب متفوق في اختصاصه، وقد أمضى ثلاثين عاماً في الدراسة فهذا المرض وأسباب الوقوع فيه، هو واثقٌ من نفسه إلى درجة أنه لن يصاب بهذا المرض لأنه عليمٌ بكل تفاصيله ودقائقه، فمثل هذا الإنسان الذي اعتمد على علمه وظن أن الأسباب وحدها تكفي، قد يصاب بهذا المرض تأديباً له على شركه، أو على اعتماده على الأسباب.

إذاً: ننطلق في بداية هذا الدرس من أن الله سبحانه وتعالى ذكر لنا أقواماً كثيرين جاءتهم رسالة السماء فكذبوا بها، وأنذروا بعذابٍ إذا هم عصوا فلم يعبئوا بهذا الإنذار، فجاءهم العذاب الأليم فاستأصلهم، قال تعالى:

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

(سورة القمر)

المنطق و العقل و الفطرة تدعوك إلى طاعة الله:

إذا أيقنت بمصداقية الإنذار، وإذا أيقنت بحتمية العقاب، فالمنطق والعقل والفطرة تدعوك إلى طاعة الله عزّ وجل.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً)

أي رياحاً محملةً بالحجارة فأهلكتهم عن آخرهم.

(إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ)

وكل إنسان له معاملة خاصة إذا كان مطيعاً لله، فالقاعدة هناك من يقول: إن البلاء يعم. ولكن البلاء يعم بحالة واحدة، أن يسكت الإنسان عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما الإنسان المستقيم الذي يذكر الله عزّ وجل ويذكِّر بالله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فمثل هذا الإنسان الله جلّ جلاله يأخذ الله بيده ويحفظه وينصره.

معية الله عز وجل خاصة و مشروطة:

الحقيقة التي تعرفونها جميعاً، هي أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

وفي آية أخرى:

(أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

(سورة البقرة)

وفي آية:

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

(سورة البقرة)

قالوا: هذه المعية الخاصة، معية النصر والتأييد والحفظ والتوفيق، لكن هذه المعية مشروطة، وهي خاصة ومشروطة، مشروطةٌ حينما قال الله عزّ وجل:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

(سورة المائدة: آية " 12 ")

أنا معكم إن فعلتم كذا وكذا، فمعية الله عزّ وجل خاصة ومشروطة، خاصةً بالمؤمنين، وبالمتقين، وبالصابرين، ومشروطة بطاعة الله، فإذا كنت مع الله كان الله معك.

الصدق و الإخلاص علامة نجاة المؤمن من عذاب الله:

(نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا)

دققوا في هذه الآية.

(إِلَّا آَلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (34) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا)

النجاة نعمة كبيرة جداً، لكن لئلا تتوهم أن هذه قصة، وأن هذه وقعت ولم تقع بعد اليوم، دقق في قوله تعالى:

(كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ)

إلى يوم القيامة، أرأيتم كيف أن الله سبحانه وتعالى لا يريدها قصة ؟ بل يريدها قانوناً، ويريدها قاعدةً، وحقيقةً ثابتةً، ومتجددةً في كل زمانٍ ومكان، وأنت بعد ألفي عام، وبعد أربعة آلاف عام من هذه الحادثة، مؤمن يعيش في القرن العشرين، في مكان من بقاع الله الواسعة، لو أنه كان صادقاً مخلصاً وجاء كربٌ عظيم نجّيناهم بسحر.

قدرة الله في دفع البلاء عن المؤمن:

حدثني صديق قال لي: أحياناً يوجد كوارث عامة، وزلازل، وفيضانات، وصواعق، وأحياناً براكين، وربما وقع زلزال في بعض البلاد العربية وقع بكامله، ولم ينج منه أحد إلا إنسان خرج منه قبل دقائق، فأحياناً إذا أراد الله عزّ وجل أن ينجي إنساناً من كربٍ عظيم يخلق له حاجةً خارج هذا المكان فيخرج، طبعاً لا مجال لذكر تفاصيل القصة لكن هناك آلاف القصص، تشعر أن قوةً إلهية كبيرة دفعت هذا الإنسان عن هذا المكان.

(نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ)

آيات نجاة الإنسان المؤمن من الكرب العظيم:

سأذكّركم ببعض الآيات المشابهة لهذه الآية:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

آية ثالثة:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة الزمر)

ثقة الإنسان برحمة الله و حفظه أساس إيمانه:

هذا كلام يُلقي في قلوبكم الطمأنينة، والبشرى، والثقة بعدالة الله، والثقة بحفظ الله، فالإنسان من دون إيمان يكون تحت أخطار كبيرة جداً، أخطار صحية، في أجهزته وأعضائه، وأخطار في السير، وأخطار حوادث، وقهر أحياناً، وفقر مدقع، فالإنسان بهذا الطريق.

طائرة قبل سنوات ارتطمت بالأرض لخطأٍ في قيادتها، وأحد الركاب الذين أراد الله أن ينجيه لم يستخدم حزام الأمان، وعدم استخدامه هو الذي أنقذه، حالة غريبة جداً، انشقت الطائرة بجانب مقعده، ولو كان مربوطًا لما خرج منها، ألقى بنفسه خارج الطائرة بعد أن وقعت على الأرض، وهناك حالات نجاة عجيبة جداً.. طائرة تطير فوق أوروبا احترقت في السماء، ووقع منها راكب على ارتفاع أربعين ألف قدم، نزلت على غابةٍ في جبال الألب مغطّاة بثلوج سماكتها خمسة أمتار، فخمسة الأمتار مع الأغصان المرنة امتصت هذه الصدمة ونزل على قدميه.. وقبل عامٍ أو أكثر هناك طائرة تطير من جدة إلى دلهي بالهند فيما أعتقد، فأصاب هذه الطائرة خلل في إحدى النوافذ، أمٌ تحمل طفلين صغيرين ولِدا حديثاً، توأمين، فالطائرة مضغوطة ثمانية أمثال، فحينما انفتحت النافذة فجأةً لخلل أصابها، فالطفلان خرجا من النافذة ووقعا في البحر على ارتفاع أربعين ألف قدم، وما بقي واحد إلا وهو أيقن بهلاكهما، وذهبت أمهما إلى بلدها في الهند، ثم جاءتها مذكرة أن ارجعي إلى الخليج لسببٍ ما، وقد ظنت أنها ستُعْطى التعويض، إذا بولديها أمامها، هذان الطفلان الصغيران نزلا إلى جنب صيّاد سمك، فغاص وأنقذهما وأخذهما إلى المستشفى، طفلان، فالله عزّ وجل إذا أراد أن ينجي إنسانًا.

إذا كنت في كل حالٍ معي فعن حمل زادي أنا في غنى

وإذا العناية لاحظتك جفونها نم فالمخاوف كلهـن أمانُ

* * *

قانون الله في الأرض:

أنت يجب أن تثق برحمة الله، وبعدالته، ومحبته لك، فإذا كنت معه كان معك وأنقذك من كل شيءٍ تخافه، طبعاً هذه القصص حادة صارخة، ولكن يوجد آلاف القصص نعيشها جميعاً، فأحياناً شبح مصيبة ينزاح عنك، وأحياناً مشكلة تنجو منها، أو مطب كبير تتفلت منه، أو أحياناً مصاب كبير.

حدثني أخ يدفع زكاة ماله، ومحله مغلق، وقد شعر بضيقٍ شديد ألم به، واليوم يوم عطلة، فركب مركبته واتجه إلى المحل، أول احتراقه، بدأ يحترق الورق، صار في ماس كهربائي، فما الذي أشعره أن اذهب إلى محلك التجاري ؟ قال لي: أوشك كل شيء في المحل أن يحترق ولكن في أول المرحلة، تسمع قصصاً كثيرة جداً، هذه القصص نجاةٌ من الله، وإكرامٌ من الله.

(إِلَّا آَلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (34) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا)

لكن إيّاك أن تتوهم أن هذه قصة، بل هذا قانون.

كشف الله تعالى للإنسان المنحرف و لو بعد حين:

(كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا)

أي سيدنا لوط، وأحياناً بسببٍ من معرفة الإنسان بقانون الله، فالمرابي قد يقال له: إن الله سبحانه وتعالى قد يدمِّر مالك كله، فقد يستهزئ، لكن أنت إذا عرفت قوانين الله عزّ وجل، لا أقول: تعلم الغيب.. حاشا لله.. ولكن أقول لك: يمكن أن تتنبّأ بما سيكون من قبيل معرفة القوانين، فالذي يأكل مالاً حراماً، ربنا سبحانه وتعالى يدمر ماله، والذي يعتدي على أعراض الآخرين، فالآخرون يتعدون على عرضه، والذي يَعُقّ والديه في الأعم الأغلب يعقّه أولادُه، فهناك قوانين ثابتة، وأنت بالقوانين الثابتة يمكن أن تعرف ما سيكون لا من قبيل معرفة الغيب ؟ لا والله ولكن من قبيل معرفة القوانين.

(كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا)

والله عزّ وجل لا يليق بكماله وهو رب العالمين أن يرى عبده منحرفاً وأن يمدّه إلى آخر الطريق، هذا الشيء يتنافى مع ربوبية الله عزّ وجل، وإنسان قوي، وذكي، وظالم، ومنحرف، وكافر، وعاصٍ، وفاجر، وكل شيء بيده، وقد رتّب أموره على نحوٍ يسعده في وهمه، فمثل هذا الإنسان لن تمضي خطته إلى نهايتها، من دون تدخل الإله العظيم فهذا يتناقض مع ربوبيته، ولذلك قال أحدهم: **"عرفت الله من نقض العزائم "**، تكون خطة محكمة جداً جداً، ومدروسة، ومدعمة، ومغطاة، فالله سبحانه وتعالى بسببٍ لم يخطر على بال من أحكمها تنكشف خطته، ويفتضح أمره، ويقع في شر عمله.

مثلاً: إنسان يأتي ببضاعة انتهى مفعولها وحقق أرباحاً طائلة، يضع لصاقة جديدة ويبيعها بشكل مغرٍ وبأسعار معقولة وبإيحاء أنها بضاعة جيدة جداً إلخ، فغش الناس كثيراً، وهو ذكيٌ جداً، فكيف انكشف أمره ؟ نسي في بعض العلب أن يضع اللصاقة الجديدة فوق القديمة، فانكشف أمره، وهذا في بلد آخر، على أثر الغش التجاري ظهر قانون كان فيه قسوة بالغة لأنه غطى انحراف المنحرفين، فإنسان يغش الناس، ويبتز أموالهم، ويبني مجده على أنقاض الآخرين، وحياته على موتهم، وغناه على فقرهم، وتمضي خطته إلى نهايتها !! فهذا يتناقض مع ربوبية الله عزّ وجل.

الإنسان المنحرف تفكيره هازل و ضعيف:

لذلك فالإنسان مهما كان حذراً، ومهما كان قوياً، وحكيماً، ويقظاً، ومستعداً، فمهما غَطّى الأمور، وسد الثغرات، وتوقع الاحتمالات، و أخذ بالأسباب، إن كان منحرفاً لابدّ من أن يدمر لسببٍ تافه، فلو تتبعتم كيف ينهار الإنسان المنحرف تجدون شيئًا عجيباً، مرّ بمخاطر كبيرة جداً ونجا منها، وعند أتفه الأسباب فُضِحَ أمره، فهذا من فعل الله، وهذا بتقدير الله، وبحكمته عزّ وجل.

(وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ)

ومعنى تماروا أي لم يؤمنوا بهذه النذر، بل ناقشوها، وقلّبوها على وجوهها، فرفضوها، واستهزؤوا بها، وطالبوا بالدليل، والدليل لم يعجبهم، فالإنسان المنحرف يتسلى بالمنطق، ولا يفكر تفكيراً جاداً، بل يفكر تفكيراً هازلاً، فهذه المماراة.

أمر الله هو النافذ مهما اعتد الإنسان بنفسه:

(فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (36) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ)

فسيدنا لوط عنده ضيوف كرام، ملائكة بشكل شباب صباح الوجوه، فقوم لوط لما رأوا عنده هؤلاء الشباب صباح الوجوه راودوه عن ضيفه، بل إن بعض القصص المأثورة تروي أن امرأة لوط بلّغت قومها أنه عند زوجها شبابٌ مُرْد، فأقبلوا.

(وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ)

والله عزّ وجل قال:

(فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ)

لم يروا، والله عزّ وجل مهما كان الأمر عصيباً يوقف القلب أحياناً، يموت فجأةً، فمرة قاضٍ (والقصة قديمة قبل خمسين عاماً) متفق مع الخصم على حكم معين وعلى شهادة معينة، وقف على قوس القضاء

فجاءته نوبةٌ قلبية، وهو على القوس، فجاء قاضٍ مكانه فحكم وفق الحق، فالإنسان مهما اعتدّ بنفسه فربنا عزّ وجل أمره هو النافذ. ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ)

وأحياناً الإنسان المُرَبّي إذا وعظ إنساناً آخر وتوعّده بعقابٍ إذا هو فعل كذا وكذا، ففعل ما نهاه عنه وجاء العقاب، فهناك كلمة لابدّ من أن يقولها: ألم أقل لك لا تفعل، ألم أنذرك هذا العقاب الأليم، هذا معنى قوله تعالى:

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

(سورة القمر)

أفعال الله عز وجل تؤيد أوامره:

(وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ)

هم في الليل راودوه عن ضيفه وفي الصباح أرسل الله عليهم حجارةً من السماء فدمرتهم.

(فجعلنا عاليها سافلها)

وليس هذا غريباً علينا، نحن في كل حين نستمع إلى براكين، وإلى زلازل، وإلى صواعق، وإلى فيضانات، وإلى حروب أهلية.

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً)

(سورة الأنعام: آية " 65 ")

(فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ)

فكل إنسان انحرف فهذا الانحراف له ذلك العقاب، ولكن أحياناً يكون عقاباً جماعياً تتناقله الأفواه، وأحياناً كثيرة جداً يكون عقاباً فردياً، فالله عزّ وجل له أمر تكليفي وله أمر تكويني، ففي الأعم الأغلب الأمر التكويني هو ثمرة للأمر التكليفي، فربنا يأمر وينهى، له فعل تكويني هذا أمره التكليفي، وفعله التكويني يكافئ المحسن ويعاقب المسيء، ولو تتبعت الأمر ملياً لوجدت العجب العجاب، ولوجدت فعل الله يُفَسَّر بحفظ المؤمن وتوفيقه والأخذ بيده ونصره، وإسعاده، وإلقاء السكينة على قلبه، وأن فعل الله نفسه ينصب على المنحرف شقاءً، وإخفاقاً، وابتلاءً ومصاباً، فأوامره واضحة وأما أفعاله فتؤيّد أوامره، ولذلك قال العلماء: تأويل الآية الحقيقي وقوع وعدها ووعيدها.

تأويل الآية الحقيقي وقوع وعدها ووعيدها:

لما ربنا عزّ وجل قال:

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران: آية " 130 ")

ما تأويل هذه الآية ؟ حينما يدمر مال المرابي فتدمير ماله أدق تأويلٍ لهذه الآية، ولما يقول ربنا عزّ وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: آية " 97 ")

الحياة الطيبة أوضح تفسيرٍ لهذه الآية، فالحياة الطيبة التي يحياها المؤمن المستقيم هي نفسها تأويل قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً)

والمعيشة الضنك.. إن رأيت بيتًا فيه تفلت، من دون صلاة، ولا انضباط، وفيه اختلاط، ومال حرام، فإن وجدت في هذا البيت كل يوم مشكلة وخصومات عميقة، الزوج والزوجة متخاصمان، والأولاد مشتتون، فهذا البيت قطعة من الجحيم، وهو أوضح تأويل لقوله تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه: آية " 124 ")

ولو رأيت إنسانًا تصدّق ببعض ماله فنما ماله، فهذا أوضح تأويلٍ لقوله تعالى:

(وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

لو رأيت إنساناً نمّى ماله بشكلٍ غير مشروع فدمر الله ماله.

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

وهذا أوضح تأويلٍ لهذه الآية، فالتأويل الحقيقي وقوع الوعد والوعيد وهو أدق تأويلٍ وأفصحه وأوضحه.

أثر ورع الإنسان في الدنيا:

(فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ)

والآن تستنبط مما سأقوله قاعدة يستأنس بها. سألت طبيب أسنان هل مر عليك إنسان ما قلع سنًّا من أسنانه ؟ فذكر لي رجلاً كان من الورع بأنه لم يشرب كأس شايٍ مغلية على سخانةٍ في المدرسة، وعمره ست وثمانون، فالورع أحياناً له أثر كبير، والحياة الطيبة، والصحة الجيدة، والاستقامة، فهذه كلها لها آثار كبيرة، وقد قيل:

((أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

(رواه الطبراني عن ابن عباس)

والعبد يقول:

((يَا رَبِّ، يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ))

(رواه مسلم عن أبي هريرة)

من عاش تقياً عاش قوياً، ولذلك فأعظم تأويل لكتاب الله أن:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

انظر إلى شاب مؤمن مستقيم ورع، وانظر إلى مصيره، وانظر إلى تألقه في الحياة، وإلى التوفيق الذي يصيبه، وإلى سعادته البيتية، وأموره المنتظمة، وانظر إلى منحرف، تجده على النقيض فالمصائب تأتيه من كل جانب، لا يوفق، وليس هو سعيداً في بيته، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه: آية " 124 ")

القرآن الكريم كتاب هداية و منهج للناس جميعاً:

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

القرآن مُيَسّر، وذكرت مراراً أنك إذا أردت أن تفهم كلام الله فكل الناس في خدمتك، ويمكن أن تفهمه، وأن تقرأه، وأن تستمع إليه، و أن تستمع إلى تفسيره، فربنا عزّ وجل يسّره، لأنه كتاب هدايةٍ، ولأنه منهجنا، وطريقنا إلى السعادة، وكتابنا المقرر، وفيه نجاتُنا.

جنود الله في الأرض:

(وَلَقَدْ جَاءَ آَلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ)

والآن خرجنا من الجزيرة إلى إفريقيا، فكل هؤلاء الذين ذكرهم الله عزّ وجل عاشوا في جزيرة العرب، والآن خرجنا إلى قومٍ آخرين.

(وَلَقَدْ جَاءَ آَلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42))

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ(16))

(سورة البروج)

فمثلاً الناس كلهم قلقون إلى درجة غير معقولة من مرض الإيدز، تصور دولاً عظمى بكل إمكاناتها، وهيئاتها العلمية، والأموال ذات الحجوم الفلكية، يقول لك: ثمانمئة ألف كلها موظّفة في البحث العلمي للوصول إلى مادة مضادة لهذا الفيروس، فالعالم كله بخمس قاراته، وهيئاته، وأرقى جامعاته، وبكل إمكاناته، واقفٌ مكتوف اليدين أمام أضعف فيروس على الإطلاق، والإصابات بعد خمس سنوات مقدّرة بمئة وعشرين مليوناً، والآن الإصابات أربعة وثلاثون مليوناً، ويمكن أن توظف ألف مليون دولار، ولم يغير هذا الفيروس شكله، وكلها ذهبت أدراج الرياح، فهذا جندٌ من جنود الله عزّ وجل، والله عنده جنود كثيرة، الزلازل جند، وهذا الفيروس جند، وكل شيء يرسله الله عزّ وجل لحكمةٍ بالغة.

اليقين بحتمية وقوع الإنذار يؤدي إلى الاستقامة:

أيها الإخوة: انتهت القصص التي جاءت تباعاً والتي تؤكد أن الله سبحانه وتعالى يرسل الأنبياء، وينذر، فإن لم يصدّق الأنبياء وإن لم يتبع منهجه ينزل عقابه الأليم، وذكرت في أول الدرس أن الإنسان العاقل يجب أن يتحرى مصداقية هذا الإنذار، وأن يتحرى حتمية وقوع العقاب، فإذا ثبت لديه مصداقية الإنذار وحتمية الوقوع فالعقل يأمره أن يستقيم على أمر الله وإلا أصابه ما أصاب هؤلاء، والآن هذا المعنى جاء بآيةٍ دقيقة، قال تعالى:

(أكفاركم)

يخاطب أهل مكة:

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ)

هل معكم براءة ؟ أم معكم ضمانة ؟ أم معكم دليل على أنكم لن تعذبوا كما عذب هؤلاء ؟

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ)

أي هل أنت من نوع آخر ؟ فالكفر واحد، وملة الكفر واحدة، والمعصية واحدة، والفسق واحد، والفجور واحد، والتكذيب واحد، وفي أي مكان وفي أي زمان الكافر كافر، والمؤمن مؤمن، والمستقيم مستقيم، والمنحرف منحرف، فقال:

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ)

فعلتم ما فعلوا، واقترفتم ما اقترفوا، وعصيتم كما عصوا، وانحرفتم كما انحرفوا، وبغيتم كما بغوا، وظلمتم كما ظلموا.

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ)

فهل معكم ضمانة ؟ أم معكم دليل ؟ أم معكم كتاب سابق نزل من السماء يضمن لكم عدم العذاب ؟

عذاب الدنيا ليس بشيء أمام عذاب الآخرة:

(أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ)

(بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ)

هذه الآية خطيرة جداً، فمعنى إهلاك قوم لوط بحجارة من السماء ليست بشيء أمام ما ينتظرهم من عذابٍ أبدي، وإهلاك قوم فرعون غرقاً ليس بشيء أمام ما ينتظرهم من عذابٍ أبدي، وإهلاك قوم صالح بالصيحة، هؤلاء الأقوام الذي كذبوا فأهلكهم الله عزّ وجل، فحتى هذا الهلاك، و هذا القصم، وهذا العذاب الأليم، وهذا البطش الشديد، إذا قيس بما ينتظرهم من عذابٍ أليمٍ ودائمٍ وأبديٍ ليس بشيء.

كثرة المنحرفين لا تقي من العذاب:

قال:

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44))

والكافر إذا رأى حوله جمعاً غفيراً إذ رأى الناس كلهم كذلك، وكلهم غارقون في الملذّات، يشعر بطمأنينة ناتجة عن كثرة العصاة، ويقول لك: الناس كلهم هكذا، فهل من المعقول أن الكل على غلط ؟ فإذا انحرفوا في أخلاقهم، وبيعهم وشرائهم، وكذبوا، وأكلوا مالاً حراماً، وانغمسوا في الملذات، وتتبعوا البرامج المنحطة، فالكل عنده دش السطوح، فإذا كان المنحرفون قد أصبحوا كثيرين فهل هذا يعفينا من العقاب ؟

(أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ)

عذاب الآخرة إلى أبد الآبدين:

قال:

(بَلِ السّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ)

أدهى من كل ما ذكر، فهذا العذاب ينتهي، ساعة أو ساعتين انتهى، فإذا إنسان ارتكب جريمة قتل، أثناء إعدامه شنقاً فشيء مؤلم جداً، و لكن بربع ساعة ينتهي، فعذاب الاستئصال ينتهي أثره، أما عذاب الآخرة فهذا لا ينتهي.

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

(سورة الزخرف)

إلى أبد الآبدين، هذا معنى قول الله عزّ وجل.

على الإنسان ألا يستأنس بكثرة المنحرفين و أدوات المعصية:

والنقطة الدقيقة الدقيقة إذا وجدت معظم الناس انحرفوا في كسب أموالهم، وعلاقاتهم، وانحرفوا في نزهاتهم واختلاطهم، واقترافهم المعاصي، وفي تتبعهم صرعات العصر، وعمّ هذا كل الناس، هل معنى هذا أنه حق ؟ الحق حق والباطل باطل.

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ)

(سورة الأنعام: آية " 116 ")

فعلى الإنسان ألاّ يستأنس بكثرة المنحرفين، ولا بكثرة أدوات المعصية وهي منتشرة وواسعة.

(أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46))

الموت آخر ألم للمؤمن و أقل ألم للكافر:

هذه الآيات القليلة هي مغزى السورة بكاملها، وكل هذه القصص من أجل هذه الآيات القليلة.

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46))

فهذا كلام خالق البشر ولذلك قالوا: الموت للكافر أهون شيءٍ لما بعده، والموت للمؤمن أصعب شيءٍ لما بعده، وآخر ألم يتألمه المؤمن ساعة النزاع وانتهى في جنةٍ عرضها السماوات والأرض، وحتى إن

القبر روضة من رياض الجنة، فآخر ألم يذوقه المؤمن ألم النزع، **" إن للموت سكرات "** وانتهى، أما أقل ألم يذوقه الكافر فألم النزع، لما بعده.

(بَلِ السّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسّاعَةُ أدْهَى وَأمَرُّ)

ثم يقول الله عزّ وجل في آياتٍ نؤجّله إلى الدرس القادم إن شاء الله تعالى:

(إنّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (47) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسّ سَقَرَ (48))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القمر 054 - الدرس (5-5): تفسير الآيات 47-55
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-12-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون: مع الدرس الخامس والأخير من سورة القمر، ومع الآية الكريمة السابعة والأربعين وهي قوله تعالى:

(إنّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

الخاسر من خسر نفسه و انساق مع شهواته:

المجرم هو الذي أجرم بحق نفسه، والخاسر هو الذي خسر نفسه، والظالم هو الذي ظلم نفسه، وأشد أنواع الظلم أن تظلم نفسك، وأشد أنواع الإجرام أن تجرم بحق نفسك، وأشد أنواع الخسارة أن تخسر نفسك في الأبد الذي خلقك الله له، فهؤلاء المجرمون الذين ما عرفوا الله، وبالمقابل ما طبقوا أمره، ولا ائتمروا، ولا انتهوا، وابتعدوا، وانساقوا مع شهواتهم.

الكافر في ضلال أفكاره مشتتة و أقواله متناقضة:

هؤلاء المجرمون كما قال الله عنهم:

(فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

الضلال هنا والسعر هنا، عقولهم في ضلال، وأفكارهم مشتتة، وتصوراتهم غير صحيحة، وأقوالهم متناقضة، وهدفهم غير واضح، وسر وجودهم غير مُعَرّف لديهم، يعيشون على هامش الحياة، ويتحركون حركة عشوائية، في ضلالٍ، مذهبٌ يأخذهم ومذهب يجلبهم، ويتأرجحون، ويتذبذبون، ويتحركون حركة عشوائية، في ضلال، المؤمن على خلاف ذلك ؛ عرف حقيقة الوجود، فعرف حقيقة الدنيا، وعرف حقيقة نفسه، فعرف سر وجوده، وعرف غاية وجوده، فعرف لماذا جاء الله به إلى الدنيا، عرف أين كان قبل أن يُخْلَق، وما يؤول حاله بعد الموت، وعرف الحكمة البالغة التي خلقه الله من أجلها الإنسان، وعرف الأمانة، والتكليف، والمنهج، والحلال والحرام، والحق والباطل، والخير والشر، وتفاصيل المنهج الإسلامي، في حياته الخاصة، وفي علاقته بزوجته، وعلاقته بجسده، وأهله وأولاده، وفي بيعه وشرائه، وفي كسب المال، و إنفاقه، وفي كل نشاطاته، في لهوه، وفرحه، وحزنه، وعرف الله، فعرف منهجه، فالكافر في ضلالٍ.

المؤمن لا يضل عقله و لا تشقى نفسه:

والمؤمن:

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾

(سورة طه)

لا يضل عقله ولا تشقى نفسه، أما الكافر..

﴿ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾

الآن قلبه ملتهب، في حرقة، يعصره الألم والقلق، والضياع، إنه مشتت، مبعثر، قلق، متشائم، ممزق، فوصف ربنا عزّ وجل جامعٌ مانع.

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾

حياة الكافر خطأ و تشرد و عقاب:

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾

زواجه يشقيه، وبيته قطعة من جهنم، وعمله غير موفّق، وهو في علاقاته غير ناجح، لأنه انحرف عن منهج الله.

أيها الإخوة الكرام: لو أنه من الممكن أن تبتعد عن أصل الله وعن منهج الله عزّ وجل وأن تستقيم أمورك، إذاً لا حاجة إلى الدين، لكن كل إنسانٍ ما عرف الله وما عرف منهجه فلابد من أن ينحرف، ومن لوازم جهله وشروده أن يعتدي، ومن لوازم عدوانه أن يحاسب وأن يعاقب، ولذلك فحياة الإنسان خطأٌ وعقابٌ، وانحرافٌ وعقابٌ، وتشردٌ وعقابٌ.

﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾

صورة قدمتها الآية التالية لكنها رهيبة.

النار مثوى من لا يدخل الآخرة في حساباته:

الآن ائتِ بإنسان وقيّد يديه واربطه من رجليه واسحبه وراء مركبةٍ في أرضٍ وعرة على وجهه، لا يستطيع أن يتلقى الصدمات بيديه، يداه مقيدتان، وهو مربوطٌ من رجليه تسحبه مركبة على أرضٍ وعرة فيها النتوءات، والصخور، والأشواك، والنباتات، فما حال هذا الإنسان ؟ قال:

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾

هذه التي كذّبتم بها، وهذه التي استهزأتم بها، وهذه التي لم تدخلوها في حساباتكم إطلاقاً، دقق في أحوال الناس، يحسب حساباً لكل شيء، ويخطط لكل شيء، فهو يخطط لعشرين عاماً قادمة، ويخطط لأولاد أولاده، إذا بنى مسكناً، فهذا المسكن لا يستهلكه لا هو ولا عشرة أجيال من بعده، يخطط لكل شيء، إلا هذا الذي وعدنا الله به أو توعدنا به أخرجه من حساباته.

(ذُوقُوا مَسّ سَقَرَ)

العاقل من استقام على أمر الله:

لذلك:

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (61))

(سورة النجم)

هذه الحقائق مصيرية متعلقة بمصير كل إنسان، وبسعادته الأبدية، وباستحقاقه دخول الجنة أو دخول النار.

(إِنّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

المؤمنون لا يضل عقلهم ولا تشقى نفوسهم.

(يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسّ سَقَرَ)

فالأولى بالإنسان العاقل أن يأخذ موقفًا واضحاً من هذا الكلام، هذا كلام خالق الأكوان، أعندك شكٌ في أنه ليس كلام الخالق ؟ ائتِ بالدليل، إما أن تأتي بدليل إيجاب، أو بدليل سلب، إن أتيت بالدليل على أنه كلام خالق الكون فيجب ألا تنام الليل، وألا تركن إلى الدنيا، وأن تدقق في كل عملٍ تفعله، لأنّ الله سيحاسبك، إن كنت تعتقد أن الله موجود، ويعلم، وسيحاسب وإن لم تستقم على أمره فلابدّ أن في العقل خللاً.

(ذُوقُوا مَسّ سَقَرَ)

كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ: آية تدل على وجود الله و حكمته:

ثم يقول الله عزّ وجل حقيقةً الكون كله ينطق بها، بل إن هذه الحقيقة تنتظم كل ما في الوجود، وهذه الحقيقة لو درست مئة عام، ولو قرأت كل كتاب، ولو انتسبت لكل الجامعات، لا تفي كل الدراسات بحق هذه الآية، يقول الله عزّ وجل:

(إِنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

كلمة: بقدر دليل وجود الله، ودليل علمه، ودليل حكمته، فمثل بسيط، مفتاح الكهرباء يمكن أن يوضع في أعلى السقف، أو أعلى الحائط، ويمكن أن يوضع على مستوى الأرض، وأن يوضع على ارتفاع مترين ونصف، أو على ارتفاع متر، فإن رأيته في مكانٍ مناسب، في مستوى اليد ألا تستدل من هذا على أن هذا المكان المناسب مقدرٌ تقديراً حكيماً، وأن الذي وضعه في هذا المكان إنسان عاقل، ودرس حاجة المستعمل إليه، فلو جعله في أعلى الحائط لاضطررت إلى استعمال السلم لإطفاء المصباح، ولو جعلته على مستوى الأرض لاضطر صاحب البيت أن ينبطح كي يغلق المصباح، وهذا ليس حكمة، أما حينما تراه في مكان مناسب، وفي تقدير دقيق، فمعنى ذلك أن الذي وضعه في هذا المكان حكيم، فإذا نظرت إلى ما حولك تجد أن كل شيءٍ خلقه الله بقدر، بقدرٍ معجز، أي أن الكون كله مصداقٌ لهذه الآية، وهذه الآية تنتظم الكون كله، وهي أكبر دليلٍ على وجود الله، وعلى حكمته، وعلى قدرته، وعلى خبرته، وعلى علمه.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

القدر دليل على كمال الله و وحدانيته:

أما كلمة:

(كُلَّ شَيْءٍ)

الشيء الصغير بقدر، والشيء الكبير بقدر، والشيء الصامت الجامد بقدر، والشيء المتحرّك، كالحيوان، بقدر، والشيء الذي ينمو، كالنبات، بقدر، والذي يفكر، أي إنسان، بقدر.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

فالساكن والمتحرك بقدر والصامت والناطق والصغير والكبير والحاضر والغائب والمعلوم والمجهول كلها بقدر.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

هذا القدر قدّر حقيقته، وقدر صفته، وقدر مقداره، وقدر زمانه، ومكانه، وعلاقاته، وتأثُّره، وتأثيره.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

ويكاد يكون هذا أكبر دليلٍ على وجود الله وعلى علمه وقدرته وحكمته وكماله ووحدانيته.

إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقدَرٍ:

1 ـ حجم الأرض خلقه تعالى بقدر معين:

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقدَرٍ)

أيها الإخوة: حجم الأرض بقدر، فلو زادت عن حجمها الحقيقي لأصبح وزن الأشياء عليها كبيراً جداً غير محتمل، ولو قل حجمها لكان وزن الأشياء عليها غير محتمل، والدليل أن الإنسان حينما صعد إلى القمر كانت حركته مزعجة جداً، فأية قفزةٍ يرتفع خمسة أمتار، لأن وزنه هناك سدس وزنه على الأرض، ولو كان الإنسان على أرضٍ أكبر من أرضنا بضعفين لكان وزنه ضعفين.

إذاً: حجم الأرض بقدر، ودورتها حول نفسها بقدر، ولو أنها تدور كل ساعة، ساعة ليل، وساعة نهار، فشيء غير معقول وغير محتمل، ولو أن الأرض تدور حول نفسها كل شهرٍ مرةً، لصار النهار شهراً والليل شهراً، ولو أنها تدور حول الشمس كل ألف عامٍ مرةً فالإنسان يرى الربيع فقط، أو الخريف فقط، أو الشتاء فقط، أما دورتها حول نفسها بقدر، وحجمها بقدر، ودورتها حول الشمس بقدر، ومساحة اليابسة الخمس، والمسطحات المائية أربعة أخماس بقدر.

2 ـ الحرارة على الأرض:

الحرارة التي عليها بقدر، من عشر إلى أربعين يحتملها الإنسان، ولو أن الأرض توقفت عن الدوران لأصبح وجهها المقابل للشمس ثلاثمئة وخمسين درجة فوق الصفر، والذي على خلاف الشمس مئتين وسبعين تحت الصفر (أي الصفر المطلق). أما الحرارة فمعقولة، والمياه بقدر، والهواء بقدر، ولو أن الأوكسجين في الهواء زاد عن حده لاحترق كل شيء، فنسبة الأوكسجين بقدر، ويصبح الهواء نافعاً غير ضار.

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقدَرٍ)

3 ـ دوران الأرض حول الشمس خلقه بقدر معين:

الآن دورتها حول الشمس بقدر، وتسير بمدار إهليلجي له قطران، قطر طويل وقطر قصير، فإذا وصلت إلى القطر القصير، فالمسافة قلّت بينها وبين الشمس، فهناك احتمال أن الشمس تجذبها، لذلك تزيد سرعتها زيادةً ينشأ عنها قوةٌ نابذةٌ تكافئ القوة الجاذبة بقدر، فإذا وصلت إلى القطر الأبعد وبقيت

على سرعتها العالية، فهناك احتمالٌ كبير أن تتفلت من جاذبية الشمس فتنطلق إلى الفضاء الخارجي، ولذلك تقل سرعتها هنا ليكون جذب الشمس كافياً لربطها بمداها.

4 ـ ارتفاع سرعة الأرض بقدر معين:

الآن: ارتفاع السرعة بقدر، فلو ارتفعت فجأةً لانهدم كل ما على الأرض، ولو انخفضت فجأةً لانهدم كل ما على الأرض.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

فمحور الأرض مائل بقدر، وهذا الميل نتج عنه الصيف والشتاء والخريف والربيع، ولو كان عمودياً على مستوي الدوران لأُلْغِيَت الفصول !، لكن بقدر.

5 ـ بعد الشمس عن الأرض بقدر:

الآن: الشمس بعدها عن الأرض مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر بقدر، فلو اقتربت لاحترقت، ولو ابتعدت لهلك من عليها، بعدها عن الشمس بقدر، وعن القمر بقدر، وحجم القمر بقدر، والشمس تتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض، بقدر.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

6 ـ الجبال موزعة بقدر معين:

الجبال موزّعة في الأرض توزيعاً دقيقاً جداً حيث إن الجبال تغدو رواسي أن تميد بكم، لئلا تميد بكم، وكيف أنك تضع على العجلة خمسة غراماً أو عشرة غرامات من الرصاص في مكان دقيق جداً من أجل أن لا تميد أثناء الدوران السريع، كذلك الجبال كانت رواسي للأرض لئلا تميد بها.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

7 ـ المد و الجزر خلقه الله تعالى بقدر:

الآن: لو نزلنا إلى الأرض لرأينا الجُزُر في هذه الجزيرة لها مهمة أن تستقطب المنخفضات الجوية، وهذه الصحراء الحارة الهواء عليها ساخن، وإذا سخن الهواء تمدد، وإذا تمدد تخلخل، فالضغط منخفض هنا، والمنطقة القطبية باردة والهواء مكثّف، فالضغط مرتفع، ومن تباين الضغطين تنشأ الرياح من

القطبين إلى خط الاستواء، والأرض إذا دارت صارت الرياح مائلة من الغرب إلى الشرق، رياح غربية تسوق السحب.

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

8 ـ المعصرات خلقها تعالى بقدر معين:

أما بخار الماء، فالهواء يحمله ولكن بقدر، وكل درجة حرارةٍ للهواء تتحمّل كمية من بخار الماء، فإذا قلّت الحرارة تخلّى البخار عن الماء فكانت الأمطار، فهنا سحابة مشحونة ببخار الماء فإذا لامست سحابةٌ باردة انكمش بخار الماء وشكّل قطراتٍ تنعقد على ذرات الغُبار فتكون الأمطار.

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجّاجاً)

(سورة النبأ)

سمّاها الله المعصرات، وكأن قماشاً غمسته في الماء فاحتمل ماءً كثيراً فإذا عصرته نزل منه الماء، وهذه حقيقة نزول الأمطار من السحب المحملة ببخار الماء ثم لامست جبهةً باردةً فتخلّت عن مائها، فانقلب بخار الماء إلى قطرات من الماء فكانت الأمطار.

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

9 ـ النباتات:

أما الآن النباتات، فكل محصول له نظام، فالقمح ينمو في وقتٍ واحد، والمحاصيل تنمو في وقتٍ واحد، وأما الفواكه والثمار والخضار فتنمو في فتراتٍ بعيدة، فثلاثة أشهرٍ حقل البطيخ يعطيك البطيخ كل يوم، وأكثر الخضراوات والفواكه مؤقتة، فتنضج في فترة ما بين شهرٍ أو شهرين، وبإمكانك أن تقطع من ثمار هذه الشجرة لشهرين أو ثلاثة دون أن تصاب بأذى.

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

10 ـ الحيوان:

هذا هو النبات، والبقرة من عالَم الحيوان، تعطيك من الحليب أضعاف ما تأكل، فلو أنها تستهلك من الطعام ما يقابل ثمن الحليب لما ربّى أحد البقر أبداً، ولو أن الدجاجة تعطيك في الشهر بيضة واحدة فلا أحد يربي الدجاج، بل تعطيك كل يومٍ بيضة، ويجب أن يكون إنتاجها أكبر من مصروفها من أجل أن تقتنيها.

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقدَرٍ)

وبعض الشواهد الأخرى من عالم الحيوان والنبات، الجوارح، فالطيور الجوارح التي تتغذّى بصغار الطير عددها قليل، لأنها قليلة التفريخ، تعيش في مواطن خاصة، ولكنها طويلة الأعمار، فلو أن هذه الطيور الجوارح كانت تبيض كثيراً وتفرّخ وتعيش في كل بقاع الأرض لأكلت كل الطيور، ولكن أعمارها طويلة، وأعدادها قليلة، وأماكنها محدودة، وبيضها محدود، وتفريخها محدود.

أما الذباب فيبيض ملايين البويضات لكنه يعيش أسبوعين فقط ويموت، فلو أن الذباب عاش شهرين أو سنتين أو عقدين لغُطِّيَت الأرض كلها بالذباب، فنمط التوالد أيضاً بقدر.

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقدَرٍ)

11 - الميكروبات:

الميكروبات من أكثر مخلوقات الله عدداً، ومن أكثرها توالداً، لكن بالمقابل من أضعفها ؛ فالبرد يقتلها، والحر يقتلها، وحمض المعدة يقتلها، والمصول تقتلها، والهواء وحده يقتلها، فهي من أكثر المخلوقات عدداً ومن أشدها توالداً لكنها ضعيفة جداً، فهناك تناسب.

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقدَرٍ)

والحيّات الصغيرة سمها ناقع، زعاف، وسرعتها كبيرة وسلاحها في الهروب واللدغ، أما الثعابين الكبيرة فسلاحها بقوة عضلاتها، ضعيفة السُمّيَة ولكن عضلاتها قوية.

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقدَرٍ)

وهناك حيوان يدافع عن نفسه بالجري، وحيوان يدافع عن نفسه بالتلوُّن كالحرباء، وبعض الأسماك تطلق صعقة كهربائية أحياناً أربعة آلاف فولط تقتل من حولها، وبعض الأسماك يطلق سحابة سوداء حوله فيغيب عن الأنظار، فكل حيوان له وسيلة للدفاع عن نفسه.

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقدَرٍ)

12 - البويضة في الإنسان:

البويضة في الإنسان بعد أن تلقّح وتتجه نحو الرحم تأكل جدار الرحم، ففيها صفة آكلة اللحوم، وتنغرس في هذا الجدار، بينما تتهتك جدار الرحم في مكان انفصال البويضة، فتصبح وسط بركة من الدم هو غذاؤها.

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقدَرٍ)

13 - طول الحبل السري:

الحبل السري للطفل طوله بحكمةٍ بالغة، ولو كان أكثر طولاً لفسد الغذاء في داخله، ولو كان أقل طولاً لكان الغذاء غير مناسبٍ للطفل، فحبله مناسب جداً.

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقدَرٍ)

14 - تركيب حليب الأم:

وكلكم يعلم أيها الإخوة أن ثدي المرأة بعد الولادة يفرز سائلاً أبيضَ مائلاً إلى الصُفْرَةَ وفيه كل مناعة الأم، وفيه مادةٌ تذيب الشحم الذي داخل أمعاء الطفل، ولذلك هذه المادة تعطيه مناعة الأم وتذيب الشحوم التي داخل الجهاز الهضمي، وفي اليوم التالي يفرز اللبن.

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقدَرٍ)

حليب الأم تتبدّل كميته من بضع كؤوس إلى لتر ونصف إذا نضج، فمن يحدد هذه الكمية.

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقدَرٍ)

تركيب حليب الأم يتبدّل.. وقد تعجبون إنه يتبدل في الرضعة الواحدة، فلو أخذنا الحليب في أول الرضعة لكان ماؤه كثيراً، وفي آخرها قل ماؤه وتركزت فيه المواد الغذائية، فيتبدل تركيب الحليب في رضعةٍ واحدة، وكل يومٍ بحسب نمو الطفل.

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقدَرٍ)

15 - الطحال خلقه الله له نشاطاً معيناً:

الطحال يأخذ الخلايا الكريات الحمراء التي ماتت، يأخذها فيحللها إلى عواملها الأولية، حديد، هيموغلوبين، الحديد يعاد سوقه إلى نقي العظام، ليعاد تصنيعه من جديد والهيموغلوبين يذهب إلى الكبد ليكون الصفراء، وفي الثانية الواحدة يموت اثنان ونصف مليون كرية حمراء، والطحال يأخذ هذه الكريات ويحللها فهو مقبرةٌ لها، والطحال معمل دم احتياطي، فلو تعطّلت مراكز تصنيع الكريات الحمراء في نقي العظام لعمل الطحال كمعملٍ لكريات الدم الحمراء، والطحال مستودع لكريات الدم الحمراء، أعرف شاباً جامعياً في كلية الطب انتهى أجله بسببٍ قد لا يصدّق، أن هذا الطحال عمل بنشاطٍ أكبر مما ينبغي، فصار يأخذ كرية طبية فيقتلها، مات هذا الشاب بسببٍ مرضٍ اسمه فرط نشاط

الطحال، ومعنى ذلك أن كل واحد منا لو اختل توازن الطحال أو عمل أنشط مما ينبغي له لانتهت حياة الإنسان.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

16 ـ نسبة الملح في الدم لها قدر معين:

ونسب الملح في الدم من سبع إلى ثمان بالألف، فلو قلّت أو زادت لمات الإنسان، فتأتي الكلية لتعيّر الملح في الدم، فإن أكلت طعاماً مالحاً فالكلية تطرح الملح الزائد، ولو أكلت طعاماً من دون ملح، فالجسم يأخذ الملح حتى من الفواكه، فإن أكلت الملح الزائد طرحته الكلية لتبقى النسبة سبعة إلى ثمانية بالألف، وإن لم تأكل الملح اشتقته الأجهزة من أي غذاءٍ آخر.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

17 ـ الغدد النخامية خلقها الله بقدر معين:

الغدة النخامية ملكة الغدد، تسيطر على كل الغدد الصمّاء في الجسم، وتفرز اثني عشر هرمونًا، وزنها نصف غرام، ولها إفراز لو تعطل لأمضى الإنسان الوقت كله إلى جانب الصنبور والمرحاض، ليشرب مئات اللترات من الماء وليفرغها في المرحاض، وهي مركز ضبط السوائل في الجسم، ومركز الحرارة في الجسم، ولما يكون الإنسان مضطجعاً ويريد أن ينهض، فلو لم تكن هناك شوارد في الدم تضيّق لمعات الشرايين فإذا وقف الإنسان يقف ويقع، لأنه كان مضطجعاً، فلما وقف بحكم الجاذبية نزل الدم إلى الأسفل، وحصل نقص تروية فأصيب بالدوار فوقع، فحينما يزمع الإنسان أن ينهض فهذه الشوارد تنبه الأوعية وتضيق لمعتها وتبقي الدم محبوساً في القسم الأعلى.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

18 ـ مطابقة العين:

العين، مطابقة العين أمرٌ عجيب، فلو أنك شاهدت سيارةً تجري في الطريق، و أنت تراها بشكلٍ دقيقٍ دقيق في كل أحوالها، والعدسة واحدة، والشبكية واحدة، ولوحة المحرق واحدة، فكيف ينطبع الخيال على المحرق الثابت على العدسة والشيء المرئي متحرك ؟ فمعنى ذلك أن هناك عضلات دقيقة جداً، وحساسة جداً، وعالمة جداً تضغط الجسم البلوري في العين ثلاثة ميكرون من أجل أن يبقى الخيال على الشبكية، فكيفما تحركت السيّارة، أو كيفما تحرّكت الكرة تراها أنت على الشبكية بشكلٍ دقيق، فالمطابقة

التي في العين يعجز عن فهمها الإنسان، بل إن الإنسان حينما يرى ما دون ستين متراً فالعين تجري أدق عملية مطابقة، ولو أنّ الله سبحانه وتعالى أوكل هذه العملية إلى الإنسان لما عرف ماذا يفعل، ولغابت عنه المشاهد والحقائق، فالعين تطابق وأنت لا تشعر.

19 - القلب:

والقلب له مطابقة، فلو أنّ الإنسان خُطِّط قلبه في العناية المشدّدة لرأيت أنّ الإنسان إذا حمل الوسادة ارتفعت نبضات قلبه، على مستوى كيلو، وعلى مستوى عشرين غراماً أحياناً، و مئتي غرام، ورأيت اللوحة تشير إلى التخطيط وعدد ضربات القلب لرأيت فرقاً واضحاً، فالإنسان يمشي، ويجري فترتفع نبضات قلبه، ويصعد الدرج فترتفع، ويبذل جهداً فترتفع، ما هذا المُحَرِّك المتوافق مع الجهود ؟ ليس في عالم الميكانيك محرّك استطاعته متبدِّلة بحسب حمولته، فهذا الشيء غير موجود، لكن قلب الإنسان تتبدّل استطاعته بتبدُّل الجهد المفروض عليه.

(إِنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

أيها الإخوة: عندما يشاهد الإنسان كما تعلمون شيئاً مخيفاً، كيف فالصورة تنتقل إلى العين، وإلى الدماغ، فالدماغ يأمر الغدّة النخامية الملكة بالتصرُّف، والغدّة النخامية تأمر الكَظر، والكظر يأمر القلب برفع نبضاته، ويأمر الأوعية بتضييّق لمعتها، ويأمر الكبد بطرح سكّرٍ في الدم إضافي، ويأمر الكبد بطرح هرمون التجلّط، ويأمر الرئتين برفع وجيبهما، في ثوانٍ معدودة.

(إِنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

20- الأذن:

كيف يمشي الإنسان في الطريق فيستمع إلى صوت بوق سيّارة فينحرف نحو اليمين وهو لا يشعر ماذا فعل ؟ كيف أنّ الصوت وصل إلى الأذنين معاً، فوصل إلى الأولى قبل الثانية بجزء من ألف ومئتين وستمئة وعشرين جزء من الثانية، وعرف الدماغ أن الصوت وصل إلى هنا قبل هنا إذا الصوت من جهة اليمين فيعطي أمراً إلى جهة اليسار.

(إِنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

21 - اللعاب:

والإنسان أحياناً عند طبيب الأسنان إذا كان هناك عمل طويل يضع له أنبوباً يسحب لُعَابَه، لماذا ؟ لأن الإنسان لا يستطيع بلع ريقه إلا إذا أغلق فمه، فما دام الفم مفتوحاً فاللُعاب يتجمّع، ولكن في النوم كيف ينام الإنسان ثماني ساعات أحياناً وفمه مغلق ؟ أين اللُعاب ؟ أين يذهب ؟ كلّما تجمّع اللُعاب في فم النائم أعطى الجسم إشارةً إلى الدماغ، والدماغ يأمر البلعوم ولسان المزمار بفتح طريق المري وإغلاق طريق التنفّس فيبلع الإنسان لُعابَه وهو نائم، وهو لا يشعر.

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقدَرٍ)

حكمة الله من تقلب الإنسان في نومه:

الإنسان وهو نائم هناك هيكل عظمي، وهناك عضلاتٌ تحت الهيكل العظمي، وعضلات فوقه، وزن الهيكل العظمي مع وزن العضلات التي فوق الهيكل العظمي تضغط على العضلات التي هي تحت الهيكل العظمي، فإذا ضغطت عليها فإن الأوعية الدموية تضيق لمعتها، فإذا ضاقت ضَعُفَت التروية، فإذا ضعفت التروية شعر الإنسان بالتنميل، وهو نائم وهناك مراكز ضغط في الجسم تتحسّس فتُبلِّغ الدماغ، والدماغ يأمر العضلات بأن يقلب على الطرف الآخر، وأنت نائم، والإنسان النائم يتقلّب ثماني وثلاثين إلى أربعين مرّة، فلو صوّرنا إنساناً نائماً فإننا نراه يتقلّب من ثمانٍ وثلاثين إلى أربعين مرّة، والله عزّ وجل قال:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف: آية " 18 ")

ومن إعجاز القرآن العلمي، لو أنّ أهل الكهف لم يتقلّبوا لتفسّخوا بعد شهرٍ واحد، فبقوا في كهفهم ثلاثمئة وازدادوا تسعاً، إذاً هذا تقليب الإنسان.

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقدَرٍ)

والله أيها الإخوة: لو أمضيت الوقت كلّه في تأمُّل بديع صنع الله عزّ وجل، في جسمك فقط لما وصلت إلى نتيجة، ولما أحطت بهذه الآيات.

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقدَرٍ)

التفكر و التأمل أساس معرفة الخالق:

قلت قبل قليل: إن هذه الآية تنتظم الكون كلّه، وإن الكون كلّه مصداقٌ لهذه الآية، وأي شيءٍ تراه عينك إنما هو من تقدير حكيم عليم، ولذلك إذا أردت أن تعرف الله فتأمّل في بديع صنعه، وإذا أردت أن تعرفه حقّ المعرفة فتفكّر في خلق السماوات والأرض، وانظر إلى طعامك، قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً (25))

(سورة عبس)

انظر إلى أصلك ممَ خُلِق ؟

(خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ)

(سورة الطارق)

رحمة الله بالإنسان:

خمسمئة مليون حوين تحتاج البويضة إلى حوينٍ واحد، فلماذا تُفرَزُ الحوينات التي عند الرجل إلى آخر أيام حياته ؟ الرجل قد يُنْجِب وهو في الثمانين وفي التسعين، أما المرأة فبويضاتها محدودة فإذا انتهت دخلت في سنّ اليأس.

(إِنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

و لو أنّ امرأةً في التسعين حملت فهذا شيء لا يُحتمَل، ولا يُعقَل، رحمةً بالمرأة، فبويضاتها معدودة تنتهي في الأربعين، أو في الخمسين، أو في السادسة والأربعين وتدخل سنّ اليأس، أما الرجل فغير محدودة.

(إِنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

و الرجل قد يفقِدُ شعره كلّه، لكن المرأة يقلُّ شعرها ولكن لا تفقده كلّياً.

(إِنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

أي أن هناك حِكَمًا بالغة يحتاج الإنسان أن يقف عندها، وعلى كلٍّ فالموضوع طويل، فالأطيار تحتاج إلى درس، والأسماك إلى درس، والجُزُر والخلجان والرؤوس، والأمطار والسُحُب، والرياح كل واحد يحتاج إلى درس، وكل مخلوقٍ لو تأمّلت صنعته ودقّته لعرفت أن الله سبحانه وتعالى.

(قَدّرَ فَهَدَى)

(سورة الأعلى)

بين إرادة الله و أمره لا يوجد وقت أبداً:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50))

(سورة طه)

و لذلك فهذه الآية تعدُّ إحدى الآيات الجامعة في كتاب الله.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (49) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50))

هذا تقريبٌ لنا، لمح البصر يحتاج إلى وقت، أما الله عزّ وجل فالوقت من خلقه، وبين إرادته وأمره ليس هناك زمن إطلاقاً.

(وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ)

أي أن الله عزّ وجل يزلزل أعظم المدن في أربع ثوان، مدينة عريقة، كبيرة، فيها ناطحات سحاب، يمكن بسبع رختر أن تكون منتهية كلها، أكثر من مئة عام شُيّدت فيها الأبنية فتسقط في أربع ثوان، وأغادير أربع ثوان انتهت كلها، فالله عزّ وجل رحيم، خمس وثلاث من عشر في الشام فهذه نعمة لأنه لم يحدث شيء، وفي العقبة سبع واثنتين، أكثر الأبنية فيها تضعضعت، وفي القاهرة ست وثلاث، أما سبع خالصة فعظّم الله أجركم، فما هذه الحياة ؟ كل منجزات الإنسان، وعماراته، وكل شيء بناه بسبع رختر يكون كل هذا منتهياً.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

إنذار الله تعالى للمنغمسين في الملهيات:

هذه الهزّات الخفيفة إنذار مبكِّر، إذا عَمّ الفساد، وانغمس الناس في المُلهيات، وأكلوا الربا، واستباحوا المحرّمات فأقلقهم الله عزّ وجل.

(وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)

مرّة ضربت مثلاً أيها الإخوة هناك رافعات ضخمة في المعامل تقوم على المغنطة، فإذا أُحيطت قطعة حديد كبيرة بوشيعة كهربائية تصبح مغناطيسية، ويمكن لهذه الرافعة أن تحمل عشرة أطنان، ولا يستطيع إنسان مهما كان قوياً أن ينزع منها شيئاً، لكن الذي يعمل على هذه الرافعة لو ضغط الزر الذي يقطع الكهرباء عن هذه الرافعة ربع الميلي فإن كل شيء يقع، فقطع الكهرباء يلغي عمل الرافعة، وهذا مثل تقريبي، فضغط بسيط، عشرة أطنان حديد محمولة ملتصقة بالرافعة، والإنسان مهما كان رياضياً لا يستطيع أن ينزع منها شيئاً، أما العامل الذي على هذه الرافعة فضغطة أقل من عشر الميلي لقطع الكهرباء كل شيء يقع، فكيف بخالق الكون؟

(وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)

كن فيكون زُلْ فيزول.

إهلاك الأقوام السابقة بأفعالهم:

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ)

أي من كان على شاكلتكم، ومن شايعكم، ومن كان مثلكم.

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ)

من قبل، عاد وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب.

(فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (51) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52))

أي في الكتب مسجّل كل شيء فعلوه.

العاقل من يتوب قبل الموت و الحساب الدقيق:

الإنسان يوم القيامة يقول:

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

(سورة الكهف: آية " 49 ")

و الآن يخالف السرعة فتُرسَل له إلى البيت صورة سيارته مع رقمها ملونة ومع التاريخ والسرعة، ويجعلونه يدفع الغرامة، والإنسان يمكنه أن يضبط الحركات، فيقول لك: الطريق مراقب بالرادار، الصالة مراقبة تلفزيونياً، والإنسان مراقب من قِبَل أخيه الإنسان فكيف من قِبَل الواحد الديّان ؟.

(وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ)

ما قولك أن يأتي الإنسان يوم القيامة وأن يشاهد أفعاله كلّها صغيرها وكبيرها، دقيقها وجليلها، بوقتها، وزمنها ومكانها، وملابساتها، ونياتها وكل ما يرافقها أن يراها أمامه معروضةً وينادي الحقّ جلّ جلاله:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

(سورة الإسراء)

فالإنسان إذا أدخل في حسابه اليومي أن كل أعماله مُسَطّرةٌ عليه وسوف يحاسَب عنها لابدّ من أن يستقيم على أمر الله.

تسجيل أعمال الإنسان عليه:

(وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (53))

مسجّل.

(لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)

و الله قال:

(سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا)

(سورة آل عمران: آية " 181 ")

هذه سجّلت عليهم.

نسيان فضل الله على الإنسان كفر به:

هناك كلمات فيها كفر أحياناً، يقول:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: آية " 78 ")

وأناسٌ كثيرون يقولون لك: هذا جهدي، وهذه خبرتي، وهذا كدّي وسَعْيي، وينسى فضل الله عزّ وجل، بدل أن يقول: هذا من توفيق الله، وهذا من فضل الله عليّ.

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: آية " 78 ")

أحدهم في سهرة قال: أنا لن أموت قريباً، فسُئل ما الدليل ؟ قال: لأنني أمشي كثيراً، وآكل قليلاً، وأبذل جهداً، ولا أحمل همّاً، ولا أدَخّن، إنه قال هذا الكلام يوم السبت وفي السبت الذي يليه كان تحت الأرض، واجتمع أصدقاؤه ولم يكن بينهم، فعلى الإنسان ألا يتكلّم كلاماً أكبر من حجمه.

(سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا)

(سورة آل عمران: آية " 181 ")

التوحيد يخفف من المصائب:

طبعاً الإنسان يجب أن يأكل قليلاً، وأن لا يدخّن وأن يبذل جهداً، ولا يتلقّى الأمور بهمّ شديد، فالله المدبّر، والتوحيد يخفّف من وقع المصائب، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد ولكن أن تعتقد أن هذه الأشياء وحدها تطيل العمر فهنا الشرك.

(وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ)

إكرام المؤمنين يوم القيامة إما:

1 - إكرام مادي:

الآية بدأناها.

(إِنّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

والآن الطرف الآخر (طرف المؤمنين) قال:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَهَرٍ)

هؤلاء الذين اتقوا ربهم في الدنيا، وهؤلاء الذين التزموا أمر الله ونهيه، والذين تقرّبوا إليه، وتعرّفوا إليه، وأقبلوا عليه، وذكروه أناء الليل وأطراف النهار، واستقاموا على أمره، وخدموا خلقه، واتقوا أن يعصوه، أو أن يغضبوه، اتقوا سخط الله عزّ وجل.

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَهَرٍ)

هذا النعيم المادي.

2 - إكرام معنوي:

أما المعنوي:

(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

فأحياناً الإنسان يُدْعَى إلى وليمة ويكون ضيف الشرف، فهناك إكرامان: إكرام مادي، وإكرام معنوي، ترحيب منقطع النظير، وتكريم، يوضَع في أفضل مكان، وتُقَدّم له آيات الاحترام والتبجيل، فأحياناً الإنسان يجمع بين التكريم المادي والتكريم الأدبي.

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَهَرٍ)

ماديّاً، أما معنوياً:

(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

مركز المؤمن عند الله كبير:

إن مركز المؤمن عند الله كبير، وقد كان النبي الكريم يدعو ويقول:

((اللهمّ اجعلني في عين نفسي صغيراً وفي عين الناس كبيراً))

وهناك أشخاص عند الله كبراء، وعند أنفسهم صغراء: أهلاً بمن خبّرني جبريل بقدومه:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

(أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك)

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ)

(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

اللهمّ اجعلنا من هؤلاء.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرحمن 055 - الدرس (1-7): تفسير الآيات 1-9
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-12-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الأول من سورة الرحمن.

بسم الله الرحمن الرحيم

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

(سورة الرحمن)

خلق الله تعالى الإنسان ليرحمه و يسعده:

يا أيها الإخوة الكرام: خَلْقُ السماوات والأرض بُنِيَ على الرحمة، قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: آية " 119 ")

الله جلّ جلاله ما خلقنا إلا ليرحمنا، ما خلقنا إلا ليُسعدنا في الدنيا والآخرة، هكذا أراد الله عزّ وجل، الله جلّ جلاله رحمنٌ رحيم، وقد صُدِّرَت هذه السورة بهذا الاسم الكريم الذي يعد اسم الله الأعظم لقوله تعالى:

(قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

(سورة الإسراء: آية " 110 ")

الرحمن اسم الله الأعظم:

الرحمن اسم الله الأعظم، كما أن الله عَلَمٌ على الذّات، الأسماء الحُسنى مجموعةٌ باسم الله فهو علمٌ على الذات واجبٌ الوجود، والرحمن اسمٌ من أسماء الله الحسنى بل هو اسم الله الأعظم في رأي بعض العلماء، فالله سبحانه وتعالى إنما صدّر هذه السورة لأنها في حقيقتها تعدادٌ لنعم الله في الدنيا والآخرة، فأساس هذه النعم رحمة الله جلّ جلاله، فخلقنا ليرحمنا، والآية التي تؤكِّد هذه الحقيقة:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: آية " 119 ")

خلقنا ليرحمنا، خلقنا ليسعدنا، خلقنا ليعطينا، أعطانا الوجود، أعطانا الإمداد، أعطانا الهدى والرشاد.

عبادة الله تعالى ثمن رحمته لنا:

أيها الإخوة الكرام: الله جلّ جلاله خلقنا لنعبده، خلقنا ليرحمنا، ولا يرحمنا إلا إذا عبدناه، العبادة ثَمَنُ الرحمة، إن عبدناه استحقينا رحمته، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام كان يدعو ويقول:

((اللهم إني أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرت))

(أخرجه ابن ماجه عن ابن أبي أوفى)

خُلِقنا ليرحمنا الله عزّ وجل، متى يرحمنا ؟ إذا عبدناه، الدليل:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

جوانب العبادة:

العبادة فيها جانب فكري، فيها جانب سلوكي، فيها جانب جمالي، الجانب الجمالي هو الهدف، والجانب السلوكي هو الثمن، والجانب العلمي هو السبب، تعرفه فتطيعه فيرحمك، الله جلّ جلاله رحمن رحيم، رحمنٌ في ذاته، رحيمٌ في أفعاله،

(كتب على نفسه الرحمة)

كتب على وحيث ما وردت على مع لفظ الجلالة فهي الإلزام الذاتي، كتب على نفسه الرحمة، وأرسل نبيه رحمة مهداةً ونعمةً مُزجاةً، وجعل دينه رحمةً، هو رحمن رحيم، ونبيُّه رحمةٌ مزجاة، ودينه قائمٌ على الرحمة، قال بعض العلماء: **" الشريعة رحمة كلُّها، عدلٌ كلها، صلاحٌ كلها، فأية قضيةٍ خرجت من الرحمة إلى القسوة، ومن الصلاح إلى الفساد، ومن العدل إلى الجَور فليست من الشريعة ولو أدخلت عليها بألف تأويلٍ وتأويل ".**

الرحمة رقة في القلب تستلزم الإحسان:

الرحمة (درسنا اليوم محوره الرحمة) رقةٌ في القلب تستلزم الإحسان والعطاء، رقةٌ في القلب، الرحمة لها مظهر شُعوري، ولها مظهر سلوكي، نظرت إلى يتيم، نظرت إلى فقير، نظرت إلى مُصاب، نظرت إلى جريح، تولّد في قلبك شعورٌ بالعطف عليه، والشفقة عليه، والتأثّر له، هذا الجانب الشعوري، بادرت إلى معاونته، هذا الجانب العملي، فالرحمة إذا وصف بها الإنسان، نقول: رقةٌ في القلب تستلزم التفضُّل والإحسان في حقّ العباد، أما إذا عُزِيَت إلى الله عزّ وجل فالله سبحانه وتعالى تعني رحمته أن يصرف عن عباده السوء وأن يجلب لهم الخير، الله جلّ جلاله في ذاته رحمن، وأفعاله رحيمة.

الرحمة تستدعي مرحوماً، تستدعي مخلوقاً يحتاج إلى الرحمة، والإنسان ضعيف وسر غناه في فقره، وسر قوته في ضعفه، وسر علمه في جهله، فالإنسان كلما افتقر إلى الله عزّ وجل نال من الله العطاء الأوفى، فأنت بافتقارك إلى الله تغدو أقوى الناس، وتغدو أغنى الناس، وتغدو أعلم الناس، وتغدو أحكم الناس، الرحمة تقتضي مرحوماً، والمرحوم لا يستحق الرحمة إلا إذا كان ضعيفاً.

خلق الله الإنسان ضعيفاً ليفتقر في ضعفه فيسعد بافتقاره:

لذلك من حكمة الله جلّ جلاله أنه إذا ساق المصيبة للإنسان من أجل أن يأخذ بيده إليه، من أجل أن يدلّه عليه، من أجل أن يدفعه إلى بابه، من أجل أن يُذيقه طعم جنانه، من أجل أن يذيقه طعم القُرب، طعم الحُب، طعم الطُمأنينة، فالإنسان خُلِقَ ضعيفاً، ولو أنه خُلق قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه، خلقه ضعيفاً ليفتقر في ضعفه فيسعد بافتقاره، فحكمة الله عزّ وجل أن الله إذا أراد أن يعطينا وأن يرحمنا وأن يسعدنا لا بدّ من أن نفتقر إليه، لو خلقنا أقوياء لاستغنينا عنه، لذلك:

(إنّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسّهُ الشّرّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

الإنسان مُصَمّم أن يكون ضعيفاً، وهذا ضعفٌ خَلقِي، وليس ضعفاً خُلُقِيّاً، أراده الله ضعيفاً ليفتقر في ضعفه فيسعد بافتقاره، أراده الله هلوعاً ليلجأ إلى باب الله عزّ وجل، أراده الله جزوعاً..

(إنّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسّهُ الشّرّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

سعادة الإنسان بالإقبال على الله:

العبرة أن تُقبل عليه لأن كل السعادة بالإقبال عليه، والإنسان إذا توهّم أنه بإمكانه أن يَسْعَدَ وهو بعيدٌ عن الله فهو أجهل الجُهلاء..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)

(سورة طه)

(من أعرض عن ذكري)

يستحيل أن تسعد وأنت بعيدٌ عن الله، يستحيل أن تسعد وأنت في معاصيه، يستحيل أن تسعد وأنت مُعْرِضٌ عنه، لذلك ربنا عزّ وجل جعل كل العطاء بالإقبال عليه، وجعل فقرك وضعفك وخوفك سبب إقبالك عليه من أجل أن تسعد، الرحمة التامّة قال: هي إفاضة الخير على المحتاجين، الخير التام.

الرحمة من الله إنعام و من الآدميين رقة:

أيها الإخوة الكرام: لعل الواحد منا يتوهّم أن الله إذا عافاه في صحته وهي نعمةٌ جليلة، وإذا يَسّر له عملاً يرتزق منه، وإذا يَسّر له أهلاً وأولاداً نال نِعَم الدنيا، أجلُّ نعمةٍ على الإطلاق هي نعمة الهداية، لأن الله سبحانه وتعالى يُعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، وأما الآخرة فهي وعدٌ صادق يحكم فيه ملكٌ عادل، لا يُعطي الآخرة إلا لمن يُحِب.

فلذلك الإنسان لا ينبغي أن يطمئن إذا نال من الدنيا ما نال، الاطمئنان لا يكون إلا بمعرفة الله وطاعته، لأن الدنيا عرضٌ زائل، عاريةٌ مستردّة، يأتي الموت فيأخذ كل شيء في ثانيةٍ واحدة، كل مكتسبات الإنسان التي حَصّلها في حياته كلها يستردُّها الموت منه في ثانية واحدة، قد يخرج الإنسان من بيته صباحاً ولا يعود إلا في نَعْش، الموت يأتي فجأةً والقبر صندوق العمل.

أيها الإخوة الكرام: الرحمة من الله إنعامٌ وإفضال، ومن الآدميين رقةٌ وتَعَطُّف، أما الرحمن لا تُطلق إلا على الله وحده، فلا يوجد إنسان رحمن، لكن قال تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوب)

رحمة النبي الكريم أكبر رحمة على الإطلاق:

الرحيم (يوصف الله بالرحمة) وقد يوصف نبيٌّ كريم بأنه رحيم، ومع ذلك قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران: آية " 159 ")

كل هذه الرحمة.. تُعَدُّ رحمة النبي عليه الصلاة والسلام أكبر رحمةٍ في الأرض على الإطلاق، هو أرحم الخلق بالخلق من الخلق، أرحم الخلق بالخلق (رحمة النبي) ومع ذلك:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

لكن ربنا سبحانه وتعالى يقول عن ذاته:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

(سورة الكهف: آية " 58 ")

لكن الرحمن، هذا الاسم مختصٌ بالواحد الديان.

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

تناسب حجم الرحمة مع حجم الإيمان:

ما في إنسان رحمن، أما في إنسان رحيم، ومرةً أردت أن أضرب المثل، أحياناً تصنع طائرةٌ نموذجٌ صغير يلعب به الأطفال، على شكل طائرة كبيرة، هذه اسمها طائرة، والطائرة الكبيرة التي ثمنها ألفا مليون ليرة أيضاً طائرة، ليس بينهما تشابةٌ إلا الاسم فقط، الله عزّ وجل قال:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

رحمته وسعت كل شيء

(رحمتي وسعت كل شيء)

ومع ذلك فرحمة النبي هي أعلى رحمةٍ على الإطلاق، وأكاد أقول أيها الإخوة: إن حجم الرحمة التي في قلبك تتناسب مع حجم إيمانك، كلما ازداد إيمانك وإقبالك على الله ازدادت الرحمة في قلبك، ويكاد القانون ينطق بنفسه..

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ)

الرحمة التي في قلب الإنسان ؛ شفقته على الناس، حبه للخير، رحمته بالضعفاء، رحمته بالمساكين، رحمته بالأيتام، رحمته بالمنحرفين، رحمته بالعاصين، هذا الشعور الذي يَتَوَضَّعُ في قلب المؤمن سببه الاتصال بالله.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ)

الرحمة شعور في القلب و إحسان إلى الخلق:

هذا الشعور الرحيم شعور داخلي يتجسّد بلين مادي، في لين، في عطاء، في ابتسامة، في تسامح، في عفو، في رقة، فالرحمة، مشاعر داخلية وسلوك خارجي، فالمشاعر الداخلية الرحمة، أما الخارجية اللين..

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ)

لو لم يكن في قلبك هذه الرحمة، من لوازم قسوة القلب الغلظة وفظاظة القلب..

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

هذا قانون أيها الإخوة ينطبق على كل مؤمن، أنت رحيم بقدر اتصالك بالله، كلّما اتصلت بالله اتصالاً أوثق سرت إلى قلبك الرحمة، هذه الرحمة شعورٌ في القلب وسلوك إحسانٍ إلى الخلق، لذلك حينما تشعر بمشاعر إنسانية راقية تجاه الخَلق، وحينما تتحرك لخدمتهم يلتَفُّ الناس حولك، لنت لهم.

(فبما رحمة من الله لنت لهم)

فالتفّ الناس من حولك.

غلظة القلب من لوازم القلب القاسي:

(ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك)

إذاً من لوازم القلب القاسي المُعاملة الفَظّة، ومن لوازم غلظة القلب والمعاملة القاسية انفضاض الناس من حولك، من لوازم الرحمة التي تستقر في القلب لين الجانب، من نتائج لين الجانب التفاف الناس من حولك، هذا قانون يسع كل الناس وكل المؤمنين.

الله عز وجل رحمن في الدنيا رحيم في الآخرة:

أيها الإخوة الكرام: قال بعض العلماء: الله سبحانه وتعالى رحمنٌ في الدنيا رحيمٌ بالآخرة، لأن رحمته بالدنيا تشمل المؤمنين والكفار.

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة البقرة)

أيها الإخوة: نحن في الدنيا الأوراق مختلطة، الناس كلهم يأكلون ويشربون، وينامون، ويستيقظون، ويعملون، ويلهون، ويمرَحون، ويتنزّهون، لكن المؤمن المستقيم على أمر الله هو الذي سيتميّزُ بعد عرض الأعمال على الله عزّ وجل، فالإنسان لا يغتر أنه في الدنيا هو كبقية الناس، الناس في الدنيا نحن في دار ابتلاء، نحن في دار عمل، نحن في دار تكليف، لكن الآخرة دار تشريف.

أيها الإخوة: الرحمة في قلب الإنسان علامة اتصاله بالله، وقسوة القلب علامة الانقطاع عن الله، لأن الله رحمنٌ رحيم، وكل من اتصل به نال من هذه الرحمة، إذا نال من هذه الرحمة عامل الناس بالإحسان انطلاقاً من مشاعر الرحمة والرقة في قلبه إذا عاملهم بالإحسان أصبح المجتمع كالبنيان المرصوص يشُدُّ بعضه بعضاً، فإذا انقطعنا عن الله أصبح قلبنا قاسياً، من لوازم القسوة الغلظة والفظاظة، ومع الغلظة والفظاظة التفرُّق والضعف والتشرذُم.

من رحمة الله بالعبد الغافل إرشاده إليه:

أيها الإخوة الكرام: صُدِّرَت هذه السورة بكلمة الرحمن لأن هذه السورة من أولها إلى آخرها تعدد ألوان النعم في الدنيا والآخرة، ولعل كلمة رحمة الله عزّ وجل هي أوسع كلمةٍ تشير إلى عطائه المطلق، قال تعالى:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف)

الإنسان إذا رحمه الله فدلّه عليه، هداه إليه، نوّر قلبه، أعانه على طاعته، قدَرَ على يده الخير، جعل هداية الناس مقدرةً على يديه، أعطاه ليُعطي، أكرمه ليُكرم، هذه أعظم نعمةٍ على الإطلاق، لكن الناس لضعف إيمانهم ولقصور مداركهم يتوهّمون أن العطاء الدنيوي هو رحمة الله عزّ وجل، لذلك نقف عند مشكلةٍ هي أن الإنسان إذا سها ولها ونسي المبتدى والمنتهى وغفل عن الله تقتضي رحمة الله لفته إلى الله، فقد يلتفت إليه بمصيبةٍ أو بحرمانٍ أو بجوعٍ أو بخوفٍ أو بموت ولد أو بتدمير مالٍ، الإنسان حينما يسهو ويلهو وينسى المبتدى والمنتهى ويغفل عن الله عزّ وجل تقتضي رحمة الله عزّ وجل أن ترشده إليه، قال تعالى:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الأنعام)

مصيبة الغافل عين العطاء ليقبل على الله:

هناك أشخاصٌ كثيرون قسَت قلوبهم وانقطعوا عن ربّهم وانغمسوا في شهواتهم، فجاءت رحمة الله لهم على شكل مصيبةٍ استيقظت عقولهم بها وأقبلت نفوسهم على الله فسعدوا بالله أيّما سعادة فكانت هذه المصيبة هي عين العطاء، فلذلك ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك، الله عزّ جل يقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام)

السماوات والأرض كلمة قرآنية أو مصطلح قرآني يشير إلى الكون كله..

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

أول نعمة من الله على الإنسان القرآن الكريم:

في آيةٍ أخرى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً)

(سورة الكهف)

فكما أنه خلق السماوات والأرض أنزل على عبده الكتاب، فالكتاب هو أعظم رحمةٍ على الإطلاق، الإنسان لو كان تائهاً وشارداً وضالاً وبعيداً عن الحق، لو أكل وشرب، لو أكل أطيب الطعام، ولبس أفخر الثياب، وسكن في أجمل القصور، وركِب أحلى المَركبات يأتي الموت فيأخذه من كل ذلك، إذاً ليست هذه النعمة، النعمة أن تعرف الله عزّ وجل، لذلك أول نعمةٍ على الإطلاق..

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

بل إن بعض المفسِّرين يتساءل: كيف يُعَلِّمُ الإنسان القرآن قبل أن يُخْلَق قال:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

الحقيقة تقديم تعليم القرآن على خلق الإنسان تقديمٌ رُتَبي لا تقديماً زمنياً، في تقديم زمني وتقديم رتبي، أي أن وجود الإنسان لا معنى له من دون منهج يسير عليه، سر سعادة المؤمن هذا الكتاب الذي عرّفكَ بربك، وعرّفك بسر وجودك، وعرفك بغاية وجودك، وعرفك بالمنهج التفصيلي افعل ولا تفعل، وعرّفك طريق السعادة وطريق الشقاء، طريق الفوز وطريق الهلاك، طريق النجاة وطريق السقوط.

معرفة الله عز وجل مقدمة على خلق الإنسان:

لذلك:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

هذا القرآن الكريم من لوازم رحمة الله عزّ وجل، إنه مقدّمٌ على خلق الإنسان، مقدمٌ على الماديّات في حياة الإنسان، أنت تأكل وتشرب وتنام وبجيبك مال وعندك زوجة وأولاد، أن تعرف الله عزّ وجل هذا مقدمٌ على خَلَق الإنسان، نعمة الهداية أعظم من أية نعمةٍ على الإطلاق، لذلك حينما قال الله عزّ وجل:

(وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة المائدة)

قالوا: تمام النعمة الهُدى، فالإنسان لا يُسَمِّي نفسه في نعمٍ كثيرة إلا إذا كان مهتدياً إلى الله، لذلك ورد في سورةٍ من سوَر القرآن **(سورة الفجر)**، قال تعالى:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

(سورة الفجر)

الجواب:

(كَلَّا)

الحظوظ التي ينالها الإنسان ابتلاءات موقوفة على طريقة توظيفها:

الإنسان أحياناً يتوهَّم أن الله إذا أعطاه المال والصِحّة فهذا إكرام، أو أن الله عزّ وجل إذا حرمه المال قَدَرَ عليه رزقه، أو جعله مريضاً فقد أهانه، الله عزّ وجل قال:

(كَلَّا)

وكلا أداة ردع ونفي، أي: أيها العباد أنتم واهمون، ليس عطائي إكراماً وليس حرماني إهانة، إنّ عطائي هو ابتلاء وحرماني دواء، لذلك أيها الإخوة الحظوظ التي تنالها من الله ليست نعماً وليست نقماً إنها موقوفةٌ على طريقة التعامل معها، الحظوظ مطلقة ؛ حظ المال، وحظ الوسامة، وحظ القوة، وحظ الذكاء، كل الحظوظ التي نلتها من الله هذه ليست نعماً وليست نقماً إنما هي ابتلاءاتٌ موقوفة على طريقة توظيفها، فإذا وظِّفَت في الخير كانت نعماً، وإن وظِفت في الشر كانت نقماً، فالإنسان المؤمن لا يهتم بمقدار الحظ بقدر ما يهتم بطريقة توظيفه، هذا المال ماذا فعلت به ؟ يمكن أن يرقى الإنسان بالمال إلى أعلى عليين ويمكن أن يسقط إلى أسفل سافلين.

أرقى أنواع الجهاد تعلم القرآن الكريم:

أيها الإخوة الكرام:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

من تعلّم القرآن فقد نال خيراً كثيراً لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

(أخرجه البخاري عن عثمان)

وهل تصدقون أن الله سبحانه وتعالى جعل تعلُّم القرآن وتعليمه من أرقى أنواع الجهاد بدليل الآية الكريمة:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

(سورة الفرقان)

حينما تعكف على فهم كلام الله، وحينما تَعكف على قراءة كلام الله، وحينما تعكف على حِفظ كلام الله، وحينما تتبصّر بمدلولات كلام الله، وحينما تنقل هذه المعاني إلى الآخرين فأنت تجاهد أعظم جهادٍ ذكره الله عزّ وجل، لقد وصف الجهاد بأنه كبير.

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

تعلُّم القرآن يعفي المؤمن من الوقوع في الخرف:

هناك بشارةٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول عليه الصلاة والسلام:

((ومن جمع القرآن متعه الله بعقله حتى يموت))

(الجامع الصغير عن أنس)

فالله سبحانه وتعالى جعل تعلُّم القرآن وتعليمه ضماناً من الخرف الذي وصفه الله عزّ وجل في آياتٍ كثيرة قال:

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

(سورة النحل)

هذا الحال الخرف أو مرحلة أرذل العمر هذه لعل الله سبحانه وتعالى يُعفي المؤمن منها ويحفظه من الوقوع فيها.

نعم الله على الإنسان:

يوجد سؤال قد يتبادر في الذهن: لما لم يقل الله عزّ وجل:

(الرحمن علّم القرآن وخلق الإنسان وعلمه البيان)

لو أضفنا (الواوات) حروف العطف بين هذه الآيات لتوهّمنا أن كل هذه النعم نعمةٌ واحدة، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبيّن لنا أن كل واحدةٍ نعمةٌ قائمةٌ بذاتها، علّم القرآن أكبر نعمةٍ على الإطلاق أن يكون القرآن ربيع قلبك وجلاء هَمّك، أن تَشْتَقّ عقيدتك من كتاب الله، أن تكون تصوراتك وفق كتاب الله، أن تكون موازينك وفق كتاب الله، أن يكون منهجك مستنبطٌ من كتاب الله، هذه أعظم نعمةٍ على الإطلاق، لذلك القرآن وحده أكبر نعمة، ثم وجودك نعمة، لماذا أمر الله سبحانه وتعالى الأبناء ببرّ الوالدين ؟ لأن الله سبحانه وتعالى جعل الأب والأم سبب وجودك، فنعمة الإيجاد نعمةٌ كبيرة فالذي كان سبب هذا الوجود يجب أن يتلقى منك رحمة كثيرة..

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلّا تَعْبُدُوا إِلّا إِيّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمّا يَبْلُغَنّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً)

نعمة البيان أجل نعمة على الإطلاق:

نعمة الخلق خَلَقَ الإنسان (أوجدك)، ونعمة الهداية هداك إليه، الإيجاد والهدى والرشاد وهناك نعمة ثالثة قلّما ينتبه إليها الناس نعمة البيان، البيان خصيصة خَصّ الله بها الإنسان، أنت بإمكانك أن تعبّر عن أفكارك، وعن مشاعرك، وعن حاجاتك، وعن طلباتك بكلماتٍ مقطعيةٍ تصنعها حبالك الصوتية اصطلح الناس على مفهوماتها، فاللغة أعظم خصيصةٍ من خصائص الإنسان.
تصور طفلاً يتألم من شيء، يبكي ساعاتٍ طويلة، دون أن يستطيع أن يعبّر عن سبب بكائه، تتوهّم أمه أنه جائع تطعمه فيبكي، تتوهم أمه أنه يحتاج إلى تنظيف تنظفه ويبكي، ثم تكتشف أن دبوساً في طرف ثيابه قد انغرس في جنبه، أما الإنسان الراشد يقول لك: أشعر بشيء. فهذا التعبير عن الحاجة، التعبير عن أفكارك، عن مشاعرك، هذه نعمة البيان، من خلال البيان يمكن أن تتعرّف إلى منهج الله، من خلال البيان يمكن أن تعرف قدر النبي عليه الصلاة والسلام، من خلال البيان يمكن أن تقف أمام بطولاتٍ فذّة في التاريخ الإسلامي، من خلال البيان يمكن أن تقف على علوم السابقين.

خصائص البيان:

البيان الذي عناه الله عزّ وجل له أربع خصائص ؛ بيانٌ مكتوب، وبيانٌ مقروء، وبيانٌ مسموع، وبيانٌ مقول، تقول ويسمع الآخرون، تكتب ويقرأ الآخرون، لو دققنا أيها الإخوة في كيفية أن الأجيال تتعلم من بعضها بعضاً، أن كل جيلٍ يُقَدِّمُ علومه كلها للجيل القادم، وأن كل أمةٍ تُعطي ثقافتها لبقية الأمَم، لولا البيان لما أمكن نقل هذه المعارف، البشرية الآن تنعم بعلوم متراكمة من آلاف السنين بفضل البيان، تصوّر إنساناً بلا بيان لا يتكلّم أو لا يسمع أو لا يكتب أو لا يقرأ انقطع عن العلم صار كالبهيمة تماماً.

من نعم الله على الإنسان:

1 ـ نعمة الهداية:

الله عزّ وجل في مطلع هذه السورة أشار إلى ثلاث نعمٍ جليلة النعمة الأولى أنّه هداك إليه، هذه قُدِّمَت رتبةً على بقية النِعَم.

2 ـ نعمة الوجود:

والنعمة الثانية أنه أوجدك (أعطاك نعمة الوجود).

3 ـ نعمة البيان:

النعمة الثالثة أنه علّمك البيان، أنت بإمكانك أن تسأل وأن تأخذ الجواب، بإمكانك أن تتكلم وأن تنشر العلم، فهذه النعمة أجل نعمةٍ على الإطلاق، لكن الناس والمشكلة الكبيرة أن هذا البيان الذي جعله الله أساس سعادة الإنسان فبه يعرف الله، وبه يعرف منهجه، وبه يهتدي، وبه يهدي، هذا البيان قد يكون سُلّماً يهوي به إلى أسفل سافلين، فالإنسان بالغيبة، وبالنميمة، وبالسُخرية وبالكذب، يهوي بهذه الكلمات التي هي من البيان إلى أسفل سافلين، فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إِنّ الرّجُلَ لَيَتَكَلّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يُلْقِي لَهَا بَالا يَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنّمَ وَإِنّ الرّجُلَ لَيَتَكَلّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يُلْقِي لَهَا بَالا يَرْفَعُهُ اللّهُ بِهَا فِي الْجَنّةِ))

(من موطأ مالك عن أبي هريرة)

حرص الإنسان على لسانه لأن اللسان سبب الهلاك:

أكثر المسلمين اليوم يرون الكبائر في القتل و الزنا و شرب الخمر مع أن الغيبة من الكبائر، مع أن النميمة من الكبائر، فدققوا في موضوع أن كل شيء خلقه الله حيادي قابل للخير والشر، لأن الإنسان في الأساس مخيّر، طبيعة الحياة الدنيا أساسها الاختيار، فالبيان أعظم نعمةٍ على الإطلاق بها تهتدي إلى الله، بها تتعرّف إليه، بها تعرف منهجه، بها تعرّف الناس بالله، بها تُلقي الحق، بها تنتقل الثقافات من أمةٍ إلى أمة، من جيلٍ إلى جيل، البيان المسموع والمقروء والمُلقى والمكتوب، هذا البيان هو نفسه يُمكن أن يكون سبب الهلاك، سبب الشقاء، سبب التردِّي، فلذلك المؤمن يَحْرَصُ على سلامة لسانه حرصه على إيمانه، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ وَلا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنّةَ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

(مسند أحمد عن أنس بن مالك)

وحينما قالت السيدة عائشة عن أختها صفيّة: إنها قصيرة، قال عليه الصلاة والسلام:

((يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مزجت بمياه البحر لأفسدته))

(أبو داود)

البيان سبب سعادة الإنسان أو شقائه:

أنا أُذكّرُكُم بالجانب الآخر كيف أن البيان يرقى بك، به تسعد، وبه ترقى، وبه تعرف الله، وبه تهدي الناس، وبه تهتدي، هذا البيان الذي منحنا الله إياه يُمكن أن يكون في الوقت نفسه سبب شقائنا، وسبب تردّينا، وسبب تمزُّقنا، فالغيبة، والنميمة، والبُهتان، والإفك، والكذب، والفجور، والسُخرية، هذه كلها من آفات اللسان، فطوبى لمن صان لسانه عن كلّ انحراف وجعل من البيان نعمة كبرى، نحن في هذه الآيات الثلاث أمام أعظم نِعَم على الإطلاق، نعمة الهُدى، ونعمة الوجود، ونعمة العلم (النقل) تتعلّم وتُعَلِم، تُلقي أفكارك وتأخذ أفكار الآخرين، تُلقي مشاعرك وتَطّلع على مشاعر الآخرين..

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

أيها الإخوة الكرام: الأساس الصامت في سلام، والمتكلِم إما له وإما عليه، فالأصل أن تقول حقاً، أما السكوت عن قول الباطل هو الأولى، لكن الأصل أن ينطق اللسان بالحق، وأن تكون دالاً على الله مشيراً إليه، لكن حينما يكون الكلام غيبة أو نميمة فالأصل أن تسكت.

آياتٍ الله الدالة على عظمته و وجوده:

1- الشمس و القمر:

أيها الإخوة الكرام: ثم يشير الله جلّ جلاله إلى آياتٍ دالةٍ على وجوده أيضاً قال:

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

(سورة الرحمن)

أي أن الشمس والقمر آيتان دالّتان على عظمة الله، قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت: آية " 37 ")

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الشورى: آية " 29 ")

فالشمس من آيات الله الدالة على عظمته، تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، طول بعض ألسنة اللّهب فيها مليون كيلو متر، حرارتها على السطح ستة آلاف درجة، في مركزها عشرين مليون درجة، لو أن الأرض أُلقيت فيها لتبخّرت في ثانيةٍ واحدة، تتسع الشمس لمليون وثلاثمئة ألف أرض في جوفها، وبين الأرض والشمس مئة وستةٌ وخمسون مليون كيلو متر يقطعها الضوء في ثماني دقائق.

2 ـ دوران الأرض حول نفسها:

لولا أن الأرض تدور حول نفسها لأهلكتنا هذه الشمس لكن الله هو اللطيف، فبدورتها حول نفسها تغدو الحرارة معقولةً، لو أن الأرض توقفت لكانت حرارة وجهها المقابل للشمس ثلاثمئة وخمسين درجة فوق الصفر، ولكانت حرارة الوجه الآخر مئتين وسبعين درجة تحت الصفر، لكن الأرض تدور فلو أنها تدور على محور يوازي مستوى دورانها لتوقفت، وأصبح الليل دائماً والنهار دائماً، لكنها تدور على محور مائل، وميل هذا المحور سبب الفصول الأربعة، هذا كله من آيات الله الدالة على عظمته، وقد ذكرت لكم كثيراً أن في بُرج العقرب نجماً أحمر اللون صغيراً متألقاً اسمه قلب العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما.

3 ـ دوران الأرض حول الشمس:

ثم إن الشمس والأرض، الأرض تدور حول الشمس بمسارٍ إهليلجي، والمسار الإهليلجي أو الشكل البيضوي، له قطران قطر أصغر وقطر أكبر، الأرض إذا وصلت إلى القطر الأصغر اقتربت من الشمس، لئلا تجذبها الشمس فتنتهي الحياة من على سطحها تزيد الأرض من سرعتها زيادةً ينشأ عنها قوةٌ نابذةٌ تكافئ القوة الجاذبة، وحينما تصل الأرض إلى المسافة البعيدة إلى القطر الأعظم بينها وبين الشمس، تقِلُّ سرعتها فلو بقيت على سرعتها الكثيرة لتفلّتت من مسارها حول الشمس، فهنا تُسرع وهنا تُبطئ، وقال العلماء (علماء الرياضيات والفلك): إن تسارعها بطيء وتباطؤها بطيء، أي أن في زمنٍ طويل ترتفع سرعتها من درجة دُنيا إلى درجة عُليا، وفي زمنٍ طويل تنخفض سرعتها من درجة عليا إلى درجة دنيا، ولو أن هذه السرعة ارتفعت فجأةً أو انخفضت فجأةً لتحطم كل شيء على الأرض، كما لو وضعت عُلباً في سيّارة وأقلعت بسرعةٍ فيها، كل ما على السيارة من عُلَب يقع، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

أي أن المسافات محسوبةٌ بدقة، الحجوم محسوبةٌ بدقة، سرعة الدوران للأرض حول نفسها محسوبةٌ بدقة، سرعة الدوران حول الشمس محسوبةٌ بدقة، جذب الشمس للأرض محسوبةٌ بدقة.

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

الكون أوسع وأقصر طريقٍ لمعرفة الخالق:

أيها الإخوة الكرام: يكاد الكون يكون أوسع بابٍ لمعرفة الله وأقصر طريقٍ إليه، فكلّما تأمّلت في خلق السماوات والأرض ازددت معرفةً بالله ووقفت وجهاً لوجهٍ أمام عظمة الله، الآية الكريمة:

(إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ)

(سورة آل عمران)

الآيات الكونية دليل لاهتداء الإنسان إلى الله:

أيها الإخوة الكرام: نحن أمام أربع نعمٍ جليلة ؛ نعمة الوجود، ونعمة المَنهج، ونعمة الاهتداء إلى المنهج.

(الرّحْمَنُ (1) عَلّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلّمَهُ الْبَيَانَ)

ثم إذا أردت أن تعرف الله فالكون كلّه يدلُّ عليه، والكون كله يجسِّد أسماء الله الحسنى وصفاته الفُضلى، والله سبحانه وتعالى مع أنه لا تدركه الأبصار لكن العقول تصل إليه وتتعرّف إليه، وحينما يذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم آياتٍ كونيةً فالمراد منها أن نتفكّر بها وأن نتعَرّف إليها وأن تكون دليلاً إلى الله عزّ وجل نهتدي بها.

المخلوقات جميعها تفتقر في وجودها إلى الله:

في درسٍ آخر إن شاء الله تعالى يقول الله عزّ وجل:

(وَالنّجْمُ وَالشّجَرُ يَسْجُدَانِ (6) وَالسّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

النَجْم والشجر، النبات الصغير والنبات الكبير مفتقرٌ في وجوده وفي استمرار وجوده إلى الله، أدق المخلوقات وأعظم المخلوقات افتقاره إلى الله عزّ وجل واحد.

التوافق الكبير بين مبادئ الكون و مبادئ العقل:

(وَالسّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

قال بعض علماء التفسير: **الميزان هو العقل وهو أداة معرفة الله**، وهناك توافقٌ دقيق بين مبادئ الكون وبين مبادئ العقل، ففي الكون كل شيء له سبب والعقل لا يفهم شيئاً بلا سبب، وفي الكون كل شيءٍ له غاية ومن مبادئ العقل أنه لا يفهم شيئاً بلا غاية، والكون لا يقبل التناقض كما أن العقل لا يقبل التناقض، فهناك تناسبٌ وتوافقٌ بين خلق السماوات والأرض، وبين هذا العقل الذي أودعه الله فينا وجعله أداةً لمعرفة الله، لكنه ميزان إلا أن الشريعة ميزانٌ على الميزان، الحَسَنُ ما حَسَّنَهُ الشرع والقبيح ما قبَّحَهُ الشرع، العقل قد يضل وقد يَزل وقد ينحرف، الضابط له هو الشريعة، والفطرة قد تنطمس، الضابط لها هي الشريعة.

العاقل من يستعمل عقله كما أراد الله عز وجل:

الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

والخطأ الكبير أن يكون الخطأ في الميزان لا أن يكون الخطأ في الوَزن، وفرقٌ كبير بين الخطأ في الوزن وبين الخطأ في الميزان، الخطأ في الميزان يتكرّر إلى أبد الآبدين، أما الخطأ في الوزن لا يتكرر، فالإنسان حينما يُعطيه الله عقلاً عليه أن يستعمله، والإنسان لا يندم ولا يفاجأ إلا لضعفٍ في عقله أو لعدم استعماله كما أراد الله عزّ وجل، هذه قاعدة، أنت لا تفاجأ ولا تندم في حالة استعمال العقل كما أراد الله عزّ وجل، لكن في حالة عدم استعمال العقل أو حالة ضعف العقل قد تفاجأ وقد تندم، والذكي والعاقل هو الذي لا يفاجأ ولا يندم، قال عليه الصلاة والسلام:

((الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني))

(أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم، عن شداد بن أوس)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرحمن 055 - الدرس (2-7): تفسير الآيات1-8

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-12-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الثاني من سورة الرحمن.

بسم الله الرحمن الرحيم

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

سورة الرحمن حديث عن نعم الله العظمى:

ذكرت في الدرس الماضي أن الله سبحانه وتعالى أسماؤه حُسنى وصفاتُه فُضلى، والرحمن اسمٌ جامعٌ لمعظم أسماء الله تعالى، فهذا الكون خُلِقَ من أجل الرحمة، وخلق الله الإنسان ليرحمه، وخلقه لجنةٍ عرضها السماوات والأرض، وإذا بدا للإنسان شيءٌ في توهُّمه خلاف الرحمة فهو في الحقيقة رحمة باطلة، لأن الله سبحانه وتعالى كلُّ أفعاله تنطلق من حرصه على سلامة الإنسان وعلى سعادته..

(الرَّحْمَنُ)

لأن هذه السورة في كل آياتها وتفاصيلها حديثٌ عن نعم الله العُظمى، فالرحمن مصدر كل خير ومصدر كل رحمة، وما من رحمةٍ في الأرض إلا مشتقة من الله عزّ وجل، ولعل من أعظم هذه الرَحَمات هذا الكتاب الكريم الذي بين أيدينا.

نعمة الهداية من أعظم النعم التي وهبها الله للإنسان:

هذا الكتاب الكريم سبب سعادة الدنيا والآخرة، أما النعم المادية من طعامٍ وشراب هذه نعمٌ تنتهي عند الموت، أما هذا الكتاب إذا قرأناه وفهمنا مضمونه واتبعنا أحكامه فهو سبب سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، فالنعمة التي تنقضي عند الموت نعمة، لكنها إذا قيست بنعمةٍ تبدأ بعد الموت وإلى أبد الآبدين فهذه النعمة العُظمى، لذلك تُعَدُّ نعمة الهداية أعظم النعم على الإطلاق، فأن نأكل، وأن نشرب، أن نتنفّس، وأن ننام، وأن نتزوّج، وأن ننجب الأولاد، وأن نستمتع بمباهج الدنيا هذه كلها نعمٌ ولا شك، ولكن هذه النعم تنتهي عند الموت تنقطع انقطاعاً حاداً، بينما إذا عرف الإنسان ربّه من خلال هذا القرآن الكريم الذي هو وحي السماء إلى الأرض، الذي في هذا القرآن الكريم نواميس ربنا عزّ وجل (قوانينه)

فحينما تقرأ كتاب الله عزّ وجل ينوّر قلبك ويبصر عقلك، فلذلك ربنا عزّ وجل بدأ هذه السورة باسمه الرحمن.

أولى عطاءات الله للإنسان:

1 ـ القرآن الكريم:

من أولى عطاءاته التي هي سبب أساس رحمته هذا القرآن الكريم.

(الرّحْمَنُ (1) عَلّمَ الْقُرْآنَ)

معنى علّمه أي أنزله بلسانٍ عربيّ مبين، معنى علّمه أي يَسّرَ ذكره، معنى عَلّمه أي ألقى في روع رجالٍ كثيرين عَبْرَ العصور أن يقفوا على دراسته، وتلاوته، وتفسيره، وحفظه، والعناية به، فعلّمه أي يَسّره للتعليم، علّمه أي بينه وجعله قطعي الثبوت، فالإنسان إذا قرأ القرآن يطمئن، هذا الذي أُنزل على النبي صلى الله عليه وسلم هو نفسه الذي بين أيدينا لأن الله جلّ جلاله تولّى في عليائه حفظ هذا القرآن، فأنت مطمئن لكنك مع أي كتابٍ آخر لست مطمئناً، لست متأكداً ما إذا كان هذا النَصُ هو الأصلي أم أصابه تحريفٌ وتبديل، إن هذا القرآن الكريم قطعي الثبوت وقد نُقِلَ إلينا بالتواتر عن الجمع الغفير إلى الجمع الغفير إلى أيامنا هذه.

عَلّمَ الْقُرْآنَ آية لها معاني عدة:

1 ـ إنزاله بلسان عربي مبين:

(عَلّمَ الْقُرْآنَ)

2 ـ حفظه من أي تحريف:

حفِظه.

(عَلّمَ الْقُرْآنَ)

3 ـ تيسير ذكره: يسره.

(عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

4 ـ جعل تعلمه و تعليمه من أعلى المراتب:

أثاب عليه.

(عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

أي جعل تعلُّمَه وتعليمه من أعلى المراتب البشرية لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

(من صحيح البخاري: عن " عثمان ")

علّم القرآن، لذلك هذا الكتاب هو الكتاب المقرر فيه نبأ من قبلنا وخبر من بعدنا، فيه الحلال، فيه الحرام، فيه الخير، فيه نهيٌّ عن طريق الشر، فيه نبأ الأقوام السابقين، فيه مستقبل البشرية، فيه الماضي السحيق، فيه المستقبل البعيد، فيه وصفٌ للجنة والنار.

القرآن سر نجاح الإنسان في حياته :

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

القرآن كتابنا المُقرر وهو غنىً لا فقر بعده ولا غنىً دونه، القرآن ربيع القلوب، القرآن منهج الحياة، القرآن سِرٌّ نجاح الإنسان في حياته لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: آية " 9 ")

في أي مجالٍ طبّقته يهديك للتي هي أقوم، طبّقه على زواجك ينجح زواجك، طبّق أحكامه على تجارتك تنجح تجارتك، طبّق أحكامه على علاقاتك تنجح علاقاتك.

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

القرآن الكريم قانون الله في الأرض:

إن هذا القرآن إن قرأته وتدبّرته وعملت به لا يضل عقلك ولا تشقى نفسك، عقلك يستنير ونفسك تسعد.

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

هو أجلُّ نعمةٌ على الإطلاق، الله سبحانه وتعالى من أسمائه العُظمى اسم الله الأعظم هو الرحمن ومن أجَلِّ نعمه التي هي إحدى ثمرات رحمته هذا القرآن، أي أن الله عزّ وجل خلق ونوّر، خلق وأرشد، خلق وبيّن، وحي السماء إلى الأرض، ناموس الله عزّ وجل، قوانينه في هذا الكتاب:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

القرآن الكريم سر سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

أي علّمه، يسّره، بيّنه، وضّحه، أثاب عليه، رد الفعل أقبل عليه، أقبل عليه تلاوةً، أقبل عليه حفظاً، أقبل عليه فهماً، أقبل عليه تطبيقاً، حينما قال الله عزّ وجل، وصف المؤمنين بأنّهم:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ)

(سورة البقرة: آية " 121 ")

أي يتلونه وَفْقَ أحكامه الصحيحة، ويفهمون معانيه، ويعملون بأحكامه، وحينما تُطَبّقُ هذا القرآن تسعد به وهو سر نجاح الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة.

2 ـ نعمة الوجود:

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

(سورة الرحمن: آية " 3 ")

أي نحن بعقولنا ربما نوازن بين شيءٍ وشيء، بين بيتٍ وبيت، بين عملٍ وعمل، تجارةٍ وتجارة، صديقٍ وصديق، لكن عقولنا ليست مؤهلة للموازنة بين الوجود والعدم، فالله سبحانه وتعالى امتنّ علينا بنعمة الوجود، نحن جميعاً موجودون، والدليل: أنه في وقتٍ مضى لم نكن شيئاً مذكوراً إطلاقاً.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

(سورة الإنسان)

فهذه النعمة (نعمة الوجود) خلَقَ الإنسان، امتن عليك بنعمة الوجود، خلق الإنسان وسخّر له الكون، منحه نعمة العقل، أعطاه فطرةً سليمة، أنزل على أنبيائه الشرائع، أنزل على نبيّه الكريم هذا القرآن الكريم، أعطاه حرية الاختيار، أودع فيه الشهوات، الإنسان موجود.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

(سورة الأحزاب)

وجود الإنسان لا معنى له بدون منهج يسير عليه:

أنت تتمتع بنعمة الوجود، أنت موجود، وهذه النعمة (نعمة الوجود) فرصةٌ كي تُثمِّر هذا الوجود، أنت موجود، الله عزّ وجل شاء لك أن توجَد، شاء لك أن تكون على وجه الأرض، ماذا ينبغي أن تعمل ؟ أن تحقق وجودك وفق الهدف الذي خُلِقت من أجله، أنت موجود، هناك إنسان وجوده تافه ؛ يعيش ليأكل، يعيش لينغمس في الملذّات المحرّمة، يعيش على هامش الحياة، يعيش لا يعبأ به أحد ولا يلفت نظر أحد، إيّاك أيها الإنسان الكريم أن يكون وجودك تافهاً، أنت موجود، امتن الله عليك بنعمة الوجود، أعطاك هذا الوجود، حقق هذا الوجود، فكر لماذا أنت موجود ؟ ولماذا امتنّ الله عليك بنعمة الوجود ؟ ولماذا منحك نعمة العقل ونعمة السمع والبصر والفؤاد ؟ لماذا منحك هذا الكون ؟

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

ولا تنسوا أنني ذكرت في الدرس الماضي أن تعليم القرآن قُدِّم في هذه الآية على خلق الإنسان لبيان أن وجود الإنسان لا معنى له من دون منهج يسير عليه، إن هذا المنهج مقدمٌ على وجودك، أما إذا كنت موجوداً وفهمت هذا المنهج فقد كمّلت وجودك، فأنت بالقرآن تكمِّل وجودك، بلا قرآن وجودك وجود بهيمي حيواني، دقق في حيوان ؛ يتحرك، يأكل، يشرب، ينام، يتناكح، يتناسل، يعمل، حياة الإنسان ؛ طعام وشراب، نوم وعمل، تكاثر، فهذه حياة بهيمية، ما الذي يعطيك وجودك الإنساني ؟ القرآن.

لا يتحقق كمال وجود الإنسان إلا بالتعرف إلى الله:

(عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

أنت إنسان، أنت أرقى من كل حيوان، أنت سَيِّد المخلوقات، أنت المخلوق الأول..

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

(سورة الأحزاب)

أنت المخلوق الأول، سيدنا رسول الله وجِدَ وتوفّاه الله عزّ وجل ولكن آثره (دقق في آثره) مِليار ومئتي مسلم، اذهب إلى المدينة المنوّرة وقِفْ أمام قبره الشريف، انظر هذه الملايين كيف تقف أمامه تبكي، هذا وجود، النبي وجِد لكن كمّل وجوده حينما تعرّف إلى ربه ونشر الحق.

أنواع الوجود:

إخوانا الكرام: هناك وجود، كل واحد منّا موجود، لكن هناك وجود هامشي، هناك وجود تافه، يوجد وجود شرير، يوجد وجود مخيف، فأحياناً يكون الأب بخيل جداً، أحياناً يكون شريك شحيح فيتمنى شريكه موته، فيوجد وجود شرير، ويوجد وجود تافه، يوجد وجود هامشي، لكن هناك وجود صارخ، فإيّاك أن تكون موجوداً وجوداً هامشياً، وجوداً تافهاً، وجوداً سَلْبياً، وجوداً منسحباً، لا.

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

نعم الله على الإنسان:

العقل ـ الفطرة ـ الاختيار ـ الشهوة ـ القوة:

أنت مخلوق وأنعم الله عليك بنعمٍ عظمى أولها نعمة العقل نعمة الفطرة، نعمة الاختيار، نعمة الشهوة بها ترقى إلى الله، نعمة القوة منحك قوة تحقق بها اختيارك. فهناك وجود بهيمي وهناك وجود إنساني، أنت بالقرآن موجودٌ إنساناً ومن دون قرآن كريم موجودٌ بهيمة، لذلك:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآَنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

الآن من أجل تفاعلك مع هذا القرآن، من أجل أن تقرأه، من أجل أن تفهمه، من أجل أن تُقْرِأهُ، من أجل أن تكتب تفسيره، من أجل أن تقرأ تفسيره، من أجل أن تسعد به، علّمك البيان.

3 ـ نعمة البيان:

الأصل أن الله منحك نعمة الوجود، ثانياً: تفضّل عليك بأجلّ نعمةٍ وهي القرآن، أعطاك وسيلة فهمه، وسيلة تعليمه، وسيلة نشره، وسيلة الاستفادة منه وهي:

(عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

فالإنسان أحياناً النعم التي يألفُها قد لا ينتبه إليها، هذه نعمة البيان من أعظم النِعَم على الإنسان لكن لأنه يتكلم، ويفهم، ويسأل، ويجيب، ويعبّر عن حاجته وعن مشاعره، وقد يحضر مجلس علم، يحضر خطبة ويفهم الخطيب ماذا تكلّم، قد يقرأ كتاباً في الفقه، في التفسير، في الحديث، هذه النعمة العظمى (نعمة البيان) نعمةٌ لا تُقدّر بثمن، لذلك هذه السورة المباركة بدأت باسم الله الأعظم:

(الرَّحْمَنُ)

ثمّ بأجلّ نعمةٍ على الإطلاق:

(عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

ثمّ بنعمة الوجود، ثمّ بنعمة الواسِطة التي بها تتعرف إلى القرآن وتنشر القرآن (نعمة البيان).

على الإنسان أن يستخدم نعمة البيان لما خلقت له:

الإنسان كما قلت قبل قليل: لا ينبغي أن يكون وجوده تافهاً، وجوده ثانوياً، وجوده هامشياً، كذلك لا ينبغي أن يكون هذا البيان الذي أعطاه إياه بياناً مسخّراً لتوافه الأمور:

((إن الله يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها و دنيها))

(الجامع الصغير)

إن الله يحبّك أن تستخدم البيان لمعرفة الواحد الديّان، يحبك أن تستخدم البيان لفهم قرآنه الكريم، يحب أن تستخدم البيان لنشر تعاليمه نبيّه صلى الله عليه وسلم، يحب أن تُلقي السمع إلى مجالس العلم، يحب أن تنطق بالحق، أن تذكر الله عزّ وجل، فهذه نعمة البيان أجلُّ نعمةٍ على الإطلاق أيضاً لا ينبغي أن تسخر لغير ما خُلِقت له، لذلك كما أن الوجود قد يكون تافهاً كذلك البيان قد يكون تافهاً.

((إنّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنّمَ))

(مسند أحمد عن أبي هريرة)

الكلمة الطيبة يعم خيرها البلاد والعباد:

كما أن اللسان به ترقى الأمم، الأنبياء بماذا جاءوا ؟ جاءوا بالكلمة فقط، الأنبياء العظام هل جاءوا بأسلحةٍ فتّاكة ؟ هل جاءوا بأجهزة متطورة جداً ؟ لا. جاءوا بكلمة، لذلك قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلّ حِينِ بِإِذْنِ رَبّهَا)

(سورة إبراهيم)

فالكلمة إما أن تكون طيبة تنتشر في الآفاق ويعمُّ خيرها البلاد والعباد، وأما أن تكون كلمةً خبيثةً ضالةً مضلّةً تنتشر فتفسد، وتنتشر فتُشكك في القيم الثابتة، الكلمة الطيبة تنتشر والكلمة الخبيثة تنتشر. فلذلك: طوبى لمن سخّر هذا البيان لمعرفة الله وتعريف عباده به، والويل لمن سخّر هذا البيان لإفساد أخلاق الناس، أليس هناك كُتّاب قصةٍ يكتبون القصص ليثيروا الشهوات ؟ ليحركوا الجزء الأسفل من الإنسان ؟ أليس هناك كُتّابٌ كبار أيقظوا المشاعر النبيلة والأفكار السامية ؟

4 ـ الكون:

الآن: من النعم العُظمى القرآن من أجل هذه النعم، ووجود الإنسان هو النعمة الأولى بالنسبة للإنسان، والبيان به تتعرف إلى القرآن، قال: إن هناك نعمة (نعمة الكون) هذا الكون المسخّر للإنسان.

الشّمْسُ وَالْقمَرُ بِحُسْبَانٍ:آية لها معاني عدة:

1 ـ حساب الوقت:

(الشّمْسُ وَالْقمَرُ بِحُسْبَانٍ)

(سورة الرحمن)

تصوّر ليس هناك شمسٌ ولا قمر، ولا أرضٌ تدور حول نفسها في اليوم دورة، ولا حول الشمس في السنة دورة، وليس هناك أبراجٌ نتعرّفها أثناء انتقال الأرض من مكانٍ إلى مكان، وليس هناك قمرٌ نُحْصي به الأيام والشهور، فكيف نحسب أعمارنا ؟ كيف نحسب الوقت ؟ قال بعض علماء التفسير:

(الشّمْسُ وَالْقمَرُ بِحُسْبَانٍ)

كيف نعرف أن الوقت ضُحى ؟ الوقت الظهر، العصر، المغرب غابت الشمس، العشاء، عن طريق حركة الأرض حول الشمس.

2 ـ معرفة الفصول:

نحن الآن في فصل الشتاء أو قادمون على فصل الشتاء، نحن في الخريف، في الربيع، في الصيف، فكيف نعرف الفصول ؟ لولا حركة الأرض حول الشمس، ولولا ميل المحور، ولولا القمر الذي يدور حول الأرض، يبدأ هلالاً إلى أن يصبح بدراً، قال:

(الشّمْسُ وَالْقمَرُ بِحُسْبَانٍ)

هذا المعنى الثاني.

3 ـ حساب كل شيء من خلال القمر و الشمس:

المعنى الثالث: أنّك من خلال الشمس والقمر تحسب كل شيء، يقول لك: القرن العشرين، القرن التاسع عشر، القرن الثامن عشر، يقول لك ألف وتسعمئة وخمسة وتسعين، ستة وتسعين، أربعة وتسعين، هذه السنوات، الشهور، الأسابيع، الأيام، الساعات كيف نحسبها لولا نظام الشمس والقمر ؟

(الشّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

الشمس والقمروالآرض صنع خبير عليم:

4 ـ حركة

وفي معنى آخر ذكرته الدرس الماضي: أن هذه الشمس بحجمها وبلهيبها، وبحرارتها، وبضوئها، وببعدها عن الأرض، وأن هذه الأرض بحجمها، وبشكلها، وبنسبة السطوح المائية فيها، وبنسبة اليابسة فيها، وبدورتها، وسرعتها، وكل خصائصها بحسبانٍ دقيق من صنع عليمٍ قدير، حكيمٍ خبير.

(الشّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

الشمس والقمر آيتان من آيات الله الدالّة على عظمته، لكن الشعوب البدائية، الشعوب الجاهلة الشاردة عَبَدَت الشمس من دون الله.

(لَا تَسْجُدُوا لِلشّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلّهِ الّذِي خَلَقَهُنّ إِنْ كُنْتُمْ إِيّاهُ تَعْبُدُونَ)

(سورة فصّلت)

الآيات الدالة على وجود الله و عظمته:

(الشّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

1 ـ الشمس و القمر:

يمكن أن تكون الشمس والقمر آيتان خالدتان تُشيران إلى وجود الله وإلى عظمته وإلى وحدانيته وإلى كماله، لذلك دقق: هذه الشمس إن أشرقت تستطيع أن تملِّك النظر فيها، من صمّمها هذا التصميم ؟ إنك لا تستطيع أن تحدّق في قرص الشمس في رابعة النهار، ومن حدّق في قرص الشمس في رابعة النهار ربما ضعف بصره وربما أصابه الانبهار، الشمس حينما تكون في قبة السماء فهي بعيدةٌ عن مستوى

النظر، لكنك إذا رأيتها تشرق أو تغيب تراها قرصاً برتقاليّ اللون، من صمّم هذا التصميم ؟ لو أنها تبقى متألقةً متوهجةً في أثناء الغروب أو عند الشروق إنها تُبهر الأبصار.

من جعل هذه الأشعة عند الغروب وعند الشروق مائلة ؟ ومعنى أنها مائلة أي أنها تقطع مسافاتٍ طويلة من طبقات الهواء، لذلك هذه الطبقات تخفف من شدة أشعتها فتبدو قرصاً أحمر اللون (برتقالي اللون) أما حينما تكون عمودية في كبد السماء تقلُّ الطبقة الهوائية التي بيننا وبينها عندئذٍ يبدو قرصها متوهجاً، من صمّم هذا التصميم ؟ قالوا: واحد من عشرين مليون جزء من أشعة الشمس يصلنا إلى الأرض، لو أنها أكثر ؟

2 ـ الأرض:

الآن وبسبب كثرة المركبات في الأرض، والمعامل، والآلات، بسبب حَرْق النفط في المعامل والسيارات وما إلى ذلك، غاز ثاني أكسيد الكربون ترتفع نسبته في الأرض ومع ارتفاع هذا الغاز تزداد الحرارة، الأرض الآن حرارتها أعلى من معدّلِها بدرجتين، فلو ارتفعت الحرارة أكثر من ذلك، هناك خطر أن تذوب الكُتَل الثلجية في القطبين وإن ذابت ارتفعت البحار سبعين متراً، أي أن أكثر المدن الساحلية تُغمر بمياه البحر، دقة بالغة، هذه الشمس تأتينا الحرارة المناسبة، لو اقتربت الشمس أكثر من ذلك لارتفعت حرارة الأرض خمس درجات لم تبقَ مدينة ساحلية على الإطلاق في العالم كله، بحسبان، الأشعة بحسبان.

3 ـ طبقة الأوزون:

من خلق هذه الطبقة (طبقة الأوزون) الآن هي مخلخلة، والآن أمراض سرطان الجلد في العالم الغربي سبعين بالمئة زيادة عن ذي قبل، السبب أن هذه الطبقة (طبقة الأوزون) تمنع الجزء المؤذي من أشعة الشمس، من جعل هذا السقف المحفوظ ؟ الله جلّ جلاله، والآن البشرية في حيرة كيف تُرَمَّم هذه الطبقة؟ ليس هناك حلٌ حتى الآن، وهذا الخرق يتسع، وهذا التخلخل يتسع في طبقة الأوزون، من جعل السماء سقفاً محفوظاً ؟ الله جلّ جلاله، حينما غيّرنا خلق الله، حينما لوّثنا البيئة، حينما استخدمنا المواد استخداماً عشوائياً غير مقنَن، غير مدروس، الحقيقة إن الإسراف من أخطر تصرفُات الإنسان في العصر الحديث، مجتمع الاستهلاك، مجتمع التنافس، هذا سبب استهلاك عنيف للمواد الأولية في الأرض، الاستهلاك العنيف رافقه حَرْق طاقة كبيرة جداً، هذا الحرق في الطاقة الكبيرة سبب خلخلة في

طبقة الأوزون وسبب ارتفاع الحرارة، الآن تغير الطقس، انعدام الأمطار، ارتباك الطقس سببه ازدياد غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو، فربنا عزّ وجل يقول:

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ)

سجود الكائنات الحية لله تعالى:

النبات بلا ساق (النجم) في أوجه التفاسير:

(وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)

النباتات كلّها تسجد لله بمعنى أنها تستمد وجودها منه، من قرر أن النبات يستهلك قليل من الأوكسجين في النهار ويأخذ ثاني أكسيد الكربون ؟ نحن في النهار نستنشق الأوكسجين وفي الليل كذلك ونعطي غاز الفحم، لكن النبات يستنشق غاز الفحم ويعطي الأوكسجين، من صمّم هذا التصميم ؟ لولا أن النبات متعاكس في احتياجاته مع الإنسان لما توازن الهواء، الهواء نسبه متوازنة وهذا من فضل الله على الإنسان.

(وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)

4 ـ ظاهرة النبات تدل على عظمة الله:

أيها الأخوة: تكاد تكون ظاهرة النبات أجلّ ظاهرةٍ تدل على عظمة الله، فنظام البذور أي أن الله عزّ وجل إذا أراد أن يخلق لنا الطعام والشراب بلا نظام بذور تصور هل يوجد نظام آخر ؟ أي هل يخلق لنا مليون طن بندورة ؟ فأين يضعهم، في أية قارّة ؟ مليار طن، مليار مليار طن قمح ؟ إنها تُستهلك ونجوع بعد ذلك وانتهى الأمر، من قرر نظام البذور ؟ النبات ينبت من خلال بذرة، والثمرة فيها بذرة، نظام البذور وحده أكبر نظام يدل على الله عزّ وجل، تصور نبات بلا بذور إنه ينقرض، الله خلق لنا مليار مليار طن من القمح، بعد أن تستهلك هذه المليارات نموت من الجوع، أما هذا الذي نأكله إذا ألقيناه في الأرض أنبت، فهذا النبات (الرُشيم) بذرة فيها محفظة غذاء، وفيها كائن صغير اسمه رُشَيْم، فيها جُذير، فيها سويق، إذ1 أصابتها الرطوبة وأصابتها حرارة نبتت، هذا الرشيم يتغذى، كيف أن الطفل يتغذّى من حليب الأم إلى أن تقوى معدته وأسنانه، كذلك هذا الرشيم يتغذى من محفظة الغذاء في البذرة فإذا انتهت امتدت جذوره وأخذ غذاءه من التُربة، من صمم النبات ؟

روعة تصميم الخالق:

تجد الجذر له فرع ثم فرع إلى أن يصل إلى هدب تقريباً في رأسه توجد كرة اسمها القُلنسوة هذه تستطيع أن تذيب الصخر بحثاً عن الغذاء، بعض الأشجار تمتد جذورها ثلاثين متراً، الجذر يبحث عن الغذاء، قد يمتد عرضاً، قد يمتد عُمْقاً، وقد تصل الجذور إلى ثلاثين متراً من أجل أن تأخذ الغذاء، من صمم هذا النظام ؟ من صمم أن الشجرة إذا منعت عنها الماء تستهلك ماء أوراقها أولاً، فإذا جَفّ ماء الأوراق تستهلك ماء أغصانها، فإذا جفّ ماء الأغصان تستهلك ماء فروعها، ثم تستهلك ماء جذعها، وآخر ماءٍ تستهلكه ماء الجذر، لو أن الله عكس الآية، لو أن الفلاح نسي سقي الشجرة مرةً واحدة لماتت، بالعكس حينما تَعْطَش الشجرة تستهلك ماء الأوراق، وحينما تستهلك ماء الأوراق تذبل الأوراق كأنها تقول لك: اسقني أنا عطشى، النبات حينما يعطش تذبل أوراقه كأنه يخاطبك: اسقني أنا في حالة عطشٍ شديد، من صمم هذا التصميم ؟

5 ـ أنواع الخشب من الآيات الدالة على عظمة الله تعالى:

النبات غذاء، والنبات دواء، الآن الأدوية الراقية أساسها نباتي، والحقيقة حينما نعود إلى أدوية النبات تنتعش صحّتنا، أما حينما نستخدم الدواء الكيماوي تنتكس أجسامنا، فالدواء الراقي من النبات، الأصبغة من النبات، الأثاث من النبات، توجد أشجار خشبها للنوافذ فقط، هذا الخشب لا يتأثر بأشعة الشمس ولا بالبرد ولا بالرياح أي إنه لا يفسد، يوجد خشب للأثاث الداخلي، يوجد خشب للصناعة السريعة ليّن، يوجد خشب للزينة، أنواع الأخشاب تزيد عن مئة نوع، يوجد خشب للأساسات، يوجد خشب له منظر جمالي جداً، أنواع الخشب وحدها من آيات الله الدالّة على عظمته.

أوراق النبات أعظم معمل في الكون:

يوجد نبات تأكل جذره، يوجد نبات تأكل زهره، يوجد نبات تأكل أوراقه، يوجد نبات محاصيل تنمو في وقتٍ واحد، في نبات كالفواكه والخضراوات تنمو في مرحلةٍ طويلة، يوجد نبات موسمي، يوجد نبات دائم الخُضرة، يوجد نبات متساقط الأوراق.

انظر إلى شكل الأوراق (شيء لا ينقضي)، لا تنقضي عجائبه، الورقة وحدها تُعدُّ أعظم معمل في الكون، أعظم معملٍ صنعه الإنسان، هكذا قرأت في موسوعة علمية: أعظم معملٍ صنعه الإنسان على الإطلاق يغدو تافهاً أمام الورقة، كيف يصعد الماء إلى أعلى خلاف الجاذبية الأرضية ؟ الخاصّة

الشّعرية معقّدة جداً، كيف يصعد الماء نحو الأعلى ؟ يصعد معه المعادن المُذابة في التربة ؛ المنغنيز، والفوسفات، والفوسفور، والبوتاس، تصعد مذابةً في هذا الماء، بالورقة توجد مادة اليخضور و مادة الآزوت و الفوتانات، كيف تصنع الورقة ؟ تصنع مصلاً سائلاً (النسغ النازل وهذا السائل هو سائل موحد) تُصنع منه الجذور، والفروع، والأغصان، والأوراق، والأزهار، والثمار، هل يوجد في حياة الإنسان سائل واحد يصير حديداً، وخشباً، ونحاساً، وفضّة، وذهباً، وخشباً، ومادة ليّنة مرنة ؟ هذا النُسُغ النازل هو الذي يُسهم في صنع كل شيء ونحن لا ندري نلقي الحب وننام.

(أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)

(سورة الواقعة)

ظاهرة النبات من ظواهر تكريم الله للإنسان:

فكِّر في النبات، فكّر في طِباع هذا النبات، أكثر من خمسة آلاف صنف من النبات مصمم خصيصاً داخل البيوت من أجل أن تُمْتِع عينك به (كنباتات الصالونات) فكم نبات الهدف منها فقط هو المنظر والرائحة، الأزهار كم نبات ؟ أليس هذا تكريماً للإنسان ؟ (هذه الشجرة)، توجد أشجار تُعمِّر آلاف الأعوام كالنخل تُعمِّر آلاف الأعوام، توجد شجرات تعمِّر مئات الأعوام مثل الزيتون، هناك نخلٌ على عهد رسول الله في المدينة وإلى الآن موجود، هذه التمرة فيها ستة وأربعين مادّة غذائية فهي صيدلية، هذه النخلة خصائصها، طباعها، ثمراتها، الزيتون.

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)

(سورة التين)

التين، أنا لا أذكر أشياء على سبيل الاستقصاء بل على سبيل الاصطفاء، أنا أقول: ظاهرة النبات قفوا عندها، تأمّلوا فيها، دققوا وابحثوا، فهذه البطيخة كيف تنضج ؟ من يُشعِر جانيها أنها نضجت ؟ قال: حلزون إلى جانب قِمّتها، حلزون يُمسكه الجاني فإن كان يابساً فقد نضجت وإن كان طرياً لم تنضج بعد، من أعطاك العلامة ؟

ظاهرة النبات تدعو إلى التفكر والتأمل:

أيها الأخوة: ظاهرة النبات تستدعي النظر، تدعونا إلى التفكّر، ظاهرة النبات وحياتك كلّها نبات، انظر إلى الطعام ؛ الفجل، البصل، البقدونس، الكزبرة، الباذنجان، الكوسا، الملفوف، انظر كل نبات له شكل، له لون، له رائحة، له خصائص، له فوائد، قيل أن الملوخية ترمِم الغشاء المخاطي في الجهاز الهضمي (مرمّمة)، كل نبات يُغَطِّي حاجة من حاجات الجسم، فهو شيءٌ لا يُصدق، تجد هذا النبات يقول لك فيه:

حديد، ومنغنيز، وكالسيوم، وفيتامينات، وكل نبات يعطي أعلى درجة من الصيانة والترميم والغذاء للجسم، فلذلك:

(وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)

من الذي يصنع هذه الفواكه والثِمار ؟ الله جلّ جلاله، يقول لك: أخذت كيلو من التفاح، أنت لم تدفع ثمن التفّاح بل دفعت ثمن خدمته، الآن تأكلون هذه الحَمضيات من الذي صمّمها ؟ من صمم شكلها، وحجمها، وطعمها، سكّرها، أقسامها، قشرها، رائحتها العطرة من صممها ؟

حدود الكون لا يعلمها إلا الخالق تعالى:

(وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا)

إلى أين ؟ ذكرت لكم قبل شهرٍ: أن مركبة أُرسلت إلى المُشتري، أنا ذكرت من أربع سنوات بل هو من ست سنوات، هذه المركبة انطلقت قبل ست سنوات بسرعة أربعين ألف ميل في الساعة، وعليها مرصدٌ عملاق قطر عدسته ثمانية أمتار، واكتشف هذا المرصد وهي إلى جانب المشتري مجرّة بعدها عنا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية (المليون ستة أصفار، والبليون تسعة أصفار) ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، مع أنه مسافة أربع سنوات ضوئية تحتاج أن تقطعها بمركبةٍ أرضية إلى خمسين مليون عام، فكم تستغرق الرحلة إلى هذه المجرّة ؟ ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية.

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا)

(سورة الرحمن: آية " 7 ")

فأين حدود الكون ؟ لا أحد يعلمها، هذه أحدث مجرّة وأبعد مجرّة، ومعنى أبعد مجرة أنها كانت في هذا المكان الذي أصدرت منه أشعتها إلى المَرصد قبل ثلاثمئة ألف بليون سنة، أين هي الآن ؟ لا يعلم إلا الواحد الديّان.

القرآن الكريم هو الميزان الأصلي يوزن به كل شيء :

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

قال بعض العلماء: **" الميزان هو القرآن يوزن به كل شيء "**. وقال بعضهم: **" الميزان هو العقل "**. وقال بعضهم: **" الميزان هي الفطرة "**. وقد تتسع هذه الكلمة لكل هذه المعاني، فالعقل ميزان، والفطرة ميزان، العقل ميزان علمي، والفطرة ميزان نفسي، يقول لك: مرتاح وغير مرتاح، متضايق، شعرت بانقباض، بعد هذا العمل شعرت بكآبة، هذا ميزان فطرة لأن الله عزّ وجل قال:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس)

هذا ميزان، الفطرة ميزان، والعقل ميزان، النبي قال:

((عامل الناس كما تحب أن يعاملوك))

فأنت لو لم تعرف الحكم الشرعي ضع نفسك مكان الطرف الثاني أترضى أن يفعل بك ما تفعلُ به ؟ فالعقل ميزان، والفطرة ميزان، أما العقل قد يضل، وقد يطغى، قد يزل، والفطرة قد تنطمس، فالله جعل الميزان الأصلي هو القرآن الكريم (الشرع)، الحَسَنُ ما حسّنه الشرع والقبيح ما قبّحه الشرع. فالشرع ميزان، العقل ميزان، والفطرة ميزان، والشرع ميزان، فكلها موازين والويل لمن لم يستخدم هذه الموازين.

الأحمق من لا يستخدم الشرع و العقل و الفطرة في الوصول إلى الصواب:

مشكلة الناس إن سأل أي عالم يعطيه الحكم الشرعي، إن قرأ القرآن الآيات الواضحة تسعين بالمئة، تسعين بالمئة من آيات القرآن الكريم واضحة لا تحتاج إلى مُفَسِّر، الحديث الشريف واضح جداً، لو حضر أي مجلس علم فإنه يسمع الحق، لو حَكَّم عقله فإنه يصل إلى الصواب.

أنا ذكر لي أخ كان في فرنسا، زار فرنسا من حوالي شهر تقريباً، أكثر المحطات الإعلامية كَفّت عن عرض الأفلام المُنحطّة (بالعقل) الآن توجد دعوة في أوروبا وأمريكا إلى العفة، إلى تكريس القيم الأخلاقية، لأن المجتمع انتهى، فوصلوا بعقلهم إلى أن هذه الموبقات تُهَدِّمُ البُنيان الاجتماعي. مرّة الدول الشرقية حرّمت الخمر، العقل ميزان، والفطرة ميزان، والشرع ميزان، والموازين موجودة فما الذي يمنعك أن تأخذ بها ؟

ممكن إنسان يبيع بيته برقم فلكي، ويقبض الثمن بالعملة الصعبة والثمن كلّه مزوّر، ومعه في جيبه ميزان (جهاز إلكتروني يكشف العملة المزورة) ألا يستخدمه ؟ أليس أحمقاً ؟! يوجد معك ميزان يكشف لك نوع هذه العملة ومدى زيفها من صحتها دون أن تستخدمه ؟ والعقل نفس الشيء.

الإنسان السعيد من يستخدم عقله استخداماً صحيحاً:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

لذلك قال بعض العلماء:

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)

(سورة الإسراء)

بعضهم قال: **" العقل رسول ".** أعطاك عقلاً.

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

في الحقيقة الإنسان متى ينجح في حياته ؟ متى يُوفق ؟ إذا صحّت موازينه، مثلاً: كان ميزانه أنه كلّما كثر دخلك بأي أسلوب فأنت شاطر، هذا ميزان مختّل، يجب أن يكون دخلك مشروعاً، هذا الميزان الصحيح، لا تُسمى ذكياً ولا متفوقاً إن أخذت ما ليس لك لأن الله بالمِرصاد، فالإنسان يبحث عن موازينه كيف يزين الأمور ؟ كيف يزين دخله ؟ كيف يزين إنفاقه ؟ كيف يزين علاقاته مع الناس ؟ كيف يزين عطاءه ؟ يزين أخذه ؟ الميزان دقيق جداً، فلذلك الإنسان السعيد الذي يستخدم هذا الميزان، ورد في الأثر أن الله لما خلق العقل قال له:

((أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، قال: وعزّتي وجلالي ما خلقتُ خلقاً أحبّ إليّ منك، بكَ أعطي وبك آخذ))

(ورد في الأثر)

تعطيل العقل حرمان من السعادة:

أعطي الإنسان كل السعادة إذا استخدمك، وأحرمه السعادة كلّها إذا عطّلك، لا تجد إنساناً سعيداً إلا واستخدم الميزان، لا تجد إنساناً شَقياً إلا عطّل الميزان، وأوضح شيء على ذلك المجرمين تجده يرتكب جريمة ويتوهم أنه سيعيش بهذا المبلغ إلى ما شاء الله، بعد ساعة يُلقى القبض عليه، يودع في السجن، يُحكم بالإعدام، أين عقله ؟ ظهر أنه جاهل وغبي، فبعلم النفس المجرم مصنّف مع الأغبياء، غبي لأنه وصل إلى طريق مسدود، فأنت تعجب أحياناً إنسان يقتل إنساناً وما وجد في السيارة إلا كاسيت ومئة ليرة فقط، وقع في جريمة قتل من أجل شريط ومئة ليرة، أزهق حياة وأُعْدِم بعد حين لأتفه الأسباب، فالإنسان يسعد إذا استخدم ميزانه، عندك ميزان عقلي في دماغك، عندك ميزان في نفسك، وعندك ميزان الشرع، والله عزّ وجل خلق وأعطى الميزان، لم يُخلق بلا ميزان.

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

الإعجاز في خلق الدماغ:

بعد ذلك لا تنسى التناسب بالعقل، خلق السماوات والأرض في كفّة والميزان في كفّة، هذا الميزان (الدماغ) مئة وأربعين مليار خليّة سمراء لم تُعرف وظيفتها بعد، أربع عشرة مليار خليّة قشرية، لا

يزال عمل الدماغ مُعجزاً، لا يزال الدماغ عاجزاًس عن فَهْم ذاته، الإنسان كيف يفكر ؟ كيف يحاكم ؟ كيف يستقري ؟ كيف يستنتج ؟ كيف يتخيّل ؟ كيف يقرر ؟ كيف يصدر حكماً ؟ كيف يستنبط ؟ كيف ؟

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

سورة الرحمن من السور الدالة على نعم الله تعالى:

أنا فاتني بكلمة:

(عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

نحن نتكلم بكلام لكن كأن هناك قوة تعيننا على الكلام، الحرف الواحد يحتاج إلى تحريك سبع عشرة عضلة، كلمة خمسة أحرف تحتاج لثمانين حركة، لو أن الإنسان هو الذي يتكلم بقوته الذاتية فإذا أراد أن يقول: سعيد، كم عضلة سأحركها ؟ نبدأ بالسين، السين وبعدها العين وبعدها الياء فما هذا الكلام ؟ تتكلم عن بلد لمدة ساعة وأنت غافل عن حركة اللسان، من جعل هذا اللسان ينطلق ؟ من جعل الهواء في الرئتين محبوس يمُر عبر الحنجرة وتوجد حبال صوتية ؟ من يغيّر الحبال الصوتية ؟ يقول لك: القاف، والدال، والحرف الصفيري والحرف الانفجاري، والحرف المهموس، والحرف من أقصى الحلق ومن الشفتين، ومن الخيشوم، من صمم الحرف هذه ؟ من علّم البيان ؟

فلذلك أيها الأخوة هذه سورة مباركة، وهذه سورة مسعدة، وهذه سورة فيها نِعَمُ الله عزّ وجل، لأن بعد قليل:

(وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (12) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

سورة الرحمن موجهة للمخلوقين المكرمين بالتكليف:

يا معشر الجن والإنس، فهذه السورة موجّهة للمخلوقين المكرمين بالتكليف، الله عزّ وجل كلّفنا حمل الأمانة، والأمانة نفسك التي بين جنبيك ملّكك إياها وجعلها طوع بنانك:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

فيا أيها الأخوة الكرام: هذه السورة قال بعضهم: الكتاب أصحاب المستوى الرفيع تقرأ إنتاجهم فتبدأ متاعبك، وأما الكتّاب التافهون تقرأ إنتاجهم وتتثاءب وتنام بعدها، فالكاتب التافه لا يثير فيك أي مشكلة، أما كلام خالق الكون هذا لازم يضعنا أمام مسؤوليّاتنا، لازم يضعنا أمام مهمتنا في الحياة، لازم يحرّك

فينا كل مشاعر تعظيم الله عزّ وجل، كل مشاعر تأدية الرسالة، فنحن أمام كتاب الله هذا الكتاب المُعجز، هذا الكتاب الذي جعله الله دليل نبوة النبي إلى أبد الآبدين، لذلك في درسٍ إن شاء الله:

(وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (12) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس الثالث من سورة الرحمن، ومع الآية العاشرة.

تسخير ما في السماوات و الأرض للإنسان:

قال تعالى:

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

(سورة الرحمن)

أي أن الأرض التي نحن عليها بحجمها وشكلها وقوامها وتضاريسها ومُناخها وبرّها وبحرها ومائها وسمائها وهوائها وأنهارها ونباتاتها وحيواناتها وأطيارها وأسماكها ومعادنها وفِلِذاتها، وكل ما فيها مصممة خصيصاً لمصلحة الإنسان، بل إن الله سبحانه وتعالى سخرّ ما في السماوات وما في الأرض جميعاً لهذا الإنسان.

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية: آية " 12 ")

تسخير الأرض لراحة الإنسان:

هذه الأرض حجمها مناسب، شكلها كُروي، الخطوط عليها مستمِرّة.

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ)

(سورة الرعد: آية " 3 ")

ليس في الأشكال الهندسية إلا شكلٌ واحد الخطوط تستمر عليه إلى ما لا نهاية، أما أي شكلٍ آخر له حروف، فالأرض كرةٌ وقوامها وحجمها ودورتها حول نفسها، ليلها ونهارها، سرعتها، ميل محورها، حركتها حول الشمس، فصولها الأربعة، كلُّها مصممة خصيصاً لراحة الإنسان، و لك أن تفصِّل في هذه الآية ما شئت، والسنوات تلو السنوات تنقضي ولا ينقضي شرح هذه الآية على وجه التفصيل.

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

هل شكرت الله تعالى على نعمه التي لا تحصى ؟

هل شكرت الله عليها ؟ ماءٌ عذبٌ فُراتٌ تشربه من صفّاه لك ؟ هواءٌ مركبٌ وفق نسبٍ مناسبةٍ تماماً تستنشقه، من صممه لك ؟ من حافظ على توازنه، من جعل النبات يأخذ هذا الفحم ويطرح الأوكسجين ؟ ومن جعل جسمك يحتاج إلى أوكسجين ويطرح غاز الفحم ؟ من خلق البحار الشاسعة ؟ تلك المسطّحات المائية التي لولاها لما كانت الحياة على سطح الأرض.

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

الأنام هم الناس.

أعز مكانٍ في الدُنا سَرج سابح وخير جليسٍ في الأنام كتابُ

***

الأنام البشر، أي أن هذه الأرض بحرارتها، أي كوكب آخر حرارته ثلاثمئة وخمسين فوق الصفر، مئتين وسبعين تحت الصفر، الحياة مستحيلة على بعض الكواكب، أما الأرض معتدلة، تدور حول نفسها، بدورانها على محورٍ ليس متوازياً مع مستوي دورانها ينشأ الليل والنهار، ومع الليل والنهار تنشأ الحرارة المُعتدلة، فالأرض تمتص حرارة الشمس ثم تدفعها في الليل.

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

كل شيء في الأرض ينطق بعلم الله و حكمته:

أيها الأخوة الكرام: ينبغي أن نعلم أن كل شيءٍ في الأرض مصممٌ خِصيصاً للإنسان.

مثلٌ بسيط: الحُجّاج والعُمّار وهم يطوفون حول الكعبة المشرّفة، إن الرخام الذي يسيرون عليه يظنه الإنسان مبرداً مكيفاً، والحقيقة أنه نوعٌ من الرخام خلقه الله عزّ وجل لا يمتص الحرارة أبداً، الشمس تسلّط على هذا الرخام سبع عشرة ساعة، ودرجة الحرارة خمسة وخمسين ومع ذلك تمشي عليه وهو مبرد، ليس هناك تكييفٌ إطلاقاً إنما هو نوعٌ من الرخام لا يتأثّر بأشعة الشمس، من صممه ؟ الله جلّ جلاله.

قد تجد أن حجم الأمطار في مكان لا يكفي لغزارة هذا النبع، من وضع مستودعات هذا النبع ؟ الله جلّ جلاله، قد تجد في رؤوس الجبال ينابيع ماء لا بدّ من أن تكون مستودعاتها في جبالٍ أخرى أبعد منها وأعلى، من جعل هذه التمديدات من جبلٍ إلى جبل ؟ الله جلّ جلاله.

الحقيقة هذه الآية الحديث عنها يطول، والحديث عنها لا ينتهي، إن كل شيءٍ في الأرض ينطق بعلم الله وحكمته، من جعل هذا السقف المحفوظ ؟ هذه طبقة الأوزون التي تمنع الأشعة القاتلة ؟ وحينما

تخلخلت ارتفعت نسب سرطان الجلد إلى سبعين في المئة في بعض البلاد لأن الأشعة المؤذية وصلت إلى الأرض، وهذه الطبقة طبقة رقيقة جداً تمنع الأشعة المؤذية أن تخترقها إلى الأرض، من صممها ؟ من جعل الماء في الدرجة (+4) يتوسّع حجمه بخلاف كل عناصر الأرض ؟ ولولا هذه الظاهرة لما كانت حياةٌ على وجه الأرض.

أية آية في الأرض تدل على عظمة الخالق:

مرّةً أخرى: الأرض بحجمها، وشكلها، وقوامها، وكثافتها، وتضاريسها، وسطوحها، وبَرّها وبحرها، وجبالها ووديانها وسهولها، بأطيارها وأسماكها و حيواناتها، بكل شيءٍ فيها مصممٌ خصيصاً ليكون في مصلحة الإنسان، فأنت في أمس الحاجة إلى مادة تنقل لك الضوء ولا تنقل لك الهواء (البلور) من وضع في بعض الرمال هذه الخاصّة ؟ إذا مزجتها وأدخلتها في الفرن شكّلت هذا البلور الذي ينقل لك أشعة الشمس ويسمح لك أن ترى ولا يأتيك البرد ولا الحرٌ ولا الهواء منه، لا يظن أحدكم أن القضية هكذا صدفةٌ كُشِفَ هذا، هذا من تصميم الله ومن حكمته البالغة.

فالإنسان المؤمن أية آيةٍ وقعت يده عليها أو أدركها علمه ينبغي أن يعلم علم اليقين أن هذه الآية إنما هي من آيات الله الدالة على عظمته.

قيمة الإنسان عند الله عز وجل:

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

لو أن الله سبحانه وتعالى قال: و وضع الأرض للأنام شيء وأن يقول الله عزّ وجل:

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

فهذا قصرٌ في المعنى، إنها من أجل الإنسان، والإنسان إذا عرف هذه الحقائق شعر بقيمته عند الله عزّ وجل، شعر بأنه المخلوق الأول، وشعر بأنه المخلوق المُكرّم، وشعر بأنه المخلوق المكلّف، وحينما يقرأ الإنسان قوله تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: آية " 44 ")

يصغر أمام نفسه، كل شيءٍ حوله من الجمادات والحيوانات والنباتات تسبّح الله عزّ وجل، وكل هذه المخلوقات خلقت للإنسان خصيصاً، فالمخلوقات المسخّرة تُسَبِّح وتذكر والإنسان المكرّم الأول المسخّر له يغفل ويسهو ويغفو ويعصي !!

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

****

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في الـمقال شنيع

لـو كان حبك صادقا لأطعته إن المــحب لمن يحب يطيع

****

المؤمن الحق من لا يسمح للدنيا أن تستهلكه :

أيها الأخوة الكرام: نحن في الدنيا والدنيا مَشْغَلَة، والدنيا فيها مذلاّت، وفيها مُنْزَلَقات، وفيها شهوات مستعرة، وفيها فتن يقظة، وفيها نساءٌ كاسياتٌ عاريات، وفيها ذهبٌ وفضةٌ وأنواع النقود، الإنسان في زحمة الحياة، قد ينسى سرّ وجوده، وقد ينسى عظمة ربه، وقد ينسى منهج الله الذي بين يديه، فلذلك الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، لكن المؤمن هو في الدنيا يصحو ويعرف، يقتطع من وقته وقتاً لمعرفة الله، الله عزّ وجل قال:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً)

(سورة الفرقان)

يمشون هوناً أي لا يسمحون للدنيا أن تستهلكهم، لا يسمحون للدنيا أن تُنهي رسالتهم، لا يسمحون للدنيا أن تصرفهم عن غايتهم ولا عن وجهتهم، أي يقتطعون من وقتهم وقتاً لمعرفة الله، يقتطعون من وقتهم وقتاً لمعرفة أمر الله ونهيه، يقتطعون من وقتهم وقتاً للعمل الصالح، لتربية أولادهم.

الحكمة وراء كل آية في القرآن:

هذه الآيات لماذا ذَكَّرَنا الله بها ؟ ما الحكمة من قول الله عزّ وجل:

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

أي فَكِّر أيها الإنسان، فكر في هذا التكريم، فكر أنك المخلوق الأول، فكر أنك المخلوق المكلّف، فكر أن هذه الدنيا فانية، فكر أن الله خلقك لجنةٍ عرضها السماوات والأرض.

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

ما ردُّ الفعل ؟ فإذا شخص قدّم لك هدية ماذا تقول له ؟ تبقى هكذا ؟ تنظر إليه لا تنطق بكلمة ؟ لا تقل له شكراً ؟ رد الفعل، الآن الآية واضحة طبعاً التفاصيل عنها لا تنتهي، وكل دروسنا السابقة يمكن أن تكون تفصيل لهذه الآية.

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

ولكن المقصود رد الفعل، الله عزّ وجل خلق الأرض من أجلك، وسخّرها لك.

المؤمن من يعرف نعم الله بدوامها لا بزوالها:

قد يقول أحدكم: أنا فقير، أنت لا تعرف نعم الله التي أنت فيها، نعمة استنشاق الهواء، نعمة خروج الماء، نعمة أن الطريق من الفم سالك، أن الأجهزة تعمل بانتظام، أنّك في بيتك آمن، هذه نعمٌ لا تعدُّ ولا تحصى، لا تعرف إلا إذا فُقِدَت، لكن المؤمن يعرف نعم الله بدوامها لا بزوالها، يعرفها وهي موجودة، قبل أن يعرفها وهي مفقودة، لذلك الإنسان لا ينبغي أن تستهلكه الحياة، لا ينبغي أن تأكله الهموم، ليفكر، أنت المخلوق الأول، الكون كله مسخرٌ من أجلك، الكون كله مصممٌ لراحتك، فحينما يكون ردُّ فعلك صحيحاً يقول الله عزّ وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

(سورة النساء)

دقق في هذه الآية، الله عزّ وجل سخّر هذا الكون، الآن دخلنا في موضوع دقيق.

تسخير الكون للإنسان:

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

لنكتفي بالأرض، الأرض وحدها مسخرةٌ لهذا الإنسان تسخيرين، تسخير تعريف وتسخير تكريم.

1 ـ تسخير تعريف:

أي لقد أراد الله حينما سخر لك هذه الأرض أن يعرّفك بعلمه وبقدرته وبحكمته وبرحمته وبغناه وبرأفته، أراد أن يعرّفك بذاته من خلال الأرض.

2 ـ تسخير تكريم:

أراد الله أن تكون هذه الأرض لمصلحتك، لترتاح فيها.

هُناك مَعنيان، معنى تسخير التعريف ومعنى تسخير التكريم، وينبغي أن يكون هناك ردُّ فعلٍ لكل تسخير.

رد فعل تسخير التعريف:

رد فعل تسخير التعريف أن تؤمن به، أن تؤمن بوجوده، بوحدانيته، بكماله بأسمائه الحُسنى، بصفاته الفُضلى.

رد فعل تسخير التكريم:

رد فعل تسخير التكريم أن تشكره.
معنى ذلك أن الكون مصممٌ أو مسخرٌ لك تسخيرين تسخير تعريف وتسخير تكريم، تسخير التعريف يقتضي أن تؤمن به، وتسخير التكريم يقتضي أن تَشكره.

الإنسان بحاجة إلى العلاج إن وجد الإيمان و لم يوجد الشكر:

إذا آمنت بالله وشكرته حققت الهدف من وجودك، عندئذٍ يتوقّف العلاج، الآية الكريمة:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

إن شكرتم وآمنتم فقد حققتم الهدف الذي خلقكم الله من أجله، عندئذٍ لا علاج، أما إذا وجدف الإيمان و لم يوجد الشكر معنى ذلك في علاج، في تأديب، في شدائد، في تخويف، يسوق الله للإنسان بعض الشدائد ليؤمن وليشكر، فإذا شكر وآمن تنتهي الشدائد لقول الله عزّ وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

ويقول الله عزّ وجل:

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ)

منهج الإنسان المؤمن الإيمان و الشكر:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

المعنى الذي ينبغي أن نقف عنده قليلاً رَدُّ فعلك أيُّها الإنسان، تلقّيت هذه الأرض أنت عليها وهي مسخرةٌ لك، مسخرةٌ لك من أجل أن تعرف الله من خلالها، مسخرةٌ لك من أجل أن تشكر الله عليها، فلا بدّ من رد فعلٍ من قِبَلك الإيمان والشكر، فإن لم تؤمن وإن لم تشكر فقد حِدّتَ عن المنهج الصحيح.

تكريم الله للإنسان من خلال نعمه التي لا تحصى:

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) فِيهَا فَاكِهَةٌ)

(سورة الرحمن)

الله عزّ وجل كان من الممكن أن يخلق لك القوتَ فقط، قمح، أرز هذا قوت، لكن لأنّك مكرمٌ عليه، ولأنك المخلوق الأول، ولأن الله تحبب إليك بنعمه، ولأن الله سبحانه وتعالى ودودٌ إليك، يوجد فواكه، الفاكهة ليست قوتاً، للتفكّه، للتنعم، الإنسان يأكل قمحاً، يأكل خبزاً فيملأ معدته، ولعل القمح كما قال العلماء: **غذاءٌ كامل**، ولكن تصوّر أن بيتاً ليس فيه إلا القمح كلّ يومٍ إلى ما شاء الله، أما أنت في الشتاء تأكل البرتقال وأنواع الفواكه الشتوية، وفي الربيع يوجد فواكه(كرز، تفاح، كُمثرى، دُرّاق، عنب، تمر).

التمر من آيات الله الدالة على عظمته:

هناك ما يزيد عن ثلاثمئة نوع من التمر، و هذا التمر فيه ستة وأربعين مادة غذائية، وأنه لا يقبل التلوّث، لأن تركيز السكر فيه يمتصُّ ماء أي جرثوم، وهذا التمر فيه مادة مليّنة، ومادة مهدِّئة، وهذا التمر فيه أعلى مستوى من السكر، ينتقل من الفم إلى الدم خلال عشرين دقيقة (ثلاثمئة نوع)، وأشجار النخيل معمِّرة، قال:

(فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ)

(سورة الرحمن)

فنحن ليس في بلادنا تمرٌ غزير، لكن بلاد التمر تجد فيها أنواعاً لا يعلمها إلا الله، أنواع منوّعة، بالأشكال والأحجام والقِوام والطعم، وشيء لا يصَدِّقه الإنسان، قال:

(فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ)

الأكمام: الكؤوس التي فيها غُبارُ الطلع، والتي تُلقّح فتكون منها الثمار، من صمم هذا التصميم ؟ من جعل من كل شيءٍ زوجين اثنين ؟ فهذا التمر وحده من آيات الله الدالة على عظمته، والإنسان كلما كان أقرب إلى التصميم الإلهي، وأقرب إلى الطبيعة التي أرادها الله عزّ وجل يقوى جسمه.

نظام التلقيح الذي أبدعه الخالق:

(فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ)

أي أن نظام الزوجية في النبات، كيف أن النبات ذكر وأنثى، وكيف أن الأنثى تُلقّح ؟ وأن التلقيح يتم عن طريق الرياح أحياناً ؟ الله جعل الرياح لواقح، ويتم عن طريق النحل أحياناً، فالنحل لها مهمة كبيرة جداً (ليست مهمة إخراج العسل من بطونها فقط، بل مهمة تلقيح النباتات أيضاً) فالنحل يلقِح، والرياح تلقِح، الله جعل الرياح لواقح وجعل النحل أيضاً أو الحشرات التي تنقل غبار الطلع من الذكر إلى الأنثى فيكون التلقيح، بل إن بعض حركات الرياح أحد عوامل التلقيح أيضاً.

(فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11) وَالْحَبُّ)

(سورة الرحمن)

هذه المحاصيل، القمح، الشعير، الذرة، العدس، الحمص.

(وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ)

(سورة الرحمن)

فوائد القمح:

قرأت في كتاب نباتٍ كيف أن القمح مادة غذائية أولى في العالم، لأن القمح غذاء كامل ونحن لجهلنا نأخذ لُبّه النشوي وندع قشره الذي فيه الفيتامينات وفيه المعادن وفيه كل الخير، وأول بدعةٍ ابتدعها المسلمون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم نَخْلُ الدقيق، وهذا الخبز الأبيض النقي والملح الأبيض والسكر الأبيض هذه سمومٌ ثلاثة، أما الله عزّ وجل حينما صمم هذه القمحة وجعل في قشرها المواد الفيتامينية والمعدنية وكيف أن قشر القمح يحرّك الأمعاء ويجعل الهضم جيداً، نحن نُلقي بقشر القمح ونأخذ لبه، وكيف أن القمح يعد غذاءً كاملاً للإنسان، ساق القمح الذي يسمى في النهاية تبناً يُعَدُّ الغذاء الكامل للحيوان، هي ساق، تظن أنه ساق السُنبلة، أما هذا الساق في تركيبه غذاءٌ كاملٌ للحيوان، لذلك التبن مادة أساسية جداً في علف الحيوان، فربنا عزّ وجل يقول:

(وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ)

أي ساقه التي تُعْصَف وتتكسر فتغدو غذاءً كاملاً للحيوان.

(وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ)

نضج الفواكه و الخضراوات تباعاً رحمة بالعباد:

هناك نباتاتٌ فوّاحة الرائحة، ذات رائحة (في الأرض تراب وماء) رائحة الكُمِّثرى، ورائحة التفّاح، ورائحة الدُرّاق، لكل فاكهةٍ رائحة، كما أنه لكل وردةٍ رائحة، ولكل نباتٍ تزييني رائحة، من وضع هذه الروائح ؟ والعطورات التي تشترونها بأغلى الأثمان مأخوذةٌ من النباتات.

(وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ)

وقد يغفل الإنسان أن هذا الحَب ينضج في وقتٍ واحد، ولو كان كالفاكهة لحمل الإنسان مشقةً لا حدود لها، لو أن الإنسان مكلّف أن يمسك السُنبلة واحدةً واحدة ويتفحّصها فإذا كانت ناضجة قطعها، وإن لم تكن ناضجة أبقاها لكان حصد القمح من الأشغال الشاقة، ولكن حكمة الله شاءت أن كل القمح ينضُج في يومٍ واحد، ما عليك إلا أن تحصده، لكن أنواع الفواكه والخضراوات تنضج تباعاً رحمة بنا، يقول لك: هذا الحقل يُعطي هذا النبات على مدار ثلاثة شهور، أو على مدار أربعة شهور، أو على مدار شهرين، من صمم أن الحبوب تنضُج في وقتٍ واحد والفواكه والخضراوات تنضج تباعاً ؟ ولو أن الموضوع عالجناه منطقياً، لو جئت بزيت محمي وألقيت فيه بطاطا (لأن الظروف واحدة النضج يتم في وقت واحد) ظروف الأرض واحدة، السقي واحد، المواد المغذّية واحدة، المعادن واحدة، فما الذي جعل هذا المحصول ينضج تباعاً على فترة ثلاثة أشهر ؟ إنّها حكمة الله، لا ترجيح بلا مُرَجّح.

نضج الفواكه و الخضراوات مبرمج بقدرة الله تعالى:

من جعل هذه الفاكهة تنضج أولاً وبعدها هذه الفاكهة ؟ تصوّر حال صاحب بستان نضجت عنده كل الفواكه في يومٍ واحد، ماذا يفعل ؟ صاحب البستان يبدأ بالكرز، ويُثنّي بالدُرّاق، ثم بالأجاص، ثم بالتفاح، في برمجة، الكون مبرمج، أنواع الفواكه مبرمجة، نضجها مبرمج، قال:

(فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ)

حبٌ له ساقٌ يعد غذاءً للحيوان، وحبٌ آخر ونباتٌ آخر له رائحة فوّاحة، ربنا عزّ وجل قال:

(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

(سورة الرعد)

أحياناً لبعض الفواكه روائح فوّاحة، النباتات، الفواكه التي تسمد بسماد طبيعي، وهواؤها نقي، وماؤها نقي، لها رائحة تأخذ بالألباب، لكن هذا التسميد الكيماوي كان نجاحاً في صفات الثمرة الفيزيائية على حساب صفاتها الكيماوية، لذلك الآن العالم يعود إلى السماد الطبيعي لتعود للفاكهة طعمُها الطيّب ومذاقها ورائحتها الفوّاحة.

صنعة الله المتقنة:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

أي هل هناك خلل ؟ هل هناك نقص ؟ هل هناك شيءٌ على غير ما يُرام ؟

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

(سورة الملك: آية " 3 ")

صنعته كلها مُتْقَنة.

(فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)

(سورة السجدة)

جني الثمار بسهولة من فضل الله على الإنسان:

لذلك تجد النبات في أبدع شيء، أشياء قد لا ننتبه إليها، عُنقود العنب، إن أردت أن تقطعه شداً نحو الأسفل، يُعْصَرُ في يدك ولا يُقطع، أما إن حرّكت عوده نحو الأعلى يصبح في يديك، من صممه بهذه الطريقة ؟ الله جلّ جلاله، فكل فاكهة لها طباع، لها طريقة جني، فهذه النخلة العالية جداً (الباسقة) كيف نصل إليها ؟ لها درج أوراقها حينما كانت تقطع بعد مسافةٍ من أصلها (من منبتها) هذا النخل له درج نصعد إليها، كل فاكهةٍ لها طريقةٌ في جنيها، هذا من تصميم الله لنا، البطيخ كبير، لو أن البطيخ معلقٌ في الأشجار ووقعت بطيخة وزنها عشرين كيلو فوق إنسان لقتلته، البطيخ تجده على الأرض، الثمار الكبيرة أرضية، اليقطين في الأرض، البطيخ في الأرض، أما التفّاح معلقٌ بالأشجار، لكن هذه الأشجار أيضاً مصممة بشكل أن تجني ثمارها وأنت مرتاح.

(قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

(سورة الحاقة)

تصميم النبات بشكل يقاوم عوامل الإهمال:

أما بعض النبات الذي أنت بأمسّ الحاجة إليه طعاماً لحيواناتك يجنى ست مرات، تزرع البرسيم، تجني البرسيم، تطعمه للدواب، ينبت مرة ثانية، تجنيه مرة ثانية، تطعمه للدواب، ينبت مرة ثالثة، تجنيه مرة ثالثة، ينبت مرة رابعة، تجنيه مرة رابعة، ينبت مرة خامسة، مرة سادسة، من صمم هذا الشكل ؟

فهذا النبات من صممه ؟ أنه إذا لم يرتوِ بالماء يستهلك ماء أوراقه أولاً، ثم ماء أغصانه ثانياً، ثم ماء فروعه ثالثاً، ثم ماء الجذع رابعاً، ثم ماء الجذور خامساً، وآخر ماءٍ يستهلكه النبات عند الضرورة ماء النُسُغ، لو أن الآية عُكِست لماتت الشجرة لأول غلطٍ في سُقياها، إذاً هي مصممة تصميماً يقاوم عوامل الإهمال، عوامل الجفاف.

خلق الإنسان من تراب و الجان من نار:

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ)

(سورة الرحمن)

اتفق العلماء على أن الإنسان هنا آدم عليه السلام، خلقه من صلصالٍ من طين.

(كَالْفَخَّارِ)

أي له صوت إذا جففته وضربته يُصدر صوتاً من نوع الرنين.

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ)

لذلك الإنسان يوجد في جسمه معادن كالأرض تماماً، يوجد منغنيز، حديد، نحاس، فوسفور، بوتاسيوم، يوجد معادن كثيرة، تقريباً المعادن التي أودعها الله في الأرض موجودةٌ في الإنسان، وما دم الإنسان الأحمر إلا لوجود الحديد فيه، الحديد طبعاً بشكل أملاح موجود في دمِ الإنسان:

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ)

هذه آيةٌ إخبارية، أي أن الله عزّ وجل خلق الإنسان من تراب وخلق جنس الجن من النار.

إتقان الله لخلقه:

(فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

أي أية آيةٍ يُشَكُّ فيها، أي خلقٍ من خلق الله عزّ وجل فيه خلل أو خطأ أو زلل، فيه نقص ولا يوجد فيه إتقان ؟

(فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

أي يا معشر الجن والإنس الذين كُلِّفا حمل الأمانة.

دورة الأرض حول الشمس دائمة لا تحيد:

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)

بعضهم قال: **" رب شروق الشمس وشروق القمر، أو غروب الشمس وغروب القمر "**. الشمس تُشرق وتغيب، والقمر يُشرِق ويغيب من صمم هذا الشروق ؟ طبعاً حركة الشمس ظاهرة أما الحقيقة هي أن الأرض تدور حول الشمس، تدور حول نفسها دورةً فيبدو لك أن الشمس تنتقل من المشرق إلى المغرب، ولكن الإنسان العاقل لو نظر نظرةً سريعة رأى أن الشمس تغيب هنا، وفي اليوم التالي تُشرق هناك، أين كانت في الليل ؟ تحت الأرض، الأرض إذاً في الفراغ، غابت من هنا وأشرقت من هنا، هذا إذا أخذنا الأمر على ظاهره، لكن الأرض تدور حول نفسها دورةً في كل أربعة وعشرين ساعة، الأرض تدور عند خط الاستواء بسرعة ألف ميل في الساعة، أي ألف وستمئة كيلو متر، وبسرعة ستين ألف ميل في الساعة حول الشمس، أي تسعين ألف كيلو متر، أي أن في الثانية الواحدة ثلاثين كيلو متر حول الشمس، العشرة دقائق تقطع بها مئة وثلاثة آلاف كيلو متر قال:

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (16) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)

هذه الدورة من جعلها دائمة أبداً لا تحيد ؟

نظام الشروق و الغروب نظام دقيق و مذهل:

تُمسك تقويماً يقول لك التقويم: في الخامس والعشرين من تشرين الأول الشمس تشرق في الخامسة وثلاث دقائق، هذا التقويم مصمم من خمسين سنة وصالح لمئة سنة قادمة ولألف سنة قادمة، معنى هذا أنه هناك نظام مذهل ودقيق جداً.

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ)

الشروق بنظامٍ دقيقٍ دقيق، والغروب كذلك.

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)

يوجد رأي ثانٍ: أن الشمس لها نهاية عُظمى في الصيف ونهايةٌ عُظمى في الشتاء، فإذا شخص له بيت باتجاه الشرق ومرتفع فإنه يلاحظ أنها تُشرق في الصيف من هذه الجهة، أما في الشتاء من هذه الجهة، فهناك مسافةٌ كبيرة بين أقصى مكان شروقٍ في الشتاء، وبين أقصى مكان شروقٍ في الصيف، وهذا يتأتّى من دورة الأرض حول الشمس ومن ميل محورها، فكأن هذا شرق وهذا شرق، شرق الصيف وشرق الشتاء، والأصح أن كل يومٍ بالتحديد هناك مكانٌ لشروق الشمس يغطِّي هذه الحقيقة قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ)

(سورة المعارج)

من رحمة الله بالإنسان خلق الأرض كروية:

كل يوم يوجد شروق، وكل يوم يوجد غروب، لكن قد لا يبدو للعينين، أما يوجد تحرُك، أما الذي يبدو لك أقصى شروق في الصيف نحو الشمال، وأقصى شروق في الشتاء نحو الجنوب، أو على البحر، فالذي له بيت على البحر غربي في بلادنا فإن هذه الحقيقة واضحة تماماً أمامه، يرى مسافة تكاد تكون أقل من رُبع دائرة بين الصيف وبين الشتاء، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)

الشروق حركة، فالأرض تدور والشمس ثابتة، وأيضاً لأن هذه الأرض كرة يأتي الشروق بالتدريج، لو أنه كان مُكَعَّباً تأتي الشمس فجأةً، قال تعالى:

(يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ)

(سورة الزمر: آية " 5 ")

التكوير تداخل الضوء مع الظلام، والضوء والظلام لا يتداخلان إلا بحالةٍ واحدة وهو أن يكون الشكل كروياً فقط، أما أي شكل آخر ؛ موشور، مكعب، متوازي مستطيلات، شبه منحرف، مادام هناك أضلاع فهناك شروق مفاجئ وغروب مفاجئ، أما الأرض كرة، الله عزّ وجل لطيف، تغيب الشمس فالأرض مضيئة وهذا الضوء يقل بالتدريج شيئاً فشيئاً، وبعد ساعةٍ وربع يغيب الشفق الأحمر فيدخل وقت العشاء، وقت المغرب غياب قُرص الشمس، أما وقت العشاء غياب الشفق الأحمر، هذا بالتدريج.

الحكمة من تحرك الشمس:

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)

ولحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل: الشمس عند الشروق أشعتها لازَوَرْدِيَّة، نقول: شمس الأصيل عند الغروب أو شمس الشروق، العين تحتملها، تقبلها، تُحَدِّقُ بها ولا تتأثر بها أبداً، ولكن الشمس وهي في كَبَدِ السماء إن نظرت إليها بهرتك أيضاً هذه حكمة بالغة.

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (18) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ)

الْبَحْرَيْنِ: مطلق أي بحرين:

البحرين، العلماء قالوا: **" مُطلق أي بحرين "**. أي البحر الأحمر والبحر العربي، البحر الأحمر والمتوسِّط، المتوسط والأسود، الأبيض والأطلسي.

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ)

أو البحار المالحة والأنهار العَذبة هذان بحران، أو بحرٌ مالحٌ وبحرٌ عذبٌ.

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ)

الخط المتبدل في حركته بين أي بحرين يمنعهما من الاختلاط:

معنى مرج أي ترك، ترك ماء البحرين تضطربان لكن:

(بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ)

(سورة الرحمن)

الذي قرأته عنه في هذا الموضوع أن هذه الآية حيّرت العلماء، أين هذا البرزخ بين البحرين ؟ من خلال المراكب الفضائية، ومن خلال التصوير الفضائي اكتشف أن بين كل بحرين خطاً، هذا الخط متبدِّل في حركته، بمعنى أن مياه كل بحرٍ لا تختلط بمياه البحر الآخر ولا تطغى عليه، وطبيعة هذا البرزخ حتى الآن مجهولة، إلا أنّه من الثابت أن كل بحرٍ له مكوناته وله ملوحته وله كثافته، ولا يمكن أن يختلط بمياه البحر الآخر مع أنهما متصلان.

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

الحكمة من وجود الحجر المحجور بيمن المياه العذبة و المالحة:

إن الأنهار الضخمة العملاقة التي تصبُّ في البحار بين مائها العذب وبين الماء المالح أيضاً حجراً محجور.

(هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً)

(سورة الفرقان)

البرزخ يمنع اختلاط كل مياهٍ بالمياه الأخرى، وأما الحجر المحجور فيمنع انتقال الأسماك التي تعيش في المياه العذبة إلى المياه المالحة والعكس، لذلك أكثر مكان تُصطاد فيها الأسماك هي مصبّات الأنهار لأن أسماك الأنهار لا تنتقل إلى البحار لوجود هذا الحِجر المحجور بين المياه العذبة والمياه المالحة.

(وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً)

خلق اللؤلؤ ليكون زينة للمرأة:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ)

اللؤلؤ حيوانه اسمه المَحَار، وهو حيوان بحري هلامي رخو، غلافه هذا الصدف الذي ترونه، أي صفيحتان كلسيّتان قاسيتان جداً، ولهذا الحيوان طِباع وله أجهزة دقيقة جداً إلا أن هذا الحيوان لو دخلت حَبّة رملٍ إلى مملكته عنوةً لعالج هذا الخطر الداهم بإفراز مادةٍ كلسيةٍ فسفوريةٍ على هذه الحبة من الرمل، هذه المادة الفسفورية الكلسية التي يُفرزها على حبة الرمل هي اللؤلؤة، هو لا يدري بل إنه يدافع عن نفسه ويهاجم أعداءه ويصنع اللؤلؤ، واللؤلؤ خُلق خصيصاً ليكون زينة للمرأة.

(وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)

(سورة فاطر: آية " 12 ")

اللؤلؤ مصمم خصيصاً ليكون زينة للمرأة، لذلك هذا المحار من خلقه ؟ ومن جعل طبعه أنه يُهاجم حبة الرمل بمادةٍ كلسيةٍ فسفورية ؟ الآن هناك لؤلؤ مزروع زراعة، يستخرجون المَحار ويضعون فيه حبة رمل ويعيدونه إلى البحار داخل صناديق خشبية مربوطة ببواخر، ويبقى المحار في البحر أشهراً طويلة ليُفرز مادةً كلسية على حبة الرمل الموضوعة فيه، ولكن هناك فرقاً بين اللؤلؤ الطبيعي وبين اللؤلؤ الزراعي، أما الصناعي فإنه مصبوب صب، يوجد عندنا لؤلؤ طبيعي، ولؤلؤ زراعي، ولؤلؤ صناعي، فرقٌ كبير في صفاء اللؤلؤة الطبيعية عن اللؤلؤة الزراعية.

اللؤلؤ و المرجان من آيات الله الدالة على عظمته:

قال تعالى:

(يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ)

وأما المرجان فهو حيوان يعيش في البحار، وقرأت عنه الشيء الكثير، شيءٌ لا يُصدق، هذا الحيوان يتوالد مع الاتصال، أي ذرّيته لا تنفصل عنه، لذلك نجد في أستراليا رصيف من المُرجان طوله أكثر من ألف وستمئة كيلو متر وعرضه خمسين كيلو متر، والبحر الأحمر كلُّه مرجان، أي أن الصخور المرجانية أساسها حيوان صغير يتوالد بطريقةٍ خاصّة هو أن ذريّته تبقى متصلة به فينمو، ولا مجال للتفاصيل فهناك دراسات حول المرجان، وله ألوان رائعة ؛ ألوان برتقالية، ألوان قُرمزية، ويعيش السمك بين المرجان، على كلٍ هاتان آيتان من آيات الله الدالة على عظمته.

تكرر آية اللؤلؤ و المرجان لإيقاظ العقول:

(يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (22) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

طبعاً هذه الآية التي تتكرر لتوقظ العقول، هل فكّرت في هذا ؟ اشتريت حبلاً من اللؤلؤ لزوجتك هل فكّرت من خلق هذا اللؤلؤ ؟ من صممه ؟ من جعله ليكون وسيلةً لِخَطْبِ ودِّ المرأة ؟

الحكمة من قوة تماسك الماء:

(فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (23) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآَتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)

(سورة الرحمن)

أي من جعل في الماء قوة تماسك ؟ طبعاً كما تعلمون الجسم الصُلب له شكلٌ ثابت وله حجمٌ ثابت، أما الجسم المائع له حجمُ ثابت وشكلٌ متغيّر، أما الجسم الغازي له شكلٌ متغيّر وحجمٌ متغيّر، معنى هذا أن الماء وسط بين الغاز وبين الصلب، معنى هذا ما دام الماء حجمه ثابت إذاً هناك تماسك بين ذرّاته، هذا التماسك الذي بين ذرّته يرفض دخول جسم فيه، هذا الرفض أو هذا الدفع كما سمّاه أرخميدس هي القوة التي تدفع الأشياء نحو الأعلى في الماء، لذلك تجد الباخرة مدينة، الآن توجد ناقلات نفط تحمل مليون طن.

(وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآَتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)

الآن توجد بواخر تأخذ المواد الأولية من استراليا وتصنّعها معادن وهي في الطريق، أي إنه معمل ضخم متنقِل، لولا أن الماء متماسك، وأن الأجسام التي تُغمس فيه يدفعها نحو الأعلى بقانون أرخميدس لما كان هناك بواخر، وهذا البحر هو همزة وصلٍ لا همزة فصل، أي أن الآن الطريق المعبّد يكلِّف ألوف الملايين، البحر كلّه طرُق، والناقلات عملاقة ممكن أن تنقل السيّارات، والشاحنات، والمواد الأولية، والقمح، والقطن، كل شيء تنقله بكميّات فَلَكِيّة من قارةٍ إلى قارة.

تصميم البحر كالجبال:

قال:

(وَلَهُ الْجَوَارِ)

له أي هو الذي صمم البحر، هو الذي قنن هذا القانون.

(وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآَتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)

أي كالجبال.

(فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

أي أن الله عزّ وجل جعلنا شعوباً وقبائل لنتعارف، هنا يُزرع الشاي، هنا البن، هنا الموز، كل بلد له إنتاج زراعي يُعمم، هنا قصب السكر مثلاً في كوبا، الشاي في سيلان، الموز في إفريقيا فرضاً، والناس في حاجة إلى بعضها البعض فعن طريق البحار وعن طريق السفن تُنقل البضائع، وتنقل المحاصيل، وتنقل المعادن، والصناعات، والطاقة، وما إلى ذلك.

(وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآَتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (24) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

الفناء مصير كل شيء في الكون:

كل هذا الكون.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

(سورة الرحمن)

كل من في المسجد بعد مئة عام ولا واحد مننا موجود (أخذت أقصى شيء)، ولا واحد موجود، وقبل مئة عام لم يكن ولا واحد موجود.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

يبقى العمل الصالح، اللذائذ تنقضي وتبقى الآثام، والمتاعب تنقضي ويبقى الأجر، هذه الآية:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

العمل الصالح أساس نجاة الإنسان يوم القيامة:

كل مخلوقٍ يدِبُّ على الأرض فان، هل استثني أحد ؟ أبداً، الأنبياء ماتوا، قال تعالى:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

(سورةالزمر)

أي محكومٌ عليكم بالموت، فإذا الإنسان أيقن بالموت يستعد له بالعمل الصالح، بالإنفاق، بطلب العلم، بتعليم العلم، بخدمة الخَلق، بالأمر بالمعروف، بالنهيّ عن المنكر.

الجلال و الإكرام أعظم صفات الرحمن:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

كل صفات القوة مجموعةٌ في الجلال، وكل صفات الكمال مجموعةٌ بالإكرام، فالله سبحانه وتعالى:

(ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

عظيمٌ عظيم عظيم، وكريمٌ كريمٌ كريم، بقدر ما تُحبه تُعظِّمه، وبقدر ما تُعظِّمه تحبه.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

الله عز وجل جعل الإنسان خليفة للإنسان في الأرض:

أوضح مثل: اذهب إلى أحد الأسواق القديمة كم طقم (جيل) تجّار استلموا هذه المحلات ؟ جيل بعد جيل، بعد جيل بعد جيل، الله جعلنا خلائف، كان بيت فلان فتوفي الأب، المحل تسلم، أخذه فلان أسسه وعمل فيه مشروع، كبر، مات، سلّمه المحل وهكذا والبيوت كذلك، الله جعلنا خلائف.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (28) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

هذه الآيات إن شاء الله نشرحها إن أحيانا الله في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرحمن 055 - الدرس (4-7): تفسير الآيات 26-30
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-01-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس الرابع من سورة الرحمن، ومع الآية التاسعة والعشرين.

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله عزّ وجل في الآية السادسة والعشرين:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

ظن الملائكة بأن كل من على الأرض فان فقط:

ماذا نستفيد من هذه الآية ؟ ربنا سبحانه وتعالى يُعلِمُنا أن كل من على الأرض فان، لأن الله سبحانه وتعالى في مطلع السورة قال:

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

فلما قال:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا)

الهاء هنا تعود على الأرض.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

فظن الملائكة أن كل من على الأرض فجاء قوله تعالى:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)

(سورة القصص: آية 88)

فوائد فناء الخلق:

1 - الخلق كلهم متساوون:

أيها الأخوة: يجب أن نقف وقفةً متأنيةً عند هذه الآية، فناء الخلق ماذا يفيدنا ؟ أول فائدةٍ تُستفاد من فناء الخلق أن الخلق كلّهم سوف يتساوون، فالموت يُلغي غِنى الغَني، ويلغي فقر الفقير، ويُلغي قوة القوي وضعف الضعيف، يلغي صحّة الصحيح ومرض المريض، يُلغي وسامة الوسيم ودمامة الدميم، كل

شيءٍ يُلغى في الموت، يعود الإنسان كأي إنسانٍ خلقه الله عزّ وجل ؛ العظماء، الكبراء، الأغنياء، الجبابرة، الملوك، الضعفاء، المَرضى، المقهورون، المستضعفون..

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

هذا هو المعنى الأول.

2 ـ فناء الخلق سبب لانتقالهم إلى الدار الآخرة:

المعنى الثاني أيها الأخوة: أن الإنسان حينما يفنى فناؤه سببٌ لانتقاله من دارٍ إلى دار، إن فناء الخَلق سببٌ لانتقالهم إلى الدار الآخرة، وشتّان بين الدارين، دارٌ دُنيا، ودارٌ عُليا، دارٌ أساسها الفناء، ودارٌ أساسها البقاء، دارٌ أساسها الهمّ والحزن، ودارٌ أساسها الطُمأنينة والأمل، دارٌ أساسها الكَدُّ والسَعْيُ، ودارٌ أساسها العطاء، دارٌ أساها التكليف ودارٌ أساسها التشريف، دارٌ أساسها العمل ودارٌ أساسها الجزاء، فلولا الفناء لما انتقلنا إلى الدار الآخرة.

والحقيقة: الدنيا إعدادٌ للآخرة لكن الحياة التي تُمثِّل كَرَمَ الله عزّ وجل وعطاءه الأبدي السرمدي هي الدار الآخرة، العظيم إذا أعطى لا يأخذ، لكن كل عطاء الدنيا سوف يؤْخَذ، هل يبقى شيء ؟ هل يبقى المال ؟ هل يبقى العزُّ والسلطان ؟ هل يبقى الشباب المتألِّق ؟ هل يبقى التمتُّع بملاذ الدنيا ؟ أتتناسب الدنيا مع كرم الله عزّ وجل ؟ الموت يُنهي كل شيء ؛ ينهي غنى الغني، ينهي فقر الفقير، ينهي قوة القوي، ينهي ضعف الضعيف، ينهي صحة الصحيح، مرض المريض، وسامة الوسيم، دمامة الدميم، يُنهي كل شيء.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

الأحمق من يعلق آماله على الدنيا:

الشيء الأول الذي يُستفاد من فناء الخَلق أنهم سوف يتساوون مساواةٌ تامّة، ما الفرق بين أن يموت إنسانٌ فقيرٌ ضعيفٌ ويوضع في حفرةٍ، وبين أن يموت ملكٌ قوي ويوضع في حفرة وينتهي الأمر، وبعد حين تفنى الجُثتان ؟ استوى العظيم مع الصغير، استوى الغني مع الفقير، الموت يسوّي بيننا جميعاً، الموت سببٌ لانتقال الإنسان من دار العمل إلى دار الجزاء، من دار التكليف إلى دار التشريف، من دار الفناء إلى دار البقاء، من دار المتاعب إلى دار الطُمأنينة، النبي عليه الصلاة والسلام في إحدى خطبه يقول:

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عُقبى))

الآخرة دار استواء و فرح، فالذي يلفت النظر أن الإنسان يعلِّق آماله الكبيرة على الدنيا وحياته منوطةٌ بسيولة دمه فإذا تجَمّد بضعٌ من دمه في شرايينه يقول لك: أصابته جلطةٌ ومات، إذا تجمّدت نقطة دمٍ في دماغه يقول لك: خثرة دماغية، شُل شللاً نصفياً، غاب عن الوعي، فقد نُطقه، فقد ذاكرته، فهذا الذي يُعَلِّق الآمال على الدنيا على أي شيءٍ يرتكز:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

الوقت أغلى شيء في حياة الإنسان:

أيها الأخوة: والله العقل كل العقل، والفلاح كل الفلاح، والذكاء كلُّ الذكاء، والتوفيق كل التوفيق، والتفوُّق كل التفوق في العمل للآخرة، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

(من سنن الترمذي: عن شداد بن أوس)

نحن في هذا المسجد المتواضع كم أخ غادرنا في هذه السنوات العشرين ؟ كم أخ كان معنا ثم غادرنا ؟ هكذا الحياة الدنيا، من منا يضمن أن يعيش ساعةً بعد هذه الساعة ثانية ؟ الموت يأتي بغتةً، فلذلك عندما يقول ربنا عزّ وجل:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

أي أن أيها الإنسان احرص على الوقت، الإنسان حينما يستيقظ معنى ذلك أن الله سمح له أن يعيش يوماً جديداً، ما من يومٍ ينشَقُّ فجره إلا وينادي: يا ابن آدم أنا خلقٌ جديد وعلى عملك شهيد فتزوّد مني.

العمل الصالح أساس النجاة من النار:

لو أن الإنسان حاسب نفسه كل يوم مساءً، ماذا فعلت من عملٍ ينفعني بعد الموت ؟ ماذا فعلت من عملٍ ينفعني في الدنيا ؟ فالإنسان في حركة دائمة، يتحرّك دائماً لكسب المال، لتحقيق مصالحه في الدنيا، ولكن السؤال المُحْرِج هذا اليوم قد انقضى قبل أن ينام: ماذا فعلت فيه من عملٍ ينفعني بعد الموت ؟ هل طلبت علماً ؟ هل علّمت علماً ؟ هل أمرت بمعروف ؟ هل نهيت عن منكر ؟ هل قرأت القرآن ؟ هل ذكرت الواحد الديّان ؟ هل نصحت مسلماً ؟ هل أعنت فقيراً ؟ هل عُدت مريضاً ؟ هل شَيّعت جنازةً ؟

هل مسحت رأس يتيم ؟ هل اعتنيت بامرأةٍ أرملةٍ من أقربائك من محارمك، اعتنيت بها، أمّنت لها حاجاتها ؟ ماذا فعلت من عملٍ ينفعك بعد الموت ؟

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

المعاصي و الطاعات تنتهي و يبقى المسؤولية و الثواب:

توجد ملاحظة ثالثة أيها الأخوة: المعاصي إذا توهَّم المتوهِّمون أن لها لذائذ فإن هذه اللذائذ تنقضي وتبقى المسؤولية.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

والطاعات إن كانت ذات كُلفة وذات مشقّة تنقضي المشقّة ويبقى الأجر والثواب، تماماً كما لو أن طالبين أحدهما أمضى العام الدراسي مع أصدقائه وفي نزهاتٍ وفي سهراتٍ باطلةٍ، ثم جاء الامتحان، والثاني أمضى العام الدراسي في جدٍ وتعبٍ واجتهاد وسهرٍ وكَد، الامتحان هو الفيصل الذي نجح بتفوق ينسى كل أتعابه وتبقى لذّة الفوز، والذي رسب ينسى كل لذائذه ويبقى خزيّ الرسوب.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

الفناء يسوّي بين الناس.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

الفناء سبب لنقلة الإنسان من دار الفناء إلى دار البقاء:

الفناء سببٌ لنقلة الإنسان من دار الفناء إلى دار البقاء، فالإنسان أحياناً يكون ساكناً في بيت صغير قميء مظلم، متألمّ أشد الألم، ضيّق، فجأةً لسببٍ أو لآخر ينتقل لبيتٍ واسع مشرف له إطلالة وفيه كل حاجات الإنسان.

أيها الأخوة: هذا السبب الذي نقله من هذه الدار إلى تلك الدار سببٌ مؤلمٌ أم مفرح ؟ مفرح. لذلك المؤمن ينتقل من الدنيا إلى الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، كيف أن المؤمن ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، الدُنيا ضيّقة إلى سعة الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم (سبعمئة وخمسين سنتيمتر مكعب) إلى سعة الدنيا، يسافر إلى كندا، إلى اليابان، يركب الطائرات، يرى القارّات الخمس، يرى البحار، كان في الرحم، وكذلك المؤمن ينتقل من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، كذلك المؤمن ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، فالفناء سبب الانتقال، والفناء سبب المساواة، والفناء يعني أن الوقت محدود.

الموت نهاية العمل الصالح:

تصور طالباً في الامتحان معه ثلاث ساعات (الآن ساعتين) وهذه مادة أساسية ويعلِّق آمالاً عريضةً على نجاحه في هذه المادة، هل من الممكن في هاتين الساعتين أن يصلِّح ساعته ؟ أو أن يعبث بقلمه ؟ أو أن يُصلح ثوبه ؟ أو أن يمتنع عن الكتابة ؟!! الوقت محدود، ما دام هناك نهاية للوقت وهذا الوقت ثمين وفيه مهمة خطيرة، فلما ربنا عزّ وجل يقول لنا:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

يعني أيها الإنسان إنّك ميت وعندما يموت الإنسان يُختَم عمله، ليس هناك من عملٍ صالحٍ بعد الموت، لا توجد أعمال صالحة ؛ لا يوجد مال، لا يوجد وقت تصلِّي فيه، ولا في وقت تتعلم فيه، ولا في وقت تعلِّم فيه، ولا في وقت تنصح الناس، ولا في وقت تبذل مالك، ولا في وقت بالأساس تنفقه.

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّين)

(سورة الفاتحة)

خُتِم العمل.

العاقل من يستعد للموت بالتوبة النصوح:

عندما يقول ربنا عزّ وجل:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

أي أن الوقت ضيق، والحقيقة أيها الأخوة الكرام نحن زمن، نحن في حقيقتنا الأساسية زمن، ومُضِيُّ الزمن يستهلكنا، وكل واحد كلّما عاش يوماً قلّ عمره يوماً، تماماً كقطارٍ انطلق من محطةٍ وسيقف في المحطة التالية، فكل دقيقة تقرّبه من المحطة التالية، فالأولى بالإنسان أن يَعُدّ عمره عدّاً تنازُلياً، وكل واحد وصل إلى الأربعين هناك سؤال محرج وسؤال خطير، وهذا السؤال: هل بقي بقدر ما مضى ؟ فكلكم يعلم كلما مات رجل فاسألوا عن عمره، اثنين وستين، تسعة وخمسين، ثلاثة وخمسين، تسعة وأربعين، أربعة وسبعين، أما ثمانين قلائل جداً، النبي يقول: معترك المنايا بين الستين والسبعين. سيّد الخلق عاش ثلاثة وستين سنة، فإذا شخص بلغ الأربعين معنى هذا أن الذي بقي أقل مما مضى، والذي مضى فإنه مضى كلمح البصر، إذاً الذي بقي يمضي مثله، فهذا الموت آتٍ لا محالة، كلّما ازداد عقلك، وكلّما ازدادت بصيرتك تستعد له، لا أحد يستطيع أن يُلغي الموت، ولا أحد يمكن أن يُنكر الموت، لا إنكار ولا إلغاء، ولكن الإنسان يستعد للموت بالتوبة النصوح، بالعمل الصالح، بطلب العلم، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالدعوة إلى الله، بخدمة الخلق، بعملٍ تبتغي به وجه الله.

إشارات الله إلى الإنسان بأن اللقاء قد اقترب:

أيها الأخوة الكرام: بعض الأحاديث أكررها كثيراً، يقول عليه الصلاة والسلام:

((بادروا بالإعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

هذه الدنيا لو تمتّعت بها ؛ بالمال، بالصحة، بالجاه، بالزوجة، بالأولاد، كل شيء على ما يُرام، سؤال واقعي: هل بإمكانك أن تعيش على هذه الحال إلى أبد الآبدين ؟ هل من الممكن أو هل في الإمكان أن تستيقظ كل يوم كاليوم السابق لا يوجد فيك شيء ؟ لا، فالذي أراه من خلال التجارب عندما الإنسان يدنو أجله يُصاب بعطب في أجهزته، قد يبدأ العَطب من كُليتيه، أو من كبده، أو من قلبه، أو من دماغه، أو من أعصابه، أو من جرثومٍ أصابه، أو من حادثٍ حدث له، فالموت لا بُدّ واقع وله مقدّمات، ولكن من رحمة الله جلّ جلاله علينا أن الإنسان بعد الأربعين خَطّه البياني يهبط، يضطر إلى وضع نظارة على عينيه، يشيب شعره، ينحني ظهره، يشعر بألمٍ في مفاصله أحياناً، ما معنى ذلك ؟ كان من الممكن أن تبقى نشيطاً شاباً إلى ساعة الوفاة، لكن الله أراد للإنسان أن ينزل خَطّه البياني لعلّه يتذكّر أنه سيلقى الله، فهذا ضعف البصر، وضعف السمع أحياناً، ووهن القِوى، وانحناء الظهر، وشيب الشعر، إشاراتٌ لطيفةٌ لطيفة من الله أن يا عبدي قد قَرُبَ اللقاء فماذا أعددت لهذا اللقاء ؟

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدّمَتْ لِغَدٍ وَاتّقُوا اللّهَ إِنّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

(سورة الحشر)

محاسبة الله للإنسان يوم القيامة:

ماذا أعددت للدار الآخرة ؟ ماذا أعددت ليوم القيامة ؟ ماذا أعددت وأنت واقفٌ بين يدي الله عزّ وجل ؟ يقول لك: يا عبدي منحتك الوجود، منحتك السمع والبصر والفؤاد، أعطيتك مالاً، أعطيتك زوجةً، رزقتك أولاداً، ماذا فعلت ؟

(وَكُنّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ)

(سورة المدثر)

الناس ركبوا صحون فركبنا صحناً، سهروا حتى الساعة الخامسة بعد الفجر ولم يصلوا وفعلنا مثلهم.

(وَكُنّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنّا نُكَذّبُ بِيَوْمِ الدّينِ (46) حَتّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشّافِعِينَ)

(سورة المدثر)

يقول الله عزّ وجل لعبدٍ أعطاه مالاً:

((أن عبدي أعطيتك مال فماذا صنعت فيه ؟ يقول: يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فيقول الله له: ألم تعلم بأني الرزاق ذو القوة المتين ؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم...))

(ورد في الأثر)

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

القلب ينبض فاغتنم القيام بالأعمال الصالحة:

لا أحد منّا سيبقى بعد مئة عام وربما بعد خمسين عاماً لا يبقى أحد، وقد أتى في الدهر يومٌ لم نكن نحن جميعاً شيئاً مذكوراً وسيأتي يومٌ ننتهي، كلنا تحت أطباق الثرى، ألا تقرءون التاريخ، أين الرومان ؟ أين الأقوام السابقة ؟ الآراميين، الكلدانيين، الكنعانيين، أين هؤلاء الذين كانوا في هذه البلاد طولاً وعرضاً ؟ طواهم الردى وأصبحوا خبراً، والله قال:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

(سورة المؤمنون: آية 44)

نحن الآن في حياة، القلب ينبض، فأنت الآن حر، أنت الآن تملك الوجود، أنت موجود وتملك حرية الاختيار، وتملك طلب العلم، وتملك معرفة الحقيقة، فماذا تصنع ؟ أم ماذا كنتم تعملون ؟

معرفة كتاب الله هدف لا يعلو عليه هدف:

أيها الأخوة الكرام: والله ما من عملٍ أخطر ولا أعظم من أن تعرف الحقيقة، أن تعرف من أنت ؟ أنت كائن لماذا خلقك الله عزّ وجل ؟ لماذا جاء بك إلى الدنيا ؟ فهل يوجد إنسان يسافر إلى بلد على وجه الأرض وينام في أحد الفنادق ويستيقظ ولا يدري لماذا هو في هذا البلد ؟ يوجد هدف كبير يقول لك: رحلة سياحية (سائح)، رحلة تجارية (تاجر) رحلة علمية، توجد كلمة واحدة، سافر إلى فرنسا ليدرس الطب في جامعة السوربون، من أول حركة ؛ إعداده لأوراقه، نشاطه، مخططه، هدفه طلب العلم، والثاني هدفه التجارة، والثالث هدفه السياحة، فإنسان في الأرض هو في الأرض ؛ يأكل، ويشرب، وينام، ويعمل، ولا يدري لماذا هو في هذه الدنيا ؟ هذا هو أجهل الجَهل، وهذا هو الجهل الخطير ألاّ تعرف لماذا أنت في الدنيا، هذا الذي يتحرّك بحكم أنه حيّ.

((مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين))

(رواه النسائي عن ابن عمر)

((مثل المنافق في الصيام كمثل الناقة حبسها أهلها فلا تدري لا لما حبست، ولا لما أطلقت))

يعيش على هامش الحياة، إنسان الله أودع فيه عقلاً، أعطاه حرية اختيار، أنزل له كتاباً من السماء فيه بيان كل شيء، هذا القرآن منهجنا، كتابنا، كتاب ربنا، بيّن لك آياته، بيّن لك تشريعه، بيّن لك المصير، الماضي السحيق، المستقبل البعيد، آياته الكونية والتكوينية والتشريعية، بيّن كل شيء، لذلك معرفة هذا الكتاب هدفٌ لا يعلو عليه هدف.

المؤمن الصادق من يطلب العلم:

أنا أرى أن المؤمن الصادق يشكِّل حياته وَفْقَ مجالس العِلم، الأصل مجالس العلم، ولا يحضر هذه المجالس على فراغه، لا، عندك ضيف أنا عندي مجلس علم إنني أعتذر، أحياناً الإنسان يرتِّب أوقاته كلّها ومواعيده كلّها على أساس أن هذه المجالس لا بدّ من أن يحضرها وأن يتابعها لأنها كلام ربنا عزّ وجل، هذه مائدة الله عزّ وجل، إذا أردت أن تعرف حقيقة الإنسان فاقرأ كتاب الله، قال لك:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

الدنيا محط رحال الكافر:

هذا الحديث الشريف:

((بادروا بالإعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

كل يوم كاليوم السابق ؟ لا، في يوم مفاجأة، يقول لك: استيقظت فلم أرَ بعيوني، استيقظت فإذا وجع في صدري، أبداً اسأل الناس، إنه يُفاجأ إما بألم في صدره، أو بخلل في بصره، أو في وهن في قوّته، أو في ضعف في حركته:

((فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

هذا الكلام موجّه لغير المؤمنين، هذا الكلام موجّه لمن أحبوا الدنيا، لمن ركنوا إليها، لمن جعلوها مَحَطّ رحالهم، لمن جعلوها غاية آمالهم، لمن جعلوها دَيْدَنهم، لمن جعلوا الدنيا كل شيء.

ماذا ينتظر الإنسان من الدنيا ؟

1 ـ فقراً منسياً:

قال عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا...))

(أخرجه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة)

أحياناً لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل يمحق الله المال.

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

(سورة القلم)

أحياناً الإنسان يتعلّق بالمال فالعلاج عند الله فقد هذا المال، يكون عنده مزرعة يضمنها كل سنة بسبعمئة ألف، صقيع خلال دقائق يدَمِّر كل هذه المزرعة، أحياناً تجارة تخسر، مال يُصادَر، بيت يُستملك، مزرعة تحترق.

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا))

ألا تعرفون رجلاً كان غنياً كبيراً فافتقر ؟ كان قوياً فأصبح ضعيفاً:

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا.))

2 ـ غنى مطغياً:

وهل تصدِّقون أيها الأخوة أن النبي عليه الصلاة والسلام عدّ الغني المُطغي من أكبر المصائب، الإنسان حينما يغتني يتكبّر، وحينما يتكّبّر يبحث عن الشهوات، يريد أن يستمتع بالشهوات المُحَرّمات، السبب هو الغنى، عندما كان فقيراً كان مستقيماً فلما اغتنى فَجَر، فهذا الغنى نعمةٌ أم مصيبة ؟ إنه مصيبة.

3 ـ مرضاً مفسداً:

قال:

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا))

أحياناً مرض يجعل حياة الإنسان جحيماً، خلل في أجهزته الخطيرة، خلل في بعض حواسِّه يجعل الحياة جحيماً.

4 ـ هرماً مفنداً:

((أوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أوْ هَرَمًا مُفَنِّداً))

ثم يُرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علمٍ شيئاً، أليس هناك رجال بلغوا أرذل العمر فصاروا يعيدون القصة مئات المرّات، ويحشرون أنفهم في كل صغيرةٍ وكبيرة، أصبحوا عبئاً على أسرهم وتمنى أهلهم خلاصهم ورحيلهم إلى الدار الآخرة.

((أوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أو الدّجّالَ فشَرُّ غائِبٍ يُنْتَظَرُ أو السّاعَةَ فالسّاعَةُ أدْهَى وَأمَرُّ))

(أخرجه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة)

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

العاقل دائماً يعيش المستقبل، والأقل عقلاً يعيش الحاضر، والجاهل الغبي يعيش الماضي.

الموت لا يعرف كبيراً أو صغيراً:

أيها الأخوة: الموت له قاعدة ؟ أحياناً الإنسان يبقى في فراشه ثلاثين عاماً مشلولاً، وأحياناً يُخْطَفُ وهو في أوج قوته، أليس هناك شبابٌ ماتوا في الثلاثين، وفي الخامسة والعشرين، وفي العشرين، وفي السبعة عشر، الموت لا يعرف كبيراً ولا صغيراً، ولا إنسان عقد عقده ولم يدخل، و نال شهادته ولم يُعين بموجبها، الموت لا يعرف، لذلك يقول الله عزّ وجل في سورة الرحمن:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

مرّةً قرأت كتاب قِصَص العرب (أربعة أجزاء) قصص كلها واقعية عن ملوكٍ، وعن وزراء، وعن قواد، وعن ضعفاء، وعن فقراء، وعن أغنياء، وعن أذكياء، وعن حمقى، وعن أُجَرَاء، إلخ، كتاب في أربعة أجزاء فيه قصص ما هبّ ودبّ، استفدت من قراءة هذا الكتاب حقيقةً واحدة: أن كل هؤلاء الذين قرأت عنهم ماتوا، وكلّهم تحت أطباق الثرى، وكلّهم انقلب إلى الدار الآخرة وسيلقى جزاء عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

تعليق المؤمن و الكافر يوم القيامة و جزاؤهما:

ماذا يقول من أوتي كتابه بشماله ؟ يقول:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ)

(سورة الحاقة)

يقول الله عزّ وجل:

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة)

إلى آخر الآيات. لكن:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

(سورة الحاقة)

الحظوظ في الدنيا موزعة توزيع ابتلاء:

كلمة:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

ينبغي أن نقف عندها مَلِياً، الموت يسوّي بين الناس لذلك الحظوظ في الدنيا ؛ المال حظ، الذكاء حظ، العلم حظ، القوة حظ، الصحة حظ، الزوجة الجيدة حظ، الأولاد حظ، الحظوظ موزّعة في الدنيا توزيع ابتلاء.

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

(سورة الإسراء: آية 21)

يوجد أستاذ جامعة، ويوجد أستاذ معيّن في قرية، يوجد مستورد كبير، يوجد بائع متجول، يوجد طبيب جرّاح عمليته بأربعمئة وخمسين ألفاً، يوجد ممرّض يتقاضى راتباً لا يكفيه أياماً، يوجد رئيس أركان ويوجد مجنّد، يوجد صحيح ويوجد مريض، يوجد قوي ويوجد ضعيف.

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً)

(سورة الإسراء)

العبرة قربك من الله تعالى لا حجمك المالي في الدنيا:

إخوانا الكرام: فكرة دقيقة جداً ملازمة لهذه الفكرة، الحظوظ موزّعة في الدنيا توزيع ابتلاء وسوف توزّع بعد الموت في الآخرة توزيع جزاء، حظوظ الدنيا لا تعني شيئاً، قد يكون الفقير أقرب إلى الله من الغني، وقد يكون الضعيف أغلى على الله من القوي، وقد يكون المريض أكثر قُرباً من الله من الصحيح، وقد يكون الذكي مُستحقاً لغضب الله بينما الأقل ذكاءً مستحقاً لرضاه، الحظوظ موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء لكنها سوف توزّع في الآخرة توزيع جزاء، الحظوظ في الدنيا مؤقّتة ولا تعني شيئاً لكن الحظوظ في الآخرة أبدية وتعني كل شيء، أي أن الغنى هنا موقّت، والقوة مؤقّتة، والذكاء موقّت، والجمال موقّت، كلّه موقت في الدنيا، أما توزيع الحظوظ في الآخرة أبدي سرمدي، فالعبرة لا أن يكون لك موقعٌ متميزٌ في الدنيا، العبرة أن يكون لك مقعد صدقٍ عند مليك مقتدرٍ في الآخرة، العبرة قربك من الله لا حجمك المالي، لذلك الآية الكريمة:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

صفات الجلال و الكمال تخص الخالق وحده:

وجه ربك أي ذاته.

(وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى)

(سورة الليل)

الوجه هنا الذات الكاملة.

(ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

الجلال أي أن الله عزّ وجل قوي، غني، مهيمن، عزيز، جبّار، متكبّر، منتقم، والإكرام ؛ رحيم، لطيف، ودود، رؤوف، مُعطي، عفو، كريم، صفات الجلال وصفات الإكرام، كُلنا في الحياة الدنيا قد نُعْجَبُ بإنسانٍ ولا نحبُه، ذكي، في اختصاصه متفوّق لكنه لئيم، وقد نحب إنساناً لا نعجب بذكائه، شخص له قريب طيب جداً لكن محدود، فأنت قد تجد إنساناً تعجب بذكائه ولا تحبُه، وقد تحبُه ولا تُعجب بذكائه، لكن البطولة أن تعرف الله لأن الله جلّ جلاله بِقَدْرِ ما له من صفات الجلال له من صفات الكمال، جليلٌ وكريم، قويٌ ورحيم، جبّارٌ وعفو، بطشه شديد ومغفرته واسعة، لذلك أسماء الله الحُسنى كله يمكن أنة تنضوي تحت زُمرتين: زمرة الجلال، وزمرة الكمال، فربنا سبحانه وتعالى:

(ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

الإنسان عبد لله لا عبد لعبد لئيم:

بعضهم قال: **إنه مُكَرّمٌ عن أن يقع في نقص، مُكَرّمٌ عن أن يتصف بشيْ لا يليق به.** هذا معنى أورده بعض المفسرين، مكرمٌ عن أن يتصف بما لا يليق به لكن السياق يقتضي أن الله سبحانه وتعالى ذو الجلال وذو الإكرام فهل تنصرف عن الله إلى غيره ؟ هل يمكن أن تكون أنت مجيّراً لإنسان، محسوباً على إنسان ؟ هل في الأرض كلّها إنسان يليق بك أن تكون تبعاً له ؟ أنت لله فلا يليق بك أن تكون لإنسان ينبغي أن تكون للواحد الديّان، لا تكون خطأ إنسان، لا تكون تابعاً لإنسان، لا تكون عبداً لعبد، بل كن عبداً للخالق، كن عبد الله لا تكن عبد عبدٍ لئيم، أنت أعظم وأكرم من أن تكون تبعاً لإنسان لأن هذا الإنسان لا ينفعك.

مرّة أحد الولاة سأل سيدنا عمر فقال له: إن أناساً قد اغتصبوا مالاً ليس لهم لست أقدر على استخراجه منهم إلا أن أمسّهم بالعذاب فإن أذنت لي فعلت، فقال له عمر: **يا سبحان الله أتستأذنني في تعذيب بشر؟ وهل أنا لك حصنٌ من عذاب الله ؟ وهل رضائي عنك يُنجيك من سخط الله ؟ أقم عليهم البينة فإن قامت فخذهم بالبينة، فإن لم تقم فادعوهم إلى الإقرار، فإن أقروا فخذهم بإقرارهم، فإن لم يُقِرُّوا فادعوهم لحلف اليمين، فإن حلفوا فأطلق سراحهم، وَيْمُ الله لأن يلقوا الله بخيانتهم أهون من أن ألقى الله بدمائهم.** فلا يليق بك أن تكون لإنسان، أنت لله، كن حراً.

التوحيد عين الإيمان:

مرّة والي البصرة كان عنده التابعي الجليل الحسن البصري ويبدو أنه جاءه توجيه من يزيد لا يُرضي الله، فوقع هذا الوالي في حيرة وفي صراع ماذا يفعل ؟ أينفِذ أمر الخليفة فيُغضب الله عزّ وجل، أم يمتنع عن تنفيذ أمر الخليفة فيغضب الخليفة ويعزله ؟ قال: يا إمام ماذا أفعل إلى جانبه الحسن البصري؟ قال: ماذا أفعل ؟ والله أجاب هذا الإمام التابعي الجليل إجابة تُكتب بماء الذهب ويمكن أن يستخدمها الإنسان طوال حياته، قال له بإيجازٍ بليغ: **إن الله يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله.** الذي أمرّك بمعصية فإن الله عزّ وجل يمنعه منك لكنك إذا أرضيته وعصيت الله لا يمنعك من الله، أي إذا الله عزّ وجل سمح لبعض الخلايا أن تنمو نمواً عشوائياً في منطقة حرجة من يمنعها ؟ يمنعك صديقك القوي الذي أعطاك رقم هاتفه لتتصل به عند الضرورة ؟! تقول له: والله ظهر نمو سرطاني (فدبره)، هذا الذي تعتز به هل يمنع خلايا الإنسان أن تنمو نمواً عشوائياً ؟ بلا سبب ساعة يقول لك: سرطان في الدماغ، ساعة في العظم، ساعة في الدم، ساعة في الأمعاء، ساعة في القولون، ساعة في

المعدة، أليس كذلك ؟ قال له: إن الله يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله. هذا هو التوحيد **وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد.**

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

الافتقار إلى الله عز وجل:

ثم يقول الله عزّ وجل في الآية التالية:

(يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

قال العلماء: **يسألونه بألسنتهم وأحياناً يسألونه بلسان حالهم.** ذكر لي أخٌ أنه قد بلغت كمية الأمطار قبل أسبوع ثلاثين ميليمتراً، في الفترة السابقة من العام الماضي بلغت مئة وثمانين ميليمتراً، ثلاثين من مئة وثمانين، في هذه الأيام الثلاثة نزل ثلاثين ميليمتراً كأمطار الموسم هذا كلِه، فالله عزّ وجل نسأله، إما أن نسأله بألسنتنا: اللهمّ اسقنا الغيث، وإما أن يسأله الناس بلسان حالهم، وكل إنسان بحاجة إلى شيء فإن حاجته إلى الشيء نوعٌ من السؤال، لذلك الله جلّ جلاله يحتاجه كلُ شيء في كلِ شيء، فإما أن تسأله بلسانك، وإما أن تسأله بلسان حالك، وإما أن تكون محتاجاً إلى هذا الشيء، فالحاجة سؤال، والاستعداد لقبولها سؤال، فكل الخلق مفتقرون إلى الله عزّ وجل، يحتاجه كلُ شيء في كلِ شيء. الشجرة إذا قلّ ماؤها وذبُلت أوراقها كأنها تسأل الله المطر، الدابّة إذا جاعت تبحث عن الطعام فإن هذا البحث كأنها تسأل الله الطعام، الإنسان، الطفل يبكي، لماذا يبكي ؟ لأنه جائع، بكاؤه سؤال، فإما السؤال من عاقل، أو سؤال من نبات أحياناً، سؤال من حيوان أحياناً.

شأن الخالق مع كل مخلوق شأن في منتهى الحكمة و الكمال:

(يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

لكن كل يوم هو في شأن، أي أن شأنه مع المستقيم تمام، وشأنه مع العاصي المُعالجة، وشأنه مع الكريم الإعطاء، ومع البخيل الإتلاف، الله عزّ وجل حكيم له مع كل مخلوقٍ وفي كل وقتٍ شأن، شأن حكيم، له مع كل مخلوقٍ وفي أي وقتٍ بحسب حال المخلوق شأن.

فأنت أب لك ابن صحته طيبة ولا يشكو شيء تقول له: كُلْ يا بني، كل ما شئت، لكن أنت أب (أنت أنت)، والابن مريض معه التهاب أمعاء شأنك معه أن تمنعه من هذا الطعام، وأن تجعل له طعاماً خاصاً به، شأنك مع ابنك المتفوّق أن تُكرمه، ومع ابنك الكسول أن تؤدِّبه، شأنك مع ابنك الصادق أن تُثني عليه، ومع ابنك الكاذب أن تزجره وأن تعنِّفه، شأنك مع من يرضيك أن تُرضيه، وشأنك مع من

يعصيك أن تؤدِّبه، فالله عزّ وجل يغفر وينتقم، يرحم ويغضب ويرضى، يعطي ويمنع، يرفع ويخفض، يصل ويقطع، ويُعز ويُذل، الإعزاز شأن، والإذلال شأن، والإعطاء شأن، والمنع شأن، والقبض شأن، والبسط شأن، والإكرام شأن، وإلقاء التجلِّي في قلب المؤمن شأن، وحجبه عن هذا التجلِّي شأن، يعطي ويمنع، يخفض ويرفع، يُعز ويُذل، يقرّب ويبعد، يقطع ويصل، يتجلِّى ويمنع تجليه، له نفحات تأتي إليك وقد يمنعها عنك (شأن) ربنا عزّ وجل حكيم وعليم وغني وقدير، شأنه مع كل مخلوقٍ شأنٌ في منتهى الحكمة والكمال.

(كُلّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

شأن الله مع العباد شأن حكيم:

الآن تروي القصص أن سيدنا موسى دعا الله بالسُقيا (لا توجد أمطار) فأوحى الله إليه: **أن يا موسى إنّ فيكم عاصياً**، فقال موسى عليه السلام لمن حوله: **من كان عاصياً لله فليُغادرنا**، ما غادره أحد والأمطار هطلت، قال: **يا رب من هذا الذي يعصيك من بيننا ؟** قال: **عجبت لك يا موسى أستره وهو عاصٍ وأفضحه وهو تائب ؟!!**

فأحياناً يستر، وأحياناً يعطي، من لا شيء صار كل شيء، من الفقر صار غنياً، من الضعف صار قوياً، من البلادة صار ذكياً، شأنه مع العباد شأن حكيم.

(كُلّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

فالآن طبيب (شيء من العلم) مرّ على المرضى في المستشفى فنظر وأمر هذا الضغط عالي أوقفوا عنه الملح، وللثاني الضغط منخفض أعطوه ملح زيادة، يوجد عنده انهدام بالخلايا أطعموه لحماً، هذا معه شحوم زائدة بالدم أوقفوا المواد الدسمة أعطوه خضراوات فقط، طبيب في بدايته كل مريض بحسب تحليل الدم يعطيه أمر، أوامر متناقضة، طبعاً الذي ضغطه عالي لا يعطيه ملحاً، ضغطه منخفض يعطيه ملحاً، الشحوم زائدة يعطيه خضراوات، البروتين ضعيف يعطيه لحوماً، مع كل مريض له شأن.

(وَلِلّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

(سورة النحل: آية 60)

الإكرام عاقبة الشكر و القصم عاقبة الكفر:

(كُلّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

إذا تبت له شأن معك، لم تتب له شأن معك، دعاك إليه بالبيان فإن استجبت له شأن وإن لم تستجب يوجد شأن ثانٍ، يوجد تأديب، تضرّعت له شأن، لم تتضرّع له شأن ثالث (إكرام إستدراجي) شكرت في شأن، لم تشكر في قصم.

(كُلّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

أنفقت زكاة مالك شأنه معك أن يحفظ لك مالك، بخلت بزكاة المال شأنه معك أن يُتلِف المال، أقمت زواجك على طاعة الله شأنه معك أن يوفِق بينك وبين زوجتك، أقمت الزواج على معصية الله شأنه معك أن يُفرّق بينكما، كسبت المال الحلال شأنه معك أن يبارك لك في هذا المال يكفيك هذا المال، درهم من حلال يكفي لأن فيه بركة، الله عزّ وجل من الشيء القليل يهب الشيء الكثير، بكسب المال هناك شبهة شأنه معك إتلاف المال، طبّقت الشريعة في طعامك وشرابك شأنه معك حفظ أجهزتك، خالفت الشريعة شأنه معك إتلاف الأجهزة.

عدل الله المطلق في كل شؤونه:

(يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

شأنه أن يغفر الذنب، وأن يقبل التوبة، وأن يعفو عما مضى، وأن يؤدِّب، وأن يُعاقب، وأن يُعالج، وأن يُغني وأن يُفقر، وأن يعطي وأن يمنع، وأن يرفع وأن يخفض، وأن يعز وأن يذل، هذا شأن الله لكن بالعدل المطلق، والحكمة المطلقة، والرحمة المطلقة.

(يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29) فَبِأَيّ آلَاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرحمن 055 - الدرس (5-7): تفسير الآيات 31-36

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-01-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الخامس من سورة الرحمن، ومع الآية الثلاثين وهي قوله تعالى:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَان: آية من أشد آيات الوعيد:

قال بعض العلماء: **إن هذه الآية من أشد آيات الوعيد**، وهي تشبه قوله تعالى:

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (12) وَبَنِينَ شُهُوداً (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ)

(سورة المدثر)

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً)

أي دعه لي يا محمد، أنا أُرَبّيه، أنا أؤدِّبه، وهذه الآية وهي قوله تعالى:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

محاسبة الناس حساباً دقيقاً يوم القيامة:

فَرَغَ يَفْرُغُ كان مشغولاً ففرغ من شغله، وهذا المعنى لا يليق بالله إطلاقاً، لكن المعنى الآخر الذي ورد في اللغة والذي يليق بكمال الله: فرغ إلى الشيء، أي قصد إليه، أي سنقصد إلى محاسبتكم حساباً دقيقاً.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

الناس لجهلهم يتوهَّمون أنك إذا أكلت مالاً حراماً باحتيالٍ أو بقوةٍ أو بقهرٍ فأنت ذكي، أنك إذا اعتديت على أعراض الناس فأنت فَحْل، إذا فعلت كذا وكذا فأنت شاطر، الله سبحانه وتعالى يُبَيِّن أن هناك حساباً دقيقاً دقيقاً:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

العاقل من يبحث عن جواب لربه عن كل سؤال يوم القيامة:

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

(أخرجه ابن عساكر عن البراء)

سوف يفاجأُ الإنسان يوم القيامة أن أعماله في الدنيا كلها صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، مسجلةٌ عليه بوقتها وزمانها وحجمها ونواياها وأهدافها وأن هذا الكتاب (كتاب الإنسان):

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

(سورة الكهف)

من هو العاقل ؟ العاقل هو الذي يبحث عن جوابٍ لربّه في كل لحظة من حياته، لماذا ابتسم لهذا الطفل ولم يبتسم لهذا ؟ لم يعدل بينهما، لماذا أعطى هذا ولم يعط هذا ؟ لماذا وصل هذا وقطع هذا ؟ كله في حسابٍ دقيق، إن لكل حسنةٍ ثواباً ولكل سيئةٍ عقاباً.

محاسبة الإنسان لنفسه قبل حساب ربه له:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

سنقصد إلى محاسبتكم.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

حساباً دقيقاً على مستوى الذرات لقول الله عزّ وجل:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

ابتسمت في وجه أخيك هو لك صدقة، أفرغت دلوك في دلو المستسقي هو لك صدقة، أمطت الأذى عن الطريق هو لك صدقة، أعنت رجلاً على حمله هو لك صدقة، دللت الضّال إلى مقصده هو لك صدقة، نزعت من المسجد قشة وضعتها في جيبك هو لك صدقة، كل الأعمال الصالحة مسجلةٌ لك، ابتسمت ابتسامة سُخريةٍ سوف تحاسب عليها، شددت نظرك إلى أبيك وكأنّك تُعاتبه تحاسب عليه، أغلقت الباب بعنفٍ تعبيراً عن غضبك تحاسب عليه، تحاسب على مستوى الذّرات، فكيف بالأخطاء الكبيرة ؟ فكيف بأكل أموال الناس بالباطل ؟ فكيف بانتهاك أعراض الناس ؟ فكيف بظلم الزوجة ؟ كيف بظلم الذي عندك يعمل ؟ لا تُعطه حقّه، الظلم ظلماتٌ يوم القيامة..

تهديد الله عز وجل للعباد لأنه يعلم السر و أخفى:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

من أشد آيات التهديد كقوله تعالى:

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً)

(سنفرغ لكم)

سنقصد إلى محاسبتكم، وربنا عزّ وجل إذا حاسب يعلم السر وأخفى، يعلم الخبايا، يعلم النوايا، يعلم الأهداف، يعلم المقاصد، يعلم كل شيء، ويعلم ما أعلنته، ويعلم ما أسررته، ويعلم ما خفي عليك أنت، أنت مكشوفٌ أمام الله عزّ وجل.

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

هذا تهديد، يشبه قوله تعالى:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة فصلت: آية " 40 ")

الدنيا هدنة و امتحان للمؤمن و الكافر:

الله عزّ وجل حينما يهدد هو خالقنا، هو القوي.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

فإذا قال لك إنسان: شكوتك إلى الله، إذا كنت تعرف من هو الله ينبغي أن ترتعد فرائصك، ينبغي أن ينقصم الظهر إن قيل لك: شكوتك إلى الله، لأن الله بصير، وبيده كل شيء.

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

فنحن في دار عمل، والآخرة دار حساب، نحن في دار تكليف، والآخرة دار تشريف، نحن في دار هدنةٍ، الأمور كلها مجمّدة، كالعام الدراسي كل الطلاب يدخلون إلى المدرسة، ويجلسون على مقاعد الدرس ويستمعون إلى المدرس، لكن الذي يدرس يجد هذا يوم الامتحان، والذي لا يدرس يجد هذا يوم الامتحان، الامتحان فرز للمجتهد والمقصِّر، والنتائج إعلان هؤلاء هم الناجحون وهؤلاء هم الراسبون، أما العام الدراسي هُدنة، كلهم طلاب عند الناس، كلهم يرتدون زياً واحداً، كلهم يستمعون إلى محاضراتٍ واحدة، يتلقّون عنايةً واحدة، يستخدمون أدواتٍ واحدة، لكن شتّانَ بين الطالب المجتهد والطالب الكسول، هذا سوف يكّرم وهذا سوف يخزى.

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَان: آية وعد للمؤمن و وعيد للكافر:

إذاً: لا يغتر الإنسان إنه في صحة، هو في بحبوحة، له مكانة، له منصب رفيع، له شأن بين أسرته، هذا كله مؤقت، لكن الغنى والفقر بعد العرض على الله.

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَان)

من أشد آيات الوعيد وبعضهم قال: **هي من آيات الوعيد وآيات الوَعد**، ولا يخفى عليكم أن الوعد للخير، والوعيد للعقاب، قال علماء التفسير: **هذه الآية آية وعدٍ ووعيد**، فالذي جاء إلى الدنيا وتعرّف إلى الله، وتعرّف إلى منهج الله، وطلب العلم، واختار امرأةً صالحة، وربّى بناته على طاعة الله، ونَشّأ أولاده تنشئة إسلامية طيّبة، وكسب المال الحلال وأنفقه في طاعة الله، هذا الذي عرف الله واستقام على أمره وأحسن لخلقه وتقرّب إليه، هذا إذا فرغ الله له ليحاسبه ماذا يفعل به ؟ يدخله الجنة، إذاً هذه آية وعدٍ ووعيد، أي أنه حينما يقرع جرس الامتحان الطالب المجتهد الذي أمضى العام الدراسي كله في دراسةٍ دؤوبة يرقص قلبه فرحاً، لماذا ؟ كل هذا التعب وكل هذا الجهد سوف يأخذ نتائجه الآن، سيكتُب، سيجيب، فهذه الآية ليست آية وعيدٍ فحسب بل هي آية وعدٍ ووعيد.

محاسبة الخلق و تسوية الحساب يدعو العاقل إلى التفكر:

قال بعضهم: الحمد لله على وجود الله، في الحياة الدنيا الأوراق مختلطة، في أقوياء، في ضعفاء، في أغنياء، في فقراء، في أصحّاء، في مرضى، في مقهورين، في متجبرين، في أصحاب أعمار مديدة، في أصحاب أعمار قصيرة، في إنسان وسيم، في إنسان دميم، في إنسان موفّق في زواجه، في إنسان غير موفّق في زواجه، الأوراق مختلطة، لكن الله سبحانه وتعالى سيسوي كل الحسابات، وسيحاسب الخلائق كلها عن كل الهَنات، وسوف يفرغ كما قال الله عزّ وجل لمحاسبة الخلق، فإذا كان في حساب، البطولة في الاستقامة، لو فرضنا افتراضاً ليس هناك حساب وليس هناك آخرة والدنيا هي كل شيء، وليس هناك مبادئ ولا قِيَم، ولا رحمة في قلوب العباد، لكان القوي هو الذكي، ولكان الغني هو العاقل، ولكان الذي يبني مجده على أنقاض الآخرين هو الشاطر، والذي يأخذ ما عند الناس ليستمتع به وحده هو المفلح، ولكن لأن هناك موتاً بعد الحياة، ولأن هناك حساباً دقيقاً بعد الموت، ولأن هناك جنةً إلى أبد الآبدين، وناراً إلى أبد الآبدين، ولأن هناك إلهاً يُحاسب على دقائق الأمور، ويحاسب على الذرّات، وكل شيءٍ عنده بمقدار.

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

العاقل من يمضي وقته في طاعة الله:

لأن هناك موتاً وبعثاً ونشوراً وحساباً وجنة وناراً، وإلهاً يحصي على عباده كل حركاتهم وسكناتهم، إذاً العاقل هو المستقيم، العاقل هو الذي يكسب المال الحلال، العاقل هو الذي يمضي وقته في طاعة الله، في معرفة الله، في خدمة الخلق، في التقرُّب إلى الحق، هذا هو العاقل، لذلك قال العلماء: **ما كل ذكي بعاقل.** قد تجد إنساناً أوتي قدرةً فكريةً فائقة تفوّق بها في دراسته أو في جمع المال، أو تفوّق بها فوصل إلى منصبٍ رفيع، ولكنه إن لم يعرف ربه، وإن لم يعرف أن هناك آخرةً بعد الدنيا وأن هناك حياةً أبديةً سرمدية بعد الحياة الدنيا، وإن لم يستعد لهذه الحياة، وإن لم يستعد للحدث الذي لا بدّ منه، ألا وهو الموت فليس بعاقل لذلك قال تعالى:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ)

(سورة القلم)

أرجح الناس عقلاً أشدهم لله حباً :

رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً مجنوناً، فسأل سؤال العارف:

((من هذا ؟ قالوا: هو مجنون، قال: لا، إنه مبتلى، المجنون من عصى الله))

هذا هو المجنون لذلك:

((أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً))

كلما نما عقل الإنسان اختار الله على خلقه، واختار ما عنده على ما عند خلقه، واختار الحياة الأبدية على الحياة الدنيا العابرة، ما هذه الحياة الدنيا ؟ إن كل مكتسباتك فيها منوطةٌ بضربات القلب، إن كل مكتسباتك فيها منوطةٌ بسيولة الدم، نقطةُ دمٍ إذا تجمّدت في رأس أي إنسان كائناً من كان ولو كان ملكاً يفقد منصبه، أليس كذلك ؟ الله جلّ جلاله هو مالك المُلك، ولا أحد يملك شيئاً في حياته، إذاً الآية الكريمة:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

سنقصد إلى محاسبتكم حساباً دقيقاً، لذلك النبي قال:

((حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، ومن حاسب نفسيه في الدنيا حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً))

المؤمن يُلقي الله في قلبه السكينة و الطمأنينة:

الله عزّ وجل أثنى على نفسٍ إنسانية، قال:

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)

(سورة القيامة)

هذا الذي يجلس قبل أن ينام ماذا فعلت ؟ ماذا قلت ؟ كيف نظرت ؟ إلى ماذا استمعت ؟ هل صُنت سمعي عمّا حرّم الله ؟ هل صُنت بصري عمّا حرم الله ؟ هل ضبطت لساني ؟

((لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه))

(أحمد عن أنس بن مالك)

هل ضبطت جوارحي ؟ هل ضبطت بيتي ؟ هل ربّيت أولادي ؟ هل حفظت بناتي ؟ هل دللت زوجتي على الله ؟ هل أعطيت ما بذمّتي ؟ هل أدّيت واجبي ؟ هل أحسنت رعاية من استرعاني الله به؟ هذا المؤمن يسأل نفسه كل يوم:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ)

(سورة الفجر)

إن كانت نفسه لوّامة في الدنيا أصبحت نفسه مطمئِنّة عند لقاء الله عزّ وجل، كلهم يخاف إلا المؤمن، يلقي الله في قلبه السكينة والطمأنينة.

خير أعمال المرء خواتمها:

أيها الإخوة الكرام: البطولة في خريف العمر، والبطولة عند لقاء الله، والبطولة في خواتم الأعمال، من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم اجعل خير عمرنا آخره، وخير أيامنا يوم لقاك، نلقاك وأنت راضٍ عن))

شتّانَ بين حياة المؤمن وحياة الكافر، ذكر لي أحد الإخوة يعمل في مستشفى طبياً، جاءهم مريض مصاب بورمٍ خبيث في أمعائه، لكن هذا المريض مؤمن، قال لي هذا الطبيب ؟ والله أمره لعجيب، ما دخل عليه أحدٌ إلا أشهده أنه راضٍ عن الله، يقول له: اشهد أنني راضٍ عن الله، يا رب لك الحمد، المرض خبيث ومؤلم، والآلام لا تُطاق، وما سُمِعَ له صوتٌ ولا أنين، وكان إذا قرع الجرس يتهافت الأطباء والممرضون على خدمته، وتفوح من غرفته رائحة المِسك، وتوفّاه الله عزّ وجل، وأراد الله أن يعطي هؤلاء من بالمستشفى درساً بليغاً، دخل إلى الغرفة نفسها، مريضٌ مصابٌ بورمٍ خبيثٍ في أمعائه، لم يدع نبياً إلا كال له السباب، كلامٌ، اعتراضٌ، سخطٌ على الله، كلامٌ بذيء وقاسٍ، ومات على

هذه الحالة على حالة الكفر، مرضٌ واحد، وآلامٌ واحدة، وشتّان بين المؤمن والكافر، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عَجَبًا لأمْرِ الْمُؤْمِنِ إنّ أمْرَهُ كُلّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ إنْ أصَابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإنْ أصَابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))

(من صحيح مسلم: عن " صهيب ")

قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن:

المؤمن يرى أيدي الله فوق أيدي الناس، يرى يد الله تعمل في الخفاء، يرى الأفعال أفعال الله عزّ وجل، لا يشرك مع الله أحداً لا يرى غير الله، هذا التوحيد يريحه يُلقي في قلبه السكينة والطمأنينة، لا ينام مقهوراً لا ينام حاقداً، لا ينام في حيرةٍ من أمره، لا يرى في الأرض آلهة تتحرك، لا يرى إلا إلهاً واحداً، هو في السماء إلهٌ وفي الأرض إله، يرى أن الأمر كله يرجع إليه، وأن الله بيده كل شيء، وبيده مصير كلُّ مخلوق، وأن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلّبها كيف يشاء، علاقته مع الله، هذه الراحة النفسية، هذه الطُمأنينة هذه السكينة هي الصحة، ضغط الدم يأتي من ضغط الهَم، ضيق الشرايين، هناك ضيق للشرايين عصبي وليس وعائي، في أمراض للشرايين لا علاقة لها بتصلُّبها ولكن بالشدة النفسية التي تنزل بصاحبها.

الشرك أساس الرعب و الخوف و الحقد:

أيها الإخوة: كلّما تقدّم الطب (وأنا أعني ما أقول) كلما تقدم الطب كشف أن أحد أسباب السلامة من الأمراض السكينة النفسية والطمأنينة، بل إن المرض الذي حَيّر العلماء وحتى هذه الساعة ليس له دواء (الورم الخبيث) في أحدث تفسيرات هذا المرض أن الإنسان إذا أصابته شدةً نفسية خاف، أو حَقد، أو قُهر وهذا يأتي من الشرك، لقوله تعالى:

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الّذِينَ كَفَرُوا الرّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة الحشر: آية " 2")

الرُعب والخوف والقهر والحقد يأتي من الشرك، يقول العلماء: إن الشدّة النفسية تُضعف جهاز المناعة، وجهاز المناعة مكلّفٌ بضبط نمو الخلايا، فإذا ضعف جهاز المناعة تفلّتت الخلايا من عُقالها، وقد يعجب إنسانٌ أن هذه الأمراض الوبيلة تتفاقم بشكلٍ وبائي مع نقص الإيمان، ومع التعلّق بالدنيا، ومع الانغماس في المعاصي والآثام.

نفس الإنسان أمانة بين يديه:

أيها الإخوة الكرام كما قال الله عزّ وجل:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

من هم الثقلان ؟ في أوجه التفاسير: الإنس والجن، لأن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

(سورة الأحزاب)

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

(سورة الأنعام: آية " 130 ")

الله جلّ جلاله فيما يقول العلماء: **خلق الخلق في عالم الذّر**، وعرض عليهم الأمانة، عرض عليهم أن تكون أنفسهم أمانة بين أيديهم، يؤكّد هذا المعنى قوله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

النفس الزكية و النفس الآثمة:

نفسك أمانةٌ بين يديك، إن عرفّتها بربّها وعرفتها بمنهج ربّها وحملتها على طاعة ربّها فقد أدّيت الأمانة، أديت الأمانة حينما زكّيت هذه النفس، وإذا زكيتها استحقت جنة ربها، فسعدت نفسك إلى أبد الآبدين، أما إذا أبقيتها جاهلة جهلت ربها، وجهلت منهج ربها، وجهلت سبيل سعادتها، وتعلّقت بالدنيا وانغمست في ملذّاتها ثم جاءها الموت وهي صفر اليدين، وهي معتدية، وآثمة، ومرتكبة للمعاصي، هذه النفس تستحق النار إلى أبد الآبدين.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

معنى الثقلان:

1 ـ الثقلان من حملوا أمانة ثقيلة:

الله جلّ جلاله عرض الأمانة على السماوات والأرض أشفقت الخلائق منها وحملها الإنسان، حملها الإنس والجن، هؤلاء هما الثقلان، أما معنى الثقلين أي حملوا أمانةً ثقيلة.

2 ـ الثقلان سيتحمّلون عذاباً ثقيلاً إن هم خانوا الأمانة:

المعنى الثاني: سيتحمّلون عذاباً ثقيلاً إن هم خانوا الأمانة، كإنسان تعطيه مصروف يومه، لا له ولا عليه، لكن إنسان تُعِدُّه إعداداً ليكون في أعلى منصب، فإن لم ينجح في دراسته، تُحَمِّلُه أعباء لا يحتملها، الغرم بالغنم، فالإنسان لأنه قبل حمل الأمانة سخّر الله السماوات والأرض تسخير تعريف وتكريم، فإن وفّى بما عاهد عليه الله سبق الخلائق كلها، رُكِّبَ الملك من عقلٍ بلا شهوة، وركب الحيوان من شهوةٍ بلا عقل، وركب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته كان فوق الملائكة، وإن سَمَت شهوته على عقله صار دون الحيوان، والإنسان إما أن يكون فوق الخلائق كلِّهم، أو دون الخلائق كلهم.

تسخير السماوات و الأرض لمن كُلف بحمل الأمانة:

الآية الكريمة:

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيّةِ)

(سورة البينة)

أي خير ما بَرَأَ الله أما:

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيّةِ)

(سورة البينة)

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثّقَلَانِ)

أي الإنس والجن المخلوقات التي حملت الأمانة، ولأنها حملت الأمانة سُخِّرَت لها السماوات والأرض، وأنيطت بها مسؤوليةٌ جسيمة، وقد أُعْطِيَت سعادةً أبديةً متنامية، فإذا وفّى الإنسان بما عاهد عليه الله فاز ونجح، وتفوّق وأفلح، وإن لم يوفِ بما عاهد عليه الله، كانت ذنوبه ثقيلةً لا يحتملها، أي لا يوجد حل وسط مع الإنسان، إما أن يتفوّق فيسبق الملائكة المقرّبين، وإما أن يَسْفُل فيكون أحط مخلوقات الله قاطبة.

انقطاع الإنسان عن الله سبب استحقاقه للنار:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

فإن لم يعرف الله:

(ثُمّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

(سورة التين)

قرأت مرة خبر في جريدة: في أستراليا تم إعدام عشرين مليون رأس غنم، وحُفِرَت لها الحُفَر ووضعت فيها للحفاظ على أسعار اللحوم في العالم، كم من شعبٍ يموت جوعاً ؟ أليست هذه وحشية ؟ كم شعبٍ يتلوّى من الجوع ؟ وكم شعبٍ يُعاني من الفقر ما يعاني ؟ عشرين مليون رأس غنم يتمُّ إعدامها في أستراليا حفاظاً على أسعار اللحم المرتفعة، ومحاصيل الحمضيات في أمريكا تُتْلَف حفاظاً على أسعارها المرتفعة، فلما بدأ الزنوج يتسللون إليها ليأكلوها سُمِمَت هذه المحاصيل في العام القادم ليحافظ أصحاب هذه المزارع على دخلهم المرتفع.

(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

الحرب العالمية الثانية خَلّفت خمسين مليون قتيل.

(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

فالإنسان إذا تعرّف إلى الله صار خيّراً، صار مصدر عطاء، مصدر أمن، مصدر إكرام، صار كوكباً دُرّياً، أما إذا انحرف عن طريق الحق صار وحشاً، الوحوش تأكل لتشبع، تفترس لتأكل فقط، لكن الإنسان يفعل ما لا يفعله وحشٌ على الإطلاق حينما ينقطع عن الله عزّ وجل.

استخلاف الإنسان في الأرض لإقامة العدل:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

أيها الإنس وأيها الجن، ألم يقل الله عزّ وجل:

(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا)

(سورة الزلزلة)

الإنسان مخلوق مهم، إنسان حمل الأمانة، أُنيط به إعمار الأرض، أُنيط به إقامة حدود الله في الأرض، أنيط به الاستخلاف في الأرض، الإنسان مستخلف، قال تعالى:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة: آية " 30 ")

أَمَرَنَا أن نعمر الأرض، وأن نقيم العدل، وأن نحسن، فأثقال الأرض، الإنس والجن.

تسخير الكون للإنسان تسخير تعريف و تكريم:

(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

الآلاء النِعَمْ، وأحياناً الكون كما تعلمون سخّره الله مرّتين، سخره الله للإنسان تسخير تعريف وسخّره تسخير تكريم.

الجنة أكبر نعمة من نعم الله على الإنسان:

الآلاء هي الآيات الكونية الدالّة على عظمته وهي النعم العُظمى الدالة على كرمه، الآيات الدالة على عظمته، والنعم الدالة على كرمه.

(فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

فحتى:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ)

هذه من نعم الله، فالإنسان أحياناً يشعر أن حظه من الدنيا قليل، لكن طاعته لله كثيرة، مطمئن إلى ماذا هو مطمئن ؟ إلى عدالة الله، وإلى الآخرة، وإلى أن الله سوف يكرمه.

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

(سورة الضحى)

هذه الدنيا فانية، عرضٌ حاضر يأكل منها البر والفاجر، والآخرة وعدٌ صادق يحكم فيه ملكٌ عادل، ما الذي يجعلك مطمئنا راضياً وقد لا تملك قوت يومك، وقد لا تملك مأوى تأوي إليه ؟ لأن الله وعدك بجنةٍ عرضها السماوات والأرض.

مجازاة المحسن و معاقبة المسيء من رحمة الله بالعباد:

قد يقول قائل: ما العلاقة بين:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

وبين:

(فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

أن يفرغ الله لنا، أن يحاسبنا، أن يُجازي المحسن على إحسانه، أن يعاقب المسيء بإساءته هذه من النعم الدالة على رحمته وعلى عدالته لذلك:

(فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

فالفحص هل يعد وقتاً مزعجاً للمجتهد ؟ لا، بالعكس وقت مريح له، لأنه في هذا الوقت يظهر تفوُّقه، ويظهر جده في العام الدراسي، وينال الدرجات العُلا، ويكرَّم عن طريق الامتحان.

العقاب لمن عصى الله و رفض الدين:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

الآية دقيقة جداً:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)

(سورة الرحمن)

أي أنتم في قبضة الله، إذا الإنسان عصى الله ورفض الدين وقال: الدين أفيون الشعوب، وقال: الدين غيبيّات، ونحن نحب الواقعية، ونريد أن نعالج مشكلات الواقع، ودعنا ما بعد الموت فمن مات وعاد إلينا فأخبرنا ؟ هذا ما يقوله الجهلة، الإنسان إذا رفض منهج الله، ورفض أصل الدين وانكب على الدنيا، انكب على جمع الدرهم والدينار، انكب على الانغماس بالملذات، انكب على العلو في الأرض، انكب على أن يبني مجداً على أنقاض الناس، نقول له: ثم ماذا ؟ ماذا بعد التفوُّق ؟ وماذا بعد الغنى ؟ وماذا بعد القوة ؟ وماذا بعد الصحة ؟ وماذا بعد السيطرة ؟ وماذا بعد الزواج ؟ ثم ماذا ؟

عدم استطاعة الإنسان الكافر التفلت من عقاب الله:

قال:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

أي إن عصيتموني، إن لم تطبقوا منهجي، إن لم تتعرّفوا إلي، إن لم تؤمنوا بالآخرة، هل تستطيعون أن تتفلتوا من عقابي ؟ هل تستطيعون أن تتفلتوا من قبضتي ؟

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)

تسخير أجهزة الإنسان لتتوازن مع الحياة الدنيا:

الإنسان إذا ارتفع عن الأرض (كما قرأت قبل حين) من مستوى البحر إلى عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر، أجهزته تحتمل هذا الارتفاع، أما إذا زاد عن عشرة آلاف قدم، فقد سخّر الله له في جسمه أجهزةً

تتوازن مع هذا الضغط المنخفض ونقص الأوكسجين، لكن بعد الستة عشر ألف قدم يغيب عن الوعي، لضعف التروية، وتتمدد الغازات في جسمه فتتمزق رئتاه، وينفر الدم من أذنيه، ويشعر بآلامٍ في مفاصله وبآلامٍ في أمعائه لا تطاق (ستة عشر ألف قدم) فالطائرة الآن تطير على ارتفاع أربعين ألف قدم، أي عشرة كيلو متر، أو اثني عشر كيلو متر فقط.

أما القمر الذي وصلوا إليه وقالوا: غزونا الفضاء، قطعوا ثانيةً ضوئيةً واحدة، وقد كلّفت المركبة التي وصلت إلى القمر ثمانية وأربعين ألف مليون دولار، رجلان وصلا إلى القمر بألبسةٍ خاصّة تقيهم انخفاض الضغط، وبأجهزة هي قِمّة العلم البشري من أجل أن يصل اثنان إلى القمر لثانيةٍ ضوئيةٍ واحدة، أما الشمس تبعد عنا ثماني دقائق ضوئية، المجموعة الشمسية ثلاث عشرة ساعة ضوئية، درب التبابنة مجرتنا مئة وخمسين ألف سنة ضوئية، أما نجم القطب أربعة آلاف سنة ضوئية، والمرأة المسلسلة مليون سنة ضوئية، قبل أحدث مجرة أربع وعشرين ألف مليون سنة ضوئية، أحدث مجرة ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، ماذا قطع الإنسان ؟ ثمانية وأربعين ألف مليون دولار كلّفوه ليقطع ثانيةً ضوئيةً واحدة، ومن شدة فظاظته يقول: غزونا الفضاء، ماذا غزوت من الفضاء ؟ انتقلت بمركبةٍ إلى القمر كلّفت أموالاً لا تُحْصى ولا تُعَد، ثم عدت إلى الأرض، فإذا قلت:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا)

عدم استطاعة الإنسان الفرار من الموت:

أرسلوا مركبة بلا أشخاص من ستة أعوام وصلت إلى المشتري، تقطع في الساعة أربعين ألف ميل، وعليها مرصدٌ عملاق قُطر عدسته ثمانية أمتار، هذا المرصد رصد المجرة الحديثة التي تبعد عنا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، الإنسان إذا عصى الله، ورفض الدين، ورفض الإيمان بالآخرة، وانغمس في الدنيا، وانكب على جمع الأموال، وانكب على اقتناص الملذّات، يُقال له: أين المهرب ؟

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

(سورة الجمعة: آية " 8 ")

تصور إنسان يعدو وقلبه منخلعٌ خوفاً من واحد يتبعه، كم هي المفاجأة إذا رآه أمامه.

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

تقديم الجن على الإنس لأنه يستطيع اختراق السماء و الأرض:

الله عزّ وجل قال:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة البقرة)

أينما ذهبت ؟ إذا ذهبت إلى أقصى الدنيا، إذا ذهبت إلى أطراف الأرض يأتي بكم الله جميعاً.

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

قُدِّمَ الجن هنا تقديمَ أهمية لأن الجن أقدر من الإنس على خرق السماوات والأرض.

تقديم الإنس في بعض الآيات على الجن لأنه أقدر على البلاغة:

وحينما قال الله عزّ وجل:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)

(سورة الإسراء)

قَدَّمَ الإنس لأنه أقدر في البلاغة من الجن، تقديم دقيق.

الله تعالى علم الإنسان ما لم يعلم:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)

من هو صاحب السلطان ؟ هو الله الواحد الديّان، حتى لو أن الإنسان وصل إلى القمر وصل للقمر بسلطان العلم، من علّمه ؟

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة الإسراء: آية " 85 ")

المركبة الفضائية التي وصلت إلى القمر هذه مصنوعةٌ في الأرض من مواد خلقها الله، ومن حقائق كَشَفَها الله للإنسان، ولولا أن الله خلق المواد وكشف الحقائق ما وصل الإنسان إلى القمر.

السلطان هو العلم الذي سمح الله به للإنسان:

(لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)

السلطان هو العلم، العلم الذي سمح الله لكم به، الإنسان إذا رأى الآن مثلاً طائرة تحمل ستمئة وخمسين راكباً، تحلِق في أطباق الجو، هذا أحد منجزات العقل البشري، فمن خلق العقل البشري ؟ الله جلّ جلاله، إذاً الله عزّ وجل أعطانا أثمن جهاز على الإطلاق، الإنسان بهذا العقل صنع الطائرات، وأرسل الأقمار الصناعية، ونقل الصور، وخاطبَ بالصورة، وغاص إلى أعماق البحار، وبنى البيوت، وصنع الأدوية، قد يقول الله له يوم القيامة: يا عبدي لو بذلت من هذا العقل أو هذا الذكاء واحد بالمليون لعرفتني، عرفت كل شيء، وصنعت كل شيء، وارتقيت إلى كل شيء، فمنجزات الحضارة الآن شيء لا يُستهان به، هذه ثمرة من ثمرات العقل البشري، فهذا العقل لو أعملته لما خلقه الله، لما خُلِقَ له، ماذا فعل بك ؟

العقل أثمن شيء في الكون:

هل من المعقول إنسان يشتري حاسوباً مثلاً ثمنه ثلاثين مليوناً يحل له مليون مشكلة ثم يستخدمه طاولة، معقول ؟ ألا يكون احتقره ؟ نقول له: هذا تستعمله لغير ما صنع له ؟ هذا يحل لك مليون مشكلة، يعطيك معلومات دقيقة، إنسان يستخدم حاسوب بثلاثين مليون طاولة معقول ؟ والذي يستخدم عقله بكسب المال فقط، للإيقاع بين الناس، للعلو في الأرض، وينسى ربّه، فقد احتقر عقله.

أيها الإخوة مثل آخر: الآن في طابعات ملونة، إذا الإنسان استخدمها في اختصاص معين يحقق أرباحاً كبيرة جداً، لو استخدمها طاولة يكون قد خسرها، أما إذا استخدمها في تزوير العملة يدخل السجن (الآلة واحدة) يمكن أن تحقق أرباحاً طائلة، ويمكن أن تخسر قيمتها بتعطيلها واستخدامها لغير ما صُنعت له، ويمكن أن تكون هذه الآلة الغالية الثمينة سبباً لدخول السجن، أليس كذلك ؟ وهذا العقل، هذا العقل أثمن شيء في الكون على الإطلاق، أنت المخلوق الأول، وأثمن ما فيك العقل، لأن الجماد شيء، له طول، عرض، ارتفاع، وزن، يشغل حيّزاً، أما النبات شيء له وزن، ويشغل حيزاً لكنه ينمو، غير الجماد، الحيوان، يشغل حيزاً وينمو ويتحرّك، الإنسان يشغل حيزاً وينمو ويتحرك، ويفكِر، فالإنسان إن لم يستخدم عقله لما خُلق له هبط إلى مستوى الحيوان، الحيوان لا يحاسب وليس مكلفاً ولا يشقى، الإنسان الذي أوتي العقل إن لم يستخدمه أو عطله أو أساء استخدامه يشقى به، فلذلك الله عزّ وجل أعطانا أثمن نعمة على الإطلاق ينبغي أن نستخدمها وفق منهج الله عزّ وجل.

علامة ذكاء المؤمن استقامته على أمر الله:

استخدم الأجانب العقل في أعلى مستوى، فالمنجزات شيء لا يصدق، ممكن جهاز حاسوب يقرأ أربعمئة وخمسين مليون معلومة بثانية واحدة، ثورة المعلومات ومع ذلك فالمجتمع البشري الآن شقي لأن هذا العقل ما نقله إلى الله، ولا عرّفه بمنهج الله، فالمجتمع الجريمة، مجتمع الانحطاط، مجتمع تبادل الزوجات، مجتمع زنا المحارم، مجتمع الشاذين جنسياً، مجتمع الانحلال، هذا إنسان استخدم عقله للمادة، صنع الطائرات، صنعوا المركبات الفضائية، نقلوا الصور الملونة، يقول لك: يلتقط مئتين محطة، هذه سهلة ؟ غير موضوع حرام أم حلال، سهلة تتحرك هذه الحركة الواسعة ؟

لذلك العقل البشري قد ورد عنه في بعض الآثار:

((أن الله لما خلق العقل قال: أقبل، فأقبل، ثم قال: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحب إلي منك، بك أعطي وبك آخذ))

من الممكن بتفكير صحيح، بساعة تأمل صحيحة، بنظرة مجرّدة يمكن أن تسعد إلى أبد الآبدين، والمجرم بساعة تفكير حَمْقاء يرتكب جريمة، إعدام، شنقاً حتى الموت، أين عقله ؟ فلما سيدنا خالد أسلم، ماذا يقول له النبي ؟ قال له: عجبت لك يا خالد أرى لك فكراً. ما الذي أخّرك ؟ أنت عاقل، أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، من علامة ذكائك من علامة رجاحة عقلك استقامتك على أمر الله، من علامة إعمال فكرك وفق ما أمر الله أنت تلتزم شرع الله، فتجد في علاقة بين التفوق العقلي وبين الالتزام الأخلاقي.

الأحمق ينظر أمامه و العاقل يعيش مستقبله:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

من عرف نهاية الكون ؟ فهذه أحدث مجرة ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، ماذا بعدها ؟ والأغرب من ذلك، أن هذه المركبة التي نقلت لنا صورة هذه المجرة، هذه المجرة كانت هنا قبل ثلاثمئة ألف بليون سنة، الآن وصل ضوءها إلينا، أين هي الآن ؟ هل تصدِّقون أن هذه المجرات تمشي بسرعة مئتين وأربعين ألف كيلو متر بالثانية، تقترب هذه المجرّات بسرعة الضوء، أين هي الآن ؟ هذا الكون فماذا عن خالق الكون ؟ أهذا الخالق العظيم لا نتعرّف إليه ؟ لا نقرأ كلامه ؟ لا نتبع منهجه ؟ لا نخاف منه ؟ الإمام الغزالي قال كلمة، قال: **" يا نفس لو أن طبيباً منعكِ أكلة تحبينها لا شك أنك تمتنعين، يا نفسُ أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟ إذاً ما أكفركِ "**. الله صادق لكن وعيد الطبيب أشد عنده من وعيد

الله، يقول لك: جلطة، أو ضغط يرتفع فيسبب خثرة في الدماغ (شلل) ثم يقول لها: **" أيكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله (من جهنّم) ؟ إذاً ما أجهلكِ ".** فالإمام الغزالي وصم نفسه بالكفر أو بالجهل إذا فكّر في معصية الله، والإنسان حينما يعصي الله مدموغ بالجهل، والكفر، والحمق، والغباء، ضيّق الأفق، ينظر إلى أمامه ولا ينظر إلى ما بعد الذي يراه، من هو العاقل ؟ هو الذي يصل إلى الشيء قبل أن يصل إليه، العاقل يعيش مستقبله.

المؤمن في القبر أسعد منه في الدنيا:

أيها الإخوة: صدِّقوني أعقلكم من أدخل الموت في حساباته اليومية ؛ في كسب المال، في إنفاق المال، في إدارة البيت، في معاملة الزوجة، في تربية البنات، في تربية الأولاد، في إنفاق المال، هذا هو العاقل، الذي يُعِدُّ لساعة القبر حسابها.

شخص ساكن بغرفة، غرفة نوم، غرفة استقبال، غرفة طعام، مطبخ، بلاط، سجاد، تدفئة، حمام سيراميك مثلاً، ألم تتبع جنازة ؟ أين يوضع هذا ؟ على التراب، والله مرة كنت حاضراً دفن أخ كريم، الحفّار ترك فرجة مفتوحةً في القبر، فلمّا أهال التراب على القبر قدّرت أن كمية كبيرةً جداً وقعت فوق الميت من التراب، الواحد وهو في الدنيا، كله ملمّع، كله نظيف، عنده حمام، عنده غرف نوم، عنده ملاءات نظيفة، أما إذا دخل القبر، هذا مصيرنا جميعاً من منا يستطيع أن يتفلّت من القبر ؟ لكن القبر صندوق العمل، القبر روضة من رياض الجنة، يتسع القبر للمؤمن حتى يكون مد بصره، وهو روضة من رياض الجنة، والمؤمن في القبر أسعد منه في الدنيا.

الكافر في القبر من أتعس الناس:

أما الكافر:

(النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أشَدّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر)

من ستة آلاف سنة، ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين ضرب اثنين الخير إلى الأمام.

(النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً)

هذا عذاب البرزخ.

(النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أشَدّ الْعَذَابِ)

الاستعداد للموت بالاستقامة و العمل الصالح:

إخوانا الكرام: الموت قريب جداً تعدُّ له بالعمل الصالح، بالاستقامة، بالإيمان، بطلب العِلم، فلو شخص معه ضغط مرتفع كيف يعالجه ؟ ليس له أعراض، لا تعالج هذا الضغط المرتفع إلا بقياس الضغط أولاً لكي تعرف أن معك ضغط مرتفع، إنسان جاهل يقول لك: ماذا أفعل ؟ يكون مرتكب ألف معصية يقول لك: ماذا أفعل ؟ هكذا الناس كلها، احضر مجلس علم تعرف نفسك، تعرف استقامتك، تعرف الحلال، الحرام، الخير، الشر، فالإنسان بلا علم جاهل، وهذه المجالس مباركة إن شاء الله، هذه مائدة الله، هذا كتاب الله، هذا الوحي الذي نزل على رسول الله، هذه معجزة مستمرّة إلى يوم القيامة، والله ما من عملٍ على وجه الأرض، أعظم من أن تتعرف إلى كلام الله، تعرف أبعاده.

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)

(سورة الرحمن)

الناس في قبضة الله يوم القيامة:

سمعت من يومين مقابلة مع إنسان له باع طويل بكتابة القصة، والقصة إذا حرّكت القسم الأسفل للإنسان هذه تحطِم القارئ وقد تصرفه عن القيم العُليا، فسئل وهو في الثانية والثمانين ما مشاعرك وأنت في هذا السن ؟ قال: أخشى ذنوبي، كم شاب قرأ هذه القصة فانحرف، وكم شاب قرأ هذه القصة وزَلّت قدمه إلى الفاحشة، أين التفلّت ؟ الله عزّ وجل قال: أنتم في قبضتي يوم القيامة.

(لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)

أيها الإخوة الكرام: أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حباً، من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله حتى يُمسي، ومن صلى العشاء في جماعة فهو في ذمة الله حتى يصبح. صليت الفجر في جماعة في درس علم صغير، نحن مقدمون على رمضان، عندنا إن شاء الله في رمضان درس الفجر ودرس بعد العشاء، هذا رمضاء شهر القرب، شهر الطاعة، شهر التوبة، شهر الصلح مع الله، شهر الاستقامة، فإذا الإنسان صلّى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله حتى يمسي، ومن صلى العشاء في جماعة فهو في ذمة الله حتى يصبح، أنت بالفجر والعشاء تغطي اليوم بكامله والليل بكامله، أنت في ذمة الله، والطاعة جميلة، فالطائع لله والله يرقص فرحاً.

الإنسان المؤمن خفيف الوزن و المنحرف مثقل بالذنوب:

قال له: ما هذا أكبرٌ ؟ قال له: أعوذ بالله هذا عِزُّ الطاعة، الإنسان النظيف، دخله حلال، إنفاقه حلال، بيته منضبط، زوجته مؤمنة، بناته منضبطات، أولاده رَبّاهم تربية دينية صحيحة، ما في معصية ببيته، ما في معصية بدخله، هذا إنسان خفيف الوزن كأنه يطير في الهواء، أما الإنسان المنحرف مثقل بالذنوب، الذنوب معها هموم، معها خوف، معها قلق، معها تمزّق، معها سوداوية، معها تشاؤم.

أيها الإخوة الكرام:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

استحالة التفلت من قبضة الله يوم القيامة:

فإن تفلّتّم من قبضة الله، وهذا الشيء مستحيل.

(يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (35) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

كشخص بأعلى درجة من العلم (الاقتصاد) يحمل دكتوراه من أمريكا، ويرأس شركة تأمين بأغنى بلاد العالم، ويركب أحدث سيارة، احترقت السيارة، ولحكمةٍ أرادها الله لم يستطع أن يخرج منها حتى أصبح فحمة هو وزوجته، لكن مُؤَمن على حاله.

(يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (35) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

عاقبة المتفلت:

كلكم يرى لما الإنسان ينحرف ماذا يحل به ؟ في بصائر تحت سمعنا وبصرنا، في زلازل، في براكين، في حروب أهلية، في قهر، أليس كذلك ؟ في تشرُّد، في قحط، في فقر، في مجاعات.

(يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (35) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرحمن 055 - الدرس (6-7): تفسير الآيات 37-45

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-01-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون: مع الدرس السادس من سورة الرحمن، ومع الآية السابعة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

الكون مسير إلى أجل مسمى:

أيها الإخوة: آياتٌ كثيرةٌ جداً ولا سيما في الأجزاء الأخيرة من القرآن تبيّن أن هذا الكون على نظامه الدقيق وتكوينه البديع مسيرٌ إلى أجلٍ مسمى، وبعد هذا الأجل تكور الشمس وتنتثر الكواكب ويسَجَّر البحر وينتهي كل شيء.

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

(سورة يس)

فالكون له نهاية.

العاقل من يعدّ ليوم القيامة عدّته:

نحن الآن في أثناء العام الدراسي، في دنيا التكليف، وهذا الكون الذي نَصَبَهُ الله عزّ وجل دالاً عليه مشيراً إليه مجسِّداً لأسمائه الحُسنى مظهراً لكمالاته، فبعد أن تنتهي الحياة الدنيا ويأتي يوم الدين انتهت وظيفة الكون، فتقريباً كهذه الخرائط واللوحات والمجسّمات التي تعَدُّ وسائل إيضاح في العام الدراسي، فإذا انتهى العام الدراسي وبدأ الامتحان هذه الخرائط وتلك اللوحات وهذه المُجَسّمات انتهت وظيفتها تطوى، وتودع في المستودعات، فنحن في الحياة الدنيا والكون مسخرٌ لهذا الإنسان تسخيرَ تعريفٍ وتكريم، فإذا انقضت الحياة الدنيا انتهت مهمّة الكون.

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)

(سورة التكوير)

إلى آخر الآيات، لذلك أيها الإخوة هذا اليوم لا بدّ من أن يأتي، العاقل هو الذي يعدّ لهذا اليوم عدّته.

توازن الكون في الحياة الدنيا:

قال تعالى:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ)

(سورة الرحمن)

هذا الاستقرار، هذا التوازن الحَرَكي، كل كوكب يدور حول كوكب بمسار مُغلق، إهليلجي أو دائري، هذا الكون بمحصلة نظامه الدقيق يتحرّك مع التوازن فليس هناك ارتطام ولا انحرافٌ عن المسار لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)

(سورة فاطر)

والزوال هو الانحراف، ولا شك في أن صلاة الظُهْر تقع بعد زوال الشمس عن كبد السماء، أي بعد انحرافها.

قدرة الله في مسك السماوات و الأرض:

ذكرت قبل أيام في ندوةٍ أن الأرض تنطلق حول الشمس في مسار مُغلق، ومسارٍ إهليلجي (بيضوي) له قطران أعظميٌ وأصغري، فحينما تقترب الأرض من القُطر الأصغر يزداد جذب الشمس لها، وحين جذب الشمس لها رُبّما تخرج عن مسارها وترتطم بالشمس، لذلك هذه الأرض الجامدة تزيد من سرعتها (والزيادة يسميها الرياضيون التسارع) تزيد من سرعتها زيادةً بطيئة لئلا ينهدم كلُّ ما عليها، تزيد من سرعتها لينشأ من هذه الزيادة قوةٌ جديدةٌ نابذةٌ تكافئ القوة الجاذبة، فحينما تصل الشمس إلى القُطر الأبعد (الأعظم) يُخْشى أن يضعف جذب الشمس لها فتنحرف عن مسارها و تغوصُ في أعماق الفضاء وتبتعد عن أشعة الشمس وتدخل في متاهات الفضاء فتبرد الأرض إلى درجة الصفر المطلق (مائتان وسبعون درجة تحت الصفر) وفي هذه الدرجة تتوقف حركة الذرّات حول النترونات (حركة الإليكترونات حول النواة)، ومع توقف هذه الذرّات تنعدم المادة، فبلاغة القرآن الكريم:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

إن انحرفت عن مسارها زالت، غابت عن طاقة الشمس (الشمس تمدها بالطاقة) فإذا ابتردت إلى درجة الصفر المطلق تلاشت المادة:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

انتهاء مهمة النظام الكوني يوم القيامة:

طبعاً حينما يأتي يوم القيامة لا جدوى من بقاء الأرض ولا من بقاء الشمس ولا من بقاء النجوم، وكل هذا النظام الكّوني تتقوّض دعائمه وتنتهي مهمّته ويأتي عالمٌ جديد عالم الجنة والنار.

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ)

فكانت حمراء كالوردة، سائلةً كالدهان، والآن في باطن الأرض نواة الأرض سائلة وحارّة كالزيت المغلي، فربنا عزّ وجل بوصفٍ دقيقٍ موجزٍ بليغ جامعٍ مانعٍ يصوّر نهاية الكون، كتلٌ سائلةٌ ملتهبةٌ حمراء كلون الورد، سائلةٌ كالزيت.

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط:

عندئذٍ هل يستطيع الإنسان أن يكذّب يوم الدين ؟ فحينما يكتب على السبورة مثلاً أن هناك مذاكرة رياضيّات صباح الأحد، وبعض الطلاّب يُشَكِّك في هذا الإعلان على هذه السبورة، لعله بخط الأستاذ، لعله من خط طالبٍ أراد أن يُداعب الطلاب، يا ترى هل تجرى هذه المذاكرة ؟ يُشَكِّك، أما إذا دخل المدرس وقال: افتحوا الأوراق واكتبوا الأسئلة هل هناك مبرر للشك بهذا الوعد ؟

لذلك هذا الكلام أيها الإخوة ينقلنا إلى كلامٍ خطير أي أنّك مخيّر ومع أي موضوع، ومع مليون موضوع مخيّر خيار قبول أو رفض، لو عرضنا عليك بيتاً تشتري هذا البيت أو لا تشتريه، لو خطبت لك أمك فتاة تقبل بها أو لا تقبل بها، لو عرضنا عليك تجارةً توافق عليها أو لا توافق، لو جاءك سفرةٌ إلى بلدٍ آخر تدرس الدخل والإقامة والتعويضات، فتوافق أو لا توافق، أنت مع مليون موضوع مخيّر تخيير قبول أو رفض، إلا مع الإيمان، خيارك خيار وقتٍ فقط، وهذه أخطر فكرة، فشئت أم أبيت لا بدّ من أن تؤمن.

الندم لمن يؤمن بعد فوات الأوان:

الذي رفض الإيمان قال:

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

وقال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص)

والذي قال:

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

(سورة القصص)

هل هناك كلامٌ أشد كفراً من هذا ؟ هذا فرعون نفسه حينما أدركه الغرق قال:

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

فنحن لسنا مخيرين أن نؤمن أو لا نؤمن، أن نقبل أو لا نقبل، أن نعتقد أو لا نعتقد، نحن مخيرون متى نؤمن إما أن نؤمن في الدنيا فننتفع بإيماننا، وإما أن نؤمن بعد فوات الأوان، لا بدّ من أن تعرف جواب هذا السؤال، فإما أن تعرفه قبل الامتحان فتنجح، وإما أن تعرفه بعد الامتحان فيزداد الندم، ولات ساعة مندم.

الإنسان العاقل من يعرف الله في شبابه:

أيها الإخوة:هذه الفكرة أرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون واضحة في أذهانكم: خيارك مع الإيمان ليس خيار قبولٍ أو رفض، خيار وقت.

وفي مثل أقرب تجد الشاب الشارد عن الله عزّ وجل، يعتقد اعتقادات فاسدة، يؤمن بنظريات لا أصل لها، يتحمّس إلى الدنيا ينكب عليها بكل طاقاته، فإذا بلغ الأربعين وتجاوز الخمسين اعتدل، شعر بدنو أجله، بدأ يُصَلِّي، فإذا ما صار الندم الشديد عند الموت هناك ندمٌ قبل الموت، فالبطولة أن تعرف الله في وقتٍ مُبَكِّر، أن تعرف الله قبل أن تتزوج كي تختار شريكة حياتك مؤمنةً تعينك على دينك، أن تعرف الله قبل أن تعمل كي تختار عملاً يتوافق مع مبادئك، أن تعرف الله قبل أن تقيم شبكةً من العلاقات حتى إذا عرفت الله رأيت نفسك مربوطاً مع هذه العلاقات، فالبطولة أن تعرف الله في الوقت المناسب، وأفضل وقت مناسب في شبابك، وهذا الحديث الجامع المانع الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم:

((اغتنم خمسا قبل خمس...))

(أخرجه الحاكم، والبيهقي، عن ابن عباس، أحمد عن عمرو بن ميمون)

الشاب الناجح من يستغل وقته في معرفة الله :

الإنسان في شبابه لا يشعر بشيء اسمه قلب، ولا ضغط، ولا ضيق شرايين، ولا شريان مسدود، ولا قسطرة، ولا تغيير دَسّام يتحرّك كالحصان، وفي شبابه لا يوجد عنده ألم مفاصل ولا يوجد عنده ارتفاع نسب الأسيد أوريك، لا يُلقي بالاً إلى صحّته ولا إلى نسب تراكيب دمه ولا إلى عمل أجهزته، كتلة من الحيوية والنشاط، هذه المرحلة هذه استغلها في معرفة الله، والإقبال عليه، والأعمال الصالحة، وطلب العلم

((اغتنم خمسا قبل خمس...))

(أخرجه الحاكم، والبيهقي، عن ابن عباس، أحمد عن عمرو بن ميمون)

يأتي وقت المرض يغلب **شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك،** الإنسان إذا جاءه مرضٌ عُضال هذا المرض يُغَشّي على بصيرته ويعمي عينيه ولا يفكِّر إلا به، فإذا كنت معافى وكنت شاباً، **وفراغك قبل شغلك** معك في بداية الحياة وقتٌ طويل، لكن بعد الزواج والأولاد، وتزويج البنات والأعمال، وتعقيب الأعمال تجد نفسك تعمل بشكلٍ إجباري، من عمل إلى عمل، من لقاء، لحل مشكلة، لمشكلة ابنتك، وابنك وأولادك، وعملك والديون، أعمال كلها متتابعة لا تجد وقتاً كافياً لمعرفة ال**له فاغتنم فراغك قبل شغلك،** أحياناً تأتي الهموم والمشكلات على الإنسان لا يجد وقتاً ليفكِّر في ربّه:

((اغتنم خمسا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك))

(أخرجه الحاكم، والبيهقي، عن ابن عباس، أحمد عن عمرو بن ميمون)

ندم الإنسان بعد فوات الأوان لا يفيده شيئاً:

النبي عليه الصلاة والسلام كان من دعائه **أن يكون خير رزقه في آخر عمره،** أحياناً الإنسان وهو في بحبوحة في شبابه، المال بين يديه ينسى أن يتصدّق، ينسى أن يدفع زكاة ماله، ينسى أن يُنفق من هذا المال، فإذا عرف قيمة إنفاق المال قلّ المال بين يديه، هذا الدخل لا يكفي طعامه وشرابه، أنّى له أن ينفق، أنّى له أن يتصدّق، أنّى له أن يعاون، **فاغتنم غناك قبل فقرك، واغتنم حياتك قبل موتك.**

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلّا)

(سورة المؤمنون)

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آَمَنُوا اتّقُوا اللّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدّمَتْ لِغَدٍ وَاتّقُوا اللّهَ إِنّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

(سورة الحشر)

فحينما قال الله عزّ وجل:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

في بعض البلدان إذا الإنسان خالف بعض التوجيهات كان يهدم بيته، فلو جاءه إنذار فهل يا ترى يفعلونها لا يفعلونها ؟ لو أنهم جاءوا وهدموا البيت، بعد هدم البيت أيستطيع صاحب البيت أن يشكك في هدم البيت، انهدم وانتهى.

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

من يدخل الآخرة في حساباته اليومية يلقى الله و هو عنه راض:

إخوانا الكرام: بصدقٍ صادق، الذي يتعامل مع الآخرة تعاملاً جدياً قلائل، الذي يُدخل الآخرة في حساباته اليومية، في كل كلمةٍ يقولها في كل نظرةٍ ينظرها، في كلِ كلمةٍ يسمعها، في كل حركةٍ يتحرّكها، في كل عطاءٍ، في كل أخذٍ، في كل غضبٍ، في كل رضا، في كل صلةٍ، في كل قطيعةٍ، هذا الذي يتعامل بوحي الآخرة، هذا النمط قليلٌ في المجتمع، النمط السائد يعيش لحظته، يعيش وقته، يعيش ليأكل و يشرب، أما البطل ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتّقي الله البطل، البطل الذي يقرأ هذا المنهج ويطبّق هذا المنهج على حياته اليومية، وعلى أخذه وعطائه وعمله ودخله وحركته، حتى يطمئن إلى أنّه مطيعٌ لله عزّ وجل، فإذا جاء الأجل بغتةً لقي الله وهو تائبٌ إليه.

الموت عرس المؤمن :

لو قيل لك: موعد إطلاق الطائرة بين الساعة الثامنة صباحاً والساعة الثامنة مساءً، وفي أية لحظةٍ نتصل بك عليك أن تخرج من بيتك فوراً وإلا ضاعت عليك هذه السفرة، فإذا كنت لا تعلم متى يتّصلون بك، ماذا تفعل ؟ تهيئ نفسك من أول الوقت، أسعد الناس من هو جاهزٌ للقاء الله عزّ وجل في أي وقت، كل شيء واضح، كل شيء مُبَيّن، علاقاته واضحة، دخله حلال، إنفاقه حلال، بيته إسلامي، عمله إسلامي، ضبط جوارحه، ضبط دخله، ضبط إنفاقه، ضبط أجهزته وأعضاؤه، وبناته، وشبابه، وزوجته، ضبط كل شيء، فإذا جاء الأجل: مرحباً بلقاء الله عزّ وجل، ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن:

((تحفة المؤمن الموت))

(أخرجه الطبراني، وأبو نعيم، والحاكم، والبيهقي، عن ابن عمر)

الموت عُرْسَ المؤمن وأن المؤمن الصادق حينما يأتيه الأجل يدخل في سعادةٍ لا توصف، إنسان له زوجة ضغط عليه في أشياء شأنها كشأن كل الزوجات، قال لها:**اعلمي أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلك.**

على الإنسان أن يقوم بأعمال يعود خيرها عليه بعد انقضاء الوقت:

إخوانا الكرام: إنّك لا ترتاح حقيقةً إلا إذا نقلت اهتماماتك إلى الدار الآخرة، لأن الوقت، أنت وقت، أنت بضعة أيّام (بأوضح التعاريف)، بأدق التعاريف بضعة أيام كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منك، فأنت زمن، وهذا الزمن له إنفاقان، إنفاق استهلاكي وإنفاق استثماري، الإنفاق الاستهلاكي أن تمضيه في المباحات، دعك من المعاصي والآثام بالمباحات ؛ أكلت، وشربت، ونمت، وتنزّهت، وسهرت، وضحكت، إلى أن جاء الأجل تأتي يوم القيامة صفر اليدين، هذا الوقت ينبغي أن تنفقه استثماراً، أي ينبغي أن تفعل فيه عملاً يعود عليك خيره بعد انقضاء الوقت، لذلك أخطر شيء بسورة الفجر:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ)

(سورة الفجر)

على الإنسان أن ينتبه إلى نعم الله لأنها سبب سعادته أو شقائه:

أعطاه المال، أعطاه صحةً، أعطاه بيتاً، أعطاه زوجةً، أعطاه أولاداً، أكرمه ونعّمه، فيقول هو جهلاً:

(فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

لا هذا ليس إكراماً هذا ابتلاء، فنعمة المال كيف توظِّفها ؟ إن وظفتها في أعمالٍ صالحة فعلاً الأعمال نعمة لأنها سبب سعادتك في الجنة، الزوجة إن دللتها على الله وأخذت بيدها إلى الله فعلاً نعمة، لأنها سبب دخولك الجنة، وكم من زوجةٍ تُرضي زوجها أشدّ الإرضاء وهي سبب دخوله النار، لذلك كانت بعض الصحابيات يودّعن أزواجهن قبل أن يذهب إلى عمله تقول له: **" يا فلان اتق الله بنا فنحن بك وإليك، نصبر على الجوع ولا نصبر على الحرام ".** فكيف بامرأة لا تزال تُلِحُّ، ولا تزال تملأ سمع زوجها بطلباتها غير المتناهية إلى أن تحمله على كسب المال الحرام، فتكون سبباً في دخوله النار.

الرجال قوامون على النساء:

الإنسان إذا أساء لأهله، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً)

(سورة التحريم: آية " 6 ")

إن أساء إلى أهله فأبقاهم على جهلٍ، ما عرّفهم بربهم، ما أمرهم بالصلاة ولا حضّهم عليها، ولا سألهم عن فقههم ولا عن علمهم، قال: هؤلاء الأهل إذا شردوا وانحرفوا موقفهم يوم القيامة أن تقول البنت لربها: يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي لأنه كان سبب شقائي، الأبوة مسؤولية، فكل إنسان في عنده ضمن بيته قبل أن يتطلّع إلى هداية الآخرين، كل إنسان لو اكتفى بهداية أولاده وبناته وزوجته لكنا في حالٍ غير هذا الحال، يغضب للدنيا ولا يغضب إن انتهكت حرمةٌ من حرمات الله، يغضب لأن الطعام غير جاهز، لكنه لا يغضب إذا رأى ابنته في وضعٍ لا يُرضي الله عزّ وجل، يقول: ماذا أفعل ؟ الله يصلحها، وهو الأب، وهو الذي جعله الله قيُّوم هذه الأسرة، الرجال قوّامون على النساء.

من أكبر المصائب أن يغتني الإنسان على جهلٍ فيطغى بهذا المال:

إذاً أيها الإخوة: حينما قال الله عزّ وجل:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

ذكرت قبل قليل أن المال لا يُسَمّى نعمة إلا إذا أنفق في طاعة الله، هو ابتلاءٌ، هو عطاءٌ موقوفٌ على نوع استخدامه، إن أنفق في طاعة الله سمي نعمةً، أما إذا أنفق في المعصية سمي نِقمةً ونَعْمَةً، لذلك النبي صلى الله عليه وسلم عَدّ الغنى المُطغي من أكبر المصائب، من أكبر المصائب أن تغتني على جهلٍ فتطغى بهذا المال.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

(سورة العلق)

إن رأى نفسه استغنى وأصبح قوي المركز لكثرة ماله، أو لكثرة من حوله من أعوان عندئذٍ يطغى.

سؤال الله الإنسان عن أدق أعماله:

قال:

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ)

(سورة الرحمن)

طبعاً هذه الآية تضعنا في سؤالٍ كبير، كيف نوفّق بينها وبين قوله تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾

(سورة الصافات)

آياتٌ كثيرة تبيّن أن الله سبحانه وتعالى يسأل عباده عن أدقّ أعمالهم، عن كل أعمالهم، والآيات كثيرة:

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾

(سورة الزلزلة)

فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ: آية لها عدة معان:

المعنى الأول: عدم السؤال يكون أحد ألوان التعذيب:

كيف نوفّقُ بين هذه الآية وبين تلك الآيات ؟ قال بعض العلماء: **أحياناً إذا أوقِفَ الإنسان وبقي أياماً دون أن يُسأل يزداد ألمه**، فعدم سؤاله وعدم معرفة سبب توقيفه هذا مما يزيد ألمه، فقال بعض العلماء: **هؤلاء الكفار ينتظرون وينتظرون و ينتظرون إلى أن يُلِحُّوا على ربهم أن يسألهم وأن يحاسبهم**، فهذا معنى، هذا معنى قاله أحد العلماء (ابن القيم).

المعنى الثاني: لمجَرّد أن يُسأل الإنسان يعطى فرصةً كي يعتذر:

وهناك معنى آخر: هو أن يوم القيامة مديد فيه مراحل مراحل، في مرحلة فيها سؤال، سؤال دقيق، وحساب دقيق، وفي مرحلة تنتهي المحاكمة ويصدر الحكم، فليس هناك سؤال، انتهى السؤال.

المعنى الثالث: الله سبحانه وتعالى حينما يسألهم كأنّه يسمح لهم أن يعتذروا:

يوجد معنى آخر، المعنى الثالث: هو أن الله سبحانه وتعالى حينما يسألهم كأنّه يسمح لهم أن يعتذروا، إنهم وصلوا مع الله إلى طريقٍ مسدود، أحياناً مجرّد السؤال، لماذا فعلت كذا ؟ كأنّك تسمح له أن يعتذر أما هذا الإنسان انتهى أمره وحكم عليه بالنار، فلا معنى لسؤاله، الإنسان حينما يرتكب جريمةً يَسأله القاضي عن الدوافع، وعن الملابسات وعن وعن، أما إذا اقتنع القاضي أنه قاتلٌ عمداً، وليس هناك أسباب مخففة، يصدر حكمه بالإعدام، وحينما تُدرس إضبارته في أعلى محكمة (محكمة النقض) ويرى أن القاضي الذي حكم هذا الحكم مصيبٌ في حكمه، يصدّق هذا الحكم، فإذا نقلت هذه الإضبارة إلى رئاسة الجمهورية وصدّق عليها، ثم انتقل هذا المجرم إلى تنفيذ حكم الإعدام، قبل أن يشنق هل يسأل لماذا فعلت هذا ؟ ولا سؤال، انتهى السؤال، السؤال أثناء المحاكمة، أما حينما اقتنع القاضي أنَّه قاتلٌ

عمداً، واقتنع رئيس محكمة النقض أن حكم القاضي صحيح، وصُدِّقَ الحكم في أعلى مستوى وسيق للإعدام، فلا سؤال هنا، السؤال لا معنى له إطلاقا، فلأن يوم القيامة يومٌ مديد، في مرحلة فيها حساب، في سؤال، في مرحلة فيها حكم قطعي، في مرحلة انتهى الحكم، بقي التنفيذ.

سؤال الكفار يوم القيامة عن أعمالهم السابقة سؤال توبيخ لا سؤال استعلام:

إذاً المعنى الأوّل: عدم السؤال قد يكون أحد ألوان التعذيب، عدم السؤال، المعنى الثاني، أنه لمجَرّد أن يُسأل يعطى فرصة كي يعتذر (والقضية انتهت) ليس هناك اعتذار، لذلك قال بعض المفسرين: إن سأل الله العبد يوم القيامة عن أعماله السابقة فهذا السؤال سؤال توبيخ لا سؤال استعلام، فليس ماذا فعلت ؟ لماذا فعلت ؟ فرقٌ كبير، ماذا فعلت ؟ سؤال استعلام، لكن لماذا فعلت ؟ سؤال توبيخ، لما النبي عليه الصلاة والسلام أوحى الله إليه أن أحد أصحابه (حاطب بن بلتعة) أرسل كتاباً إلى قريش يقول فيه: " **إن محمداً سيغزوكم فخذوا حذركم** "، وأرسل النبي عليه الصلاة و السلام سيدنا علي مع صاحبٍ آخر إلى مكانٍ اسمه الروضة بين مكة والمدينة، وأخذوا الكتاب من المرأة وجاءوا به إلى النبي، فقرأه النبي، استدعى حاطباً، الآن النبي عليه الصلاة والسلام سيسأل حاطب عما فعل أم لماذا فعل ؟ قال له: **يا حاطب ما حملك على ما فعلت ؟** ما سأله سؤال استعلام فالوحي أعلمه، ولكن سأله سؤال توبيخ. فإذا قلنا:

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ)

لا يُسأل لأنه لا مجال لتغيير الحكم.

النار مثوى الكافرين:

إذاً إذا قلنا:

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ)

أي لا يُسأل لأنه لا مجال لتغيّر الحكم، لأنه لا يُعطى هذا الإنسان فرصة ليعتذر، كل شيء تمّ بأدق مستويات العدالة، هذا معنى.

المعنى الثاني: هو أن عدم سؤاله نوعٌ من أنواع العقاب.

المعنى الثالث الذي ذكرته: أنه لا يُسأل بعد أن سُئل وصدر عليه الحكم بإدخاله النار.

المعنى الرابع: النار نهاية العاصي:

ويوجد معنى أخير قاله بعض العلماء: الإنسان حينما يرتكب جريمةً فظيعة يستحقٌ بها الإعدام، وعليه ذنوبٌ كثيراتٌ صغيرات (كأن يكون عليه مخالفة سير) وهو محكوم بالإعدام أعتقد أنه لا يُحاسب على مخالفة السير لأنه سيُعدم بعد قليل، وهذا معنى أخير.

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (39) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

عرض أعمال الإنسان عليه يوم القيامة حركة حركة:

هناك شيءٌ آخر: أحياناً عندما يُخالف الإنسان الأنظمة، الآن توجد أجهزة حديثة جداً تلتقط له صور المُخالفة، فأحياناً تأتي ورقة إلى البيت أنك خالفت، فالشيء المألوف أنك تقول: لا أنا لم أخالف، أنا لم أكن في هذا الوقت في هذا المكان وهذه مخالفة فيها افتراء (يصير هناك مناقشة) أما الأجهزة الحديثة تُقدِّم له صورة سيارته بسرعته المتجاوزة، ولون سيارته، والمكان والزمان والوقت تفضل هذه الصورة مُسْكِته لا يوجد معها سؤال، أحيانا يسألوه فيقول: لا كنت، لا لم أكن، لا تكلمت، لا لم أتكلم، أما إذا قُدِّمت لك الصور انتهى السؤال، هذه أدلّةٌ دامغة، لعلّ الله سبحانه وتعالى يعرض على الإنسان يوم القيامة أعماله كلّها كشريط منذ أن خلقه وحتّى توفّاه حركة حركة، فعل، ترك، اقترف الفاحشة، أكل المال الحرام، احتال على الناس، اعتدى على أعراضهم، على أموالهم.

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

(سورة الإسراء)

كل مخلوق يموت و لا يبقى إلا ذو العزة و الجبروت:

مرّة سمعت بالحرب العالمية الثانية في بلد أوروبي العادة عندهم أن الإنسان تُعرض عليه ذنوبه ويُطلَب منه أن يَحْكُم على نفسه، فعرضوا على ضابط خيانته، عُرِضت عليه ذنوبه (هذه في ألمانيا) فقيل له: ماذا تحكم على نفسك ؟ أخرج مسدساً وأطلق على نفسه الرَصاص.

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

لذلك:**إن العار ليلزمُ المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى،** وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب. فعندما تنحسر عن الإنسان شهواته، وتنحسر عنه أمواله، ومكانته، ورغباته، ويبقى مع ذنبه وجهاً إلى وجه فهذا شيء لا يُحتمل، فيجب على الإنسان من حينٍ إلى آخر أن يتبع جنازة، الموت لم يدخل إلى حياتنا بدقّة، هذا المتوفى إنسانٌ مثلنا كان قبل أيام بيننا، فُتِح النعش،

حُمِل الميت ووضِع في هذه الحفرة، أهيل عليه التراب وعاد أهله إلى البيت، هل يستطيع أحدٌ منّا أن ينجو من هذه الحادثة ؟ أبداً مهما اعتنى بالبيت فلا بدّ من أن يُغَسّل في أحد غرف البيت، إذا المطبخ واسع ففيه يغسّلوه، إذا الحمام واسع ففي الحمام، لم يكن فيغسلوه في غرفة، وقد لا يُغَسّل في البيت، في المستشفى، وقد لا يوجد له أثر، إذا كان في طائرة واحترقت لا يوجد أثر مات جميع ركّابها، فهل يوجد أحد ينفد من الموت مهما علا شأنه ؟ كل مخلوقٌ يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت.

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلــى القبور جنازة فــاعلم بأنك بعدها محمول

***

العاقل من يعدّ لساعة الحساب عدّتها:

والله الإنسان من علامة توفيقه أن يفكّر في هذه الساعة تفكيراً ملياً ؛ يُعِد لها التوبة، يُعد لها العلم، طلب العلم، العمل الصالح، إنفاق الأموال، خدمة الخلق، الذكر، التسبيح، يُعِد لها الأعمال الصالحة لأن هذا يوم لا بدّ من أن يأتي.

فأنا لا أبتعد عن واقعنا كثيراً، في هذا المسجد المتواضع في خلال عشرين عاماً كم شخصاً من إخواننا غادرنا ؟ والله كل أسبوعين يوجد شخص تقريباً أليس كذلك ؟ فهل نحن مخلّدون ؟ لا والله، ملك الموت الآن تخطّانا إلى غيرنا وسيتخطّى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، يوجد أشخاص يشترون قبر في حياتهم، وأنا أفضل الواحد إذا اشترى قبراً أن يطلع إليه هنا المصير.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

(سورة الحشر)

على الإنسان أن يلقى الله بعمل صالح يقربه إليه:

لا يليق لإنسان من روّاد المساجد يقول: أنا لا أزني، لا أشرب خمر، أنا لا آكل مال حرام (هذه ابتدائي) أنت الآن في الجامعة السؤال هو: ماذا قدّمت لله ؟ بماذا خدمت المسلمين ؟ تعلّمت علماً ؟ ساهمت في بناء مسجد ؟ في بناء ميتَم ؟ في بناء دار رعاية ؟ في بناء مدرسة شرعية ؟ أنفقت على طالب علم ؟ عملت شيئاً تُقدّمه لله عزّ وجل ؟ ماذا فعلت ؟ لا صدقة ولا جهاد فبما تلق الله إذاً ؟ إذاً:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (39) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

المجرم وجهه أسود يوم القيامة:

ومن تفسيرات قوله تعالى:

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ)

أنه:

(يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ)

(سورة الرحمن)

المجرم ظاهر.

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)

(سورة آل عمران: آية " 101 ")

المؤمن وجهه متألق ينظر إلى الرحمن يوم القيامة :

المسلم المؤمن.

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

(سورة القيامة)

مُتَأَلِّق، وجهٌ أبيض متألق ينظر إلى الله عزّ وجل.

(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ)

(سورة عبس)

فالكافر وجهه أسود، أحياناً شخصان متشابهان يُقال لهما: من الناجح منكما ؟ أما إذا الناجح معه جلاءه ومكتوب بالقلم العريض ناجح فإن السؤال ليس له معنى.

المجرم و البريء يُعرفان يوم القيامة من قسامة وجههما:

من معاني قوله تعالى:

(لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ)

لأنه:

(يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ)

(سورة الرحمن)

مرّة كنت عند صديق لي (محقق بالقصر العدلي) يحقق في جريمة قتل، وهذا الذي يُحقق معه نظره إلى الأرض كالح الوجه، دخل فجأةً شابٌ متألِّق الوجه، فسأله وأخذه معه (هو قريب القاضي كلّفه

بعمل) قلت سبحان الله: البريء معروف، المتهم واضح من وجهه، من انكسار بصره، من قسامة وجهه، من الغبرة التي على وجهه، من اسوداد وجهه، و البريء وجهه متألق.

فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ : آية لها عدة معان :

1 ـ الكافر إما أن يُساق من شعر مقدّمَة رأسه:

(يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ)

قال: هؤلاء المجرمون يؤْخَذون بالنواصي والأقدام، الناصية شعر مقدمة الرأس، والرأس مكان تكريم الإنسان، فإذا جرّ الإنسان من شعر رأسه فهذه إهانةٌ ما بعدها إهانة.

2 ـ أو يساق من قدميه:

أما إذا جرّ من قدميه على رأسه فهذه إهانة أشد.

3- أو يُجْمَع رأسه إلى قدميه ويُلقى في النار:

إما إن جُمِع رأسه إلى قدميه ورُبط وأُلقي في النار، العلماء لهم ثلاث آراء في تفسير هذه الآية: إما أن يُجْمَع رأسه إلى قدميه ويُلقى في النار، وإما أن يُساق من شعر مقدّمَة رأسه، وإما أن يُساق من قدميه.

(فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (41) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

جهنم يراها الكافر رأي العين:

الآن أكثر الناس أي حديث عن جهنّم، عن الآخرة، عن الموت، يَزْوَرُّون منه، يتأففون منه، دعك من هذا الحديث، حدِّثه عن أسعار العملة، عن البيوت، عن المقاصف، فيلات، شركات مساهمة، تجارات، سياحة، رحلة، تجد أن لعابه يسيل، أما إذا حدّثته عن شيءٍ بعد الموت فإن قلبه يزداد انقباضاً، أما الذي يقول: أنا مؤمن بالآخرة لكن لا يعمل لها فإن هذا مكذب، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ)

(سورة الرحمن)

يرونها رأي العين.

المؤمنون يُطلون على النار دون أن يتأثروا لتزداد سعادتهم في الجنة:

إخوانا الكرام: أي شيءٍ قاله الأنبياء والرسل، أي شيءٍ ورد في هذا القرآن وفي سنة النبي العدنان فإن هذا الشيء سوف نراه جميعاً رأي العين، لذلك من بعض ما ورد من تفاسير حول قوله تعالى:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

(سورة مريم)

حتى المؤمنون يُطلون على النار دون أن يتأثروا ولا بوهجها لتزداد سعادتهم في الجنة، أي يا أيها المؤمن لو لم تؤمن في الدنيا، لو لم تستقم لكان مكانك هنا، لأن المؤمن إذا رأى مكانه في النار لو لم يؤمن لتضاعفت سعادته في الجنة، فأنا أضرب مثلاً: شريكان اقترح أحدهما التعامل مع بضاعة ممنوع التعامل بها، فالأول رفض والثاني أصر، فَفُسِخَت الشركة، الثاني الذي أصر تعامل مع هذه البضاعة ثم ضبط بالجُرم المشهود، وأُلقي القبض عليه وأودع في السجن، فذهب الشريك الأول ليزوره في السجن، هو في الظاهر يزوره، أما في الباطن يشكرُ الله عزّ وجل على أنه اتخذ قراراً حكيماً برفضه هذه البضاعة وهو في السجن يزداد قناعةً بصواب قراره، ويزداد سعادةً بحسن تصرُّفه، أما في الظاهر يزوره في السجن، فعندما يرى الإنسان مكانه في النار لو لم يؤمن هذا معنى قوله تعالى:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

ورود النار شيء و دخولها شيء آخر:

الورود شيء والدخول شيءٌ آخر، دخول النار عقاباً، أما ورودها ليس عقاباً ولكن اتعاظاً، وقد يرى هؤلاء الذين ظلموهم في الدنيا، أحياناً شريكان واحد لا يوجد عنده دين، ظالم، يرى عدل الله عزّ وجل، قال:

(إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)

(سورة الصافات)

(هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ)

الإنسان حينما يضجر من شدة الحر، ومن لهيب النار، ومن عذاب جلده المُحترق، يضجر فيستغيث فهؤلاء:

(يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً)

(سورة الكهف)

هذا هو المعنى.

يطوف المجرم يوم القيامة بين جهنم و بين شراب كالزيت المغلي:

(يَطُوفُونَ بَيْنَهَا)

أي بين جهنّم وما فيها من شدة الحريق، وبين شرابٍ كالزيت المغلي.

(وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ)

(سورة الرحمن)

في أعلى درجات حرارته.

(هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ)

لذلك قال أحد الأئمة: عثرت على حديثٍ جمع علم الأوّلين والآخري هذا الحديث:

((اتق النار بقدر صبرك عليها، واعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمل للآخرة بقدر مقامك فيها، واتق الله بقدر حاجتك إليه))

(ورد في الأثر)

آمال الإنسان تنتهي بلحظة لأنه مملوك لا مالك:

لو فرضنا بلداً لها نظام خاص في الإيجار، في بعض البلاد مالك البيت لمجرّد أن يطلب من المُستأجر أن يخرج فعليه أن يخرج (ولا كلمة وبلا إنذار) لو فرضنا شخص مستأجر بيتاً، وله دخلٌ كبير، كل هذا الدخل أنفقه على تزيين بيته المستأجَر ؛ غيّر السقف، الجدران، الأبواب، التزيينات، ومالك البيت في أية لحظة يُعطيه أمراً بالخروج، لساكن هذا البيت دارٌ يملِكها ولكنها بعيدة، خربة ؛ بلا سقف، بلا نوافذ، بلا أبواب، بلا أرض، فهل من العقل أن يُنفق كل دخله على تزيين بيتٍ مستأجَرٍ يًغادره في أية لحظة وأن يُهمل بيته الأساسي الذي سيؤول إليه شاء أم أبى ؟ هذا ما يفعله الناس، كل مكتسباتهم في الدنيا، يريد فيلا ومسبح، يريد مكان على البحر، يريد أحدث مركبة ولكن إلى متى ؟ كل مكتسباته في هذه الأشياء، لا عرف الله ولا صلى، ولا استقام، ولا غضّ بصره، ولا حرّر دخله، وفي أي لحظة يقف قلبه فجأةً، أي إن كل آمال الإنسان أساسها سيولة الدم في الدماغ ولو كنت ملكاً، دمٌ تجمد في الدماغ انتهى كل شيء، فهل أنت مالكٌ أن مملوك ؟ إنك مملوك.

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران)

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

(سورة الملك: آية " 1 ")

طاعة الله خير للإنسان من ذكائه و ماله:

لا تملك شيئاً، ولا تملك أن تبقى في مكانك ولا دقيقة، الإنسان يكون بعقله وبرأسه، حكى لي شخص عن رجل فقد عقله مؤقتاً، باع كل أمواله بثمنٍ بخس والآن لا يملك درهماً في الحياة (رجع إليه عقله) أي أن هذا المرض جاء وذهب، جاء فباع كل أملاكه ولا يعرف أحدٌ كيف أنفقها والآن لا يملك بيتاً يسكنه، ولا تملك عقلك، وإذا الإنسان فقد عقله أولاده يتوسطوا لدى أعلى مستوى بمحلٍ في مستشفى الأمراض العقيلة لأبوهم الذي اشترى البيت وجّهزه لهم، فأنت لا تملك شيئاً، لا تملك إلا أن يرحمك الله عزّ وجل، ومع الله عزّ وجل لا ينفعك ذكاؤك، ولا ينفعك مالك ولكن تنفعك طاعتك له.

(وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

(هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آَنٍ (44) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان)

و في الدرس القادم إن شاء الله نتابع..

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَان)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الرحمن 055 - الدرس (7-7): تفسير الآية 46 إلى آخر السورة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-01-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس السابع من سورة الرحمن، ومع الآية السادسة والأربعين وهي قوله تعالى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

الله موجود مع كل مخلوق :

مقام الله أنه يُشرف على خلقه.

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

(سورة الرعد: آية " 33 ")

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ)

(سورة هود: آية " 114 ")

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ)

(سورة الشعراء)

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

(سورة الرد: آية " 33 ")

الله موجود ومع كل مخلوق، ويكشف حقيقته، ونواياه، ومقاصده، وبواعثه وأهدافه وصراعاته.

مقام الله مقام الإشراق و السمو:

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

الله سبحانه وتعالى قيامنا به، والإمداد منه، وهو سميعٌ قريبٌ مجيب عليم، لو تكلمنا يسمعنا، وإن تحركنا يرانا، وإن سكتنا ووقفنا يعلّم ما في أنفسنا، مقام الله عزّ وجل مقام الإشراق.

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

وهو معكم أينما كنتم، المتناجيان يعلّم الله نجواهما.

الشهوات طريق الإنسان إلى الارتقاء إلى الله:

قال:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ)

(سورة الرحمن: آية " 46 ")

لما يخاف ؟ لأن الله أودع فيه الشهوات، وسمح له بطريق واحد، بقناة واحدة، بمسرب واحد، بطريقة واحدة لإنفاذ هذه الشهوات، فإذا تطلّعت نفسه إلى خلاف منهج الله عزّ وجل ذكر مقام الله أنَّه معه، وأنَّه يراقبه، وأفضل إيمان الرجل أن يعلم أن الله معه حيث كان، إذا ذكر مقام ربه، الأصل أن الله أودع فينا الشهوات.

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

(سورة آل عمران)

في كل إنسان بما فيهم الأنبياء، شاءت حكمة الله أن يودع فينا الشهوات من أجل أن نرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، نرقى بها صابرين، ونرقى بها شاكرين، نرقى بها إذا غضضنا طرفنا، ونرقى بها إذا نظرنا، إذا نظرنا إلى من تحل لنا نرقى شاكرين، وإذا غضضنا عمن لا تحل لنا نرقى صابرين، إذا أخذنا المال الحلال نرقى شاكرين، فإذا كففنا عن المال الحرام نرقى صابرين، أودع الله فينا الشهوات لنرقى بها إلى رب الأرض والسماوات.

الإنسان بلا شهوة لا يرقى عند الله:

الإنسان بلا شهوة لا يرقى عند الله، كيف يرقى ؟ ماذا يعمل ؟ ماذا ينفق ؟ لكن أودع فيه حب النساء، وسمح له بالزواج وأمره بغض البصر، أودع فيه حب المال، سمح له بالكسب الحلال ومنعه عن الكسب الحرام، أودع فيه حب العلو في الأرض، سمح له أن يعلو بطاعته، ولم يسمح له أن يعلو بمعصيته، فالمؤمن الله عزّ وجل قال:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

ولكل مؤمنٍ من هذه الآية نصيب بقدر إيمانه وبقدر إخلاصه، المؤمن معزز، مكرم، مبجّل، محترم، الله عزّ وجل يرفع ذكره بين الناس لكن بالحق، بخدمة الخلق، بطلب العلم، بتعليم العلم، فهذه الشهوات

أودعها فينا، وعمل لنا أمراً ونهياً، قناة مسموح بها، قناة ممنوعة، أسلوب مسموح، أسلوب ممنوع، فالإنسان حينما تعرض له الشهوات وتحدِّثه نفسه أن يعصي الله، ويذكر مقام ربه الذي معه يراقبه.

أعظم شيء مخافة الله عز وجل في السر و الجهر:

(وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة الأنفال)

كل خواطر الإنسان عند الله معلومة، كل نواياه معلومة، كل دقائق نفسه معلومة، خبايا نفسه معلومة، أهدافه، لذلك هكذا قال الفقهاء (اسمحو لي أن أقول ما قال الفقهاء): قالوا: من حلف طلاقاً أنه إذا حدثته نفسه بمعصيةٍ وخاف مقام ربه فله الجنة، لا يطلق امرأته، لأن الله وعدنا وقال:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبّهِ جَنّتَانِ)

فأعظم شيء أن تشتهي شيئاً محرماً فتقول: إني أخاف الله رب العالمين، فما الذي يمنع إنسان جالس في غرفته وإلى جانبه بيوت كثيرة و ظهرت جارة له على الشرفة المقابلة متبذلة في ثيابها، ما الذي يمنعه أن ينظر إليها ؟ لا في قانون، ولا في توجيه حكومي، ولا في شيء يمنع ذلك، فإذا غض بصره عنها وأرخى الستار، لماذا غض بصره عنها ؟ لأنه خاف مقام ربه، قال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها، قال له: ليست لي، قال له: قل لصاحبها ماتت (تُحَل المشكلة) قل له: أكلها الذئب، قال له: ليست لي، والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني فإني عنده صادقٌ أمين ولكن أين الله ؟

الجنة أعدها الله لمن خاف مقام ربه:

رجل لا أعرفه، أرسل لي ورقة قبل عام تقريباً أو قبل عام ونصف، قال لي: والله أرجعت إلى جهةٍ عشرين مليون ليرة، إلى ورثة لا يعلمون عنها شيئاً، وليس في حوزتهم لا معلومات ولا إيصالات كان قد أودعها عندي أبوهم وتوفي فجأةً، لماذا أرجعها إليهم ؟ لأنه خاف مقام ربه، فلما الإنسان يدع الشيء خوفاً من الله له الجنة.

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبّهِ جَنّتَانِ)

شابٌ في مقتبل الحياة والغرائز في أشدُّها، والطريق مليء بالكاسيات العاريات المائلات المُميلات، ما الذي يمنعك أن تنظر ؟ ما الذي يمنعك أن تشاهد ؟ ما الذي يمنعك أن تقتني صحناً ترى فيه كل شيء لا يمكن أن تراه ؟

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)

(سورة النازعات)

ما الذي يمنعك أن تأكل المال الحرام ؟ لأنك تخاف مقام الله عزّ وجل، ما الذي يحضُّك على أن تكون صادقاً ؟ لأنك تخاف مقام الله عزّ وجل، ما الذي يحملك على أن تكون أميناً ؟ لأنك تخاف مقام الله عزّ وجل.

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان:

فقال له: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها أكلها الذئب أو ماتت لصدقني، فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله ؟

أخ (تكلمت هذه القصة البارحة) باع بيوتاً كثيرة قبل عشرين أو ثلاثين سنة، البيت ثمنه خمسة وثلاثين، لم يتمكن أن يسجلها (يطوب) عُرضَ عليه كل بيت مليون، فوّت على نفسه مئة مليون لأنه لا وجهة لها، فلما أمكنه أن يسجل البيوت باسم أصحابها سجّلها بأسمائهم ولم يأخذ منهم شيئاً، قال لهم: أنا بعتكم وقتها بالثمن الصحيح وربحت عليكم وليس لي عندكم شيء، فلماذا امتنع عن أخذ مئة مليون ؟ لأنه خاف مقام ربه، فالله يجعلنا من هؤلاء، أن تقول: لا أفعل هذا لو قطّعتني إرباً إرباً، هذا مقام الله عزّ وجل:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة الحديد)

هو معك في سرّائك وضرّائك، وفي حضرك وفي سفرك، في لهوك، وفي بيتك، وفي عملك وفي الطريق، وفي السفر معك.

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة الحديد)

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ)

(سورة الشعراء)

هذا هو مقام الله عزّ وجل، لذلك أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان.

مراقبة الله للإنسان تجبره أن يستحي منه:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ)

الإنسان ينبغي أن يستحي من الله، كلما ذكر أن الله معه وأنه يراقبه يستحي، بل إن الإنسان يستحي أحياناً من شخص، إذا كان زارك زائر ترتدي ثياباً معقولة، تتكلم كلمات مقبولة، تجلس جلسة معقولة، جلستك وحركتك وكلامك وثيابك مقبولة لأن في شخص يراقبك، فكيف إذا كان الله هو الذي يراقبك ؟

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

أما لماذا هم جنتان ؟

وصف الجنة بالمثنى لها عدة تفسيرات:

في سورة الواقعة ورد أن هناك:

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ)

(سورة الواقعة)

وأن هناك:

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ)

(سورة الواقعة)

هذا تفسير، لكنه لا يستقيم لأنه:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

كل جنةٍ من هذه الجنتان وصفت بالمثنى.

(ذَوَاتَا أَفْنَانٍ)

(سورة الرحمن)

1 ـ الجنتان جنة للإنس وجنة للجن:

قال بعض المفسرين: **الجنتان جنة للإنس وجنة للجن، لأن الجن مكلّفون كالإنس.**

2 ـ الجنتان مضاعفة للثواب:

وقال بعضهم: **الجنتان مضاعفة للثواب**، يقول لك: الساعة الإضافية لها أجر مضاعف مثلاً، مكافأة مزدوجة، راتب مزدوج، من باب الإكرام مضاعفة الثواب.

3 ـ جنة لهم وجنة لأزواجهم:

وبعضهم قال: **جنة لهم، وجنة لأزواجهم.**

4 ـ جنتان إذا مكث في الأولى تاق إلى الثانية و العكس صحيح:

وبعضهم قال: جنتان إذا مكث في الأولى تاق إلى الثانية، فإذا مكث في الثانية تاق إلى الأولى، يقول لك: مقر صيفي، مقر على الساحل، أحياناً الإنسان يكون ببحبوحة يكون له بيت على الساحل، يكون له بيت في المصيف، يكون له بيت في المدينة، يكون له مزرعة، فالتنقل من مكان إلى مكان، مبالغة في الإكرام.

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

الجنتان جنة له، وجنة لنسائه، جنة له في مكان وجنة له في مكان آخر، أو مضاعفة للثواب، أو جنة لإنس وجنة للجن، قال:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

الجنتان في الآخرة آية في الحسن و الجمال:

هاتان الجنتان، كل جنتين لهما وصفٌ في كتاب الله، الجنتان الأوليان:

(ذَوَاتَا أَفْنَانٍ)

الأفنان أي أشجار، لها جذوع، ولها فروع، ولها أغصان وارفة مزدانة بالثمار، خضراء، ظلها كثيف، هذا معنى:

(ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (48) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ)

(سورة الرحمن)

العين تجري، فما أجمل الأشجار الملتفّة حول أغصانها والينابيع تجري من تحتها، أحياناً يكون بستان جميل جداً لكن لا يوجد فيه ماء جارٍ، وأيام ماء جارٍ بلا أشجار، أما إذا اجتمعت الأشجار مع الماء الذي يجري فهذا غاية في الحسن والجمال، فهاتان الجنتان آيةٌ في الحسن والجمال، فهاتان الجنتان الأوليان للسابقين السابقين.

وصف الجنة في الآخرة:

في الدنيا يقول لك: خمس نجوم، أربعة نجوم، بريمو، درجة أولى، درجة ثانية، فهاتان الجنتان في الآخرة للسابقين السابقين جنتان ولأصحاب اليمين جنتان، الأوصاف مختلفة، الآن نبدأ بجنتي السابقين السابقين، الدرجة الأولى:

(ذَوَاتَا أَفْنَانٍ)

أشجار وارفة الظلال، نضرة الأغصان، متسعة الظل، كبيرةٌ كالدوحة.

(فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ)

نبعٌ من الماء كالرَقراق يسيل تحت هذه الأشجار:

(مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ)

(سورة الرحمن)

الإستبرق من أرفع أنواع الأقمشة ذات الخَملة، هذه البطائن فكيف الظواهر ؟ جنة عرضها السماوات والأرض، فكم طولها ؟ إذا كان عرضها هكذا، فكم طولها ؟ إذا كانت هذه المتكئات بطائنها من استبرق أي من أرقى أنواع القماش المخملي الأخضر، فما نوع ظواهرها لأنه (طبعاً هذا وصف من الله للجنّة)، لأنه:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

(متفق عليه عن أبي هريرة)

ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الاسم فقط:

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ)

(سورة السجدة: آية " 17 ")

مرة شخص قرأ أمامي هذه الآية فقال: فلو تعلم فقلت له: لا ليس لو، لأن لو حرف امتناع للوجود، لو يمكن أن نعلم، أما الله عزّ وجل قال:

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ)

لا يمكن أن نعلم، وليست في الجنة مما في الدنيا إلا الاسم، مثلاً ضربت هذا المثل قبل حين: طائرة أكبر أنواع الطائرات، وأرقى أنواع الطائرات ثمنها ثلاثة آلاف مليون (775) وفي طائرة صغير للأطفال تشبهها، هذه اسمها طائرة ثلاثة آلاف مليون وهذه طائرة ثمنها اثني عشر ليرة، هل هناك ما يجمع بينهما ؟ ليس مما في الجنة مما في الدنيا إلا الاسم فقط.

(فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ)

(سورة الرحمن)

من كل أنواع الفواكه زوجان، والفاكهة تعبير عن الإكرام.

(فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ)

فهذه الجنة يستغنى عنها من أجل سنواتٍ معدوداتٍ في الدنيا مشحونةٍ بالمشكلات ؟!! صدقوني سنوات معدودة، دققوا في الذين يتوفاهم الله، عمر المرحوم ثلاثة وستين، عمر المرحوم اثنين وخمسين، عمر المرحوم ثلاثة وأربعين، لنا صديق ثلاثة وأربعين، عمر المرحوم سبعة وخمسين، ثمانين ما شاء الله و هذا نادر، وصل للثمانين ما شاء الله، معناها أن معترك المنايا بين الستين والسبعين.. بربكم في أي سنٍ يمكن أن تستقر ؟ أليس قبل أربعين سنة، كم بقي ؟ عشرين سنة مع الاحتياط، عشرين أو عشر سنوات، فهذه السنوات العشر المشحونة بالمتاعب والهموم والمشكلات تستأهل أن نستغني عن الجنة بأكملها.

كل شيء في الجنة بمتناول يد الإنسان:

(مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ)

(سورة الرحمن)

أحياناً ترى نخلة عليها تمر رائع، لكنها تتطلّب اختصاصيين يصعدون على النخل يربط نفسه بحبلة ويصعد على الدرج ثم ينزل، أما أحياناً ترى الشجرة في متناول يدك، شيء جميل جداً أن يكون الشيء أمامك، في متناول يدك:

(وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ)

أي قريبٌ منك.

المرأة في الجنة تقصر طرفها على زوجها فقط:

(فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (55) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ)

أي أن أجمل صفةٍ في المرأة ألا تنظر إلى غير زوجها، تقصر الطرف عليه، وأبشع صفةٍ في المرأة أن تحدّثه عن الرجال، فلان دخله، شكله، طوله، دائماً ينشأ بين الزوجين المتفلتين هو يذكر لها محاسن النساء الأخريات فيحرق قلبها، وهي تذكر له محاسن رجال آخريّن فتؤلمه، لكن المرأة في الجنة تقصر طرفها على زوجها.

(فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ)

لذلك ممنوع في الإسلام أن تَصِفَ المرأة لزوجها نساءً أخريات وكأنه يراهن، الحجاب أصبح ليس له معنى، إذا وصفت له امرأةً أخرى وصفاً دقيقاً فكأنه ينظر إليها، وإذا وصف له رجلاً صديقه وصفاً

دقيقاً فكأنها تنظر إليه، فربما تحوّل عنها إلى غيرها، وربما تحوّلت عنه إلى غيره، عندئذٍ تنفصم العلاقة والمودّة والرحمة بين الزوجين، يعني بشكل مباشر أحد أسباب الوفاق الزوجي في الإسلام أن هذه المرأة ليس بإمكانها أن تتصل إلا مع زوجها، بحسب منهج الله عزّ وجل، وأن هذا الزوج لا يسمح له الشرع لا أن ينظر ولا أن يتكلّم ولا أن يقيم علاقة مع غير زوجته، لذلك هذا أحد أسباب السعادة.

أحد أسباب سعادة الإنسان أن يتقيد بشرع الله تعالى:

سمعنا عن رئيس جمهورية في بلد أوروبي متقدِّم جداً وقيل: حضر الجنازة وزوجته وعشيقته (شيء طبيعي جداً) أما عندنا غير طبيعي، فهذه حالة مرضية، نحن لا يوجد عندنا إلا زوجاتنا.

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(فِيهِنّ قاصِرَاتُ الطّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ)

أي أن هذه المرأة لم يعرفها أحدٌ غيرك، فلو شخص أخذ أرملة فدائماً تحدّثه عن: المرحوم، المرحوم، المرحوم، ينتخر عظمه بالمرحوم.

(فِيهِنّ قاصِرَاتُ الطّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

فصارت هذه الجنة الدرجة الأولى.

المرأة في الجنة كأنها الياقوت و المرجان:

(ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (48) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (50) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (51) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (52) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (53) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (55) فِيهِنّ قاصِرَاتُ الطّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (57) كَأَنّهُنّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ)

(سورة الرحمن)

كأنهن في حسنهن، في لونهن وفي قوامهن الياقوت والمرجان.

(كَأَنّهُنّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

فلذلك امرأة من صحابيات رسول الله، طلبت من زوجها طلباتٍ لا يحتملها، فحسم الأمر بهذا الجواب، قال لها: **"اعلمي يا فلانة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلّت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها نور الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أضحي بهن من أجلكِ ".**

المرأة الصالحة في الدنيا تغدو في الجنة حور عين:

الآن العلماء قالوا: المرأة الصالحة في الدنيا التي عرفت ربها، واستقامت على أمره، وكانت مسلمةً مؤمنةً قانتةً تائبةً عابدةً ثيّبةً أو بكراً كما قال الله عزّ وجل هذه المرأة الصالحة تغدو في الجنة حوراً من حور الجنة، بعض آراء المفسرين:**أن الحور العين في الجنة هُنّ زوجات المؤمنين بالذات** ، لكن الله سبحانه وتعالى يعطيهن جمالاً فائقاً ليس لهن في الدنيا، وبعضهم قال: إن الحور العين، مخلوقات يخلقها الله في الجنة، وبعضهم يميّز أن الحور العين التي هي زوجة لمؤمنٍ في الدنيا أرقى للمؤمن من حور عين الجنة التي لم تُخْلَق في الدنيا، لماذا ؟ لأن المرأة المؤمنة التي عرفت ربها في الدنيا، وابتعدت عن الحرام، وقصرت طرفها على زوجها، وأحسنت تبعُّل زوجها وأولادها، وصلّت خمسها، وصامت شهرها، وحفظت نفسها وأطاعت زوجها، هذه امرأةٌ لها عند الله مكانةٌ كبرى، لها إقبالٌ على الله، لها اتصالٌ به غير التي يخلقها الله في الجنة بأروع شكل لكن ليس لها عمل صالح في الدنيا ترقى به.
هناك فرق بين دُمية وبين زوجة، لذلك يقولون: الحور العين الآتي في أعلى مستوى هي المرأة المؤمنة في الدنيا التي عرفت ربها، وخافت مقام ربها، واستقامت على أمره، وأحسنت تبعُّل زوجها وخدمة أولادها حتى ارتقت إلى الله عزّ وجل، فإذا دخلت الجنة كانت في أعلى مستوى.

للمرأة في الجنة زوج يسكن إليها:

لو فرضنا أتيح لشخص أن يجلس مع امرأة في أعلى مستوى، لو أن هذه المرأة مثلاً متعلِّمة دينياً، متفقِّهة في الدين، تحفظ كتاب الله، تعرف أوامر الله ونواهيه، الجلوس مع امرأة بأعلى مستوى من حيث الشكل مع علم أكمل بكثير، فكيف إذا كانت صدِّيقة مثلاً، إذا كانت مؤمنة عابدة طائعة لله ؟ فالحور العين إن كن زوجات المؤمنين في الدنيا هن في أعلى مستوى في الآخرة.
وقد يقول قائل دائماً: إذا كان للرجل حور عين فماذا للمرأة ؟ كيف أن المرأة في الدنيا كما أن الزوج يسكن إليها هي تسكن إليه بالمقابل، كذلك هذه المرأة التي آمنت في الدنيا واستقامت على أمر الله عزّ وجل وعرفت ربها وتقرّبت إليه ودخلت الجنة، كما أنها تغدو سكناً لزوجها في الجنة، يغدو زوجها لها سكناً في الجنة، إذا كان له الحور العين، هي لها الأزواج المؤمنين، هو له حور عين، هي لها زوجٌ مؤمن في الجنة.

ذَوَاتَا أَفْنَانٍ: هذان النموذجان من الجنة للمحسنين:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)

(سورة الرحمن)

فُهِم أن هاتين الجنتين اللتين في أعلى مستوى.

(ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (48) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (50) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (51) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ)

الفُرُش من استبرق.

(فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ)

قال: هذا النموذج من الجنة، أو هذان النموذجان من الجنة للمحسنين.

من هم المحسنون ؟

هي مرتبةٌ تحدّث عنها النبي، هي فوق الإيمان، في إسلام، في إيمان، في إحسان، الإسلام أن تنقاد لله، تُسَلِّم أمرك إليه تطبيقاً وتنفيذاً، والإيمان أن تقبل عليه، والإحسان أن تعبده كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، هذه الإحسان أعلى مرتبة، قال: هل جزاء الإحسان الذين فعلوه في الدنيا إلا الإحسان في الجنة، الله عزّ وجل وفي وشكور ولا تضيع عنه الأعمال.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

(فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (61) وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

الدرجة الثانية في الجنة هي درجة الإيمان:

الآن في درجة ثانية، أربع نجوم.

(وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ)

لأصحاب اليمين، هذا دون الإحسان، هذا مرتبة الإيمان، أي أنه أطاع الله عزّ وجل واستغرق في المباحات، لم يعص الله، لكن يقول لك: ساعة لك وساعة لربك، هو استقام على أمره واتّبع منهجه لكن لم يبع نفسه له كلياً.

(وَالسّابِقُونَ السّابِقُونَ)

(سورة الواقعة)

كل وقته، نفسه، ماله، طاقاته، خبراته، كل إمكاناته وظّفها في الحق، قال له: كم الزكاة سيدي ؟ قال له: عندنا أم عندكم ؟ قال له: كم عندنا وكم عندكم، وما عندنا وما عندكم: قال له: عندكم اثنان ونصف بالمئة، أما عندنا العبد وماله لسيده.

(إنّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنّ لَهُمُ الْجَنّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(سورة التوبة)

الأشياء في الدرجة الثانية محدودة و ليست مفتوحة:

الآن الدرجة الثانية.

(وَمِنْ دُونِهِمَا جَنّتَانِ (62) فَبِأَيّ آَلَاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ (63) مُدْهَامّتَانِ)

(سورة الرحمن)

فيهم اللون الأخضر في هاتين الجنتين داكن، مائل إلى السواد.

(فَبِأَيّ آَلَاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ (65) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضّاخَتَانِ)

(سورة الرحمن)

هناك عينان تجريان، هنا عينان نَضّاختان.

(فَبِأَيّ آَلَاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ (67) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمّانٌ)

(سورة الرحمن)

هناك من كل فاكهةٍ زوجان، ألا تلاحظوا الفرق ؟

(ذَوَاتَا أَفْنَانٍ)

(فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمّانٌ)

(سورة الرحمن)

أي توجد وجبة محددة وليست مفتوحة.

في المرتبة الأدنى في الجنة حور عين و خيام و قصور:

(فَبِأَيّ آَلَاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ (69) فِيهِنّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ)

تفسير

(الخيرات الحِسَان)

قال:

(فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان (71) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَام)

الخيرات الحِسَان:

(حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ)

هناك قصور، هنا خيام.

(فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (73) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ)

كحور السابقين السابقين.

(فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان)

معنى

(يطمثهنّ)

أي لم يمسَّهُنّ.

(إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (74) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (75) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ)

أي بُسُط راقية جداً.

المرتبة الثانية في الجنة فيها بُسُط وثيرة كأنّها من صنع عبقر:

(خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ)

هناك البطائن من إستبرق، هنا متكئين على بسطٍ ناعمةٍ كالرَفرَف ترفُ بصاحبها أي وثيرة، يقول لك: تغوص القدم في هذا السجّاد.

(رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ)

العبقر هو وادٍ في الجزيرة اسمه وادي عَبْقَر، كل شيء فائق الصنعة يُقال: هذا من وادي عبقر، لأن العرب كانوا يعتقدون في الجاهلية أن الجنّ تسكنه، فإذا إنسان تجاوز الحد الطبيعي يُقال له: عبقري أي من وادي عبقر، وادي تسكنه الجن، الآن إذا رأوا شخصاً ذكياً جداً يُقولوا عنه: مثل الجني، فوادي عبقر وادي في الجزيرة تسكنه الجن في زعم العرب في الجاهلية، فكلّما رأوا عملاً فائقاً في صنعته يُقال: هذا عمل عبقري هذا من صنع الجنّ، فهنا ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ)

المُتكئ هو بُسُط وثيرة ناعمة لونها أخضر وكأنّها من صنع عبقر حسنة المنظر

(فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

العمل الصالح في الدنيا يقابله الجنة في الآخرة:

صار عندنا جنّتين، أول ما يخطر في بال الإنسان أنه:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

للإنس جنّة وللجنّ جنّة، أو مضاعفة للثواب، الراتب مُضاعف، أو جنّةٌ له وجنّةٌ لنسائه الحور العين، أو جنّةٌ له في مكان وجنّة في مكانٍ آخر يتنقل بينهما، ثمّ يقول الله عزّ وجل:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

تبارك أي عظُمَ خيره، البركة أن يخلق الله من شيءٍ قليل شيءٍ كثير، كيف ؟ أي أنت جئت إلى الدنيا وعشت ستين سنة، مثلاً تبت في الأربعين، في الأربعين تبت إلى الله عزّ وجل، عشت عشرين سنة بالطاعة، والتوبة، والصلوات، والمساجد، والعمل الصالح، وغض البصر، وإنفاق المال، وحفظ القرآن، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتسبيح والتذكير... الخ، عشرين سنة طاعة يقابلهم أبد: مليار مليار مليار، فما هذا الأبد ؟

الأبد و تعريفه:

مرّة في جامع العثمان ذكرت هذا المثل للتقريب: كتاب أمامي أقرأ منه، قدّرت طوله بخمسة وعشرين سنتيمتر، إذا كان كل ميلي فيه صفر فكم الرقم ؟ ذكرت البارحة في ندوة أن المجرّة الحديثة تبعد عنّا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، البليون يساوي مليون مليون. أي ستة × ستة يساوي اثني عشر صفراً، والألف ثلاثة أي خمسة عشر، والثلاثمئة صفرين أي سبعة عشر وثلاثة، أي ثلاثة أمامها سبعة عشر صفراً، والضوء سرعته بالثانية ثلاثمائة ألف كيلو متر × ستين × ستين × أربعة وعشرين × ثلاثمائة وخمسة وستين طلع ثمانية عشر صفر، قلت: رقم أمامه خمسة وثلاثين صفر، فما هذا الرقم ؟ يقول لك: هذا رقم فلكي، فإذا كتاب أمامي كل ميلي صفر معناه أن واحد وأمامه مائتين وخمسين صفر، ما هذا الرقم ؟ إذا أبعد مجرّة تبعد عنّا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية × السنة الضوئية الناتج واحد وأمامه خمسة وثلاثين صفراً، فكيف واحد أمامه مئتين وخمسين صفراً ؟

في جامع العثمان قلت: يا ترى من المحراب إلى الباب كم صفر ؟ كل ميلي صفر، فلو من الباب إلى ساحة شمدين كم صفر ؟ فلو إذا إلى النبك كم صفر ؟ إلى حمص، حماه، حلب، أنقرة، موسكو، القطب الشمالي، مررنا على المحيط الهادي، على القطب الجنوبي، أي واحد أمامه أربعين ألف كيلو متر

أصفار، ما هذا الرقم ؟ صدقوني أيها الإخوة أن هذا الرقم صفر أمام الأبد، لأن أكبر رقم إذا وضع صورةً لكسرٍ وكان في المخرج لانهاية ثمانية مسطحة فقيمته صفر، إذا نُسِب أكبر رقم إلى اللانهاية فقيمته صفر فما هو معنى:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ)

عطاء الله في الآخرة أكبر بكثير من عمل الإنسان في الدنيا:

أنت عشت عشرين سنة بعد التوبة، عشرين سنة ؛ صلوات خمس، وصوم، وحج، وزكاة، وحضور مجالس علم، وغض بصر، وإنفاق مال، تستحق إلى الأبد جنة ؟

(تَبَارَكَ)

العطاء لا يتناسب مع العمل إنه أكبر بمليار مرّة، بمليار مليار مرّة.

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

بقدر ما هو عظيم بقدر ما هو كريم. أنا أذكر دائماً في هذه الآية أنه ممكن تعيش مع شخص تحترمه احتراماً كبيراً لكنك لا تحبه، متفوّق في اختصاصه، ممكن تعيش مع شخص تحبه حبّاً جمّاً لكنك لا تحترمه لأنه جاهل لكنه قريب لك، لكن أن تجمع بين الاحترام اللانهائي، والمحبة اللانهائية هذا شيء في الدنيا غير موجود، إنه نادر، ربنا جمع أسماءه الحُسنى كثيرة جداً، قسم من أسماؤه تحت اسم الجلال ؛ القوي، الجبّار، المتكبر، القهّار، المتين، ويوجد قسم ؛ الرحمن، الرحيم، اللطيف، الرؤوف، فكل أسماء الجلال وكل أسماء الجمال.

العاقل من يستغل كل إمكاناته في إعمار آخرته:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

أي أن هذه الجنّة لا نستغني عنها ولا ننصرف إلى غيرها لأن بعض العلماء يقول: **" وقع تحت يدي حديثٌ شريف استغنيت به عن علم الأولين والآخرين "**. وهذا الحديث:

((اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمل للآخرة بقدر مقامك فيها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واتقي النار بقدر صبرك عليها))

أعيد عليكم هذا المثل الصعب هل تقبل به (إلا أنه واقع): شخص يسكن في بيت مُستأجر ونظام الإيجار في هذا البلد مالك البيت يُخرج المستأجر من البيت في أي لحظة بلا سبب، وبلا إنذار، والمستأجر له دخلٌ كبير، هل يُعقل أن يضع كل دخله في تزيين هذا البيت المستأجر، وله بيتٌ بعيدٌ بعيد

خرب وهو يُهمل هذا البيت ؟ فالذي يعتني بدنياه دون أن يعتني بآخرته كمن يضع كل دخله في تزيين بيت لا يملكه (مُستأجر يُطرد منه في أية ثانية) أما إذا ذهب إلى بيته الحقيقي لا يوجد فيه أبواب، لا يوجد ماء، ولا توجد كهرباء، ولا يوجد شيء، فالعقل كل العقلِ أن تضع كل إمكاناتك في إعمار البيت الأساسي الذي تنتهي إليه، وبهذا تنتهي سورة الرحمن ونبدأ في درسٍ قادمٍ إن شاء الله تعالى في سورة الواقعة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الواقعة 056 - الدرس (1-5): تفسير الآيات 1-40
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-02-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الأول من سورة الواقعة، يقول الله عز وجل في هذه السورة:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1))

(سورة الواقعة)

يوم القيامة أت لا محال:

كلكم يعلم أن إذا أداة تفيد تحقق الوقوع، أي لابد أن تقع الواقعة، أما لو قيل إن وقعت الواقعة: تقع أو لا تقع، لذلك قال الله تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1))

(سورة الفتح: الآية 1)

وقال في آية أخرى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ)

(سورة الحجرات: الآية 6)

فالفاسق قد يأتي وقد لا يأتي لكن نصر الله لا محالة آت. وهذه أيضاً على تلك الشاكلة.

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1))

أشقى الناس من عد الدنيا دار أقامة :

الواقعة يوم القيامة. الحقيقة أركان الإيمان خمسة: الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، والركنان المتلازمان دائماً هما الإيمان بالله واليوم الآخر، كل منهما يكمل الآخر، أنت إذا آمنت بوجود الله وأنه لن يحاسبك و لا يوجد إلا هذه الدنيا، لن تستقيم على أمره، إنك إن أيقنت أن الله موجود ويعلم وسيحاسب والجزاء أبدي إما في جهنم إلى الأبد وإما في نعيم مقيم إلى الأبد، عندئذ تستقيم.

فسورة الواقعة اليوم كلها حول اليوم الآخر، والإيمان باليوم الآخر لب الإيمان وما لم تنقل كل اهتماماتك وكل جهودك وكل مطامحك وكل أهدافك إلى الدار الآخرة فالدنيا تغدو دار شقاء، إن أشقى

الناس فيها أرغبهم فيها، إن عددتها دار إقامة، إن جعلتها محط الرحال، نهاية الآمال شقيت بها، وأما إن جعلتها طريقاً إلى الدار الآخرة تسعد بها.

معرفة الإنسان بأن إقامته في الدنيا مؤقتة تريحه:

فالإنسان حينما يقيم في بيت أشهراً ثلاثة في الصيف لا يعلق أهمية على بعض الخلل، شعوره بأن إقامته هنا مؤقتة تريحه، لكن لو رأى مثل هذا الخلل في بيته الأساسي، يتألم ! فالشعور أننا هنا ضيوف، أننا هنا عما قريب سنرتحل وسنغادر ولن نرجع، هذا الشعور يُسعد الإنسان، لذلك الآية الكريمة:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1))

ولهول وقوع الواقعة لم يذكر الجواب.

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2))

وجاء الفعل بالصيغة الماضية، إذا أخبرنا الله عن المستقبل. هو وحده يخبرنا بالفعل الماضي لتحقق الوقوع قال تعالى:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

(سورة النحل: الآية 1)

ولمّا يأت بعد:

(فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: الآية 1)

لا تستعجلوه قرينة على أنه لم يأت، لكنه قال أتى.

إخبار الله للانسان يجب ان يقع:

إخبار الله لنا ينبغي أن يقع منا موقع الرؤية، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1))

(سورة الفيل)

إخبار الله لنا ينبغي أن يقع في قلوبنا موقع الرؤية، وأفعال الله المستقبلية ينبغي أن تقع في قلوبنا وكأنها وقعت في الماضي، المتكلم هو الله، هو خالق الكون:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (122))

(سورة النساء: الآية 122)

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

(سورة التوبة: الآية 111)

فإخبار الله لنا يجب أن يقع موقع الرؤية وحديث الله عن أفعاله المستقبلية ينبغي أن تقع فينا موقع أفعاله المتحققة.

المتكلم هو الله عز وجل و كلامه سيتحقق إن عاجلا ام اجلا:

لذلك قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(117))

(سورة المائدة: الآيات 116-117)

هذا الكلام لم يقع بعد:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى)

فإذا كان المتكلم هو الله فكلامه عن أفعاله المستقبلية يأتي بصيغة الماضي وكأنها وقعت وانتهت. وإذا أخبرنا الله عن شيء مضى لا يتاح لنا أن نراه ينبغي أن يقع هذا الخبر منا موقع الرؤية.

الشيء المحقق الوقوع والذي لا بد من أن يقع يوم القيامة:

الآية الكريمة:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2))

يعني في أشياء كثيرة جداً في حياتنا قد تقع وقد لا تقع لكن الشيء المحقق الوقوع والذي لابد من أن يقع، هو أن تقع الواقعة، أن يأتي يوم القيامة:

(لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2))

أوصاف يوم القيامة:

لكن أيها الأخوة من أدق وأبلغ أوصاف يوم القيامة هذا الوصف:

(خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

الحياة الدنيا درجات:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

(سورة الإسراء: الآية 21)

يعني أضرب لكم بعض الأمثلة معلم في قرية يحمل طعامه كل أسبوع والحياة خشنة جداً والمواصلات قليلة والطلاب في جهل كبير، والخدمات ضعيفة والإمكانات محدودة والمشقة بالغة كأستاذ في الجامعة ذو كرسي، مسافة كبيرة جداً، جندي غر كرئيس أركان، ممرض كطبيب جراح، بائع متجول كعضو غرفة تجارة، فرق كبير، الحياة فيها مقاييس، الحياة كلها مراتب، لكن ما قولكم أن هذا اليوم الذي لابد من أن يقع سيقلب كل المقاييس، إنسان يقيم عرساً لابنه كلفته 20 مليون وإنسان ليس معه ثمن رغيف خبز.

المؤمن يغدو يوم القيامة في أعلى مرتبة والمتفلت في الحضيض:

ما قولكم إذا وقعت الواقعة أن تنعكس الآية:

(لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

الذين كانوا في أوج الغنى أصبحوا في حضيض الفقر، والذين كانوا في أوج الصحة والتمكن أصبحوا في عذاب أبدي، والذين كانوا في الفقر المدقع وقد قبلوا من الله حكمه ورضوا بأفعاله ورضوا بقضائه وقدره وتعففوا وتجملوا، ما قولكم أن هؤلاء سيصبحون في نعيم مقيم إلى أبد الآبدين، فالعبرة ما تؤول إليه لا ما نحن فيه، فهذه الواقعة:

(خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

الدنيا مراتب، لكن المستقيم والمطيع سوف يغدو في أعلى مراتب الآخرة والمتفلت من منهج الله، الشارد عن ربه، المقيم على المعاصي، ولو كان في أعلى درجات المجتمع غنى وقدرة وتألقاً وشهرة سوف يغدو في الحضيض، فالعبرة لا فيما نحن عليه ولكن فيما سنكون عليه، فيما سنغدو عليه، لذلك قال تعالى:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128))

(سورة الأعراف)

((ألا يا رُبَّ نَفْسٍ جائعةٍ عاريةٍ في الدنيا طاعمةٍ ناعمةٍ في يوم القيامة، ألا يا رُبَّ مُكْرِمٍ لنفسه وهو لها مُهين، ألا يا رُبَّ مُهينٍ لنفسه وهو لها مُكرم، ألا يا رُبَّ نَفْسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعةٍ عاريةٍ يومَ القيامةِ))

(ورد في الأثر)

العقل أساس التدبر:

لذلك الله سبحانه وتعالى أعطانا هذا العقل كي نتدبر أمورنا، كي نسعى لمستقبلنا، كي نسلك طريق سعادتنا، كي نصل إلى الجنة:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

وإذا الله عز وجل أكرم إنساناً في الدنيا ورفع شأنه، وكان مستقيماً، منضبطاً، ورعاً، منفقاً، محسناً، نِعَمُ الآخرة تتصل بِنِعَم الدنيا، هو في الدنيا في نعيم وفي الآخرة في نعيم، إذا كان الإنسان منحه الله حظاً من حظوظ الدنيا وتعامل معه وفق منهج الله وشكر نعمة الله ولم يحجبه عن طاعة الله ؛ اتصلت نِعَمُ الدنيا بِنِعَم الآخرة، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يدعو ويقول:

((اللهم اجعل نِعَمَ الآخرة متصلة بنعم الدنيا))

أما إذا الإنسان شرد وانحرف، وأغوته الدنيا وانصرف إليها، وجاءه الموت تنعكس الآية، يعني أبسط مثل: إذا ركبت بسيارة عامة بمكان فيه شمس وبعد دقيقة انعكس اتجاه المركبة، الحالة انعكست، من كان في الظل أصبح في الشمس ومن كان في الشمس أصبح في الظل.

من خصائص يوم القيامة قلب الموازين:

أحياناً يرتفع الإنسان فجأة أو يسقط فجأة لكن يوم القيامة من خصائصه أنه يقلب الموازين، موازين الأرض: الغنى، فالغني محترم في الأرض، القوة، فالأقوياء يرهب جانبهم، والأغنياء يطمع في مالهم ومن أوتوا حظا من الوسامة يتألقون في المجتمع وكذلك من أوتوا حظاً من طلاقة اللسان، هذه كلها حظوظ الدنيا فإذا جاءت الواقعة، انقلبت الموازين، من هو المحسن ؟ من هو المستقيم ؟ النبي عليه الصلاة والسلام مرّ مع أصحابه على قبر فقال:

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

(ورد في الأثر)

الدنيا فيها أموال، معامل، فنادق، شركات، متنزهات، أماكن جميلة، نساء فيها كل شيء، قال ركعتين نافلتين مما تحقرون من عبادتكم خير له من كل دنياكم:

(خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

ما يحدث في الدنيا ما هو الا نماذج مصغرة عن يوم القيامة:

ماذا سيكون:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1))

قال:

(إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً (4))

الله عز وجل يعطينا نماذج مصغرة جداً في الدنيا، بعض الزلازل، صور الزلازل مخيفة، انهيار الأبنية، تصدع الجسور، التواء الطرق، انشقاق التربة، أن يدفن الناس تحت الأرض، هذا زلزال أرضي لمدة أربع ثواني مثلاً و ستة ريختر فعل ما فعل، فكيف:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً (4) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً (5))

معنى بست أي فتت، جبال هملايا ارتفاعها ما يقارب 9000 م تصبح هباء منثوراً، رمل:

(وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً (5))

أي تفتت.

تفتت الجبال يوم القيامة لتصبح هباء منثوراً:

(فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً (6))

الهباء: إذا دخل ضوء الشمس في الشتاء وكنست أرض الغرفة ترى ذرات عالقة في ضوء الشمس في جو الغرفة هذا هو الهباء. فهذه الجبال الشامخة، الجبال العملاقة، هذه الجبال تغدو هباءً منثوراً:

(إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً (4) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً (5) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً (6))

هباء منتشر في كل مكان، تصور من أربعين أو خمسين سنة يؤخذ من بعض الجبال رمل والجبل هُوَ هُوَ، في جبل بجنوب دمشق يؤخذ منه رمل أسود يعني من أربعين أو خمسين سنة يومياً تأخذ الشاحنات من هذا الجبل رمل أسود إذا نظرت إليه هُوَ هُوَ، لم يتغير شكله إطلاقاً، فكيف إذا أصبحت كل هذه الجبال هباء منبثاً ؟

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً (4) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً (5) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً (6))

ذرات عالقة في الجو، موزعة في كل مكان.

البشر على اختلاف أنواعهم ومللهم يوم القيامة ثلاثة أصناف :

(وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَة (7))

نحن في الدنيا مِلَلْ ونِحَلْ وأعراق وشعوب، وطوائف وانكلو ساكسوني والشعوب السامية، والشعوب الإفريقية وشعوب متفوقة وأخرى متخلفة، شعوب منتجة وشعوب مستهلكة، شعوب راقية متمدنة وشعوب جاهلة، على مستوى البلد وعلى مستوى القرية وعلى مستوى الأسرة: ملل ونحل وجهات وأعراف وأنساب، هؤلاء البشر وعلى اختلاف أنواعهم وانتماءاتهم ومللهم ونحلهم في يوم القيامة ثلاثة أصناف:

(وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَة (7) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (9) وَالسّابِقُونَ السّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرّبُونَ (11))

1 ـ أصحاب اليمين:

أصحاب اليمين: هم المقتصدون الذين أخذوا بالمُبَاحات وأطاعوا الله عز وجل.

2 ـ أصحاب الشمال:

أصحاب الشمال: خرجوا عن منهج الله وانهمكوا في الملذات المحرمة، أصحاب اليمين طبقوا منهج الله واستعملوا المُبَاح، أصحاب الشمال خرجوا عن منهج الله وانغمسوا في الملذات المحرمة.

3 ـ السابقون السابقون:

لكن السابقين السابقين صنف آخر، هؤلاء باعوا أنفسهم في سبيل الله، هؤلاء وقتهم ومالهم وأهلهم وخبراتهم وعلمهم وذهابهم وغدوهم ورواحهم سفرهم وإقامتهم كلها في سبيل الله، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، لا يطؤون موطئاً يُغيظ الكفار إلا كُتِبَ لهم به عمل صالح، لا ينالون من عدو نيلاً إلا كُتِبَ لهم به عمل صالح:

(وَالسّابِقُونَ السّابِقُونَ (10))

السابقون هم المقربون من الله عز وجل:

ربنا عز وجل بدأ بوصف حال السابقين السابقين، هؤلاء المتفوقون، هؤلاء قمم المجتمع، عند الله لا عند الناس، هنالك قمم عند الناس، وقمم عند الله، هؤلاء السابقون السابقون قمم المجتمع عند الله، أول نعيم وأعظم نعيم وأجدر نعيم سعوا إليه أنهم مقربون، كلمة مقرب مقرب ممن ؟ من خالق الكون.

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55))

(سورة القمر: الآية54 - 55)

الإنسان أحياناً يتقرب من شخص قوي يزهو بهذا القرب، يُظْهِرُ للناس قربه منه، يذكر تفاصيل لقاءاته، تفاصيل ندواته، تفاصيل زياراته، يزهو يقول أنا قريب من فلان وأنا صديق فلان و أنا صديق حميم لفلان، أنا أدخل عليه بلا استئذان، أسهر عنده أسافر معه، إذا كان شخصاً من أشخاص الدنيا الأقوياء أو الأغنياء لك معه صلة تزهو بها أمام الناس، هؤلاء السابقون السابقون من الله مقربون:

(أُولَئِكَ الْمُقَرّبُونَ (11))

ولا يخفى عليكم أن أصل الجمال هو الله عز وجل فإذا كنت مقرباً من الله فأنت أسعد الناس، ألسنا في صلاتنا على النبي نقول: اللهم صلِ على أسعدنا محمد، هو أسعد الخلق قاطبة فأكبر عطاء وأكبر فوز وأكبر نجاح أنهم مقربون من الله.

أعظم عقاب من الله هو حجب الإنسان عنه:

أكبر عقاب:

(كَلّا إِنّهُمْ عَنْ رَبّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15))

(سورة المطففين)

أعظم عطاء القرب وأعظم عقاب الحجب:

(وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً (7) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (9) وَالسّابِقُونَ السّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرّبُونَ)

إخوانا الكرام: في الدنيا أشخاص كثيرون، لا تستطيع أن تتقرب منهم، الطريق مغلق، طريق مسدود، لا سبيل إلى التقرب منهم.

التقرب من الله لا يكون إلا بطاعته:

رب العزة، خالق الكون من بيده ملكوت السماوات والأرض، هو الخالق العظيم، إذا كان مجرة تبعد عنا 300 ألف بليون سنة ضوئية، مع هذه العظمة هو قريب منك:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

(سورة البقرة: الآية 186)

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

(سورة الكهف: الآية 110)

(أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11))

مقربون ومعهم وسائل القرب من الله، مقربون وبإمكانهم أن يقتربوا، أنت تقترب من الله بطاعته:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: الآية 13)

((دخل على النبي الكريم رجل أشعث أغبر فقال: أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه قال: أوَمِثْلِي، قال: نعم يا أخي خامل في الأرض علم في السماء))

كلنا جميعاً طريق القرب من الله بأيدينا جميعاً، غني، فقير، خطير، مغمور، قوي، ضعيف، صحيح، مريض، ذكي، أقل ذكاء في أية حالة كنت باب القرب من الله بين يديك، أطعه يتجلى على قلبك، أطعه يقربك.

أسمى شعور على وجه الارض أن تشعر أن الله يحبك:

والله الذي لا إله إلا هو ما من مؤمن على وجه الأرض يعمل عملاً يبتغي به وجه الله إلا ويلقي الله في قلبه شعوراً أن الله يحبه، وما من شعور على وجه الأرض أسمى من أن تشعر أن الله يحبك:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: الآية 48)

وإذا كان الله معك فمن عليك وإذا كان الله عليك فمن معك، ليس معك أحد، لذلك غني، فقير، قوي، ضعيف، شاب، فاتني أن أذكر في الندوة وقد ذكرتها لكم سابقاً أن إنساناً من صعيد مصر، جاهل أمي، لا يقرأ ولا يكتب تاقت نفسه أن يكون عالماً عمره خمسة وخمسون عاماً وقد كان فقيراً فقراً مدقعاً، ركب دابته واتجه إلى القاهرة ليطلب العلم في الأزهر فلما وصل إلى أطراف المدينة، سأل أين الأزعر ؟. لا يعرف اسم هذا الجامع فدلوه عليه، (القصة كما رواها لي أحد علماء دمشق) وبدأ يتعلم القراءة والكتابة، ثم بدأ يقرأ القرآن وما زال يطلب العلم حتى صار شيخ الأزهر، مات في السادسة والتسعين

واسمه زكريا الأنصاري، في السادسة والتسعين لم ينته به المطاف إلا وهو شيخ الأزهر، باب القرب مفتوح ومبذول، افتح كتاب الله، اقرأ كتاب الله، تعلم أحكام الشرع، وغض بصرك عن محارم الله، أنفق من مالك، الله هو الغني.

من طلَبَ العلم وظفه الله عز وجل بالحق:

ذكرت في الخطبة حديثاً هو في الحقيقة حديثٌ خطيرٌ جداً:

((مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ فَأَدْرَكَهُ كَانَ لَهُ كِفْلانِ مِنَ الأَجْرِ فَإِنْ لَمْ يُدْرِكْهُ كَانَ لَهُ كِفْلٌ مِنَ الأَجْرِ))

(أخرجه الدارمي عن واثلة بن الأسقع)

ليس معنى هذا أن يدع العمل، لا، اعمل ولكن بين أن تعمل عملاً شاقاً طويلاً المدة قليل المردود وبين أن تعمل عملاً مريحاً قليل الدوام كثير المردود، إذا طلبت العلم، الله عز وجل يعطيك الوقت الكافي لطلب العلم، طلبت العلم يوظفك الله عز وجل، لا يوجد إنسان طلب العلم إلا وأنطقه الله عز وجل بالحق وسمح له أنْ يؤثر بالآخرين وجمع الناس حوله، العلم ثمين جداً.

أثمن عطاء للإنسان أن يكون مع الله:

أيها الأخوة: السابقون السابقون أولئك هم المقربون والقرب من الله بين يديك:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110))

(سورة الكهف)

(أولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11))

ومع هذا القرب من الله:

(فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12))

أحياناً يكون هناك وليمة، الطعام نفيس جداً ولكن هناك شيئاً أهم من الطعام الترحيب، التكريم، التوقير، يوجد تقريب ويوجد إطعام، فكيف إذا اجتمع القرب مع الطعام:

(أولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12))

يعني أثمن عطاء أن تكون مع الله، ومع هذه المعطيّة الطيبة أنت في جنات النعيم، أهذا القرب وذاك النعيم المقيم، يُزْهَدُ فيه من أجل الدنيا الفانية التي لا تسعد أحداً ؟

أصحاب النبي الكريم كانوا يُؤْثرون على أنفسهم كل شيء:

لكن هؤلاء السابقين السابقين وهؤلاء المقربون:

(ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14))

قال بعض المفسرين **" إن الأمم التي سبقت أمة محمد صلى الله عليه وسلم بمجموعها هذه هي الثلة وأما الذين آمنوا برسول الله عليه الصلاة والسلام واتبعوا منهجه هذه هي القلة "**، لكن جمهور العلماء يقول **" إن الثلة هم أصحاب النبي الذين آمنوا به، والقلة هم المؤمنون الذين أتوا في آخر الزمان وهذا أقرب "**، فالنبي عاش معه أصحاب كثيرون، كل واحد كجبل، كل واحد كألف، شيء يدعو للاستغراب ! عشرة آلاف صحابي يفتحون العالم كله ونحن مليار ومئتي مليون مقهورون، مغلوبون على أمرنا ليست كلمتنا هي العليا، فرق كبير جداً مع أصحاب رسول الله، كانوا أبطالاً، كانوا رهباناً في الليل فرساناً في النهار، يخشون الله ولا يخشون أحداً مع الله يؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة.

سيدنا عثمان جاءت قوافل تجارته ستمئة جمل محمل بأنفس أنواع البضاعة، الآن تقريبا ستمئة شاحنة بها أنفس أنواع البضاعة، جاء التجار ليشتروها منه دفعوا الضعف والضعفين، وكان يقول: **دُفِعَ لي أكثر، إن الله عز وجل وعدني بكل حسنة بعشر أمثالها**، هي للمسلمين، ستمئة شاحنة، بالمفهوم الحديث موسوقة بالبضاعة يقدمها هذا الصحابي الجليل للمسلمين.

(أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14))

أي في العصور المتأخرة الصادقون قلة.

جزاء المقربين من الله عز وجل:

1 ـ يجلسون في الجنة على سرر متقابلين:

هؤلاء المقربون:

(عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15))

هذه السرر فيها معادن ثمينة، تجد أحياناً قطعة أثاث فيها ذهب وفضة:

(عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16))

في راحة نفسية، لا يوجد هموم وكل من في الجنة بأعلى مستوى والإنسان يسعد بقرنائه، يسعد بأنداده فأهل الجنة طيبون طاهرون، كلهم قمم، يجلسون في الجنة على سرر متقابلين.

2 ـ في الجنة يطوف عليهم ولدان مخلدون:

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17))

والذي له أولاد يعرف هذه الحقيقة، الطفل الصغير كالمَلَكْ، وجه صبوح، ونفس بريئة، وعفوية وذاتية، وقرب منك، الطفل الصغير محبب كثيراً، ففي الجنة أطفال صغار ولدان مخلدون.

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (19))

3 ـ عدم إبعادهم عن الطعام:

صدعوا عنها: أي فرقوا عنها، لو فرضنا أن هناك طعاماً نفيساً وجاء أمر: تفرقوا، انتهى، انقطعت المتعة، أو الطعام انتهى، و أصحاب المائدة بنَفْسِهِمْ أن يأكلوا، انظر إلى هذا الوصف الدقيق:

(لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (19))

لا الطعام ينتهي ولا هم يبعدون عنه:

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17))

الولدان لا يكبرون، أحياناً يكون الطفل ليس أجمل منه كلما كبر يتغالظ، يخشن صوته، وتصبح أعماله حمقاء، يتجاوز حدوده أحياناً، يتطاول على أهله أحياناً أخرى، يقول الناس عنه ليته بقي صغيراً، هؤلاء الولدان المخلدون:

(بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (19) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ(20))

4 ـ لهم أجمل أنواع الفاكهة:

أجمل أنواع الفاكهة:

(وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23))

حبة اللؤلؤ وهي في الصدفة لم تجرحها عين ولم تثقبها إبرة:

(كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24))

الأعمال الصالحة جزاؤها الجنة:

المجيء للمساجد وإنفاق مال كسبته بكدك وعرق جبينك تنفقه للفقراء والمساكين، أن تمشي مع أخ في حاجته، أن تعين ضعيفاً، أن تطعم فقيراً، أن تربي يتيماً، أن ترعى مسكيناً، أن تنصح أميراً، أن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر، أن تقيم الحق أن تقرأ كتاب الله، أن تذكر الله، أن تعين إخوانك. هذه الأفعال جزاؤها:

(وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٌ عِينٌ (22))

5 - لهم حور عين كلون اللؤلؤ:

الحور العين أوصاف المرأة لا سبيل إلى التفاصيل ولكن الحور شدة بياض العين وشدة سوادها، عين واسعة، هناك مفارقة حادة في شدة بياض العين وسوادها، عِينٌ: أي عينها واسعة، حور: بياض عينها ناصع وسواد حدقتها داكنة. وهذا مقياس جمالي عند العرب، من أعلى أنواع الجمال:

(كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23))

لون اللؤلؤ ألماسي وهو أجمل لون:

(جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24))

المستوى في الجنة راق جداً للمؤمن بالله:

بالحياة أحياناً تسمع مشادة في الطريق تنزعج، أحدهم يسب الآخر بكلام مقذع أحيانا تستحي منه أمام أولادك، لكن بالجنة لا يوجد كلمة نابية:

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً (25))

حتى الكلام الفارغ غير موجود، لا يوجد كلام فارغ ولا كلام محرم، أحياناً الغيبة، النميمة، السخرية، التطاول، المزح المنحرف الجنسي يخدش الحياء، في الجنة مستوى راقٍ جداً:

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً (25) إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً (26))

6 - لا يسمعون إلا أجمل و ألطف الألفاظ:

أجمل الكلمات وأحلى العبارات، وأعف الألفاظ، وأدق التفاصيل، هذا كلام أهل الجنة هؤلاء السابقون السابقون هم في أعلى درجات القرب، ومع هذا القرب نعيم مقيم.

الدرجة الثانية في الجنة لأصحاب اليمين:

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (27))

هؤلاء في الدرجة الثانية، هؤلاء فعلوا المباحات، أطاعوا رب الأرض والسماوات، وفعلوا المباحات، أي أعطى جزءاً من وقته للدين، أما تجارته هي الأصل، أعماله، بيته، نعيمه، نزهاته هي الأصل، لكن يخاف الله ويرجو الدار الآخرة، صلى وصام وحج وزكى وانضبط لكن ما زاد على ذلك، يعني مقتصد وقوله المتكرر(ساعة لك وساعة لربك)، نحن قانعين وراء الباب بالجنة.

1 ـ في هذه الجنة سدر منزوع شوكه و موز مصفوف:

(فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (28))

الأوصاف الآن من البادية، شجر السدر اسمه النبق له أشواك، مخضوض منزوع شوكه.

(وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (29))

الطلح هو شجر الموز والمنضود مصفوف.

2 ـ ظل الجنة ممدود ومستمر غير مؤقت:

(وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (30))

أحياناً يكون الإنسان عنده ظل في مزرعة ولكن يقول لك لساعتين فقط، بعدها تأتي الشمس، أما ظل الجنة ممدود ومستمر غير مؤقت.

3 ـ فيها ماء يجري و فاكهة كثيرة:

(وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (31))

ماء يجري.

(وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (33))

أحياناً ينتهي الموسم لو كنت غنياً، الفاكهة غير موجودة، أحيانا الفاكهة موجودة ولكن لا تملك ثمنها، في الدنيا الفاكهة إما مقطوعة أو ممنوعة، تأتي فاكهة غالية جداً وثمنها غير متوفر، لا مقطوعة ولا ممنوعة، ممنوعة لارتفاع ثمنها ومقطوعة لانتهاء موسمها، في الجنة الفواكه لا مقطوعة ولا ممنوعة، مستمرة، مبذولة، ولهم ما يشاءون فيها

4 ـ فيها أماكن للجلوس عالية و مشرفة:

(وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (34))

أماكن الجلوس عالية ومشرفة، وارتفاع المكان شرف له.

(إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (35))

الحور العين في الجنة نوعين :

الحور العين في الجنة نوعين: نوع ينشأ إنشاء ابتداء ونوع من مؤمنات أهل الدنيا يعاد خلقهن على أكمل صورة.

يعني مثلاً: قد تقول المرأة غير الجميلة بنفسها: لماذا خلقني الله هكذا ؟ أنتِ لو عرفتِ الله وأطعته تكوني بالجنة بأعلى مستوى بالمقاييس المطلقة، المؤمنة التي عرفت ربها واستقامت على أمره تدرك أن الدنيا مؤقتة، وأما الآخرة أبدية، إلى أبد الآبدين، فأية امرأة مؤمنة يوجد قي قلبها تساؤل: لِمَ لَمْ أكن أنا كهؤلاء المتألقات ؟ أحياناً يكون لها وضع معين، أقل من أندادها، أية امرأة عرفت ربها في الدنيا يعاد خلقها يوم القيامة بأجمل ما تكون فالحور العين نوعان نوع يخلق في الجنة ابتداء ونوع يعاد خلقها حيث كانت في الدنيا امرأة مؤمنة.

مكرمة أصحاب اليمين زوجة من نفس سن الانسان تحبه وتعينه:

(إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (35) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً (36) عُرُباً أَتْرَاباً (37))

معنى عرباً متحببات لأزواجهن والحقيقة المرأة التي لا تُقبل على زوجها ولا تتحبب إليه، ولا تبذل له ما أراد إذا خلا بها، هذه امرأة لا يحبها رسول الله، من علامات المرأة المؤمنة أنها ستيرة، وإذا خلا بها زوجها بذلت له ما أراد منها، أتراباً أي من نفس السن، بوعي وعقل، أحياناً يتزوج أحدنا فتاة صغيرة تريد شوكولا لأن عقلها صغير وتريد لُعَباً، مشكلة فإذا كانت صغيرة يتعب من ضيق أفقها وعقلها الصغير، وأنا إن كانت كبيرة فيقول لك هي بسن أمي.

(عُرُباً أَتْرَاباً (37) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (38))

أتراب فيه تماثل وعُرُبٍ فيه تحبب، وشيء مسعد جداً أن تكون زوجتك بمستواك الثقافي والاجتماعي تعينك على أمر دينك، إن هذه المكرمة لأصحاب اليمين.

سعادة و إكرام أصحاب اليمين:

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (27))

أي ما أسعدهم، هذه ما التعجبية، ما أسعدهم، ما أكرمهم، ما أشرفهم عند الله:

(فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (28))

في شجر منزوع الشوك:

(وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (29))

الموز المصفوف:

(وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (30) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (31))

جاري:

(وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (33) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (34) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (35) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً (36) عُرُباً أَتْرَاباً (37) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (38))

أصحاب اليمين كثر ولكن السابقين قلائل :

لكن أصحاب اليمين:

(ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (39) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (40))

هم كثر ولكن السابقين قلائل، هذا ما يسمونه الخط العريض، الخط العريض **!** (الناس كلها خير وبركة) أما هؤلاء الذين باعوا أنفسهم لله هؤلاء سابقون سابقون و الإنسان عليه أن يكون طموحاً في الآخرة:

(وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41))

هؤلاء للدرس القادم ولنبقى في هذا الدرس مع أهل الجنة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الواقعة 056 - الدرس (2-5): تفسير الآيات41-59

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-02-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الثاني من سورة الواقعة ومع الآية الواحدة والأربعين وهي قوله تعالى:

(وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ)

فرز الناس يوم القيامة إلى ثلاث زمر:

تحدثنا في الدرس الماضي عن أن الناس جميعاً يوم القيامة يفرزون إلى زمر ثلاث: إلى سابقين، وإلى أصحاب اليمين، وإلى أصحاب الشمال:

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

هؤلاء الذين باعوا أنفسهم في سبيل الله، وقتهم، وعلمهم، ومالهم، وطاقاتهم وإمكاناتهم كلها موظفة في سبيل الخير.

وأما أصحاب الشمال فهم المكذبون الضالون، هؤلاء لهم مصير أسود يوم القيامة، إنما أصحاب اليمين هم المقتصدون الذين طبقوا منهج الله عز وجل واستحقوا الجنة ولكن بمرتبة أقل من السابقين السابقين.

صورة من صور عذاب أصحاب الشمال يوم القيامة:

(وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ)

أي رياح شديدة تصل إلى مسام جلودهم، وهذه الرياح حارة جداً تشوي جلودهم، قوة وحرارة:

(فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ)

طبعاً الهواء ساخن يلفح الوجوه والماء يغلي الأمعاء والظل هو دخان النار، لونه أسود، وهو ظل ولكنه:

(وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ)

حار يلفح الوجوه أيضاً، فصورة مرعبة، رياح سموم تصل إلى مسام الجلد لشدتها، ورياح حارة تلفح الوجوه لحرارتها، والماء يغلي، والظل دخان النار الكثيف الأسود.

الظل يوم القيامة بالنسبة للكافر هو دخان النار الكثيف:

(لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ)

وهذا الظل لا يضفي على من استغله برداً، ولا سلاماً، ولا سكينة، ولا يشعر بنشاط وهو تحت الظل، الإنسان إذا شعر بالحر الشديد ضاقت نفسه، فإذا جلس في ظل شجرة ارتاحت نفسه وتنشطت، فهذا الظل:

(لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ)

أي حتى الظل هو من دخان أسود.

(وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ)

العذاب الشديد لمن انغمس بالملذات وابتعد عن منهج الله:

أيها الإخوة: هذا كلام الله:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

(سورة النساء: الآية 87)

هذا كلام الله ووعوده محققة، وكل إنسان شرد عن الله شرود البعير وانحرف في منهجه، هذا مصيره.

(إِنَّهُمْ)

هؤلاء الذين في سموم وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم:

(كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ)

المترف هو الذي ينغمس في الملذات إلى قمة رأسه، ينفق المال بغير حساب، همه شهوته، همهمتعته، همه بطنه، همه فرجه، همه أن يستمتع بالدنيا إلى أقصى درجة:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ)

المترفون في القرآن الكريم قرنوا دائماً مع الكفار.

أشد أنواع الذنوب الشرك بالله:

(وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ)

الحنث هنا هو الذنب والذنب العظيم هو الشرك، الإنسان أحياناً يكون ضالاً فتلفت نظره يقول لك جزاك الله خيراً، أما الإنسان المعاند الذي يصر على ذنبه وعلى خطأه وعلى شكه، هذا له في الآخرة عذاب أليم:

(وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ)

الحنث العظيم هو الذنب العظيم وأشد أنواع الذنوب هي الشرك بالله:

(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

(سورة لقمان: الآية 13)

المؤمن يوظف حظوظه في طاعة الله:

إذا وصل الإنسان إلى الإصرار هلك، المؤمن لا يصر على شيء، يرضى بقضاء الله وقدره.

((عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر وكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له))

(أخرجه مسلم في مسنده عن صهيب)

لو أن الله سبحانه وتعالى منعه شيئاً أو حرمه شيئاً أو زوى عنه شيئاً يرضى، وفي الدعاء الشريف:

((اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ اللَّهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ))

(الترمذي عن عبد الله بن يزيد الخطمي)

أي أنك بين حالين: إما شيئاً تريده وصلت إليه وإما أن شيئاً زوي عنك، فإن كان الذي وصلت إليه فينبغي أن يوظف في الخير، وفي خدمة الخلق والخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، المؤمن أيها الإخوة (وأذكر هذا كثيراً) الحظوظ التي نالها من الله يوظفها في طاعته، يوظفها في الخير، يوظفها في الحق، وهذا مأخوذ من قوله تعالى:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

(سورة القصص: الآية 77)

الكافر يوظف حظوظه في مصالحة الشخصية:

المؤمن الصادق يوظف اختصاصه، أو علمه، أو خبرته، أو ماله، أو جاهه، في خدمة الناس، والخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، أما غير المؤمن هذه الحظوظ إما أن يوظفها لمصالحه الشخصية أو للعدوان على الآخرين.

(وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ)

والحنث العظيم هو الذنب العظيم الذي هو الشرك، وأذكر هذا كثيراً أن الله سبحانه وتعالى ما ألح في القرآن الكريم على أن الله هو الخالق، ألح على أن الله هو المسير، الأمر كله بيده، إليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه، إنك إن أيقنت أن الأمر كله بيده أخلصت الوجهة إليه، أخلصت العبادة إليه، أقبلت عليه، خدمت عباده تقرباً إليه، والمؤمن الموحد أمره عجيب: لا يرجو ثواباً ولا مديحاً ولا ثناء، لا قليلاً و لا كثيراً، لا قريباً ولا بعيداً، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً.

المؤمن الصادق من يرضى بقضاء الله و قدره:

النبي عودنا أننا إذا أردنا شيئاً علينا أن نستخير الله عز وجل، نصلي ركعتين وندعو الله في الركعتين: يا رب إن كنت تعلم أن في هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري فيسره لي، وإن كنت تعلم أن في هذا الأمر شر في ديني ودنياي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث شئت. فإذا الأمور تيسرت معنى ذلك أن الله يريد ذلك وإذا تعسرت فتعسير الأمور هو اختيار الله لك وتيسرها اختيار الله لك.

لذلك المؤمن لا يصر، يقول الحمد لله رب العالمين، ذكرت لكم من قبل أن إنساناً يطوف حول الكعبة قال يا رب هل أنت راضٍ عني ؟ كان وراءه الإمام الشافعي، قال يا هذا هل أنت راض عن الله حتى يرضى عنك ؟ قال من أنت يرحمك الله ؟ قال أنا محمد بن إدريس، قال كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه ؟ قال **إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله.**

رضا المؤمن بما قسمه الله له سبب كل خير يأتيه:

أي الإنسان لا يصر على شيء، اختار لك دخلاً محدود، هو عليم حكيم، توجد آية قرآنية إذا قرأها الإنسان بتمعن وعمق يقشعر لها جلده:

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة: الآية 216)

الله اختار لك شكلاً معيناً، قواماً معيناً، إمكانات معينة، جعلك من والدين فقيرين، هذا اختيار الله لك، اختار لك ذكوراً فقط، إناثاً فقط، إناثاً وذكوراً، جعلك عقيماً، اختار لك دخلاً غير محدود أو دخلاً محدوداً، اختار لك مهنة يدوية أو فكرية، لأن الإنسان لا يعلم ولكن الله يعلم، أنت مكلف فيما أنت مخير

به، فأما الذي فرض عليك وسيرت فيه أنت لست فيه مخيراً ولا مكلفاً، لكنه محض خير لك متعلق بالحكمة المطلقة، هذه فكرة أساسية، لذلك المؤمن دوماً راضٍ عن الله من أعماق أعماقه وهذا الرضا سبب لكل خير يأتيه.

الدنيا مزرعة الأخرة:

(إنّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ)

الترف إخوانا الكرام: الإنسان يسرف أو يبذر، قال العلماء: التبذير في المعاصي و الإسراف في المباحات، فمن أكل فوق ما ينبغي فقد أسرف، من لبس فوق ما ينبغي فقد أسرف، من استمتع بالحياة فوق ما ينبغي فقد أسرف، أما من ارتكب المعاصي وأسرف فيها فقد بذر، قال تعالى:

(إنّ الْمُبَذّرِينَ كَانُوا إخْوَانَ الشّيَاطِينِ وَكَانَ الشّيْطَانُ لِرَبّهِ كَفُوراً)

(سورة الإسراء: الآية 27)

(وَكَانُوا يَقُولُونَ أئِذَا مِتْنَا وَكُنّا تُرَاباً وَعِظَاماً أئِنّا لَمَبْعُوثُونَ)

أي أن هؤلاء أسقطوا من حساباتهم اليوم الآخر، رأوا أن الدنيا هي كل شيء، في الحقيقة أن الدنيا هي سبب للآخرة، مزرعة الآخرة، أما إذا جعلتها كل شيء تقع بإشكال كبير، إذا جعلتها كل شيء يقفز أمامك ألف سؤال وسؤال، في الدنيا قوي وضعيف، فقير وغني، وسيم ودميم، ذكي وغبي، يتيم وغير يتيم، إنسان يولد من أبوين فقيرين يذوق ألوان الفقر، إنسان يولد من أبوين غنيين ينغمس في ألوان النعيم.

عدل الله يتحقق كلياً يوم القيامة:

إذا كانت الدنيا كل شيء والموت نهاية كل شيء هناك ألف سؤال وسؤال يقفز إلى الذاكرة: يا رب لماذا متعت هذا متعة لا حدود لها وهذا حرمته كل شيء ؟ إن لم يكن هناك يوم آخر تسوى فيه الحسابات ويعوض فيه على المقصر ما فاته، الله عز وجل أسماؤه الحسنى كلها محققة في الدنيا إلا أن اسم العدل، هذا الاسم يتحقق كلياً في الآخرة، هناك مواقف كثيرة جداً تبدو فيها عدالة الله عز وجل، لكن الحساب الدقيق والحساب الرصيد:

(وَإنّمَا تُوَفّوْنَ أجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران: الآية 185)

(وَكَانُوا يَقُولُونَ أئِذَا مِتْنَا وَكُنّا تُرَاباً وَعِظَاماً أئِنّا لَمَبْعُوثُونَ)

الإنسان خلق من لا شيء، خلق من حوين صغير، هذا الحوين صار إنساناً سوياً، أليس الذي خلق هذا الحوين إنساناً سوياً بقادر على أن يعيد خلقه مرة ثانية:

أي كل بني آدم، من آدم إلى يوم القيامة سوف يجمعون إلى حساب دقيق.

على الإنسان أن يغتنم أبواب الخير قبل أنقطاع العمل:

أنت الآن في يوم مشهود وقد مضى اليوم المفقود، وسوف تواجه اليوم الموعود، وهناك يوم مورود وهناك يوم ممدود. بين يوم مفقود (الماضي)، ويوم مشهود ويوم موعود ويوم مورود ويوم ممدود، أخطر هذه الأيام هو اليوم المشهود، اليوم المشهود الذي تشهده، لأن اليوم المفقود لا جدوى من الحديث عنه، وأن اليوم الموعود والمورود والممدود متعلق باليوم المشهود.

لذلك الإنسان حينما يسمح له أن يعيش يوماً جديداً ما دام قلبه ينبض، مادام في الروح بقية فأبواب الخير كلها مفتحة أمامه، أبواب العمل الصالح، أبواب الصدقات، أبواب العبادات، أبواب الخير، أبواب معاونة الأيتام، وتفقد الأرامل، خدمة الخلق، إتقان العمل، النصح للناس، هذا كله مفتحة أبوابه في الدنيا، أما إذا جاء الأجل، انقطع العمل. عليه الصلاة والسلام (فيما أذكر) مرّ على قبر فقال إن صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من دنياكم كلها.

الدين أتصال بالخالق وإحسان للخلق:

في الدنيا أموال وشركات، دخول كبيرة، بيوت فخمة، مركبات فخمة. دنياكم كلها عند هذا الميت لا قيمة لها ولكن ركعتين نافلتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم، فالإنسان بعد أن يموت تختلف المقاييس والموازين.

الآن المال له قيمة وأما عند الموت لا المال ولا البيوت ولا يوجد لشيء قيمة، القيمة مقدار ما نفعت الناس بالدنيا، طبعاً كما قلت في الدرس السابق هنالك مقاييس كثيرة يقيس الناس بعضهم بعضاً، يقاس الإنسان بحجمه المالي أحياناً، يقاس بمدى ما يتمتع به من قوة، وقد تكون عضلية، يقاس أحيانا بمدى نَسَبِه، يقاس بوسامته، بذكائه، بمن حوله، هذه المقاييس مقاييس البشر، لكن مقياس خالق البشر معرفة الله ومقدار ما نفعت الخلق.

لذلك السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حينما قال الله على لسانه:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

(سورة مريم: الآية 31)

هذا الدين كله: اتصال بالخالق وإحسان للخلق، هذا هو الدين.

العبرة من سماع الحق تطبيقه:

(قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآَخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ)

هو ضال فإذا جاءه الهدى كذبه، قلت لكم قبل قليل أن الإنسان قد يضل ولكن يلقي الأذن صاغية إلى الحق، وبالمناسبة تقول الآية الكريمة:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم: الآية 4)

وكذلك السماع إن لم ينتج عنه تطبيق سماع غير مقبول، الله عز وجل ذكر في بعض السور أنهم يستمعون إليك وأنهم لا يسمعون، يسمع ولا يسمع، فكأن الله أراد من السماع التطبيق، فمثلا إنسان يعاني من مرض عضال وقلت له بوضوح ما بعده وضوح: هذا الدواء يشفيك من مرضك وهو دواء ناجح والقائل طبيب فحينما لا يستخدم هذا الدواء معنى ذلك أنه لم يستمع إلى هذا الطبيب، العبرة من السماع التطبيق فإن لم يأخذ هذا الدواء معنى ذلك أنه ما استمع من الطبيب.

الضال والمكذب لا يرتاح لقبول الحق بل لرفضه:

(ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ)

ضال وإذا جاءه الحق كذبه، الآية الدقيقة:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: الآية 50)

لا يوجد تكذيب حقيقي، ولكن يوجد تكذيب تبريري، الإنسان حينما يصر أن يكون مع شهوته والحق دائماً يتناقض مع الشهوات، الحق فيه انضباط، الحق كله ضبط للأمور، النزوات والغرائز هذه كلها يضبطها الحق، إذا الإنسان التزم الحق يحاسب عن كل شيء يفعله، على نطقه، على سمعه، على بصره، على كسب ماله، على إنفاق ماله، فلذلك الذي يصر على شهوته لا يرتاح لقبول الحق، يرتاح لرفض الحق. هؤلاء كانوا ضالين والأشد من ذلك أنهم كانوا مكذبين، ضالون ومكذبون.

جوع الكافر الشديد يوم القيامة يحمله على أكل شجر الزقوم:

هؤلاء يوم القيامة من شدة الجوع الذي يعتريهم:

(لَآَكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ)

هذه غيبيات ذكرها الله لنا، ولا نستطيع أن نضيف عليها شيئاً، يوجد بجهنم شجرة هي شجرة الزقوم، ونحن قد مر معنا من قبل أنه هناك طلح منضود وهناك سدر مخضود نزع شوكه، وطلح هو الموز منضود أي مصفف، هذه الشجرة ينبغي أن تكون على عكس هذا الطعام شائكة، تزعج من يمسكها، فكيف من يبتلعها ؟ الحقيقة البلعوم حساس جدا، أحياناً شوكة صبارة قد لا ترى بالعين تحتاج إلى مجهر لو ثبتت في اللسان، يعاني الإنسان منها الشيء الكثير، فالشوك في الحلق لا يحتمل، لذلك هذه الشجرة شائكة، ومرة المذاق، وكثيرة الشوك، وهي تؤذي من يمسكها فكيف بمن يأكلها لكن الجوع الشديد الذي أكل أمعاءهم يحملهم على أن يأكلوا منها:

(فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)

كلام الله حق و على الإنسان أن ينخلع قلبه خوفاً منه:

إخوانا الكرام هذا كلام خالق الكون، كلام الله، كلام خالق السماوات والأرض، فإذا لم يخف الإنسان حينها يكون بحاجة لطبيب نفسي، إدراكه سيء جداً، من لوازم هذه الآيات أن ينخلع القلب خوفاً، فالإنسان قبل أن يكذب، قبل أن يؤذي الناس، قبل أن يعتدي عليهم، قبل أن يأخذ ما ليس له، قبل أن يعتدي على أعراضهم، قبل أن يغشهم في البيع والشراء، قبل أن يحتال عليهم، قبل أن يعصي ربه، قبل أن يدع الصلاة، عليه أن يعد للملايين قبل أن يعصي، لأن هذا مصير العصاة.

(ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآَكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)

شدة عطش الكافر يوم القيامة تدعوه إلى شرب الماء المغلي:

أما إذا عطشوا وما أشد عطشهم في هذا الحر الشديد، ليس إلا ماء يغلي يسلق البطون:

(فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ)

أحياناً تكون كأس الشاي أحر مما ينبغي، تلدع اللسان، الإنسان يتألم أشد الألم، أحياناً الطعام يكون حار جداً، من القدر إلى الطبق مباشرة، فإذا أكل ملعقة واحدة لأنه غير منتبه على أن الطعام حار جداً،

يحترق اللسان، يبقى يومين أو أكثر متألماً، فكيف إذا كان ينبغي أن يأكل من شجر الزقوم وأن يشرب ماء حاراً يغلي.

مرض الاستسقاء من أخطر الأمراض التي تصيب الإنسان و الحيوان:

(فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ)

الهيم هي الإبل التي أصابها مرض الاستسقاء هذا مرض خطير، في الإنسان مركز يسمى مركز توازن السوائل، هذا المركز ينظم أخذ السوائل وطرحها، فالإنسان يأخذ 5 لتر شتاء مثلاً وبالصيف 10 لتر على سبيل المثال، أما كلما شرب ماء أكثر كان هذا الشرب صوناً لكليتيه فالكليتان صونهما بكثرة شرب الماء، وكل كلية فيها عشرة أمثال حاجة الإنسان من التصفية، فالكليتين فيهما عشرين ضعفاً، أي يكتفي الإنسان بعشر كلية واحدة للحياة، وهاتان الكليتان صونهما بشرب الماء الكثيف.

لذلك تشكل البحص في الكلية أحد أسبابها قلة شرب الماء، وفي رمضان ولاسيما المتقدمين في السن ينبغي أن يشربوا ماء كثيراً في السحور، فوق حاجتهم، الإنسان عادة يشرب حاجته أما في رمضان ينبغي عليه أن يشرب فوق حاجته ليكون زادا له طوال النهار، ومع أن الماء يغلي فشاربون عليه شرب الهيم، والهيم هي الإبل التي أصابها مرض الاستسقاء، ومرض الاستسقاء هو مرض يصيب جهاز توازن السوائل. الغدة النخامية وزنها نصف غرام تفرز عشرة هرمونات، أحد هذه الهرمونات ينظم السوائل فلو اختلت هذه الغدة وقد لا تصدقون ينبغي على الإنسان أن يجلس بين الصنبور والمرحاض لأنه سيشرب مئات الأمتار من الماء وسيطرحها ثانية، فالإبل التي أصيبت بمرض الاستسقاء تشرب ماء غير معقول.

الجنة ثمن من أطاع الله واتبع أمره:

(هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ)

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

وجنتهم من طراز رفيع، وأصحاب اليمين دخلوا الجنة ولهم جنة تساوي مقامهم عند الله عز وجل، لكن جنتهم أقل درجة من جنة السابقون السابقون.

مشهد الإنسان العاصي يوم القيامة:

وأما الضالون المكذبون، العصاة، الشاردون، المنحرفون، الذين يعتدون على الناس، هؤلاء هم أصحاب الشمال وهذا نصيبهم يوم القيامة:

(فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (44) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (45) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (46) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (48) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ(52)فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (55) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ)

مشهد من مشاهد يوم القيامة، مشهد ينخلع القلب له، من الذي يرويه ؟ خالق السماوات والأرض.

العاقل من يعيش لمستقبله و يتكيف معه:

الإنسان قبل أن يعصي، قبل أن يؤذي أخاه الإنسان، قبل أن يعتدي عليه، عليه أن يحسب لهذا اليوم حساباً، الحقيقة العاقل هو الذي لا يندم لأنه عاش المستقبل فتكيف معه منذ الآن، والإنسان إذا نسي المستقبل وغفل عنه وعاش لحظته واستمتع بالدنيا من دون استقامة على أمر الله سيأتيه يوم يندم أشد الندم، لذلك ورد أن الإنسان العاصي إذا جاءه الأجل يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا، يقول لم أر خيراً قط، وأن المؤمن إذا رأى مقامه في الجنة من شدة الفرح يقول: لم أر شراً قط مع كل المصائب التي ساقها الله له في الدنيا.

السلامة والسعادة لا تكون إلا بعد معرفة الله:

الآن دعوة إلى الإيمان، الآن في مقدمة مهمة جداً ذكرتها قبل يومين في درس الفجر هي أن كل إنسان على وجه الأرض كائناً من كان، خمسة آلاف مليون إنسان في الأرض، أنا أصر على أنهم جميعاً من دون استثناء لهم مطلبان ثابتان: السلامة والسعادة، مَنْ مِنَ البشر يتمنى مرضاً عضالاً ؟ مَنْ مِنَ البشر يتمنى ألماً لا يحتمل ؟ مَنْ مِنَ البشر يتمنى فقراً مدقعاً ؟ أو مرضاً مفسداً ؟ هذا الشيء مرفوض عند كل الناس، مَنْ مِنَا لا يتمنى أن يكون في بحبوحة وأن يكون صحيح الجسم، بهي الطلعة، وسيم القامة، له أولاد وأهل في أعلى مستوى، هذا شيء طبيعي وهذا شيء فطري، ما من إنسان على وجه الأرض إلا ويتمنى السلامة والسعادة. ولكن السلامة والسعادة لا تكون إلا بعد معرفة الله، ومعرفة منهجه، لأنه

الصانع والخالق، آلة صغيرة لا تعبأ بها لا يمكن أن تعمل بانتظام وأن تعطي أعلى مردود إلا إذا طبقت تعليمات الصانع، فأنت أعقد آلة في الكون ولك خالق، وهذا القرآن تعليماته.

معرفة الأمر قبل الأمر تؤدي إلى طاعته:

فلكي تطيعه لابد من أن تعرفه، السبب: لو أن الإنسان عرف الأمر ولم يعرف الآمر تفنن في التفلت من هذا الأمر.

الناس في العالم الإسلامي و بكل الأديان الأخرى الزنا معصية، السرقة معصية، إذاً لماذا يسرقون ؟ ويزنون ؟ الأمر معروف على مستوى العالم الإسلامي، هل هناك مسلم على وجه الأرض يجهل بأن الزنا معصية ؟ وأن الخمر معصية ؟ وأن السرقة معصية ؟ ومعصية كبيرة، إذاً لماذا يسرقون ؟ ولماذا يزنون ؟ ولماذا يشربون الخمر ؟ الإنسان إذا عرف الأمر ولم يعرف الآمر يتفنن من التفلت من الأمر، لأن قيمة الأمر من قيمة الآمر، كلما ارتفع مستوى الآمر بادر المأمور إلى طاعته، أما إذا عرفت الآمر قبل الأمر تفانيت في طاعته، لذلك السلامة والسعادة لابد لها من طاعة الله عز وجل، وطاعة الله لا تكون إلا بمعرفته، والله سبحانه وتعالى يستحيل عليك أن تدركه بحواسك، لا تدركه الأبصار، يستحيل أن تعرف الله بحواسك الخمس، لا تعرفه إلا بعقلك ومن خلال خلقه.

السلامة والسعادة مطلب ثابت لكل مخلوق:

لذلك الآيات الكونية التي بثها الله في الكون جعلها وسائل لمعرفته، وسائل إيضاح، سماها آيات أي علامات تدل عليه، تدل على وجوده، وعلى كماله، وعلى وحدانيته الآن دققوا أول آية في كتاب الله تتحدث عن خلق السماوات والأرض، عن خلق الإنسان، عن خلق الحيوان، عن خلق النبات، عن الماء والهواء،عن الجبال، عن الصحارى، عن البحار، عن الأسماك، عن الأطيار، هذه الآيات من أجل أن نفكر فيها ومن أجل أن نعرف الله من خلالها، عن طريق عقولنا، فإذا عرفنا الله بحثنا عن منهجه، فإذا عرفنا منهجه أطعناه، فإذا أطعناه ضمنا السلامة والسعادة والتي هي مطلب ثابت لكل مخلوق، لذلك يقول الله عز وجل:

(نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ)

الله هو الخالق.

معجزة خلق الإنسان:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ)

هذا المني الذي أودعه الله في الإنسان، إذا خرج يخرج منه خمسمئة مليون حوين في كل مرة يخرج تقريباً من ثلاثمئة مليون إلى خمسمئة مليون حوين، والحوين وحده لا يرى إلا بالمجهر، هذا الحوين هو خلية لكن هذه الخلية فيها نوية وفيها هيولا وفيها غشاء وفيها رأس مدبب وفيها عنق وفيها ذيل وتمشي، على النوية مورثات مجموع هذه المورثات خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة موضعة على نواة هذا الحوين، الآن أكبر علم هو علم الوراثة أي الهندسة الوراثية، هذا الحوين من مثله خمسمئة مليون حوين في اللقاء الزوجي الواحد، إذا خرج هذا الماء من الإنسان يخرج منه خمسمئة مليون حوين، الحوين له رأس مدبب وعلى هذا الرأس غشاء سريع التمزق تحت هذا الغشاء مادة نبيلة تذيب جدار البويضة، بعد هذا الرأس المدبب عنق، وبعد العنق ذيل، والذيل مهمته يتحرك ليمشي هذا الحوين، ليمشي بسرعة عشرة سم بالساعة، لأنه سينتقل إلى الرحم بداخل جسم المرأة، من يدفعه إلى هذا المكان ؟ حركته الذاتية.

وهناك صور ميكروسكوبية تنظيرية، شيء لا يصدق جيش يزحف ويتسابق والبويضة تحتاج إلى حوين واحد، تنتقي أقوى هذه الحوينات، أيها الأقوى ؟ هو الذي يصل مبكراً، فإذا وقف على جدار البويضة، تمزق غشاؤه الخارجي فظهرت المادة وأذابت جدار البويضة، يدخل هذا الحوين ويغلق الباب، وانتهى ! والبقية لم يبق لها محلات.

فإذا دخل هذا الحوين إلى تلك البويضة تسمى البويضة الملقحة، والبويضة الملقحة سوف تتجه عبر القناة التي بين المبيض والرحم، سوف تتجه وتمشي، في أثناء سيرها تنقسم البويضة إلى عشرة آلاف قسم ولكن هذا الانقسام المعجز لا يزيد من حجمها، لو زاد من حجمها وقفت في الطريق فالأنبوب ضيق جداً، لو أنها انقسمت وزاد حجمها وقفت، الانقسام من دون أن يزيد في حجمها، تصل إلى الرحم، تأكل بعض جداره، هذه الخلية إذا أكلته ظهر الدم غزيرا هي بحاجة إلى دم.

عمل البويضة الملقحة:

الآن هذه البويضة الملقحة يبدأ تشكل المخ، الأعضاء، صار الآن في نسيج يشكل الأعصاب، نسيج يشكل العضلات، نسيج للجلد، نسيج للعظم.. كالإنسان فالإنسان مجموعة أنسجة، الجلد نسيج والعضلات نسيج، الشحم نسيج، الأعصاب نسيج، الأوعية نسيج، الدماغ نسيج، الحواس نسيج، كل عضو أو حاسة أو منطقة في الجسم نسيج وحده، له صفات وخصائص فلو كانت القضية نمواً عشوائياً،

هذه البويضة الملقحة إن لم يكن لها خالق لِتنمو نمواً متجانساً، كانت خلية ملقحة فأصبحت قطعة لحم، أو عظم أو جلد، أما هذا التنوع: 140 مليار خلية في الدماغ و14 مليار خلية قشرية في الدماغ والعصب البصري 900 ألف عصب، وفي العين 130 مليون عصية ومخروط، وفي الرأس 300 ألف شعرة لكل شعرة وريد وشريان وعصب وعضلة وغدة دهنية وغدة صبغية، المعدة 35 مليون عصارة هاضمة والغدة النخامية 5ر0 غ تفرز 10 هرمونات، الغدة الدرقية، الكظر، الكليتان في كل كلية طريق طوله 100 كم يقطعه الدم في اليوم خمس مرات، في كل كلية مليون ميكرون مجموع هذه الميكرونات تساوي 100 كم، الدم يدور في الكليتين في اليوم 5 مرات، أي أن دمك يقطع مسافة 500 كم في اليوم وأنت لا تدري، كلية بلا صوت وبلا ضجيج، بلا حجم، لا يعرف الإنسان قيمة الكلية إلا إذا اضطر الإنسان لا سمح الله أن ينقي دمه في كلية صناعية، حجم، وزن طول وعرض وصوت، وأجهزة وتقطيع شرايين ووصل شرايين من أجل أن يصفى الدم في الأسبوع مرتين وإلا يموت الإنسان.

أيات الله الدالة على عظمته:

كليتين ورئتين ومعدة وأمعاء دقيقة وأمعاء غليظة، من الذي يصدق أن الأمعاء الدقيقة تتجدد تلقائيا كل 48 ساعة، إن أسرع خلية على الإطلاق في بناء ذاتها هي خلية الأمعاء الدقيقة، تموت في 48 ساعة أي أقصر عمر خلية في الجسم 48 ساعة وأطول عمر خمس سنوات، أنت كل خمس سنوات إنسان آخر، جلدك، عظامك، عضلاتك، عينك، شعرك، سمعك، بصرك، عدا القلب والدماغ، لو كان الدماغ كل خمس سنوات فالإنسان تنمحي كل معلوماته، أما كل شيء في الجسم يتبدل خلال خمس سنوات، شيء مبرمج، انظر إلى الطفل الصغير، فيه معلومة خشونة الصوت ما إن يصل لسن 14 سنة حتى يخشن صوته، كان صوته كالبنات فلما كبر خشن صوته، هذه معلومة مبرمجة، أي 5000 معلومة مبرمجة مودعة على نوية الحوين المنوي الذي لا يرى بالعين، هذا شيء معجز:

(نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ)

(سورة الواقعة: الآية 57)

صنع الله الذي أتقن كل شيء صنعه:

ماذا فعل الأب ؟ الأب وضع هذا الماء وانتهى الأمر، والأم ماذا فعلت ؟ لم تفعل شيئاً، من طور هذا الحوين وتلك البويضة ؟ وهذا الانقسام ؟ وهذا التشكل ؟ أيوجد أحد ليس عنده أولاد ؟ ابنك أمامك، كان

نقطة ماء، رأس ودماغ وتلافيف وبصلة سيسائية وعمود فقري، فقرات، غضاريف، أوعية، الشريان لوحده قلب، الشريان مرن فعندما يضغط القلب فيتوسع الشريان لمرونته وعندما يتوسع يعود لما كان عليه فإذا عاد إلى حجمه الطبيعي دفع الدم نحو الأمام فالشريان قلب آخر، القلب ينبض والشرايين تنبض وتضخ الدم بدورها إلى أطراف الجسم، ولحكمة أرادها الله عز وجل جعل الشرايين عميقة، والأوردة سطحية، لو الآية معكوسة وأصاب الإنسان سكيناً جرحت يده ينزف دمه كله في دقائق ويموت، أما الشرايين عميقة وكل شيء تحت الجلد أوردة، دم راجع بطيء.

ذكر لي طبيب قبل يومين قال: هناك في الأنف طبقة شرايين كثيفة جداً، إلا أن الذي يلفت النظر أن أغشيتها بالغة الرقة، وضعيفة جداً، فبمجرد أن يرتفع ضغط الدم هذه الجدر الرقيقة الهشة تتمزق فوراً فيكون الرعاف، ما هو الرعاف ؟ الرعاف إشارة إلى أن الضغط قد ارتفع، إشارة وعلاج ذاتي، فإذا عرف الإنسان وتخلى عن بعض دمه عاد الضغط طبيعياً.

إذا آلة غالية كثيراً يوضع لها فيوز حماية (وصلة سلك ضعيف جداً) فإذا ارتفع التيار عن حده يذوب السلك فوراً، ثمنه بسيط ولكن الآلة قيمتها كبيرة جداً، فإذا الإنسان ارتفع ضغطه هيأ الله منطقة في الأنف شرايين ذات جدر رقيقة جدا هشة تكاد تكون شفافة على أدنى زيادة في الضغط ينزل الدم، معناه يجب فحص الضغط، نزول الدم بالأنف بعض الأحيان دليل ارتفاع في الضغط.

الفرق الكبير بين من يصنع شيئاً و بين من يستخدمه:

(نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (57) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ)

هذه الحوينات المنوية تقريبا بدرجة 38 تموت لذلك مكانها في الخصية والخصية خارج الجسم، هناك درجتان بين الجسم والخصية، فلو أن الحوينات مكانها داخل الجسم تموت كلها، وهذه الخصية لها وظيفة كبيرة، الحوين الذي يخرج لتوه مضى على تصنيعه 18 يوم، معمل الحوينات المنوية يمضي عليها 18 يوماً، لذلك قال تعالى:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ)

أحيانا الإنسان (بلا تشبيه) يستطيع تشغيل جهاز معقد جداً وقيمته بالملايين وذلك بكبسة زر فالذي شغله غير الذي صنعه، التشغيل سهل، ممكن تركب أحدث مركبة وأنت تجهل كل ما فيها إلا القيادة، ممكن تستخدم حاسوب من أعلى مستوى وتجهل ما فيه، ممكن تستخدم مكيف معقد جداً وبكبسة زر فقط، فشتان بين من يستخدمه وبين من صنعه.

الموت مصير كل حي:

(أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)

طبعاً الموت مصير كل حي.

أيها الإخوة: نحن دخلنا في آيات كونية وكما قدمت لكم قبل قليل لن تطيعه إلا إذا عرفته، ولن تعرفه إلا بعقلك ومن خلال الكون، فالآيات الكونية هي طريق وحيد إلى معرفة الله عز وجل:

(نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الواقعة 056 - الدرس (3-5): تفسير الآيات 63-67
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-02-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس الثالث من سورة الواقعة ومع الآية الثالثة والستين:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ)

(سورة الواقعة)

كل شيء ينعم به الإنسان في الدنيا هو من خلق الله تعالى:

أيها الأخوة، قبل المضي في متابعة هذا الموضوع أريد أن أقف قليلاً عند حقيقة قد تغيب عن بعض الناس، الإنسان في هذا العصر والمتميز بالتقدم الحضاري والتقدم العلمي مأخوذ بالإنجازات العلمية الحديثة، لكن الحقيقة أن الإنسان لم يُضِفْ شيئاً جوهرياً بل أضاف شكليات، معنى هذا الكلام دقيق، فمثلاً الله عز وجل خلق الماء، فالإنسان بعلمه وتطور حياته وضعه في مستودعات في البيوت، أساله في أنابيب، وضعه في قوارير، فهل يكون الإنسان قد خلق الماء ؟ كل شيء ننعم به هو من خلق الله في الأصل، الإنسان أضاف شكليات وأضاف أساليب ووسائل ولكنه لم يُحْدِثُ شيئاً جديداً، فالطعام قد يوضع في مغلفات وقد يوضع في عبوات راقية، قد يطبع على المغلف أو على العبوة كلمات لطيفة، صور، أما لو أن الله عز وجل لم ينبت الثمر، ماذا نفعل ؟ لو أن الماء كان أجاجاً، ماذا نفعل ؟ فتصور أن كل إنجاز حضاري هو في الحقيقة إضافة بسيطة على الشكل لا على الجوهر، الماء ماء، الماء الذي شربه آدم عليه السلام هو الماء الذي نشربه. من خلق الأنعام لنأكل من لحمها ؟ من الممكن أن يكون اللحم في عبوات ومقطّع تقطيعاً معيناً، لكن اللحم لحم، تذوق الأجداد اللحم كما نتذوقه تماماً.

المؤمن يلفت نظره خلق الله و غير المؤمن يلفت نظره الشكليات:

فالإنسان المؤمن خَلْقُ اللهِ عز وجل هو الذي يَلْفِتُ نَظَرَهُ، لكن غير المؤمن الأشكال والأساليب وهذه الصرعات التي يراها الإنسان أحياناً قد تلفت نظره. هي إضافات لم تصب المضمون ولم تصب الجوهر، بقيت في الشكل، فالماء ماء، لو لم ينبت الله النبات ماذا نفعل ؟ هل عندك في خيالك طريقة لإطعام البشر غير النبات، لو أن الله تعالى خلق حاجات مليون إنسان، مليار، ثم تنقضي هذه الحاجات، كيف نحفظها ؟ لو خلق القمح لمرة واحدة، والقمح إما أن يَفْسُدَ وإما أنْ يُسْتَهْلَكَ ماذا نفعل بعد فساده أو

بعد استهلاكه، كيف نأكل ؟ من أبدع موضوع البذور ؟ أن كل ثمرة فيها بذرة، وهذه البذرة فيها قوةُ إنباتِ ثمرة مشابهة.

مبدأ التكاثر عن طريق البذور أبدعه الخالق سبحانه:

أحياناً (هذا الشيء من اختصاص بعض المهندسين الزراعيين) بذرة صغيرة يقول لك هذه البذرة ذات إنتاج مديد، ذات إنتاج مبكر، تقاوم البرد، مدة إنتاجها أربعة أشهر، إنتاجها يقاوم المرض الفلاني، تكلم الإنسان أكثر من مئة معلومة كلها في هذه البذرة فالبذرة فيها قوة الإنبات، فالبذرة فيها شجرة بالقوة وبالفعل هي بذرة، أما في مستقبلها هي شجرة، فنظام النبات لو أن الله سبحانه وتعالى خلق حاجات الإنسان لمرة واحدة، كيف تُحْفَظُ من الفساد ؟ وكيف تعوض بعد التلف ؟ لا يوجد طريقة ثانية. أمّا كل شيء تأكله فيه بذرة، تعوض عليك أضعافاً مضاعفة.

يعني بذرة البندورة تعطي مليون ضعف، نصف دونم يستهلك خمسة غرامات من البذور يعطي عشرة طن، يعطي مليوني ضعف، مبدأ النبات، مبدأ التكاثر عن طريق البذور، من صمم هذا المبدأ ؟ فأنت تزرع، تقطف الثمار، تأخذ البذور تزرعها مرة ثانية تنتج إلى أبد الآبدين.

الرشيم عنصر الإنبات في البذرة:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ)

هذه البذرة من وضع فيها الرشيم ؟ الرشيم كائن حي، بعض القمح الذي وجد في الأهرامات زُرِعَ فَنَبَتَ، يعني الرشيم مدة عمره أكثر من ستة آلاف عام، زُرِعَ فَنَبَتَ، النملة أحياناً إذا أرادت أن تخزن القمح في وكرها تأكل رشيم القمح لئلا تنبت، لو أنها خزنت هذا القمح في جحرها وجاءت رطوبة نَبَتَ القمحُ، لم تستفد منه، فلابد من أن تأكل الرشيم عنصر الإنبات في البذرة، فهذا الرشيم كائن حي، كائن حي بكل معاني الكلمة الدقيقة فالنملة تأكل هذا الرشيم لئلا تنبت القمحة.

بعض البذور لها رشيمان كالعدس، النملة تأكل الرشيمين معا لئلا تنبت، فالرشيم كائن حي، فيه حياة، معه محفظة غذاء مع خطة مبرمجة، فلمجرد أن تأتي الرطوبة والدفء والضوء ينبت الرشيم ويستهلك من مخزون البذرة، ومخزون البذرة يشكل له جذيراً و سويقاً، الجذير فيه خاصية مص الغذاء من التربة بعد أن تنتهي المحفظة.

وظيفة المعادن في النبات:

ائت ببذرة فاصولياء ضعها في قطن مبلل وبعد بضعة أيام تنبت فإذا مَسَكْتَ البذرة تجدها فارغة وتكون المادة النشوية قد اُسْتُهْلِكَتْ في إنبات الرشيم وإنبات الجذر، هذا النبات يتجه نحو الضوء ونحو الأعلى ثم تأتي العمليات المعقدة، النبات يمتص ثمانية عشر معدناً في التربة، هذه المعادن على أنواع، لدينا معدن وملح معدن، جعل الله عز وجل المعادن تتأكسد بالأوكسجين، تأكسدها يجعلها أملاحاً، ويمكن للأملاح أن تذوب في الماء، فأملاح المعادن تذوب في الماء، فإذا ذابت صار هذا المائع الذي تمتصه الجذور ثمانية عشر معدناً مودعة في التربة، أحياناً تجد أن النبات قد اصفر يقول لك الفني فيه نقص حديد، النبات نما نمواً خضرياً على حساب النمو الثمري يقول لك فيه نقص بوتاس.

فالخبراء يقدمون معلومات مدهشة، فيه بوتاس، فيه منغنيز، فيه آزوت، فيه حديد، هذا كله موجود في التربة والماء يذيب أملاح هذه المعادن ويأتي هذا الجذر الذي تنتهي رؤوسه بكرة اسمها القلنسوة، هذه القلنسوة تفرز مادة تذيب الصخر، ألا ترى شجرة نبتت في جبل ؟ تتسلل فروع جذرها بين الصخور، فالقلنسوة مجهزة بمادة تذيب الصخر من أجل أن تصل إلى الماء.

تصميم أوعية النبات الصاعدة بمقويات حلزونية لوصول الماء للأعلى:

هناك أشجار جذورها تزيد عن ثلاثين متراً، وإن كان الماء بجهة اليمين تتجه الجذور إلى جهة اليمين وكأنها كائنات عاقلة، وإن كان الماء نحو اليسار تتجه نحو اليسار، وإذا كان الماء سطحياً تفرش دائرة سطحية وإذا كان الماء عميقاً تغوص في أعماق التربة ثلاثين متراً لتأخذ الماء وقد أذيبت فيه أملاح المعادن، الآن هذا النسغ الصاعد يصعد نحو الأعلى، كيف ؟ النسغ سائل والسائل متغير الشكل ثابت الحجم كما تعلمون فما الذي جعله يصعد خلاف الجاذبية، هل بإمكانك أن تجعل الماء يصعد نحو الأعلى إلا بمضخة ؟ أما من دون مضخة كيف ؟ هذه خاصة شعرية ! هذه الخاصة رائعة جداً تجعل الماء يتحرك نحو الأعلى على خلاف مبدأ الجاذبية، وقد تجد شجر الحور مثلاً ارتفاعه ثلاثون متراً، ومع هذا آخر ورقة في الأعلى متألقة، خَضَارُها رائع، من أين جاء الخَضَار ؟ من الماء الذي تمتصه من أعماق التربة، فإذا كان العمق ثلاثين والارتفاع ثلاثين فهذا يعني أن هنالك حركة نحو الأعلى ستين متراً خلاف الجاذبية.

و قد ينمو هذا النبات عرْضَاً، وإذا نما عَرْضَاً ربما ضغط على الأوعية التي تحمل هذا النسغ الصاعد، ما الحل ؟ هذه الأوعية مقواة بألياف حلزونية لو ضغطت على جوانبها، لا تضيق لمعتها، من صمم هذه الأوعية بهذه الطريقة ؟ إذا وجد بمركبة الإنسان أنبوب منثني فينقطع الماء أثناء انثنائه يقوى براصور

داخلي لئلا ينثني وتضيق لمعة الأنبوب فربنا سبحانه وتعالى صمم هذه الأوعية الصاعدة بمقويات حلزونية ليفية لئلا تضيق لمعتها فينقطع وصول الماء إلى الأعلى.

حكمة الله من استهلاك النبات أولاً لماء الأغصان الأقل نمواً:

الآن لو أن البستاني نسي أن يسقي هذه الشجرة، يجب أن تموت فوراً، لكن حكمة الله الرائعة جعلت أن هذه الشجرة لا تستهلك من الماء إلا ماء أقل الأغصان نمواً، ثم تستهلك ماء الفروع، ثم تستهلك ماء الجذع، ثم تستهلك ماء الجذر، فآخر ماء تستهلكه هو ماء الجذر والمنطقي يجب أن تستهلك الشجرة أول ماء هو ماء الجذر ! إذاً من الذي عكس الآية ؟ جعل الماء المستهلك هو أبعد مكان عن الجذر، بالأطراف، لأن الماء إذا اُستُهلِك في أطراف الشجرة ذبلت أوراقها فخاطبت صاحبها: إنني عطشى، يمدها بالماء، أما لو أن هذا النبات استهلك الماء القريب منه، ماء الجذر، لماتت الأشجار كلها إذا نسيها أصحابها يوماً أو يومين، أحياناً يسافر إلى الحج ينساها أشهراً تبقى الشجرة قائمة على حالها، هذا النبات ظاهرة.

حاجة الإنسان إلى النبات أساسية في الدنيا:

إخوانا الكرام: الشيء المحير هو أنه لا يوجد شيء من خَلَق الله يدور مع الإنسان حيث دار كالنبات، فالإنسان بحاجة إلى غذاء، غذاؤه من النبات، بحاجة إلى كساء، كساؤه من النبات، بحاجة إلى ما يُمْتِعُ عينه وأنفه، فالورود كلها نباتات، بحاجة إلى صناعات، الأخشاب التي هي أساس الصناعات نباتات، من صمم الخشب ؟ لنا أخ كريم يعمل في الميكانيك، فمعمل من المعامل اشترى اثني عشر آلة نسيج من أرقى الشركات وثُبِّتَتْ هذه الآلات على أرض المعمل بالإسمنت المسلح ثم شُغِّلَتْ الآلات، هناك قَطْعٌ في الخيطان في كل الآلات، بحثوا عن كل خبير إلى أن عثروا على هذا الخبير، ماذا فعل ؟ وضع تحت كل آلة قطعة من خشب التوت، لأن هذا الخشب ذو ألياف متينة ومرنة، فإذا وصل المكوك إلى طرف الآلة وضرب طرفها فخشب التوت يمتص هذه الصدمة ولا يقطع الخيط، فالتوت له وظيفة وخشب الزان له وظيفة والخشب الكندي له وظيفة والشوح له وظيفة ولو سألت إخوتنا النجارين لأفادوك بمعلومات تفصيلية كثيرة جداً.

أنواع الخشب:

للخشب وحده أنواع منوعة تزيد عن مئة نوع وكل نوع له استعمال ينفرد به، هذا الخشب. أنت بحاجة إلى طعام يأتيك من النبات، بحاجة إلى كساء يأتيك من النبات، بحاجة إلى ليفة تنظف بها جسمك، الليفة نبات، له وجهان خشن وناعم فالخشن له خشن والناعم له ناعم، بحاجة إلى شيء تنظف به أسنانك فخلق السواك، بحاجة إلى أن تنظف ما بين الأسنان فخلق الخُلّة، أنت بحاجة إلى نبات تزييني، خلق لك نباتات تزيينية، أنت بحاجة إلى نبات يكون كالمظلة، بحاجة إلى ورق، إذا تأملت نبات البردي تشعر مئة بالمئة أن الله ما خلقه إلا ليكون ورقاً، ورق كتابة، إلى جانب الأهرامات مؤسسات سياحية تصنع أمامك ورق البردي، يُوتى بالنبات ويُنقع بالماء، ويُضغط ليصبح ورقاً، فهذا النبات مصمم ليكون ورقاً. وهذه الشجرة مصممة لتكون ظلاً، ويوجد نبات مصمم ليكون غذاء للحيوانات، يحصد عشرات المرات، تحصد البرسيم كله، ينمو مرة ثانية ! تحصده، ينمو مرة ثالثة.

تنوع النبات بتنوع احتياجات الإنسان إليه:

أنت بحاجة إلى مسطح أخضر تُمَتِّعُ عينك به، خلق الله نباتاً ليس له أية وظيفة سوى أن يمتع عينك باللون الأخضر، هذا المرج، نوع ينبت في الصيف وآخر في الشتاء والثالث قي الربيع والرابع في الخريف، الآن يباع من هذا المرج الخلطات الرباعية من أجل أن ترى المرج أخضراً طوال العام، وإذا رأيته أخضراً طوال العام هنالك مغالطة، أنت ترى ربعه الذي ينمو في الفصل الذي أنت فيه، أنت بحاجة إلى ورود.

عدد أنواع الورود لا يعد ولا يحصى، أنواع النباتات التي تعيش في البيوت بالمئات، بعشرات المئات، أنواع الأبصال بعشرات الألوف، أنواع الأزهار، هذا نبات، لون ورائحة وألوان وجمال، من صمم هذا النبات ؟ أنت بحاجة إلى نبات يكون مادة مرنة، التعامل مع الأشياء المتينة القاسية صعب جداً، تحتاج إلى بلور في السيارة مركب على حديد لابد من مادة مطاطية، هناك نبات ينتج المطاط، تحتاج إلى عجلة (مادة مرنة بلا صوت وتمتص الصدمات وتتماسك مع الأرض)، تحتاج إلى مادة مطاطية، نبات يقدم لك هذه المادة المطاطية، تحتاج إلى مادة عازلة، الفلين نبات، تحتاج إلى أواني، هناك نبات يقدم لك الأواني كأنها أواني نحاسية، أواني كروية وأواني مستطيلة، تحتاج إلى أن تسبح الله، هناك نبات ثماره كرات مثقوبة.

شيء لا يصدق !! تحتاج إلى دواء يوجد دواء نبات، تحتاج إلى أصبغة الأصبغة نبات، الأدوية نبات، والروائح العطرة نباتات كلها:هذا عطر الياسمين، هذا عطر النرجس.

آية النبات لوحدها من أكبر الآيات الدالة على عظمة الله:

الطعام يمكن أن تأكل من جذر النبات: الجزر، البطاطا... يمكن أن تأكل ساق النبات، يمكن أن تأكل أوراقه: الملفوف، يمكن أن تأكل أزهاره: الزهرة، يمكن أن تأكل ثماره، يعني آية النبات لوحدها تعد من أكبر الآيات الدالة على عظمة الله.

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ)

ماذا فعل الفلاح ؟ ألقى هذه الحبة وانتهى الأمر وسقاها فقط، أما مَنْ نما الرشيم ؟ مَنْ أمد هذا الرشيم بالغذاء ؟ من أنبت لهذا الرشيم الجذور ؟ مَنْ جعل لهذه المعادن أملاحاً تتأكسد بالأوكسجين تصبح أملاحاً تذوب في الماء، أي يوجد بجسمك حديد يصنع بسماراً، ولكن ليس معدن الحديد بل أملاح الحديد، فأنت عندما تأكل تفاحة تقطعها وتدعها على الطاولة نصف ساعة، تسود ! لماذا اسودت ؟ لأن حديد التفاحة تأكسد مع الأوكسجين، تشرب حليباً، فيه كالسيوم، كلس مذاب في الحليب، موضوع النبات شيء لا يصدق، ظاهرة النبات لوحدها يمكن أن تعد أكبر دليل على وجود الله وعلى عظمته وعلى كماله.

علامات النبات:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ)

النبات له علامات: فما الذي يعلمك أن هذا العنب قد نضج ؟ كان أخضراً صار أصفراً، وما الذي يعلمك بأن هذا الحقل من البندورة أصبح ناضجاً ؟ كان أخضراً وأصبح أحمراً، العلامات قد تكون اللون وقد تكون الحجم وقد تكون الرائحة، القوام، ولحكمة بالغة بالغة جعل الله عز وجل البطيخ الأخضر ليس له علامات إطلاقاً يدل على نضجه، لا حجماً ولا لوناً، فالبطيخة التي بداخلها لون أبيض صرف خضراء، والبطيخة الناضجة التي بداخلها لون أحمر قان خضراء، فكيف يستطيع زارع البطيخ أن يجني الثمار الناضجة ؟ و لو أن حقول البطيخ نضجت في يوم واحد ماذا نفعل بالبطيخ ؟ لابد من أن نأكله على مدى ثلاثة أشهر، إذاً ينضج تباعاً.

نضوج النبات المتدرج أية عظيمة من أيات الله:

النضوج المتدرج آية من آيات الله، آية ضخمة، فأنت إذا أتيت بوعاء فيه زيت وغليته وألق فيه البطاطا، فمادامت الظروف متشابهة فالنضج متشابه، بعد دقائق ينضج الجميع، أما هل من الممكن أن

تلقي كمية بطاطا في مقلاية زيت وكل عشر دقائق ينضج قسم ؟ على مدى خمس ساعات ؟ مستحيلة ! أما الأرض فهي تربة واحدة، الأمطار واحدة، الحر واحد، البرد واحد، تجد النُضْجَ على مدى ثلاثة أشهر، كيف يكشف الفلاح أن هذه البطيخة قد نضجت ؟ لها حلزون في أعلاها فالفلاح يمسك الحلزون ويضغطه، إذا انكسر تكون قد نضجت، بقي طرياً تكون غير ناضجة، قال الله:

(وَعَلَامَاتٍ)

(سورة النحل: الآية 16)

الحكمة من نضج المحاصيل في يوم واحد والفواكه تباعاً:

ما من ثمرة إلا وجعل الله لها علامة، العنب محمول وإذا أردت أن تقطف العنب نحو الأسفل انعصر بين يديك ولم ينقطف، من أمتن الأغصان غصن العنب، أما عكس ذلك بسهولة يُقْطف، من صممه بهذا التصميم ؟ مَنْ برمج الفواكه تنضج تباعاً ؟ في الأول العوجة، ثم الكرز، بعدها الأجاص يليه الدراق بعد ذلك التفاح.

لو كانت كلها تنضج في وقت واحد، تفقد ثمنها، تنضج تباعاً، أما المحاصيل فتنضج في يوم واحد كالقمح والعدس والحمص، فلو كانت تنضج تباعاً يصبح الحصاد انتحاراً، تبحث في السنبلة واحدة واحدة وتترك التي لم تنضج وتقطع الناضجة، مستحيلة، انظر المحاصيل تنضج في يوم واحد أما الفواكه والثمار والخضراوات تنضج تباعاً.

إذاً هذا النبات مَنْ صممه ؟ الإله العظيم، الحكيم، الخلاّق، العليم، الخبير، هو مَنْ صممه.

تناسب حجم النبات ولونه وشكله ورائحته مع حجم الإنسان:

لندقق في هذه النقطة: تفاحة مثلاً فيها غِذاء متناسب مع جسمك، تحتاج إلى مادة سكرية أحادية سريعة الامتصاص، في التفاح موجودة، تحتاج إلى حديد (هيموغلوبين الدم)، في التفاح موجود، أنت بحاجة لمعادن، في التفاح موجودة، فالمواد التي تتكون منها التفاحة متناسبة مئة بالمئة مع جسمك، لو كان قوامه كقوام الصخر تحتاج إلى مكسرة، بينما قوامه يتناسب مع أسنانك، وحجمه متناسب، هل من المعقول التفاحة كحجم البطيخة ؟ تَقْسِمَها فَتَسْوَدْ، فلا تعود تؤكل، فالحجم واللون والقوام والشكل والرائحة، وهي مُشّهية ولها غلاف مجلتن، هذا الغلاف (القشرة) مادة حافظة.

التفكر في الظاهرة النباتية:

هنالك أشياء مدهشة بالفواكه، البطيخ مثلاً 97 بالمئة ماء، أنت هل بإمكانك أن تجمد ماء من دون براد؟ البطيخ ماء مجمد، ماء مجمد بأوعية هشة فإذا عصرت البطيخ 97 بالمئة ماء صرف، و 3 بالمئة مواد سكرية ومُنَكِّهة والبطيخ لو كان غلافه هشاً كان كله يتلف وهو في الطريق، تجد السيارة تحمل 5خمسة طن بطيخ والتي موجودة في الأسفل تحمل الجميع، شكلها مع قشرتها شيء رائع جداً.

انظر في الفواكه والثمار، الموز ثمرة تفيد الصغار تقشيرها سهل، الصبارة ليست كالموز تقشيرها أصعب بكثير، يوجد شيء له بذر كبير كالمنجا، وأشياء بذرها صغير، وأشياء بلا بذر، أي ما يخطر في بالك موجود ما يشبهه في الطبيعة، تحتاج أن تضع في الكاتو زبيب، يوجد نوع من الزبيب ليس له بذر، تجد نوع من الفاكهة ثلاثمئة شكل، لدينا مجمع بحوث زراعية في دوما لديه ثلاثمئة نوع من العنب هذه الفاكهة شيء للتصدير قوامها متين، شيء للعصير وشيء للاستهلاك وشيء للمائدة وشيء للطبخ، أنواع، لا يوجد فاكهة أو إنتاج زراعي إلا وله أنواع منوعة، هذه نسيجها اللحمي كثيف للمائدة، ماؤها كثيف للعصير، قوامها صلب للتصدير، أنواع منوعة فالظاهرة النباتية أيها الأخوة موضوع للتفكر، أنت أثناء أكلك، فَكِّرْ تتعرف إلى الله، تدخل عليه من باب عريض، وتصل إليه بطريق قصير، كل شيء أمامك.

خلق الله ينبغي على الإنسان أن يعرفه:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس: الآية 24)

أمر إلهي كأمر الصلاة.

(أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً)

(سورة عبس: الآية 25)

العنب، البرتقالة لو كانت كلها قوام واحد تقسمها نصفين اثنين، والثاني قسمها نصفين، تأكلها جزءاً جزءاً، وإذا تلوثت يداك لها محارم منها وفيها، مواد منعشة قشر البرتقال والقشر يصبح مرملاد مِنْ أرقى أنواع المرملاد، هذا خَلْقُ الله ينبغي أن نعرفه، ظاهرة النبات وحدها تلفت النظر، تأخذ بالألباب.

دور الإنسان في النبات شكلي جداً:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)

أنت ماذا فعلت ؟ من باب الدعابة يقول لك: أنشأت مصنعاً لتعبئة المياه، ماذا فعلت أنت ؟ وضعت القارورة تحت الصنبور ثم أغلقتها، دور الإنسان شكلي جداً، حرثت الأرض وسمدتها وألقيت فيها الحبة وانتهى الأمر، أنت نائم، مَنْ فَعَلَ فِعْلَ الخَلْق في هذه البذرة ؟ الله جل جلاله، الإنسان غافل وجاهل ؛ والغفلة والجهل لا يولدان عملاً ذكياً رائعاً، ويقول لك هذه البذرة بذرة مشمش كلابي، والثانية مشمش فرنسي، والثالثة بلدية، العجمي كم نوع ؟ العجمي له طعم وله خصائص، الكلابي له خصائص، البلدي له خصائص، كله مشمش ولكن كل واحد بطعمة.

البندورة فيها نوع حامضي ذو نكهة جميلة جداً، ونوع ذو نكهة حلوة، أنواع منوعة.

رزق الله للإنسان لا يقدر بثمن:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ)

من هذه النباتات:

(أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزّارِعُونَ)

أنت حينما تشتري كيلو تفاح تكون قد دفعت ثمن خدمته فقط، أما هو بلا ثمن، هو بلا ثمن إطلاقاً، هو مِنْ رِزْق الله عز وجل.

مرة ثانية: المحاضرة اليوم في جامع صلاح الدين حول آيات الله عز وجل الدالة على خلقه، ولكن تستطيع تمضية شهر وشهرين وأكثر في ظاهرة النبات وحدها، في آية كريمة حول النبات بسورة المائدة على الأغلب نبات كُلِّ شي، كل حاجات الإنسان النبات يغطي هذه الحاجات بَدْءاً من المأوى.

النبات من أكبر الموضوعات الدالة على الله وجوداً وكمالاً ووحدانية:

البيوت كلها بالدول الغربية من الخشب، الخشب أرقى مادة للبيوت، عزل ودفء وبرودة، شيء رائع جداً، ادخل لغرفة كلها خشب فالجلوس فيها ممتع جداً، فالخشب للسكن و للأثاث.

خشب البيوت من خشب الزان تجده معمِّر مئات السنين، يقول لك هذا من عهد لويس الثالث عشر، خشب زان، خشب النوافذ يقاوم الهواء والبرد، خشب الاستعمال الصناعي سهل لين، وتنجيره سهل، لكن على الإنسان أن يفكر

أيها الأخوة، أنا لم أقدم سوى نماذج مبسطة لطرائق التفكر في الله عز وجل وفي آيات الله الدالة على عظمته. على كلٍّ يمكن أن تُعَدّ ظاهرة النبات وحدها من أكبر الظواهر الدالة على عظمة الله، لا يوجد واحد منا إلا في بيته طعام مهما كان خشناً، ألا يوجد خسِّة، فكر في الخس (أوراق)، فكِّر في بعض

الخضراوات والفواكه (خصائصها)، هذا شيء يأخذ بالألباب، فيمكن أن يعد موضوع النبات من أكبر الموضوعات الدالة على الله: وجوداً وكمالاً ووحدانيةً.

للنبات حياة نفسية خاصة به:

الله عز وجل جعل هذا النبات بين أيدينا، كائن حي،هنالك بحوث حديثة جداً تشير إلى أن النبات له حياة نفسية، أجريت تجربة نادرة جداً، هناك جهازٌ لكشف الكذب أساسه التعرق، عندما يكذب الإنسان يفرز جلده عرقاً بارداً، هناك أجهزة تحسس بالغة الدقة توضع على مِعْصم الإنسان ويُسأل فإذا كذب تحرك المؤشر،وُضِعَ هذا الجهاز على نبات وجاء إنسان ومزق نباتاً آخر أمام هذا النبات تحرك الجهاز، تألم، الأغرب من ذلك، بعد حين جاء الشخص نفسه الذي مزق النبات وقف أمام النبات فتحرك المؤشر، هكذا قرأت في بحث علمي أن هذه التجربة بدايةٌ متواضعةٌ لإثبات أن للنبات حياة نفسية.

أما أجدادنا فيعرفون هذه الحقيقة، نبتة تعيش في بيت لا تعيش في بيت آخر، ينشأ بينها وبين صاحبها مشاركة وجدانية.

سرور الإنسان مع النباتات أنها كائنات مسبحة:

النبات كائن حي يقول لك الإنسان أنا ذهبت في نزهة وسررت، لماذا سُرّ ؟ لأنه عاش مع النبات والنباتات كائنات صافية موصولة بالله وغير مكلفة ليس لديها معاصي وآثام، أحد أسباب السرور مع النبات أنها كائنات مُسَبِّحَةٌ لقول الله عز وجل:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: الآية 44)

فالنبات مُسَبِّحْ.

عجائب النبات:

فيا أيها الأخوة: أثناء طعامك وأنت جالس في غرفة الضيوف فكِّر في النبات، يوجد نبات مصمم لِيُمْتِعَ عينيك فقط، أما لو أكلته يُمِيتُ الإنسان فهو سام، أوراقه مخططة، لو أن طفلاً أكل منها لمات فوراً، لماذا مصمم ؟ للنظر فقط.

أما اليخنة فلا تميت، مصممة للأكل، البيرق لايميت، أما هذا النبات مصمم ليمتع عينيك في البيت فقط و أما إذا أكلته فهو سام.

هناك نباتات تأكل اللحوم، نباتات تنصب فخاً أمام الحشرات فإذا وقعت فيها استهلكتها كغذاء، يوجد في النباتات عجائب لا تصدق، الشجرة التي خلقت لِيُستَفادَ من خشبها، جذورها ليفية قليلة ومجتمعة، قلعها سهل، أما الشجرة التي خلقت كي يستفاد من ثمرها جذورها بالغة الأعماق، إله حكيم، هذه زُرِعَتْ لتقطع في الأساس ليستفاد من خشبها إذاً جذورها ليفية أما الأخرى زرعت لتبقى ومن أجل أن تثمر فجذورها عميقة وتمتد في أعماق التربة، طبعاً أنا لم أذكر إلا أشياء بسيطة من النبات، هذه يمكن أن تكون نموذجاً لطرائق التفكر في خلق السماوات والأرض.

أيها الأخوة الكرام: إن شاء الله تعالى في الجمعة التي تلي العيد نتحدث عن موضوعات أخرى متعلقة بهذه الآية:

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الواقعة 056 - الدرس (4-5): تفسير الآيات 68-74

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-03-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: لازلنا في سورة الواقعة ومع الدرس الرابع من هذه السورة ومع الآية الثامنة والستين.

الحكمة من وراء هذه الأيات:

يقول الله عز وجل:

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ)

المزن هي السحاب:

(لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ)

قبل أن نتابع الحديث عن هذه الآيات لابد من وقفة متأنية تلقي ضوءاً على حكمة هذه الآيات.

أيها الأخوة: في القرآن الكريم كمٌّ كبير من آيات تتحدث عن الكون وعن النفس وعن قدرة الله وعن حكمة الله وعن صنعة الله وعن علم الله وعن خبرة الله، هذه الآيات أيها الأخوة إن لم يكن لنا موقف منها، إن لم نستجب لها، فقد خسرنا.

اتهام الإنسان بالتقصير إن قرأ آيات الكون و لم يُعمل عقله بها:

أيها الأخوة: لو أن إنساناً أصدر تعليمات، بعض هذه التعليمات لم يُطَبَّقْ، هناك احتمالان: إما أن تكون هذه التعليمات غير واقعية أو أنّ الذين أُلقِيَتْ إليهم قصروا في تطبيقها.

على كلٍّ: تقصير الإنسان في تطبيق التعليمات فيه خسارة له كبيرة، أمّا إن لم تكن واقعية يقول أنا لا أستطيع أنْ أُطَبِّقَها. إذا كان في كتاب الله كمٌّ كبير من آيات الكون، من آيات الآفاق، من آيات الأنْفُس، من إشاراتٍ إلى خَلْق الله، إلى خَلْق الله في التضاريس، في الجبال، في الوِهَاد، في السهول، في الصحارى، في البحار، في النبات، في الحيوان، في الإنسان. هذا الكمٌّ الكبير، لماذا ذكره الله في القرآن الكريم ؟ إنْ لمْ يكن لنا منه موقف، إنْ لم نتأثَّر به، إن لم نُعْمِلْ عقولنا في ثنياته ؛ فقد خسرنا. أمّا أن نقول هذه الإشارات وهذا الكمٌّ الكبير من آيات الكون لا معنى لها، أو لا جدوى منها ؛ فقد كفرنا.

بقي أنّ الإنسان مقصرٌ إذا قرأ آيات الكون ولم يُعْمِلْ عقله بها، لماذا يقول الله عز وجل :

(أفرأيتم)

أي انظروا.

ما خلق الله شيئاً إلا و كان الإنسان بحاجة إليه:

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ)

هذا الماء، الحقيقة أن هناك فكرة دقيقة، هي أنّ كلّ علوم البشر ما فعلت شيئاً إلا بالشكل أو بالمظهر، الماء: الله خلقه، خَلَقَه عذباً فراتاً، التكنولوجيا والعلم الحديث والتقدم الحضاري جرّ الماء إلى أماكن معينة، خَزّنَهُ، أساله في الأنابيب، أوصله إلى البيوت، جعله في قوارير، لو لم يكن هناك ماء، ما قيمة هذا العلم كله..؟!!

يعني إنسان يأكل من طبق الطعام مباشرة وبشكل بدائي، إنسان آخر يضع أطباقاً وملاعق و أدوات وزهور، كل هذه الأدوات، وكل هذا الكمّ الكبير من الأطباق والملاعق والأواني المنوعة، إن لم يكن هناك طعام، ما قيمتها **!؟** لا قيمة لها إطلاقاً، فالله عز وجل خلق الماء العذب الزلال، فكل ما فعله البشر أنّهم خزّنوه، وضعوه في قوارير، نقلوه إلى البيوت ؛ أمّا أنهم خلقوا ماءً عذباً فراتاً، هذا من خَلْق الله، فالذي خلقه الله الإنسان في أمسّ الحاجة إليه، وكلما تقدم العلم ازدادت حاجة الإنسان إليه.

لذلك يقولون أنّ الحرب الآن هي حرب ماء، كانت الحروب حروب بترول ثم أصبحت حروب قمح، والآن هي حرب مياه بين الدول.

ظاهرة السحاب من آيات الله الدالة على عظمته:

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ)

أي موضوع السحاب، موضوع أنّ الهواء من خصائصه أنّه يحمل بخار الماء، والماء من خصائصه أنّه على شكل سائل، وعلى شكل غاز، وعلى شكلٍ صُلب، إذا بَرّدْته أصبح صلباً، وإذا كان بين درجتين معقولتين أصبح سائلاً، فإذا غليته أصبح بخاراً، طبيعة الهواء أنّها تحمل البخار، ولكن هذه الطبيعة أنّ الهواء يحمل البخار بحسب الحرارة، فكلّما سخن الهواء ازداد تَشَبُّعُهُ ببخار الماء، فإذا قلّت حرارة الهواء تخلى عن الماء الذي يحمله، وهذا أصل المطر.

الشمس مُسَلّطَةٌ على مسطحات مائية واسعة جداً تزيد عن أربعة أخماس الكون، هذه الشمس تُبَخّرِ الماء، تقلبه من سائل إلى غاز، هذا الغاز يتخلل في الهواء، فإذا ازدادت كثافته صار سحاباً، والله

سبحانه وتعالى يسوق السحاب من مكان إلى مكان، فإذا التقى هذا السحاب بجبهة باردة، تخلى هذا الهواء المشبع ببخار الماء عن مائه وانعقد الماء على ذرات من الهباب أو الغبار، لابد من أن تنعقد عليها، وأصبح مطراً، فكأنك إذا عصرت الهواء بَرّدته وعصرته تخلى عن بعض مائه فكان المطر:

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ)

خصائص الماء:

ظاهرة الماء وحدها من أدق الظواهر الدالة على عظمة الله عز وجل، ظاهرة الماء وحدها، هذا الماء، لا لون له، لا طعم له، لا رائحة له، سريع التبخر، يتبخر بدرجة 14، هذا الماء فيه خاصة لولاها لم نكن في هذا المسجد، ولما وُجِدَتْ حياةٌ على سطح الأرض، أن الماء إذا برّدته إلى درجة +4 تنعكس الآية فبدل أن ينكمش يزداد حجمه، ومع ازدياد حجم الماء إذا بردته تبقى سطوح البحار متجمدة بينما أعماقها سائلة، لو لم تكن هذه الظاهرة كذلك لتجمدت البحار كلها حتى أعمق أعماقها ولانْعَدَمَ التبخر ولانْعَدَمَ المطر ولمات النبات، ومات الحيوان وتبعه الإنسان، مَنْ صمم هذه الظاهرة ؟ وإذا أردت أن تفهم تكتيك هذه الظاهرة، شيءٌ لا يعقل.

قرأت مرة مقالة مترجمة كيف أن الماء إذا بردتَهُ في الدرجة +4 تنعكس الخاصة فيتمدد بدل أنْ ينكمش، شيء من المدهشات ! هذه آية من آيات الله الدالة على عظمته.

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ)

على الإنسان أن يشكر الله عز وجل على نعمة الماء:

هل منا واحد إلا ويشرب عشرات الكؤوس من الماء، لماذا يقول بسم الله الرحمن الرحيم ؟ يقول بسم الله الرحمن الرحيم ليذكر أنّ هذه نعمة الله عز وجل، الله خلقها وقدّرها بحكمته وعلمه ورحمته، وليذكر أنّ هذا الماء ينبغي أنْ نشكر الله عليه وينبغي أنْ نشربه وفق السنة، قال عليه الصلاة والسلام:

((مُصُّوا الماء مصّاً ولاتعبُّوه عبّاً، فإن الكباد من العب))

(ورد في الأثر)

مرض الكبد يتأتى من عبِّ الماء عبّاً، والأمر النبوي مصُّوا الماء مصّاً والتوجيه النبوي أنْ تشربه وأنتَ قاعد، والتوجيه النبوي أنّكَ إذا شربت الماء اشربه على ثلاث دفعات، والتوجيه النبوي أنّه بين الشربتين يجب أنْ تبعد الإناء من فيك، والتوجيه النبوي ألا تشرب من إناء مسلول لأن فيه الجراثيم، فإذا قلت بسم الله الرحمن الرحيم، يعني هذا الماء صنعه الله وينبغي أن تشكره عليه، وينبغي أنْ تشربه

وفق منهج الله، كلُّ كلمةٍ أو كلُّ شيءٍ لا يبدأ بسم الله فهو أبتر، فإذا أكلت، وإذا شربت، وإذا نمت، وإذا استيقظت، وإذا تزوجت، وإذا سافرت، وإذا عملت، وإذا ألقيت درساً، وإذا عالجت مريضاً ينبغي أن تقول بسم الله الرحمن الرحيم.

لا قيمة لحياة الإنسان دون ماء:

أيها الأخوة: يقول الله عز وجل:

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ)

أنتم حفرتم الآبار، أنتم ضخَخْتُم الماء إلى الأعلى، أنتم نقلتموه في أنابيب، أنتم خزنتموه، أنتم تاجرتم فيه، بعْتُوهُ في قوارير ولكنكم أنتم أنزلتموه من المزن ؟ حينما يشاء الله أنْ تنحبس الأمطار عن بلدٍ سنين عديدة، لو أنّ أهل الأرض اجتمعوا وقرروا إنزال المطر، ما قيمة هذا القرار ؟ كلكم يعلم أنّنا قبل الشهر الأول معدل ما نزل في دمشق 30 مم، في حين أنّ معدلها السنوي أكثر من 212 مم، ماذا كنا نعمل لو استمر الجفاف حتى الآن ؟ ماذا نفعل بالينابيع التي جفّت، وبالأشجار التي يبست، وبالحيوانات التي ماتت عطشاً، ماذا نفعل ؟ ما قيمة دمشق ؟ ما قيمة أبنيتها الشاهقة ؟ ما قيمة الحياة فيها ؟

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

(سورة المُلك: الآية 30)

الله جل جلاله.

عبادة التفكر في خلق الله من أرقى العبادات:

أيها الأخوة الكرام: إن لم تفكر في هذه الآيات فقد عطلتها، وإن ادعيت أنّها لا تقدم ولا تؤخر اتهمت الله عز وجل أنّ كلامه ليس له معنى، إله عظيم يقول لك:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

(سورة الغاشية: الآية 17)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس: الآية 24)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمّ خُلِقَ)

(سورة الطارق: الآية 5)

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ)

معنى ذلك أنّ عبادة التفكر هي أرقى عبادة على الإطلاق، لأن هذه العبادة تجعلك تقدر الله حق قدره.

عبادة التفكر تجعل الإنسان يعرف الله و يقبل عليه:

قال الله عز وجل:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

(سورة الزُمر: الآية 67)

و هذا معنى أنّ:

(لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

(سورة القدر: الآية 3)

إذا قدّرت الله عز وجل وعرفته، أقبلت عليه وسعدت بقربه في الدنيا والآخرة.

فضل الله على الإنسان بأن جعل له الماء عذباً فراتاً:

(لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ)

من جعل البحار مالحة ؟ الإنسان قد يركب البحر وقد يموت عطشاً، يركب فوق أكبر كَمْ مائي في الأرض، ما معنى المحيط الهادي ؟ يعني قارة أوروبا بأكملها وآسيا بأكملها وإفريقيا بأكملها و أوقيانوسيا بأكملها وأمريكا الشمالية والجنوبية، القارات الخمس والقارتان القطب الشمالي والجنوبي، القارات السبع لا تساوي خُمْسَ الأرض وأربعة أخماس الأرض بحار، بعض الأعماق يصل إلى 12000 م (خليج ميريانا في المحيط الهادي) قد تركب البحر وقد يموت الإنسان عطشاً، فلو أنّ الله سبحانه وتعالى جعل الماء ملحاً أجاجاً شيء فوق طاقة البشر، وحتى هذه المحطات، محطات التحلية، لولا الدخل الفلكي من النفط لمَا أمكن أن تُنْفَقَ هذه الأموال الطائلة على تحلية المياه، تحلية اللتر يزيد عن ثمن لتر البنزين.

ءأنتم جعلتموه هكذا عذباً فراتاً، موضوع التقطير، هي عملية تقطير، ولكن هذا التقطير على مستوى البحار، على مستوى الأرض، شمسٌ ساطعة، بحرٌ ذو مساحات شاسعة، بخارٌ يتصاعد، بخارٌ يتجمع، سحبٌ تنتقل، احتكاكٌ بين جبهةٍ باردةٍ وجبهةٍ ساخنة، مبدأ الهواء يحمل بخار الماء، مبدأ أن هذا التحميل متعلق بالحرارة، تتبدل هذه الحرارة فينعقد الماء على بعض الذرات ويكوّن قطراتٍ هي قطرات المطر، ظاهرة المطر وظاهرة الماء.

مخزون الماء في الجبال يسيل بقدر حكيم بقدرة الخالق:

هذا البحر الكبير أُخذت منه هذه الأبخرة وأصبحت مياهاً مخزنة في آبار، الله عز وجل قال:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر: الآية 22)

تجد كل بلدة لها ينبوع يسيل على مدار العام، من جعله مخزوناً ؟ من أسَاله بشكل معقول ؟ أحياناً يتهدم السد فيقضي على كل شيء أمامه، الكم المودع في الجبال أكبر من أكبر سد في العالم، لكنه يسيل بشكل حكيم على مدار العام.

أيها الأخوة الكرام: ظاهرة الماء من الظواهر التي ينبغي أن نقف عندها، خصائص الماء، تبخر الماء، الماء لا يُضْغَط، الماء إذا توسع فتت الصخور، بل إنّ تَصَدُّع الصخور وتحويلها إلى تربة خصبة من أحد آثار الماء.

النار أساس كل أداة بين يدي الإنسان:

(لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ)

هذه النار قال علماء التاريخ **" الحضارة بدأت مع النار "**، هل من أداةٍ بين يديك مصنوعة إلا بتدخل النار ؟ سكين تستعملها لولا النار لما كانت هذه السكين، لأنّ هذه السكين أصلها حديد، والحديد أصله فلزات، والفلزات يعني ذرات حديد مع التراب، ولولا أنّ الله عز وجل جعل هذا الحديد على شكل فلزات لما أمكن أن نستفيد منها، لو جعل ربنا عز وجل الحديد صرفاً كتل في أعماق الأرض لا يستطيع إنسان استخراجها، أما جعل الحديد مع التراب، فلزات الحديد مع التراب، تنقل إلى الفرن العالي، هناك تُصْهَرُ هذه الفلزات ويؤخذ الحديد، لولا النار لما أمكنك أن ترى قطعة حديد في الأرض، إذا دققت فيما تستعمله من أدوات، اجعل هذا محور اهتمامك هذا الأسبوع، أية أداة مهما ظننت أنّها بدائية ؛ النار داخلة بها، هذا الأثاث الذي تجلس عليه ؛ كان أشجاراً، كيف صنع أثاثاً جميلاً لولا الحديد، والحديد أساسه النار.

(أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ)

تورون أي تشعلون، أورى النار أي أشعلها، تعطيك الضوء، تعطيك الدفء، تُنْضِجُ لك الطعام والطعام بلا نار لا يؤكل.

فوائد الأشجار:

(أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ)

من جعل لهذه الأشجار خاصية الاحتراق ؟ يوجد أشياء لا تحترق، وأشياء تحترق ولكن بدرجات غير معقولة، الحديد يحترق ولكن بدرجة 1500، الصخر البازلتي يصبح بخاراً إذا شئت بدرجة 3000، فوق طاقة البشر !! لكن من جعل أشياء تحترق بدرجة مئة ؟ لذلك:

(أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ)

هذه الأشجار تعطيك الفواكه والثمار، فإذا يبست أصبحت وقوداً لك. لكن في آية أخرى في سورة يس تشير إلى البترول:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)

(سورة يس: الآية 80)

كل شيء خلقه الله يمكن أن تستفيد منه الإنسان حتى آخره:

لولا العصور المطيرة في الأرض التي أنشأت نباتات عملاقة ولولا الزلازل التي جعلت هذه النباتات في باطن الأرض ومضى عليها آلاف السنين لما كان هذا الوقود السائل.

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)

إذاً هذه الطاقة التي خلقها الله عز وجل أصبحت رمزاً للعصر، يقول لك العصر عصر بترول، كل شيء يُصْنَع من البترول حتى الثياب، حتى الخيوط، أربعة أخماس أدواتنا من البترول، هذا الكم الكبير الذي أودعه الله في الأرض، صُنْعُ مَنْ ؟ مَنْ جعل تحت البترول ماءً مالحاً لئلا يغور في الأرض ؟ من جعل لهذا البترول ضغطاً غازياً كي يصعد بلا مضخات ؟ موضوع طويل لا ينتهي !.

(أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ)

يعني ربنا عز وجل لحكمة أرادها، يخلق الشيء، تنتفع به ثمراً، تنتفع به خشباً، تنتفع به رماداً، كل شيء خلقه الله عز وجل يمكن أن تستفيد منه حتى آخره.

كل كلمة ما لم يكن لها مضمون واقعي لا معنى لها:

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً)

الكلمات أيها الأخوة ما لم يكن لها مضمون واقعي لا معنى لها، لو فرضنا أنّ إنساناً لم ير البحر ولا صورة البحر إطلاقاً، لو قلت له بحر ألف مرة لا يفهم منه شيئاً، أما إذا ركب البحر ورأى أمواج

البحر، ورأى اتساع البحر، ورأى عمق البحر، ورأى ملوحة البحر، ورأى جمال البحر، ورأى شدة البحر، ورأى هياج البحر ؛ الآن إذا قلت له بحر، هذه الكلمة تثير عنده كل الخبرات، يضربون على هذا مثلاً درسناه في الجامعة: كلمة مشجب يعلق عليها كل إنسان حاجاته، فلو أنّ أستاذاً في الجامعة لم يُتَحْ له أنْ يكون أستاذاً ذا كرسي وسمع بكلمة كرسي يسبح خياله ساعات طويلة في متى يصبح أستاذاً بكرسي ؟ ولماذا لم يُتَحْ له أنْ يكون في هذا المنصب ؟ والذي في الكرسي ليس أفضل منه لا علماً ولا فهماً ولا خبرةً، كل هذه المعاني وهذه الموازنات وهذه الخواطر أثارتها كلمة كرسي، بينما يسمع هذه الكلمة إنسان يعمل في حلاقة الشعر ويحتاج إلى كرسي آخر، يخاف أن ترتفع الضريبة عليه، وألا يجد موظفاً يليق بالمحل، يسبح بخاطره ساعات طويلة في موضوع آخر، وقد يسمع هذه الكلمة إنسان مُتْعَب، يقول أتمنى كرسياً أجلس عليه، فالكلمة تثير خبرات.

إثارة آيات الجنة للإنسان عندما وصفها الله عز وجل:

لولا أنّ الله سبحانه وتعالى (دققوا الآن) جعل في الجنة جمالاً وفي الأرض جمالاً، جعل فيها جبالاً خضراء، وبحاراً زرقاء، وأطفالاً ذوي وجوه جميلة، تجد الطفل الصغير كالبدر أحياناً، لولا هذا الجمال لمَا أثارتك آيات الجنة:

(جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة البقرة: الآية 25)

فكل شيء وعدنا الله به أو عدنا منه، في الدنيا منه شيء نقيسه به، فربنا عز وجل يقول:

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً)

هذه النار لِمَنْ ؟ للعصاة. ائتِ بشمعة، ائت بعود ثقاب، اشعله وضعه على إصبعك، هل تحتمله ؟ كيف يحتمل الإنسان نار جهنم ؟

فوائد النار:

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ)

المقوين: المسافرين، الإقواء: السفر، مكان قواء: أي فارغ لا شيء فيه. فلان أصحر: أي دخل في الصحراء، أقوى: دخل في الفلاة، في المفازة، في الصحراء، فالمسافر يستمتع في النار.

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ)

ولو ذهبت أيها الأخ الكريم تعدد فوائد النار، كيف أنك تنضج عليه الطعام، وكيف أنها تشيع الدفء في المنزل، أي منزل في الشتاء بلا نار لا يحتمل، النار فاكهة الشتاء، غرفة دافئة أثناء البرد الشديد هي أثمن عندك من كل شيء، ما الذي يعطي هذه الحرارة ؟ النار إذا اشتعلت، وكذلك التدفئة المركزية أساسها نار مشتعلة، كل شيء تراه مريحاً أساسه النار، الطعام الطيب أساسه النار التي أنضجته، اللحم لا يستسيغه الإنسان إلا بعد شيّه، دقق في كل شيء تستعمله، في كل شيء تأكله، كيف أنّ النار داخلة فيه !.

حاجة الإنسان إلى النار:

(أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ)

طبعاً النار نار، أمّا في قداحات إلكترونية وفي أشياء حديثة، تطور الشكل فقط وأمّا المضمون هُوَ هُوَ، لو أشعلت النار بالطريقة البدائية، بحجر الصوان، أو باحتكاك أغصان الأشجار، أو شعلتها بآلة حديثة أو بكبسة زر، النار نار، الله خلقها، وأنت في أمس الحاجة إليها.

(أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (72) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ)

النار مصممة أن تكون كذلك، أحياناً لا تتضح الأمور للإنسان، فمثلاً يقول لك: هذا البلور اخترعه الإنسان ! جاء بالرمل وصهره فأصبح على هذا الشكل الشفاف، الجواب بالعكس، الله سبحانه وتعالى عَلِمَ بحاجتنا إلى جسم يمنع دخول الهواء ويسمح بدخول الضوء، فصمم الرمل بهذه الخواص التي يمكن أن يصنع منه هذا البلور، المرأة بحاجة إلى شيء تتزين به، جعل المحار. الأصل أنّ هذا المحار وفيه اللؤلؤ خُلِقَ خصيصاً ليكون زينة للمرأة، وهكذا ذكر القرآن، وأنت حين تفهم الأشياء على هذا النحو، هذه الأشياء مصممة خصيصاً كي تنتفع بها.

النار،الماء،الحيوان خلقوا خصيصاً تكريماً للإنسان:

الخروف مذلل وبشكل واضح خصيصاً ليكون نافعاً لك، وكذلك الجمل والبقرة أما العقرب غير مذلل، وكذلك الأفعى، الضبع، الوحوش الكاسرة، كلها غير مذللة، أما الغنم مذللة، فالإنسان حين يرى حيواناً مذللاً ؛ ينبغي أن ينتبه إلى أن هذه الخاصة في الحيوان خُلِقَت خصيصاً تكريماً للإنسان. فهذه النار خُلِقَت خصيصاً، أصل النار خُلِقَ خصيصاً، هذا الماء العذب الفرات خلق خصيصاً.

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ)

المقوين: المسافرين.

التسبيح الحقيقي أن تعاين نعم الله عز وجل و تشكره عليها:

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

معنى سبحان الله هناك من يفهمها على هذا النحو: أمسك بالسبّحة وقل سبحان الله، سبحان الله، هذا تسبيح لفظي، ولكن التسبيح الحقيقي أن تجول في نعم الله عز وجل، فكلما وصلت إلى نعمة قلت سبحان الله، سبحان الله العظيم وبحمده، سبحان الله العظيم، التسبيح الحقيقي أنْ تعاين نِعَمَ الله عز وجل، أنْ تتأملها، أنْ تشكر الله عليها، أنْ تستعظم صانعها وواهبها، أنْ تعيش في معنى الحمد والشكر، هذا هو التسبيح، التسبيح هو التمجيد والتنزيه، سبحان الله العظيم وبحمده سبحان الله العظيم:

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

أنت أحياناً ترى آية من آيات الله الدالة على عظمته بعد أن تتأملها، بعد أن تعاينها، بعد أن تحللها، بعد أن تشعر بافتقارك إليها، بعد أن ترى فضل الله عليك، نعمة الله لك، تقول وقد امتلأت إعجاباً: سبحان الله ! سبحان الله تقولها بعد تأمل، وبعد بحث ودرس:

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

على الإنسان أن يسبح ربه بعد تفكره و استعظامه لنعم الله:

الآن دققوا أيها الأخوة: متى قال الله عز وجل:

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

بعدما قال:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ)

إن رأيتم ما تمنون وعلمتم أنكم لا تخلقونه بل نحن الخالقون ثم حينما قال الله عز وجل:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)

ثم قال الله عز وجل:

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ)

ثم حينما قال الله عز وجل:

(أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ)

التسبيح أساسه التفكر في آلاء ونعم الله:

إن رأيتم ونظرتم وتفكرتم ودرستم وحللتم واستعظمتم وكبّرتم عندئذ قولوا:

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

معنى ذلك أنّ التسبيح أساسه التفكر في النعم، أساسه التفكر في آلاء الله عز وجل، في آياته الكونية والتكوينية، وفي آياته القرآنية.

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ:أية من أيات الله الدالة على عظمته:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

المسافات في الأرض مثلاً دمشق - حلب /360 كم/، دمشق - جدة /1100كم/، مثلاً دمشق - لندن /5000 كم/ يعني أبعد نقطة في الأرض /20000 كم/ لأن محيط الأرض /40000/، أما إذا دخلنا في الفضاء الخارجي من الأرض إلى القمر /360 000كم/ يقطعها الضوء في ثانية واحدة، إذا قلت ثانية فضائية تعني / 360 000 كم/، الأرض والشمس / 156 مليون كم / يقطعها الضوء في ثماني دقائق، والمجموعة الشمسية والتي هي الأرض والمريخ والمشتري وزحل ونبتون وبلوتو وعطارد والزهرة، هذه المجموعة الشمسية أقصى قطر لها /16 ساعة ضوئية/، الشمس 8 دقائق، القمر 1 ثانية.
أقرب نجم ملتهب للأرض / 4 سنوات ضوئية / معنى أربع سنوات أي لو وجِدَ طريق لهذا النجم ولديك سيارة حديثة تسير بسرعة مئة تحتاج إلى 50مليون سنة لتصل له فقط، إذاً بعد أقرب نجم ملتهب هو 4 سنوات ضوئية، أمّا أحدث مجرة /300 000 بليون سنة ضوئية /، بإحدى محطات الأخبار العالمية قبل ستة أشهر تقريباً قالوا بأن مركبة قد أرسلت وبقيت تطير في الفضاء الخارجي ست سنوات بسرعة /40 000 ميل/ ووصلت للمشتري والذي هو ضمن المجموعة الشمسية (ضمن 13 ساعة ضوئية) وعليها مرصد عملاق، هذا المرصد التقط صورة مجرة تبعد عنا /300 000 بليون سنة ضوئية/.

الكون غير محدود فكيف خالق الكون ؟

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

لو تعلمون:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: 28)

هذا الإله العظيم يعصى !؟ الذي خلق الكون وهذه بعض أبعاده، وهذه الأبعاد إلى الآن وصلنا إليها، وما أدراكم أنّ هناك مجرات تكتشف بعد حين، تبعد عنا أضعاف مضاعفة، عن أبعد مجرة اُكْتُشِفَتْ، هذا الكون غير محدود فكيف خالق الكون ؟

(وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

جواب القسم:

(إِنَّهُ لَقُرْآَنٌ كَرِيمٌ)

القرآن العظيم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

الذي خلق هذا الكون، أنزل هذا القرآن، الكون كله في كفة والقرآن في كفة.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام: الآية 1)

الكون كله:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف: الآية 1)

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآَنٌ كَرِيمٌ)

لذلك هذا كتابنا، هذا منهجنا، هذا كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذا كتابنا المقرر، هذا الكتاب الذي ينبغي أن نقرأه كل يوم، أنْ نقف عند آياته آية آية، كلمة كلمة، حرفاً حرفاً، هذا الكتاب الذي كلما زدته فكراً زادك معنىً، هذا الكتاب الذي لا غنىً فوقه، ولا غنىً دونه، هو الغنى، منهج.

وجود الإنسان لا معنى له من دون منهج يسير عليه:

كنت مرة ذكرت لو تصورنا آلة معقدة جدا قيمتها 30 مليون، يوجد الآن آلات كومبيوترية تحلل الدم بثواني، تعطيه نقطة دم يعطيك 27 تحليل دقيق بثانية ومطبوعة، لو أن هذا الجهاز ثمنه 30 مليون وهذه أسعار بعض الأجهزة الغالية واشتريت هذا الجهاز بهذا المبلغ الضخم، ولم ترسل لك الشركة كتاب تعليمات التشغيل والصيانة، أنت الآن في مشكلة، إن شغّلت هذا الجهاز الغالي جداً بلا تعليمات أصبته بالخلل، أعطبته، وإن خفت أن يصاب بالخلل لم تستعمله، جَمّدْت ثمنه، بربك أليست تعليمات الصانع لا تقل قيمة عن هذا الجهاز هذا هو القرآن الكريم، أنت من دون قرآن في شقاء، الدليل: أنّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآَنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

(سورة الرحمن: الآيات 1-4)

كيف يعلم الله الإنسان قبل أن يخلقه، هذا ليس ترتيباً زمنياً، بل هو ترتيب رتبي، يعني وجود الإنسان لا معنى له من دون منهج يسير عليه، فمثلاً هل من الممكن أن تقود طائرة بدون علم ؟ تقع رأساً، لابد من أن تكون فاهماً لدقائق الطائرة ولأسلوب قيادتها وللتصرفات المناسبة في الوقت المناسب، فالعلم أساسي في قيادة الطائرة وإلا سقوط حتمي.

القرآن الكريم قرآن نقي من كل شائبة:

يقول الله عز وجل:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآَنٌ كَرِيمٌ)

نقي من كل شائبة، تقول حجر كريم يعني ألماس، نقاء مطلق، لا يوجد كتاب من تأليف بشر إلا وفيه نقص، فيه خلل، فيه فكرة غير واضحة، فيه معالجة غير عميقة، فيه فكرة غلط، فيه فكرة بلا دليل، لكنك مع القرآن، مع كتاب خالق الكون.

(إِنَّهُ لَقُرْآَنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

قرآن كريم: نقي من كل شائبة، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه.

من أسباب فهم كتاب الله أن تكون قريباً من الله، طاهر النفس:

لو أمضينا العمر كله في قراءة القرآن وفهم آياته والعمل بها، لمَا كان لهذا من بُدّ، هذا هو المنهج، قال لكن:

(فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ)

كتاب عزيز، لأن الله عز وجل يقول:

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً)

(سورة الإسراء: الآية 82)

وهو عمىً عليهم. وذكر أنّ أولئك الذين لا يفهمون كتاب الله يُنَادَوْنَ من مكانٍ بعيد، وهذه الآية تشير إلى أنّ من أسباب فهم كتاب الله، أن تكون قريباً من الله، طاهر النفس، لأنّ هذا الكتاب:

(لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

الإنسان الذي يرتكب المنكرات لا يزيده القرآن إلا خسارة:

طبعاً المطهر هو الطاهر، وهذا اللفظ من المشترك اللفظي بمعنى أنّ الذي يقرأ في المصحف ينبغي أن يكون متوضئاً، طاهراً من الحدث الأكبر والأصغر، والمعنى يصل إلى أنّ الذي يريد أن يفهمه يجب أن يكون طاهر النفس، لأن الذي يفعل المنكرات لا يزيده القرآن إلا خسارة:

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً)

(سورة الإسراء: الآية 82)

تزداد خسارته وهو عمى عليهم، ويقرأه ولا يفهم، يُنَادى من مكانٍ بعيد.

من عوامل فهم القرآن:

1 ـ طهارة النفس:

إذاً من عوامل فهم القرآن: طهارة النفس:

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ)

محفوظاً، ليس مبتذلاً.

2 ـ القرب من الله عز وجل:

فيه آيات لا تُفهمُ إلا بقربك من الله عز وجل، فيه آيات تأخذها على ظاهرها، تقول غير معقول ! وفيه آيات أخرى تفسر بعض الآيات، وفيه آيات محكمات، وآيات متشابهات:

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)

(سورة آل عمران: الآية 7)

فيه آيات تقرؤها ولا تفهمها، وربّما فهمتها فهماً معكوساً.

المعاني في القرآن تحتاج إلى دراسة و إعمال فكر:

لذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ)

يعني محفوظ، ليس من البساطة أن تفهمه سريعاً هكذا، النص الراقي يعطيك فرصة كي تتأمله، المعاني في القرآن لا تؤخذ سريعاً، تحتاج إلى دراسة، إلى إعمال فكر، إلى طهارة نفس، إلى إخلاص، إلى إقبال، جزء من شروط فهم القرآن الكريم طهارة النفس، هذا معنى قوله تعالى:

(لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

هذه:

(لا)

لا النافية وليست لا الناهية، لو كان لا يمسَسْهُ إلا المطهرون لانصرفت إلى الوضوء فقط، أمّا لأنّ الله ينفي ولا ينهى، ينفي من أفعاله التكوينية ولكن ينهى من أوامره التكليفية، فهو ينفي أن يمسه إنسان غير طاهر، فالخبيث والفاسق والشهواني والمنحرف والوصولي، صاحب المصلحة، المتعلق في الدنيا، هذا يقرأ فلا يفهم، أما المخلص الطاهر المستقيم، الذي تحرى الحلال يقرأ فيفهم.

لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ:أية محكمة ينبغي الوقوف عندها ملياً:

(لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

أيها الأخوة: هذه الآية نحتاج إلى أن نعود إليها مرة ثانية لأنها أساسية جداً في فهم القرآن وهي من الآيات المحكمة التي ينبغي أن نقف عندها ملياً، نحن وصلنا إلى قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

ولنا عودة إلى هذه الآيات في الدرس القادم إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الواقعة 056 - الدرس (5-5): تفسير الآيات 75-96

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-03-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الخامس والأخير من سورة الواقعة ومع الآية السابعة والسبعين.

حقيقة الكون يعرفها العلماء فيطيعون خالقهم:

الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

وقد يكون من بعض معاني هذه الآية تلك المسافات الشاسعة بين النجوم:

(وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

إنما يخشى الله من عباده العلماء الذين يعلمون حقيقة الكون، هم الذين يخشون الله عز وجل ويؤمنون به ويطيعونه، جواب القسم:

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ)

الذي خلق السماوات والأرض، والذي خلق هذا الكون العظيم، هو الذي أنزل هذا القرآن الكريم. لذلك شرف الأمر من شرف الآمر، شرف الرسالة من شرف المرسل، عظمة هذا القرآن من عظمة الذي أنزله.

حفظ القرآن الكريم من الإضافة عليه أو الحذف منه:

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ)

ومعنى كريم: نقي من كل شائبة:

(فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ)

محفوظ، محفوظ من أنْ يُبَدَّل، محفوظ من أنْ يُغَيَّر، محفوظ من أنْ يُضَاف عليه، محفوظ من أنْ يحذف منه.

الله تعالى تولى بنفسه حفظ القرآن الكريم:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

(سورة الحجر: الآية 9)

الله سبحانه وتعالى تولى بذاته حفظ كتابه، فهذا الذي تقرؤونه هو نفسه الذي أُنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، وإن النبي عليه الصلاة والسلام يُؤَكِّدُ أنّ الذي أُنزل عليه هو آيةٌ مستمرة إلى يوم القيامة، هو خاتم النبيين، والآية التي أُنزلت عليه قائمة إلى يوم القيامة، كل معجزات الأنبياء وقعت وانتهت وأصبحت خبراً، يصدقه من يصدقه، ويكذبه من يكذبه، إلا القرآن الكريم، فهي المعجزة الدائمة الخالدة، وكلما تقدم العلم، كشف عن جانبٍ من إعجاز القرآن الكريم، معنى:

(فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ)

أي محفوظ، لا يمكن للشياطين أن تصل إليه، ولا يمكن لأهل الكفر أن ينالوا منه، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه.

معاني المطهرين:

1 ـ الملائكة:

(فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

بيّنت لكم في الدرس الماضي: المطهرين من معاني هذه الكلمة الملائكة، الملائكة الذين أكرمهم الله عز وجل بالإقبال عليه، هم مطهرون من كل دَنَس، بمعنى أن الشياطين لم تصل إليه، وما تنزلت به، الذين حملوا هذا الكتاب ونزلوه إلى النبي عليه الصلاة والسلام هم الملائكة المطهرون، إذاً:

(لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

هذا هو المعنى الأول.

2 ـ الأتقياء الذين تطهروا من الشرك والشك:

(لا يمسه إلا المطهرون)

أي هم الأتقياء الذين تطهروا من الشرك والشك، ولا يمسه إلا المطهرون أي هم الذين لم يكونوا مُحدثين حدثاً أصغر ولا أكبر، يعني إما أن تفسّر المطهرين بأنها طهارة البدن والثوب فالذي أحدث حدثاً أصغر أي هو غير متوضئ، لا ينبغي أن يمسه، كذلك الذي أحدث حدثاً أكبر أي هو جنب، لا ينبغي أن يمسه، كذلك الذي على ثوبه نجاسة لا ينبغي أن يمسه، هذا المعنى المادي. ثم إنّ الذي فيه شيء من الشكِّ والشرك والظلم والانحراف لا يستطيع أن يمسه، ثم إنّ الشيطان لا يستطيع أن يمسه،

الملائكة هم المطهرون وليسوا الشياطين، والتقي المنيب المستقيم الطاهر هو الذي يفهم معانيه، وليس المنحرف الفاسق الفاجر الكافر لأنه هو عمى عليهم، لأنه كما قال الله عز وجل:

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً)

(سورة الإسراء: الآية 82)

وكذلك الذي كان متوضئاً، طاهراً من الحدث الأصغر والأكبر هو الذي يمكن أن يقرأه.

تعظيم القرآن هو تعظيم لله عز وجل:

لذلك ورد في هذا الموضوع بعض الآيات الكريمة وبعض الأحاديث الشريفة، عن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقْرِئُنَا القرآنَ على كلِ حال، ما لم يكن جُنُباً. العلماء أجمعوا على أنّ الجُنُبْ لا ينبغي لا أنْ يقرأ القرآن ولا أنْ يمسّ القرآن، شيءٌ مقطوعٌ به، الجُنُبْ لا يقرأُ القرآن ولا يمسُّ القرآن، وقالَ عليٌّ رضي الله عنه وقال أبو عيسى: حديث علي رضي الله عنه حديث حسن صحيح.

لذلك قضية أنْ تقرأ القرآنَ متوضئاً أو غير متوضئ قضية خلافية، أما إذا كان الإنسان جُنُباً لا ينبغي أنْ يقرأهُ ولا ينبغي أنْ يمسّه على الإطلاق، تعظيماً له، وإجلالاً لقدره وتعظيم القرآن هو تعظيم لله عز وجل.

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

(سورة الحج: الآية 32)

المؤمن متوضئ أو غير متوضئ لا ينجس أبداً:

قال التابعون: يقرأ الرجل القرآن على غير وضوء، لك أن تقرأه غير متوضئ، تركب سيارة عامة، تمشي في الطريق، لك أن تقرأ القرآن دون أن تكون متوضئاً، ولا يقرأ في المصحف إلا من هو طاهر، لدينا القراءة غير المس، لك أن تقرأه طاهراً، متوضئاً أو غير متوضئ، أما المؤمن كما قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ حُذَيْفَةَ أَنّ النّبيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَقِيَهُ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ فَأَهْوَى إِلَيْهِ قَالَ قُلْتُ إِنّي جُنُبٌ قَالَ إِنّ الْمُؤْمِنَ لا يَنْجُسُ))

(أخرجه أحمد عن حذيفة)

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

(سورة التوبة: الآية 28)

المشرك هو نجس:

(فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

(سورة التوبة: الآية 28)

أمّا المؤمن متوضئ، غير متوضئ، جُنُب، غير جنب ؛ لا ينجس أبداً.

عدم مس الإنسان للقرآن الكريم إلا و هو طاهر تعظيماً للخالق:

لذلك العلماء والتابعون فرّقوا بين قراءة القرآن وبين مسِّهِ، لك أن تقرأ القرآن متوضئاً أو غير متوضئ، لكن ليس لك أن تمسّه إلا وأنت طاهر تعظيماً لقدره وتعظيماً لمن أنزله:

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

(سورة الحج: الآية 32)

في كتابٍ كتبه النبي صلى الله عليه وسلم لِعَمْرِو بْنِ حَزْمٍ، قال في هذا الكتاب (من جملة هذا الكتاب):

((أَنْ لا يَمَسّ الْقُرْآنَ إِلا طَاهِرٌ))

(أخرجه مالك عن عبد الله بن حزم)

المس شيء والقراءة شيء.

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ: الأحكام المتعلقة بهذه الآية:

1 ـ القرآن نقي من كل شائبة:

هذه بعض الأحكام المتعلقة بهذه الآية:

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ)

نقي من كل شائبة، مطلق !، أيُّ كتابٍ ألفه بني البشر، فيه صواب وفيه خطأ، فيه عمق وفيه سطحية، فيه صحة وفيه أغلوطة، أما كتاب الله عز وجل، لا ريب فيه، فضل كلام الله على كلام خلقه، كفضل الله على خلقه.

2 ـ القرآن الكريم كالحجر الكريم:

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ)

كالحجر الكريم، قطعة ألماس صافية صفاءً عجيباً، حينما قلدوا الألماس هذا المُقَلَّدُ ينطفئ بريقه على الاستعمال، إذاً ليس كريماً، أما الألماس حجر كريم، نقي وَهّاج، وكذلك القرآن، قرآن كريم.

(فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ)

شيء نفيس، ليس مبتذلاً، أول معنى في كتاب مكنون أنّ الله حفظه من أنْ يُبَدّل، ومن أن يغير، ومن أنْ يضاف عليه، ومن أنْ يُحذف منه، وفوق أنّه حفظه، الإنسان العاصي الفاسق الشارد المنحرف الفاجر يقرأه فلا يفهم منه شيئاً، هو عمى عليه، لا يزيده إلا ضلالاً.

من شروط فهم القرآن الكريم أن تكون قريباً من الله، وهذا تؤكده آيات كثيرة:

(أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آَذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

(سورة فُصلِت: الآية 44)

أما المؤمن يُنَادى بالقرآن من مكان قريب، فأحد أسباب فهم كتاب الله تعالى فهماً صحيحاً أن تكون قريباً من الله، وأنت الآن إذا كنت قريباً من إنسان تفهم كلامه، أمّا إذا ابتعدت عنه لا تفهم كلامه. معنى أعمق: إذا كنت قريباً في المستوى الفكري والعقلي والثقافي من إنسان تفهم أبعاد كلامه، أمّا إذا كنت بعيداً عنه لا تفهم من كلامه شيئاً، فحينما تقترب من الله في الطهارة والكمال والاستقامة والإخلاص يفتح الله على قلبك مغاليق القلب، إذاً:

(فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

لا يصل إلى القرآن الكريم إلا الملائكة وحدهم:

الملائكة وحدهم هم الذين يصلوا إليه وليس الشياطين وما تنزلت به الشياطين:

(إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ)

(سورة الشعراء: الآية 212)

شيء آخر المطهرون هم الملائكة وليسوا الشياطين، المطهرون الأتقياء لا العصاة، المطهرون من الحدث الأصغر أو الأكبر وليس الذي وقع في جنابة أو في حدث أصغر، والمطهرون كلمة قال عنها علماء الأصول إنّها من المشترك اللفظي، والمشترك اللفظي إذا ورد في كتاب الله عز وجل فالله يريد كل المعاني المحكمة له، يعني كن طاهراً طهارة بدن، كن طاهراً طهارة ثوبٍ، كن طاهراً طهارة قلبٍ، من أجل أن تقف على معانيه الدقيقة، من أجل أن تبرُقَ أمامك معانيه الرائقة.

القرآن الكريم كتاب مطلق في بيانه و كماله:

أيها الأخوة:

(لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

لماذا ؟ لأنه:

(تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

مرة ثانية وثالثة ورابعة أقول لكم، لمّا قال سيدنا سعد: ثلاثة أنا فيهن رجل وفيما سوى ذلك أنا واحد من الناس، ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً إلا علمت أنّه حقّ من الله تعالى، يقاس على هذا الكلام أنّه ينبغي للمؤمن أن يشعر أنّه مع كتابٍ لا كأيّ كتاب، مع كتابٍ من خالق الكون، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مع كتابٍ لا ريب فيه، مع كتابٍ مطلقٍ في كمالهِ، مطلقٍ في بيانهِ، مطلقٍ في إعجازهِ، مطلقٍ في تشريعهِ، مطلقٍ في أخبارهِ، مطلقٍ في آياتهِ الكونية.

(تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

أي هذا الكتاب أيها الأخوة، كتابنا المقرر، كتاب الحياة الدنيا، منهجنا، دستورنا:

(إِنّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: الآية 9)

إنْ وضعناه أمامنا سَلِمْنَا وسعدنا، وإنْ نبذناه وراء ظهورنا شقينا في الدنيا والآخرة، إنّه سرُّ سعادتنا، سرُّ سلامتنا، سرُّ تفوقنا، سرُّ انتصارنا، سرُّ قهرنا لأعدائنا.

على الإنسان ألا يداهن لأن المداهنة من صفات المنافقين:

هذا القرآن:

(تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (80) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ)

معنى مدهن من المداهنة والمداهنة: الملاينة، إنْ جعلت دهناً على شيءٍ أصبح ليناً، المداهنة هنا يعني أن تجامل الكفار، أنْ تجري معهم قليلاً، أنْ توافقهم على مقولتهم، إنْ طعنوا في هذا الدين، تقول معك الحق، كيف تقول معك الحق ؟ داهنتهم، والله سبحانه وتعالى طهّر النبي صلى الله عليه وسلم عن أنْ يداهن:

(وَدّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

(سورة القلم: الآية 9)

لم تداهن أبداً، المداهنة من صفات المنافقين، فإذا إنسان طعن في أحقية هذا الكتاب، وتملك الحجة على أنْ ترد عليه، وبقيت ساكتاً، فقد داهنته، إنسان انتقص من دينك، وتملك أنت الجواب، فَسَكَتِّ، يعني اتقاء للمشكلة، وطلباً للسلامة قد داهنته.

الحياة الدنيا لا تحتمل التقصير فكيف بخالق السماوات ؟

(أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ)

قال علماء التفسير: **" إنكم إنْ جاملتم أو إن لاينتم أعداء الدين حينما يطعنون بهذا الكتاب أو بأحقيته"**، يعني إذا قال لك شخص من الناس: إن النظام الاقتصادي في القرآن الكريم لا يكفي لمعالجة مشكلات المجتمع الحديث ؟ تجيب: والله معك حق، معنى ذلك داهنته، أنت إمّا أنْ تعلم، وإمّا ألا تعلم، إنْ لم تعلم فأنت مقصر، وإنْ علمت الجواب وسكتّ، فأنت مداهن، فالحياة لا تحتمل التقصير، هذا كتاب الله، كتاب الله بين أيدينا، كما أنّ الإنسان لا يقبل منه أنْ يكون جاهلاً، والقانون لا يحمي المغفلين، ولا جهل في القانون، قانونٌ وضعه بني البشر، لا يقبل واضع القانون أن تكون جاهلاً فيه، لا يقبل واضع القانون أنْ تكون مغفلاً، لا يحميك القانون إذا كنت مغفّلاً، فكيف بالذي خلق السماوات والأرض:

إنْ كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

* * *

الفرق بين المداراة و المداهنة:

المداهنة أحياناً من المسلمين، أي إنسان يزعم أنّ الكتاب لا يتناسب مع روح العصر، فالمسلم لو سكت، وهو لا يدري ماذا يجيبه معناه مقصِّر في العلم، وإذا كان يعلم الجواب وسكت مداهنة فيكون قد ارتكب ذنباً أكبر، لذلك إذا أردت الآخرة عليك بالعلم.

إذاً: المداهنة ليست من صفات المؤمن، لكن المؤمن يداري، والمداراة شيء والمداهنة شيء آخر، قال عليه الصلاة والسلام:

((بُعِثْتُ بمداراة الناس))

والباء هنا للاستعانة، أي أنا أستعين على هدايتهم بمداراتهم، أنا أداريهم ولا أداهنهم، أُداريهم: أبذل من دنياي من أجل دينهم ولا أداهنهم: أي لا أبذل من ديني من أجل دنياهم، إن بذلت الدين من أجل الدنيا فأنت مداهن، أمّا إذا بذلت الدنيا من أجل الدين فأنت مداري، والنبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن نداري الناس.

وقوع المسلم في معصية كبيرة إن سقط عن الحق:

رأس الحكمة بعد الإيمان بالله مداراة الناس، ابذل لهم من مالك، ابذل لهم من وقتك، ابذل لهم من خبرتك، ابذل لهم من وقت راحتك، فلعلك تأخذ بيدهم إلى الله، اصفح عنهم، لا تنتقم منهم، أُعْفُ عنهم، أعْطِهم ولا تحرمهم، صِلْهُمْ ولا تقطعهم، أنْصِفْهُمْ ولا تظلمهم، ابذل لهم من دنياك، من أجل دينهم، فأنت تتبع سنة النبي، أمّا إن بذلت من دينك من أجل دنياهم فأنت تداهنهم، وهذه كبيرة من أكبر الكبائر، لأنك إذا داهنت المنافق والفاجر شك الناس في كلامك وسقطت دعوتك، إن داهنت الكافر والمنافق وَجَّهْتَ الناس إليه وصدقوك.

إنّ الله ليغضب إذا مُدِحَ الفاسق، شيءٌ خطير، إن داهنت الفاجر، إنْ داهنت الفاسق، العاصي، إن داهنت الذين يكيدون للدين، إن داهنتهم، وأثنيت عليهم، ومدحتهم، إن صَدّقَكَ الناس ؛ أوْقعْتَهُمْ في الضلال، وإنْ كَذّبوك سقطت من أعينهم، بين مصدّقٍ لك ومُكَذِّب، الذين صدّقوك اعتقدوا عقيدة مغلوطة، والذين كذّبوك سقطت من أعينهم، لذلك لا تداهن، داري ولا تداهن.

(أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ)

أي إذا كنت قادراً على إيضاح الحقيقة وسكتّ طلباً للسلامة أنت داهنت، سكوت المسلم عن الحق يوقعه في معصية كبيرة.

أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ : من معاني هذه الآية أن :

الطعْنَ في الدين لم يكن من قبلك بل كان من قبل آخرين ووافقتهم فقد داهنتهم:

(أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ)

من معاني هذه الآية، هو أنّ الطعْنَ في الدين أو في القرآن لم يكن من قبلك، بل كان من قبل آخرين، ووافقتهم على ذلك، أو طيّبتَ كلامهم، أو هززْتَ برأسك إقراراً، أو سكتّ خوفاً ؛ فأنت قد داهنتهم وأنت لا تدري إلا إنْ كان الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر يسبب فتنة أشد من المنكر الذي تنكره لا عليك إن سكتّ، هذا حكم شرعي، فمثلاً ابن أخوك تكلم كلمةً في كتاب الله غير صحيحة، لا تبقى ساكتاً هذا ابن أخوك، أقنعه وخذ بيده، ائتِ به إلى مجلس علمٍ، اجمعه مع عالمٍ، أسمعه شريطاً، ليقرأ كتاباً، فإذا وضّحْتَ الحقيقة لمن تمون عليه، لمن تثق به، لمن لك كلمة عنده، هذا واجب، أمّا لو أنّك أنكرت منكراً نتج عنه فتنة أشد من المنكر الذي تنكره عندئذ أنت معذور، عندئذ تقول اللهم هذا منكر لا أرضى به والقاعدة التي تقول: لا يقبل الله منك أن تنكر منكراً بلسانك وأنت قادر على أنْ تنكره بيدك، كما أنّ

الله سبحانه وتعالى لا يقبل منك أنْ تنكر منكراً بقلبك وأنت قادر على أنْ تنكره بلسانك، هذا على موضوع ودُّوا لو تدهنوا فيدهنون.

الرزق سبب الشكر:

(أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (81) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)

أيها الأخوة: هذه آية دقيقة يجب أنْ نقف عندها قليلاً، تجعلون رزقكم أنَّكم تكذبون، الرزق مطلق العطاء: الله عز وجل يعطي، يعطي الصحة هذا رزق، يعطي العقل في الرأس هذا رزق، المجنون محروم العقل، يعطي الحركة هذا رزق، يوجد إنسان مشلول يعطي البصر، يوجد إنسان أعمى، يعطي السمع، يوجد إنسان أصم، يعطي الحكمة يوجد إنسان أحمق، يعطي الزوجة يوجد إنسان لا زوجة له، يعطي الأولاد رزق، يعطي الطمأنينة، يعطي السكينة، يعطي السعادة، يعطي الرضا، يعطي الجنة، الرزق مطلق العطاء، الرزق سببه الشكر، الدليل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة النساء: الآية 147)

حرمان الإنسان من نعم الله إن كذب به:

هذا الكون الذي سخره الله لك تسخيرين اثنين، تسخير تعريف من أجل أن تؤمن، وتسخير تكريم من أجل أن تشكر، إنَّك إنْ آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك، إنَّك إنْ آمنت وشكرت كان إيمانك وشكرك سبباً في كل خير، في الخير المطلق، في الدنيا أنت في خير، وفي سلام، وفي طمأنينة، وفي سعادة، وفي رضا، وفي رقي، وفي تألُّق، وفي فوز، وفي نجاح، فإذا جاء الأجل انقلبت إلى جنة عرضها السماوات والأرض، اتصلت نِعَمُ الدنيا بنعَم الآخرة، هذا الرزق الكريم سببه الشكر، أمّا الذي يكذب بوجود الله، يكذب بأسمائه الحسنى، يكذب بوحدانيته، يكذب عدالته، يكذب رحمته، يكذب منهجه، مطلق التكذيب، أي هو حرم نفسه كل عطاء بسبب هذا التكذيب.

مثلاً: جامعة لك أن تدخلها مجاناً وأنْ تنال وأنت طالبٌ فيها مرتباً خيالياً، وأنْ تتلقى مسكناً فخماً، ومركبة فارهة، ومنصباً رفيعاً، ودرجةً علمية، كلُّ هذا إذا اعترفت بوجود هذه الجامعة ودخلت إلى رحابها، وتلقيت العلم فيها، فكانت هذه الجامعة مثلاً سبب سعادتك كلها في الدنيا، أمّا إذا أنكرت أن تكون هذه الجامعة معطاءة، أنكرت أنْ يكون فيها علم، أنكرت أن ينال فيها الإنسان ثمرةً، إنكارك لهذا العطاء منعك من نيله، الكافر مسكين، هو في الأصل خُلِقَ ليرحمه الله، نصيبه من الله أنَّه كذب بالله،

كذّب بوجوده (الإلحاد) أو كذب بأسمائه، أو كذب برحمته، أو بعدالته، أو بمنهجه، أو كذب برسوله، أو كذب بأحقية كتابه، أو كذب بالآخرة، أو كذّب بقضائه وقدره، وتجعلون نصيبكم من الله أنّكم كذّبتم به، أي حرمتم أنفسكم نصيبكم العظيم لأنكم كذّبتم به.

أطيب ما في الدنيا معرفة الله عز وجل:

أيها الأخوة: مسكين هذا الذي جاء الدنيا وغادرها ولم يذق أطيب ما فيها، إنّها معرفة الله، مسكين هذا الذي أتى إلى الدنيا وغادرها ولم يتعرف إلى أولياء الله، لم يتعرف إلى منهج الله، لم يتعرف إلى سعادة سببها الاتصال بالله، لم يتعرف إلى أجمل ما في الحياة الدنيا: العمل الصالح، لم يتعرف إلى سرّ وجوده، لم يتعرف إلى غاية وجوده:

(وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)

ابن عباس رضي الله عنه قال: تجعلون رزقكم أي شكركم، أي بدل أن تشكروا فيأتيكم الرزق من كل جانب، كذبتم وكفرتم فحرمتم، هؤلاء في الدنيا كذبوا في هذا الدين، كذبوا هذا القرآن، كذبوا ذاك المنهج، كذبوا أحقية الدين، ماذا هم صانعون إذا جاء ملك الموت ؟

الموت مصير كل كائن حي:

الآن دققوا أيها الأخوة:

(فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ)

بلغت الحلقوم هي النفس، أي جاء ملك الموت وانسحبت النفس من الأطراف وانتقلت إلى الحلقوم قبيل النزع الأخير، أيها الأخوة هذه ساعة ما نجا منها أحدٌ على وجه الأرض، ولا الأنبياء، ساعة الموت، ساعة النزاع، والله سبحانه وتعالى قهرنا بالموت، مهما كنت عظيماً، مهما كنت قوياً، مهما كنت صحيحاً، مهما كنت عالِماً، كن في أية مكانة شئت، وفي أي مكان شئت، لابُدّ من أنْ تلقى الواحد الديان، لابُدّ من أنْ تموت، كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت:

و الليل مهما طال فلا بد من طلوع من الفجر

والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبــر

***

و كل ابن أنثى و إن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبـور جنـــازة   فاعلم بأنك بعدهـــا محمول

***

القبر هو المثوى الأخير للإنسان:

أنا والله لا أرى مانعاً من أنْ يشتري إنسان قبراً في حياته، هذا القبر في حياته يعطيه مواعظ لا حدود لها، هذا هو المصير، اذهب إليه من حينٍ إلى آخر، هنا المصير، هنا الحساب، لا زوجة، لا ولد، لا تجارة، لا مكتب، لا مقصف، لا بيت في المصيف، لا مركبة فارهة، لا شأن ولا مكانة، لا عز لا سلطان، كل مخلوق يموت، بل إنّ بعض الصالحين كانوا يضجعون في قبرهم، وهم أحياء، ويقرؤون قوله تعالى:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون: الآية 99-100)

يقول لنفسه قومي يا نفس لقد أرجعناك.

(فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ)

الإنسان يسافر ويتاجر ويؤسس شركة، يشتري بيتاً، يتزوج، ينال دكتوراه:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

(سورة العلق: الآيات 6-7)

ولكن لا مندوحة من أنْ ينزل في هذا القبر، يشتري بيتاً أربعمئة متر وآخرته 1م × 2م، يشتري بيتاً أربع طوابق و آخرته 1م × 2م، يشتري بيتاً قبو آخرته 1م × 2م، أي بيت، كبير أو صغير، عالي أو منخفض، مُلك أو أجرة، المسألة نفسها، هذا مسكن مؤقت، أمّا المثوى الأخير بباب الصغير، المثوى الأخير غير المثوى المؤقت.

على الإنسان أن يحضّر جواباً لكل سؤال قبل أن يلقى ربه:

(فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ)

أيأتي يوم لا يوجد فيه أكثر من خمسين نعوة ؟ أنا سألت أحد الأخوة الكرام يعمل في مكتب دفن الموتى، أخبرني بأنه بدمشق لوحدها أكثر من خمسين ميتة، أيمر يوم بدون نعوات جديدة، تاجر، طبيب، محامي، فقير، غني، وزير سابق، محافظ سابق، أيمر يوم لا يوجد نعوات على الجدران ؟ اعلموا أنّ ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا وسيتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، ماذا تجيب الله عز وجل إذا سألك لماذا فعلت كذا ؟

(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ)

(سورة المؤمنون: الآيات 105-108)

ماذا تقول إذا قال الله لك: لِمَ حَرَمت البنات وأعطيت الذكور ؟ لِمَ خالفتَ الشرع ؟ ماذا تقول إذا قال لك: لماذا طلقت هذه المرأة ؟ ما الذنب الذي ارتكبته بحقك ؟ لماذا شردتها وقطعتها وكسرتها ؟ لماذا اغتصبت هذا المحل التجاري وأخرجت منه شريكك ؟ ماذا تجيب ؟

بطولة المؤمن أن يفكر في الموت بكل لحظة :

(فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ)

كل بطولتنا وكل ذكائنا وكل تفوقنا وكل فلاحنا وكل نجاحنا، أن نفكر في هذه اللحظة، طبعاً نشاهد بأعيننا، من أين تبدأ ؟ من القلب، أو من الكليتين، أو من الكبد، أو من الدماغ، يقول لك خثرة بالدماغ، بدأت من هنا، أو من القلب، أو من الكليتين، أو من الكبد، أو حادث، إثر حادثٍ مؤلم.

(فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ)

هذه الساعة التي لابد منها، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارق، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، كل مخلوق يموت.

الله عز وجل قهر عباده بالموت:

(فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ)

أولاده، زوجته، إخوته، أخواته، أبناء إخوته، أبناء أخواته، أبناء أبنائه، أعمامه، أخواله، كلهم متحلقون حوله، هذا يضع يده على جبينه، وهذا يقيس حرارته، وهذا يقيس نبضه، والطبيب بينهم لا يدري ماذا يفعل:

(وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ)

قال بعض العلماء: " الله جل جلاله أقرب إليه بعلمه وقدرته "، وسبحان من قهر عباده بالموت.

مشكلة الإنسان ليس في الموت و إنما بما بعد الموت:

(فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ)

أي أكبر مصيبة تصيب الإنسان أن يموت، والله سبحانه وتعالى سمّى الموت في القرآن مصيبة، لأن الحقيقة أنت تنمو، كنت طالباً وأخذت شهادة عليا وتعينت، جمعت من رواتبك إن كفّت، اشتريت بيتاً صغيراً وسّعته وفرشته وتزوجت وأنجبت أولاد، وبسن الخامسة و الأربعين أخذت مركبة صغيرة موديل 1948، تنمو شيئاً فشيئاً، يأتي الموت يأخذ منك كل شيء في ثانية واحدة.

إذا وجد سن من ذهب يسحبونه من فمك، الحي أولى، لم يعد لك شيء، لا بيت ولا زوجة ولا ولد ولا مركبة ولا مكتبة، أبداً والكفن لا يوجد فيه جيبة، دفتر شيكات لا يوجد لتأخذه، فلذلك ربنا عز وجل يقول:

(فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

أي لو أنّ الإنسان يصنع مصيره، لينجو من الموت، ليرد مَلَكَ الموت، ليرفض أن يموت، ارفض أنْ تموت، قل أنا لا أموت، ارفض أن تموت، مهما علا الإنسان ومهما كبر، مهما قوي، مقهور بالموت، والمشكلة ما بعد الموت.

النزاع أخف مرحلة من مراحل الموت:

الحقيقة أنّ أخف مراحل الموت هو النزاع، لكن الشيء الصعب، ما بعد الموت، الحساب:

(فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

فهذا الذي يقول الإنسان الإله، بأوروبا يقولون أنّ الله خلاّق ولكن ليس فعّالاً، هم فعّالون، هم بيدهم مصير العالم.

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً)

(سورة يونس: الآية 24)

هذا الذي يزعم أنّه بيده مقاليد الأمور ويفعل ما يشاء ولا راد لحكمه، هو مشرك.

(فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

لكنكم لا تستطيعون أن ترجعوها، هذا الميت وقد فاضت روحه إلى ربها.

(فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

الذي أمضى حياته في طاعة الله، في معرفة الله، في خدمة الخلق، كان وقّافاً عند كلام الله، لم يأخذ ما ليس له، لم يستخفه الفرح في الدنيا، فيعصي ربّه، لم يفْجُر، هذا الذي طبق أمر الله عز وجل وعرفه وأقبل عليه وسعد بقربه، ووضع كل طاقاته في خدمة الحق، وقته وماله وصحته وقدرته.

(فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ)

روح: سعادة لا توصف، وريحان: نعيم لا يوصف، في جنة نعيم:

(فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ)

الإنسان أحياناً يكون في مكان جميل جداً، أمّا في انقباض، يقول لك أنا متألم ألماً لو وزع على أهل بلدٍ لكفاهم، وهو يرفل في أثواب الخز والحرير ويسكن في أجمل مكان، ويركب أجمل مركبة، وإنسان آخر هو سعيد، لكن حياته خشنة، أمّا في الآخرة روح وريحان، معنوياً ومادياً، نفسياً وجسمياً، وجنة نعيم.

أصحاب اليمين في الجنة لكن بمرتبة أدنى:

(وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ)

هذا لم يعص الله في الدنيا، لكن كان مقتصداً، نجح، مقبول، يوجد امتياز وجيد جداً و جيد و مقبول، على الحدود:

(وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ)

هذا الإنسان ناجي، في سلام، في الجنة، لكن بمرتبة أقل.

الضال من يعدّ أن الطاعات تعيق النفس عن تحقيق ذاتها:

(وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ)

كذّب بالدين، كذّب بالقرآن، قال الدين تعبير عن ضعف الإنسان أمام قوى الطبيعة:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

(سورة المدثر: الآيات 18-19)

يَعُدُّ أنّ كل الطاعات تعيق النَفْس عن تحقيق ذاتها.

أحياناً يكون طبيب نفسي درس بأوروبا، يأتيه مريض، ألكَ صاحبة ؟ يقول لا، يجيبه: عليك بصاحبة، الصحة النفسية أن يكون له صاحبة، يوجد جهل.

النار مصير أهل التكذيب و الضلال:

(فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ)

أي مكان ملتهب:

(وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ)

هذا مصير أهل التكذيب، أهل الضلال، هذا مصير أهل الفسق والفجور، هذا مصير من أصغى إلى الدنيا، وأصم أذنه عن الآخرة، هذا مصير من ارتاد دور الملاهي وترك المساجد، هذا مصير من أطلق لشهوته العنان، هذا مصير من قال أنا ربكم الأعلى، هذا مصير من طغى وبغى ونسي المبتدا والمنتهى، هذا مصير من قال إنما أوتيته على علم من عندي، كقارون، هذا مصير من آثر الدنيا على الآخرة، من آثر الشهوة على العقل، من آثر المعصية على الطاعة، من آثر سخط الله على رضوانه، هذا مصير من أرضى الناس بسخط الله، هذا مصير من قال عش لحظتك، تُقال هذه المقولة ؟ كن واقعياً، عش لحظتك، هذه الجوارح يجب أن تنتهي من الشهوات، مصيره.

(وَأَمّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضّالّينَ (92) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94) إِنّ هَذَا)

القرآن و حقيقة النار و الجنة هي عين اليقين:

هذا القرآن، أو إنّ هذه الحقائق:

(لَهُوَ حَقّ الْيَقِينِ)

عندنا علم اليقين، وعندنا عين اليقين، وعندنا حق اليقين، علم اليقين: الاستدلال، وحق اليقين أنْ يُحَقّق الاستدلال، أمّا عين اليقين أن تعاين الاستدلال، يعني دخان وراء جدار تقول لا دخان بلا نار هذا علم يقين، سِرْت وراء الجدار فرأيت النار بعينك هذا حق اليقين، اقتربت من النار فشعرت بوهجها هذا عين اليقين:

(إِنّ هَذَا لَهُوَ حَقّ الْيَقِينِ)

ماذا عليك أن تفعل ؟

العاقل من يفكر في ملكوت السماوات و الأرض:

(فَسَبّحْ بِاسْمِ رَبّكَ الْعَظِيمِ)

طبعاً أن تقول سبحان الله من التسبيح، أمّا الأعمق من ذلك أن يجول فكرك في ملكوت السماوات والأرض، أن تفكر في خلقك، في طعامك، في شرابك، في أصلك، في نهايتك، أن تفكر في كل شيء أمامك.

(فَسَبّحْ بِاسْمِ رَبّكَ الْعَظِيمِ)

هذا هو الحل، إذاً يمكن أن نلخص الآيات الأخيرة بسورة الواقعة بأنّ الإنسان لابد من أن يموت، وأنّ كل بطولته تتحقق إذا كان مهيئاً للموت.

تفاوت الناس في الاستعداد للموت:

إخوانا الكرام: لا يوجد إنسان على وجه الأرض يمكن أن ينكر بأن حدث الموت واقع، لكن الناس يتفاوتون لا في الإنكار وعدم الإنكار، لا، بل يتفاوتون في الاستعداد للموت، والموت يُسْتَعَدُّ له بالتوبة، يُسْتَعَدُّ له بالطاعة، يُسْتَعَدُّ له بطلب العلم، يُسْتَعَدُّ له بتعليم العلم، يستعد له بالدعوة إلى الله، يستعد له بإقامة الإسلام في بيتك، وفي عملك، يستعد له بالصلة بالله عز وجل.

أيها الأخوة الكرام والله الذي لا إله إلا هو أعرف رجلاً كان من مشاهير التجار، وكان على مستوىً رفيعٍ جداً في حياته، في بيته، في مركبته، في إنفاقه، في طعامه، في شرابه، في الثامنة والثلاثين أصيب بمرض عضال، في أول الأمر لم يدر حقيقة المرض، أخفى عليه الأطباء حقيقة المرض، ثم بعد حين كُشِفت له الحقيقة، مرض خبيث، حدثني ابن عمه وهو صديق لي قال لي والله تأتيه نوبات هستريا كأنّه دجاجة، يرتجف، يضطرب، يصرخ ويقول لا أريد أن أموت، حين جاءه ملك الموت وفاضت روحه يُحَدث جيرانه (في البناء أربعة طوابق) يقسم بالله العظيم أحد جيرانه وهو في الطابق الرابع صاح هذا الذي يموت صيحة ما بقي في البناء إنسان إلا وسمع صيحته، لهول الصدمة،

أكبر خسارة تصيب الإنسان أن يخسر آخرته :

لذلك الإنسان حينما يرى مكانه في النار أو حينما يرى مكانه في العذاب يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا، سنأخذ مثالاً بسيطاً: إذا باع شخص بيته، وباع مركبته، وباع معمله، وباع بيت في حاليا، وكل ثروته، اشترى بها عملة أجنبية وكانت مزورة، وسيحاسب على اقتناء هذه العملة، لم يعد عنده شيء، لم يعد يملك ولا قيمة شطيرة طعام ليأكلها، هذا الخبر في الدنيا ألاّ يصيبه بمرض عضال ؟ يوجد أشياء في الدنيا تصعق، فكيف إذا أيقن الإنسان أنّه خسر الآخرة ؛ ولم يعد يوجد شيء ؟ الإنسان أحياناً يفلِس، يعود ويغتني، يبدأ من الصفر ثانية ويستدين ويتاجر ويوفي دينه، وتعود ثروته للنمو ويصبح غنياً ثانية، أمّا إذا جاء ملك الموت والإنسان كافر، والإنسان عاصٍ، والإنسان فاسق، لهذا قال الله عز وجل:

(قُلْ إِنّ الْخَاسِرِينَ الّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزُمر: الآية 15)

أكبر خسارة أن تخسر الآخرة، فلذلك المؤمن على ضعفه، على خشونة حياته، يوجد أمل:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدّنْيَا ثُمّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص: الآيات 61)

لا يستويان.

مصير الإنسان الأبدي مرتبط بمعرفته بمنهج الله و طاعته له:

إخوانا الكرام: لا القضية هي قضية مجلس عِلْم ممتع، ولا القضية يقول لك هذا المسجد فيه روحانية، لا، القضية أخطر من ذلك، القضية مصيرك الأبدي، هذا مرتبط بمعرفتك بالله ومعرفتك منهج الله وطاعتك له، وأنْ تعرف لماذا أنت في الدنيا، أنت في الدنيا من أجل العمل الصالح.

يعني إنسان سافر إلى فرنسا ليأخذ دكتوراه، يوجد ألف موضوع يصرفه عن دراسته، أمّا إذا كان واعياً الهدف الذي جاء من أجله لا يغيب عنه ولا لحظة، يدرس، فإذا عاد بالدكتوراه إلى بلده نال خير الدنيا، بحسب مقاييس العصر، والمؤمن لا يغيب عن ذهنه لثانية واحدة لماذا هو في الدنيا ؟ فإذا تزوج فلله، تاجر لله، كسب المال لله، أنفقه لله، أعطى لله، منع لله، وصل لله، قطع لله، غضب لله، رضي لله، أبداً:

(وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى)

(سورة الليل: الآيات 19-21)

العمل الصالح أساس الجنة:

الإنسان يحتاج لأن يعرف الله، وخير البلاد مساجدها، وشرُّها أسواقها، الزم المسجد، احضر دروس العلم، تعلم، هذه الدروس هي مأدبة الله عز وجل، ماذا نقرأ ؟ كتاب الله، آيات كتاب الله، القرآن كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: مأدبة الله، أنت مدعو لوليمة، طبعاً لا يوجد طعام مادي، ولكن يوجد حقائق، هذه الحقائق تسهم في إيمانك، وفي استقامتك، وفي الحكمة التي هي أفضل شيء يكسبه الإنسان، فأنت تسعد إذا عرفت الله، والمسجد المكان المناسب لمعرفة الله، والحقائق تتراكم، بعد حين تجد نفسك تحب الحق وتكره الباطل، تجد نفسك تستقيم ولا تنحرف، تصدق ولا تكذب، تكون أميناً ولا تخون، تخلص ولا تخون، وأنت لا تشعر، فالقناعات إذا تراكمت ولّدَت السلوك الحسن، والجنة أساسها العمل الصالح.

فيا أيها الأخوة الكرام: أرجو الله سبحانه وتعالى أنْ ينفعنا بهذا القرآن الكريم، فهو ربيع القلوب، وهو حبل الله المتين، وهو الصراط المستقيم.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة الحجرات 049 - الدرس (1-6): تفسيرالآيات 1-5 1

سورة الحجرات 049 - الدرس (2-6): تفسيرالآيات 6-7 17

سورة الحجرات 049 - الدرس (3-6): تفسيرالآيات 8-10 33

سورة الحجرات 049 - الدرس (4-6): تفسيرالآية 11 50

سورة الحجرات 049 - الدرس (5-6): تفسيرالآيات 12-13 67

سورة الحجرات 049 - الدرس (6-6): تفسيرالآيات 14-18 85

سورة ق 050 - الدرس (1-3): تفسيرالآيات 1-10 103

سورة ق 050 - الدرس (2-3): تفسيرالآيات 12-29 125

سورة ق 050 - الدرس (3-3): تفسيرالآيات 30-45 146

سورة الذاريات 051 - الدرس (1-7): تفسير الآيات 1-20 168

سورة الذاريات 051 - الدرس (2-7): تفسير الآيات 15-19 192

سورة الذاريات 051 - الدرس (3-7): تفسير الآيات 20-21 213

سورة الذاريات 051 - الدرس (4-7): تفسير الآيات 22-23 232

سورة الذاريات 051 - الدرس (5-7): تفسير الآيات 24-46 248

سورة الذاريات 051 - الدرس (6-7): تفسير الآيات 47-51 266

سورة الذاريات 051 - الدرس (7-7): تفسير الآيات 50-60 279

سورة الطور 052 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1-16 294

سورة الطور 052 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 17-28 314

سورة الطور 052 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 29-49 332

سورة النجم 053 - الدرس (1-9): تفسير الآيات 1-4 351

سورة النجم 053 - الدرس (2-9): تفسير الآيات 5-18 368

سورة النجم 053 - الدرس (3-9): تفسير الآيات 19-23 386

سورة النجم 053 - الدرس (4-9): تفسير الآيات 24-28 403

سورة النجم 053 - الدرس (5-9): تفسير الآيات 29-31 420

سورة النجم 053 - الدرس (6-9): تفسير الآيات 31-38 438

سورة النجم 053 - الدرس (7-9): تفسير الآيات 39-41 455

سورة النجم 053 - الدرس (8-9): تفسير الآيات 42-49 470

سورة النجم 053 - الدرس (9-9): تفسير الآيات 50-62 487

سورة القمر 054 - الدرس (1-5): تفسير الآيات 1-8 505

سورة القمر 054 - الدرس (2-5): تفسير الآيات 9-16 521

سورة القمر 054 - الدرس (3-5): تفسير الآيات 17-32 539

سورة القمر 054 - الدرس (4-5): تفسير الآيات 33-46 557

سورة القمر 054 - الدرس (5-5): تفسير الآيات 47-55 573

سورة الرحمن 055 - الدرس (1-7): تفسير الآيات 1-9 591

سورة الرحمن 055 - الدرس (2-7): تفسير الآيات 1-8.. 607

سورة الرحمن 055 - الدرس (3-7): تفسير الآيات 10-26.. 625

سورة الرحمن 055 - الدرس (4-7): تفسير الآيات 26-30.. 643

سورة الرحمن 055 - الدرس (5-7): تفسير الآيات 31-36.. 659

سورة الرحمن 055 - الدرس (6-7): تفسير الآيات 37-45.. 678

سورة الرحمن 055 - الدرس (7-7): تفسير الآيات 46الى آخر السورة....................................... 695

سورة الواقعة 056 - الدرس (1-5): تفسير الآيات 1-40.. 711

سورة الواقعة 056 - الدرس (2-5): تفسير الآيات 41-59.. 727

سورة الواقعة 056 - الدرس (3-5): تفسير الآيات 63-67.. 742

سورة الواقعة 056 - الدرس (4-5): تفسير الآيات 68-74.. 753

سورة الواقعة 056 - الدرس (5-5): تفسير الآيات 75-96.. 768

الفهرس...785